

كتاب بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة المجلد الأول

الشيخ محمد تقي الشيخ التستري (الشوشتري)



هذا الكتاب

نشر إلكترونيًا وأخرج فنيًا برعاية وإشراف

شبكة الإمامين الحسينين (عليهما السلام) للتراث والفكر الإسلامي

بانظار أن يوفقتنا الله تعالى لتصحيح نصه وتقديمه بصورة أفضل في فرصة أخرى قريبة إن شاء الله تعالى.

كتاب بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة

المجلد الأول

الشيخ محمد تقي الشيخ التستري (الشوشتري)

الصفحة ٥

المجلد الأول

فهرس المطالب ٥

كلمة في حياة المؤلف ٩

دليل القارئ ١٣

مقدمة مؤسسة نهج البلاغة ١٥

مقدمة المؤلف ١٧

ذكر ما في شرح ابن أبي الحديد من المعاييب ٢٣

ردّ المؤلف على ابن ميثم و السيد الخوئي ٢٤

وجه تسمية الكتاب ببهج الصباغة ٤٢

شرح خطبة الرضيّ ٤٣

ما قال معاوية ردًا لمحفن في فصاحة عليّ عليه السلام ٥٩

رؤية إبراهيم المهديّ عليًا في المنام و ما جرى بينهما ٦٠

اعترافات الفصحاء بأنّ عليًا عليه السلام أفصح الناس ٦٤

حديث من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه ٧٣

نقل كلام شارح المعتزليّ في فضائله عليه السلام ٧٥

نسب الرضيّ ٩٦

ما قال ابن أبي الحديد في ردّ من نسب النهج إلى الرضيّ ٩٩

الإشارة إلى الموارد التي ذكرها المؤرخون في شجاعته عليه السلام و قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله له :
لا فتى إلا عليّ ١٠٩

الإشارة إلى طرف من زهده عليه السلام ١١١

في أنه جمعت الاضداد في صفاته عليه السلام ١١٣

الإشارة إلى كرائم كلامه عليه السلام ١٢٠

ما نقل عنه عليه السلام في معنى البلاغة ١٣١

الصفحة ٦

خطبة عمر بالجابية و إيراد القسّ عليه ١٣٥

ما قاله عليه السلام في جواب من سأله أنّ الحرب أكان بقضاء من الله و قدره ؟ ١٣٧

الفضل الأوّل في التوحيد ١٤٣

العنوان ١ من الخطبة ١ : « الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون . . . » ١٤٤

من الخطبة ٩٤ : « الحمد لله الأوّل فلا شيء قبله . . . » ١٤٤

من الخطبة ٩٢ : « فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهم . . . » ١٤٥

العنوان ٢ من الخطبة ١ : « أول الدين معرفته . . . » ١٥٦

العنوان ٣ من الخطبة ١ : « كائن لا عن حدث . . . » ١٦١

العنوان ٤ من الخطبة ٤٩ : « الحمد لله الذي بطن خفيّات الأمور . . . » ١٦٦

العنوان ٥ من الخطبة ٦٣ : « الحمد لله الذي لم يسبق له حال حالا . . . » ١٧٥

العنوان ٦ من الخطبة ٨٣ : « و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . . . » ١٨٥ العنوان ٧ من

الخطبة ٨٨ : « الحمد لله المعروف من غير رؤية . . . » ١٨٨

العنوان ٨ من الخطبة ٨٩ : « الحمد لله الذي لا يفره المنع و الجمود . . . » ١٩٧

العنوان ٩ من الخطبة ٨٩ : « و لو وهب ما تنفّست عنه معادن الجبال . . . » ٢٠٧

العنوان ١٠ من الخطبة ٨٩ : « و انظر أيّها السائل ، فما ذلك القرآن عليه . . . » ٢١٠

العنوان ١١ من الخطبة ٨٩ : « هو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام . . . » ٢١٥

العنوان ١٢ من الخطبة ٨٩ : « الذي ابتدع الخلق على غير مثال . . . » ٢٢٢

العنوان ١٣ من الخطبة ٨٩ : « فاشهد أن من شبّهك بتباين أعضاء خلقك . . . » ٢٢٥

العنوان ١٤ من الخطبة ٨٩ : « قدر ما خلق فألطف تقديره . . . » ٢٣٣

العنوان ١٥ من الخطبة ١٠٦ : « الحمد لله المتجلّي لخلقه بخلقه . . . » ٢٤١

العنوان ١٦ من الخطبة ١٠٧ : « كلّ شيء خاضع له . . . » ٢٤٥

- العنوان ١٧ من الخطبة ١٣١ : « و انقادت له الدنيا و الآخرة بازمتها . . . » ٢٥٤
 العنوان ١٨ من الخطبة ١٥٠ : « الحمد لله الدال على وجوده بخلقه . . . » ٢٥٨
 العنوان ١٩ من الخطبة ١٦١ : « الحمد لله خالق العباد . . . » ٢٦٥
 العنوان ٢٠ من الخطبة ١٧٦ : « لا يشغله شأن . . . » ٢٧٥
 العنوان ٢١ من الخطبة ١٧٠ : « الحمد لله الذي لا توارى عنه سماء سماء . . . » ٢٧٨

الصفحة ٧

- العنوان ٢٢ من الخطبة ١٩٦ : « يعلم عجيج الوحوش في الفوات . . . » ٢٧٩
 العنوان ٢٣ من الخطبة ١٧٧ : « . . . أفأعبد ما لا أرى . . . » ٢٨٣
 العنوان ٢٤ من الخطبة ١٨٣ : « الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد . . . » ٢٩١
 العنوان ٢٥ من الخطبة ١٨٤ : « ما وحده من كيّفه . . . » ٢٩٨
 العنوان ٢٦ من الخطبة ١٩٣ : « الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه . . . » ٣٣٦
 العنوان ٢٧ من الخطبة ١٥٣ : « الحمد لله الذي انحسرت الأوصاف . . . » ٣٣٨
 العنوان ٢٨ من الخطبة ١٨٩ : « الحمد لله الفاشي حمده . . . » ٣٤٢
 العنوان ٢٩ من الخطبة ١٨٠ : « الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق . . . » ٣٤٦
 العنوان ٣٠ من الخطبة ١١٠ : « هل تحسّ به إذا دخل منزلا . . . » ٣٦٨
 العنوان ٣١ من الخطبة ١٦٥ : « أيها المخلوق السوي . . . » ٣٦٩
 العنوان ٣٢ من الخطبة ١٥٨ : « أمره قضاء و حكمة . . . » ٣٧٤
 العنوان ٣٣ من الكتاب ٣١ : « و اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك . . . » ٣٧٩
 العنوان ٣٤ من الحكمة ٢٥٠ : « عرفت الله سبحانه بفسخ العزائم و حل العقود . . . » ٣٨٣
 العنوان ٣٥ الحكمة ٣٥١ : « عند تناهي الشدة تكون الفرجة . . . » ٣٨٦
 العنوان ٣٦ من الخطبة ٨١ : « الحمد لله الذي علا بحوله . . . » ٣٨٨
 العنوان ٣٧ الحكمة ١٣ : « من ضيعه الأقرب أتيج له الأبعد . . . » ٣٩٣
 العنوان ٣٨ الحكمة ٨٤ : « بقيّة السيّف أبقي عددا و أكثر ولدا . . . » ٣٩٣
 العنوان ٣٩ الحكمة ١٣٩ : « تنزل المعونة على قدر المؤونة . . . » ٣٩٦
 العنوان ٤٠ الحكمة ١٤٤ : « ينزل الصبر على قدر المصيبة . . . » ٣٩٨
 العنوان ٤١ الحكمة ١٥ : « تدلّ الامور للمقادير حتى يكون الحنف في التدبير . . . » ٤٠٠
 الحكمة ٤٥٩ : « يغلب المقدار على التقدير حتى تكون الآفة في التدبير . . . » ٤٠٠
 العنوان ٤٢ الحكمة ٧ : « أعجبوا لهذا الإنسان ينظر بشحم . . . » ٤٠٤

- العنوان ٤٣ الحكمة ٣٠٢ : « ما المبتلى الذي قد اشتدّ به البلاء بأحوج إلى الدّعاء . . . » ٤٠٩
- العنوان ٤٤ من الخطبة ١٩٧ : « إنّ الله سبحانه و تعالى لا يخفى عليه ما العباد . . . » ٤١٠
- العنوان ٤٥ الحكمة ٢٧٣ : « اعلموا علما يقينا أنّ الله لم يجعل للعبد . . . » ٤١٢
- العنوان ٤٦ الحكمة ٨٤ : « قد علم السّرائر ، و خبر الضّمائر . . . » ٤١٦
- العنوان ٤٧ من الخطبة ٩٩ : « الأوّل قبل كلّ أوّل . . . » ٤١٨

الصفحة ٨

- العنوان ٤٨ من الخطبة ١٨١ : « فعظّموا منه سبحانه ما عظم من نفسه . . . » ٤٢٠
- العنوان ٤٩ من الخطبة ١٩٣ : « و اعلموا عباد الله أنّه لم يخلقكم عبثا . . . » ٤٢٦
- العنوان ٥٠ من الخطبة ٨٩ : « و قدر الأرزاق فكثّرها و قلّلها . . . » ٤٣٣
- العنوان ٥١ من الخطبة ٨٩ : « عالم السّرّ من ضمائر المضميرين . . . » ٤٣٥
- العنوان ٥٢ الحكمة ٤٧٠ : « . . . التّوحيد أن لا تتوهّمه . . . » ٤٤٧
- العنوان ٥٣ من الخطبة ٢١٢ : « و اشهد أنّه عدل و حكم فصل » ٤٤٨
- الفصل الثاني في خلق السّماء و الأرض و الشّمس و القمر و النّجوم و العرش و الكرسي ٤٥٩
- العنوان ١ من الخطبة ١ : « ثمّ أنشأ سبحانه فتق الأجواء . . . » ٤٦١
- العنوان ٢ من الخطبة ٨٩ : « و نظم بلا تعليق رهوات فرجها . . . » ٤٧٢
- العنوان ٣ من الخطبة ٨٩ : « كبس الأرض على مور أمواج مستقلة . . . » ٤٨٩
- العنوان ٤ من الخطبة ٢٠٩ : « و كان من اقتدار جبروته . . . » ٥٠٨
- العنوان ٥ من الخطبة ١٦٩ : « اللهم ربّ السّقف المرفوع . . . » ٥١٩
- العنوان ٦ من الخطبة ١٥٨ : « فمن فرغ قلبه ، و اعمل فكره . . . » ٥٢٥
- الفصل الثالث في خلق الملائكة ٥٢٩
- العنوان ١ من الخطبة ١ : « تمّ فتق ما بين السّماوات العلى . . . » ٥٣١
- العنوان ٢ من الخطبة ٨٩ : « ثمّ خلق سبحانه لإسكان سماواته . . . » ٥٤٥
- العنوان ٣ من الخطبة ١٠٧ : « من ملائكة أسكنتهم سماواتك . . . » ٥٦٩
- العنوان الرابع في خلق آدم عليه السّلام ٥٧٣
- العنوان ١ من الخطبة ١ : « ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها . . . » ٥٧٥
- العنوان ٢ من الخطبة ٨٩ : « فلما مهدّ أرضه ، و أنفذ أمره . . . » ٥٩٤
- الفهرس الكامل لموضوعات الكتاب (لأربعة عشر مجلداً) ٥٩٩ المجلد الأوّل

الصفحة ٩

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة في حياة المؤلف

في بلدة تستر فقيه عالم و محقق بارع ، منقطع عن علائق الدنيا و زخارفها متوجها إلى الله تعالى . لقد أمضى حياته الشريفة في سبيل إرشاد الناس ، و بثّ المعارف الإسلامية إنّه والدي المعظم الحاج الشيخ محمد تقي الشيخ التستري (الشوشتري) . ولد في النجف الأشرف سنة (١٣٢٠ هـ ق) و عاش في تلك البلدة المباركة حتى السنة السابعة من عمره ، فلما أتم والده العلامة آية الله الحاج الشيخ محمد كاظم التستري دراساته العلمية الإسلامية عند أساطين العلم و نال درجة الاجتهاد ، عاد الى تستر و التحق بعد قليل والدي بأبيه المحترم مع والدته و خاله في تستر و اشتغل بتعلم القراءة و الكتابة و القرآن الكريم ، ثمّ واصل دراسته بكلّ جدّ ، فأقبل يدرس العلوم الإسلامية عند أساتذة تلك البلدة ، مثل السيّد حسين النوري و السيّد محمد علي الإمام و السيّد علي أصغر الحكيم ، ثمّ أتمّ دراساته العالية في العلوم الإسلامية عند كبار العلماء مثل السيّد محمد تقي شيخ الاسلام ، و السيّد مهدي آل طيّب و والده المعظم ، فنال درجة الاجتهاد . و في سنة (١٣١٤ هـ ش) غادر مولده تستر مع عائلته مناهضا رفع

الصفحة ١٠

الصفحة ١١

حجاب النساء ، الذي فرضه رضاشاه البهلوي على ايران ، و أقام في بلدة كربلاء المباركة و واصل دراساته العلمية الإسلامية في العتبات العاليات ، و هناك التحق بالعالم النحرير الجليل المرحوم الحاج الشيخ آقا بزرگ الطهراني و نال منه إجازة نقل الحديث . و بعد ما عزل رضاشاه عن منصبه عاد الى تستر سنة (١٣٢١ هـ ش) و أقام في تلك البلدة و اشتغل بالتدريس و التحقيق و الإرشاد و التأليف . لقد جاء بترجمة لحياته و نشاطاته العلمية العلامة النحرير الشيخ آقا بزرگ الطهراني في كتابه طبقات أعلام الشيعة ١ و هذا نصه :

هو الشيخ محمد تقي بن كاظم بن الشيخ محمد علي بن الشيخ جعفر التستري الشهير ، عالم بارع ولد في النجف (١٣٢٠ هـ ش) و نشأ بها على حب العلم و الفضيلة اللذين ورثهما عن آبائه و عن جدّه الأعلى الشيخ جعفر الغني عن الوصف ، فاشتغل على الأفاضل مجداً مجتهداً حتى برع و صنّف ،

فله :

- ١ تحقيق المسائل (شرح على الروضة البهية) ٢ .
- ٢ رسالة سهو النبي صلى الله عليه و آله ٣ .
- ٣ الرسالة المبصرة في أحوال أبي بصير ٤ .
- ٤ شرح تنقيح المقال ٥ .
- ٥ قضاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ٦ .

-
- (١) طبقات أعلام الشيعة ١ : ٦٥ .
 - (٢) هذا الكتاب شرح للمعة الدمشقية في مجلدات كثيرة ، خرج إلى الآن منها ست مجلدات .
 - (٣) طبعت هذه الرسالة في ملحق قاموس الرجال : الجزء (١١) .
 - (٤) طبعت هذه الرسالة في ملحق قاموس الرجال : الجزء (١١) .
 - (٥) طبع هذا الكتاب باسم قاموس الرجال في أربعة عشر مجلداً .
 - (٦) طبع هذا الكتاب مرّات عديدة في النجف و بيروت و قم ، و ترجمته باللغة الفارسية و سمّيته (قضاوت های علی علیه السلام) و طبعت هذه الترجمة أيضا عدّة مرّات .

الصفحة ١٢

- ٦ الأربعينيات الثلاث ١ .
 - ٧ جوامع أحوال الأئمة عليهم السلام . و انتهى . و تلوا يذكر بعض ما لم يقف عليها العلامة الطهراني ٢ .
 - ٨ بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة ، و هو هذا الكتاب الذي بين يديك ٣ .
 - ٩ الأوائل ٤ .
 - ١٠ البدائع ٥ .
 - ١١ آيات بيّنات في حقيقة بعض المنامات ٦ .
 - ١٢ الأخبار الدخيلة ٧ .
- و في الختام أهدي أطيب تحياتي إلى مؤسسة نهج البلاغة التي عنيت بتجديد طبع هذا الكتاب ، (بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة) و أرجو من الله تعالى التوفيق لهذه المؤسسة في سبيل نشر المعارف الإسلامية ، و السلام عليكم و رحمته و بركاته محمد علي شيخ ابن المؤلف ١٠ ٩ ١٣٦٧ هـ . ش

-
- (١) طبع هذا الكتاب باسم الأربعين حديثاً .
 - (٢) طبعت هذه الرسالة في ملحق قاموس الرجال : الجزء (١١) .

- (٣) طبع في أربعة عشر مجلدا .
 (٤) طبع في مطبعة جامعة طهران في مجلد واحد .
 (٥) عنيت بطبعه و نشره مكتبة الصدوق .
 (٦) عنيت بطبعه و نشره مكتبة الصدوق .
 (٧) خرج من الكتاب الى الآن أربع مجلّدات ، عنيت بنشرها مكتبة الصدوق .

الصفحة ١٣

دليل القارئ

- ١ ضمّ « بهج الصبّاعة في شرح نهج البلاغة » (٦٠) فصلا وزعت على ١٤ مجلداً حازت تلك الفصول على أسماء خاصّة بها ، و أدرجت وفقاً لهيكل ارتاه المؤلف نفسه .
 ٢ اشتمل كلّ فصل على عدد من نصوص النهج المراد شرحها ، كتبت بالغامق ، و انتظمت استناداً إلى ترابطها الموضوعي بعناوين منحت أرقاماً بارزة أعلاها تمثّل تسلسلها في الفصل ، إضافة إلى رقم خاص بين قوسين يشير إلى موقعها في النهج .
 ٣ قد تحتوي بعض العناوين على أكثر من نصّ يراد توضيحه فتشترك نصوص العنوان برقم واحد أعلاها ، و يميّز كلّ نصّ برقمه الخاص في نهج البلاغة .
 ٤ يبتدأ الشرح باقتطاع كلمات أو فقرات متتالية حسب أولويتها في النصّ غالباً و تحصر بين قوسين و تميّز بالغامق في أوّل مورد أنت به لشرحها .
 ٥ غالباً ما يكون الشرح لغويّاً أوّل الأمر ، ثمّ ينطلق منه إلى وقائع تاريخيّة و قصص أدبيّة معزّزة بأنواع الشواهد شعراً و نثراً .
 ٦ لم تحصر النصوص المنقولة من غير نهج البلاغة بين قوسين لكثرتها ، و اكتفي لتمييز أولها بذكر اسم الكتاب المأخوذة منه و يقع أوّل السطر في أحيان كثيرة بين قوسين ، و نهايتها بهامش يشير إلى استخراجها و يبدأ النصّ الآخر برأس سطر جديد .
 ٧ عندما يتمّ شرح كلّ نص من العنوان ينتقل إلى عنوان آخر يليه وفقاً لرقم تسلسله في الفصل ، فتشرح نصوصه و ينتقل إلى عنوان بعده ، و هكذا تشرح الفصول متتابعة .
 ٨ إنّ العبارات التي تقع بين خطّين ، هي عبارات اعتراضيّة توضيحيّة .
 ٩ أضيف في نهاية كلّ مجلّد فهرست للخطب و الكتب و الحكم الواردة في ذلك المجلّد .
 ١٠ و ختاماً نرجو من القراء الأعزاء إرسال ما لديهم من ملاحظات أو اقتراحات بناءة حول الكتاب . كما نعتذر عن السهو و الخطأ إن وجد .

نتمنى للجميع التسديد و الصواب ، و من الله الأجر و الثواب و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته الناشر

الصفحة ١٤

الصفحة ١٥

مقدمة مؤسسة نهج البلاغة

على مدار ألف سنة مرت من عمر هذا السفر القيم « نهج البلاغة » دون عليه أكثر من (٣٠٠) شرح و ترجمة بأساليب و محتويات علمية و أدواق متباينة ، اختلفت درجة تقبل القراء لها باختلاف تطلعاتهم و رؤاهم .

و بالرغم من تلك الشروح الكثيرة فقد بقيت امكان متلههله فيها ، تشير إلى خلوها من شرح موضوعي ، إلى أن تصدّي المرحوم العلامة آية الله الحاج الشيخ محمد تقي التستري لإحكام نسج جديد ، فشرع بكتابة شرح موضوعي نفيس باللغة العربية في (١٤) مجلدال (٦٠) موضوعا ،

فجزاه الله خير الجزاء ، و شكر مساعيه العلمية الجلييلة ، و تغمده برحمته ، و أسكنه فسيح جناته .
إن أهمية الشرح الموضوعي من منظار علمي أمر لا يقبل المناقشة ، لأن كل علم إذا لم تبحث قضاياها بهذه المنهجية فسوف تبقى النظرة الواقعية له أو لمؤلف الكتاب عائمة في أمواج من الغموض ، تلك المنهجية التي اتخذها الفقهاء الأفاضل في رصد و جمع الموارد ذات العلاقة و دراستها ، لابداء آرائهم الدقيقة في المسائل الفقهية الكثيرة .

و تأسيسا على ذلك ينبغي لمن يتطلع إلى آفاق نظر الإمام عليه السلام أن يسلك اسلوب الشرح الموضوعي، و يحتوي كل الموارد دراسة و تحليلا ، فليس من الصحيح أن نقطع كلمة أو كتابا من بين عشرات الكلمات و الكتب ، و نشيد عليها وجهة نظر المؤلف ، لأنه لا يمكن بيان كل الموارد في جملة واحدة ، بل إن تحري و تجميع الجزئيات المتقارنة و المتباينة بعين شمولية فاحصة ، و بمطالعة تحليلية دقيقة ، و تعرف لغة و ثقافة المقال و الكتاب ، تزيح ستارا كثيفا عن الحقيقة ، و تمنح دفقة اطمئنان لعرض مدروس لآراء مؤلفه .

و قد صادقت مؤسسة نهج البلاغة ضمن خطتها على مشروع لتفسير نهج البلاغة موضوعيا ، و تقرّر أن تبدأ مجاميع علمية مهمها في هذا المجال .

فشرعت نخبة من المحققين أعمالها بدقة و تنسيق متبادل ، لرصد الموضوعات عن طريق نظام

الصفحة ١٦

البطاقات التي بلغت ما يقارب (٥٠٠٠) بطاقة ، استلّ منها (٣٠٠) عنوان رئيسي و فرعي ، و بعد دراسات و بحوث متعدّدة ، و تصحيح و إكمال موارد النقص ، صدر « نهج البلاغة » المنقّح بإشراف و طبع و نشر مؤسسة نهج البلاغة .

و جدير بالذكر أنّ من المصادر المستفادّة في ذلك المشروع هي المجموعة النادرة ل « بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة » ، و إن كانت موضوعاتها منحصرة ب (٦٠) موضوعا ، إلّا أنّها تصب في إطار هدفنا العام .

لكنّ لغة تدوين هذا الكتاب هي العربية ، و مقتضيات أهداف المؤسسة ترتبط أوّلا بالذات بالرّفد الثقافي للناطقين باللّغة الفارسية ، الأمر الذي دعا إلى ترجمته .

و هنا نرى من الضرورة أن نعرب عن شكرنا لجميع الأخوة الذين ساهموا في إعداد و تنظيم و تهيئة هذه المجموعة النادرة ، و عن تقديرنا لمساعيهم المخلصة ، و تحمّلهم للمصاعب العلمية و الفنيّة باذلين وقتنا غاليا لاخراج هذا السفر على أكمل صورة ، إنّ تلك الجهود لوحدة رائعة تعبّر عن علاقتهم الوثيقة بسيد الأولياء ، و حبّهم الكبير لمولى الموحّدين عليه السّلام .

نسأل الله أن يتقبّل من الجميع هذا العمل بأحسن القبول ، و أن يكون أمير المؤمنين و إمام العارفين شفيعهم (يوم لا ينفع مال و لا بنون . إلّا من أتى الله بقلب سليم) .

و الله ولي التوفيق سيد جمال الدين دين پرور رئيس مؤسسة نهج البلاغة

الصفحة ١٧

مقدّمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين ، و الصلاة على محمّد و آله الطاهرين .
و بعد فإنّ علماء الإسلام الخاصّ منهم و العامّ ، و إن صنّفوا من الصّدّر الأوّل في كلّ فنّ إلّا أنّه لم يؤلّف أحد مثل كتاب الشريف الرضيّ هذا ، فإنّ أهميّة كلّ كتاب بمقدار فائدته ، و قيمته بقدر عائده ، و لم يبلغ بكتابه هذا بعد كتاب الله تعالى كتاب ، فإنّه تاليه في الفصاحة و البلاغة ، و في الاشتغال على كلّ نصح و حكمة ، و لقد أجاد من قال فيه :

كتاب كأنّ الله رصّع لفظه

بجوهر آيات الكتاب المنزل

حوى حكما كالدرّ ينطق صادقا

فلا فرق إلّا أنّه غير منزل

١ و يأتي في العنوان (٢٣) من الفصل الأول خبر أنّ ذعلبا لما أجابه أمير المؤمنين عليه السلام سؤاله « هل رأيت ربك ؟ » خرّ مغشيا عليه ، ثمّ قال : تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب ٢ و يأتي في خطبة المنقّين أنّ همّاما لما سمع

(١) نقل البيهقي الخوئي في ديباجة شرحه ١ : ٨٠ .

(٢) بهج الصباغة : الفصل (١) العنوان (٢٣) .

الصفحة ١٨

كلامه عليه السلام في وصف أهل التقوى صعق صعقة كانت نفسه فيها ١ .
و يأتي في العنوان (١١) من الفصل الثلاثين أنّ قوله عليه السلام : « إنّ الحق لا يعرف بالرجال » و قوله عليه السلام : « انظر الى ما قال ، و لا تنظر الى من قال » بلا قيمة ٢ .
و قال الجاحظ : أجمعوا على أنهم لم يجدوا كلمة أقلّ حرفا ، و لا أكثر ريعا ، و لا أعمّ نفعا ، و لا أحتّ على تبيين ، و لا أهجى لمن ترك التفهّم و قصر في الافهام من قول علي عليه السلام : « قيمة كل امرئ ما يحسنه » ٣ .

و قال الخليل : أحتّ كلمة على طلب علم قول علي بن أبي طالب عليه السلام : « قدر كلّ امرئ ما يحسن » ٤ .

و قال الرضيّ في (خصائصه) : قوله عليه السلام : « كلمة حقّ يراد بها باطل » في ردّ قول الخوارج : « لا حكم إلاّ لله » أبلغ عبارة من أمر الخوارج لما جمعوا من حسن الاعتراء و الشعار ، و فتح الإبطان و الإضمار ٥ .

و قال أيضا فيه في قوله عليه السلام : « لم يذهب مالك ما وعظك » : سبحان الله ما أقصر هذه الكلمة من كلمة ، و أطول شأؤ بدرها في مضمار الحكمة ٦ و قال في (نهج البلاغة) في قوله عليه السلام : « فلئن أمر الباطل لقديما فعل » : إنّ في هذا الكلام الأدنى من مواقع الإحسان ما لا تبلغه مواقع الاستحسان ، و إنّ

(١) بهج الصباغة : الفصل (٤٠) العنوان (١٣) .

(٢) بهج الصباغة : الفصل (٣٠) العنوان (١١) .

(٣) صرح الشارح في العنوان (١٦) من الفصل الثامن عشر أنّه نقله من كتاب البيان و التبيين

للجاحظ ، و أورد الجاحظ الحديث في ٢ : ٨٠ بلا كلام حوله .

(٤) نقله أبو علي الطوسي في أماليه ٢ : ١٠٨ ، المجلس ١٧ باسناد عن خليل .

(٥) خصائص الأئمة للشريف الرضي : ٨٨ .

(٦) المصدر نفسه .

الصفحة ١٩

حظّ العجب منه أكثر من حظّ العجب به ، و فيه مع الحال التي وصفنا زوائد من الفصاحة لا يقوم بها لسان ، و لا يطّلع فجّها إنسان ، و لا يعرف ما أقول إلّا من ضرب في هذه الصناعة بحقّ ، و جرى فيها على عرق ، و ما يعقلها إلّا العالمون ١ .

و قال في قوله عليه السّلام : « فإنّ الغاية أمامكم . . . » : إنّ هذا الكلام لو وزن بعد كلام الله سبحانه ، و بعد كلام رسوله صلّى الله عليه و آله بكلّ كلام لمال به راجحا ، و برّز عليه سابقا . فأما قوله عليه السّلام : « تخفّفوا تلحقوا » فما سمع كلام أقلّ منه مسموعا و لا أكثر محصولا ، و ما أبعد غورها من كلمة و أنقع نطفتها من حكمة ٢ .

و قال في الخطبة (٢٨) : لو كان كلام يأخذ بالأعناق إلى الزهد في الدنيا و يضطرّ الى عمل الآخرة لكان هذا الكلام ، و كفى به قاطعا لعلائق الآمال ، و قادحا زناد الاتعاض ، و الازدجار ٣ .

و قال في الخطبة (٨٠) : إذا تأمّل المتأمل قوله عليه السّلام : « من أبصر بها بصرتّه » وجد تحته من المعنى العجيب و الغرض البعيد ما لا تبلغ غايته ، و لا يدرك غوره ، و لا سيّما إذا قرن إليه قوله عليه السّلام : « و من أبصر إليها أعمته » فإنّه يجد الفرق بين أبصر بها و أبصر إليها واضحا نيرا و عجيبا باهرا ٤ .

و قال في قوله عليه السّلام : « لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير عمل . . . » : لو لم يكن في هذا الكتاب إلّا هذا الكلام لكفى به موعظة ناجعة و حكمة بالغة ، و بصيرة

(١) نهج البلاغة ١ : ٤٨ ، الخطبة (١٦) .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٥٨ ، الخطبة (٢١) .

قال الشريف في خصائص الأئمة : ٨٧ بعد نقل قوله عليه السّلام : « تخفّفوا تلحقوا » : ما أقلّ هذه الكلمة و أكثر نفعها و أعظم قدرها و أبعد غورها و أسطع نورها .

(٣) نهج البلاغة ١ : ٧٢ .

(٤) نهج البلاغة ١ : ١٣١ .

الصفحة ٢٠

لمبصر ، و عبرة لناظر مفكر ١ .

إلى غير ذلك من كلماتهم في كلامه عليه السلام ، مما لو استقصيت لصارت كتابا ، فله درّه في جمعه هذا الكتاب ، فكم اهتدي به من يوم تأليفه إلى يومنا هذا ، و كم يهتدى به إلى الأبد ، مع أنه أتقن به لغة العرب ، و أمتن به قواعد الأدب ، فشكر الله سعيه و أعطاه خير جزاء .

لكنه عفا الله عنه لما كان متهاككا على نقل كل كلام فصيح منسوب إليه عليه السلام ، لم يتفطن أن الخصم قد يحتال و يزور على لسانه عليه السلام بتزويق كلامه ، كما ترى ذلك في الخطبة (٩٠ و ١٦٦ و ٢٦٦) و في نقله الخطبة (٦) لما أشير عليه بأن لا يتبع طلحة و الزبير ، و قد تكلمنا عنها في موضعها ٢ .

كما أنه عفا الله عنه لما كان نظره في اختياره من كلامه عليه السلام على الكلمة الفصيحة ، فقد يقتصر من نقل كلامه عليه السلام على مثل الاقتصار على قوله تعالى : (لا تقربوا الصلاة) بدون (و أنتم سكارى) كما تراه في الحكمة (٤٦٧) ، و قد بحثناها في موضعها ٤ .

كما أنه عفا الله عنه لكون مراجعته إلى كتب العامة و رواياتهم فقط ، غالبا قد ينقل ما تكذبه روايات الخاصة كما تراه في الخطبة (٥٧) ، و قد

(١) نهج البلاغة ٤ : ٣٨ ، الحكمة (١٥٠) .

(٢) نهج البلاغة ١ : ١٨١ ، الخطبة (٩٠) شرحها في بهج الصباغة الفصل (٣٠) العنوان (٨) .
و ٢ : ٨٠ ، الخطبة (١٦٦) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٢٩) العنوان (٢٤) و ٢ : ٢٢٢ ،
الخطبة (٢٢٦) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٢٩) العنوان (٢٦) و ١ : ٤١ ، الخطبة (٦)
شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٣١) العنوان (٣) .

(٣) الآية بتمامها : (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة و أنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون و لا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا و إن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم و أيديكم إن الله كان عفوا غفورا) . النساء : ٤٣ .

(٤) نهج البلاغة ٤ : ١٠٧ ، الحكمة (٤٦٧) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٢٩) العنوان (٢٧) .

كما أنه عفا الله عنه قد ينسب إليه عليه السلام ما لغيره ، كما تراه في الحكمة (٢٨٩) فاتفقت الروايات على أنه لابنه الحسن عليه السلام ٢ . و ما تراه في الحكمة (٢٢٧) فاتفقت الروايات على أنه عليه السلام نقله عن النبي صلى الله عليه وآله ، و قد أوضحناهما في محلّهما ٣ .

كما أنه قد ينسب إليه عليه السلام ما روي عنه عليه السلام في المنام ، كما تراه في الحكمة (٤٠٦) و قد بحثنا ذلك في محلّه ٤ .

كما أنه قد ينسب الشيء إلى غير محلّه ، فقال في الكتاب (٦٢) : و من كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأستر . مع أنه روى التّقي في (غاراته) ، و ابن قتيبة في (خلفائه) ، و الكليني في (رسائله) ، و ابن جرير الطبري في (مستر شده) أنه كانت خطبة له عليه السلام في التحريض على الجهاد لما فتحت مصر و قتل محمد بن أبي بكر ٥ .

كما أنه قد يحرف لعدم تدبره أو لسقم نسخة مستنده ، فنقل في الكتاب (٥٧) : « خرجت من حيي هذا » فإنه محرّف : « خرجت مخرجي هذا » . كما شرحناه في محلّه ٦ .

و نقل في الحكمة (٣٧١) : « و الشرّ جامع لمساوي العيوب » فإنه محرّف

(١) نهج البلاغة ١ : ١٠٥ ، الخطبة (٥٧) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٩) العنوان (١٥) .

(٢) نهج البلاغة ٤ : ٦٩ ، الحكمة (٢٨٩) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٤٠) العنوان (١٥) .

(٣) نهج البلاغة ٤ : ٥٠ ، الحكمة (٢٢٧) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٤٠) العنوان (٥) .

(٤) نهج البلاغة ٤ : ٩٥ ، الخطبة (٤٠٦) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٦) . العنوان (٢٥) .

(٥) نهج البلاغة ٣ : ١١٨ ، الكتاب (٦٢) شرحه في بهج الصباغة : الفصل (٨) العنوان (١٥) ،

و الغارات للتّقي ١ : ٣٠٢ ،

و تاريخ الخلفاء و هو كتاب الإمامة و السياسة لابن قتيبة ١ : ١٥٤ ، و كشف المحجّة لابن طاووس :

١٧٣ نقلا عن رسائل الكليني ، و المسترشد للطبري : ٩٥ .

(٦) نهج البلاغة ٣ : ١١٤ ، شرحه في بهج الصباغة : الفصل (٣) العنوان (٧) .

« و البخل جامع لمساوي العيوب » ، كما نقله نفسه في الحكمة (٣٧٨) ١ ، و نقل في الخطبة (٦٣) :
« و لا وقف به عجز عمّا خلق » ، فإنّ الظاهر أنّه محرّف « و لا ٢ وقف به عجز عمّا لم يخلق » . و قد
شرحنا الكل في موضعه ٢ .

و نقل في الخطبة (٤٩) : « فلا عين من لم يره تنكره ، و لا قلب من أثبته يبصره » ،
فإنّه محرّف « فلا قلب من لم يره ينكره ، و لا عين من أثبته تبصره » ٣ و قد نقله بعضهم من الرواية ٤

و قد صنّف قبل المصنّف جمع في خطبه عليه السّلام ، ذكرهم (فهرست الشّيخ) و (فهرست النجاشي) ،
و منهم : إبراهيم بن الحكم الفزاري ٥ ، و اسماعيل بن مهران ٦ ، و زيد بن وهب ٧ ، و عبد العظيم
الحسني ٨ ، و مسعدة بن صدقة ٩ ،
و المدائني ١٠ ، و عبد العزيز الجلودي ١١ ، إلّا أنّ كتبهم لم تصل إلينا .

-
- (١) نهج البلاغة ٤ : ٨٧ ، الحكمة (٣٧١) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٦٠) العنوان (٨٣)
(٤ : ٩٠ ، الحكمة (٣٧٨) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (٤٤) العنوان (٦) .
(٢) نهج البلاغة ١ : ١١٢ الخطبة (٦٣) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (١) العنوان (٥) .
(٣) نهج البلاغة ١ : ٩٨ الخطبة (٤٩) شرحها في بهج الصباغة : الفصل (١) العنوان (٤) .
(٤) نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٢٩٢ .
(٥) الفهرست للطوسي : ٤ .
(٦) الفهرست للنجاشي : ١٩ ، و الفهرست للطوسي : ١١ .
(٧) الفهرست للطوسي : ٧٢ ، و المعالم لابن شهر آشوب : ٥١ ، نقله الأردبيلي عن الاسترآبادي عن
النجاشي أيضا ، لكن لم أجده في فهرست النجاشي ، و جامع الرواة ١ : ٣٤٤ .
(٨) الفهرست للنجاشي : ١٧٣ .
(٩) الفهرست للنجاشي : ٢٩٥ .
(١٠) قال ابن النديم في الفهرست : إنّ له كتاب خطب علي عليه السّلام . فهرست ابن النديم : ١١٤ ،
و أمّا فهرست الطوسي ففي بعض نسخه كتاب « الخونة » لأمير المؤمنين و بعض نسخه « الحوز » .
فهرست الطوسي : ٩٥ ، و في موضع آخر « الحروب » . فهرست الطوسي : ١٩٢ ، و أمّا المعالم لابن
شهر آشوب ففي بعض نسخه « الخولة » ، و بعضها الآخر « الولاء » لأمير المؤمنين ، المعالم : ١٣٦ .
(١١) الفهرست للنجاشي : ١٦٧ .

و أظنّ أنّ أوّل من صنّف فيها الحارث الأعور الذي كان من خواصّه عليه السّلام ، و قال عليه السّلام له : « أما إنّه لا يموت عبد يحبّني فتخرج نفسه حتّى يراني حيث يحبّ ، و لا يموت عبد يبغضني فتخرج نفسه حتّى يراني حيث يكره » كما رواه الكشي ١ . و قال عليه السّلام له : أبشرك يا حارث لتعرفني عند الممات و عند الصّراط و عند الحوض و عند المقاسمة . قال الحارث : و ما المقاسمة ؟

قال : « مقاسمة النار ، أقاسمها قسمة صحيحة ، أقول : هذا وليّ فاتركيه ، و هذا عدوي فخذيه » . كما رواه أمالي الشّيخين ٢ ، و قد نظم الحميريّ في قوله : يا حار همدان الأبيات المعروفة مضمون الخبرين ٣ .

و روى الكليني و الصدوق باسنادهما عن أبي إسحاق السبيعي عن الحارث أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام خطب خطبة بعد العصر فعجب الناس من حسن صفته و ما ذكره من تعظيم الله تعالى . قال أبو إسحاق : فقلت للحارث :

أو ما حفظتها ؟ قال : كتبتها قال السبيعيّ فأملأها علينا الحارث من كتابه . . .

ثمّ زيد بن وهب الذي كان من أصحابه عليه السّلام أيضا ٤ .

و قد شرح الكتاب جمع كثير ، من أراد الوقوف عليها فليراجع (الذريعة) ٥ ، و لكن أبسطها و أمتها (شرح ابن أبي الحديد) ثمّ (شرح ابن ميثم) ،

ثمّ (شرح الخوئي) و لكن لم يكن أحد منها جامعا مع أنّ الأخير غير تام ، فإنّه

(١) أخرجه الكشيّ اختيار معرفة الرجال : ٨٨ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ٣ : ٢٢٣ عن الحارث ، و أخرجه الكليني في الكافي ٢ : ١٣٢ ح ٥ ، و أحمد بن محمد بن عيسى في نوادره عنه البحار ٦ : ١٩٩ ح ٥٢ عن عباية الأسدي .

(٢) أخرجه المفيد في أماليه : ٣ ح ٣ المجلس (١) ، و أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢ : ٢٣٨ المجلس (١٢) ، و الطبري في بشارة المصطفى : ٤ و الإربلي في كشف الغمة ٢ : ٣٨ و الديلمي في إرشاد القلوب : ٢٩٧ .

(٣) نقل الأبيات في ذيل الحديث في المصادر المذكورة و البيت بتمامه :

يا حار همدان من يمّت يرني

من مؤمن أو منافق قبلا

(٤) الكافي ١ : ١٤١ ح ٧ ، و التوحيد للصدوق : ٣١ ح ١ .

(٥) الذريعة لآقا بزرك الطهراني ١٤ : ١١٣ ١٦٠ .

إلى الخطبة (٢٢٨) . و أما شرح الراوندي المسمّى (منهاج البراعة) كما يفهم من (طرائف ابن طاووس) ١ ، فلم يوجد منه إلاّ نسخ في بعض المكتبات ، و منها نسخة في المكتبة الرضوية كشرح أبي الحسن الكيذري الذي ينقل عنه كثيرا ابن ميثم ، و منها في الشَّقْشِقِيَّة في كتاب رجل من أهل السواد ٢ ، فلم يوجد إلاّ في بعض المكتبات ، و منها نسخة في المكتبة الأميرية ، و هو جمع بين شرح الراوندي و شرح البيهقي كما نقل ٣ .

و (شرح ابن أبي الحديد) و إن ادعى أنه تاريخي أدبي إلاّ أن فيه معائب ، ففي بعض الموارد يفرط في نقل التاريخ حتى يمكن أن يجعل ما نقل تاريخا مستقلا ، و كان عليه أن يقتصر على المقدار المناسب للعنوان ، و في بعض الموارد لا ينقل شيئا أصلا ، كما أنه في الأدب كذلك قد يفرط و قد يفرط ، بل ينقل كثيرا ما لا ربط له أصلا ، كما ترى عند شرحه لقوله عليه السلام في الإخبار عن الخوارج : « كلاً و الله أنّهم نطف في أصلاب الرجال و قرارات النساء » ٤ . و قد يغفل عن شيء في محلّه و يذكره في غيره ، كما تراه في أوّل فصل الجمل في قوله عليه السلام : « ربّ عالم قد قتله جهله ، و علمه معه لا ينفعه » ٥ . و له أوهام كثيرة ، فنسب الخطبة (٣٩) إلى كونه في غارة النعمان مع أنه كان في قتل محمد بن أبي بكر ٦ ، و نسب الخطبة (٢٩) إلى كونه في غارة

(١) الطرائف لابن طاووس ٢ : ٤٨٣ .

(٢) شرح ابن ميثم ١ : ٢٦٩ .

(٣) قال الكيذري نفسه في مقدّمة شرحه ١ : ٨٧ أنه استفاد من هذين الشرحين .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٢٨ ٤٤٧ شرح الخطبة (٥٩) .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٨٧ ٢٨٨ شرح الحكمة (١٠٧) ، و بهج الصباغة : الفصل (٣١)

العنوان (١) .

(٦) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢١٣ ، و بهج الصباغة : الفصل (٣٤) العنوان (٦) .

الصفحة ٢٥

الضحّاك مع أنه كان بعد النهر في الشخوص إلى معاوية ١ ، و نسب الكتاب (٣٦) إلى كونه في غارة بسر مع أنه كان في غارة الضحّاك ٢ ، كما أوضحنا ذلك في فصل الغارات ، و نسب قوله عليه السلام في الثاني من فصل غريب النهج « هذا الخطيب الشحشح » إلى أنه قاله في صعصعة ، مع أنه قاله في رجل من أهل الجمل من أصحاب عائشة ، كما بيّناه في الفصل السّتين ٣ . و له تفسيرات باطلة كما ستقف عليها في المطاوي كرارا .

و هو و إن نقل في شرحه أشياء حسنة و ذكر فيه أموراً مهمّة ، إلاّ أنّه لم يراع المناسبة في الغالب .
و أمّا ابن ميثم فمذاقه مذاق الفلاسفة ، يرتكب كثيراً تأويلات غير صحيحة و يعلّل بعلل عذيلة ، كما في شرحه لقوله عليه السّلام : « و أنا لكم وزيراً خيراً لكم منّي أميراً » ٤ ، و يخطب كثيراً في فهم المراد ، كما في شرحه لقوله عليه السّلام في الخطبة (١٠٤) : « و ايم الله لو فرقوكم تحت كلّ كوكب لجمعكم الله لشرّ يوم لهم » ٥ .

مع قلّة اطلاعه على التاريخ فيخطب فيه ، كما ترى ذلك عند شرحه لقوله عليه السّلام مشيراً إلى الكوفة في الخطبة (٤٧) : « ما أراد بك جبار سوءاً » ٦ ،
و عند شرحه لقوله عليه السّلام في الخطبة (٢١٧) : « أدركت و تري من بني عبد مناف

-
- (١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٣ ، و بهج الصباغة : الفصل (٣٤) العنوان (٥) .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٥٦ ، و بهج الصباغة : الفصل (٣٤) العنوان (١٢) .
(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٥٥ ، و بهج الصباغة : الفصل (٦٠) العنوان (٦٤) .
(٤) شرح ابن ميثم ٢ : ٣٨٥ شرح الخطبة (٩٠) ، و بهج الصباغة الفصل (٣٠) العنوان (٨) .
(٥) شرح ابن ميثم ٣ : ٣٦ ، و بهج الصباغة : الفصل (٩) العنوان (٢٨) .
(٦) شرح ابن ميثم ٢ : ١٢٤ ، و بهج الصباغة : الفصل (٩) العنوان (١٤) .

الصفحة ٢٦

و أفلنتي أعيان بني جمح » ١ . و عند شرحه لقوله عليه السّلام في الخطبة القاصعة :
« و إنّ فيكم من يطرح في القلب . . . » ٢ .
و أغرب في شرح قوله عليه السّلام في الكتاب (٢٨) : « منّا النبيّ و منكم المكذّب » ٣ ، و شرح قوله عليه السّلام في الكتاب (٥٨) : « فمن تمّ على ذلك » ٤ ، و شرح قوله عليه السّلام : « من أعمام و أخوال » في الكتاب (٦٤) ٥ ، و شرح قوله عليه السّلام في الكتاب (٦٢) : « الذي قد شرب فيكم الحرام و جلد حدّاً في الإسلام » ٦ . و قد ذكرنا الكل في مواضعه .
و من العجب أنّه مع عدّه نفسه من الفلاسفة يأتي باللّجاج ، ففي كثير من تلك الموارد ترى أنّ ابن أبي الحديد قال : إنّ الراونديّ خبط فيها ، و أنّه استهزأ به لعدم اطلاعه على التاريخ ، و مع ذلك أصرّ على متابعة الراونديّ ، فلو كان الراونديّ وقف على ما خطّئ فيه لرجع ، كما أنّه تبع الكيزري في أوهامه .
و (شرح الخوئي) ليس فيه سوى الإكثار من الأخبار الضعيفة ، مع اقتضاره على ما ورد من طريقنا الذي لا يكون حجّة على غيرنا ، مع قلّة اطلاعه على التاريخ ، فتبع ابن ميثم في كثير من خطباته المتقدّمة

فرأيت أن أكتب بعون الله تعالى شرحا جامعاً فيه من التاريخ و الأدب و الأخبار القويّة و الآثار التي تكون حجةً بقدر الحاجة ، و في محلّ يكون فيه مناسبة ، مع ذكر مدارك عناوين الكتاب بقدر الوسع .

- (١) شرح ابن ميثم ٤ : ٥١ ، و بهج الصباغة : الفصل (٣١) العنوان (١١) .
- (٢) شرح ابن ميثم ٤ : ٣١٩ ، و بهج الصباغة : الفصل (٦) العنوان (٤٢) .
- (٣) شرح ابن ميثم ٤ : ٤٤٠ ، و بهج الصباغة : الفصل (٧) العنوان (١١) .
- (٤) شرح ابن ميثم ٥ : ١٩٦ ، و بهج الصباغة : الفصل (٢٩) العنوان (٢٥) .
- (٥) شرح ابن ميثم ٥ : ٢١١ ، و بهج الصباغة : الفصل (٨) العنوان (٨) .
- (٦) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٠٣ ، و بهج الصباغة : الفصل (٢٩) العنوان (٢٩) .

الصفحة ٢٧

و أمّا الشّراح المتقدّمون فلم يقفوا في كثير منها على مداركها أصلاً ، و في يسير منها لم يقفوا غالباً إلاّ على بعضها .

و اقتصرت في شرح الفقرات من الإعراب و اللّغة و التفسير على المشكلات التي تحتاج إلى ذلك ، لا في كلّ فقرة كما فعله بعضهم لكونه لغواً ، كما أنه ذكرت اللّغة عند كلّ فقرة و كلمة ، و لم أجمعها بعد العنوان كما فعل الشّراح لئلاّ يكون الفهم في محلّ الحاجة صعباً .

و ذكر ابن ميثم في أوّل كتابه مقدارا من مباحث علم البيان و تبعه الخوئي ، و هو لغو ، فتجنّبته لأنّه صنّف في ذاك الفنّ كتب ، فكان عليهما حيث ذكرا مباحث البيان أن يذكر مباحث الصّرف و النّحو و اللّغة.

و ليس دأبي دأب أكثر الشّراح يذكر اللاحق ما قاله السابق في صورة الإنشاء منه ، فانه نوع سرقة ، فما كان من غيري أنسبه إليه ، و ما فيه بلا نسبة فهو منّي . و حيث إنّ ترتيب المصنّف للكتاب بالخطب و الكتب و الكلمات القصار ترتيب لفظيّ أحببت ترتيبه بالمعنى ، فجمعت ما يكون راجعا الى التوحيد مثلا في موضع ، و ما يكون راجعا إلى النّبوة في موضع ، و إلى الإمامة في موضع ، و هكذا كلّ موضوع ، و هاك تفصيل فصولها :

الأوّل : في التوحيد ، و فيه (٥٣) عنوانا .

الثاني : في خلق السماء و الأرض و الشمس و القمر و النجوم و العرش و الكرسي و فيه (٦) عناوين .

الثالث : في خلق الملائكة ، و فيه (٣) عناوين .

الرابع : في خلق آدم عليه السّلام ، و فيه (٤) عناوين .

الخامس : في النبوة العامة ، وفيه (٩) عناوين .

السادس : في النبوة الخاصة ، وفيه (٤٧) عنوانا .

الصفحة ٢٨

السابع : في الإمامة العامة ، وفيه (٣٤) عنوانا .

الثامن : في الإمامة الخاصة ، وفيه (٣٣) عنوانا ، وفي أواخرها كلامه عليه السلام في الشقشقية ١ و في دفن سيّدة النساء ٢ و في فدك ٣ .

التاسع : في إخباره عليه السلام بالملاحم و ما يقع في المستقبل ، وفيه (٣٧) عنوانا .

العاشر : في علمه عليه السلام و صفحه و مكارم أخلاقه ، وفيه (٦) عناوين .

الحادي عشر : في تفسيراته عليه السلام للآيات و غيرها ، وفيه (٧) عناوين .

الثاني عشر : في قضاياها عليه السلام ، وفيه عنوانان .

الثالث عشر : في أجوبته التمثيلية و أدب السؤال و الجواب ، وفيه (١٠) عناوين .

الرابع عشر : في زهده و إعراضه عن الدنيا و عدله و تواضعه و ذكر الحقوق ، وفيه (١٥) عنوانا .

الخامس عشر : في التزامه عليه السلام بالحق و العدل و حثّه عليهما قولاً و عملاً ،

و فيه (٨) عناوين .

السادس عشر : في أدعيته عليه السلام ، وفيه (٩) عناوين .

السابع عشر : في عجائب خلقه تعالى ، وفيه (٣) عناوين .

الثامن عشر : في العلوم ، مضمومها و ممدوحها ، وفيه (٢٥) عنوانا .

التاسع عشر : في إرشاد الثاني (عمر) في مصالح الاسلام ، وفيه عنوانان .

(١) العنوان (٣٠) من الفصل الثامن .

(٢) العنوان (٣١) من الفصل الثامن .

(٣) العنوان (٣٢) من الفصل الثامن .

الصفحة ٢٩

العشرون : في حبه و بغضه ، وفيه عنوانان .

الحادي والعشرون : في شجاعته عليه السلام و مهابته و مناعته ، وفيه (٤) عناوين .

الثاني والعشرون : في أوليائه و أعدائه ، وفيه (١٢) عنوانا .

الثالث والعشرون : في عتاباته لعمّاله و غيرهم ، وفيه (١١) عنوانا .

- الرابع و العشرون : في حلفه و تقيته ، و فيه (٣) عناوين .
- الخامس و العشرون : في شكايته من أهل عصره ، و فيه (٦) عناوين .
- السادس و العشرون : في نقص الناس و اختلافهم و عجائب قلوبهم و صفات أراذلهم ، و فيه (٩) عناوين ، و منها قوله عليه السلام لمن سأله أن يعظه ١ .
- السابع و العشرون : في القضاء و القدر و فيه عنوانان .
- الثامن و العشرون : في الجامع لأمر الدين و الدنيا ، و فيه (٨) عناوين ، و منها وصيته عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام ٢ و عهده للأشتر لما و لاه مصر .
- التاسع و العشرون : في ما يتعلّق بعمر و عثمان ، و فيه (٢٧) عنوانا .
- الثلاثون : في بيعته عليه السلام ، و فيه (١٥) عنوانا .
- الحادي و الثلاثون : في وقعة الجمل ، و فيه (١٥) عنوانا .
- الثاني و الثلاثون : في وقعة صفين ، و فيه (١٢) عنوانا .
- الثالث و الثلاثون : في وقعة النهروان ، و فيه (١٠) عناوين .
- الرابع و الثلاثون : في الغارات ، و فيه (١٢) عنوانا .
- الخامس و الثلاثون : في مقتله و وصاياه عليه السلام ، و فيه (٨) عناوين .
- السادس و الثلاثون : في الموت ، و فيه (٣٤) عنوانا ، و في آخرها

(١) العنوان (٨) من الفصل السادس و العشرين .

(٢) العنوان (٢) من الفصل الثامن و العشرين .

الصفحة ٣٠

« سبحانك خالقا و معبودا » ١ .

- السابع و الثلاثون : في ذمّ الدنيا و فنائها ، و فيه (٤٣) عنوانا .
- الثامن و الثلاثون : في القيامة و الجنّة و النّار ، و فيه (٢٢) عنوانا .
- التاسع و الثلاثون : في ما يجب على العبد لربّه ، و فيه (١٨) عنوانا .
- الأربعون : في الاسلام و الايمان و التقوى و الكفر و النفاق ، و فيه (٣٠) عنوانا .
- الحادي و الأربعون : في القرآن ، و فيه (١٣) عنوانا .
- الثاني و الأربعون : في العبادات و المعاملات و الخير و الشرّ ، و فيه (٣١) عنوانا .
- الثالث و الأربعون : في مكارم الأخلاق ، و فيه (٢٧) عنوانا .
- الرابع و الأربعون : في ذمائم الصفات و محامدها ، و فيه (٣٣) عنوانا .

- الخامس و الأربعون : في آداب المعاشرة ، و فيه (١٠) عناوين .
 السادس و الأربعون : في الأصدقاء ، و فيه (١٤) عنوانا .
 السابع و الأربعون : في التعازي و التّهاني ، و فيه (٦) عناوين .
 الثامن و الأربعون : في آداب الحرب ، و فيه (١٦) عنوانا .
 التاسع و الأربعون : في ذمّ الشام و مدح الكوفة ، و فيه عنوانان .
 الخمسون : في الأنصار و طوائف قريش و تميم و الشعراء ، و فيه (٤) عناوين .
 الحادي و الخمسون : في الاستسقاء و الأضححة ، و فيه (٤) عناوين .
 الثاني و الخمسون : في الأقبال و الإدبار ، و فيه (٥) عناوين .
 الثالث و الخمسون : في الفتن و الشبه و البدع ، و فيه (٧) عناوين .

(١) العنوان (٣٤) من الفصل السادس و الثلاثين .

الصفحة ٣١

الرابع و الخمسون : في العقل ، و فيه (٨) عناوين .
 الخامس و الخمسون : في القلوب ، و فيه (٥) عناوين .
 السادس و الخمسون : في الحقائق ، و فيه (١٤) عنوانا .
 السابع و الخمسون : في الفقر ، و فيه (٤) عناوين .
 الثامن و الخمسون : في النساء ، و فيه (٧) عناوين .
 التاسع و الخمسون : في إبليس ، و فيه (٣) عناوين .
 الستون : في موضوعات مختلفة ، و فيه (١٠٤) عناوين .
 ثم إنّ النسخ المطبوعة من النهج أحسنها نشر مطبعة الاستقامة المشتملة على الأرقام في أبوابه الثلاثة ، و مع ذلك فهي مشحونة من التصحيف في العناوين و المتون و المواضع ، كما يظهر من تطبيقها على نقل ابن أبي الحديد و ابن ميثم و على النسخ الخطيّة المصحّحة ، و منها عندي نسخة مؤرّخة بسنة (١٠٧٥) و إن كان ناشرها قال : تمتاز هذه عن المطبوعات السابقة بتمام العناية بضبطها و تصحيحها ، فقد سقط منها قول المصنّف بعد الخطبة (١٩) : يريد عليه السّلام أنّه أسر في الكفر مرّة و في الإسلام مرّة ، و أمّا قوله عليه السّلام : « دلّ على قومه السيّف » : فأراد به حديثا كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة غرّ فيه قومه و مكر بهم حتّى أوقع بهم خالد ، و كان قومه بعد ذلك يسمّونه عرف النار ، و هو اسم للغادر عندهم ١ . و بعد الخطبة (٤٦) و ابتداء هذا الكلام مروى عن رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم ، و قد فقاه أمير المؤمنين عليه السّلام بأبلغ كلام و تمّمه بأحسن تمام من قوله : « و لا يجمعهما غيرك » إلى

آخر الفصل ٢ . و بعد قوله : و من كلام له عليه السّلام في الخطبة (١٣٣) ، و قد وقعت مشاجرة بينه و بين

- (١) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٩٧ كَلَّه ، و شرح ابن ميثم ١ : ٣٢٢ بعضه .
 (٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧٦ ، و لكن شرح ابن ميثم ٢ : ١٢١ خال منه .

الصفحة ٣٢

عثمان فقال المغيرة بن الأحنس لعثمان : أنا أكفيكه . فقال أمير المؤمنين عليه السّلام للمغيرة ١ .
 و سقط منها قوله في الخطبة (٨٩) : روى مسعدة بن صدقة . . . ٢ ، و خلطت الحواشي بالمتن ، ففيها
 في آخر الخطبة (١٣) و في رواية أخرى :
 « بلادكم أنتن بلاد الله تربة ، أقربها من الماء ، و أبعداها من السماء ، و بها تسعة أعشار الشرّ ، المحتبس
 فيها بذنبه ، و الخارج بعفو الله ، كأني أنظر الى قريبتكم هذه قد طبّقها الماء حتّى ما يرى منها إلا شرف
 المسجد كأنه جوّ طير في لجة بحر » ٣ . فليس في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) أثر منه ، و
 إنّما أخذه بعض المحشّين من نقل ابن ميثم في رواية طويلة أخذ المصنّف منها كلامه ، فيها ذاك الكلام ٤ .
 و فيها في الحكمة (٤٨٠) و هي آخر الحكم : قال الرضي : يقال حشمه و أحشمه إذا أغضبه ، و قيل
 أخجله ، و احتشمه طلب ذلك له ، و هو مظنة مفارقتة ٥ .
 و بعد الحكمة (٤٧٩) قال الرضي : لأنّ التكليف مستلزم للمشقة ، و هو شرّ لازم عن الأخ المتكلف له ،
 فهو شرّ الإخوان ٦ .
 و ليس واحد منهما كلام الرضيّ ، بل من حواش مختلطة لخلو (ابن أبي

- (١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٧١ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ١٦٣ .
 (٢) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٨ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٢ .
 (٣) الزيادة في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٨٣ كَلَّها ، و في شرح ابن ميثم ١ : ٢٩٠ بعضها .
 (٤) الزيادة في شرح ابن ميثم عقيب الخطبة ، و ليس في الرواية الطويلة أثر منها .
 (٥) لا يوجد في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٥٢٩ ، و أمّا شرح ابن ميثم ٥ : ٤٦٧ فقال فيه بعد أصل
 الحكمة : « حشمه أحشمه بمعنى أغضبه ، و قيل أخجله » . و لم ينسبه إلى الرضيّ .
 (٦) لا يوجد في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٥٢٩ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٤٦٧ .

الصفحة ٣٣

الحديد و ابن ميثم و الخطية) من الكلامين ، و لأنّ الرضي رضى الله عنه أجلّ من أن يتكلّم بمثل ذلك الكلام الساقط المذكور فيهما ، و لأنّه لا يفسّر إلّا المشكل ، لا مثله .

و أيضا زادت في ما نقل كلاما للمصنّف من الأوّل إلى الآخر جملة : « قال الرضيّ » مع أنّه ليس كلام المصنّف حتّى يجعل جزء النهج ، و إنّما هو إنشاء الشراح : ابن أبي الحديد و ابن ميثم و غيرهما ، فالخطية خالية منها ، و ابن ميثم غالبا يقول : قال السيّد ، و ابن أبي الحديد يعبر مختلفا ١ .

و خلطت في عهده عليه السّلام لأشتر لّمّا ولّاه على مصر في الكتاب (٥٣) حواش مأخوذة من رواية (تحف العقول) للعهد ، بالمتن ، منها : « و ليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلّا بالاهتمام و الاستعانة بالله ، و توطين نفسه على لزوم الحقّ و الصبر عليه في ما خف عليه أو ثقل » خلطه بين « و لكلّ على الوالي حقّ بقدر ما يصلحه » و « فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك » ٢ .

و منها : « و إنّ أفضل قرّة عين الولاية استقامة العدل في البلاد و ظهور مودة الرعية ، و أنّه لا تظهر مودتهم إلّا بسلامة صدورهم » خلطه بين « فإنّ عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك » و « و لا تصحّ نصيحتهم إلّا بحبّية على ولاة أمورهم » ٣ .

و منها : « رياضة منك لنفسك و رفقا برعيّتك » خلطه بين « فإنّ في ذلك » و « أذارا تبلغ به حاجتك » ٤ .

فإنّ النهج كان خاليا من الفقرات الثلاث بدليل خلوّ (ابن أبي الحديد و ابن

-
- (١) ذكر اسم مصنّف الكتاب من قبل النّسّاخ و الرّواين أمر شائع في الكتب القديمة .
- (٢) شرح ابن ميثم ٥ : ١٥٠ خال من هذه القطعة ، لكن توجد في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٢٧ ، و كذلك في تحف العقول : ١٣٢ .
- (٣) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٢٨ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ١٥١ ، و كذلك في تحف العقول : ١٣٣ .
- (٤) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٤٥ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ١٧٤ بفرق يسير في تحف العقول : ١٤٥ .

الصفحة ٣٤

ميثم و الخطية) منها ، و إن فرض كونها من كلامه عليه السّلام و جزء العهد ١ .

و قدّمت و أخّرت و حرّفت العناوين عن مواضعها ، ففي (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) العنوان « و من كلام له عليه السّلام قاله لعبد الله بن العباس و قد جاءه برسالة من عثمان ، و هو محصور . . . » قبل العنوان « و من كلام له عليه السّلام اقتصر فيه ذكر ما كان منه عليه السّلام بعد هجرة النبيّ صلّى الله عليه و آله . . . » ٢ . و إن كان الراوندي قال في شرحه و تاريخ فراغه منه (٥٥٦) : ذلك العنوان زيادة

من نسخة كتبت على عهد المصنف ٣ . و في (المصرية) العنوان الأول تحت الرقم (٢٣٥) و الثاني تحت الرقم (٢٣١) .

و في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) العنوان « إن هذه القلوب تملّ » بعد العنوان « أوضع العلم ما وقف على اللسان » ٤ ، و في (المصرية) بالعكس ، الأول الحكمة (٩١) و الثاني الحكمة (٩٢) .

كما أنّها قد تجعل جزء العنوان عنواناً مستقلاً ، ففي (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) الحكمة (٩٥) من رقم (المصرية) جزء الحكمة (٩٤) منه ٥ ، و في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) الحكمة (١٢٣) من رقم (المصرية) جزء الحكمة (١٢٢) منه ٦ ، و في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) « طوبى لمن ذكر المعاد » الحكمة (٤٤) من المصرية جزء « يرحم الله خباب بن الارت »

- (١) مع ما ذكرت لا يبقى وجه لنسبة هذه الألفاظ إلى الأخذ من تحف العقول .
- (٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ٣٢٢ ، ٣٢٤ . و هما الخطبتان ٢٣٨ ، ٢٣٤ .
- (٣) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٨٢ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٢٨٦ ، و هما الحكمتان ٩١ ، ٩٢ .
- (٤) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٨٣ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٢٨٧ .
- (٥) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٠١ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٣٠٦ .
- (٦) في شرح ابن ميثم ٥ : ٢٦٥ جمعهما ، و في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٦٣ شرحهما معا فقط ، لكن فصل بينهما بقوله :
- « و قال عليه السلام » .

الصفحة ٣٥

الحكمة (٤٣) (١) ، و لم تكنف (المصرية) بالخلط ، بل زادت فقرتين من الثاني في الأول أيضا . كما أنّها قد تفعل بالعكس ، فتجعل المستقلّ جزءا ، ففي (المصرية) « إن الدنيا و الآخرة عدوان متفاوتان » جزء الحكمة (١٠٣) « و رأي عليه عليه السلام إزار خلق مرقوع » . و في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) مستقلّ ليس جزءه ٢ .

كما أنّها نقلت أشياء تفرّد بنقلها من النهج ابن أبي الحديد ، و نبّهت على ذلك بجعلها بين قوسين ، لكنّها و همت في محلّ نقلها منها : « الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس » ، ففي (ابن أبي الحديد) هو بعد الحكمة (٣٣٣) ،

و (المصرية) جعلته بعد الحكمة (٣٤١) .

و منها : « المسؤول حرّ حتى يعد » فإنه في (ابن أبي الحديد) قبل الحكمة (٣٣٤) ، و (المصرية) جعلته الحكمة (٣٣٦) ٣ .

و منها قوله عليه السّلام : « نعم الطيب المسك » ، و قوله : « ضع فخرک » جعلتهما (المصرية) الحكمة (٣٩٧) و (٣٩٨) مع أنّهما في (ابن أبي الحديد) قبل (٣٩٣) ٤ .

و ما جعلته المصريّة (٣٨٩) هو في (ابن أبي الحديد) قبل (٣٨٦) ٥ ، و ما جعلته (٣٣٩) و (٤٠٠) هما في (ابن أبي الحديد) بعد (٣٩٦) ٦ ، الى غير ذلك من تحريفاتها .
و لو أردنا استقصاء ما فيها من التصحيف و التحريف و التغيير

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٨٥ ٢٨٦ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٢٩٢ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٩٤ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٩٥ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٢١ ، ٤٢٤ .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤١٩ .

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٠ .

الصفحة ٣٦

و التبديل و الزيادة و النقصان لطلال الكلام ، حيث إنّه قلّ عنوان منها من أولّها إلى آخرها لم يكن بمحرّف ، و منها كلام المصنّف في آخر الكتاب ، فلم يكن بعد الحكمة (٤٨٠) كما في (المصرية) ، بل بعد (٤٦٢) ١ ، كما ستقف عليه في ذكر اختلاف نسخ النهج ٢ .

ثم (إنّ) نسخ النهج كانت مختلفة من الصّدْر الأوّل . قال (ابن ميثم) بعد خطبة همّام المذكورة تحت الرقم (١٨٨) من المصريّة : من هاهنا اختلفت نسخ النهج ، فكثير منها تكون هذه الخطبة فيها أوّل المجلّد الثاني منه بعد الخطبة المسماة بالقاصعة ، و يكون عقيب كلامه للبرج بن مسهر الطائي قوله عليه السّلام : « الحمد لله الذي لا تدركه الشواهد و لا تحويه المشاهد » ، و كثير من النسخ تكون هذه الخطبة فيها متّصلة بكلامه عليه السّلام للبرج بن مسهر ، و تتأخّر تلك الخطبة فتكون بعد قوله : « و من كلام له عليه السّلام و هو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه و آله » و يتصل ذلك إلى تمام الخطبة المسماة بالقاصعة ، ثم يليه قوله : « باب المختار من كتب أمير المؤمنين و رسائله » ، و عليه جماعة الشّارحين ، كالإمام قطب الدين أبي الحسن الكيزري ، و الفاضل عبد الحميد بن أبي الحديد ، و وافقتهم هذا الترتيب لغلبة الظنّ باعتمادهم على النسخ الصحيحة ٣ .

قلت : و المفهوم منه أنّ نسخته لم تكن كنسخة ابن أبي الحديد و نسخة

(١) كما في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٥٠٦ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٤٦٠ .

(٢) يأتي في الصفحات الآتية من المقدمة .

(٣) شرح ابن ميثم ٣ : ٤١٣ ، و خطبة همّام رقمها (١٩١) و القاصعة رقمها (١٩٠) و قوله للبرج رقمه (١٨٢) و قوله « الحمد لله الذي » رقمه (١٨٣) و كلامه عند غسل الرسول صلى الله عليه و آله رقمه (٢٣٣) بأرقامنا . و ما قاله ابن ميثم : « هذه الخطبة » أراد به خطبة همّام و : « تلك الخطبة » يعني بها خطبة « الحمد لله الذي » . و في شرحي الكيزري و ابن أبي الحديد و بالتّبع شرح ابن ميثم جاء كلامه عليه السّلام للبرج بلا فاصل قبل خطبة همّام ، ثم بفاصل كلامه عند غسل الرسول صلى الله عليه و آله ، ثم بعده بلا فاصل خطبة « الحمد لله الذي » . ثم بعده بفاصل خطبة القاصعة ، ثمّ بعده بفاصل باب الكتب .

الصفحة ٣٧

الكيزري ، فتبعهما لما قاله من غلبة ظنّه باعتمادهما على النسخ الصحيحة ، لكن ذلك منه عجيب ، فصرّح في مواضع من كتابه بأنّ نسخته من النهج بخطّ مصنّفه ، و منها في القاصعة ، فقال في قوله عليه السّلام : « و لا لزمت الأسماء معانيها » :

« و في نسخة الرّضي » برفع الأسماء ١ .

و قال أيضا في قوله : « لا يدرى أ من سني الدنيا » ، ففي نسخة الرّضي « يدرى » بالبناء للفاعل ٢ . و منها في الخطبة (١٨٨) في الفقرة : « و كان ليلهم في دنياهم نهارا » ، و في نسخة الرّضي بخطّه « كأنّ » ، و التّرجيح إنّما يعقل بين نسخ غير المصنّف ، و أمّا المصنّف فلا يعقل التّرجيح بينه و بين غيره . ٣

و في شرح الراوندي خطبة همّام قبل الخطبة (١٨١) : « الحمد لله المعروف من غير رؤية ، الخالق من غير منصبة » ٤ ، و في نسختنا خطبة همّام بعد القاصعة ، كما قاله ابن ميثم أوّلا ٥ .

و كيف كان ، فوجه الاختلاف ظاهرا أنّ المصنّف كتب النهج في نسخ متعددة ، و زاد و نقص و قدّم و أخر في النسخ الأخيرة ، حسب شأن المصنّفين في ما لو كتبوا نسخا من كتاب ، فلو فرض أنّ مصنّفا كتب كتابه مائة مرّة لغير في كلّ من المائة بحسب ما يراه أحسن ، و يشهد لما قلنا أنّ ابن أبي الحديد قال في العنوان : « و قال عليه السّلام و قد جاءه نعي الأشر » الحكمة (٤٤٣) :

يقال : إنّ الرضي ختم كتاب نهج البلاغة بهذا الفصل ، و كتبت به نسخ متعددة ،

- (١) شرح ابن ميثم ٤ : ٢٧٥ .
 (٢) شرح ابن ميثم ٤ : ٢٤٧ .
 (٣) شرح ابن ميثم ٤ : ٢٠٩ .
 (٤) شرح الراوندي كما في سائر النسخ .
 (٥) مرّ آفا .

الصفحة ٣٨

ثمّ زاد عليه إلى أنّ وفي الزيادات التي نذكرها فيما بعد ١ .
 و قال في العنوان « ربّ مفتون بحسن القول فيه » ، الحكمة (٤٦٢) : و اعلم أنّ الرضي قطع كتاب نهج البلاغة على هذا الفصل ، و هكذا وجدت النسخة بخطّه ، و قال : « و هذا حين انتهاء الغاية بنا » إلى « و نعم الوكيل ، نعم المولى و نعم النصير » ٢ .
 و قال ابن ميثم في الحكمة (٤٦٢) : قال السيّد : و هذا حين انتهاء الغاية بنا الى قطع المختار من كلام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، حامدين لله سبحانه على ما منّ به من توفيقنا لضمّ ما انتشر من أطرافه و تقريب ما بعد من اقطاره ، و تقرّر العزم كما شرطنا أوّلا على تفضيل أوراق من البياض في آخر كلّ باب من الأبواب ، ليكون لاقتناص الشارد و استلحاق الوارد ، و ما عساه أن يظهر لنا بعد الغموض و يقع الينا بعد الشدوذ ، و ما توفيقنا إلاّ بالله ، عليه توكلنا ، و هو حسبنا و نعم الوكيل .
 أقول : إنّه رضوان الله عليه بلغ في اختيار كلامه عليه السّلام إلى هذه الغاية و قطعه عليها ، ثمّ كتبت على عهده زيادة من محاسن الكلمات ، إمّا باختياره هو أو بعض من كان يحضره من أهل العلم . و تلك الزيادة تارة توجد خارجة عن المتن و تارة موضوعة فيه ملحقة بمنقطع اختياره ، و روي أنّها قرئت عليه و أمر بالحاقها بالمتن ، و أوّلها : « و قال عليه السّلام : الدنيا خلقت لغيرها و لم تخلق لنفسها » ٣ .
 و قال الراوندي بعد كلامه عليه السّلام في الاستغفار ، الحكمة (٤١٧) : قال السيّد :

- (١) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٧٨ .
 (٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٥٠٦ .
 (٣) شرح ابن ميثم ٥ : ٤٦١ .

الصفحة ٣٩

و هذا حين انتهاء الغاية بنا إلى أن قال و ذلك من رجب سنة أربعمائة ،

و الحمد لله و صلّاته على رسوله محمد و آله و سلامه .
ثمّ قال الراوندي : زيادة من نسخة كتبت على عهد المصنّف رحمه الله قال عليه السّلام : « الدّنيا خلقت لغيرها و لم تخلق لنفسها » ، ثمّ ذكر العناوين إلى « إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه » ١ .
و قال أيضا في كلامه عليه السّلام الذي قاله لعبد الله بن عباس برقم (٢٣٨) :
زيادة في نسخة كتبت على عهد المصنّف ٢ .
و قال في الخطبة (٢٣٧) : و كان في نسخة بغدادية زيادة و هي : « و من خطبة له عليه السّلام يذكر فيها آل محمد عليهم السّلام إلى و رعاته قليل » ثمّ قال : و قد مضى مثل ذلك في ما تقدّم ، و زاد الراوندي في بيان المصنّف في الشفّقة كما يأتي فيها ٣ .
و في (ابن ميثم) في آخر الباب الأوّل : هذا آخر الخطب و الأوامر ، و يتلوه المختار من الكتب و الرسائل ، إن شاء الله تعالى بعونه و عصمته و توفيقه و هدايته ٤ .
و في (الخطبة) « و الحمد لله كثيرا » ، و ليس في (ابن أبي الحديد) شيء أصلا ٥ ، كما أنّ في (المصرية) « و صلّى الله على سيّدنا محمد النبي الأميّ و على آله مصابيح الدجى و العروة الوثقى و سلّم تسليمًا كثيرا » ، كما أنّ بين (ابن أبي الحديد) و (ابن ميثم) اختلافات ، فمما تفرّد به ابن أبي الحديد نقله

-
- (١) قال الراوندي : و ليس فيه قوله : « زيادة من نسخة كتبت . . . » شرح الراوندي ٣ : ٤٣٥ ، شرح الحكمة (٤٨٠) .
(٢) ليس هذا من كلام الراوندي ، بل نقله في هامش الشرح ٢ : ٣٥٢ عن هامش نسخة خطية من نهج البلاغة .
(٣) لا توجد هذه الخطبة في شرح الراوندي أصلا .
(٤) شرح ابن ميثم ٤ : ٣٣٧ .
(٥) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٩٣ .

الصفحة ٤٠

ضمن عنوان الخطبة (٥٢) عن الرضيّ : و قد تقدّم مختارها برواية ، و نذكر ما يذكره هاهنا برواية أخرى لتغاير الروايتين ١ .
و مما تفرّد به أيضا نقل الخطبة الأخيرة برقم (٢٣٩) : « و الله مستأديكم شكره . . . » بعد الخطبة (٢١٨) : « قد أحيا عقله » ٢ .
و تفرّد في جعل « و نعم القرين الرضا » أوّل الحكمة (٤) آخر الحكمة (٣) ٣ ،
و جعل « و من رضي عن نفسه كثر الساخط عليه » آخر الحكمة (٥) أوّل (٦) ٤ ،

و جعل الحكمة (١٧) بعد (١١) ٥ ، و جعل الحكمة (٩٢) قبل (٩١) ٦ ، و جعل جزء الحكمة (١٢٧) : « و لا حاجة لله في من ليس لله في ماله و نفسه نصيب » مستقلاً ٧ ، و جعل الحكمة (١٥٤) بعد (١٥١) ٨ ، و جعل (١٥٥) و (١٥٦) بعد (١٨٨) ٩ ، و جعل (١٥٧) بعد (١٨٤) ١٠ ، و جعل كلاً من : « و من لم يعط قاعدا لم يعط قائماً » و « و الدهر يومان » ، و هما جزء الحكمة (٣٩٦) : « المنية و لا الدنيا » ، مستقلاً ١١ .

و تفرّد أيضاً بنقل عناوين في أواخر الباب الثالث ، مرّ بعضها و يأتي

-
- (١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٣١ .
 (٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٤٢ ، ٤٧ .
 (٣) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٤٠ ، و جعل ابن أبي الحديد صدر الحكمة الثالثة و ذيل الثالثة مع صدر الرابعة رابعة و ذيلها الخامسة .
 (٤) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٤٣ .
 (٥) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
 (٦) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٨٢ .
 (٧) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٠٣ .
 (٨) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣١٦ .
 (٩) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣١٨ ، ٣١٩ .
 (١٠) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣١٩ .
 (١١) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

الصفحة ٤١

باقية في آخر الكتاب ١ ، و يأتي في العنوان (١٢) من الفصل الأربعين تصريح ابن ميثم بتفرّد (ابن أبي الحديد) بنقل الفقرة : « و منه ما يكون عواري في القلوب » ٢ ، و تفرّد أيضاً بنقل القطعة : « و الله ما تنقم منا قريش . . . » في الخطبة (٣٣) ، و يأتي بحثها في موضعه ٣ .
 و ممّا تفرّد به (ابن ميثم) عدم نقل كلام المصنّف في آخر الشقشقيّة ،
 و عدم نقل ما في الخطبة (٥) من (لما) إلى (بالخلافة) و عدم نقل كلام المصنّف في الخطبة (٣٩) و ٤٢ و ٦٨ و ١٦٣) و الحكمة (٨١) ٤ .

و تفرّد في الخطبة (٨٩) في زيادة في العنوان ، كما يأتي في محله ٥ ،
 و تفرّد في جعل (و منها) الثانية في الخطبة (٢٦) مستقلاً ، فقال بدل (و منها) :

و من خطبة له عليه السلام يذكر فيها عمرو بن العاص ٦ .
 و تفرّد بعدم ذكر الكتاب (٤٠) : « أمّا بعد فقد بلغني عنك أمر . . . » رأساً ٧ .
 و جعل (ابن ميثم و الخطيئة) من الحكمة (٢) إلى (٦) تحت عنوان واحد ٨ ، و جعل الحكمة (٤٤)
 جزء (٤٣) ٩ ، و جعل الحكمة (٣٤٣) بعد

-
- (١) بهج الصباغة : خاتمة الكتاب .
 (٢) بهج الصباغة : الفصل (٤٠) العنوان (١٢) ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٩٤ ، أقول : ما زاد ابن
 أبي الحديد ٣ : ٢١٥ هذه الفقرة في أصل الخطبة لكن شرحها عند الشرح ٣ : ٢١٦ .
 (٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٧٦ ، و بهج الصباغة : الفصل (٨) العنوان (٢) .
 (٤) شرح ابن ميثم ١ : ٢٥١ ، ٢٧٦ ، و ٢ : ٩٩ ، ١٠٧ ، و ٣ : ٣١٣ ، و ٥ : ٢٨١ ، و كلام
 الرضي في شرح ابن ميثم ٢ : ١٩١ .
 (٥) شرح ابن ميثم ٣ : ٣٢٢ ، و بهج الصباغة : الفصل (١) العنوان (٨) .
 (٦) في شرح ابن ميثم ٢ : ٢٧ أيضا « و منها » .
 (٧) موضعه في شرح ابن ميثم ٥ : ٨٧ ، و ليس فيه .
 (٨) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٣٨ .
 (٩) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٦٥ .

الصفحة ٤٢

الحكمة (٣٤١) ١ ، و جعل الحكمة (١٤٢) و (١٤٣) جزء (١٤١) بزيادة حرف عطف في أولهما
 ٢ ، إلى غير ذلك ممّا تفرّد به كل من ابن أبي الحديد و ابن ميثم ،
 لو أريد استقصاؤه لطال الكلام .
 ثم لو اتّفقا في شيء على خلاف نسخنا يكون ما في نسخنا تصحيحاً قطعاً لصحة نسخهما دون نسخنا ، و أمّا
 لو تفرّد كل واحد منهما فيشكل الترجيح ، و لا يبعد ترجيح نقل ابن ميثم لما عرفت من كون نسخه بخطّ
 المصنّف ، و إن كان هو رجّح عند خطبة همّام ترتيب نسخة ابن أبي الحديد ٣ ،
 و لأن كثيراً ممّا تفرّد بزيادته يبعد اختيار الرضي له لعدم كونه بتلك البلاغة .
 و الإشكال إنّما هو في ما لو وافقت نسخنا أحدهما ، و أمّا لو خالفتهما كما في الحكمة (٦٢) على ما
 عرفت فلا اعتبار بها لكونها على خلاف ما ، من قبيل الإجماع المركّب .
 هذا و لكون شرحي على صوغ بهج على ما من الله تعالى ، سمّيته بهج الصباغة في شرح نهج البلاغة .
 قال ابن دريد : يقال : أبهجنى هذا الأمر و بهجنى ، إذا سرّك ٤ .

- (١) جعل ابن ميثم الحكمتين (٣٤٣ ، ٣٤٤) حكمة واحدة أوردتها بعد الحكمة (٣٤١) ، شرح ابن ميثم ٥ : ٤٠٩ ، ٤١٠ .
- (٢) شرح ابن ميثم ٥ : ٣١٩ .
- (٣) شرح ابن ميثم ٣ : ٤١٣ .
- (٤) جمهرة اللغة لابن دريد ١ : ٢١٥ .

الصفحة ٤٣

شرح خطبة الرضى

الصفحة ٤٤

الصفحة ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم قال المصنّف قدّس سرّه :
 روى (العيون) عن الرضا عليه السّلام : أنّ بسم الله الرحمن الرحيم أقرب الى اسم الله الأعظم من سواد العين إلى بياضها ١ .
 و روى العياشي عن الصادق عليه السّلام : ما أنزل الله من السماء كتابا إلّا و فاتحته بسم الله الرحمن الرحيم ، و إنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداء للأخرى ٢ .
 « أمّا بعد » في (تاريخ الطبري) عن الهيثم بن عدي : أوّل من قال : « أمّا بعد »

(١) رواه عن الرضا عليه السّلام الصدوق في العيون ٢ : ٥ ح ١١ ، و العياشي في تفسيره ١ : ٢١ ح ١٣ ، و ابن طاووس في مهج الدعوات : ٣١٦ ، و أيضا رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ، و الحاكم في المستدرک ، و البيهقي في الشعب ، و أبو ذرّ الهروي في فضائله ، و الخطيب في التاريخ عنهم الدرّ المنثور ١ : ٨ ، و ابن النجار في التاريخ ، عنه منتخب كنز العمّال ١ : ٣٧١ ، و ابن طاووس في مهج الدعوات : ٣١٩ عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه و آله ، و رواه عاصم بن حميد في أصله : ٢٨ عن علي عليه السّلام ، و الطوسي في التهذيب عن الباقر عليه السّلام ٢ : ٢٨٩ ح ١٥ ، و ابن شعبة في تحف العقول : ٤٨٧ ، و الإربلي في كشف الغمّة ٣ : ٢١٠ ، و ابن طاووس في مهج الدعوات : ٣١٧ ، و المسعودي في اثبات الوصية : ٢١٢ عن العسكري عليه السّلام .

(٢) أخرجه العياشي في تفسيره ١ : ١٩ ح ٥ ، و السيارى في التنزيل و التحريف ، عنه المستدرك ١ : ٢٧٥ ح ٩ عن الصادق عليه السلام ، و أخرج معناه البرقي في المحاسن : ٤٠ ح ٤٩ ، و السيارى في التنزيل و التحريف ، عنه المستدرك ١ : ٢٧٦ ح ١٠ عن الصادق عليه السلام ، و الكليني في الكافي ٣ : ٣١٣ ح ٣ عن الباقر عليه السلام .

الصفحة ٤٦

قسّ بن ساعدة الإيادي ١ .
و عن أبي موسى الأشعري : أول من قال : « أمّا بعد » داود النبي عليه السلام ، و هي فصل الخطاب الذي ذكره الله تعالى عنه في ما آتاه ٢ .
و روى الصولي في (أدب الكاتب) أن أول من قاله كعب بن لؤي ٣ .
« حمد الله » أتى بلفظ الإضافة تنبيها على كمال اختصاص الحمد به تعالى ، و إلا فالمناسب لقوله بعد « و الصلّاة على رسوله » : الحمد لله .
« الذي جعل الحمدَ ثَمَنًا لِنِعْمَائِهِ » روى الصدوق عن الصادق عليه السلام : من قال في كلّ يوم سبع مرّات : الحمد لله على كلّ نعمة كانت أو هي كائنة ، فقد أدّى شكر ما مضى و شكر ما بقي ٤ .
و عنه عليه السلام : من قال أربع مرّات إذا أصبح « الحمد لله ربّ العالمين » فقد أدّى شكر يومه ، و من قالها إذا أمسى فقد أدّى شكر ليلته ٥ . و عنه عليه السلام : ما أنعم الله على عبد بنعمة صغرت أو كبرت فقال : « الحمد لله » إلا أدّى شكرها ٦ .
« و معاذًا من بلائه » المستتبع لترك حمده و شكره ، قال تعالى : (. . . و لئن كفرتم إنّ عذابي لشديد) ٧ .

(١) رواه الطبري في تاريخه ٥ : ٢٤ ، سنة (٧٢) . و الكراكي في كنز الفوائد : ٢٥٤ .
(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ٥ : ٢٤ ، سنة (٧٢) . و ابن أبي حاتم في تفسيره ، و الديلمي عنهما الدر المنثور ٥ : ٣٠٠ ،
و أخرج معناه الثعلبي في العرائس : ٢٧٧ ، و سعيد بن منصور في السنن ، و ابن أبي شيبة في مسنده ، و ابن سعد و عبد بن حميد في مسنده ، و ابن المنذر عنهم الدر المنثور ٥ : ٣٠٠ عن زياد .
(٣) رواه الصولي في أدب الكاتب : ٣٦ .
(٤) أخرجه الصدوق في ثواب الأعمال : ٢٤ ح ١ .
(٥) أخرجه الكليني في الكافي ٢ : ٥٠٣ ح ٥ ، و الصدوق في ثواب الأعمال : ٢٨ ، و رواه ابن فهد في عدّة الداعي ، عنه البحار ٩٣ : ٢١٦ ح ٢١ عن الصادق عليه السلام .

- (٦) أخرجه الكليني في الكافي ٢ : ٩٦ ح ١٤ عن الصادق عليه السلام .
 (٧) إبراهيم : ٧ .

الصفحة ٤٧

« وَ سَبِيلاً » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و وسيلا) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) ١ ، و الوكيل مفرد كالواصل و لغة في الوسيلة كما نقله (المصباح) ٢ ، لا جمع وسيلة كما توهمه (الصحاح) ٣ ، و تبعه ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخوئي ٤ ، و لو كان جمعا لصار المعنى : جعل الحمد وسائل إلى جنانه . و لا معنى له ، و المصنّف أيضا جعله مفردا كما يشهد له قوله قبل : « ثمنا و معادا » ، و بعد : « سببا » .

« إِلَى جَنَانِهِ » عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ : لَمَّا أُسْرِي بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قِيَعَانَا يِقْتَنَا مِنْ مَسْكَ ، وَ رَأَيْتُ فِيهَا مَلَائِكَةَ يَبْنُونَ لِبْنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَ لِبْنَةً مِنْ فِضَّةٍ ، وَ رَبَّمَا أَمْسَكُوا ، فَقُلْتُ لَهُمْ : مَا لَكُمْ وَ لِأَيِّ شَيْءٍ تَبْنُونَ مَرَّةً وَ تَمْسُكُونَ أُخْرَى ؟ قَالُوا : حَتَّى تَأْتِيَنَا النَّفَقَةُ . قُلْتُ : وَ مَا نَفَقَتُكُمْ ؟ قَالُوا : قَوْلَ الْمُؤْمِنِ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اللَّهُ أَكْبَرُ » فَإِذَا قَالَهُنَّ بَنِينَا ، وَ إِذَا سَكَتَ أَمْسَكْنَا . ٥

و في خبر آخر : إِذَا أُصْبِحْتَ وَ أَمْسَيْتَ فَقُلْ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَ اللَّهُ أَكْبَرُ » فَإِنَّ لَكَ بِذَلِكَ إِنْ قُلْتَهُ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ عَشْرَ شَجَرَاتٍ فِي الْجَنَّةِ

- (١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٨٩ .
 (٢) في المصباح المنير للفيومي ٢ : ٣٨٠ « الوكيل قيل جمع وسيلة ، و قيل لغة فيها » .
 (٣) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ١٨٤١ مادة (وسل) .
 (٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩٢ ، و شرح الخوئي ١ : ٨٣ .
 (٥) أخرجه أبو علي الطوسي في أماليه ٢ : ٨٨ ، المجلس (١٧) ، و علي بن إبراهيم في تفسيره بطريقين ١ : ٢١ ، و ٢ : ٥٣ ،

و النعماني و ابن قولويه في التفسير المنسوب إلى كليهما : ٨٣ ، و روى معناه علي بن إبراهيم في تفسيره ١ : ٢١ ، و الصدوق في أماليه : ٣٦٤ ح ٢ ، المجلس (٦٩) ، و النعماني و ابن قولويه في التفسير المنسوب إلى كليهما : ٨٢ ، و الراوندي في الدعوات عنه البحار ٩٣ : ١٧٤ ح ٢١ ، و الترمذي في السنن ٥ : ٥١٠ ح ٣٤٦٢ ، و ابن مردويه بثلاث روايات ، و الطبراني عنهما الدر المنثور ٤ : ١٥٣ .
 كلهم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ .

الصفحة ٤٨

من أنواع الفاكهة ، و هنّ من الباقيات الصالحات ١ .
« وَ سَبَبًا لَزِيَادَةِ إِحْسَانِهِ » قال تعالى : . . . لئن شكرتم لأزيدنكم . . . ٢ .
« وَ الصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِهِ نَبِيّ الرَّحْمَةِ » قال تعالى : و ما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ٣ .
« وَ إِمَامِ الْأُمَّةِ وَ سِرَاجِ الْأُمَّةِ » قال تعالى : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مَبَشِّرًا وَ نَذِيرًا . و داعياً
إلى الله بإذنه و سراجاً منيراً ٤ .
« المنتجب من طينة الكرم و سلالة المجد الأقدم ، و مغرس الفخار المعرق و فرع العلاء المثمر المورق »
الفقرات الأربع مأخوذة من زيارة جامعة مروية عن الهادي عليه السلام ٥ . و السلالة ما يستخرج من
الشيء باللطف و الخفاء ، قال تعالى :
و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ٦ .
و قال الشاعر :
و ما هند إلا مهرة عربيّة
سليلة أفراس تجلّ لها بغل
٧ و منه قوله تعالى : . . . يتسلّلون منكم لو إذا . . . ٨ ، و لذا يقال للسرقة

-
- (١) أخرجه الصدوق في أماليه : ١٦٩ ح ١٦ ، المجلس (٣٦) و البرقي في المحاسن : ٣٧ ح ٣٨ ،
و الكليني في الكافي ٢ : ٥٠٦ ح ٤ عن الباقر عليه السلام عن النبي صلّى الله عليه و آله .
(٢) إبراهيم : ٧ .
(٣) الأنبياء : ١٠٧ .
(٤) الأحزاب : ٤٥ ٤٦ .
(٥) أخرج الزيارة الجامعة الصدوق في العيون ٢ : ٢٧٧ ، و الفقيه ٢ : ٣٧٠ ح ٢ ، و الطوسي في
التهذيب ٦ : ٩٥ ح ١ ، كلّهم مسندا ، و رواها الكفعمي في البلد الأمين : ٢٩٧ مجردة عن الهادي عليه
السلام ، و صاحب الكتاب العتيق فيه ، عنه البحار ١٠٢ :
١٤٦ ح ٥ بلا عزو ، و ما أدري لم ذهب ظن الشارح الى أنّ الفقرات الأربع أخذت من هذه الزيارة .
(٦) المؤمنون : ١٢ .
(٧) نقل البيت لسان العرب ١١ : ٣٣٩ ، مادة (سلل) و هو منسوب إلى هند بنت النعمان .
(٨) النور : ٦٣ .

الخفيّة السّلة .

قال ابن أبي الحديد : سلالة المجد فرعه ١ ، و هو كما ترى . و الفخار بالفتح اسم مصدر من فخر كما قاله (المصباح) ٢ ، لا مصدره كما قال ابن أبي الحديد ، لعدم صحّة معنى المصدر هنا ، و لأنّ قبله و بعده أسماء لا مصادر كالطينة و السلالة و العلاء ، و ما قاله ابن أبي الحديد : من أنّ الفعل إذا كان (عينه) أو (لامه) حرف حلق يكون مصدره فعلا بالفتح ، نحو : ذهب و سمح ٣ ، لا يوجب أن يكون كلّ فعال بالفتح مصدرا لأعميته ، مع أنّه ليس لأصله كليّة ، فإنّ (سأل) ليس مصدره بالفتح ٤ .

« و على أهل بيته مصابيح الظلم ، و عصم الأمم ، و منار الدّين » قال ابن أبي الحديد : المنار الأعلام واحدا منارة ٥ .

و قال الخوئي : لم يصرّح أحد من اللّغويين بكون المنار جمعا لها (أي) :

للمنارة) ، فهذا (القاموس و المصباح) قالوا : جمع المنارة المناور و المنائر ٦ .

قلت : لم لم يراجع (النهاية) ؟ فإنّه قال في الحديث : « لعن الله من غير منار الأرض » ٧ . المنار جمع منارة و هي العلامة تجعل بين الحدين ، و منار الحرم أعلامه التي ضربها الخليل عليه السّلام على أقطاره و نواحيه ، و (الميم) زائدة ، و منه

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤ .

(٢) المصباح المنير للفيومي ٢ : ١٣٦ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٢ .

(٤) لم يدع ابن أبي الحديد كليّته ، فإنّه قال : « فقد جاء المصدر الثلاثي إذا كان عينه أو لامه حرف حلق على فعال بالفتح ، نحو : سمع سماعا ، و ذهب ذهابا » .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤ .

(٦) شرح الخوئي ١ : ٨٣ ، و القاموس المحيط ٢ : ١٤٩ ، مادة (نور) ، و المصباح المنير ٢ : ٣٤٢ مادة (نور) .

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه ٣ : ١٥٦٧ ح ٤٣ ، و النسائي في سننه ٧ : ٢٣٢ في ذيل حديث عن علي عليه السّلام عن النبيّ صلّى الله عليه و آله ، و روي الحديث بألفاظ أخرى .

الصفحة ٥٠

حديث أبي هريرة : « إنّ للإسلام ضوى و منارا » ١ . أي : علامات و شرائع يعرف بها ٢ .
و لم لم يراجع (الأساس) ؟ فقال : و اهتموا بمنار الأرض ، أي : بأعلامها ،

و هدم فلان منار المساجد ، منار جمع منارة ٣ .
 و لم لم يراجع (تهذيب الأزهري) ؟ فقال كما في (اللسان) : المنار جمع منارة ، و هي العلامة تجعل
 بين الحدّين و منار الحرم أعلامه التي ضربها إبراهيم الخليل عليه السلام على أقطار الحرم و نواحيه ، و
 بها تعرف حدود الحرم من حدود الحلّ ٤ .
 و لم خصّ اعتراضه ب (ابن أبي الحديد) ، و الأصل فيه المصنّف حيث جعله وصفا لأهل بيته كمصاييح
 و عصم قبلها و مثاقيل بعدها ؟

« الواضحة » صفة المنار و هو أيضا شاهد لكون المنار جمعا ، و يشهد لقول المصنّف قول الشاعر :

لعكّ في مناسمها منار

إلى عدنان و اضحة السبيل

٥ « و مثاقيل » الأصل في متقال الشيء لغة : وزانه من مثله ، و هو من الأسماء اللازمة للإضافة بحسب
 المعنى ، قال تعالى : فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره . و من يعمل مثقال ذرّة شرا يره ٦ ، و قال تعالى : .
 . . و إن كان متقال

-
- (١) أخرجه الحاكم في المستدرک عن أبي هريرة ، و له شاهد أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن
 أبي الدرداء عنهما الجامع الصغير ١ : ٩٥ .
 (٢) النهاية لابن الأثير ٥ : ١٢٧ ، مادة (نور) .
 (٣) أساس البلاغة : ٤٧٦ ، مادة (نور) .
 (٤) لسان العرب ٥ : ٢٤١ ، مادة (نور) .
 (٥) نقله لسان العرب ٥ : ٢٤١ ، مادة (نور) .
 (٦) الزلزلة : ٨٧ .

الصفحة ٥١

حبة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين ١ .
 ثم نقل بالعرف العام إلى وزن الدينار ، فيقال : هذا متقال ، أي متقال دينار . فيقطع عن الإضافة و ينوى
 المضاف إليه المعهود . و إذا ذكر المضاف إليه كما هو أصله و كما استعمله المصنّف ينسب إلى كلّ
 شيء .

« الفضل الراجحة » على فضل العالمين .

« صلّى الله عليهم أجمعين صلاة تكون ازاء » أي : وفاقا .

« لفضلهم » أي : فضائلهم النفسانية .

« و مكافأة » أي : جزاء .

« لعلهم » أي : أعمالهم الصالحة .

« و كفاء » أي : كفاً و نظيراً ، قال حسّان :

و روح القدس ليس له كفاء

. ٢

« لطيب فرعهم و أصلهم » روى (الكافي) عن معاوية بن وهب عن الباقر عليه السّلام في علائم الإمام :

طهارة الولادة و حسن المنشأ و لا يلهو و لا يلعب ٣ .

و في خبر آخر : إنّ الإمام لا يستطيع أحد أن يطعن عليه في فم و لا بطن و لا فرج ٤ .

« ما أثار فجر ساطع » أي : مرتفع .

« و خوى نجم طالع » أي : سقط و غرب .

« فإنّي » جواب أمّا .

(١) الأنبياء : ٤٧ .

(٢) نقله لسان العرب ١ : ١٣٩ ، مادة (كفا) .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٢٨٤ ح ٤ .

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٢٨٤ ح ٣ في ذيل حديث .

الصفحة ٥٢

« كنت في عنفوان السنّ » أي : أوّلّه .

« و غضاضة الغصن » أي : طراوته ، و غضاضة الغصن كناية عن أيّام الشباب ، كما أن نعومة الأظفار

كناية عن أيّام الطفولة .

« ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة عليهم السّلام » إنّ المصنّف مع أنّه لم يصل إلى حدّ الشيخوخة

لأنّ تولده كما قال الثعالبي ١ كان في سنة (٣٩٥) و توفي سادس المحرم سنة (٤٠٦) كما قال هو و

الخطيب و النجاشي و الجزري ٢ ، و قول ابن أبي الحديد : مات سنة (٤٠٤) ٣ فيكون توفي عن سبع و

أربعين سنة ، و لذا قال أخوه المرتضى في رثائه :

لله عمرك من قصير طاهر

و لربّ عمر طال بالأرجاس

٤ كانت له كتب نفيسة غير (الخصائص) الذي أشار اليه و غير نهجه هذا ،

و منها : كتاب (حقائق التنزيل) الذي قال في حقّه شيخه ابن جنّي ٥ و أحمد بن عمر بن روح ٦ : يتعذّر وجود مثله . و كتاب (مجاز القرآن) و كتاب (مجازات

- (١) يتيمة الدهر للثعالبي ٣ : ١٣١ .
- (٢) قاله الخطيب في تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٧ ، و النجاشي في الفهرست : ٢٨٣ ، و ابن الأثير في الكامل ٩ : ٢٦١ سنة (٤٠٦) ،
- و كذا قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤ : ٤١٩ ، و العلامة الحلي في الخلاصة : ١٦٤ ، و ابن ميثم في شرحه ١ : ٨٩ ،
- و السيد الحسنّي في عمدة الطالب : ٢١٠ ، لكن الثعالبي كان معاصرا للرضيّ و لم يتعرّض الى تاريخ وفاته في يتيمة الدهر ٣ : ١٣١ .
- (٣) قاله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ١٣ ، و نقله أيضا الطريحي في مجمع البحرين ١ : ١٨٩ مادة (رضا) نقلا عن جامع الأصول ، و نقله الخوانساري في الروضات ٦ : ١٩٧ عن مجمع البحرين ، و المحدث النوري في المستدرك ٣ : ٥١٠ عن الروضات ، و الظاهر انه من سهو الطريحي لأن ابن الأثير في جامع الأصول ١٢ : ٢٢٢ ذكر الرضي لكن لم يتعرّض لتاريخ وفاته .
- (٤) في ديوان الشريف المرتضى ٢ : ١٣٣ .
- و أمّا لعمرک من قصير طاهر و لربّ عمر طال بالأرجاس
- (٥) نقله عن ابن جنّي في بعض مجاميعه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤ : ٤١٦ .
- (٦) نقله عن ابن روح الخطيب في تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ .

الصفحة ٥٣

الأثار النبوية) و قد وصل إلينا جزء من الأوّل ، و تمام الأخيرين ١ ، و منها يظهر مقام أدبّيته كما يظهر من بياناته في النهج ، و كتاب (تعليق خلاف الفقهاء) ،

و كتاب تعليقه على إيضاح أبي علي الفارسي ، و كتاب (الجيد من شعر ابن الحجاج) ٢ ، و (كتاب مختار شعر أبي إسحاق الصابي) ، و كتاب (ما دار بينه و بين الصابي من الرسائل) ٣ ، و لم تصل هذه إلينا ، و كتاب ديوان شعره ، و قد وصل إلينا ٤ . و منه يظهر صدق ما قيل : إنّ الرضيّ أشعر الطالبين بل أشعر قريش أجمعين ٥ . فقالوا : ليس في قريش مجيد مكثّر سوى الرضيّ رضوان الله عليه ٦ .

« يشتمل على محاسن أخبارهم و جواهر كلامهم » يعني : جعل ذلك موضع كتابه .

« حداني » أي : بعثني .

« عليه » أي : على تأليف ذلك الكتاب .

(١) الأول طبع باسم حقائق التأويل في متشابه التنزيل بتحقيق آل كاشف الغطاء ، و اما الثاني فقد طبع باسم تلخيص البيان في مجازات القرآن بطهران فالقاهرة ثم بغداد ، و اما الثالث فقد طبع باسم المجازات النبوية ببغداد ثم القاهرة .

(٢) سمى نفسه هذا الكتاب : الحسن من شعر الحسين ، كما ذكر السيد الحسني في عمدة الطالب : ٢٠٨ ، و الشيخ الحرّ في أمل الآمل ٢ : ٢٦٣ لأن اسم ابن الحجاج الحسين . قال محمد عبد الغني : حسن . في مقدمة تلخيص البيان : ١٠٠ و قد ذكر ذلك في ديوانه المطبوع ببيروت سنة (١٣٠٧) و نقله المستشرق (متر) في كتابه : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ١ : ٤٤٩ .

(٣) قال عبد الحسين الحلي في مقدّمة حقائق التأويل : ٩١ بعني بذلك الرسائل الشعرية الموجودة كثير منها في ديوانه لا رسائل النثر ، و قال أيضا في هذه المقدمة : ٩١ كتاب رسائله (النثرية) ثلاثة مجلدات ، ذكر في الدرجات الرفيعة بعضها ، و نشرت مجلة العرفان شيئا منها .

(٤) طبع ديوان شعره مكررا .

(٥) أول من قال ذلك الثعالبي المعاصر للرّضيّ في يتيمة الدهر ٣ : ١٣١ قال : هو أشعر الطالبين . ثم قال : و لو قلت إنه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق .

(٦) نقله الخطيب في تاريخ بغداد ٢ : ٢٤٦ عن ابن محفوظ ، و عنه ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤ : ٤١٩ .

الصفحة ٥٤

« غرض » أي : مقصد ، و الأصل في معنى الغرض الهدف .

« ذكرته » أي : ذكرت ذلك الغرض .

« في صدر الكتاب » ذلك .

« و جعلته أمام الكلام » في المقاصد ، و غرضه الذي ذكره ثمّ دافعاه عن رمي مخالفه له بالواقفية ، و هذا نصّه ثمة : « سألتني أن أصنّف لك كتابا يشتمل على خصائص أخبار الأئمّة الاثني عشر على ترتيب أيامهم و تدريج طبقاتهم ١ فعاقني عن إجابتك إلى ملتسك ما لا يزال يعوق من نوائب الزمان و معارضات الأيام ، إلى أن أنهضني إلى ذلك اتفاق اتفق لي فاستنار حميتي ، و قوّى نيّتي و استخرج نشاطي و قدح زنادي ، و ذلك أنّ بعض الرؤساء ممّن غرضه القدح في صفاتي ، و الغمز لقناتي ، و التعطية على مناقبي ، و الدلالة على مثلبة إن كانت لي ، لقيني و أنا متوجّه عشية عرفة من سنة ثلاث و

ثمانين (و ثلاثمائة) هجرية إلى مشهد مولانا أبي الحسن موسى بن جعفر و أبي جعفر محمد بن علي بن موسى عليهما السلام للتعريف هناك ، فسألني عن متوجهي ، فذكرت له إلى أين قصدي ، فقال لي : متى كان ذلك ؟ يعني أن جمهور الموسويين جارون على منهاج واحد في القول بالوقف و البراءة ممن قال بالقطع ، و هو عارف بأن الإمامة مذهبي و عليها عقدي و معتقدي ، و إنما أراد التبكيت لي و الطعن على ديني . فأجبتة في الحال بما اقتضاه كلامه و استدعاه خطابه ،

و عدت و قد قوي عزمي على عمل هذا الكتاب إعلاناً لمذهبي ، و كشفاً عن مغيبتي ، و ردّاً على العدو الذي يتطلّب عيبي ، و يروم ذمي و قصبي « ٢ .
« و فرغت » في ذاك الكتاب .

(١) خصائص الأئمة : ١ .

(٢) خصائص الأئمة : ٣ .

الصفحة ٥٥

« من الخصائص التي تخصّ أمير المؤمنين علياً عليه السلام » في فواتح المييدي سمّاه أبوه علياً و قال :
سميته بعليّ كي يدوم له
عزّ العلوّ و خير العزّ أدومه
و فيه روى أبو حمراء عن النبيّ صلّى الله عليه و آله قال : رأيت ليلة المعراج مكتوباً على العرش : لا
إله إلاّ الله محمد رسول الله أيّدته بعليّ . و قال :
اسم على العرش مكتوب كما نقلوا
من يستطيع له محوا و ترقينا
و قال المييدي بالفارسيّة :
از مهر على كسى كه يابد عرفان
نامش همه دم نقش كند بر دل و جان
اين نكته طرفه بين كه ارباب كمال
يابند ز بيّات نامش ايمان
١ « و عاقت » أي : حبست .

« عن إتمام بقية الكتاب » في خصائص باقي الأئمة عليهم السلام .

« محاجزات » أي : ممانعات .

« الزمان » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (الأيَّام) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ٢ .

(١) الحديث مشهور رواه ابن عساكر و ابن الجوزي في الواهيات ، و الطبراني في معجمه الكبير عنهم منتخب كنز العمال ٥ : ٣٥ ، و الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٢٢٧ ، و الصدوق في أماليه : ١٧٩ ح ٥ المجلس (٣٨) ، و الخوارزمي في المناقب : ٢٢٩ ، و المحب الطبري في ذخائر العقبى عنه ينابيع المودة : ٢٠٧ ، و الحسن بن سليمان في المختصر عنه البحار ٢٧ : ١١ ح ٢٦ ، و رواه أيضا غير هؤلاء بطرق متعددة عنه و عن علي عليه السلام و أبي ذرّ و جابر بن عبد الله و ابن عباس و أنس و أبي هريرة ، و رواه أيضا عن أبي الحمراء ابن قانع و الطبراني و ابن مردويه إلى محمد رسول الله صلى الله عليه و آله عنهم الدر المنثور ٤ : ١٥٣ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٨٩ .

الصفحة ٥٦

« و مماطلات » أي : مدافعات .

« الأيَّام » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (الزَّمان) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ١ .

« و كنت قد بوّبت ما خرج من ذلك » في خصائص أمير المؤمنين عليه السلام .

« أبوابا ، و فضلته فضولا ، فجاء في آخرها » أي : آخر الفصول .

« فصل يتضمّن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في الحكم » هكذا في (المصرية) ، و

الصواب : (في المواعظ و الحكم) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة ٢) .

« و الأمثال و الأدب » و ما في ذلك الفصل هو الذي جعله في النهج الباب الثالث منه .

« دون الخطب الطويلة ، و الكتب المبسّطة » كما هو موضوع البابين الأولين من النهج .

« فاستحسن جماعة من الأصدقاء » له .

« و الإخوان » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : زيادة الكلمة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن

ميثم و الخطبة) ٣ .

« ما اشتمل عليه الفصل المقدّم ذكره » المتضمّن ما نقله عنه عليه السلام من الكلام القصير في المواعظ و

الحكم و الأمثال و الأدب .

« معجبين ببدايعه و متعجّبين » الفرق بين الإعجاب و التعجّب : أنّ الإعجاب بشيء الاستحسان له ، و

التعجّب من شيء : استغرابه ، سواء كان من حسن أو

- (١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٨٩ .
 (٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٨٩ .
 (٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٨٩ .

الصفحة ٥٧

قبح ، و الاسم من الأول العجب بالضم فالسكون ، و من الثاني العجب بفتحين .
 قال الشاعر :

و آل ما كان من عجب إلى عجب

١ أي : انقلب عجه بشبابه بتعجبه من شيبته .

« من نواصعه » أي : سواطعه . قال :

و لم يأتك الحق الذي هو ناصع

٢ « و سألوني عند ذلك » أي : استحسنهم لذاك الفصل من كتاب الخصائص .

« أن أبتدى بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام » لا كلى كلام نقل عنه عليه السلام .

« مولانا » هكذا في (المصرية) ، و الكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة

(٣ .

« أمير المؤمنين عليه السلام في جميع فنونه و متشعبات غصونه » و لا يختص بشيء دون شيء .

« من خطب » خطب بها الناس .

« و كتب » كتبها إلى أوليائه و أعدائه و عماله .

« و مواعظ » الوعظ : التنكير بالعواقب .

« و آداب » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و أدب) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و

الخطبة) (٤ .

« علما » مفعول له لقوله قبل « و سألوني » .

(١) أورده ابن أبي الحديد ١ : ١٥ و نسبه الى أبي تمام ، و صدره :

أبدت أسي اذ رأنتي مخلص القصب

(٢) أورده أساس البلاغة : ٤٥٩ مادة (نصع) و الشاعر : النابغة .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٨٩ .

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١١ ، لكن في شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ « آداب » .

الصفحة ٥٨

« أن ذلك » أي : كتاب من كلامه عليه السلام في كل فنّ .
 « يتضمّن من عجائب البلاغة ، و غرائب الفصاحة » و الأصل في الفصاحة انطلاق اللسان خالصا من
 اللكنة ، كما أنّ الأصل في البلاغة بلوغ المراد في بيانه ، ثمّ نقلا عند أهل البيان بما اشتهر .
 « و جواهر العربية ، و ثواقب الكلم الدنيوية » أي : متلالاتها من قولهم : كوكب ثاقب . أي شديد التألؤ ،
 و يقال : درّ مثقّب ، و برقع مثقّب . و سمى شاعر مثقّبا بقوله :
 أرين محاسنا و كنىّ أخرى
 و ثقبن الوصاوص للعيون
 ١ « و الدنيوية » هكذا في (المصرية) ، و الصواب (و الدنياوية) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم
 و الخطيئة) ٢ و إن كان الأول أيضا صحيحا ، قال الجوهرى : النسبة إلى الدنيا دنياوي . و يقال دنياوي و
 دنياي ٣ .

« ما لا يوجد مجتمعا في كلام ، و لا مجموع الأطراف في كتاب » فإنّ الكلام إنّما يحسن لفظه أو معناه ،
 فكيف إذا كان جامعا بين الحسنين ، ككلامه عليه السلام ؟ فليقل في ألفاظ كلامه عليه السلام ، و في معاني
 كلماته ما قيل :

ألفاظ كغمزات الألفاظ . و معان كأنها فكّ عان . ألفاظ كما نورّت الأشجار . و معان كما تنفّست الأسحار
 . ألفاظ قد استعارت حلاوة العتاب بين الأحباب ، و معان استلانت كتشكي العشاق يوم الفراق . ألفاظ
 كالبشرى مسموعة أو أراهير الرياض مجموعة ، و معان كأنفاس الرياح تعبق بالريحان و الراح . ألفاظ
 هي خدع الدهر ، و معان هي عقد السّحر . ألفاظ تأنق خاطر في

(١) أورده أساس البلاغة : ٤٥ مادة (ثقب) .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١١ ، لكن في شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ « الدنيوية » .

(٣) صحاح اللّغة للجوهري ٦ : ٢٣٤١ مادة (دنو) .

الصفحة ٥٩

تذهيبها ، و معان عنى الفهم بتهذيبها . ألفاظ حسبته من رقتها منسوخة في صحيفة الصّبا ، و معان ظننتها
 من سلاستها مكتوبة في نحر الهوى . ألفاظ أنوار ، و معان ثمار .

و كيف لا يكون كلامه عليه السلام كذلك و كلامه دون كلام الخالق و فوق كلام المخلوق ، و كلامه من ملوك الكلام ؟ و قال أبو أحمد العسكري في (زواجه) بعد نقل وصيته عليه السلام لابنه : لو كان من الحكمة ما يجب أن يكتب بالذهب لكانت هذه ١ .

« إذ كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع » الأصل في المشرع : شرع الماء ، و به سميت الشرائع ، و قالوا : الشرائع نعم الشرائع ، من وردها روي ، و إلا دوي .

« الفصاحة » في (أمالي الشيخ) سئل أمير المؤمنين عليه السلام : من أفصح الناس ؟ قال : المجيب المسكت عند بديهة السؤال ٢ .

« و موردها » الأصل في المورد ورود الماء ، كالمصدر الصدور عنه .

« و منشأ البلاغة و مولدها » في خلفاء ابن قتيبة : فرّ محفن منه عليه السلام إلى معاوية ، فقال له معاوية : من أين جئت ؟ قال : من عند أعيان الناس . فقال له معاوية : ويحك ما سنّ الفصاحة لقريش غير عليّ ٣ .

و في (الخصال) عن الشعبي قال : تكلم أمير المؤمنين (عليّ) عليه السلام بتسع كلمات ارتجلهنّ ارتجالاً ، فقأن عيون البلاغة ، و أئتمن جواهر الحكمة ، و قطعن

(١) رواه عن المواعظ للعسكريّ ابن طاووس في كشف المحجّة : ١٥٧ .

(٢) أخرجه أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢ : ٣١٤ ، المجلس (٢٢) .

(٣) في تاريخ الخلفاء و هو الإمامة و السياسة لابن قتيبة ١ : ١١٤ ما لفظه : « و ذكروا أنّ عبد الله بن أبي محجن الثقفي قدم على معاوية فقال : يا أمير المؤمنين إنّي أتيتك من عند الغبيّ الجبان البخيل ابن أبي طالب . فقال معاوية : لله أنت أ تدري ما قلت ؟ أمّا قولك الغبيّ ، فو الله لو أنّ ألسن الناس جمعت لساناً واحداً لكفاها لسان عليّ » و لكن ذكر لفظ الكتاب ابن أبي الحديد ١ : ٨ ، و غيره عن محفن بن أبي محفن و معاوية .

الصفحة ٦٠

جميع الأنام عن اللحاق بواحدة منهنّ ، ثلاث منها في المناجاة ، و ثلاث منها في الحكمة ، و ثلاث منها في الأدب ، فأما اللاتي في المناجاة فقال : اللهمّ كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً ، و كفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً . أنت كما أحب فاجعلني كما تحبّ . و أما اللاتي في الحكمة فقال : قيمة كلّ امرئ ما يحسنه ، و ما هلك امرؤ عرف قدره ، و المرء مخبوء تحت لسانه . و أما اللاتي في الأدب فقال : امنن على من شئت تكن أميره ، و احتج الى من شئت تكن أسيره ، و استغن عن من شئت تكن نظيره ١ .

و قال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السلام : « سلكوا في بطون البرزخ . . . » : لو اجتمع فصحاء العرب قاطبة في مجلس و تلي عليهم هذا الكلام ، ينبغي أن يسجد و اله كما سجد الشعراء لقول عدي بن الرقاع :

قلم أصاب من الدواة مدادها فلما قيل لهم في ذلك ، قالوا : إنا نعرف مواضع السجود في الشعر كما تعرفون مواضع السجود في القرآن ٢ .

هذا ، و في (الأغاني) : كان إبراهيم بن المهدي شديد الانحراف عن عليّ عليه السلام فقال يوما للمأمون : إني رأيت عليّاً في النوم ، فقلت له : من أنت ؟ فقال :

عليّ . فمشينا حتى جئنا قنطرة ، فذهب يتقدمني لعبورها فأمسكته ، و قلت له : إنما أنت رجل تدعي هذا الأمر بأمرته ، و نحن أحقّ به منك . فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يوصف عنه . فقال له المأمون : و أي شيء قال لك ؟ فقال : ما زادني على أن قال : سلاما سلاما . فقال له المأمون : قد و الله أجابك أبلغ جواب .

قال : و كيف ؟ قال : عرفك أنك جاهل لا يجاب بمثلك ، قال تعالى : . . . و إذا

(١) أخرجه الصدوق في الخصال : ٤٢٠ ح ١٤ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٥١ شرح الخطبة (٢١٩) .

الصفحة ٦١

خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ١ فخجل إبراهيم ، و قال للمأمون : ليتني لم أحدثك بهذا الحديث ٢ . « و منه عليه السلام ظهر مكنونها » أي : مستورها .

« و عنه أخذت قوانينها » مرّ أن معاوية قال : ما سنّ الفصاحة لقريش غير عليّ ٣ .

« و على أمثله » أمثلة جمع المثال .

« هذا » من حذوت النعل بالنعل إذا قطعها ممانته .

« كلّ قائل خطيب » في (مروج المسعودي) : و الذي حفظ الناس عنه [عليّ] عليه السلام من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة و نيّف و ثمانون خطبة يوردها على البديهة ، و تداول الناس ذلك عنه قولاً و عملاً ٤ .

« و بكلامه استعان كلّ واعظ بليغ » قال ابن نباتة الواعظ المعروف و هو استاذ المصنّف : حفظت من الخطابة كنزا لا يزيد الانفاق إلاّ سعة و كثرة ، حفظت مائة فصل من مواضع عليّ بن أبي طالب عليه السلام ٥ .

و كذا استعان بكلامه عليه السّلام كلّ كاتب مجيد ، قال عبد الحميد الكاتب كاتب مروان بن محمّد ، و هو الذي قيل فيه : إنّ الكتابة فتحت به : حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثمّ فاضت ٦ .

(١) الفرقان : ٦٣ .

(٢) الأغاني ١ : ١٢٦ .

(٣) مرّ في شرح فقرة : « و منشأ البلاغة » نقلا عن ابن قتيبة .

(٤) مروج الذهب للمسعودي ٢ : ٤١٩ .

(٥) نقل هذا عن ابن نباتة ، و عبد الحميد ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٨ بهذا اللفظ ، و يأتي قول عبد

الحميد بلفظ آخر عن الجهشياري في الوزراء : ٨٢ ، و أمّا قراءة الرضي على ابن نباتة فقد ذكرها السيد

علي خان في الدرجات الرفيعة : ٤٥٩ .

(٦) المصدر نفسه .

الصفحة ٦٢

و في (صناعة أبي هلال العسكري) : أخذ إبراهيم بن العباس الصولي قوله : « إذا كان للمحسن من الثواب ما يقنعه ، و للمسيء من العقاب ما يقمعه ازداد المحسن في الإحسان رغبة ، و انقاد المسيء للحق رهبة » من قول علي بن أبي طالب عليه السّلام : « يجب على الوالي أن يتعهّد أمره ، و يتفقّد أعوانه ، حتّى لا يخفى عليه إحسان محسن ، و لا إساءة مسيء » ١ .

و قال الجاحظ : كان جعفر بن يحيى البرمكي من أبلغ الناس و أفصحهم للقول و الكتابة ، يضمّ اللفظة إلى أختها ، و سمعته يقول : ناهيك حسنا بقول عليّ بن أبي طالب عليه السّلام : « هل من مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو قرار أو مجاز » . و كان يتعجّب من قول عليّ عليه السّلام : « أين من جدّ و اجتهد ، و جمع و احتشد ، و بنى و شيّد ، أو فرش فمهّد ، أو زخرف فنجدّ » . قال : ألا ترى أنّ كلّ لفظة منها أخذت بعنق قرينتها ، جاذبة إيّاها إلى نفسها ، دالة عليها بذاتها ٢ .

و قال محمّد بن يعقوب الكليني في (كافيّه) بعد ذكر خطبة له عليه السّلام في باب جوامع التوحيد : هذه الخطبة هي كافية لمن طلب علم التوحيد إذا تدبّرها ، و فهم ما فيها . فلو اجتمع ألسنة الجنّ و الإنس ليس فيها لسان نبيّ على أن يبيّنوا التوحيد بمثل ما أتى عليه السّلام به بأبي و أمّي ما قدروا عليه ، و لو لا إبانته عليه السّلام ما علم الناس كيف يسلكون سبل التوحيد ٣ .

قلت : هو عليه السّلام مصداق ما قيل :

إذا نهضت فأنت نجم ثاقب

و إذا جلست فأنت ليث رابض

فبك التمثّل حين ينعت فاضل
و اليك يرجع حين يشكل غامض

(١) الصناعتين للعسكري : ٢١٤ .

(٢) جاء ذكر جعفر بن يحيى البرمكيّ في البيان و التبيين ١ : ١٢٨ بغير هذه الألفاظ .

(٣) الكافي ١ : ١٣٦ .

الصفحة ٦٣

و ممّن استعان بكلامه عليه السّلام عبد الملك بن صالح العبّاسي و كان من خطبائهم في وصاياهم لابنه و نقلها الجاحظ في بيانه ١ أخذها من وصاياهم عليه السّلام لابنه ، و كذلك طاهر بن الحسين ذو اليمينين الذي كتب وصيّة طويلة لابنه عبد الله بن طاهر ، فأمر المأمون بحفظها و كتابتها ٢ ، أخذها من الوصية الجامعة له عليه السّلام ، بل كان بعض الخطباء يخطب بعين خطبه عليه السّلام ، كخطبة يوسف بن عمر النّفقي عامل هشام بن عبد الملك على الكوفة : « اتّقوا الله عباد الله فكم من مؤمّل أملا لا يبلغه ، و جامع مالا لا يأكله ، و مانع ما سوف يتركه ، و لعلّه من باطل جمعه ، و من حقّ منعه . . . » ٣ .

و كخطبة قطري بن فجاعة أحد أمراء الخوارج : « أمّا بعد فإنّي أحذركم الدنيا فإنّها حلوة خضرة ، حفت بالشهوات ، و راقت بالقليل ، و تحببت بالعاجلة ، و حليت بالأمال ، و تزيّنت بالغرور . لا تدوم حبرتها ، و لا تؤمن فجعتها . . . » ٤ .

ذكر خطبتيهما الجاحظ في بيانه .

و كخطبة المأمون يوم الجمعة ، ذكرها ابن قتيبة في (عيون) ٥ ، و أخذ فضيل بن عياض المعروف بالزهدي كلامه عليه السّلام لشريح القاضي لما اشترى دارا ، فقاله بعينه لفيض بن إسحاق لما اشترى دارا ، كما نقله (الحلية) ٦ ، و أخذ

(١) نقل الجاحظ في البيان و التبيين ٢ : ١٢٢ ، و ٣ : ٤٠٨ وصاياهم لابنه ، لكن المقايسة ليست من الجاحظ .

(٢) نقل وصيّة طاهر الطبري في التاريخ ٧ : ١٦٠ ، سنة (٢٠٦) و نقل أمر المأمون أيضا الطبري في التاريخ ٧ : ١٦٨ ، سنة (٢٠٦) .

(٣) نقلها الجاحظ في البيان و التبيين ٢ : ١٦٣ .

(٤) نقلها الجاحظ في البيان و التبيين ٢ : ١٤٤ ، و نفى ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ٢٤٢ شرح

الخطبة (١٠٩) كون الخطبة لقطري .

(٥) رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ : ٢٥٣ .

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨ : ١٠١ .

الصفحة ٦٤

تفسيره عليه السلام لقوله تعالى : . . . إنا لله و إنا إليه راجعون ١ أبو يزيد البسطامي كما نقله أيضا ٢ .
و في (وزراء الجهشيارى) قيل لعبد الحميد بن يحيى : ما الذي مكّنك من البلاغة و خرّجك ؟ فقال : حفظ
كلام الأصلع . يعني أمير المؤمنين عليه السلام ٣ .
و قال (ابن أبي الحديد) في شرح قوله عليه السلام : « ألا و إنّ اللسان بضعة من الإنسان » : قد أخذ
هذه الألفاظ بعينها أبو مسلم الخراساني ، فخطب بها في خطبة مشهورة من خطبه ٤ .
« و مع ذلك فقد سبق و قصّروا و تقدّم و تأخّروا » أي : في ما أخذوا من كلماته عليه السلام في كلامهم و
في ما استعانوا بجمالاته عليه السلام في مقالاتهم ، قال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السلام : « أمّا بعد ،
فإنّ الجهاد باب من أبواب الجنة » : إنّ التحريض على الجهاد ، و الحضّ عليه قد قال فيه الناس فأكثرُوا ،
و كلّهم أخذوا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، فمن جيّد ذلك ما قاله ابن نباتة الخطيب : أيّها الناس إلى
كم تسمعون الذّكر فلا تعون الى أن قال ابن أبي الحديد هذه آخر خطبة ابن نباتة . فانظر إليها و إلى خطبته
عليه السلام (أي المتقدّمة) بعين الانصاف تجدها بالنسبة إليها كمنخث بالنسبة إلى فحل ، أو كسيف من
رصاص بالنسبة إلى سيف من حديد . و انظر ما عليها من أثر التوليد ، و شين التكلّف ، و مجاجة كثير
من الألفاظ ، ألا ترى إلى فجاجة قوله : كأنّ أسماعكم تمجّ و دائع الوعظ ، و كأنّ قلوبكم بها استكبار عن
الحفظ الى أن قال إنّي أضرب لك مثلا تتخذة دستوراً في كلام أمير المؤمنين عليه السلام و كلام الكتاب و
الخطباء بعده

(١) البقرة : ١٥٦ .

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠ : ٣٩ .

(٣) الوزراء للجهشيارى : ٨٢ ، و النقل بتصرّف يسير .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٨٤ ، شرح الخطبة (٢٣١) .

الصفحة ٦٥

كابن نباتة و الصابئ و غيرهما ، انظر نسبة شعر أبي تمام ، و البحتري ، و أبي نواس ، و مسلم إلى شعر
امرئ القيس و النابغة و زهير و الأعشى الى أن قال بعد ذكر تضمين ابن نباتة جملة قوله عليه السلام : «
ما غزي قوم في عقر دارهم إلاّ ذلّوا » انظر كيف تصيح من بين الخطبة صياحا ، و تتادي على نفسها نداء

فصيحا ، و تعلم سامعها أنها ليست من المعدن الذي خرج باقي الكلام منه ، و لا من الخاطر الذي صدر ذلك السجع عنه . و لعمر الله لقد جملت الخطبة و حسنتها و زانتها ، و ما مثلها فيها إلا كآية من الكتاب العزيز ، يتمثل بها في رسالة أو خطبة ١ .

« و لأنّ » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (لأنّ) بدون العاطف كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ٢ .

« كلامه عليه السّلام الذي عليه مسحة من العلم الالهي » المسحة أن يبقى أثر المسح على المسحوع عليه ، قال ذو الرّمة :

على وجه مية مسحة من ملاحه

٣ و لنعم ما قال الميبيدي في شرح الديوان المنسوب اليه عليه السّلام :

شاهد كه مهش غلام و مهر است كنيز

ناطق بكمال اوست قرآن عزيز

گر قدر كلام او رفيع است چه دور

در خانه به كدخدای ماند همه چیز

« و فيه عبقة » من عقب به الطيب لزمه .

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤٢ ١٤٤ شرح الخطبة (٢٧) .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ .

(٣) لسان العرب ٢ : ٥٩٦ مادة (مسح) .

الصفحة ٦٦

« من الكلام النبويّ » و كيف لا يكون كذلك و قد قال النبي صلّى الله عليه و آله : « أنا مدينة العلم و عليّ بابها » ؟ ١ في (فهرست منتجب الدّين) : الشيخ القاضي جمال الدّين محمد بن الحسين بن محمد بن القريب قاضي قاشان فاضل فقيه ، كان يكتب نهج البلاغة من حفظه ، و له رسالة العبقة في شرح قول السيّد الرضيّ في خطبة النهج : « عليه مسحة من العلم الإلهي ، و فيه عبقة من الكلام النبويّ » ٢ .

و قال ابن أبي الحديد عند الكلام في خطبة الجهاد المتقدّمة : إنّ الناس قد اتفقوا على أن القرآن في أعلى طبقات الفصاحة ، و تأمله تأملا شافيا ، و انظر إلى ما خصّ به من مزية الفصاحة ، و البعد عن التقعرّ و التعقيد ، و الكلام الوحشي الغريب ، و انظر كلام أمير المؤمنين عليه السّلام فإنك تجده مشتقا من ألفاظه ، و مقتضبا من معانيه و مذاهبه ، و محذوا به حذوه ، و مسلوكا به في منهاجه ، فهو و إن لم يكن نظيرا و

لا ندّا يصلح أن يقال : إنه ليس بعده كلام أفصح منه ، و لا أجزل ، و لا أعلى ، و لا أفخم ، و لا أنبل ، إلا أن يكون كلام ابن

(١) رواه العقيلي في الضعفاء ، و ابن عدي في الكامل ، و الطبراني في معجمه الكبير ، و الحاكم في المستدرک عنهم الجامع الصغير ١ : ١٠٨ ، و ابن المغازلي في المناقب بثلاث طرق : ٨١ ، ٨٣ ، و الخوارزمي في المناقب ٤٠ ، و الحسكاني بطرق متعددة في شواهد التنزيل ١ : ٨١ ح ١١٨ ، و ابن أخي تبوك في مسنده ، منتخب السند : ٤٢٦ ح ٢ ، و الديلمي في الفردوس ، و الجويني في فرائد السمطين عنهما ينابيع المودة : ٧٢ عن ابن عباس ، و رواه ابن عدي في الكامل ، و الحاكم في المستدرک عنهما الجامع الصغير ١ : ١٠٨ ، و ابن المغازلي في المناقب بطريقتين : ٨٠ ، ٨٤ ، و البزاز في مسنده ، و الطبراني في معجمه الأوسط عنهما ينابيع المودة : ٢٨٢ عن جابر بن عبد الله ، و أخرجه أحمد في الفضائل عنه تذكرة الخواص : ٤٨ ، و ابن المغازلي بطريقتين : ٨٢ ، ٨٥ ، و الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٣٣٤ ح ٤٥٩ ، و أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢ : ١٩٠ ، المجلس (٥) ، و الصدوق في العيون ٢ : ٦٦ ح ٢٩٨ عن علي عليه السلام ، و في الباب أحاديث بهذا اللفظ عن الثلاثة و أبي سعيد الخدري و حذيفة بن اليمان و كعب بن عجرة و أنس و ابن مسعود و الحسن عليه السلام و الصادق عليه السلام و الصنابجي و سلمة و غيرهم ، و روي أيضا بألفاظ أخرى لم يسعها المقام .

(٢) الفهرست لمنتجب الدين : ١٧٦ .

الصفحة ٦٧

عمّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ١ .
 و قال أيضا عند قوله عليه السلام : « عالم السرّ من ضمائر المضميرين . . . » : لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقاتله : ما قاله عليّ بن العباس بن جريح لإسماعيل بن بلبل :
 قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
 كلاً و لكن لعمرى منه شيبان
 و كم أب قد علا بابن نرى شرفاً
 كما علا برسول الله عدنان
 إذ كان يفخر به على عدنان و قحطان ، بل كان يقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ، و يقول النضر له :
 لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد ، بل أخرج الله تعالى لك من ظهري ولدا ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تبدعه أنت في جاهلية النبط ، بل لو سمع هذا الكلام أرسطاطاليس القائل بأنه تعالى لا يعلم الجزئيات ٢ لخشع قلبه ، و قفّ شعره ، و اضطرب فكره . ألا ترى ما عليه من الرواء و المهابة ، و

العظمة و الفخامة ، و المتانة و الجزالة مع ما قد أشرب من الحلاوة و الطلاوة ، و اللطف و السلاسة ؟ لا أرى كلاما يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه ، فإنّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة ، و جدول من ذلك البحر ، و جذوة من تلك النار ٣ .

و قال في شرح قوله عليه السلام : « و منها في صفة الأرض » من الخطبة (٨٩) : في بيان أنّه عليه السلام إمام أرباب صناعة البديع ، و ذلك لأن هذا الفن لا يوجد منه في كلام غيره ممن تقدّمه إلا ألفاظ يسيرة غير مقصودة ، و لكنها واقعة بالاتفاق ،

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٤٣ شرح الخطبة (٢٧) .

(٢) قال الفارابي في كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين : ١٠٦ في تفسير قول أرسطو بهذا القول مجملا ، و نسبه إلى افلاطون و أرسطو ، و الظاهر اشتراك جمهور الحكماء فيه ، كما نقله الغزالي في المنقذ من الضلال : ٥١ ، و العلامة الحلّي في كشف المراد : ٢٢٢ ، و غيرهما .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ شرح الخطبة (٨٩) .

الصفحة ٦٨

كما وقع التجنيس في القرآن العزيز اتفاقا غير مقصود ، و ذلك نحو قوله :
يا أسفا على يوسف . . . ١ ، و كما وقعت المقابلة أيضا غير مقصودة في قوله : و السماء رفعها و وضع
الميزان ٢ ، على أنّها ليست مقابلة في المعنى ، بل من اللفظ خاصّة . و لما تأمل العلماء شعر امرئ القيس
و وجدوا فيه من الاستعارة بيتا أو بيتين ، نحو قوله يصف الليل :

فقلت له لِمَا تَمَطَّى بصلبه

و أردف اعجازا و ناء بكلل

و قوله :

و إن يك قد ساءتكَ مني خليقة

فسلّي ثيابي من ثيابك تنسل

٣ و لم ينشدوا مثل ذلك في أشعار الجاهلية حكموا له بأنّه إمام الشعراء و رئيسهم .

و هذا الفصل من كلام أمير المؤمنين عليه السلام قد اشتمل من الاستعارة العجيبة و غيرها من أبواب البديع على ما لو كان موجودا في ديوان شاعر مكثّر ، أو مترسّل مكثّر ، لكان مستحقّ التقديم بذلك ، ألا تراه كيف وصف الأمواج بأنّها مستفحلة ، و أنّها ترغو رغاء فحول الإبل . ثم جعل الماء جماعاً ثمّ وصفه بالخضوع ، و جعل للأرض كلكلا ، و جعلها واطئة للماء به ، و وصف الماء بالذلّ و الاستخذاء ، لمّا جعل الأرض متمعكة عليه كما يتمعك الحمار أو الفرس ، و جعل لها كواهل ، و جعل للذلّ حكمة ، و جعل

الماء في حكمة الذلّ منقاداً أسيراً ، و ساجياً مقهوراً ، و جعل الماء قد كان ذا نخوة و بأو و اعتلاء ، فردّته الأرض خاضعا مسكينا ، و طأطأت من شموخ أنفه ، و سموّ غلوائه ،

(١) يوسف : ٨٤ .

(٢) الرحمن : ٧ .

(٣) أورده كذلك في المعلقات السبع : ٢٠ ، لكن في الديوان : ١٨ ، و لسان العرب ١١ : ٥٩٧ مادة (كلل) بدل (صلبه) : (جوزة) .

الصفحة ٦٩

و جعلها كاعمة له ، و جعل الماء ذا كظّة بامتلائه ، كما تعتري الكظّة المستكثر من الأكل ، ثم جعله هامدا بعد أن كانت له نزقات ، و لايدا بعد أن كانت له و ثبات ، ثم جعل للأرض أكتافا و عرانيين ، و أنوفا و خياشيم ، ثم نفى النوم عن وميض البرق ، و جعل الجنوب مارية درر السحاب ، ثم جعل للسحاب صدرا و بوانا ، ثم جعل الأرض مبهجة مسرورة مزدهاة ، و جعل لها ريبا من لباس الزهور ، و سموطا تحلّى بها . فيا لله و للعجب من قوم زعموا أن الكلام إنما يفضل بعضه بعضا لاشتماله على أمثال هذه الصنعة ، فإذا وجدوا في مائة ورقة كلمتين أو ثلاثا منها ، أقاموا القيامة ، و نفخوا في الصّور و ملؤوا الصحف بالاستحسان لذلك و الاستظراف ، ثم يمرّون على هذا الكلام المشحون كله بهذه الصنعة على أطف وجه ، و أرصع وجه ، و أرشق عبارة ، و أدقّ معنى ، و أحسن مقصد ، ثم يحملهم الهوى و العصبية على السكوت عن تفضيله إذا أجملوا و أحسنوا ، و لم يتعصبوا لتفضيل غيره عليه . على أنه لا عجب ، فإنه كلام عليّ عليه السلام ، و حظّ الكلام حظّ المتكلم ، و أشبه امرأ بعض بزّه ١ .

قلت : ما قاله ابن أبي الحديد ليس يحسن على إطلاقه ، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام هو النّبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون ٢ ، فإذا كان أعداؤه كذلك فإنّ أوليائه يعترفون بالعجز عن وصف محاسنه ، و أنّ كلامه تالي القرآن الذي قال جل و علا فيه : قل لئن اجتمعت الإنس و الجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا ٣ . و لا يحطّ

(١) أورده الزمخشري في المستقصى ١ : ١٨٧ ثم قال يضرب في مماثلة الشيء صاحبه .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٩ شرح الخطبة (٨٩) و قد جاء في الأخبار أنّ عليّا عليه السلام هو

النّبأ العظيم ، أخرجه عليّ بن إبراهيم في تفسيره ٢ : ٤٠١ ، و الفرات الكوفي في تفسيره : ٢٠٢ و

الحسكاني في شواهد التنزيل ٢ : ٣١٧ ، ٣١٨ بطرق متعدّدة : و ذلك في تفسير قوله تعالى : . . . عن
النبا العظيم . الذي هم فيه مختلفون النبا : ٣٢ .
(٣) الاسراء : ٨٨ .

الصفحة ٧٠

علوه عمل أعدائه ، و لنعم ما قيل بالفارسية :

شب پره گر وصل آفتاب نخواست

رونق بازار آفتاب نکاهد

١ و قال سبط ابن الجوزي في (تذكرته) : كان عليّ عليه السّلام ينطق بكلام قد حف بالعصمة و يتكلّم
بميزان الحكمة . كلام ألقى الله عليه المهابة ، فكلّ من طرق سمعه راعه فهابه ، و قد جمع الله له بين
الحلاوة و الملاحة ، و الطلاوة و الفصاحة . لم يسقط منه كلمة ، و لا بارت له حجّة . أعجز الناطقين ، و
حاز قصب السبق في السابقين . ألفاظ يشرق عليها نور النبوة ، و يحير الأفهام و الأبواب ٢ .

قلت : و لا غرو أن يكون على كلامه عليه السّلام مسحة من العلم الإلهي ، و كان كرارا يقول : « أنا أعلم
بطرف السماء مني بطرف الأرض » ٣ .

و كان عليه السّلام يقول : « لو تثبت لي الوسادة لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم ، و أهل الإنجيل بإنجيلهم ،
و أهل الفرقان بفرقانهم ، حتّى ينطق كلّ منها و يقول :
إنّ عليّاً قضى فيّ بما أنزل الله تعالى فيّ » ٤ .

و كيف لا يكون في كلامه عبقة من الكلام النبوي ، و قد جعلهما الله تعالى في آية المباهلة نفسا واحدة ٥ ؟
و كان عليه السّلام يقول : « أنا من النبي صلّى الله عليه و آله

(١) أورده دهخدا في أمثال و حكم ٢ : ١٠١٣ و الشاعر : سعدي ، و ترجمة البيت : « ان كان الخفاش
لا يريد وصال الشمس فليس ذلك بقادح في منزلتها » .

(٢) تذكرة الخواص : ١١٩ .

(٣) رواه الإربلي في كشف الغمة ١ : ١٣٠ ، و الأمدى في غرر الحكم ، الفصل (٣٩) ح ٨٥ ، و
شاذان في الفضائل : ٩٨ .

(٤) أخرجه الصفار في بصائر الدرجات : ١٥٣ ح ٤ ، و الثعلبي في تفسيره عنه تذكرة الخواص : ١٦

، و الفرات الكوفي في تفسيره : ٦٩ ، و الحسكاني بروايتين في شواهد التنزيل ١ : ٢٨٠ ، ٢٨١ ح ٣٨٤ ،
٣٨٥ ، و الجويني في فرائد السمطين عنه ينابيع المودة : ٧٤ عن زاذان عن علي عليه السّلام ، و روي

بطرق عديدة حاضرة عندي عن الامامين الباقر و الصادق عليهما السلام و زاذان و أبي البحتري و الأصبع بن نباتة و سلمة بن كهيل و عمرو بن أبي المقدم و سليم بن قيس و غيرهم .
 (٥) إشارة الى قوله تعالى : فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا و أبناءكم و نساءنا و نساءكم و أنفسنا و أنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . آل عمران : ٦١ .

الصفحة ٧١

كالصنّو من الصنّو ، و الذراع من العضد « ١ . و كان كلامه عليه السلام أولى من كلام قيل فيه : و كلام لا تمجّه الاذان ، و لا تبليبه الأزمان . كلام قريب شاسع ، و مطمع مانع ، كالشمس تقرب ضياء ، و تبعد علاء ، أو كالماء يرخص موجودا ، و يغلو مفقودا . كلام سهل متسلسل كالمدام بماء غلام ، يقرب أذنه على الأفهام . كلام كبرد الشراب على الأكباد الأحرار ، و برد الشبّاب في خلع العذار . كلام كثير العيون ، سلس المتون ، رقيق الحواشي ، سهل النواحي . كلام هو السحر الحلال ، و الماء الزلال ، و البرود و الحبر ، و الأمثال و العبر ، و النعيم الحاضر ، و الشبّاب الناضر . نظرت منه الى صورة الظرف بحتا ، و صورة البلاغة سبكا و نحتا . كلام يسرّ المحزون ، و يسهّل الحزون ، و يعطّل الدرّ المخزون . كلام بعيد من الكلف ، نقي من الكلف ، كما ينفس السحر عن نسيمه ، و يبسم الدرّ عن نظيمه . كلام كالبشرى بالولد الكريم ، قرع به سمع الشيخ العقيم ، كلام أنسى حلاوة الأولاد بحلاوته ، و طلاوة الربيع بطلاوته . كلام قرب حتى أطمع ، و بعد حتى امتنع ، قرب حتى صار قاب قوسين أو أدنى ، ثم علا حتى صار بالمنزل الأعلى ، رقيق المزاج ، حلو السماع ، نقي السبك ، مقبول اللفظ . قرأت لفظا جليّا ، حوى معنى خفيّا ، و كلاما قريبا ، رمى غرضا بعيدا . كلام أنس المقيم الحاضر ، و زاد الراحل المسافر . كلام يصغي إليه المقبور و ينتفض له العصفور . كلام يقضي حقّ البيان ، و يملك رق الحسن و الاحسان . كلام منه يجتنى الدرّ ، و به يعقد السحر ، و عنده يغيب الدهر ، و له ينشرح الصدر . كلام كما هبّ نسيم السحر على صفحات الزهر .

« فأجبتهم إلى الابتداء بذلك عالما بما فيه من عظيم النفع » ينتفع به جميع

(١) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٣ : ٧٣ ضمن الكتاب (٤٥) .

الصفحة ٧٢

البشر الموحد منهم ممّا فيه من ذكر الثواب و العقاب ، و الملحد منهم ممّا فيه من الحكم و الآداب ، و مع ذلك فهو معجزة للإسلام ككتاب الله تعالى و شاهد للنبوّة و الإمامة .

« و منشور الذكر » إنّ الرضي انقرض نسله كأخيه المرتضى ، إلاّ أنّه انتشر ذكره في العالم بجمعه هذا الكتاب ، فكثير من الكتب لم يشتهر أمرها أصلا ، و بعضها إنّما اشتهر في عصر أو قطر ، و أمّا هذا الكتاب فاشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار .

و ينبغي لمن فتح هذا الكتاب أن يخاطب الرضيّ بخطاب أبي تمام الشّاعر للحسن بن وهب الكاتب لما قرأ كتابا له :

لقد جلىّ كتابك كلّ بثّ
جو و أصاب شاكلة الرميّ
فضضت ختامه فتباجت لي
غرائبه عن الخبر الجليّ
و كان أغضّ في عيني و أندى
على كبدي من الزهر الحليّ
و أحسن موقعا عندي و مني
من البشرى أنت بعد النعيّ
و ضمّن صدره ما لم تضمّن
صدور الغانيات من الحليّ
فكائن فيه من معنى بديع
و كائن فيه من لفظ بهيّ
و قال بعضهم في الرضيّ و في كتابه :

إنّ الرضيّ الموسويّ

لمائه هو مائح

لاقت به و بجمعه

عدد القواط مائح

١ « و مذخور الأجر » فمن هدى شخصا يكون خيرا له ممّا طلعت عليه الشمس ، و قد هدى الرضيّ بتأليفه نهجه هذا من لا يحصيهم إلاّ الله تعالى .
« و اعتمدت به » أي : قصدت بجمع هذا الكتاب .

(١) نقله ضمن أبيات الخوئي في شرحه ١ : ٨٠ عن السيّد عزّ الدين بن ضياء الدين .

« أن أبين » من الإبانة .
 « من عظيم » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (عن عظيم) كما في (ابن ميثم ، و الخطيئة) ١ و
 لأنّ الإبانة إنّما تتعدّى ب (عن) .
 « قدر أمير المؤمنين عليه السّلام في هذه الفضيلة » أي : فضيلة النطق ، قال تعالى : . . . فلما كلمه قال
 إنّك اليوم لدينا مكين أمين ٢ .

و قال عليه السّلام : « تكلموا تعرفوا ، فإنّ المرء مخبوء تحت لسانه » ٣ .
 « مضافة » هذه الفضيلة .

« إلى المحاسن الدثرة » أي : الكثيرة العالية ، قال ابن مقبل :
 أصاغت له فدر اليمامة بعد ما
 تدثرها من وبله ما تدثرا

٤ « و الفضائل الجمّة » أي : المجتمععة ، قال الشاعر :
 إن تغفر اللهم تغفر جمّا
 و أيّ عبد لك لا ألما

٥ و قد وصف النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم محاسن أمير المؤمنين عليه السّلام و فضائله ، فقال :
 « لو أنّ البحار كانت مدادا ، و الأشجار أقلاما ، و الجنّ و الإنس كتّابا ، لما أحصوا فضائل عليّ بن أبي
 طالب » ٦ .

و روى العكبري كما في (مناقب الكنجي الشافعي) مسندا عن ابن عباس قال : بينما النبي صلّى الله عليه
 و آله و سلّم جالس في جماعة من أصحابه ، إذ أقبل عليّ عليه السّلام ، فلمّا

(١) كذا في شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ ، و لكن في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ « من عظيم » أيضا .

(٢) يوسف : ٥٤ .

(٣) نهج البلاغة ٤ : ٩٣ الحكمة (٣٩٢) .

(٤) لسان العرب ٤ : ٢٧٧ مادة (دثر) .

(٥) أورده لسان العرب ١٢ : ١٠٤ مادة (جمم) ، و الشاعر : أبو خراش الهذليّ .

(٦) رواه الديلمي في الفردوس عنه البحار ٤٠ : ٧٥ ح ١١٢ ، و المطرزي عنه البحار ٤٠ : ٧٤ ح

١١٠ ، و سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص : ١٣ ، و الكراجكي في كنز الفوائد : ١٢٨ ، و في

التفضيل : ٤٠ ، و الديلمي في إرشاد القلوب : ٢٠٩ .

بصر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : « مَنْ أَرَادَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى آدَمَ فِي عِلْمِهِ ، وَ إِلَى نُوحٍ فِي حُكْمِهِ ، وَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ فِي حِلْمِهِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ » ١ . قَالَ الْكُنْجِيُّ : وَ تَشْبِيهِهُ بِآدَمَ فِي عِلْمِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي آدَمَ : وَ عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا . . . ٢ ، وَ بِنُوحٍ فِي حُكْمِهِ لَشِدَّتِهِ عَلَى الْكُفَّارِ لِقَوْلِهِ : . . . رَبِّ لَا تَنْزِرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا ٣ ، وَ بِإِبْرَاهِيمَ فِي حِلْمِهِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : . . . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ٤ ، ٥ وَ لَقَدْ أَجَادَ شِبَابَ التَّسْتَرِيِّ حَيْثُ قَالَ فِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْفَارْسِيَّةِ :

کتاب فضل ترا آب بحر کافی نیست

که تر کنند سر انگشت و صفحه بشمارند

٦ و هو عليه السلام أولى ممن قيل فيه :

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

٧

(١) رَوَاهُ الْكُنْجِيُّ فِي كِفَايَةِ الطَّالِبِ : ٤٦ ، وَ أَيْضًا الْحُسَيْنِيُّ فِي شَوَاهِدِ التَّنْزِيلِ ١ : ١٠٦ ح ١٤٧ ، وَ الْمَحَبَّ الطَّبْرِيِّ فِي ذَخَائِرِ الْعَقْبِيِّ عَنْهُ يَنْابِيعُ الْمَوْدَةِ : ٢١٤ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَ رَوَاهُ الدَّيْلَمِيُّ فِي الْفَرْدُوسِ عَنْهُ الْبَحَارُ ٤٠ : ٧٨ ، وَ الْحُسَيْنِيُّ فِي شَوَاهِدِ التَّنْزِيلِ بِطَرِيقَيْنِ ١ : ٧٩ ، ٨٠ ح ١١٦ ، ١١٧ ، وَ الْخَوَارِزْمِيُّ بِطَرِيقَيْنِ : ٤٠ ، ٢١٩ ، وَ الْمَحَبَّ الطَّبْرِيِّ فِي ذَخَائِرِ الْعَقْبِيِّ عَنْهُ يَنْابِيعُ الْمَوْدَةِ : ٢١٤ عَنْ أَبِي الْحَمْرَاءِ ، وَ أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمَغَازَلِيِّ فِي الْمَنَاقِبِ : ٢١٢ ، وَ الْكِرَاجِيُّ فِي التَّفْضِيلِ : ٣١ عَنْ أَنَسٍ ، وَ رَوَاهُ الْكِرَاجِيُّ فِي التَّفْصِيلِ : ٣١ عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ ، وَ نَقَلَهُ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ فِي شَرْحِهِ ٢ : ٤٢٩ ح ٤ عَنْ أَحْمَدَ فِي مَسْنَدِهِ وَ الْبَيْهَقِيِّ فِي السَّنَنِ ، وَ رَوَى مَعْنَاهُ الْخَوَارِزْمِيُّ : ٤٥ عَنْ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ عَنْ جَمْعٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَ بَيْنَ الْأَلْفَاظِ اخْتِلَافٌ .

(٢) الْبَقْرَةُ : ٣١ .

(٣) نُوحٍ : ٢٦ .

(٤) التَّوْبَةُ : ١١٤ .

(٥) كِفَايَةِ الطَّالِبِ : ٤٦ وَ النِّقْلُ بِتَصْرُفٍ يَسِيرٍ .

(٦) أَوْرَدَهُ دَهْخَدَا فِي أَمْثَالٍ وَ حُكْمٍ ٣ : ١١٩١ وَ نَسَبَهُ إِلَى الْأَسَدِيِّ ، وَ ذَيْلَهُ فِيهِ « كِه تَرْكَنِي سِرَانْگَشْتِ وَ صَفْحَه بِشْمَارِي » وَ تَرْجَمَةَ الْبَيْتِ : « لَا يَكْفِي كِتَابُ فَضْلِكَ مَاءَ الْبَحْرِ أَنْ تَرْطَّبَ بِنَانِكَ وَ تَعَدَّدَ صَفْحَاتِهِ » .

(٧) أَوْرَدَهُ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ فِي شَرْحِهِ ٢ : ٢٣١ ، وَ غَيْرُهُ .

الصفحة ٧٥

ما قاله الشارح المعتزلي في فضائله عليه السلام :

قال ابن أبي الحديد في أول كتابه : فأما فضائله عليه السلام فإنها قد بلغت من العظم والجلال والانتشار والاشتهار مبلغا يسمح معه التعرض لذكرها والتصدي لتفصيلها ، فصارت كما قال أبو العيناء لعبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل والمعتمد : رأيتني في ما أتعاطى من وصف فضلك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر الذي لا يخفى على الناظر ، فأيقنت أنني حيث انتهى بي القول منسوب إلى العجز ، مقصّر عن الغاية ، فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك ، و وكلت الإخبار عنك إلى علم الناس بك .

و ما أقول في رجل أقرّ له أعداؤه و خصومه بالفضل و لم يمكنهم جحد مناقبه و لا كتمان فضائله ، فقد علمت أنه استولى بنو أمية على سلطان الاسلام في شرق الأرض و غربها ، و اجتهدوا بكل حيلة في إطفاء نوره و التحريف عليه ، و وضع المعائب و المثالب له ، و لعنوه على جميع المنابر ، و توعّدوا مادحيه ، بل حبسوه و قتلوه ، و منعوا من رواية حديث يتضمّن له فضيلة أو يرفع له ذكرا ، حتّى حظروا أن يسمّى أحد باسمه ، فما زاده ذلك إلا رفعة و سمّوا ، و كان كالمسك ، كلّما ستر انتشر عرفه ، و كلّما كتم تضوّع نشره ، و كالشمس لا تستر بالراح ، و كضوء النهار إن حجبت عنه عين واحدة أدركته عيون كثيرة .

و ما أقول في رجل تعزى إليه كلّ فضيلة ، و تنتهي إليه كلّ فرقة ، و تتجاذبه كلّ طائفة ، فهو رئيس الفضائل و ينبوعها و أبو عذرها و سابق مضمارها و مجلّي حليتها ، كلّ من بزغ فيها بعده فمنه أخذ ، و له اقتفى ، و على مثاله احتذى .

الصفحة ٧٦

و قد عرفت أنّ أشرف العلوم هو العلم الإلهي ، لأنّ شرف العلم بشرف المعلوم ، و معلومه أشرف الموجودات ، فكان هو أشرف العلوم ، و من كلامه عليه السلام اقتبس ، و عنه نقل ، و إليه انتهى ، و منه ابتدئ .

فإنّ المعتزلة الذين هم أهل التوحيد و العدل و أرباب النظر ، و منهم تعلّم الناس هذا الفن تلامذته و أصحابه ، لأنّ كبيرهم واصل بن عطاء تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، و أبو هاشم تلميذ أبيه ، و أبوه تلميذه عليه السلام .

و أمّا الأشعرية فإنّهم ينتمون إلى أبي الحسن علي بن بشر الأشعري و هو تلميذ أبي علي الجبائي ، و أبو علي أحد مشائخ المعتزلة ، فالأشعرية ينتهون بأخرة إلى أستاذ المعتزلة و معلّمهم ، و هو علي بن أبي طالب عليه السلام .

و أما الإمامية و الزيدية فانتماؤهم إليه ظاهر .
 و من العلوم : علم الفقه ، و هو عليه السلام أصله و أساسه ، و كلّ فقيه في الإسلام فهو عيال عليه و مستفيد من فقهه . أما أصحاب أبي حنيفة كأبي يوسف ، و محمد ، و غيرهما فأخذوا عن أبي حنيفة ، و أما الشافعي فقرأ على محمد بن الحسن ، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة ، و أما أحمد بن حنبل فقرأ على الشافعي ، فيرجع فقهه أيضا إلى أبي حنيفة ، و أبو حنيفة قرأ على جعفر بن محمد عليه السلام و قرأ جعفر على أبيه ، و ينتهي الأمر إلى علي عليه السلام ، و أما مالك بن أنس فقرأ على ربيعة الرأي ، و قرأ ربيعة على عكرمة ، و قرأ عكرمة على عبد الله بن عباس ، و قرأ عبد الله بن عباس على عليّ ، و إن شئت رددت إليه فقه الشافعي بقراءته على مالك كان لك ذلك ، فهؤلاء الفقهاء الأربعة ، و أمّا فقه الشيعة فرجوعه إليه ظاهر .
 و أيضا فإنّ فقهاء الصحابة كانوا عمر بن الخطاب و عبد الله بن عباس ، و كلاهما أخذوا عن عليّ عليه السلام ، أما ابن عباس فظاهر ، و أمّا عمر فقد عرف كلّ

الصفحة ٧٧

أحد رجوعه إليه في كثير من المسائل التي أشككت عليه و على غيره من الصحابة ، و قوله غير مرّة : « لو لا عليّ لهلك عمر » ١ ، و قوله : « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » ٢ ، و قوله : « لا يفتين أحد في المسجد و عليّ حاضر » ٣ . فقد عرف بهذا الوجه أيضا انتهاء الفقه إليه . و قد روت العامة و الخاصة قوله صلى الله عليه و آله و سلم : « أقضاكم عليّ » ٤ و القضاء هو الفقه ، فهو إذن أفقههم ، و روى الكلّ أيضا أنه صلى الله عليه و آله قال له و قد بعثه الى اليمن قاضيا : « اللهم اهد قلبه ، و ثبت لسانه » . قال : فما شككت بعدها في قضاء بين اثنين ٥ . و هو عليه السلام الذي أفتى في المرأة التي وضعت لستة أشهر ٦ ، و هو الذي أفتى في الحامل

- (١) رواه ابن عيّاش و السمعاني عنهما مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ٣١ ، و الخوارزمي في المناقب : ٣٩ ، و المحب الطبري في ذخائر العقبى عنه ينابيع المودة : ٢١١ ، و صاحب مسند زيد بن عليّ فيه : ٣٣٥ ، و الفضل بن شاذان في الايضاح : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ و جمع آخر .
 (٢) رواه البلاذري في أنساب الأشراف ، و ابن بطة في الابانة ، و الزمخشري في الفائق عنهم مناقب ابن شهر آشوب ٢ :

٣١ ، و ابن سعد في الطبقات ، و المحب الطبري في ذخائر العقبى عنهما ينابيع المودة : ٢١١ ، ٢٨٦ ، و ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ : ٣٩ ، و الخوارزمي في المناقب : ٥١ ، و ابن الأثير في أسد الغابة ٤ : ٢٢ ، و المفيد في الإرشاد : ١٠٩ ، و نقله ابن البطريق في العمدة ٢ : ١٣٤ عن مسند أحمد .

(٣) نقله مقاتل بن عطية في المؤتمر : ٤٧ .

(٤) رواه الخوارزمي بطريقين في المناقب : ٣٩ ، ٤١ عن أبي سعيد الخدري ، و الصدوق في أماليه : ٤٤٠ ح ٢٠ المجلس (٨١) عن سلمان ، و المفيد في الإرشاد : ٢٢ عن ابن عباس ، و المحب الطبري في ذخائر العقبى عنه ينابيع المودة :

٢١١ عن أنس ، و ابن بطة في الإبانة عنه مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ٣٣ عن أبي امامة ، و أبو يعلى في مسنده عنه المطالب العالمة ٤ : ٨٥ ح ٤٠٣١ عن ابن عمر ، و ابن شهر آشوب مجرداً في المناقب ٢ : ٣٣ عن الصادق عليه السلام ،

و القاضي الصعدي في درر الأحاديث : ١٤٥ عن الهادي الى الحق ، كلهم عن النبي صلى الله عليه و آله ، و روي بلا رفع عن علي عليه السلام و ابن عباس و ابن مسعود و عمر .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه ٣ : ٣٠١ ح ٣٥٨٢ ، و ابن ماجة في سننه ٢ : ٧٧٤ ح ٢٣١٠ ، و صاحب مسند زيد بن علي فيه : ٢٩٤ ، و أحمد في مسنده ١ : ٨٣ ، ١١١ ، ١٣٦ ، و المفيد في الإرشاد : ١٠٥ ، و جمع آخر .

(٦) القصة : أن عمر أتى بامرأة وضعت لستة أشهر فأمر برجمها ، فاستدلّ عليّ عليه السلام بآيتين على أنّ أقل الحمل ستة أشهر فخلّى سبيلها . أخرجه جمع ، منهم : البيهقي ، و ابن أبي حاتم عنهما الذر المنثور ١ : ٢٨٨ ، و الفضل بن شاذان في الايضاح : ٩٨ ، و المفيد في الإرشاد : ١١٠ ، و روي نحو هذه القصة بين علي عليه السلام و عثمان ، أخرجه عدّة منهم :

مالك في الموطأ : ٦٨٦ ، و الثعلبي في تفسيره ، عنه عين العبرة : ٣٢ ، و روي نحوها بين ابن عباس و عمر ، و بين ابن عباس و عثمان ، قال ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ : ٣٩ : « و عن عليّ أخذها ابن عباس ، و الله أعلم » .

الصفحة ٧٨

الزانية ١ ، و هو الذي قال في المنبرية : « صار ثمنها تسعا » ٢ و هذه المسألة لو فكر الفرضي فيها فكرا طويلا لاستحسن منه بعد طول النظر هذا الجواب ، فما ظنك بمن قاله بديهية و اقتضبه ارتجالا .

و من العلوم علم تفسير القرآن ، و عنه أخذ و منه فرّع ، و إذا رجعت إلى كتب التفسير علمت صحة ذلك ، لأن أكثره عنه و عن عبد الله بن عباس ، و قد علم الناس حال ابن عباس في ملازمته و انقطاعه إليه ،

و أنه تلميذه و خريجه ، و قيل له : أين علمك من علم ابن عمك ؟ فقال : كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط ٣ .

و من العلوم علم النحو و العربية ، و قد علم الناس كافة أنه هو الذي ابتدعه و أنشأه ، و أملى على أبي الأسود الدؤلي جوامعه و أصوله من جملتها :

الكلام كله ثلاثة أشياء : اسم و فعل و حرف . و من جملتها تقسيم الكلمة إلى

(١) في ذلك قصتان ، الأولى : أتى عمر بحاملة زانية فأمر برجمها ، فأثبت له عليّ عليه السلام أن تمهل حتى تضع . أخرجها صاحب مسند زيد بن عليّ فيه : ٣٣٥ ، و الفضل بن شاذان في الإيضاح : ٩٩ ، و المفيد في الإرشاد : ١٠٩ ، و المرتضى في الذريعة ٢ : ٧٦٥ ، و جمع آخر . و القصة الثانية : أنّ خادمة لآل الرسول زنت و هي حبلى ، فحكم بذلك عليّ عليه السلام و أمضى حكمه النبيّ صلّى الله عليه و آله . أخرج أبو يعلى في مسنده عنه مجمع الزوائد ٦ : ٢٥٢ ، و ابن أبي شيبة في مسنده عنه المطالب العالية ٢ : ١١٥ ح ١٨٠٧ ، و قد جاء في الباب أحكام عن النبيّ صلّى الله عليه و آله قولاً و فعلاً .

(٢) رواه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص : ١٢٠ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٤٤ ، و الإربلي في كشف الغمّة ١ : ١٣٢ ، و ابن أبي الحديد في زوائد نهج البلاغة : ٥٤٤ ح ٢٥١ .

(٣) رواه المفيد في أماليه : ٢٣٦ ح ٦ المجلس (٢٧) ، و أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ١١ ، و النقاش في تفسيره عنه مناقب ابن شهر آشوب ٢ : ٣٠ ، و الجويني في فرائد السمطين عنه ينابيع المودة : ٧٠ ، و الإربلي في كشف الغمّة ٢ : ٥ بفرق يسير ، و قد أسقط الشارح منها قول ابن أبي الحديد : « و من العلوم علم الطريقة و الحقيقة و أحوال التصوّف . . . » .

الصفحة ٧٩

معرفة و نكرة ، و تقسيم وجوه الإعراب الى الرقع و النصب و الجرّ و الجزم ١ ، و هذا يكاد يلحق بالمعجزات ، لأنّ القوّة البشرية لا تقي بهذا الحصر و لا تنهض بهذا الاستتباط ، و إن رجعت إلى الخصائص الخلقية و الفضائل النفسانية و الدينية و جدته ابن جلاها و طلاع ثناياها .

و أما الشجاعة فإنّه أنسى الناس فيها ذكر من كان قبله و محا اسم من يأتي بعده ، و مقاماته في الحرب مشهورة تضرب بها الأمثال الى يوم القيامة ،

و هو الشجاع الذي ما فرّ قطّ و لا ارتاع من كتيبة ، و لا بارز أحداً إلاّ قتله ، و لا ضرب ضربة قطّ فاحتاجت الأولى إلى الثانية ، و في الحديث كانت ضرباته وترا ٢ .

و لما دعا معاوية الى المبارزة ليستريح الناس من الحرب بقتل أحدهما قال له عمرو : لقد أنصفك . فقال معاوية : ما غششتني مذ نصحتني إلاّ اليوم ،

أ تأمرني بمبارزة أبي الحسن ، و أنت تعلم أنه الشجاع المطرق ، أراك طمعت في إمارة الشام بعدي ٣ .
و كانت العرب تفتخر بوقوفها في الحرب في مقابلته ، فأما قتلاه فافتخار رهطهم بأنه عليه السلام قتلهم
أظهر و أكثر ، قالت أخت عمرو بن عبد ود تربيته :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله

بكيته أبدا ما دمت في الأبد

لكن قاتله من لا نظير له

و كان يدعى أبوه بيضة البلد

٤

(١) رواه المرتضى في الفصول المختارة ١ : ٥٩ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٤٧ و الحديث
كثير الاشتهار .

(٢) رواه بروايات متعددة ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٨٣ .

(٣) نقل القصة الطبري في التاريخ ٤ : ٢٩ ، سنة (٣٧) ، و المسعودي في مروج الذهب ٢ : ٣٨٦ ،
و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ١٠٦ .

(٤) هذه الرواية مشهورة لكن بين ألفاظها اختلاف ، نقلها المفيد في الإرشاد : ٥٧ ، و المرتضى في
الفصول : ٢٣٧ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ١ : ١٩٩ ، و الإربلي في كشف الغمة ١ : ٦٨ ، و
غيرهم .

الصفحة ٨٠

و انتبه معاوية يوما فرأى عبد الله بن الزبير جالسا تحت رجليه على سريره ، فقعد ، فقال له عبد الله
يداعبه : يا أمير المؤمنين لو شئت أن أفنك بك لفعلت . فقال : لقد شجعت بعدنا يا أبا بكر . قال : و ما الذي
تتكراه من شجاعتني و قد وقفت في الصف إزاء علي بن أبي طالب ؟ قال له معاوية : لا جرم أنه قتلك و
أباك بيسرى يديه ، و بقيت اليمنى فارغة يطلب من يقتله بها .

و جملة الأمر أن كل شجاع في الدنيا إليه ينتهي و باسمه ينادي في مشارق الأرض و مغاربها .
و أما القوة و الأيد فيه يضرب المثل فيهما ، قال ابن قتيبة في معارفه : ما صارح أحدا قط إلا صرعه ١ ،
و هو الذي قلع باب خيبر و اجتمع عليه عصابة من الناس ليقلبوه فلم يقلبوه ، و هو الذي اقتلع هبل من أعلى
الكعبة و كان عظيما كبيرا جدا ، فألقاه إلى الأرض ، و هو الذي اقتلع الصخرة العظيمة في أيام خلافته بيده
بعد عجز الجيش كله عنها ، فأنبط الماء من تحتها .

و أما السخاء و الجود فحاله فيه ظاهرة ، كان يصوم و يطوى و يؤثر بزاده ، و فيه أنزل : و يطعمون الطعام على حبه مسكينا و يتيما و أسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء و لا شكورا ٢ .
و روى المفسرون أنه لم يكن يملك إلا أربعة دراهم ، فتصدق بدرهم ليلا ، و بدرهم نهارا ، و بدرهم سرا ، و بدرهم علانية ، فانزل فيه : الذين ينفقون

(١) المعارف لابن قتيبة : ٢١٠ .

(٢) روى هذا الشأن الواحد في أسباب النزول : ٢٩٦ ، و الخوارزمي في المناقب : ١٩٢ ، و ابن الأثير بروايتين في أسد الغابة ٥ : ٥٣٠ ، و الحسكاني بطرق في شواهد التنزيل ٢ : ٢٩٩ ، ٣١٠ ، و ابن مردويه عنه الدر المنثور ٦ : ٢٩٩ عن ابن عباس ،
و روي بطرق عن علي عليه السلام نفسه و عن أهل بيته عليهم السلام . و الآيتان (٨ ، ٩) من سورة الانسان .

الصفحة ٨١

أموالهم بالليل و النهار سرا و علانية . . . ١ .
و روي عنه أنه كان يسقي بيده نخل قوم من يهود المدينة حتى مجلت يده ، و يتصدق بالأجرة ، و يشد على بطنه حجرا ٢ .
و قال الشعبي و قد ذكر عليه السلام : كان أسخى الناس ، كان على الخلق الذي يحبه الله ، السخاء و الجود ، ما قال : (لا) لسائل قط ٣ .
و قال عدوه و مبغضه الذي يجتهد في وصمه و عيبه معاوية لمحفن الضبي لما قال له : جئتك من عند أبخل الناس : و يحك كيف تقول : إنه أبخل الناس ، و هو الذي لو ملك بيتا من تبر و بيتا من تبن لأنفد تبره قبل تبنه ؟ ٤ و هو الذي كان يكنس بيوت الأموال و يصلّي فيها ٥ ، و هو الذي قال : « يا صفراء و يا بيضاء غريّ غيري » ٦ ، و هو الذي لم يخلف ميراثا ، و كانت الدنيا كلّها بيده ، إلا ما كان من الشام .
و أما اللحم و الصّح ، فكان أحلم الناس عن مذنب و أصفحهم عن

(١) روى هذا الأمر الواحد في أسباب النزول : ٥٨ ، و الخوارزمي في المناقب : ١٩٨ ، و ابن المغازلي في المناقب : ٢٨٠ ح ٣٢٥ ، و ابن الأثير بثلاث طرق في أسد الغابة ٤ : ٢٥ ، و عبد الرزاق في الجامع ، و عبد بن حميد في مسنده ، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم في تفسيره ، و الطبراني و ابن عساکر في التاريخ عنهم الدر المنثور ١ : ٣٦٣ عن ابن عباس ، و روي بطرق أخرى أيضا عن ابن عباس و غيره . و الآية (٢٧٤) من سورة البقرة .

- (٢) حديث استقاء علي عليه السلام لليهودي بالتمر جاء بألفاظ مختلفة ، أفربها ما أخرجه ابن ماجة في السنن ٢ : ٨١٨ ح ٢٤٤٦ ، و ما روى الإربلي في كشف الغمّة ١ : ١٧٥ .
- (٣) رواه ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ١١٤ بفرق يسير .
- (٤) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ : ٤٩ ، و غيره ، في باب زهده عليه السلام .
- (٥) رواه المحب الطبري في ذخائر العقبى ، عنه ينابيع المودة : ٢١٧ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٩٥ ، و الإربلي في كشف الغمّة ١ : ١٦٥ ، و غيرهم ، في باب زهده عليه السلام .
- (٦) رواه الكليني في الكافي ٨ : ١٢٩ ح ١٠٠ ، و المسعودي في مروج الذهب ٢ : ٤١٤ ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ١٦٢ ، و الشريف الرضي في خصائص الأئمة : ٥٤ و أنه عليه السلام ما ورث بيضاء و لا صفراء إلا سبعمائة درهم فضلت من عطايها . و رواه الطبري في التاريخ ٤ : ١٢١ ، سنة (٤٠) ، و ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ : ٤٨ متردداً بين سبعمائة و ثمانمائة .

الصفحة ٨٢

مسيء ، و قد ظهرت صحّة ما قلناه يوم الجمل حيث ظفر بمروان بن الحكم و كان أعدى الناس له و أشدّهم بغضا فصفح عنه ، و كان عبد الله بن الزبير يشتمه على رؤوس الأشهاد ، و خطب يوم البصرة فقال : قد أتاكم الوغب اللئيم علي بن أبي طالب ١ . و كان علي عليه السلام يقول : ما زال الزبير رجلاً منّا أهل البيت حتّى شبّ عبد الله ٢ ، فظفر به يوم الجمل فأخذه أسيراً ، فصفح عنه ، و قال : « اذهب فلا أرينك » لم يزد على ذلك . و ظفر بسعيد بن العاص بعد وقعة الجمل بمكّة و كان له عدوّ فأعرض عنه و لم يقل له شيئاً .

و قد علمتم ما كان من عائشة في أمره ، فلما ظفر بها أكرمها ، و بعث معها الى المدينة عشرين امرأة من نساء عبد القيس ، عمّهنّ بالعمائم و قلدهن السيوف ، فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به و تأفّفت و قالت : هتك ستري برجاله و جنده الذين و كلهم بي . فلما وصلت المدينة ألقت النساء عمائمهنّ ، و قلن لها : إنّما نحن نسوة .

و حاربه أهل البصرة و ضربوا وجهه و وجوه أولاده بالسيف و سبّوه و لعنوه ، فلما ظفر بهم رفع السيف عنهم ، و نادى مناديه في أقطار العسكر : ألا لا يتبع مولّ ، و لا يجهز على جريح ، و لا يقتل مستأسر ، و من ألقى سلاحه فهو آمن ، و من تحيّر إلى عسكر الإمام فهو آمن . و لم يأخذ أنقالهم ، و لا سبي ذراريهم ، و لا غنم شيئاً من أموالهم ، و لو شاء أن يفعل كلّ ذلك لفعل ، و لكنّه أبى إلا الصّح و العفو ، و تبع سنّة النبي صلّى الله عليه و آله يوم فتح مكة ، فإنّه عفا و الأحقاد لم

(١) نقل خطبة ابن الزبير المفيد في الجمل : ١٧٤ ، لكن هذا اللفظ لا يوجد فيه ، بل يوجد معناه .

(٢) هذا مما تفرّد به ابن أبي الحديد في شرحه ٤ : ٤٨٠ شرح الحكمة (٤٥٣) من رواية نهج البلاغة ، وأخرجه أيضا الجوهري في السقيفة و فذك : ٦٠ ، و عاصم بن حميد في أصله : ٢٣ ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ١٠ ، و ابن عبد البر في الاستيعاب ٢ : ٣٠٢ ، و الصدوق في الخصال : ١٥٧ ح ١٩٩ ، و المفيد في الجمل : ٢٠٨ .

الصفحة ٨٣

تبرد و الإساءة لم تنس ١ .

و لما ملك عسكر معاوية عليه الماء و أحاطوا بشريعة الفرات ، و قالت رؤساء الشام له : اقتلهم بالعطش كما قتلوا عثمان عطشا ، سألهم عليّ عليه السلام و أصحابه : أن يسوغوا لهم شرب الماء . فقالوا : لا و الله و لا قطرة حتى تموت ظمأ كما مات ابن عفان . فلما رأى عليه السلام أنه الموت لا محالة تقدّم بأصحابه و حمل على عساكر معاوية حملات كثيفة ، حتى أزالهم عن مراكزهم ، بعد قتل ذريع سقطت منه الرؤوس و الأيدي ، و ملكوا عليهم الماء ، و صار أصحاب معاوية في الفلاة لا ماء لهم ، فقال له أصحابه و شيعته : امنعهم الماء يا أمير المؤمنين كما منعوك ، و لا تسقمهم منه قطرة ، و اقتلهم بسيوف العطش ، و خذهم قبضا بالأيدي ، فلا حاجة لك إلى الحرب . فقال : « لا و الله ، لا أكافئهم بمثل فعلهم ، افسحوا لهم عن بعض الشريعة ، ففي حدّ السيف ما يغني عن ذلك » ٢ .

فهذه إن نسبتها الى اللحم و الصفح فناهيك بها جمالا و حسنا ، و إن نسبتها إلى الدين و الورع فأخلق بمثلها أن تصدر عن مثله .

و أمّا الجهاد في سبيل الله فمعلوم عند صديقه و عدوّه أنه سيّد المجاهدين ، و هل الجهاد لأحد من الناس إلّا له ؟ و قد عرفت أن أعظم غزاة غزاها النبيّ صلّى الله عليه و آله و أشدها نكاية في المشركين : بدر الكبرى ، قتل فيها سبعون من المشركين ، قتل عليّ عليه السلام نصفهم ، و قتل المسلمون و الملائكة النصف الآخر .

(١) روى سيرة علي عليه السلام في أهل الجمل الطبري في التاريخ ٣ : ٥٤٣ سنة (٣٦) ، و المسعودي في مروج الذهب ٢ : ٣٦٨ ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ٧٧ ، و المفيد في الجمل : ٢١٦ ، و غيرهم من أهل التاريخ و الأثر .

(٢) نقله نصر بن مزاحم في وقعة صفين : ١٦٠ ، و الطبري في التاريخ ٣ : ٥٦٦ سنة (٣٦) ، و المسعودي في مروج الذهب ٢ :

٣٧٥ ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ١٠٥ .

الصفحة ٨٤

و إذا رجعت إلى (مغازي) محمد بن عمر الواقدي و (تاريخ الأشراف) ليحيى بن جابر البلاذري و غيرهما ١ علمت صحّة ذلك ، دع من قتله في غيرها كأحد و الخندق و غيرهما ، و هذا الفصل لا معنى للإطناب فيه لأنّه من المعلومات الضرورية كالعلم بوجود مكّة و مصر و نحوهما . . . ٢ .

و أمّا سجاحة الأخلاق و بشر الوجه و طلاقة المحيّا و التبسم فهو المضروب به المثل فيه ، حتّى عابه بذلك أعداؤه ، قال عمرو بن العاص لأهل الشام : إنّه ذو دعابة شديدة . و قال علي عليه السّلام في ذلك : « عجا لابين النايغة يزعم لأهل الشام أنّ فيّ دعابة ، و أيّ امرؤ تلعبه : أعافس و امارس » ٣ . و عمرو بن العاص إنّما أخذها عن عمر بن الخطاب لقوله له لمّا عزم على استخلافه : « لله أبوك ، لو لا دعابة فيك » ٤ إلا أنّ عمر اقتصر عليها و عمرو زاد فيها و سمّجها .

قال صعصعة بن صوحان و غيره من شيعته و أصحابه : « كان فينا كأحدنا لين جانب و شدّة تواضع و سهولة قياد ، و كنا نهابه مهابة الأسير المربوط للسيّاف الواقف على رأسه » .

و قال معاوية لقيس بن سعد : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان هشاً بشاً ذا فكاهاة . قال له قيس : نعم ، كان النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم يمزح و يبتسم إلى أصحابه ، و أراك تسرّ حسوا في ارتغاء رفعه ، و تعييه بذلك . أمّا و الله لقد كان مع تلك الفكاهاة و الطلاقة أهيب من ذي لبدتين قد مسّه الطوى ، تلك هيبة التقوى ، ليس كما يهابك طعام أهل الشام .

-
- (١) كذا نقل الواقدي في مغازيه ١ : ١٤٧ ، و البلاذري في أنساب الأشراف ١ : ٢٩٧ ، ذكر من قتله بيده عليه السّلام في يوم بدر ابن هشام في السيرة ٢ : ٢٥١ ، و المفيد في الإرشاد : ٣٩ .
- (٢) قال ابن أبي الحديد بعده : « و أمّا الفصاحة . . . » .
- (٣) رواه الشريف الرضي في نهج البلاغة ١ : ١٤٧ الخطبة (٨٢) .
- (٤) رواه ثعلب في أماليه عنه شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١١٤ ، و الفضل بن شاذان في الإيضاح : ١٢٨ ، ١٢٩ .

الصفحة ٨٥

و قد بقي هذا الخلق متوارثاً متناقلاً في محبّته و أوليائه إلى الآن ، كما بقي الجفاء و الخشونة و الوعورة في الجانب الآخر ، و من له أدنى معرفة بأخلاق الناس و عدوائهم يعرف ذلك .

و أمّا الزهد في الدنّيا فهو سيّد الزهّاد و بدل الأبدال و إليه تشدّ الرّحال و عنده تنفض الاحلاس . ما شبع من طعام قطّ ، و كان أحسن الناس مأكلاً و ملبساً ، قال عبد الله بن أبي رافع : دخلت إليه يوم عيد ، فقدم

جرا با مختوما ، فوجدنا فيه خبز شعير يابساً مرضوضاً . فقدّم فأكل ، فقلت يا أمير المؤمنين كيف تختمه ؟ قال : خفت هذين الولدين أن يلتآه بسمن أو زيت . و كان ثوبه مرقوعاً بجلد تارة و بليف أخرى ، و نعلاه من ليف ، و كان يلبس الكرباس الغليظ ، فإذا وجد كمّه طويلاً قطعه بشفرة و لم يخطه ، فكان لا يزال متساقطاً على ذراعيه حتّى يبقى سدى لا لحمه له ، و كان يأتدّم إذا اتندّم بخلّ أو بملح ، فإنّ ترقّى عن ذلك فبعض نبات الأرض ، فإن ارتفع عن ذلك فبقليل من ألبان الإبل ، و لا يأكل اللحم إلا قليلاً ، و يقول : لا تجعلوا بطونكم مقابر الحيوان . و كان مع ذلك أشدّ الناس قوة و أعظمهم أيداً ، لم ينقص الجوع قوّته ، و لا يخور الاقلال منته ، و هو الذي طلق الدنيا ، و كانت الأموال تجبى إليه من جميع بلاد الإسلام إلا من الشام ، فكان يفرّقها و يمزّقها ، ثم يقول : هذا جنائي و خياره فيه إذ كلّ جان يده إلى فيه ١ .

و أمّا العبادة فكان أعبد الناس و أكثرهم صلاة و صوما ، و منه تعلّم الناس صلاة الليل و ملازمة الأوراد و قيام النافلة ، و ما ظنّك برجل يبلغ من

(١) هذه المعاني رواها جمع كثير في باب زهده عليه السّلام ، منهم : ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ : ٤٩ ، و الخوارزمي في المناقب : ٦٦ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٩٣ ، و ابن الأثير في أسد الغابة ٤ : ٢٢ ، و الإربلي في كشف الغمّة ١ : ١٦٢ ، و القندوزي في ينابيع المودة : ١٤٣ .

الصفحة ٨٦

محافظة على ورده أن يبسط له نطع بين الصّفين ليلة الهرير فيصلّي عليه ورده و السهام تقع بين يديه و تمرّ على صماخيه يمينا و شمالا ١ ، فلا يرتاع لذلك و لا يقوم حتّى يفرغ من وظيفته و ما ظنّك برجل كانت جبهته كثفنة البعير لطول سجوده ٢ و أنت إذا تأملت دعواته و مناجاته ٣ ، و وقفت على ما فيها من تعظيم الله سبحانه و إجلاله و ما يتضمّنه من الخضوع لهيبته و الخشوع لعزّته و الاستخذاء له عرفت ما ينطوي عليه من الإخلاص ، و فهمت من أيّ قلب خرجت و على أيّ لسان جرت ، و قيل لعليّ بن الحسين عليه السّلام و كان الغاية في العبادة : أين عبادتك من عبادة جدّك ؟ قال : عبادتي عند عبادة جدّي كعبادة جدّي عند عبادة النبي صلّى الله عليه و آله ٤ .

و أمّا قراءة القرآن و الاشتغال به فهو المنظور إليه في هذا الباب ، اتّفق الكلّ على أنه كان يحفظ القرآن على عهد النبي صلّى الله عليه و آله و لم يكن غيره يحفظه ، ثمّ هو أوّل من جمعه ، نقلوا كلّهم أنّه تأخّر عن بيعة أبي بكر ، فأهل الحديث لا يقولون ما تقوله الشيعة من أنّه تأخّر مخالفة للبيعة ، بل يقولون : تشاغل بجمع القرآن . فهذا يدلّ على أنه أوّل من جمع القرآن ، لأنّه لو كان مجموعاً في حياة النبي صلّى الله عليه و آله لما احتاج الى أن يتشاغل بجمعه بعد وفاته صلّى الله عليه و آله .

و إذا رجعت إلى كتب القراءات وجدت أئمة القراء كلهم يرجعون إليه ، كأبي عمرو بن العلاء ، و عاصم بن أبي النجود ، و غيرهما ، لأنهم يرجعون إلى

- (١) هذا المعنى نقله نصر بن مزاحم في وقعة صفين : ٤٧٧ .
 (٢) نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة ٢ : ١٠٣ الخطبة (١٨٠) عن نوف البكالي ، و له شاهد أخرجه زيد الزراد في أصله : ٣ عن علي عليه السلام قال : « إني لأكره للرجل أن تكون جبهته جلحا ليس فيها شيء من أثر السجود » .
 (٣) ضبط الشارح هذه الكلمة « مناجاتاته » و هذا غلط ، و أثبتنا الصحيح .
 (٤) روى حديثا بهذا المعنى المفيد في الإرشاد : ٢٥٥ ، و القاضي النعمان في شرح الأخبار ١٣ : ١٢٧ ، و ابن شهر آشوب في المناقب ٤ : ١٤٩ ، و بفرق الكليني في الكافي ٨ : ١٢٩ ح ١٠٠ .

الصفحة ٨٧

أبي عبد الرحمن السلمي القارئ ، و أبو عبد الرحمن كان تلميذه ، و عنه أخذ القرآن ١ ، فقد صار هذا الفن من الفنون التي تنتهي إليه أيضا مثل كثير مما سبق .
 و أما الرأي و التدبير فكان من أسد الناس رأيا و أصحهم تدبيرا ، و هو الذي أشار على عمر لما عزم على أن يتوجه بنفسه الى حرب الروم و الفرس بما أشار ٢ ، و هو الذي أشار على عثمان بأمور كان صلاحه فيها ، و لو قبلها لم يحدث عليه ما حدث ، و إنما قال أعداؤه : لا رأي له ، لأنه كان مقيدا بالشرعية لا يرى خلافها و لا يعمل بما يقتضي الدين تحريمه ، و قد قال عليه السلام : « لو لا الدين و التقى لكنت أدهى العرب » ٣ . و غيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلحه و يستوفقه سواء أكان مطابقا للشرع أم لم يكن . و لا ريب أن من يعمل بما يؤدي إليه اجتهاده ، و لا يقف مع ضوابط و قيود يتمتع لأجلها مما يرى الصلاح فيه تكون أحواله الدنياوية إلى الانتظام أقرب ، و من كان بخلاف ذلك تكون أحواله الدنياوية إلى الانتشار أقرب .
 و أما السياسة فإنه كان شديد السياسة ، خشنا في ذات الله ، لم يراقب ابن عمه في عمل كان ولاه إياه ، و لا راقب أخاه عقيل في كلام جبهه به ، و أحرق قوما بالنار ، و نقض دار مصقلة بن هبيرة ، و دار جرير بن عبد الله البجلي ، و قطع جماعة و صلب آخرين ٤ .
 و من جملة سياسته حروبه في أيام خلافته بالجمل و صفين و النهروان ، و في أقل القليل منها مقنع ، فإن كل سائس في الدنيا لم يبلغ فتكه

(١) قوله : كلهم يرجعون إليه . لا يخلو من الإشكال ، فليراجع التيسير لأبي عمرو الداني : ١٠٨ و غيره من كتب القراءة .

(٢) نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة ٢ : ٢٩ الخطبة (١٤٤) .

(٣) نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة ٢ : ١٨٠ الخطبة (١٩٨) بفرق .

(٤) كل ذلك نقله أهل التاريخ و الآثار ، و لم يسع المقام لذكره .

الصفحة ٨٨

و بطشه و انتقامه مبلغ العشر ممّا فعل عليه السّلام في هذه الحروب بيده و أعوانه . فهذه هي خصائص البشر و مزاياهم ، قد أوضحنا أنّ فيها الإمام المتّبع فعله و الرّئيس المقتفى أثره . و ما أقول في رجل يحبّه أهل الذمّة على تكذيبهم بالنّبوة ، و تعظّمه الفلاسفة على معاندتهم لأهل الملة ، و تصوّر ملوك الفرنج و الروم صورته في بيعها و بيوت عباداتها حاملا سيفه ، مشمرا لحربه ، و تصوّر ملوك الترك و الديلم صورته على أسيافها كان على سيف عضد الدولة ابن بويه و سيف أبيه ركن الدولة صورته ، و كان على سيف ألب أرسلان و ابن ملكشاه صورته ، كأنّهم يتفاعلون به النّصر و الظفر . و ما أقول في رجل أحبّ كلّ واحد أن يتكثّر به ، و ودّ كلّ أحد أن يتجمّل و يتحسنّ بالانتساب إليه ؟ حتى الفتوة التي أحسن ما قيل في حدّها : ألاّ تستحسن من نفسك ما تستقبّحه من غيرك ، فإنّ أربابها نسبوا أنفسهم إليه ، و صنّفوا في ذلك كتبا ، و جعلوا لذلك إسنادا أنهوه إليه ، و قصروه عليه ، و سمّوه سيّد الفتیان ، و عضّدوا مذهبهم إليه بالبيت المشهور المرويّ ، أنه سمع من السماء يوم أحد :

لا سيف إلاّ ذو الفقار

و لا فتى إلاّ عليّ

١ و ما أقول في رجل أبوه أبو طالب سيّد البطحاء ، و شيخ قريش و رئيس

(١) جملة « لا سيف إلاّ ذو الفقار و لا فتى إلاّ عليّ » رويت في غزوات بدر و أحد و خيبر ، و رويت بلا ذكر شأن ، فأما غزوة أحد فأخرجها الصدوق في معاني الأخبار : ١١٩ ح ١ ، و أماليه : ١٦٧ ح ١٠ المجلس (٣٦) ، و المفيد بروايتين في الإرشاد : ٤٦ ، ٤٧ عن النبي صلّى الله عليه و آله ، و أخرجها المفيد في الإرشاد : ٤٧ عن الباقر عليه السّلام ، و أخرجها الكليني في الكافي ٨ : ١١٠ ح ٩٠ ، و الصدوق في علل الشرائع ١ : ٧ ح ٣ عن الصادق عليه السّلام ، و في العيون ١ : ٧٠ ح ٩ عن الكاظم عليه السّلام ، و أخرجها ابن هشام في السيرة ٣ : ٤٣ عن ابن أبي نجیح ، و الفرات الكوفي في تفسيره : ٣٥ عن حذيفة بن اليمان ، و ابن المغازلي في المناقب : ١٩٧ ح ٢٣٤ ، و المفيد في الارشاد : ٤٧ عن ابن رافع ، و أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ١٤٢ ، المجلس (٥) عن محمد بن إسحاق .

الصفحة ٨٩

مكة ، قالوا : قلّ أن يسودّ فقير ، و ساد أبو طالب و هو فقير لا مال له ، و كانت قريش تسميه الشيخ .
و في حديث عفيف الكندي ، لما رأى النبي صلى الله عليه و آله و سلم يصلّي في مبدأ الدعوة ، و معه
غلام و امرأة ، قال : فقلت للعباس : أيّ شيء هذا ؟ قال : هذا ابن أخي يزعم أنه رسول من الله الى الناس
، و لم يتبعه على قوله إلاّ هذا الغلام و هو ابن أخي أيضا و هذه الامرأة ، و هي زوجته . قال : فقلت : ما
الذي تقولونه أنتم ؟ قال :

نتنظر ما يفعل الشيخ . يعني : أبا طالب ١ . و أبو طالب هو الذي كفل رسول الله صلى الله عليه و آله
صغيرا ، و حماه و حاطه كبيرا ، و منعه من مشركي قريش ، و لقي لأجله عنتا عظيما ، و قاسى بلاء
شديدا ، و صبر على نصره و القيام بأمره ، و جاء في الخبر أنه لما توفي أبو طالب أوحى إليه عليه السلام
و قيل له : اخرج منها ، فقد مات ناصرك ٢ .

و له مع شرف هذه الابوة أنّ ابن عمّه محمّد سيد الأولين و الآخرين ، و أخاه جعفر ذو الجناحين ، الذي
قال له رسول الله صلى الله عليه و آله : « أشبهت خلقي و خلقي » ٣ فمر يحجل فرحا ، و زوجته سيّدة
نساء العالمين ، و ابنه سيّدا شباب أهل الجنّة ، فأبأه آباء رسول الله ، و أمّهاته أمّهات رسول الله ، و هو
مسوط بلحمه و دمه ، لم يفارقه منذ خلق الله آدم ، إلى أن مات عبد المطلب بين الأخوين : عبد الله و أبي
طالب ، و أمهما واحدة ، فكان منهما سيد الناس ، هذا الأول و هذا التّالي ، و هذا المنذر و هذا الهادي و ما
أقول في رجل سبق الناس إلى الهدى و آمن بالله و عبده ، و كلّ من في

(١) حديث عفيف أخرجه الطبري بثلاث روايات في التاريخ ٢ : ٥٦ ، ٥٧ و غيره بفرق يسير .

(٢) هذا المعنى أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٤٤٩ ح ٣١ ، و غيره .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥ : ٦٥٤ ح ٣٧٦٥ ، و أحمد في مسنده ٤ : ٣٤٢ ، و الخطيب في
التاريخ عنه منتخب كنز العمال ٥ :

١٥٤ ، و روي أيضا ضمن أحاديث .

الصفحة ٩٠

الأرض يعبد الحجر إلى أن قال و قد قال هو عليه السلام : « أنا الصديق الأكبر ، و أنا الفاروق الأول ،
أسلمت قبل إسلام الناس و صلّيت قبل صلاتهم » ١ و من وقف على كتب أصحاب الحديث تحقّق ذلك و
علمه واضحا ، و إليه ذهب الواقدي و ابن جرير الطبري ٢ ، و هو القول الذي رجّحه و نصره صاحب
كتاب (الاستيعاب) ٣ .

و في (صناعة أبي هلال العسكري) : سئل صعصعة عن علي عليه السلام فقال :
 لم يقل فيه مستزيد : لو أنه ، و لا مستقصر : إنه ، جمع العلم و الحلم و السلم و القرابة القريبة و الهجرة
 القديمة و البصر بالأحكام و البلاء العظيم في الإسلام ٤ .
 و فيه : لما بلغ كلامه عليه السلام في بيان حكمة الله تعالى في خلط لذات الدنيا بآلامها إلى الجاحظ قال :
 هو جماع الكلام الذي دوته الناس في كتبهم و تحاوروه بينهم . فسمع بذلك أبو علي الجبائي فقال : صدق
 الجاحظ ، هذا ما لا يحتمله الزيادة و النقصان ٥ .
 و قال ابن أبي الحديد في كتابه عليه السلام إلى ابن عباس بعد مقتل محمد بن أبي بكر « فعند الله نحسبه
 ولدا ناصحا ، و عاملا كادحا ، و سيفا قاطعا ، و ركنا دافعا » : انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل
 قيادها و تملكه زمامها ،

-
- (١) أخرجه ابن ماجة في سننه ١ : ٤٤ ح ١٢٠ ، و النسائي في الخصائص : ٤٦ ، و الطبري في
 التاريخ ٢ : ٥٦ ، و ابن أبي شيبة في مسنده ، و ابن أبي عاصم في السنة ، و العجلي في الضعفاء ، و
 الحاكم في المستدرک ، و أبو نعيم في المعرفة عنهم منتخب كنز العمال ٥ : ٤٠ ، و الثعلبي في تفسيره عنه
 ينابيع المودة : ٦٠ ، و الصدوق في الخصال : ٤٠١ ح ١١٠ ، و له شاهد قوي من الحديث النبوي .
 (٢) رواه الطبري في تاريخه ١ : ٥٥ .
 (٣) قاله ابن عبد البر في الاستيعاب ٣ : ٢٧ ، و شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٠٥ .
 (٤) الصناعتين : ١٨٦ و النقل بتصريف يسير .
 (٥) لم أجده في الصناعتين .

الصفحة ٩١

و أعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلو بعضها بعضا كيف تؤاتيه و تطاوعه سلسلة سهلة ، تتدفق من غير
 تعسف و لا تكلف ، حتى انتهى إلى آخر الفصل .
 فقال : يوما واحدا و لا ألتقى بهم أبدا . و أنت و غيرك من الفصحاء إذا شرعوا في كتاب أو خطبة جاءت
 القرائن و الفواصل تارة مرفوعة و تارة مجرورة و تارة منصوبة ، فإن أرادوا قسرها بإعراب واحد ظهر
 منها في التكلف أثر بين و علامة واضحة ، و هذا الصنف من البيان أحد أنواع الإعجاز في القرآن ، ذكره
 عبد القاهر ، قال : انظر إلى سورة النساء و بعدها سورة المائدة : الأولى منصوبة الفواصل ، و الثانية
 ليس فيها منصوب أصلا ، و لو مزجت إحدى السورتين بالأخرى لم تمتزجا ، و ظهر أثر التركيب و
 التأليف بينهما . ثم إن فواصل كل واحدة منهما تتساق سياقة بمقتضى البيان الطبيعي لا الصناعة التكليفية .

ثم انظر إلى الصفات و الموصوفات في هذا الفصل كيف قال : « ولدا ناصحا ، و عاملا كادحا ، و سيفا قاطعا ، و ركنا دافعا » ، لو قال : « ولدا كادحا و عاملا ناصحا » و كذلك ما بعده لما كان صوابا و لا في الموقع واقعا ، فسبحان من منح هذا الرجل بهذه المزايا النفيسة و الخصائص الشريفة ، أن يكون غلام من أبناء عرب مكة ينشأ بين أهله لم يخالط الحكماء ، و خرج أعرف بالحكمة و دقائق العلوم الإلهية من افلاطون و أرسطو ، و لم يعاشر أرباب الحكم الخلقية و الآداب النفسانية ، لأنّ قريشا لم يكن أحد منهم مشهورا بمثل ذلك ، و خرج أعرف بهذا الباب من سقراط ، و لم يربّ بين الشجعان لأن أهل مكة كانوا ذوي تجارة و لم يكونوا ذوي حرب ، و خرج أشجع من كلّ بشر مشى على الأرض ، قيل لخلف الأحمر : أيما أشجع عنبسة و بسطام أم علي بن أبي طالب ؟ فقال : إنّما يذكر عنبسة و بسطام مع البشر و الناس ، لا مع من يرتفع عن

الصفحة ٩٢

هذه الطبقة . فقل له : فعلى كل حال . قال : و الله لو صاح عليّ عليه السلام في وجوههما لماتا قبل أن يحمل عليهما . و خرج أفصح من سبحان و قسّ و لم تكن قريش بأفصح العرب كان غيرها أفصح منها . قالوا : أفصح العرب جرهم و إن لم تكن لهم نباهة . و خرج أزهّد الناس في الدنيا و أعفهم مع أنّ قريشا ذوو حرص و محبةً للدنيا و لا غرو في من كان محمد صليّ الله عليه و آله مربّيه و مخرجه و العناية الإلهية تمدّه و ترفده أن يكون منه ما كان ١ . « و أنّه عليه السلام انفراد ببلوغ غايتها » أي : غاية فضيلة النطق .

« عن جميع » متعلق بقوله « انفراد » .

« السلف الأولين الذين إنّما يؤثر » أي : يروي .

« عنهم منها » أي : من تلك الفضيلة .

« القليل النادر و الشاذّ » و الأصل في معنى الشاذّ : التفرّق .

« الشارد » يقال : بعير شارد ، و يأتي في الكلام استعارة ، قال الشاعر :

شروذ إذا الرأون حلّوا عقالها

محجلة فيها كلام محجل

٢ قال ابن أبي الحديد عند شرح قوله عليه السلام في صفة الملائكة : « ثمّ خلق سبحانه لإسكان سماواته » : هذا موضع المثل « إذا جاء نهر الله بطل نهر معقل » ٣ . إذا جاء هذا الكلام الربانيّ و اللفظ القدسيّ بطلت فصاحة العرب ، و كانت نسبة الفصيح من كلام العرب إلى كلامه نسبة التراب إلى النضار الخالص ، و لو فرضنا أنّ العرب تقدر على الألفاظ الفصيحة المناسبة أو المقاربة لهذه الألفاظ ، من أين لهم هذه المادة التي عبّرت هذه الألفاظ عنها ؟

(١) شرح بن أبي الحديد ٤ : ٥٤ شرح الكتاب (٣٥) ، و ما نقل عن عبد القاهر فهو في دلائل الاعجاز : ٣٩٩ .

(٢) نقله أساس البلاغة : ٢٣٢ مادة (شرد) ، و لسان العرب ٣ : ٢٣٧ مادة (شرد) .

(٣) نقله الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٨٨ ضمن الأمثال المولدة .

الصفحة ٩٣

و من أين تعرف الجاهلية بل الصحابة المعاصرون للنبيّ هذه المعاني الغامضة ، ليتهيأ لهم التعبير عنها ؟ أمّا الجاهليّة فإنّهم إنّما كانت تظهر فصاحتهم في صفة بعير أو فرس أو حمار وحش أو ثور فلاة أو صفة جبال أو فلات و نحو ذلك ، و أمّا الصحابة فالمذكورون منهم بفصاحة إنّما كان منتهى فصاحة أدهم كلمات لا تتجاوز السطرين أو الثلاثة : إمّا في موعظة تتضمن ذكر الموت أو ذمّ الدنيا ، أو ما يتعلّق بحرب و قتال من ترغيب أو ترهيب ، فأما الكلام في الملائكة و صفاتها و عبادتها و تسبيحها و معرفتها بخالفها و حبّها له و ولهها إليه ، و ما جرى مجرى ذلك ممّا تضمّنه هذا الفصل على طوله ، فإنّه لم يكن عندهم معروفًا بهذا التفصيل . نعم ربما علموا جملة غير مقسّمة هذا التقسيم و لا مرتبة بهذا الترتيب ، بما سمعوه من ذكر الملائكة في القرآن العظيم ، و أمّا من عنده من هذه المادة ، كعبد الله بن سلام و أمية بن أبي الصلت و غيرهما فلم تكن لهم هذه العبارة و لا قدروا على هذه الفصاحة ، فثبت أنّ هذه الأمور الدقيقة لم تحصل إلّا لعلّيّ عليه السّلام وحده ١ .

و قال أيضًا في شرح كلامه عليه السّلام في صفة الاحتضار و سقوط الناطقة ثمّ السامعة ثمّ الباصرة : هذا موضع المثل « في كلّ شجرة نار و استمجد المرخ و الغفار » ٢ . الخطب الوعظية الحسان كثيرة ، و لكن هذا حديث يأكل الأحاديث ، فإنّ نسبة هذه الخطبة إلى كلّ فصيح من الكلام عدا كلام الله تعالى و رسوله نسبة الكواكب المنيرة الفلكيّة إلى الحجارة الأرضيّة المظلمة ، ثم لينظر الناظر

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٠ شرح الخطبة (٨٩) و نقله الشارح بتصرف .

(٢) نقله الميداني في مجمع الأمثال ٢ : ٧٤ ، و الزمخشري في المستقصى ٢ : ١٨٣ قال الزمخشري : « يضرب في تفضيل القوم على بعض اذا كانوا كلّهم ذوي خير ، و لبعضهم مزية و تقدّم ليس للآخرين » .

الصفحة ٩٤

إلى ما عليها من البهاء و الجلالة و الرواء و الديباجة ، و ما تحدّثه من الرّوعة و الرهبة و المخافة و الخشيّة ، حتّى لو تليت على زنديق ملحد مصمّم على اعتقاد نفي البعث و النشور لهدّت قواه ، و رعب قلبه

، و اصعقت على نفسه ، و زلزلت اعتقاده ، فجزى الله قائلها عن الإسلام أفضل ما جزى به وليًا من أوليائه ، فما أبلغ نصرته له تارة بيده و سيفه و تارة بلسانه و نطقه و تارة بقلبه و فكره ، إن قيل ، جهاد و حرب ، فهو سيّد المجاهدين ، و إن قيل : وعظ و تذكير ، فهو أبلغ الواعظين و المذكرين ، و إن قيل : فقه و تفسير ، فهو رئيس الفقهاء و المفسرين ، و إن قيل : عدل و توحيد فهو إمام العدل و الموحدّين ، و :

ليس على الله بمستنكر

أن يجمع العالم في واحد

١ « و أمّا كلامه عليه السّلام فهو من البحر » هكذا في (المصرية) ، و الصواب :

(البحر) بدون (من) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيب) ٢ .

« الذي لا يساجل » هكذا في (المصرية) بالجيم ، و الصواب : (لا يساحل) بالحاء ٣ ، فلا ربط للمساجلة و هي المباراة في الاستقاء من البئر هنا ، و إنّما هو من ساحل فلان إذا أتى السّاحل ، و المراد أنّ كلامه عليه السّلام بحر لا ساحل له .

« و الجمّ » أي : المجتمع ، من استجم البئر إذا تركها حتّى يجتمع ماؤها .

« الذي لا يحافل » أي : لا يظهر فيه نقصان ، من حفل الشاة إذا جمع اللّبن في ضرعها ليرى فيه لبن كثير ، و ليس كذلك ، و نهى عن بيع المحفلة . قال البحتري في وصف كلام :

في نظام من البلاغة ما شكّ

امرؤ أنه نظام فريد

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٣٠ شرح الخطبة (١٠٧) نقله الشارح بتصريف .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ .

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ « يساجل » أيضا ، لكن جعل ابن

أبي الحديد « يساحل » بالحاء ، رواية .

الصفحة ٩٥

و بديع كأنه الزهر الضاحك

في رونق الربيع الجديد

مشرق في جوانب السمع ما يخلفه

عوده على المستعيد

حجج تخرس الألدّ بألفاظ

فرادى كالجواهر المعدود

و معان لو فصلتھا القوافي

هجنّت شعر جرول و لبيد

« و أردت أن يسوغ » أي : يجوز . و الأصل فيه : سوغ الطعام و الشراب من الحلق .

« لي التمثّل في الافتخار به عليه السّلام بقول الفرزدق » و هو همّام بن غالب ابن صعصعة ، من بني تميم

مخاطبا لجرير :

أولئك آبائي فجئني بمثلهم

إذا جمعتنا يا جرير المجمع

١ و جرير من كليب بن يربوع ، كان بينهما التفاخر و المهاجاة مدّة حياتهما ، و كان يتعصّب لكلّ منهما

طائفة ، حتّى يقع بينهما التشاجر ، و لم يكن لجرير بيت و كان أبوه خاملا . و أمّا بنو تميم بيت الفرزدق

فكانوا معروفين في الجاهلية و الإسلام . كان صعصعة جدّه اشترى في الجاهلية ثلاثين موعودة و أنجاهنّ

من الموت ٢ ، و فرّق أبوه غالب إبلا له كثيرة في حمالات الناس في الإسلام ، و كان الفرزدق جعل على

نفسه أن يجبر كلّ من استجار بقبر أبيه و يسعى في نجح حاجته ، و قصّة حبيش أو خنيس في ذلك معروفة

، و لسائر آبائه و عشيرته مكارم أثبتتها لهم التاريخ ، و البيت من قصيدة يفاخر جريرا بأبائه ، و الإشارة

في قوله : « أولئك » في البيت إلى الذين عدّهم في أبيات قبل البيت و ذكر مكارمهم ، و هي :

و منّا الذي اختير الرجال سماحة

و خيرا إذا هبّ الرياح الزّعازع

(١) ديوان الفرزدق ١ : ٤١٨ .

(٢) المصدر نفسه .

الصفحة ٩٦

و منّا الذي أحيا الوئيد و غالب

و عمرو و منّا حاجب و الأقرع

١ و نظير شعره هذا (أولئك آبائي) شعر آخر له :

أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم

و أعبد أن أهجو كليباً بدارم

٢ و له قصيدة أخرى يفاخره أيضا فيها بأبائه ، و هي :

و إن تك كلبا من كليب فإنني

من الدار ميّين الطوال الشقاشق

هم الداخلون البيت لا تدخلونه

على الملك و الحامون عند الحقائق

٣ هذا ، و قال الخوئي بعد نقل قول المصنّف : و أردت أن يسوغ لي التمثل في الافتخار به عليه السّلام بقول الفرزدق : « أولئك . . . » : و أنا أيضا أتمنّى بذلك و أفخر به كالسيد ، لكوننا فرع أصل واحد و غصن دوحة واحدة ٤ .

قلت : إنّ الرضي رضوان الله عليه لم يرد الافتخار به عليه السّلام بانتسابه إليه و كونه علويًا ، لأنّه ليس كلامه في قبائل رجل غير علويّ ، بل أراد الافتخار به عليه السّلام بآلئتمامه به في قبائل العامّة المؤمنين بأولئك الثلاثة ، بأنّه هل الإمام من يكون له مثل هذه المناقب أو من يكون له تلك المثالب ، و من يكون له مثل هذه الفصاحة الخارجة عن طوق البشر ، أو من عجز عن التكلم بكلمات يسيرة ؟ قال أبو عبيدة : قال عمر : « ما تصعدتني خطبة كما تصعدتني خطبة

(١) أخرج ذلك ابن مندة و ابن أبي الدنيا و ابن عساكر ، عنهم شواهد المغني ١ : ١٦ عن مغيرة ، قال : « لم يكن أحدا من أشرف العرب بالبادية كان أحسن دينا من صعصعة جدّ الفرزدق ، و هو الذي أحيا ألف موعودة ، و حمل على ألف فرس » .

(٢) كثيرا ما يفتخر الفرزدق بدارم ، لكن لم أجد هذا البيت في ديوانه ، و لعلّه من المنسوبات إليه ، و نقل ابن منظور في لسان العرب ٣ : ٢٧٥ مادة (عيد) بيتا عن الفرزدق مصراعه الثاني كذلك ، و صدره :

أولئك قوم إن هجوني هجوتهم

(٣) يوجد البيت الأول في ديوان الفرزدق ٢ : ٥٤ ، لكن الثاني لم أجدّه فيه .

(٤) شرح الخوئي ١ : ٩٠ قال الخوئي عقيب كلامه هذا : « و انتهاء نسبي و نسب السيد الى العبد الصالح موسى بن جعفر عليه السّلام » .

الصفحة ٩٧

النكاح ١ . و قال الجاحظ في بيانه : صعد عثمان المنبر فارتجّ عليه ، فقال : إنّ أبا بكر و عمر كانا يعدّان لهذا المقام مقالا ، و أنتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب و ستأتكم الخطب على وجهها ٢ . قلت : و حيث إنّ عثمان و هو ذو نوريهم لم يقدر على خطابة مختصرة ، و اعتذر باحتياج الناس الى عدل الامام لا خطابته ، لبيته وقي لهم و لم يعمل من الجور ما يضطرّ الناس الى قتله ، و حينئذ ، فتمنّى الرضي رحمه الله في معنى قوله تعالى مشيرا إلى قضية العقول : . . . أفمن يهدي إلى الحقّ أحقّ أن يتبع أمّن لا يهدّي إلّا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون ٣ . و حينئذ ، يمكن أن يتمنّى به كلّ اماميّ و شيعي ، فكلّ امامي

علويّ ، و كان مصطلحا « فلان علويّ ، و فلان عثماني » يريدون بالأول الإماميّ و بالثاني المخالف . مع أنّ للرضيّ خصوصيّة في انتسابه إليه عليه السّلام ، و هي كون انتسابه إليه عليه السّلام من قبل الأب و الأمّ مع قلّة الوسائط ، فأبوه الحسين بن موسى بن محمّد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم عليه السّلام ، و أمّه فاطمة بنت الحسن الناصر الصغير ابن أحمد بن الحسن الناصر الكبير ابن عليّ بن الحسين بن عليّ بن عمر الأشرف ابن علي السجاد عليه السّلام ، كما ذكر ذلك أخوه المرتضى في أوّل (ناصرياته) ٤ .

و أمّا قول ابن أبي الحديد : أمه فاطمة بنت الحسين بن الحسن بن علي

(١) نقله الجاحظ في البيان و التبيين ١ : ١٦١ .

(٢) نقله الجاحظ في البيان و التبيين ١ : ٣٥٩ .

(٣) يونس : ٣٥ .

(٤) في الناصريات : ١٧٨ فاطمة بنت أبي محمّد الحسن ، و في نسخة أبي الحسن بن أحمد أبي الحسين أحمد صاحب جيش أبيه الناصر الكبير أبي محمد الحسين بن أحمد بن الحسين بن الحسن بن عليّ بن الحسين بن علي بن عمر ، و في نسخة أبي محمد الحسين بن علي بن الحسن ابن علي بن عمر بن علي السجّاد زين العابدين .

الصفحة ٩٨

بن الحسن بن علي بن عمر ١ فوهم ، فأهل البيت أدري بما في البيت .
و قد مدح أبو اسحاق الصابي الرضيّ في نسبه العالي و شرفه النفسي في قبّال حاسديه و معارضيه بقوله :

ألا أبلغا فرعا نمته عروقه

إلى كلّ سام للمفاخر بان

محمّد المحمود من آل أحمد

أبا كلّ بكر في العلى و عوان

أبا حسن قطعّت أحشاء حاسد

طواها على البغضاء و الشنآن

يراك بحيثّ النجم تصدع قلبه

بحدّ لسان أو بحدّ سنان

جرى جاهدا و العفو منك يفوته

فكان هجينا طالبا لهجان

و أنت سماء في الذؤابة صاعد

و ذاك حضيض في القرارة عان

٢ و مراده بمحمد المحمود الرضيّ ، كما أنّه هو المراد بقوله : أبا حسن .

« و رأيت كلامه عليه السّلام يدور على أقطاب » و الأصل في القطب : قطب الرّحى .

« ثلاثة : أولها الخطب و الأوامر » و النّواهي .

« و ثانيها : الكتب و الرسائل » و الرّسائل أعمّ من الكتب ، فيمكن أن تكون الرسائل برسل يؤدّون المطالب شفاهما .

« و ثالثها : الحكم و المواعظ » التي لم تكن في خطبة أو كتاب و رسالة ، و بالقيّد يكون الثالث قسيما للأوليين ، و إلّا ففي الخطب و الكتب أيضا حكم و مواعظ كثيرة ، و قد ذكرنا في أكثر عناوين الأبواب الثلاثة مدارك و أسانيد لكونها كلامه عليه السّلام ، فإنكار النّصاب لكون النهج كلامه عليه السّلام غير مسموع في قبال البيّنة ، مع أنّ كثيرا منه بل جلّه يصحّحته و سنده ، لا سيّما الشّقيّة

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١١ .

(٢) من قصيدة طويلة للصابي في مدح الشريف الرضي ، نقلها الثعالبي معاصرها في يتيمة الدهر ٢ :

٣٠٠ .

الصفحة ٩٩

التي أنكرها خصوصا ١ .

و قال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السّلام : « و اعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار » : إنّ كثيرا من أرباب الهوى يقولون : إنّ كثيرا من نهج البلاغة كلام محدث ، صنعه قوم من فصحاء الشيعة . قال : و ربّما عزوا بعضه الى الرّضيّ و غيره . قال : و هؤلاء قوم أعمت العصبية أعينهم فضلّوا عن النهج الواضح ، و ركبوا بيّنات الطريق ضلالا و قلّة معرفة بأساليب الكلام . قال : و أنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط .

فأقول : لا يخلو إمّا أن يكون كلّ نهج البلاغة مصنوعا منحولا أو بعضه ، و الأوّل باطل بالضرورة ، لأنّنا نعلم بالتواتر صحّة اسناد بعضه إليه عليه السّلام ، و قد نقل المحدثون كلّهم أو جُلّهم و المؤرّخون كثيرا منه ، و ليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض في ذلك ، و الثاني يدلّ على ما قلناه ، لأنّ من قد انس بالكلام و الخطابة و شدا طرفا من علم البيان و صار له ذوق في هذا الباب ، لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك و الفصيح ، و بين الفصيح و الأفصح ، و بين الأصيل و المودّد ، و إذا وقف على كراس واحد يتضمّن كلاما لجماعة من البلغاء أو لاثنتين منهم فقط فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين و يميّز بين الطريقتين ، ألا ترى أنا مع

معرفتنا بالشعر و نقده لو تصفحنا ديوان أبي تمام فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيره ،
لعرفنا بالذوق مباينتها لشعر أبي تمام و نفسه و طريقتة و مذهبه في القريض ، ألا ترى أن العلماء بهذا
الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه ، لمباينتها لمذهبه في الشعر ، و كذلك حذفوا من

(١) أما إنكار كل نهج البلاغة فنقله ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ٥٢٦ شرح الخطبة (١٨١) عن
بعض ، و أما إنكار الشَّقْشِقِيَّة فنقله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٦٩ شرح الخطبة (٣) ، و ابن ميثم في
شرح ١ : ٢٥١ شرح الخطبة (٣) ،
و يأتي تفصيل بحثه في العنوان (٣٠) من الفصل الثامن .

الصفحة ١٠٠

شعر أبي نواس شيئا كثيرا لما ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه و لا من شعره ؟
و كذلك غيرهما من الشعراء ، و لم يعتمدوا في ذلك إلا على الذوق خاصّة . و أنت إذا تأملت نهج البلاغة
وجدته كله ماء واحدا و نفسا واحدا و أسلوبا واحدا ، كالجسم البسيط الذي ليس بعض من أبعاضه مخالفا
لباقى الأبعاض في الماهية ، و كالقرآن العزيز أوله كأوسطه و أوسطه كآخره ، و كل سورة منه و كل آية
مماثلة في المأخذ و المذهب و الفنّ و الطريق و النظم لباقي الآيات و السور ، و لو كان بعض نهج البلاغة
منحولا و بعضه صحيحا لم يكن ذلك كذلك . فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلال من زعم أن هذا
الكتاب أو بعضه منحول إليه عليه السلام ١ .

قلت : و ما ذكره في غاية الجودة لكن يستثنى منه ما أشرنا إليه في أول الكتاب ٢ ، فليحذف كما حذف من
شعر أبي تمام و أبي نواس بالقاعدة التي ذكرها ، و قد برهنّا على ما قلنا عند شرح عناوين ما ذكرنا .
هذا ، و الذي يظهر من كتب اللغة (كالصاحح و الأساس) ٣ و غيرهما عدم صحّة استعمال (كراس
واحد) بل (كراسه واحدة) ، و كون الكراس جمعا . ثمّ إنّ إخواننا جاوزوا الحدّ في الخطّ من قدره عليه
السلام اقتداء بسلفهم . فتارة أنكروا بعض كلامه كونه منه كالشَّقْشِقِيَّة و غيرها ٤ ، و أخرى نسبوا كلامه
عليه السلام إلى غيره ، فنسبوا كلامه عليه السلام : « أيّها الناس إنّنا قد أصبحنا في دهر عنود » إلى

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٢٦ شرح الخطبة (١٨١) .

(٢) مرّ في مقدّمة المؤلّف .

(٣) صحاح اللّغة للجوهريّ ٢ : ٩٢٧ مادة (كرس) ، و أساس البلاغة : ٣٩٠ مادة (كرس) ، و

لسان العرب ٦ : ١٩٣ مادة (كرس) .

(٤) كما سبق في شرح الفقرة .

الصفحة ١٠١

معاوية ١ ، كل ذلك إرادة لإطفاء نوره عليه السلام ، (و يأبى الله إلا أن يتم نوره) .
« فأجمعت » أي : عزمت .
« بتوفيق الله تعالى على الابتداء باختيار محاسن الخطب ، ثم محاسن الكتب ،
ثم محاسن الحكم و الأدب » لا كل خطبة و كتاب و كلام له عليه السلام .
« مفردا لكل صنف من ذلك » الذي ذكر من الخطب و الكتب و الأدب .
« بابا » و تعبيره في الأبواب الثلاثة مختلف ، ففي الأول يقول : و من خطبة له عليه السلام ، أو و من
كلام له عليه السلام ، و في الثاني في الأغلب يقول : و من كتاب له عليه السلام ،
و قد يقول : و من وصية له عليه السلام كما في (١١ و ١٢ و ١٤ و ٢٤ و ٢٥ و ٣١ و ٤٧ و ٥٦ و
٧٦ و ٧٧) ٢ .
و قال في (٧٤) : و من حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة و اليمن ٣ ، و قد يقول :
و من عهد له عليه السلام كما في (٢٦ و ٢٧) ٤ ، و قد يقول : و كان عليه السلام يقول ، كما في (١٥
و ١٦) ٥ و في الثالث يقول : قال عليه السلام .
لكن الغريب أنه قال في الخطبة (٥٩) : « و قال عليه السلام لما عزم على حرب الخوارج » ، و قال
بعده : « و لما قتل الخوارج فقبل له : يا أمير المؤمنين هلك القوم بأجمعهم . قال عليه السلام » ، و قال
بعده : « و قال عليه السلام فيهم : لا تقتلوا الخوارج ،
بعدي » ٦ . مع أن عنوانها عنوان الباب الأخير ، كما أن كلاً منها كلام قصير .

(١) رواها الجاحظ في البيان و التبیین ٢ : ٥٨ عن معاوية ، ثم أنكر كونها له ، و رواها عن معاوية
أيضا ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ : ٢٣٧ ، و ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ : ١٥٢ أشار الى أن
الرضي نقلها عن معاوية في نهج البلاغة ١ : ٧٩ ،
و تأتي الخطبة و بحثها في العنوان (١) من الفصل الخامس و العشرين في شرح الخطبة (٣٢) .
(٢) نهج البلاغة ٣ : ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٧٦ ، ١١٣ ، ١٣٦ .
(٣) نهج البلاغة ٣ : ١٣٤ .
(٤) نهج البلاغة ٣ : ٢٦ ، ٢٧ .
(٥) نهج البلاغة ٣ : (١٥ ، ١٦) .
(٦) نهج البلاغة ١ : ١٠٧ .

الصفحة ١٠٢

فكان الواجب نقلها في الأخير ، اللهم إلا أن يقال بأنها ليست عناوين مستقلة ، بل كلها عطف على قوله قبلها : و من كلام له عليه السلام كلم به الخوارج .
و قال في الخطبة (٦٨) : و قال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه ١ . مع أنه كان الواجب جعله في الثالث ، و لا يأتي فيه تأويل ذكر لسابقه .
« و مفصلاً » و في (ابن أبي الحديد و الخطبة) و « مفصلاً » بالمعجمة ٢ .
« فيه أوراها لتكون » الأوراق .
« مقدّمة » هكذا في (المصرية) ، و الكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) ٣ .
« لاستدراك ما عساه » أي : لعله .
« يشدّ » أي : ينفرد .
« عني » و قد شدّ عنه كلام كثير منه عليه السلام ممّا يدخل في موضوع كتابه ، ممّا له مزيد بلاغة في الأبواب الثلاثة ، و لا سيّما في الأول و الأخير .
« عاجلاً » أي : في الحال .
« و يقع إليّ آجلاً » أي : بعد ، و قد عرفت من (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) أنّ المصنّف ختم الكتاب بعنوان « رب مفتون » الحكمة (٤٦٢) ثم ألحق به ثمانية عشر عنواناً ، و عرفت من الراوندي أنه زاد في أوّل (٢٣٤ و ٢٣٥) ٤ .
« و إذا جاء شيء من كلامه عليه السلام الخارج في أثناء » جمع ثني ، بالكسر .
« حوار » مصدر حاور ، كالمحاورة ، مثل نقله ردّه عليه السلام اعتراض الأشعث

(١) نهج البلاغة ١ : ١١٨ .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٦ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ « مفصلاً » أيضاً بالصّاد المهملة .

(٣) لا يوجد في شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ ، لكنه في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٦ .

(٤) قد مرّ في مقدّمة المؤلف .

الصفحة ١٠٣

عليه في أثناء خطبته ١ .
« أو جواب سؤال » كنقله كلامه عليه السلام في جواب من سأله : كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام و أنتم أحقّ به ؟
« أو غرض » أي : مقصد .

« آخر من الاغراض » كنفله كلامه عليه السلام في هرب مصقلة ٣ ، و في عدم غناء بيعة مروان بكفه ٤ ، و في إشارته عليه السلام على عمر بعدم خروجه بنفسه في حرب الفرس و كذا الروم ٥ .
« في غير الانحاء » أي : الأقسام .
« التي ذكرتها ، و قررت القاعدة عليها » من الخطب و الأوامر ، و الكتب و الرسائل ، و الحكم و المواظ .

« نسبتها إلى أليق الأبواب به » في مقصده .

« و أشدها ملامحة » يقال : لمح الديق ، إذا لمع من بعيد .

« لغرضه » فنقل جميع ما مرّ في الباب الأوّل لكون كلامه عليه السلام فيها كالخطب و الأوامر ، كما نقل وصيته عليه السلام لجيشه ٦ ، و وصاياه عليه السلام في أمواله ٧ ، و وصيته عليه السلام بعد ضرب ابن ملجم عليه اللعنة للحسن و الحسين عليهما السلام ، و وصيته عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام ٨ ، و وصيته لابن عباس لما

(١) نهج البلاغة ١ : ٥٦ الخطبة (١٩) .

(٢) نهج البلاغة ٢ : ٦٣ الخطبة (١٦٠) .

(٣) نهج البلاغة ١ : ٩٤ الخطبة (٤٤) .

(٤) نهج البلاغة ١ : ١٢٣ الخطبة (٧١) .

(٥) نهج البلاغة ٢ : ٢٩ الخطبة (١٤٤) .

(٦) نهج البلاغة ٣ : ١٢ الكتاب (١١) .

(٧) نهج البلاغة ٣ : ٢٢ الكتاب (٢٤) .

(٨) نهج البلاغة ٣ : ٧٦ الكتاب (٤٧) .

الصفحة ١٠٤

ولآه ١ ، و وصيته عليه السلام له لما بعثه الى الخوارج ٢ ، و نحوها في الباب الثاني لكونها كالكتب و الرسائل ، كما نقل غريب كلماته عليه السلام في الباب الثالث لكونها كالحكم و الأدب ، لكنه قد يخرج عمّا قرّر ، فنقل تحريضا له عليه السلام لأصحابه في الثاني ٣ ، مع أنّه بالأوّل أليق ، و قد نقل تحريضا آخر له عليه السلام في الأوّل ٤ ، على أصله و نقله كلامه عليه السلام في معنى الأنصار في السقيفة في الأوّل ٥ مع أنّه بالثالث أليق ، و نقل كلاما آخر له عليه السلام في المعنى في الثالث ٦ على أصله .

و أمّا نقله أديعته عليه السلام في الأبواب الثلاثة ، فلكون نسبتها إليها على السواء ، و إن كان نقل جميعها في الثالث أولى ، حيث إنه أعمّ ، لأنّه قال فيه :

و يدخل فيه الكلام القصير الخارج في سائر أغراضه بخلاف الأولين ٧ .
 هذا و قال ابن أبي الحديد في أول الباب الثاني بعد نقل كلام المصنّف :
 باب المختار من كتب أمير المؤمنين عليه السّلام ، و قد أورد في هذا الباب ما هو بالباب الأوّل أشبهه ، نحو
 كلامه عليه السّلام لشريح القاضي لما اشترى دارا ٨ ، و كلامه عليه السّلام لشريح بن هاني لما جعله على
 مقدّمته الى الشام ٩ ، لكنّه اعتراض ساقط ، أمّا كلامه عليه السّلام لشريح القاضي ، فقال : و من كتاب له
 عليه السّلام كتبه لشريح ، فكيف ينقله في الخطب ، و لو لا كونه كتابا ، و إن كان كتاب شراء دار لكان
 بالباب الأخير

- (١) نهج البلاغة ٣ : ٣٧ الكتاب (٣١) .
 (٢) نهج البلاغة ٣ : ١٣٦ الكتاب (٧٦) .
 (٣) نهج البلاغة ٣ : ١٣٦ الكتاب (٧٧) .
 (٤) الظاهر أنّ كليهما كلامان في نهج البلاغة ٢ : ٢ الخطبة (١٢١) ، و ٢ : ٢٣٢ الخطبة (٢٣٩) .
 (٥) نهج البلاغة ١ : ١١٦ الخطبة (٦٥) .
 (٦) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ الحكمة (١٩٠) .
 (٧) نهج البلاغة ٤ : ٣ باب الحكم .
 (٨) نهج البلاغة ٣ : ٤ ، الكتاب (٣) .
 (٩) نهج البلاغة ٣ : ١١٣ ، الكتاب (٥٦) و شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٩٤ .

الصفحة ١٠٥

أشبهه ، لأنّه في الحكم و المواعظ ، و أمّا كلامه عليه السّلام لشريح بن هاني ، فعنوان المصنّف له : و من
 وصيّة له عليه السّلام وصّى بها شريح بن هاني ، و قد قال في أول الباب الثاني : و يدخل في ذلك ما
 اختير من عهوده الى عمّاله و وصاياهم لأهلهم و أصحابه ١ . فهل هو إلّا من عهوده عليه السّلام إلى عمّاله ؟
 و إن شئت قلت : هو من وصاياهم الى أصحابه . و مفسد قلة التدبّر كثيرة .
 « و ربّما جاء في ما أختاره من ذلك » في الأبواب الثلاثة من كلامه .
 « فصول غير متّسقة » الثالث مع الثاني ، و الثاني مع الأوّل .
 « و محاسن كلم غير منتظمة » في مقصد واحد .
 « لأنّي أورد النّكت » جمع النّكتة و الأصل في النّكت : أن تتكت في الأرض بقضيب و نحوه ، أي :
 تضرب فتؤثر فيها .

« و اللع » جمع اللّعة ، و الأصل فيها قطعة من النبت إذا أخذت في اليبس .
« و لا أقصد التتالي و النسق » و الأصل في النسق الاستواء . و المصنّف و إن كان يختار فصولا غير
متسقة و محاسن كلم غير منتظمة إلاّ أنّه ينبّه على عدم اتّساقها و انتظامها بقوله : « منها ، و منها ، منه ،
و منه » ، كقوله في أول الباب الأوّل : « منها في ذكر الحج » ٢ . و في ثانية : « و منها يعني آل النبي
صلّى الله عليه و آله » ٣ ، و أتى بلفظة « منها » في الخطبة (٨١) ٤ ، و في خطبة « فاتّعظوا عباد
الله » ٥ ، و في خطبة الأشباح ٦ ، و في خطبة « فتبارك

-
- (١) نهج البلاغة ٣ : ٢ باب الكتب .
(٢) نهج البلاغة ١ : ٢٧ الخطبة ١ .
(٣) نهج البلاغة ١ : ٢٧ الخطبة (٢) .
(٤) نهج البلاغة ١ : ١٣٢ .
(٥) نهج البلاغة ١ : ١٤٨ ، ١٤٩ الخطبة (٨٢) أولها : « عجا لإبن النابغة » . ليس فيها لفظة «
منها » أصلا .
(٦) نهج البلاغة ١ : ١٦٠ الخطبة (٨٩) .

الصفحة ١٠٦

الله « ١ ، و في خطبة « انظروا الى الدنيا » ٢ ، و في خطبة « الحمد لله الذي شرع الإسلام » ٣ ، و
في خطبة الملاحم ٤ ، و في خطبة « كلّ شيء خاشع له » ٥ ، و في خطبة « أرسله داعيا الى الحق » ٦
، و في « و من كلام له عليه السلام قال لأصحابه في ساحة الحرب » ٧ ، و في خطبة ملاحم البصرة ٨ ،
و في خطبة « نحمده على ما أخذ و أعطى » ٩ ، و في كلامه عليه السلام « و انقادت له الدنيا و الآخرة
» ١٠ ، و في كلام له عليه السلام في معنى طلحة و الزبير ١١ ، و في خطبة « و أستعينه » ١٢ ، و في
خطبة « الحمد لله الدالّ على وجوده » ١٣ ، و في خطبة « و ناظر قلب اللبيب » ١٤ ، و في كلام في
الملاحم ١٥ ، و في خطبة « أرسله على حين فترة » ١٦ ، و في خطبة « أمره قضاء و حكمة » ١٧ ،
في بعضها مرّة و في

-
- (١) نهج البلاغة ١ : ١٨٤ الخطبة (٩٢) .
(٢) نهج البلاغة ١ : ١٩٧ الخطبة (١٠١) .
(٣) نهج البلاغة ١ : ٢٠٣ الخطبة (١٠٤) .
(٤) نهج البلاغة ١ : ٢٠٦ الخطبة (١٠٦) .

- (٥) نهج البلاغة ١ : ٢٠٩ الخطبة (١٠٧) .
 (٦) نهج البلاغة ١ : ٢٢٩ الخطبة (١١٤) .
 (٧) نهج البلاغة ٢ : ٢ الخطبة (١٢١) .
 (٨) نهج البلاغة ٢ : ٩ الخطبة (١٢٦) .
 (٩) نهج البلاغة ٢ : ١٤ الخطبة (١٣٠) .
 (١٠) نهج البلاغة ٢ : ١٦ الخطبة (١٣١) .
 (١١) نهج البلاغة ٢ : ١٩ الخطبة (١٣٥) .
 (١٢) نهج البلاغة ٢ : ٣٧ الخطبة (١٤٩) .
 (١٣) نهج البلاغة ٢ : ٣٩ الخطبة (١٥٠) .
 (١٤) نهج البلاغة ٢ : ٤٣ الخطبة (١٥٢) .
 (١٥) نهج البلاغة ٢ : ٤٧ الخطبة (١٥٤) .
 (١٦) نهج البلاغة ٢ : ٥٣ الخطبة (١٥٦) .
 (١٧) نهج البلاغة ٢ : ٥٥ الخطبة (١٥٨) .

الصفحة ١٠٧

بعضها مرتين و في بعضها ثلاث أو أكثر .
 و كقوله في الباب الثاني في (٦) « منه » ١ ، و في (٢٤) « منها » ٢ ، و في (٢٧) « و منه » ٣ ،
 و في (٤٥) « و من هذا الكتاب » ٤ ، و في (٦٢) « و منه » ٥ .
 و حمل كلامه على أن مراده أنه قد يسرد خطبة أو كتابا ، و يكون فيها فقرات غير متسقة كما فهمه ابن
 أبي الحديد ، فيقول في مطاوي كتابه كثيرا : إن كلام الرضي ملقط من فصول مختلفة ٦ ، بعيد ، حيث أنه
 خارج عن أصل المقصود من الاستفادة ، و غاية ما وقفنا عليه مثل خلطه بين كلامه عليه السلام في خربت
 الناجي و أصحابه من قوله : « آمنوا فقطنوا » ، و بين كتابه عليه السلام فيهم من قوله : « فحسبهم
 بخروجهم » ٧ ، إلا أنه ككلام واحد .

و أما ما ترى من اختلاف ما نقل مع ما وقفنا عليه من أصول كلامه ،
 فالظاهر كونه من اختلاف الروايات ، مثلا قوله عليه السلام في الخطبة (٤٣) في عنوان كلامه عليه
 السلام بعد إرساله جرير بن عبد الله البجلي الى معاوية : « و لقد ضربت أنف هذا الأمر و عينه . . . »
 ٨ و جدته قاله أيام صفين ، و قوله عليه السلام فيه أيضا : « إنه قد كان على الناس وال أحدث أحداثا » ٩
 و جدته في كتابه عليه السلام الى أهل مصر ، إلى

- (١) ليس في نهج البلاغة ٣ : ٧ لفظة « منه » .
- (٢) نهج البلاغة ٣ : ٢٢ الكتاب (٢٤) .
- (٣) نهج البلاغة ٣ : ٢٧ ، الكتاب (٢٧) .
- (٤) ليس في نهج البلاغة ٣ : ٧٣ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ١٠١ لفظ « و من هذا الكتاب » ، بل في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٠٨ .
- (٥) نهج البلاغة ٢ : ١١٨ ، الكتاب (٦٢) .
- (٦) قاله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٧٢ ، و ٣ : ١٨٨ ، ٣٠٧ ، ٤١٧ في شرح الخطب ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٢٣٣ و الكتابين ٩ ، ١٠ .
- (٧) نهج البلاغة ٢ : ١٠٢ الخطبة (١٧٩) .
- (٨) نهج البلاغة ١ : ٩٤ .
- (٩) ذيل الخطبة (٤٣) .

الصفحة ١٠٨

غير ذلك مما ستقف عليه في مطاوي الكتاب إن شاء الله تعالى . و بالجملة قد ينقل المصنّف كلاما في موضوع وردت أجزاءه في أخبار فيجعلها واحدا بجامعها ، فكلامه عليه السّلام في الخطبة (١٢٢) ١ مأخوذ من ستّ روايات ، إلا أنّها كلّها في التحريض على القتال ، و كذلك كلامه عليه السّلام في الخطبة (١٢٣) في التحكيم ٢ مأخوذ من ثلاث روايات .

« و من عجائبه عليه السّلام التي انفرد بها ، و أمن المشاركة فيها أنّ كلامه عليه السلام الوارد في الزّهد ، و المواعظ ، و التّنكير و الزّواجر ، إذا تأمله المتأمل ، و فكّر فيه المتفكّر ، و خلع من قلبه أنّه كلام مثله ممّن عظم قدره و نفذ أمره و أحاط بالرقاب ملكه ، لم يعترضه الشكّ في أنّه كلام من لا حظّ له في غير الزّهادة ، و لا شغل له بغير العبادة » . قد تعجّب الثعالبي ٣ من أبي سهل الحمدوني الذي كان والي الريّ ، و قال أبياتا يسيرة في الزّهد ، فكيف لا يتعجّب منه عليه السّلام مع ما وصف ؟ « قد قبع » و الأصل فيه قبع القنفذ : أدخل رأسه في جسده .

« في كسر » بالكسر . عن ابن السكيت : الكسر أسفل شقّة البيت التي تلي الأرض ، من حيث يكسر جانباه من عن يمينك و يسارك ٤ .

« بيت » أي : خباء .

« أو انقطع » عن الناس .

« في » هكذا في (المصرية) ، و الصواب ما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) .

- (١) نهج البلاغة ٢ : ٢ .
 (٢) نهج البلاغة ٢ : ٥ .
 (٣) لم أر ذلك في يتيمة الدهر .
 (٤) نقله عنه الجوهري في صحاح اللغة ٢ : ٨٠٦ مادة (كسر) .

الصفحة ١٠٩

« إلى » ١ .
 « سفح » أي : أسفل .
 « جبل لا يسمع إلا حسّه » أي : صوته الخفيّ .
 « و لا يرى إلا نفسه » كسقراط الحكيم ، ففي (أخبار حكماء القبطي) : يعرف بسقراط الحبّ ، لأنّه سكن حباً مدّة عمره ، و لم ينزل بيتاً ، و كان يشتمل بكساء ، و لم يتخذ لنفسه غيره ، قتله ملك زمانه إذ زجره عن القبايح و الفحشاء . قال له الملك : أنت لي عبد . قال : بل أنت عبد لعبدي . قال : كيف ؟ قال : لأنّي رجل أملك شهوتي و ملكك شهوتك ٢ .
 « و لا يكاد يوقن بأنّه كلام من ينغمس » أي : يرتمس .
 « في الحرب مصلتنا » من أصلت سيفه : جردّه من غمده .
 « سيفه فيقطّ » أي : يقطع عرضاً ، من قطّ القلم ، و يقال : قطّ البيطار الحافر إذا نحتّه .
 « الرقاب و يجدلّ » أي : يلقي على الجدالة ، و هي الأرض .
 « الأبطال » جمع البطل بفتحيتين أي : الشجعان . و في (صفين) لنصر بن مزاحم : و برز عروة الدمشقي لما دعا أمير المؤمنين عليه السّلام معاوية إلى المبارزة ، فأبى معاوية ، فقال : إن كان معاوية كره مبارزتك يا أبا الحسن فهلمّ إليّ ، فتقدّم اليه عليّ عليه السّلام ، فقال له أصحابه : نر هذا الكلب فإنّه ليس لك بخطر ، فقال عليه السّلام : « و الله ما معاوية اليوم بأغيظ لي منه دعوني و إياه » . ثمّ حمل عليه فضربه فقطعه قطعتين ، سقطت إحداها يمناً و الأخرى يسرة ، فارتجّ

- (١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٦ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩٠ .
 (٢) كذا في اخبار العلماء بأخبار الحكماء : ١٣٥ و النقل بتصريف .
 و قال الشهرستاني في صفة سقراط في كتاب الملل و النحل ٢ : ٩١ : « و كان يخوف بالملك الذي حبسه أنّه يريد قتله ، قال : ان سقراط في حب ، و الملك لا يقدر إلا على كسر الحب ، فالحب يكسر و يرجع الماء الى البحر » .

الصفحة ١١٠

العسكران لهول الضربة . ثم قال عليه السلام : اذهب يا عروة فاخبر قومك : أما و الذي بعث محمدًا بالحق، لقد عاينت النار و أصبحت من النادمين ١ .

« و يعود به » أي : بسيفه .

« ينطف » أي : يسيل .

« دما و يقطر مهجا » جمع مهجة دم القلب و الروح ، و كونه عليه السلام كذلك من الواضحات ، و قد كانوا سموه : قتال العرب ، و كان عليه السلام يقول : « و الله لو تظاهرت العرب على قتالي لما وليت عنها ، و لو أمكنت الفرص من رقابها لسارعت اليها » ٢ . و كان عليه السلام يقول : « ما لقيت رجلا إلا أعانني على نفسه » ٣ . أي : انخلع قلبه ، و انقطعت مريرته من هيئته عليه السلام .

و في (تاريخ الطبري) عن أبي لبيد قال : قتل (عليّ) منّا (يوم الجمل) ألفين و خمسمائة و الشمس ها هنا . أي : في بعض يوم ٤ . و فيه عن ابن أبي يعقوب يقول : قتل عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم الجمل ألفين و خمسمائة ، ألف و ثلاثمائة و خمسون من الأزد ، و ثمانمائة من بني ضبة ، و ثلاثمائة و خمسون من سائر الناس ٥ .

و في (صفين نصر) عن جابر بن عمير الأنصاري : لا و الله الذي بعث محمدًا صلى الله عليه و آله بالحق نبيا ما سمعنا برئيس قوم منذ خلق الله السماوات و الأرض أصاب بيده في يوم واحد ما أصاب عليه السلام ، إنه قتل في ما ذكر العادون زيادة

(١) وقعة صفين : ٤٥٨ .

(٢) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٣ : ٧٣ ضمن الكتاب (٤٥) .

(٣) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٤ : ٧٥ الحكمة (٣١٨) .

(٤) تاريخ الطبري ٣ : ٥٤٧ سنة (٣٦) ، و نقله عن أبي لبيد أيضا المسعودي في مروج الذهب ٢ : ٣٧١ .

(٥) تاريخ الطبري ٣ : ٥٤٧ سنة (٣٦) ، و هناك روايات أخرى في عدد قتلى وقعة الجمل في تاريخ الطبري ٣ : ٥٤٣ ، ٥٤٧ سنة (٣٦) ، و مروج الذهب ٢ : ٣٧١ .

الصفحة ١١١

على خمسمائة من أعلام العرب ، يخرج بسيفه منحنيا ، فيقول : معذرة الى الله عز و جل و إليكم من هذا، لقد هممت أن أصقله ، و لكن حجزني عنه أنني سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول كثيرا : « لا سيف

الإذو الفقار ، و لا فتى إلا عليّ ، و أنا أقاتل به دونه . قال : فكنا نأخذُه فنقومه ، ثم يتناولُه من أيدينا ، فيقتحم به في عرض الصف ، فلا والله ما ليث بأشدّ نكايه في عدوّه منه عليه السّلام ١ .
« و هو مع تلك الحال » من التصدي للقتال و قتال الأبطال .

« زاهد الزّهاد » فقد طلق عليه السّلام الدنيا ثلاثا و قال لها : « غريّ غيري » ٢ . و كان يقول : « ما لعلّي و لنعيم يفنى ، و لذّة لا تبقى » ٣ . و كان عليه السّلام يقول : « دنياكم هذه أزهّد عندي من عطفة عنز » ٤ . و كان عليه السّلام ينام على التراب ، حتّى كناه النبيّ صلّى الله عليه و آله بأبي تراب ٥ ، و كان أحبّ كناه إليه عليه السّلام ٦ . و تضاد روحيات من له تلك الحالة في الحرب ، و من كان بهذه الدرجة من الزهد معلوم .

و قال ابن أبي الحديد عند قوله عليه السّلام : « سلخوا في بطون البرزخ سبيلا سلّطت الارض عليهم فيه ، فأكلت من لحومهم ، و شربت من دمائهم » : إني لا طيل

(١) وقعة صفين : ٤٧٧ .

(٢) هذه قطعة من حديث ضرار بن ضمرة الضبابي ، قالها عند معاوية . أخرج الحديث الشريف الرّضي في نهج البلاغة ٤ : ١٦ الحكمة (٧٧) .

(٣) أخرج الشريف الرّضي في نهج البلاغة ٢ : ٢١٨ ضمن الخطبة (٢٢٢) .

(٤) أخرج الشريف الرّضي في نهج البلاغة ١ : ٣٧ ضمن الخطبة (٣) المعروفة بالشّقشقيّة .

(٥) الرواية واقعة خاصّة لا أمر مستمرّ ، و بين متن الروايات اختلاف ، منها : ما أخرج النسائي في الخصائص : ١٢٩ ، و أحمد في مسنده ٤ : ٢٦٣ ، و أبو يعلى في مسنده عنه المطالب العالية ٤ : ٦٤ ح ٣٩٦٩ ، و أبو الفرج بروايتين في مقاتل الطالبين :

١٤ ، ١٦ ، و أبو نعيم في المعرفة ، و الطبراني في معجمه الكبير عنهما منتخب كنز العمال ٥ : ٣٦ ، و ابن المغازلي في المناقب : ٨ ح ٥ ، و ابن مردويه بروايتين عنه ألقاب الرسول : ١٧٧ ، ١٧٨ و بعض الروايات تشتمل على حصول اختلاف بين عليّ و فاطمة عليهما السّلام ، لم أخرجها لكثرة طرقها مع ضعف متنها .

(٦) أكثر روايات تكنية النبيّ صلّى الله عليه و آله عليّا بأبي تراب السابقة تشتمل على كونها أحبّ كناه إليه عليه السّلام .

الصفحة ١١٢

التعجب من رجل يخطب في الحرب بكلام يدلّ على أنّ طبعه مناسب لطباع الأسود و النمر و أمثالهما من السباع الضارية ، ثمّ يخطب في ذلك الموقف بعينه إذا أراد الموعظة بكلام ، يدلّ على أنّ طبعه مشاكل

لطباع الرهبان لا بسبي المسوح الذين لم يأكلوا لحما ، و لم يريقوا دما ، فتارة يكون في صورة بسطام بن قيس الشيباني ، و عتيبة بن الحرث اليربوعي ، و عامر بن الطفيل العامري ، و تارة يكون في صورة سقراط الحبر اليوناني ، و يوحنا المعمدان الإسرائيلي ، و المسيح بن مريم الإلهي و أقسم بمن تقسم الأمم كلها به ، لقد قرأت هذه الخطبة منذ خمسين سنة و إلى الآن أكثر من ألف مرة ، ما قرأتها قطّ إلاّ و أحدثت عندي روعة و خوفا و عظة ، و أثرت في قلبي وجيبا ، و في أعضائي رعدة ، و لا تأملتها إلاّ و ذكرت الموتى من أهلي و أقاربي ، و أرباب ودّي ، و خيلت في نفسي أنّي أنا ذلك الشخص الذي وصف عليه السّلام حاله ١ .

« و بدل الأبدال » أي : وليّ الأولياء ، و في (اللسان) : و الأبدال قوم من الصالحين بهم يقيم الله الأرض ، أربعون في الشام ، و ثلاثون في سائر البلاد ، لا يموت منهم أحد إلاّ قام مكانه آخر ، فلذلك سمّوا أبدالاً ، و واحد الأبدال العباد بدل و بدل . و قال ابن دريد : بديل ٢ .
و روى ابن شميل بسنده حديثاً عن عليّ كرم الله وجهه أنّه قال : الأبدال بالشّام ، و النّجباء بمصر ، و العصائب بالعراق ٣ . قال ابن شميل : الأبدال خيار

(١) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٥١ شرح الخطبة (٢١٩) .

(٢) جمهرة اللّغة لابن دريد ١ : ٢٤٧ .

(٣) رواه ابن الأثير في النهاية ٣ : ٢٤٣ مادة (عصب) ، و أخرجه بفرق لفظي في شأن أصحاب المهدي عليه السّلام الداني في سننه عنه عقد الدرر : ١٤٩ ، و ابن عساكر في تاريخه عنه ينابيع المودّة : ٤٣٣ ، و المفيد في أماليه : ٣٠ ح ٤ المجلس (٤) ، و الطوسي في الغيبة : ٢٨٤ ، و رواه ابن الأثير في النهاية ٣ : ٢٤٣ مادة (عصب) ، و الأحاديث الواردة في الأبدال كثيرة لا يسعها المقام .

الصفحة ١١٣

بدل من خيار ، و العصائب عصابة و عصائب يجتمعون فيكون بينهم حرب إلى أن قال : قال ابن السكيت : الأبدال جمع بدل و بدل ، و جمع بديل بدلي ١ .
قلت : و أظنّ أنّ الأصل في اصطلاح الأبدال الصوفيّة وضعوه لمشائخهم ، و في حديثه الأمويّة ، و إلاّ فأهل الشام كانوا أطوع الناس للمخلوق ، و أعصاهم للخالق ، و الأرض لا تخلو من حجّة منذ خلق الناس نبيّ أو إمام .

و كيف كان ، فعلى قول ابن دريد قول المصنّف : « و بدل الأبدال » غير صحيح ، لكن قول ابن دريد ليس بصحيح ، و الصواب قول ابن السكيت في واحد الأبدال .

« و هذه من فضائله العجيبة ، و خصائصه اللطيفة التي جمع بها بين الأضداد » التي تكون في غيره من المحالات .

و ما قاله المصنّف من جمعه عليه السّلام بين الأضداد أثبتته له القرآن أوّلا في قوله عز و جل : . . . أشداء على الكفار رحماء بينهم . . . ٢ ، ثم نفسه عليه السّلام ثانيا في كتابه عليه السّلام إلى عثمان بن حنيف بعد ذكره كون حصر قوته في قرصين لا ينافي كون قوّته قوّة تقابل جميع الناس فقال عليه السّلام : « و كأني بقائلكم يقول :

إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران و منازل الشجعان . . . » ٣ .
و قد بلغ عليه السّلام الغاية في العلم و العبادة مع أنّهما كذلك في غيره عليه السّلام متقابلان ، و لذا ورد :
العالم كذا و كذا و العابد كذا و كذا .
و بالجملة ، وجوده عليه السّلام بتلك الجامعيّة من آيات قدرته تعالى .

-
- (١) لسان العرب ١١ : ٤٩ مادة (بدل) ، و قال قريبا من قوله ابن دريد في جمهرة اللغة ١ : ٢٤٧ .
(٢) الفتح : ٢٩ .
(٣) نهج البلاغة ٣ : ٧٠ الكتاب (٤٥) .
-

الصفحة ١١٤

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم في واحد
١ « و ألف بين الأشتات » أي : المتفرقات في غيره ، قال ابن سينا : لم يكن شجاعا فيلسوفا قط إلا علي بن أبي طالب عليه السّلام ٢ .
و قال الثعالبي للمتنبّي : إنك قلت :
يرى الجبناء أنّ العجز حزم
و تلك خديعة الطبع اللئيم
و كل شجاعة في المرء تغني
و لا مثل الشجاعة في الحكيم
و أنّي يكون الشجاع حكيما ؟ فقال : هذا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ٣ .
و في (فوائح المبيدي) : قيل للشافعي : ما تقول في علي بن أبي طالب ؟
فقال : ما أقول في شخص اجتمعت له ثلاثة مع ثلاثة لم تجتمع لأحد من بني آدم : الجود مع الفقر ، و الشجاعة مع الرأي ، و العلم مع العمل ، و أنشد :

إنني عبد لفتى

أنزل فيه هل أتى ٤

الى متى أكتمه

أكتمه إلى متى

و جمع عليه السلام بين الشجاعة و الجود ، قال ابن أبي الحديد إننا : ما رأينا شجاعا جوادا قط ، كان عبد الله بن الزبير شجاعا ، و كان أبخل الناس ، و كان الزبير أبوه شجاعا ، و كان شحيجا . قال له عمر : لو وليتها لظلت تلاطم الناس في البطحاء على الصاع و المدّ . و أراد عليّ عليه السلام أن يحجر على عبد الله بن جعفر لتبذيره المال ، فاحتال عبد الله لنفسه فشارك الزبير في أمواله و تجاراته ، فقال علي عليه السلام : « أمّا إنّه قد لاذ بملاذ . . . » ٥ .

(١) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ٢٣١ ، و غيره .

(٢) نقله ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٤٩ .

(٣) قاله الثعالبي في يتيمة الدهر ١ : ٢٠٨ .

(٤) الانسان : ١ .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٧ ، و واصل كلامه بضرب أمثلة أخرى .

الصفحة ١١٥

قلت : ما ذكره في غاية السقوط ، و كيف لم يوجد شجاع جوادا ، و قد أكثر الشعراء في وصف ممدوحهم بجميعهم بين الشجاعة و السماحة ، قال شاعر :

كفاك كف ما تليق درهما

جوادا و أخرى يعط بالسيف الدما

و قال آخر :

علم الغيث الندى حتّى إذا

ما حكاه علم الناس الأسد

فله الغيث مقرّ بالندى

و له الليث مقرّ بالجلد

و قال آخر :

سماؤك تمطر الذهبا

و حربك يلتظي لهبا

و أي كتيبة لاقتك
لم تستحسن الهربا
و افتخروا بالجمع بينهما ، قال حسّان :
لنا الجفّات الغر يلمعن بالضّحى
و أسيافنا يقطرن من نجدة دما
و يحكى أن النّابغة لما سمعه قال له : فللت جفانك و سيوفك .
و كيف لم ير شجاعا جوادا و قد كان أبو دلف العجلي في غاية الجود و نهاية الشجاعة ؟ أمّا جوده فكان إذا
أنته الأموال بسطها على الإنطاع و يأمر الشعراء بنهبها ، فيأخذ كلّ بقدر قوّته و قد قيل فيه :
إنّما الدّنيا أبو دلف
بين باديه و محتضره
فإذا ولّى أبو دلف
ولّت الدنيا على أثره
و قد غضب المؤمن عليه و على مادحه بهما بأنّه لم يبق له بعد البيتين شيء .
و أمّا شجاعته فكان قد خرج في قافلة الى مكّة ، فلما تجاوزوا الكوفة حضرت الأعراب و كثرت تريد
اغتيالهم ، فلما سمعوا بأنّ أبا دلف فيهم

الصفحة ١١٦

انهزموا من غير حرب ، و كان يضرب المثل بشجاعته .
ذكر عند المبرّد الحظوظ ، فقال : قال شاعر ، و لم يكن أراد مدح أبي دلف :
أم هل حسبت سواد الليل شجّعني
أو أنّ قلبي في جنبي أبي دلف
فبلغ شعره أبا دلف فوجّه إليه أربعة آلاف درهم بلا انتظاره .
و كان حاتم الطائي في الجاهلية و معن بن زائدة الشيباني في الإسلام جامعين بين السخاوة و الشجاعة ، إلّا
أنّ أشهريّة سخاوتها أخلت شجاعتها ، قال ابن قتيبة في (شعرائه) في حاتم : كان حاتم إذا قاتل غلب
و إذا غنم أنهب ١ .
و في خطبة جناس قلب بعض الكفعمي في (مصباحه) : أين من فاق قسّا في فصاحته و حصافته ، و
شأى حاتما في سماحته و حماسته ٢ .
وجود معن لا يحتاج إلى بيان ، حتّى قال الشاعر في رثائه مخاطبا لقبره :
و يا قبر معن كيف و اريت جوده

و قد كان منه البرّ و البحر مترعا
و يكفي في شجاعته استنقاذه منصورا من جند أبي مسلم لما قتله ٣ ، و كانوا يعتقدون في أبي مسلم
الألوهية ، و كانوا أحاطوا بالمنصور و كان أشرف على الهلاك .
و يزيد بن المهلب كان يضرب المثل بشجاعته و سخاوته ، قال كعب الأشقري فيه :
يداك إحداهما تسقي العدو بها
سمّا و أخرى نراها لم يزل ديما
و حكايات جوده في السير مسطورة ، و أرتج عليه على المنبر ، فضربه

-
- (١) قاله ابن قتيبة في الشعر و الشعراء : ٧٠ و النقل بتصريف يسير .
(٢) المصباح للكفعمي : ٧٥٩ الفصل (٤٩) و الخطبة إنشاء نفس المؤلف .
(٣) روى القصة المسعودي في مروج الذهب ٣ : ٢٨٦ .

الصفحة ١١٧

برجله و قال : « فتى حروب لا فتى منابر » .
و يزيد بن يزيد الشيباني من أمراء هارون كان أيضا جامعا بينهما ، قال سلم الخاسر فيه :
إنّ لله في البريّة سيفين
يزيدا و خالد بن الوليد
ذاك سيف النبي في سالف الدهر
و هذا سيف الإمام الرّشيد
ما مقامي على النّديّ و قد فاضت
بحور النّديّ بكفّي يزيد
و لما قدم عليه شاعر باليمن و قال فيه :
يوماه يوم للمواهب و النّديّ
خضل و يوم دم و خطف منية
و لقد أتيتك و اتقا بك عالما
أن لست تسمع مدحة بنسيّة
قال : صدقت لست أسمع مدحة بنسيّة ، أعطوه ألف دينار .
و في (ذيل الطبري) : كان عبيد الله بن العباس سيّدا شجاعا سخيا ، كان ينحر كلّ يوم جزورا . . . ١ ،
و كان عامّة بني هاشم جامعين بين السّخاوة و الشجاعة .

ثم إن لم يكن الشجاع سخياً ، فمن أين يكون بخيلاً حتماً ، كما يفهمه ابن أبي الحديد ، فأبي استلزام بينهما ؟
فخالد بن الوليد و مالك الأستر و هاشم المرقال و جمع آخر لا يحصى كانوا من الشجعان و لم يصفهم أحد
بالبلخ .

و أمّا من نقل بخله مع شجاعته كالزبير و ابن الزبير و كذا طلحة و عبد الملك ، و قد ذكرهم ابن أبي
الحديد في ذيل كلامه ، فكان جمع الشحّ و الشجاعة فيهم على حسب الاتفاق ، مع أنّهم لم يكونوا ذوي
شجاعة فائقة ، و لا سيّما الأخيران ، بل الأخير لم يعلم مبارزته لأحد ، و أمّا كان قسيّاً ذبح ابن عمّه

(١) المنتخب من ذيل المذيل للطبري : ٣٨ .

الصفحة ١١٨

الأشدق بيده و كان مكتوفاً ١ .
و كيف يكون تناف بين الشجاعة و السخاوة و لا يكون شخص كاملاً إلا بالجمع بينهما . قال البحتري في
أبي عيسى بن صاعد :
نصيبك في الأكرومتين فإنّما
يسود الفتى من حيث يسخو و يشجع
كما أنّ ما قاله من أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام أراد الحجر على عبد الله بن جعفر فاحتال بشركة الزبير ،
لم أقف عليه ، و إنّما روى الخطيب في أبي يوسف أنّ عبد الله بن جعفر أتى الزبير ، فقال : إنّي اشتريت
كذا و كذا ، و إنّ عمّي يريد أن يأتي عثمان و ذكر حديث الحجر فقال عثمان : كيف أحجر على رجل في
بيع شريكه فيه الزبير ؟

قال أحمد بن حنبل : لم أسمع هذا إلا من حديث أبي يوسف ٢ .
و بالجملة ما قاله من تضادّ الشجاعة و السخاوة بلا حقيقة ، نعم أدخله بعض الشعراء في التضادّ بتخيّلات
شعرية بأنّ بسخاوة ممدوحه يحيى جمع من مواليه ، و بشجاعته يموت جمع من أعياده ، فقال :
يحيا الأنام به في الجذب إن قحطوا
جودا و يشقى به يوم الوغى الهام
حالان ضدّان مجموعان فيه فما
ينفكّ بينهما بؤس و إنعام
كالمزن يجتمع الضدّان فيه معا
ماء و نار و إرهام و إضرار
و للشعراء نظير ذلك كثير ، فيخترعون تضادّاً بالتخيّل الشعري في أشياء ، قال بعضهم :

(١) رواه الطبري في التاريخ ٤ : ٥٩٩ سنة (٦٩) ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ٢ : ٢٦ ، و المسعودي في مروج الذهب ٣ : ١٠٤ ، و جاءت روايات تخالف هذه .
(٢) تاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٢ و النقل بتصريف .

الصفحة ١١٩

و من عجب أن الصوارم في الوغى
تحيض بأيدي القوم و هي ذكور
و أعجب من ذا أنها في أكفهم
توجج ناراً و الأكف بحور
١ « و كثيرا ما أذكر » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (أذاكر) كما في (ابن أبي الحديد و ابن
ميثم و الخطبة) ٢ .
« الإخوان بها » أي : بهذه العجبية .
« و أستخرج عجبهم » المركوز في جبلتهم من مثلها .
« منها . و هي موضع للعبرة بها ، و الفكرة فيها » بأنه عليه السلام كان غير البشر المتعارفي ، و أن
اجتماع ذلك فيه عليه السلام من آيات الله تعالى شاهدا لإمامته .
« و ربما جاء في أثناء هذا الاختيار » في الأبواب الثلاثة .
« اللفظ المردد » أي : المرجع .
« و المعنى المكرر » و لو بلفظ آخر .
« و العذر في ذلك » أي : التردد و التكرار .
« أن روايات كلامه عليه السلام تختلف اختلافا شديدا » حسب اختلاف نقل كثير من المطالب .
« فربما اتفق » أي : وقع .
« الكلام المختار في رواية فنقل على وجهه » في تلك الرواية .
« ثم وجد بعد ذلك في رواية أخرى موضوعا غير وضعه الأول » أي : كيفيته .
« إما بزيادة مختارة » أي : ينبغي أن تختار .
« أو بلفظ » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (أو لفظ) كما في (ابن أبي

(١) للمزيد راجع الأغاني لأبي الفرج ، و العقد الفريد لابن عبد ربّه ، و غيرهما .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٦ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩١ .

الصفحة ١٢٠

- الحديد ، و ابن ميثم ، و الخطية) عطفاً على (زيادة) ١ .
 « أحسن عبارة » من الأول .
 « فتقتضي الحال أن يعاد » لكونه من موضوع الكتاب .
 « استظهاراً » مفعول له لقوله : « يعاد » ، أي : تكميلاً .
 « للاختيار » من كلامه عليه السّلام .
 « و غيره » بالفتح ، من غار الرجل على أهله .
 و أمّا الغيرة بالكسر فقال الجوهري : إنّها الميرة ، من غار أهله ، أي :
 مارهم و نفعهم ٢ .
 و قال الزمخشري : إنّها الدّية ، و جمعها الغير ، قال الشاعر :
 لنجدعنّ بأيدينا أنوفكم
 بني أميّة إن لم تقبلوا الغيرا
 ٣ « على عقائل الكلام » أي : كرائمه ، من أن نفوته .
 و ممّا أعاده لزيادة مختاره أنّه قال في الخطبة (١٤٧) : من كلام له قبل موته ٤ .
 و قال في الكتاب (٢٣) : و من كلام له عليه السّلام قاله قبل موته على سبيل الوصية ٥ .
 و قال في آخر الثاني : قد مضى بعض هذا الكلام في ما تقدّم من الخطب ،
 إلّا أنّ فيه ها هنا زيادة أوجبت تكريره .

- (١) كذا في شرح ابن ميثم ١ : ٩١ ، و لكن في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٧ . « بلفظ » أيضا .
 (٢) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٧٧٥ مادة (غير) .
 (٣) أساس البلاغة : ٣٣١ مادة (غير) .
 (٤) نهج البلاغة ٢ : ٣٣ .
 (٥) نهج البلاغة ٣ : ٢١ .

الصفحة ١٢١

- و كرّر قوله عليه السّلام في الحكمة (١٤٨) : « المرء مخبوء تحت لسانه » ١ في (٣٩٢) مع زيادة ٢ ،
 لكنّه غفل عن تكراره ، حيث لم يشر إليه كما في الأول .

ثم من الغريب أنه كرّر قوله عليه السّلام في الحكمة (١١٦) : « كم من مستدرج بالإحسان إليه ، و مغرور بالسّتر عليه ، و مفتون بحسن القول فيه ، و ما ابتلى الله أحدا بمثل الإملاء له » ٣ في (٢٦٠) قبل فصل الغريب ، و قال : و قد مضى هذا الكلام في ما تقدّم ، إلا أنّ فيه ها هنا زيادة ٤ . مع أنه ليس في الثاني زيادة أصلا ، إلا أنّ التكرار على نقل (ابن أبي الحديد و الخطيّة) ٥ (كالمصريّة) ، و أمّا (ابن ميثم) فليس الثاني فيه ٦ ، كما أنه كرّر الحكمة (٢٢) ٧ في (٣٨٩) مع زيادة على نقل (ابن أبي الحديد) دون (ابن ميثم) ٨ ، لكن نسختي من (ابن ميثم) بعد الحكمة (٨١) كثيرة التّصحيح ، فليلاحظ النّسخ الأخرى .

و ممّا أعاده بلفظ آخر قوله في الخطبة (٣٣) : « أما و الله إن كنت لفي ساققتها حتّى ولّت بحذا فيرها ، ما ضعفت و ما جبنت ، و إن مسيري هذا لمتلها ، فلأنقبنّ الباطل حتّى يخرج الحقّ من جنبه » ٩ في جملة الخطبة (١٠٢) ١٠ ، لكنّه غفل عن الأوّل لعدم إشارته إلى التكرار ، كما هو دأبه في الاعتذار .

-
- (١) نهج البلاغة ٤ : ٣٨ .
 (٢) نهج البلاغة ٤ : ٩٣ ، و ذيله : « تكلموا تعرفوا » .
 (٣) نهج البلاغة ٤ : ٢٧ .
 (٤) نهج البلاغة ٤ : ٥٧ .
 (٥) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٩١ ، ٣٥٥ .
 (٦) لا يوجد في شرح ابن ميثم ٥ : ٣٠٧ ، لكن ورد فيه في : ٣٠٣ كما قال الشارح .
 (٧) نهج البلاغة ٤ : ٦ .
 (٨) كرّر في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤١٩ ، لكن لا يوجد في شرح ابن ميثم ٥ : ٤١٩ كما قال الشارح .
 (٩) نهج البلاغة ١ : ٨١ .
 (١٠) نهج البلاغة ١ : ١٩٩ .

الصفحة ١٢٢

و أعاد قوله عليه السّلام في الخطبة (١٧٠) : « اللهمّ إني أستعينك على قريش و من أعانهم ، فإنهم قطعوا رحمي ، و صغروا عظيم منزلتي ، و أجمعوا على منازعتي أمرا هو لي ، ثمّ قالوا : ألا إنّ في الحقّ أن تأخذه و في الحقّ أن تتركه » ١ في الخطبة (٢١٥) بلفظ آخر ٢ ، و الظاهر غفلته هنا أيضا لما يأتي في الآتي .

و أعاد أيضا بلفظ آخر قوله عليه السلام في الخطبة (٢٦) : « فنظرت فإذا ليس لي معين إلا أهل بيتي ، فضننت بهم عن الموت ، و أغضيت على القذى ، و شربت على الشجى ، و صبرت على أخذ الكظم ، و على أمرٍ من طعم العلقم » ٣ في آخر الخطبة (٢١٥) بلفظ « فنظرت فإذا ليس لي رافد ، و لا ذاب و لا مساعد ، إلا أهل بيتي ، فضننت بهم عن المنية ، فأغضيت على القذى ، و جرعت ريقى على الشجى ، و صبرت من كظم الغيظ على أمرٍ من العلقم ، و ألم للقلب من حزّ الشفار » . ثم قال : و قد مضى هذا الكلام في أثناء خطبة متقدّمة ، إلا أنّي كرّرتُه هنا لاختلاف الروايتين ٤ .

ثم إنَّ المصنّف و إن كرّر في الخطبة (٢١٥) معنى ما ورد في الخطبة (١٧٠) ٥ أيضا كما مرّ قبل هذا ، إلا أنّ قوله : « و قد مضى . . . » إشارة الى ما في الخطبة (٢٦) ، و لا يمكن أن يكون إشارة إليهما ، لإبائه قوله : « هذا الكلام » ، و قوله : « خطبة متقدّمة » عن ذلك .

و أعاد أيضا قوله في الخطبة (٣٣) : « إنّ الله بعث محمّدا صلّى الله عليه

(١) نهج البلاغة ٢ : ٨٥ .

(٢) نهج البلاغة ٢ : ٢٠٢ .

(٣) نهج البلاغة ١ : ٦٧ .

(٤) نهج البلاغة ٢ : ٢٠٢ .

(٥) نهج البلاغة ٢ : ٨٥ و مراد الشارح من المعنى : « اللهم إني استعينك على قریش . . . » .

الصفحة ١٢٣

و آله و سلّم و ليس أحد من العرب يقرأ كتابا . . . » ١ في الخطبة (١٠٢) ، و قال : و قد تقدّم مختارها بخلاف هذه الرواية ٢ .

و أعاد أيضا قوله في الحكمة (١١٧) : « هلك فيّ رجلاّن : محبّ غال ،

و مبغض قال » ٣ في (٤٦٩) بلفظ « يهلك فيّ رجلاّن : محبّ مفرط ، و باهت مفتر » . و قال : الثاني مثل الأوّل ٤ .

و أعاد أيضا قوله في الخطبة (٧٠) في الصلاة على النبي صلّى الله عليه و آله : « حتّى أورى قبس القابس . . . » ٥ في الخطبة (١٠٤) ، و قال : « و قد مضى هذا الكلام في ما تقدّم ، إلا أننا كرّرناه هنا لما في الروايتين من الاختلاف » ٦ .

و أعاد أيضا قوله : « يا ابن آدم : لا تحمل همّ يومك . . . » من الحكمة (٢٦٧) ٧ في (٣٧٩) و قال : « و قد مضى هذا الكلام . . . » ٨ .

و أعاد أيضا قوله في الحكمة (١٥) : « تذلّ الأمور للمقادير حتى يكون الحنف في التدبير » ٩ في (٤٥٩) بلفظ « يغلب المقدار على التقدير حتى لا تكون الآفة في التدبير » ، لكنه غفل عن تكراره فلم يشر ولم يعتذر ١٠ .

-
- (١) نهج البلاغة ١ : ٨٠ .
 (٢) نهج البلاغة ١ : ١٩٩ ، و قول الرضي في رواية شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٩٩ أبسط من هذا .
 (٣) نهج البلاغة ٤ : ٢٨ .
 (٤) نهج البلاغة ٤ : ١٠٨ ، و قول الرضي : « و هذا مثل قوله عليه السلام هلك فيّ رجلان : محب غال و مبغض قال » .
 (٥) نهج البلاغة ١ : ١٢١ .
 (٦) نهج البلاغة ١ : ٢٠٤ ، و لفظ الخطبة (١٠٤) : « حتى أرى قبسا لقايس . . . » .
 (٧) نهج البلاغة ٤ : ٤٦ .
 (٨) نهج البلاغة ٤ : ٩١ ، و لفظ الحكمة (٣٧٩) : « فلا تحمل همّ سنتك على همّ يومك » .
 (٩) نهج البلاغة ٤ : ٥ .
 (١٠) الظاهر أنه من سهو الشارح ، لأنّ الشريف الرضي قال بعد تمام الحكمة في نهج البلاغة ٤ : ١٠٥ : « و قد مضى هذا المعنى في ما تقدّم برواية تخالف هذه الألفاظ » . و كذا في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٥٠٥ ، لكن سقط كلام الشريف في شرح ابن ميثم ٥ : ٤٦٠ .

الصفحة ١٢٤

و أعاد قوله في الحكمة (٣٤٨) : « أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه » ١ بلفظ « أشدّ الذنوب ما استخف به صاحبه » في (٤٧٧) ٢ ، و غفل عن تكراره فلم يعتذر .
 « و ربّما بعد العهد أيضا بما اختير أوّلا فأعيد بعضه » لا لزيادة أو للفظ أحسن عبارة ، بل :
 « سهوا أو نسيانا » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و نسيانا) ، كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٣ ، و العطف فيه تفسيري .
 « لا قصدا و اعتمادا » أي : تعمّدا ، فيكون العطف فيه أيضا تفسيريا .
 فأعاد فقرة « ما شككت في الحق مذ أريته » جزء الخطبة (٤) ٤ في الحكمة (١٨٤) ٥ نسيانا .

و أعاد فقرة « من أبدى صفحته للحق هلك » ، و هي جزء الخطبة (١٦) في الحكمة (١٨٨) ٧ سهوا ، و أعاد أيضا قوله : « كلمة حق يراد بها باطل » جزء الخطبة (٤٠) ٨ في الحكمة (١٩٨) ٩ نسيانا .

و أعاد أيضا قوله عليه السلام : « من ظن بك خيرا فصدق ظنه » جزء وصيته عليه السلام

(١) نهج البلاغة ٤ : ٨١ .

(٢) نهج البلاغة ٤ : ١١٠ .

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٧ ، لكن في شرح ابن ميثم ١ : ٩١ « أو » أيضا .

(٤) نهج البلاغة ١ : ٣٩ .

(٥) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ .

(٦) نهج البلاغة ١ : ٥٠ .

(٧) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ .

(٨) نهج البلاغة ١ : ٩١ .

(٩) نهج البلاغة ٤ : ٤٥ .

الصفحة ١٢٥

إلى ابنه ١ في الكتاب (٣١) سهوا ، في الحكمة (٢٤٨) ٢ .
و أعاد أيضا قوله : « و مفتون بحسن القول فيه » الذي هو جزء العنوان « كم من مستدرج بالإحسان إليه » المذكور في الحكمة (١١٦) بالاتفاق ٣ ،

و في الحكمة (٢٦٠) أيضا بنقل (ابن أبي الحديد و الخطبة) ٤ في الحكمة (٤٦٢) ٥ سهوا .

و أعاد قوله عليه السلام : « لا خير في الصمت عن الحكم ، كما أنه لا خير في القول بالجهل » المذكور في الحكمة (١٨٢) ٦ في الحكمة (٤٧١) بنقل (المصرية) و (ابن ميثم) ٧ ، و قبل الحكمة (١٩٢) بنقل (ابن أبي الحديد ، و الخطبة) ٨ أيضا غفلة .

و منه يظهر أنه قد يعيد كل العنوان سهوا جاعلا له كلاً ثانياً .

و أعاد الخطبة (٢١) « فإن الغاية أمامكم ، و إن وراءكم الساعة تحذوكم ،

تحففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بأولكم آخركم » ٩ جزء الخطبة (١٦٥) « إن الله تعالى أنزل كتابا هاديا . .

. « بلفظ » فإن الناس أمامكم ، و إن الساعة تحذوكم من خلفكم ، تحففوا تلحقوا ، فإنما ينتظر بأولكم آخركم

« ١٠ .

- (١) نهج البلاغة ٣ : ٥٤ .
- (٢) نهج البلاغة ٤ : ٥٤ .
- (٣) كذا في نهج البلاغة ٤ : ٢٧ ، و شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٩١ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٣٠٣ .
- (٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٥٥ ، و نهج البلاغة ٤ : ٥٧ .
- (٥) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ ، و لفظه « ربّ مفتون » ، و قال فيه بعد تمام الحكمة : « زيادة عن نسخة كتبت في عهد المصنّف » .
- (٦) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ و لفظ « ربّ مفتون » ، و قال فيه بعد تمام الحكمة : « زيادة من نسخة كتبت في عهد المصنّف » .
- (٧) شرح ابن ميثم ٥ : ٤٦٥ .
- (٨) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٣٠ .
- (٩) نهج البلاغة ١ : ٥٨ .
- (١٠) نهج البلاغة ٢ : ٨٠ .

الصفحة ١٢٦

و منه يظهر أنه قد يعيد كلّ عنوان جزء عنوان آخر غفلة مع اختلاف ما .

و أعاد قوله عليه السّلام : « كالفالج الياسر الذي ينتظر أولّ فوزه من قداحه » جزء الخطبة (٢٣) ١ في رقم (٨) من فصل الغريب بلفظ « كالياسر الفالج ينتظر أولّ فوزه من قداحه » ٢ غفلة .

و أعاد قوله عليه السّلام : « إنّ هذه القلوب تملّ كما تملّ الأبدان ، فابتغوا لها طرائف الحكم » من الحكمة (٩١) ٣ في (١٩٧) ٤ سهوا .

و أعاد قوله عليه السّلام في الخطبة (١٧٠) : « فقدموا على عاملي بها و خزّان بيت مال المسلمين و غيرهم من أهلها ، فقتلوا طائفة صبرا و طائفة غدرا » في الخطبة (٢١٦) ٥ بلفظ « فقدموا على عمّالي و خزّان بيت مال المسلمين الذي في يدي و على أهل مصر كلّهم في طاعتي و على بيعتي ، فشتتوا كلمتهم و أفسدوا عليّ جماعتهم ، و وثبوا على شيعتي فقتلوا طائفة منهم غدرا » ٦ غفلة .

و أعاد قوله عليه السّلام في الخطبة (٢٢) : « و الله ما أنكروا عليّ منكرا ، و لا جعلوا بيني و بينهم نصفا ، و إنّهم ليطلبون حقّا هم تركوه ، و دما هم سفكوه ، فلئن كنت شريكهم فيه فإنّ لهم لنصيبهم منه ، و لئن كانوا ولّوه دوني ، فما التبعة إلّا عندهم ، و إنّ أعظم حجّتهم لعلّى أنفسهم » في الخطبة (١٣٥) ٧ بلفظ « و الله ما أنكروا عليّ منكرا ، و لا جعلوا بيني و بينهم نصفا ، و أنّهم ليطلبون حقّا هم

- (٢) نهج البلاغة ٤ : ٦١ .
 (٣) نهج البلاغة ٤ : ٢٠ .
 (٤) نهج البلاغة ٤ : ٤٥ و لفظه « طرائف الحكمة » .
 (٥) نهج البلاغة ٢ : ٨٥ .
 (٦) نهج البلاغة ٢ : ٢٠٣ .
 (٧) نهج البلاغة ١ : ٥٩ .

الصفحة ١٢٧

تركوه ، و دما هم سفكوه ، فإن كنت شريكهم فيه ، فإن لهم نصيبهم منه ، و إن كانوا ولّوه دوني ، فما الطلبة إلا قبلهم ، و إن أول عدلهم للحكم على أنفسهم « ١ غفلة .
 كما أنه أعاد ما في الخطبة (١٠) « ألا و إن الشيطان قد جمع حزبه ،
 و استجلب خيله و رجله ، و أنّ معي لبصيرتي ، ما لبست على نفسي ، و لا لبس عليّ ، و ايم الله لأفرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرن عنه ، و لا يعودن إليه « ٢ ، جزءاً منه في الخطبة (٢٢) « ألا و إن الشيطان قد زمر حزبه ، و استجلب جلبه « ٣ ، و جزءاً منه في الخطبة (١٣٥) « إنّ معي لبصيرتي ما لبست ، و لا لبس عليّ . . . و ايم الله لا فرطنّ لهم حوضاً أنا ماتحه لا يصدرن عند بريّ ، و لا يعبّون بعده في حسي « ٤ غفلة ، مع اختلاف ما .
 و أعاد الحكمة (٦٨) « العفاف زينة الفقر ، و الشكر زينة الغنى « ٥ في الحكمة (٣٤٠) ٦ سهوا .
 و أعاد ذيل الخطبة (١٢٥) « إنّما اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين ،
 أخذنا عليهما أن لا يتعدّيا القرآن ، فتأها عنه ، و تركا الحقّ و هما يبصرانه ، و كان الجور هواهما فمضيا عليه ، و قد سبق استثناءنا عليهما في الحكومة بالعدل ،
 و الصمد للحق سوء رأيهما و جور حكمهما « ٧ في الخطبة (١٧٥) بلفظ

- (١) نهج البلاغة ٢ : ١٩ .
 (٢) نهج البلاغة ١ : ٤٣ .
 (٣) نهج البلاغة ١ : ٥٩ .
 (٤) نهج البلاغة ٢ : ٢٠ .
 (٥) نقله كذلك ابن أبي الحديد في شرحه ٤ : ٢٧٣ ، ٣٩٦ مكرّراً ، لكن في نهج البلاغة ٤ : ٨٠ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٤٠٩ كامل و بلا ذيل .
 (٦) في نهج البلاغة ٤ : ١٥ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٢٧٣ .

(٧) نهج البلاغة ٢ : ٩ .

الصفحة ١٢٨

« فاجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين ، فأخذنا عليهما أن يجعجا عند القرآن ، و لا يجاوزاه ، و تكون أسنتهما معه ، و قلوبهما تبعه ، فتاها عنه ، و تركا الحق و هما يبصرانه ، و كان الجور هواهما ، و الاعوجاج دأبهما ، و قد سبق استثنائنا عليهما في الحكم بالعدل ، و العمل بالحق سوء رأيهما ، و جور حكمهما » ١ غفلة .

و أعاد قوله عليه السّلام : « الناس أعداء ما جهلوا » في الحكمة (١٧٢) ٢ غفلة في الحكمة (٤٣٨) ٣ .
و أعاد قوله عليه السّلام : « قليل تدوم عليه أرجى من كثير مملول » ٤ في الحكمة (٢٧٨) نسيانا في الحكمة (٤٤٤) بلفظ « قليل تدوم عليه خير من كثير مملول منه » ٥ .

و أعاد قوله عليه السّلام في الخطبة (١٤٣) : « أيها الناس إنّما أنتم في هذه الدّنيا غرض تنتضل فيه المنايا مع كلّ جرعة شرق ، و في كلّ أكلة غصص ، لا تتالون منها نعمة إلاّ بفراق أخرى ، و لا يعمرّ معمر منكم يوما من عمره إلاّ بهدم آخر من أجله » ٦ غفلة في الحكمة (١٩١) بلفظ « إنّما المرء في الدّنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، و نهب تبادره المصائب ، و مع كلّ جرعة شرق ، و في كلّ أكلة غصص ، و لا ينال العبد نعمة إلاّ بفراق أخرى ، و لا يستقبل يوما من عمره إلاّ

(١) نهج البلاغة ٢ : ٩٦ .

(٢) نهج البلاغة ٤ : ٤٣ .

(٣) نهج البلاغة ٤ : ١٠٢ .

(٤) نهج البلاغة ٤ : ٦٨ .

(٥) نهج البلاغة ٤ : ١٠٣ .

(٦) نهج البلاغة ٢ : ٢٨ .

الصفحة ١٢٩

بفراق آخر من أجله » ١ .

و أعاد قوله عليه السّلام في الحكمة (٢٤١) : « يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم » ٢ غفلة في الحكمة (٣٤١) بلفظ « يوم العدل على الظالم أشدّ من يوم الجور على المظلوم » ٣ .
و أعاد قوله عليه السّلام في الخطبة الأخيرة برقم (٢٣٩) : « ما أنقص النّوم لعزائم اليوم » ٤ غفلة في الحكمة (٤٤٠) مستقلاً .

و أعاد قوله عليه السّلام : « و كفى أدبا لنفسك تجنّبك ما كرهته لغيرك » ٦ و هو جزء الحكمة (٣٦٥)
 غفلة في الحكمة (٤١٢) ٧ مستقلاً .
 و أعاد قوله عليه السّلام : « القناعة مال لا ينفد » الحكمة (٥٧) ٨ غفلة في الحكمة (٤٧٥) ٩ .
 و أعاد قوله عليه السّلام : « أشرف الغنى ترك المنى » الحكمة (٣٤) ١٠ غفلة جزء « الجود حارس
 الأعراس » الحكمة (٢١١) ١١ .
 و أعاد قوله عليه السّلام في الخطبة (١٥٤) : « و إنّهما لا يقربان من أجل ، و لا

-
- (١) نهج البلاغة ٤ : ٤٤ .
 (٢) نهج البلاغة ٤ : ٥٣ .
 (٣) نهج البلاغة ٤ : ٨٠ .
 (٤) نهج البلاغة ٢ : ٢٣٤ .
 (٥) نهج البلاغة ٤ : ١٠٢ .
 (٦) نهج البلاغة ٤ : ٨٥ .
 (٧) نهج البلاغة ٤ : ٩٦ و لفظه « كفاك أدبا لنفسك اجتناب ما تكرهه من غيرك » .
 (٨) نهج البلاغة ٤ : ١٤ .
 (٩) نهج البلاغة ٤ : ١٠٩ ، قال فيه بعد تمام الحكمة : « و قد روى بعضهم هذا الكلام لرسول الله
 صلّى الله عليه و آله » .
 (١٠) نهج البلاغة ٤ : ١٠ .
 (١١) نهج البلاغة ٤ : ٤٨ .

الصفحة ١٣٠

ينقصان من رزق » ١ في (٣٧٤) بلفظ « و إنّ الأمر بالمعروف ، و النهي عن المنكر لا يقربان من
 أجل ، و لا ينقصان من رزق » ٢ .
 و ممّا نقلنا من تكراراته يظهر أنّ الرضي ، و ان قال : إنّ قد يعيد نسيانا بعض ما مرّ ، و ظاهره يعيده
 بلفظه ، إلّا أنّه قد يفعل كما قال ، و قد يعيد كلّ ما مرّ ،
 كما قد يعيد بعض ما مرّ أو كلّ بلفظ آخر . و مرّ في شرح قوله في ما أعاده قصدا لزيادة أو للفظ آخر ٣
 جملة ممّا أعادها نسيانا أيضا .
 « و لا أدعي مع ذلك أنّي أحيط باقطار » أي : نواحي « جميع كلامه عليه السّلام ،
 حتّى لا يشدّ عني شاذ » أي : يتفرّق عني متفرّق .

- « و لا يندّ » أي : يعبد عني .
 « نادّ » أي : بعيد .
 « بل لا أبعد » أي : لا أعدّ بعيدا .
 « أن يكون القاصر عني » أي : الذي لم يصل إليّ .
 « فوق الواقع » أي : الواصل من كلامه .
 « إليّ ، و الحاصل » عطف على القاصر اسم (يكون) .
 « في ربقتي » بالكسر ، قال الجوهري : الرّبِق : حبل فيه عدّة عرى تشدّ به البهم ٤ .
 « دون » أي : أقلّ ، و هو عطف على (فوق) خبر (يكون) ، أي : من عطف الجملة .
 « الخارج من يديّ » الذي أفلتت عنيّ ، قال الراوندي ، كما نقل ابن ميثم عنه :

- (١) نهج البلاغة ٢ : ٤٩ .
 (٢) نهج البلاغة ٤ : ٨٩ .
 (٣) قول الرضي : « فاعيد بعضه سهوا أو نسيانا لا قصدا و اعتمادا » .
 (٤) صحاح اللّغة للجوهري ٤ : ١٤٨٠ .

الصفحة ١٣١

- سمعت بعض العلماء بالحجاز يقول : إنّي وجدت بمصر مجموعا من كلام عليّ عليه السّلام في نيف و عشرين مجلّدا ١ .
 « و ما عليّ إلاّ بذلّ الجهد » في (الصحاح) : الجهد و الجهد بالفتح و الضم الطاقة ، و قرىء (. . .) و الذين لا يجدون إلاّ جهدهم (. . .) و (جهدهم) .
 قال الفراء : الجهد بالضم : الطاقة ، و الجهد بالفتح من قولك : اجهد جهدك في هذا الأمر ، أي : ابلغ غايتك . و لا يقال : اجهد جهدك ٢ .
 « و بلاغ الوسع » في نقل كلامه عليه السّلام .
 « و على الله سبحانه » أي : المنزّه عن النقائص و عن أن يفوته شيء .
 « و تعالى » هكذا في (المصرية) ، و الكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٣ .
 « نهج السبيل » مأخوذ من قوله تعالى : و على الله قصد السبيل . . . ٤ .
 « و رشاد الدليل » و قال تعالى : . . . أهدكم سبيل الرّشاد ٥ .
 « إن شاء الله » ذلك .

« و رأيت من بعد » أي : بعد الحمد و الصلاة ، أو بعد ما مرّ في شرح كلامه عليه السّلام و هو الأظهر .
 « تسمية هذا الكتاب بنهج البلاغة » و النهج : هو الطريق الواضح .
 و أمّا البلاغة فورد عنهم عليهم السّلام لها تعريفات ، و عن الأدباء لها توصيفات ،
 و عن العباسية فيها بيانات :

(١) شرح ابن ميثم ١ : ١٠١ .

(٢) صحاح اللّغة للجوهري ١ : ٤٥٧ مادة (جهد) .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩١ .

(٤) النحل : ٩ .

(٥) غافر : ٣٨ .

الصفحة ١٣٢

أمّا الأوّل : ففي (صناعة أبي هلال العسكري) : قال أمير المؤمنين عليه السّلام :
 البلاغة إيضاح الملتبسات ، و كشف عوار الجهالات ، بأسهل ما يكون من العبارات . و قال الحسن بن
 علي عليهما السّلام : البلاغة تقريب بعيد الحكمة بأسهل العبارة . و قال محمّد بن عليّ عليهما السّلام :
 البلاغة تفسير عسير الحكمة بأقرب الألفاظ ، و قال : البلاغة قول مفقه في لطف . فالمفقه : المفهوم ، و
 اللّطيف من الكلام :
 ما تعطف به القلوب النافرة ، و تؤنس به القلوب المستوحشة ، و تلين به العريكة الأبية حتّى تبلغ به الحاجة
 ، و تقام به الحجّة ١ .
 و في (تحف العقول) عن الصادق عليه السّلام : يابن النعمان ليست البلاغة بحدّة اللسان و لا بكثرة
 الهذيان ، و لكنّها إصابة المعنى و قصد الحجّة ٢ .
 و أمّا الثاني : ففي (دلائل إعجاز عبد القاهر) قالوا : لا يكون الكلام يستحقّ اسم البلاغة حتّى يسابق معناه
 لفظه و لفظه معناه ، و لا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه إلى قلبك ، و يدخل في الأذن بلا إذن ٣ .
 و في (بيان الجاحظ) : قيل للفارسي : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . و قيل لليوناني : ما
 البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام و اختيار الكلام .
 و قيل للرومي : ما البلاغة ؟ قال : حسن الاقتضاب عند البداية ، و الغزارة يوم الإطالة . و قيل للهندي ما
 البلاغة ؟ قال : وضوح الدلالة و انتهاز الفرصة و حسن الإشارة . و قال بعض أهل الهند : جماع البلاغة
 : البصر بالحجّة و المعرفة بمواضع الفرصة ، ثم قال : و من البصر بالحجة و المعرفة بمواضع الفرصة :
 أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أو عر طريقة ، و ربّما كان

(١) الصناعتين للعسكري : ٥١ ، ٥٢ .

(٢) تحف العقول : ٣١٢ ، و نقل هذا التعريف للبلاغة الهاشمي في جواهر البلاغة : ٣٧ عن خالد بن صفوان .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٠٦ .

الصفحة ١٣٣

الإضراب عنها صفحا أبلغ في الدرك ، و أحقّ بالظفر . و قال مرّة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، و المعرفة بساعات القول ، و قلة الخرق بما التبس من المعاني أو غمض ، و بما شرد عليك من اللفظ أو تعدّر ١ .

و قال اعرابي : البلاغة التقرب من البعيد و التباعد من الكلفة ، و الدلالة بقليل على كثير . و قال اعرابي : البلاغة إيجاز في غير عجز و إطناب في غير خطل . و قيل لأبي العيناء : ما أبلغ الكلام ؟ قال : ما أسكت المبطل و حير المحقّ .

و أمّا الثالث : فعن ابراهيم المعروف بالإمام : يكفي من حظّ البلاغة أن لا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ، و لا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع .

و قال هارون : البلاغة التباعد من الإطالة ، و التقرب من البغية ، و الدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى . و قال المأمون : ما كنت أتوهم أنّ أحدا يقدر على هذه البلاغة حتّى قرأت كتاب عمرو بن مسعدة إليّ : كتابي اليك ، و من قبلي من القوادم و الأجناد في الطاعة و الانقياد على أحسن ما يكون ، طاعة جند تأخرت عطياتهم ، و اختلت أحوالهم . و قال ابن المعتز : البلاغة البلوغ الى المعنى ، و لم يطل سفر الكلام ٢ .

قلت : و بأيّ معنى فسرت فالكاتب مصداقه ، فالتسمية حقّه .

« إذا كان يفتح للنّاظر فيه » أي : في هذا الكتاب .

« أبوابها » أي : أبواب البلاغة .

« و يقرب عليه طلابها » قد عرفت في ما مرّ اعتراف عبد الحميد الكاتب و ابن نباتة الخطيب ٣ ، و هما على ما عليه بحصول البلاغة لهما من النظر في

(١) كذا في البيان و التبيين للجاحظ : ١١١ ، و ما نقله عن بعض أهل الهند رواه ابن أبي الحديد في

زوائد نهج البلاغة : ٥٣٥ ح ٩٢ عن علي عليه السّلام .

(٢) جمع هذه الأقوال و أقوال أخرى في تفسير البلاغة الجاحظ في البيان و التبیین ، و ابن عبد ربه في العقد الفريد .

(٣) مر في شرح خطبة الرضي فقرة : « و بكلامه استعان كل واعظ بليغ » .

الصفحة ١٣٤

كلامه عليه السلام .

« فيه » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و فيه) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ١ و لاقتضاء المقام له .

« حاجة العالم » في زيادة علمه .

« و المتعلم » في حصول العلم له .

« و بغية » بضمّ الباء و كسرهما ، أي : مطلوب .

« البليغ » ليقندر على الإتيان بالكلام البليغ .

« و الزاهد » ليرضى بزهده ، و يسرّ به ، و يجدّ في ازدياده .

« و يمضي في أثنائه » أي : أثناء الكتاب .

« من الكلام » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (من عجيب الكلام) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ٢ .

« في التوحيد » و لا سيما الخطبة (١٨٤) . الذي قال المصنّف فيه : و من خطبة له عليه السلام في التوحيد ، و تجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمعه خطبة ٣ .

« و العدل » قال : ابن أبي الحديد في شرح الخطبة (٨٣) : و اعلم أنّ التوحيد و العدل و المباحث

الشريفة الإلهية ما عرفت إلاّ من كلام هذا الرجل ، و إنّ كلام غيره من أكابر الصحابة لم يتضمن شيئاً من

ذلك أصلاً ، و لا كانوا يتصوّرونه ، و لو تصوّروه لذكروه ، و هذه الفضيلة عندي أعظم فضائله عليه

السلام ٤ .

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٨ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩١ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٨ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩١ .

(٣) نهج البلاغة ٢ : ١١٩ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٢٠ .

قلت : بل كان فاروقه قائلاً بعدم عدل الله تعالى . ففي (تاريخ بغداد) في عنوان عثمان بن سعيد : خطب عمر الناس بالجابية ، فقال : إن الله يضل من يشاء و يهدي من يشاء . فقال قس من تلك القسوس : ما يقول أميركم هذا ؟

فقالوا : يقول إن الله يضل من يشاء . فقال القس : برقشت ، الله أعدل من أن يضل أحدا . فبلغ ذلك عمر ، فبعث إليه ، فقال : بل الله أضلك ، و لو لا عهدك لضربت عنقك ١ .

فإذا كان قائلاً بعدم عدله تعالى ، كيف ينتظر منه التكلم في أوصافه تعالى و عدله في القرآن ؟ و إن ورد باللفظ ، إلا أنه تعالى قال بعده : . . . و ما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه و يقطعون ما أمر الله به أن يوصل و يفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ٢ ، مع أن العقل و النقل متطابقان على وجوب تأويل المتشابه ، لكن الرجل مصداق قوله تعالى :

فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه . . . ٣ ، و الرجل أراد الجواب بالضرب و القتل .
« و تنزيه الله سبحانه » عن النقائص .

« و تعالى » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : عدم الكلمة ، لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) ٤ .

« عن شبه » متعلق بقوله : « و تنزيه الله » .

« الخلق » و في خطبة الأشباح برقم (٨٩) : سأله سائل أن يصف الله تعالى

(١) تاريخ بغداد ١١ : ٢٩٠ و النقل بتصريف يسير .

(٢) البقرة : ٢٦ ٢٧ .

(٣) آل عمران : ٧ .

(٤) كذا في شرح ابن ميثم ١ : ٩١ ، لكن في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٨ « و تعالى » أيضا .

الصفحة ١٣٦

له حتى كأنه يراه عيانا ، فغضب عليه السلام و خطب بها ١ ، و كان عليه السلام أحسن منه إرادته وصفه بالتشبيه .

« ما هو بلال » بالكسر ، الندوة و الرطوبة ، قال الشاعر :

كأنني حلوت الشعر حين مدحته

صفا صخرة صماء يبس بلالها

٢ و قال آخر :

و صاحب مرامق داجيته

على بلال نفسه طويته

٣ و أصله : السقا يطوى و هو مبتلّ فيعفن . قال :

و لقد طويتم على بلاتكم ٤ لكن لو كان المصنّف قال : « نقوع » بدل « بلال » كان أقرب الى إفادة المراد ، يقال : نقع الماء العطش نقعا و نقوعا سكّنه ، و يقال : شرب حتى نقع ، و إنّما يحسن البلال في المبالغة في النفي ، يقال : ما في سقائك بلال ، أي : ما يبيلّ به الحلق . و قالت ليلي الأخيلية لابن عمّ توبة حين فرّ عنه حتى قتل :

فلا و أبيك يابن أبي عقيل

تبلك بعدها فينا بلال

فلو آسيته لخلاك نّم

و فارقك ابن عمك غير قال

٥ « كلّ غلّة » بالضم ، حرارة العطش ، و زاد (ابن أبي الحديد و الخطية) بعده :

(١) نهج البلاغة ١ : ١٦٠ .

(٢) أورده لسان العرب ١١ : ٦٤ مادة (بلل) ، و الشاعر أوس .

(٣) أورده لسان العرب ١١ : ٦٦ مادة (بلل) .

(٤) هذا صدر بيت لحضرمي بن عامر الأسدي ، و ذيله : و علمت ما فيكم من الأذراب ، أورده أساس

البلاغة : ٣٠ مادة (بلل) ، و لسان العرب ١١ : ٦٦ مادة (بلل) .

(٥) أورده لسان العرب ١١ : ٦٧ مادة (بلل) .

الصفحة ١٣٧

« و شفاء كلّ علّة » ١ .

« و جلاء كلّ شبهة » أي : زوالها و اضمحلالها ، في (الإرشاد) روى الحسن البصري قال : جاء رجل إلى أمير المؤمنين بعد انصرافه من حرب صفين ، فقال له : يا أمير المؤمنين خبرني عما كان بيننا و بين هؤلاء القوم من الحرب ، أكان بقضاء من الله و قدر ؟ فقال أمير المؤمنين عليه السلام :

ما علوتم قلعة و لا هبطتم و اديا إلاّ و لله فيه قضاء و قدر . فقال الرجل :

فعند الله احتسب عنائي يا أمير المؤمنين فقال له : و لم ؟ قال : إذا كان القضاء و القدر ساقانا الى العمل ، فما وجه الثواب لنا على الطاعة ، و ما وجه العقاب لنا على المعصية ؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : أو ظننت يا رجل أنّه قضاء حتم و قدر لازم ، و لا تظنّ ذلك ، فإنّ القول به مقال عبدة الأوثان و حزب الشيطان و خصماء الرحمن و قدرية هذه الأمة و مجوسها .

إنَّ الله تعالى أمر تخييرا ، و نهى تحذيرا ، و كلف يسيرا ، و لم يطع مكرها ،
و لم يعص مغلوبا ، و لم يخلق السماء و الأرض و ما بينهما باطلا (ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين
كفروا من النار) . فقال الرجل : فما القضاء و القدر الذي ذكرته يا أمير المؤمنين ؟ قال عليه السلام :
الأمر بالطاعة ، و النهي عن المعصية ، و التمكين من فعل الحسنة ، و ترك السيئة ، و المعونة على القربة
إليه ، و الخذلان لمن عصاه ، و الوعد و الوعيد ، و الترغيب و الترهيب ،
كلّ ذلك قضاء الله في أفعالنا و قدره لأعمالنا ، فأما غير ذلك فلا تظنّه ، فإنّ الظنّ له محبط للأعمال . فقال
الرجل : فرجيت عني يا أمير المؤمنين ، فرج الله عنك . و أنشأ يقول :
أنت الإمام الذي نرجو بطاعته
يوم المآب من الرحمن غفرانا

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٨ ، و زاده أيضا ابن ميثم في شرحه ١ : ٩١ .

الصفحة ١٣٨

أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا
جزاك ربك بالإحسان إحسانا
١ « و من الله سبحانه أستمدّ التوفيق « لنيل الغرض .
« و العصمة « من الضلال .
« و استنجز « أي : استنجح .
« التّسديد « أي : الحمل على السّداد ، أي : الصّلاح .
« و المعونة « على العمل .
« و أستعيذه من خطاء الجنان « القلب .
« قبل خطاء اللسان « قال خالد بن جعفر الكلابي لكسرى لما أوفده النعمان بن المنذر إليه :
و عثرة القول أنكى
من عثرة الوعث
و الوعث : المكان الذي يشقّ المشي فيه .
« و من زلّة الكلام « هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (الكلم) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم
و الخطية) ٢ .
« قبل زلّة القدم « قال ابن السكيت :
يصاب الفتى من عثرة بلسانه

و ليس يصاب المرء من عثرة الرّجل
فعرثته في القول تذهب رأسه
و عثرته في الرّجل تبرأ عن مهل

(١) أخرجه المفيد في الإرشاد : ١٢٠ عن الحسن البصري ، و أخرجه الصدوق أيضا في العيون ١ :
١١٤ ح ٣٨ ، و التوحيد :

٣٨٠ ح ٢٨ بطريقين ، و الكراكي في كنز الفوائد : ١٦٩ عن الحسين عليه السّلام ، و أخرجه الصدوق
في العيون و التوحيد الحديث السابق عن السجاد عليه السّلام ، و رواه ابن شعبة في تحف العقول : ٤٦٨ ،
و الطبرسي في الاحتجاج : ٢٠٨ ضمن رسالة الهادي عليه السّلام ، و أخرجه الصدوق في العيون و
التوحيد الحديث السابق عن ابن عباس ، و رواه أبو الحسين الخياط في الغرر عنه شرح ابن أبي الحديد ٤
: ٢٧٧ عن الاصبغ بن نباتة ، و أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٥٥ ح ١ ،

و الشريف الرضي في نهج البلاغة ٤ : ١٧ الحكمة (٧٨) ، و في خصائص الائمة : ٦٩ ، و رواه ابن
ميثم في شرحه ٥ : ٢٧٨ مرسلا و مجردا .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٨ ، و شرح ابن ميثم ١ : ٩١ .

الصفحة ١٣٩

« و هو حسبي و نعم الوكيل » الأصل فيه قوله تعالى : . . . و قالوا حسبنا الله و نعم الوكيل ١ .
و هذا أو ان الشروع في المقصود بعون الملك المحمود ، فنقول :

(١) آل عمران : ١٧٣ .

الصفحة ١٤٠

الصفحة ١٤١

الفصل الأوّل في التوحيد

الصفحة ١٤٢

الصفحة ١٤٣

و حيث إنّ المصنّف بدأ بخطبة في التوحيد نبدأ بما بدأ به مع كلامه ،
فقال :

« باب المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السّلام و أوامره ، و يدخل في ذلك المختار من كلامه
الجاري مجرى الخطب في المقامات المحصورة ، و المواقف المذكورة ،
و الخطوب الواردة » .

أي : المقاصد العارضة ، ككلامه عليه السّلام لما خاطبه العباس و أبو سفيان بالبيعة له بعد قبض النبيّ
صلّى الله عليه و آله و سلّم ١ ، و كلامه عليه السّلام لما أشير عليه بالألّا يتبع طلحة و الزبير ٢ ، إلى غير
ذلك ممّا عبّر فيها غالباً بقوله : و من كلام له عليه السّلام .

« فمن خطبة له عليه السّلام يذكر فيها ابتداء خلق السماء و الأرض ، و خلق آدم » .
و نحن نقصر من الخطبة هنا على ما يكون في التوحيد ، و أمّا ما فيها في

(١) نهج البلاغة ١ : ٤٠ الخطبة (٥) .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٤١ الخطبة (٦) .

الصفحة ١٤٤

خلق السماء و الأرض ، فنذكره في الفصل الثاني ١ ، كما أنّ ما فيها راجعا إلى خلق آدم نذكره في الفصل
الرابع ٢ على ما عرفت أوّلا في فهرست فصوله ٣ ،
و إنّما ذكرنا هنا عنوان المصنّف لئلا ندع شيئا من كلامه .

« و فيها ذكر الحجّ » هكذا في (المصرية) ، و الجملة بتمامها زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و
ابن ميثم و الخطبة) ٤ ، و لا بدّ أنّها كانت حاشية من بعض المحشّين ، حيث رأى أنّ في الخطبة فصلا
راجعا إلى الحجّ ، فخلطت بالمتن . و كيف كان ، فنذكر ما فيه من ذكر الحجّ في فصل العبادات ٥ .

١

من الخطبة (١) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَبْلُغُ مَدْحَتَهُ الْقَائِلُونَ وَ لَا يُحْصِي نِعْمَاءَهُ الْعَادُونَ وَ لَا يُؤَدِّي حَقَّهُ
الْمُجْتَهِدُونَ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ بَعْدُ الْهَمَمُ وَ لَا يَنَالُهُ غَوْصُ الْفِطْنِ الَّذِي لَيْسَ لِحِفَّتِهِ حَدٌّ مَحْدُودٌ وَ لَا نَعْتٌ مَوْجُودٌ
وَ لَا وَقْتُ مَعْدُودٌ وَ لَا أَجَلٌ مَمْدُودٌ فَطَرَ الْخَلَائِقَ بِقُدْرَتِهِ وَ نَشَرَ الرِّيَّاحَ بِرَحْمَتِهِ وَ وَتَدَّ بِالصُّخُورِ مِيدَانَ

أَرْضِهِ مِنَ الْخُطْبَةِ (٩٤) وَ مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الْأَوَّلِ فَلَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَ الْآخِرِ فَلَا شَيْءَ بَعْدَهُ وَ الظَّاهِرِ

- (١) فِي الْعِنُونِ (١) .
 (٢) فِي الْعِنُونِ (١) .
 (٣) وَ جَاءَ بَعْضُ قِطْعِهِ فِي الْعِنُونِ (١) مِنْ الْفَصْلِ الثَّلَاثِ ، وَ كَذَا الْخَامِسُ وَ السَّادِسُ ، وَ الْعِنُونِ (٢) مِنْ الْفَصْلِ الثَّانِيِ وَ الْأَرْبَعِينَ .
 (٤) كَذَا فِي شَرْحِ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ١ : ١٨ ، لَكِنْ يَوْجَدُ فِي شَرْحِ ابْنِ مِيثَمٍ ١ : ١٠٦ .
 (٥) فِي الْعِنُونِ (٢) . فَلَا شَيْءَ فَوْقَهُ وَ الْبَاطِنِ فَلَا شَيْءَ دُونَهُ

الصفحة ١٤٥

مِنَ الْخُطْبَةِ (٩٢) وَ مِنْ خُطْبَةٍ لَهُ عَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ بَعْدُ الْهَمَمِ وَ لَا يَنَالُهُ حُسْنُ الْفِطَنِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَا غَايَةَ لَهُ فَيَنْتَهِي وَ لَا آخِرَ لَهُ فَيَنْقُضِي أَقُولُ : نَقَلَ الْخُطْبَةَ الْأُولَى ابْنُ طَلْحَةَ الشَّافِعِيُّ فِي (مَطَالِبِهِ) ١ ، وَ قَالَ الْخَوَّيُّ : إِنَّ الْمَجْلِسِيَّ رَوَاهُ فِي (الْبَحَارِ) عَنْ (عِيُونَ الْحِكْمَةِ) لِمَحْمَدِ بْنِ عَلِيِّ الْوَاسِطِيِّ إِلَى قَوْلِهِ : إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٢ ، لَكِنْ لَمْ أَقِفْ فِي (الْبَحَارِ) عَلَى نَقْلِهِ عَنْهُ ٣ .
 « الْحَمْدُ » ظَاهِرٌ (الصَّحَاحِ) تَرَادُفَ الْحَمْدِ مَعَ الْمَدْحِ ، حَيْثُ قَالَ : الْحَمْدُ نَقِيضُ الذَّمِّ ٤ ، وَ فَرَّقَ (الْمَصْبَاحِ) بَيْنَهُمَا ، فَجَعَلَ الْحَمْدَ لِلْجَمِيلِ الْإِخْتِيَارِيِّ فَقَطْ ، وَ الْمَدْحَ لَهُ وَ لِلْخَلْقِيِّ ٥ ، إِلَّا أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ كِلَا مِنَ الْحَمْدِ وَ الْمَدْحِ لِلْإِخْتِيَارِيِّ الْنَفْسَانِيِّ ، فَكَمَا لَمْ نَسْمَعْ اسْتِعْمَالَ حَمْدِ الْوَلَدِ ، كَذَلِكَ لَمْ نَسْمَعْ اسْتِعْمَالَ مَدْحِهِ .
 « لِلَّهِ » رَوَى (الْمَعَانِي) عَنِ الْعَسْكَرِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَتَأَلَّهُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْحَوَائِجِ وَ الشَّدَائِدِ ٦ ، وَ نَقَلَ ابْنُ أَبِي الْحَدِيدِ عَنِ الرَّوَنْدِيِّ : أَنَّ (اللَّهَ) أَخْصَّ مِنْ

- (١) رَوَاهُ ابْنُ طَلْحَةَ فِي مَطَالِبِ السُّؤُولِ : ٢٧ .
 (٢) شَرْحُ الْخَوَّيِّ ١ : ٩٧ .
 (٣) بَحَارُ الْأَنْوَارِ ٧٧ : ٣٠٠ ح ٧ ، وَ فِيهِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيِّ .
 (٤) صَحَاحُ اللُّغَةِ لِلْجَوْهَرِيِّ ١ : ٤٦٣ مَادَّةُ (حَمْدٌ) .
 (٥) الْمَصْبَاحُ الْمُنِيرُ ١ : ١٨٣ مَادَّةُ (حَمْدٌ) .
 (٦) مَعَانِي الْأَخْبَارِ لِلصَّدُوقِ ٤ : ٢ .

الصفحة ١٤٦

(الإله) ١ ، و نقل عنه في موضع آخر : أن الإله مصدر بمعنى المألوه ٢ ، و ردّه بأنّه لا فرق بينهما في اللغة ، بل في الاصطلاح ، و أن الإله اسم جنس كالرجل لكلّ معبود بحقّ أو باطل ، و غلب على الحقّ ، و أن (مألوه) مصدر لا مفعول ، و أنّه لم يسمع مألوه في اللغة ، لأنّ أله الرجل إذا دهش و تحيّر لازم لا يبنى منه مفعول ٣ .

قلت : حمله و لعله على الاعتراض على الراوندي ألاّ يراجع اللغة ، و إلاّ ففي (الصحاح) أله بالفتح ، إلهة ، أي : عبد عبادة ، و إله فعال بمعنى مفعول ، أي : معبود ، كقولنا : إمام على فعال ، بمعنى مفعول ، لأنّه مؤتمّ به ٤ .

و ما قاله من « أنّ أله الرجل بمعنى : تحيّر لا يبنى منه مفعول » غلط فاحش ، فإنّما (و له الرجل بمعنى : تحيّر) لا يبنى منه مفعول لا (أله) ، و لو كان اعتراض عليه بأنّ : (إله ليس بمصدر ، بل إلهة ، كما قال الجوهري ، و أنّه قال : إله فعال بمعنى مفعول) كان له وجه .

ثم لو لم يكن فرق بين (الله) و (إله) كما قال ابن أبي الحديد ٥ يصير معنى : (لا إله إلاّ الله) كقولك : لا رجل إلاّ رجل ، أو لا زيد إلاّ زيد و كيف لا يكون بينهما فرق ، و قد كان المشركون و هم من أهل اللغة يطلقون (الإله) على الأوثان ، و لا يطلقون لفظة (الله) إلاّ على موجد العالم ، قال تعالى : و لئن سألتهم من خلق السماوات و الأرض ليقولنّ الله . . . ٦ . كما أنّ

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٠ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢١ .

(٣) رد الأول في الصفحة (٢٠) ، و الثاني في ص (٢١) .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٢٥ مادة (اله) .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٠ .

(٦) الزمر : ٣٨ .

الصفحة ١٤٧

ما قاله من « أنّ الإله كلّ معبود و غلب على الحقّ » ليس كذلك ، قال تعالى : أفرأيت من اتخذ إلهه هواه . . . ١ و إنّما غير الحقّ يجب أن ينفى ككلّ باطل ، ف (لا إله إلاّ الله) ، و كذلك قوله : « مألوه مصدر » ليس كذلك ، فقد عرفت من (الصحاح) أنّه على أصله .

قال ابن أبي الحديد أيضا : قال الراوندي : (الحمد لله) دالّ على أنه عليه السلام حمد الله تعالى ، و أنه ثابت عليه مدّة حياته ، و أمر غيره في فحوى كلامه أن يحمده أيضا ثابتين ، و لو كان عبّر بلفظ (أحمد الله) لم يفهم منه جميع ذلك ٢ .

ثم ردّه ابن أبي الحديد بأنّه لا فرق بين قولنا : « الحمد لله » ، و قولنا : « أحمد الله » ٣ .
لت : لم لم يراجع كلمات علماء البيان في الفرق بين الجملة الاسمية و الجملة الفعلية ؟ فإنما قال الراوندي ما قالوه من أنّ (أحمد الله) بلفظ الفعلية مجرد إخبار بحمده له تعالى ، و أمّا (الحمد لله) بلفظ الاسمية ، و تعريف الحمد بلام الجنسية ، فدالّ على الدوام و الاستمرار ، و أنه تعالى مستحقّ للحمد من كلّ حامد ، فكما حمده هو عليه السلام يجب أن يحمده كلّ مخلوق مثله .

و في الخبر أنّ الباقر عليه السلام فقد بغلة له ، فقال : لئن ردّها الله تعالى لأحمدنّه بمحامد يرضاها ، فما لبث أن أتى بها بسرجهما و لجامها ، فلما استوى عليها و ضمّ إليه ثيابه رفع رأسه الى السماء ، فقال : الحمد لله فلم يزد . ثمّ قال : ما تركت و لا بقيت شيئا ، جعلت كلّ أنواع المحامد لله عز و جل ، فما من حمد إلاّ و هو داخل في ما قلت ٤ .

« الذي لا يبلغ مدحته القائلون » كيف يبلغ القائلون مدحته ، و المادح إنما

(١) الجائية : ٢٣ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٠ و النقل بالمعنى .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٠ و النقل بالمعنى .

(٤) رواه الأربلي في كشف الغمة ٢ : ٣٣٠ ، و الطبرسي في مكارم الأخلاق : ٣٠٧ .

الصفحة ١٤٨

يبلغ مدح شخص إذا أحاط علما بكمالاته ، فالجاهل لا يقدر أن يصف علم العالم ، و لا يمكن الإحاطة بكمالاته تعالى لغيره عزّ و جلّ ، فينحصر مدحه تعالى كما ينبغي بذاته المقدّسة ، و لذا قال النبي صلّى الله عليه و آله : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ١ . و كيف يبلغ مدحته القائلون و قد قال عزّ اسمه : (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربيّ و لو جئنا بمثله مداد) ٢ .

« و لا يحصي نعماءه العادون » إنّما يمكن الإحصاء في ماله حصر ، و لا حصر لنعمائه تعالى ، و في الخبر : أنّ أبيّ بن كعب قرأ عند النبيّ صلّى الله عليه و آله قوله تعالى : . . . و أسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة . . . ٣ ، فقال النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم لقوم عنده و فيهم أبو بكر و عبيدة و عمر و عثمان و عبد الرّحمن قولوا الآن ما أوّل نعمة غرسكم الله بها و أبلاكم بها ؟ فحاضوا من المعاش و

الرياش و الذرية و الأزواج ، فلما أمسكوا ، قال لأمير المؤمنين عليه السلام : يا أبا الحسن قل . فقال عليه السلام :

إنّ الله خلقني و لم أكن شيئاً مذكوراً ، و أن أحسن بي فجعلني حياً لا مواتاً ، و أن أنشأني ، فله الحمد في أحسن صورة و أعدل تركيب ، و أن جعلني متفكراً واعياً لا أبله ساهياً ، و أن جعل لي شواعر أدرك بها ما ابتغيت ، و جعل فيّ سراجاً منيراً ، و أن هداني لدينه و لن يضلّني عن سبيله ، و أن جعل لي مردّاً في حياة لا انقطاع لها ، و أن جعلني ملكاً مالكا لا مملوكاً ، و أن سخّر لي سماءه و أرضه و ما فيهما و ما بينهما من خلقه ، و أن جعلنا ذكرانا قواماً على حلائلنا لا أناثاً . و كان النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم يقول في كلّ كلمة : صدقت . ثم قال : فما بعد هذا ؟ فقال علي عليه السلام :

- (١) أخرجه صاحب مصباح الشريعة فيه : ٥٦ ، و الدار قطني في الافراد عنه منتخب كنز العمال ١ : ٣٤٨ عن النبي صلّى الله عليه و آله ، و نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ١٩ ، و ابن ميثم في شرحه ١ : ١١١ .
- (٢) الكهف : ١٠٩ .
- (٣) لقمان : ٢٠ .

الصفحة ١٤٩

(و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها) ١ . فتبسّم النبي صلّى الله عليه و آله و قال : ليهنّك الحكمة ، ليهنّك العلم ، يا أبا الحسن أنت وارث علمي ، و المبيّن لأمتي ما اختلفت فيه من بعدي ٢ . « و لا يؤدّي حقّه المجتهدون » أي : السّارعون في عبادته ، و كيف يمكن لأحد أداء حقّه ، و حقوقه غير محصورة على حسب نعمائه .

و عن الزهري : دخلت مع عليّ بن الحسين عليه السلام على عبد الملك ، فاستعظم ما رأى من أثر السجود بين عينيه ، فقال له : يا أبا محمّد لقد تبيّن عليك الاجتهاد ، و لقد سبق لك من الله الحسنى ، و أنت بضعة من النبي صلّى الله عليه و آله .

فأجابه عليه السلام في كلام طويل بأنّه مع ذلك لم يؤدّ حقّه تعالى الى أن قال عليه السلام له : و الله لو تقطّعت أعضائي ، و سألت مقلّتي على صدري في قيامي له تعالى ، لم أشكر عشر العشير من نعمة واحدة ، من جميع نعمه التي لا يحصيها العادّون ،

و يبلغ حدّ نعمة واحدة منها على جميع حمد الحامدين له تعالى . . . ٣ .

و قال بعضهم : قوله عليه السلام : « الذي لا يبلغ مدحته القائلون » إقرار بالعجز عن الحمد باللسان ، و قوله عليه السلام : « و لا يحصي نعماءه العادون » اعتراف بالقصور عن الشكر بالجنان ، و قوله عليه السلام : « و لا يؤدي حقه المجتهدون » اعتراف بالقصور عن العمل بالأركان ٤ .
« الذي لا يدركه بعد الهمم » أي : لا يصل الى كنهه الهمم العالية الراقية إلى شوامخ الأمور .

(١) ابراهيم : ٣٤ ، و النحل : ١٨ .

(٢) رواه ابن شهر آشوب في المناقب ٢ : ٣٥٥ ، و الحسكاني في شواهد التنزيل ١ : ٣٢٩ ح ٤٥٥ ، و ابو علي الطوسي في أماليه ٢ : ١٠٥ ، المجلس (١٧) .
(٣) رواه ابن طووس في فتح الأبواب عنه البحار ٤٦ : ٥٦ ح ١٠ .
(٤) القائل هو المجلسي في شرح الخطبة : بحار الأنوار ٤ : ٢٤٨ .

الصفحة ١٥٠

« و لا يناله غوص الفطن » أي : لا ينتهي إلى هويته الفطن الغائصة لجج الأفكار .
قال الخوئي : إضافة (بعد الهمم) و (غوص الفطن) ليس من باب إضافة الصفة إلى الموصوف على ما قيل لوجوب المطابقة بين الصفة و الموصوف ١ .
قلت : ما قيل سليم ، و ما قاله هو عليل ، فالمطابقة إنما في ما إذا بقيت الصفة على وصفها لا بعد تبديلها ، فيقال : زيد بعيد الهمم ، و الأصل ذو همم بعيدة .
ثم مثل قوله عليه السلام هنا : « الذي لا يدركه بعد الهمم ، و لا يناله غوص الفطن » قوله عليه السلام في الثالثة : « فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم و لا يناله حدس الفطن » ، فإن الفرق بينهما إنما في اللفظ ، و المعنى واحد .
و ما نقلناه (حدس الفطن) إنما هو في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) ٢ فنقل (المصرية) « حسن الفطن » تصحيف .

و في (الكافي) : سأل أبو هاشم الجعفري الجواد عليه السلام عن قوله تعالى :
لا تتركه الأبصار و هو يدرك الأبصار . . . ٣ فقال عليه السلام : يا أبا هاشم أوهم القلوب أدق من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك السند و الهند و البلدان التي لم تدخلها و لا تدركها ببصرك ، و أوهم القلوب لا تدركه ، فكيف أبصار العيون ؟ ٤

(١) شرح الخوئي ١ : ١٠٠ .

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٨٠ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٩٤ « حسن الفطن » أيضا .

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٩ ح ١١ ، و الصدوق في التوحيد : ١١٣ ح ١٢ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٤٤٢ عن أبي هاشم عن الجواد عليه السلام ، و روى معناه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣٦ عن الصادق عليه السلام ، و البرقي في المحاسن : ٢٣٩ ح ٢١٥ ، و الكليني في الكافي ١ : ٩٨ ح ١٠ ، و الصدوق في التوحيد : ١١٢ ح ١١ عن طريق أبي هاشم ، و الصدوق في الأمالي : ٣٣٤ ح ٢ المجلس (٦٤) ، و صاحب فقه الرضا عنه البحار ٣ : ٢٦٢ ح ١٧ عن غير طريقه عن الرضا عليه السلام ،

و البرقي في المحاسن ٢٣٩ ح ٢١٥ عن أبي هاشم عن الجواد عليه السلام ، و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و اللاكائي عنهم الدر المنثور ٣ : ٣٧ عن أبي الحسين القاري موقوفا .

الصفحة ١٥١

هذا و من المضحك أن جمهور متكلمي العامة يدعون أنهم يعرفون حقيقة ذاته ، و أفرطوا في الوقاحة ، فقالوا : إنه تعالى لا يعلم من ذاته إلا ما نعلم منها .

« الذي ليس لصفته » أي : لتوصيفه ، فيأتي كلامه عليه السلام « و كمال الاخلاص له نفي الصفات عنه » ، و المراد ليس لذاته :

« حدّ محدود ، و لا نعت موجود ، و لا وقت معدود ، و لا أجل ممدود » لكون هذه الأمور من عوارض الجسمانيات ، و هو تعالى منزّه عن ذلك .

و روى (توحيد الصدوق) خطبة عنه عليه السلام في استنهاضه الناس الى حرب معاوية ثانية و فيها : « الذي ليس له وقت معدود ، و لا أجل ممدود ، و لا نعت محدود » ١ .

« فطر » عن ابن عباس : كنت لا أدري ما . . . فاطر السماوات . . . حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي : ابتدأتها ٣ .

« الخلائق » من الجماد و النبات و الوحش و الطير و الهوامّ و الأنعام ، غير البشر .

« بقدرته » يمكن أن يكون المراد لإظهار قدرته ، فيكون قوله هذا : « فطر »

(١) توحيد الصدوق : ٤١ ح ٣ .

(٢) فاطر : ١ .

(٣) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث و فضائل القرآن عنهما الكاف الشاف ٢ : ٩ ، و ابن جرير و ابن الانباري في الوقف و الابتداء ، و عبد بن حميد في مسنده ، و ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم ، و البيهقي

في شعب الايمان عنهم الدر المنثور ٣ : ٧ ، و ٥ : ٢٤٤ ، و نقله الطوسي في التبيان ٤ : ٨٨ عن ابن عباس ، و بين الألفاظ اختلاف يسير .

الصفحة ١٥٢

الخلائق بقدرته « مساوقا لقوله عليه السلام الآخر : « عباد مخلوقون اقتدارا » ، و يمكن أن يكون المراد أن خلقه تعالى للخلائق بنفس قدرته لا بمعونة أدوات و آلات كعمل المخلوقين ، فيكون الكلام إشارة الى قوله تعالى : إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ١ .

« و نشر الرياح برحمته » يمكن أن يكون المراد بالرحمة الأمطار ، كالرحمة في قوله تعالى : و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته . . . ٢ ، و يمكن أن يكون المراد بها ترحمه تعالى على عباده بنشر الرياح ، فبالرياح يجيء السحاب كما عرفت من الآية و بالرياح تلقح الأشجار ، قال تعالى : و أرسلنا الرياح لواقح . . . ٣ ، و بالرياح تسير السفن ، قال تعالى : إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره . . . ٤ ، و لو لا الرياح لزويت النباتات و مات الإنسان و الحيوانات و فسدت الجمادات .

و الرياح لا تستعمل غالبا إلا في الخير ، كما في الآيات : و هو الذي يرسل الرياح ٥ ، و أرسلنا الرياح لواقح . . . ٦ ، و هو الذي أرسل الرياح بشرا . . . ٧ ، . . . و من يرسل الرياح بشرا . . . ٨ ، و من آياته أن يرسل الرياح مبشرات . . . ٩ ، و الله الذي أرسل الرياح فتثير

(١) يس : ٨٢ .

(٢) الأعراف : ٥٧ .

(٣) الحجر : ٢٢ .

(٤) الشورى : ٣٣ .

(٥) الأعراف : ٥٧ .

(٦) الحجر : ٢٢ .

(٧) الفرقان : ٤٨ .

(٨) النمل : ٦٣ .

(٩) الروم : ٤٦ .

الصفحة ١٥٣

سحابا . . . ١ ، . . . و تصريف الرياح . . . ٢ .

و ممّا جاء للمطلق : . . . فأصبح هشيما تنزروه الرّياح . . . ٣ لكن في قراءة : « الرّيح » ٤ .
 كما أنّ الرّيح الأغلب استعمالها في الشرّ ، كما في آيات : . . . إذ أرسلنا عليهم الرّيح العقيم ٥ ، . . .
 فيرسل عليكم قاصفا من الرّيح . . . ٦ ، . . . أو تهوي به الرّيح في مكان سحيق ٧ ، . . . كرماد اشتدّت
 به الرّيح في يوم عاصف . . . ٨ .
 و ممّا جاءت للخير : و لسليمان الرّيح عاصفة . . . ٩ ، فسخرنا له الرّيح تجري بأمره رخاء حيث أصاب
 ١٠ ، و لسليمان الرّيح غدوّها شهر و رواحها شهر . . . ١١ ، إنّ يشأ يسكن الرّيح . . . ١٢ .
 و كذلك ريح بدون اللّام يأتي لهما ، قال تعالى : إنّنا أرسلنا عليهم ريحا

-
- (١) فاطر : ٩ .
 (٢) البقرة : ١٦٤ .
 (٣) الكهف : ٤٥ .
 (٤) قرأ حمزة و الكسائي و خلف (الرّيح) بلفظ المفرد ، و قرأ باقي القراء العشرة (الرّياح) بلفظ
 الجمع ، كما في التيسير : ٧٨ .
 و النشر ٢ : ٢٢٣ .
 (٥) الذاريات : ٤١ .
 (٦) الاسراء : ٦٩ .
 (٧) الحج : ٣١ .
 (٨) ابراهيم : ١٨ .
 (٩) الأنبياء : ٨١ .
 (١٠) ص : ٣٦ .
 (١١) سبأ : ١٢ .
 (١٢) الشورى : ٣٣ .

الصفحة ١٥٤

صرصرا . . . ١ ، . . . ريح فيها عذاب أليم ٢ ، . . . و تذهب ريحكم . . . ٣ .
 و مما ذكرنا يظهر لك ما في قول الثعالبي في (فقه لغته) : لم يأت لفظ الرّيح في القرآن إلّا في الشرّ ، و
 الرّياح إلّا في الخير ، ثمّ ذكر آيات ٤ .
 « و وتّد بالصّخور » أي : الجبال .
 « ميدان » أي : اضطراب .

« أرضه » أي : جعل الجبال أوتادا للأرض لئلا تضطرب ، كأوتاد الخيم لئلا تضطرب ، و إلى ذلك أشير في الكتاب في مواضع ، منها : و ألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم . . . ٥ ، و الجبال أوتادا ٦ . و في الصخور ، أي : الجبال فوائد أخرى غير منع الأرض من الميدان ، من كونها معادن للفلزات و الأحجار الكريمة ، و خزائن مياه ، و منابت أشجار و نباتات و أزاهير و عقاقير ، و معاقل للناس عن أعدائهم ، و مساكن الوحوش و الطيور .
قول المصنّف في الثانية :

« و من خطبة له عليه السّلام » ، هكذا في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) ٧ و أمّا ما في

(١) القمر : ١٩ .

(٢) الأحقاف : ٢٤ .

(٣) الأنفال : ٤٦ .

(٤) هذا قول مشهور بين أهل اللغة و التفسير ، قال به الراغب الاصفهاني في المفردات : ٢١١ مادة (روح) ، ثم ذكر الآيات و غيره منهم ، لكن لم أجده في نسختي من فقه اللغة للثعالبي و لا ملحقه ، نعم جاء في متن فقه اللغة : ٢٧٧ ٢٧٩ و ملحقه من كتاب الجرائيم لعبد الله بن مسلم : ٣٥٤ ٣٥٥ ذكر الريح و الرياح مفصّلاً بأسمائها ، و يلوح منه هذا المعنى ، لكن لم يذكر آية .

(٥) النحل : ١٥ .

(٦) النبأ : ٧ .

(٧) شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٨٢ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٤٠٠ .

الصفحة ١٥٥

(المصرية) (و من خطبة أخرى) فتحريف ، و لا وجه لقوله : « أخرى » ، فكلّ خطبة غير سابقتها .
قوله عليه السّلام فيها :

« الحمد لله الأوّل فلا شيء قبله ، و الآخر فلا شيء بعده ، و الظاهر فلا شيء فوقه ،
و الباطن فلا شيء دونه » الأصل فيه قوله تعالى : هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكلّ شيء
عليم ١ .

قوله عليه السّلام في الثالثة :

« الأوّل الذي لا غاية له فينتهي ، و لا آخر له فينقضي » روى (توحيد الصدوق) : أنّ ابن أبي يعفور
قال للصادق عليه السّلام : قوله تعالى هو الأوّل و الآخر ٢ : عرفنا الأوّل ، بيّن لنا تفسير الآخر . فقال
عليه السّلام له : إنّه ليس شيء إلاّ يبيد و يتغيّر أو يدخله الغير و الزوال ، أو ينتقل من لون إلى لون ، و

من هيئة إلى هيئة ، و من صفة إلى صفة ، و من زيادة إلى نقصان ، و من نقصان إلى زيادة ، إلا رب العالمين ، فإنه لم يزل و لا يزال واحدا ، هو الأول قبل كل شيء ، و هو الآخر على ما لم يزل ، لا تختلف عليه الصفات و الأسماء ما يختلف على غيره ، مثل الإنسان الذي يكون ترابا مرة و مرة لحما و مرة دما و مرة رفاتا و رميما ، و كالتمر الذي يكون مرة بلحا و مرة بسرا و مرة رطبا و مرة تمرا ، فيتبدل عليه الأسماء و الصفات و الله عزّ و جلّ بخلاف ذلك ٣ .

(١) الحديد : ٣ .

(٢) لم يتعرض الشارح لشرح الفقرتين من أول الثالثة ، و قد سبق قريب منهما في الأولى .

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣١٤ ح ٢ ، و الكليني في الكافي ١ : ١١٥ ح ٥ .

الصفحة ١٥٦

٢

من الخطبة (١) بعد ما مر أول الدين معرفته و كمال معرفته التصديق به و كمال التصديق به توحيداً و كمال توحيد الخلاق له و كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف و شهادة كل موصوف أنه غير الصفة فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه و من قرنه فقد ثناه و من ثناه فقد جزأه و من جزأه فقد جهله و من جهله فقد أشار إليه و من أشار إليه فقد حدّه و من حدّه فقد عدّه و من قال فيم فقد ضمّنه و من قال علام فقد أخلّى منه « أول الدين » أي : أول ما يجب أن يتدين به .

« معرفته » أي : بالقلب و الجنان ، قال الرضا عليه السلام في علل رواها عنه الفضل ابن شاذان : فإن قال قائل : فما أول الفرائض ؟ قيل : الإقرار بالله و برسوله و حجّته و بما جاء من عند الله . فإن قال قائل : لم أمر الخلق بالإقرار بالله و برسوله و حجّته و بما جاء من عند الله ؟ قيل : لعل كثيرة ، منها : أن من لم يقرّ بالله لم يتجنّب معاصيه ، و لم ينته عن ارتكاب الكبائر ، و لم يراقب أحدا في ما يشتهي و يستلذ من الفساد و الظلم ، و إذا فعل الناس هذه الأشياء ، و ارتكب كل إنسان ما يشتهي و يهواه ، من غير مراقبة لأحد ، كان في ذلك فساد الخلق أجمعين ، و وثوب بعضهم على بعض ، فغصبوا الفروج و الأموال ، و أباحوا الدماء و السبي ، و قتل بعضهم بعضا من غير حقّ و لا جرم ، فيكون في ذلك خراب الدنيا ، و هلاك الخلق ، و فساد الحرث و النسل ١ .

(١) أخرجه ضمن حديث طويل الصدوق في علل الشرائع ١ : ٢٥٢ ح ٩ ، و العيون ٢ : ٩٧ ح ١ .

الصفحة ١٥٧

« و كمال معرفته » مضافا إلى معرفته بالقلب .
 « التصديق به » أي : الإقرار به باللسان ، حتى لا يكون من الذين جحدوا بآياته و استيقنتها أنفسهم ظلما و علواً ، فإن أولئك معرفتهم ناقصة غير كاملة .
 « و كمال التصديق به توحيده » بنفي الشريك عنه ، لأن من عرف بقلبه أن للعالم صانعا ، و أقرّ به بلسانه ، لكن جعل له شريكا في الابدان كالتثوية ، و من قال : هو ثالث ثلاثة ، تصديقه ناقص لا فائدة فيه .
 « و كمال توحيده الإخلاص له » في العبادة ، لأن من وحدّه في الابدان ، لكن جعل له شريكا في العبادة ، كالتثوية الذين قالوا في أوثانهم : . . . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . . . ١ ، توحيده غير كامل .
 « و كمال الإخلاص له نفي الصفات » زائدة على الذات ، كما في الناس .
 « عنه ، بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف » فعلم زيد غير ذات زيد .
 « و شهادة كل موصوف أنه غير الصفة » فذات عمرو غير حلمه ، و في حديث الزنديق الذي قال للصادق عليه السلام : « أتقول : إن الله سميع بصير ؟ فقال عليه السلام : هو سميع بصير ، سميع بغير جارحة ، و بصير بغير آلة ، بل يسمع بنفسه ، و يبصر بنفسه ، و ليس قولي : إنه سميع بنفسه أنه شيء و النفس شيء آخر ، و لكنني أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولا ، و إلهاما لك إذ كنت سائلا ، فأقول :
 يسمع بكله ، لا أن كله له بعض ، لأن الكل لنا له بعض ، و لكن أردت إلهامك و التعبير عن نفسي ، و ليس مرجعي في ذلك كله إلا أنه السميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذات ، و لا اختلاف المعنى » ٢ .

(١) الزمر : ٣ .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٠٩ ح ٢ ، و الصدوق بطريقين في التوحيد : ١٤٤ ح ١٠ و ٢٤٥ ح ١ ، و روى هذا الحديث الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣٢ ، لكن لا توجد فيه هذه القطعة .

الصفحة ١٥٨

و قيل للباقر عليه السلام : « يزعم قوم من أهل العراق أنه يسمع بغير الذي يبصر ، و يبصر بغير الذي يسمع ، فقال عليه السلام : كذبوا و ألدوا و شبّهوا ، تعالى الله عن ذلك إنه سميع بصير ، يسمع بما يبصر ، و يبصر بما يسمع » ١ .
 و كلامه عليه السلام ككلام عترته عليهم السلام ردّ على الصفاتية الذين يقال لهم اليوم الأشعرية .

قال الشهرستاني في ملله : اعلم أنّ جماعة كثيرة من السلف كانوا يثبتون لله تعالى صفات أزليّة من العلم و القدرة ، و الحياة و الإرادة ، و السمع و البصر ، و الكلام و الجلال و الإكرام و الجود و الإنعام ، و العزّة و العظمة ، و لا يفرّقون بين صفات الذات و صفات الفعل ، بل يسوقون الكلام سوفا واحدا ، و كذلك يثبتون صفات خبريّة مثل اليدين و الوجه ، و لا يؤوّلون ذلك ، إلّا أنّهم يقولون هذه الصفات قد وردت في الشرع فنسميها صفات خبريّة ، و لما كانت المعترلة ينفون الصفات و السلف يثبتون سمّي السلف صفاتيّة ، و المعترلة معطّلة ، فبالغ بعض السلف في إثبات الصفات إلى حدّ التشبيه بصفات المحدثات ، و اقتصر بعضهم على صفات دلّت الأفعال عليها ، و ما ورد به الخبر فافترقوا فيه فرقتين : منهم من أوّله على وجه يحتمل اللفظ ذلك ، و منهم من توقّف في التأويل . . . ثمّ ان جماعة من المتأخرين زادوا على ما قاله السلف ،

فقالوا : لا بدّ من اجرائها على ظاهرها و القول بتفسيرها كما وردت ، من غير تعرّض للتأويل و لا توقّف في الظاهر . فوقعوا في التشبيه الصرف . . . أمّا السلف الذين لم يتعرّضوا للتأويل و لا تهدقوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس ، إذ قال : الاستواء معلوم ، و الكيفيّة مجهولة ، و الايمان به واجب ، و السؤال عنه بدعة . و مثل أحمد بن حنبل و سفيان الثوري و داود بن علي الاصفهاني و من

(١) أخرجه ضمن حديث الكليني في الكافي ١ : ١٠٨ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ١٤٤ ح ٩ .

الصفحة ١٥٩

تابعهم ، حتّى انتهى الزّمان الى عبد الله بن سعيد الكلابي ، و أبي العباس القلانسي ، و الحرث بن أسد المحاسبي .

و هؤلاء كانوا من جملة السلف أنّهم باشروا علم الكلام و أيّدوا عقائد السلف بحجج كلاميّة و براهين أصولية و صنّف بعضهم و درّس بعض ، حتّى جرى بين أبي الحسن الأشعري و استاذه مناظرة في مسألة من مسائل الصّلاح و الأصلح ، فتخاصما ، و انحاز الأشعري الى هذه الطائفة ، فأيدّ مقالتهم بمناهج كلاميّة ، و صار ذلك مذهبا لأهل السنّة و الجماعة ، و انتقلت سمة الصفاتيّة الى الأشعرية ، و لما كانت المشبهة و الكرامية من مثبتتي الصفات عددناهم فرقتين من جملة الصفاتيّة « ١ .

« و من قرنه فقد ثناه ، و من ثناه فقد جزّاه » هكذا في النسخ ٢ ، و لا يبعد أن يكون وقع تحريف ، و أنّ الأصل (و من قرنه فقد جزّاه ، و من جزّاه فقد ثناه) ،

فإنّ القول بثنائته أشنع من القول بتجزئته ، فبطلان القول بالثنائية مسلمّ عند جميع فرق المسلمين ، بخلاف القول بتجزئته ، فيدين به المشبهة منهم و المجسمة .

« و من قال فيم » كمن قال : إنّ في السماء .

« فقد ضمّنه » أي : جعله في ضمن شيء .
 « و من قال علام » كمن قال إنه على العرش .
 « فقد أخلّى منه » أي : غير ذلك الشيء الذي قال هو عليه ، كالكرسيّ مثلا و غيره ، قال ابن أبي العوجاء
 للمصادق عليه السلام : أليس اذا كان في السماء كيف يكون في الأرض ، و إذا كان في الأرض كيف يكون
 في السماء ؟ فقال عليه السلام : إنّما

(١) الملل و النحل للشهرستاني ١ : ٨٤ .

(٢) كذا في نهج البلاغة ١ : ١٥ ، و شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٢ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٠٦ .

الصفحة ١٦٠

و صفت المخلوق الذي إذا انتقل عن مكان اشتغل به مكان و خلا منه مكان ، فلا يدري في المكان الذي
 صار إليه ما يحدث في المكان الذي كان فيه ، فأما الله العظيم الشأن الملك الديان ، فلا يخلو منه مكان و لا
 يشتغل به مكان ، و لا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان ١ .

هذا ، و روى (الإرشاد) هذه الفقرات عن الزهري و عيسى بن زيد عن صالح ابن كيسان عنه عليه
 السلام هكذا : « أول عبادة الله معرفته ، و أصل معرفته توحيده ، و نظام توحيده نفي التشبيه عنه ، جلّ
 عن أن تحلّه الصفات بشهادة العقول أنّ كلّ من حلّته الصفات مصنوع ، و شهادة العقول أنّه جلّ جلاله ليس
 بمصنوع ، بصنع الله يستدلّ عليه و بالعقول تعتقد معرفته ، و بالنظر تثبت حجّته ، جعل الخلق دليلا عليه
 ، فكشف به عن ربوبيّته ، هو الواحد الفرد في أزليّته ، لا شريك له في إلهيّته ، و لا ندّ له في ربوبيّته ،
 بمضادّته بين الأشياء المتضادّة علم أن لا ضدّ له ، و بمقارنته بين الأمور المقترنة علم أن لا قرين له » ٢ .
 و روى (العيون و التوحيد و أمالي المفيد و أمالي الشيخ) عن الرضا عليه السلام خطبة في المعنى و هي
 : « أول عبادة الله معرفته ، و أصل معرفة الله توحيده ،

و نظام توحيد الله نفي الصفات عنه ، لشهادة العقول أنّ كلّ صفة و موصوف مخلوق ، و شهادة كلّ
 موصوف أنّ له خالقا ليس بصفة و لا موصوف و شهادة كلّ صفة و موصوف بالاقتران ، و شهادة
 الاقتران بالحدوث ،

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٢٦ ح ٣ ، و الصدوق في التوحيد : ٢٥٤ ح ٤ ، و رواه الطبرسي
 في الاحتجاج ٢ : ٣٣٥ ضمن حديث طويل ، و أخرج الحديث الصدوق في العلل ٢ : ٤٠٤ ح ٤ و
 الامالي : ٤٩٣ ح ٤ المجلس (٩٠) ، و المفيد في الارشاد : ٢٨٠ ، و الكراچكي في الكنز : ٢٢٠ ، لكن
 ليس في رواية العلل و ما بعدها هذه القطعة .

الصفحة ١٦١

و شهادة الحدوث بالامتناع من الأزل الممتنع من الحدوث . . . « ١ .

٣

من الخطبة (١) بعد ما مرّ :

كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ مَوْجُودٌ لَا عَنْ عَدَمٍ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةٍ وَ غَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُرَايَلَةٍ فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَ الْآلَةِ بِصِيرٍ إِذْ لَا مَنْظُورٌ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ مُنَوَّحٌ إِذْ لَا سَكَنَ يَسْتَأْنِسُ بِهِ وَ لَا يَسْتَوْحِشُ لِفَقْدِهِ أَنْشَاءَ الْخَلْقِ إِنْشَاءً وَ ابْتِدَاءَهُ ابْتِدَاءً بِلَا رُويَةٍ أَجَالَهَا وَ لَا تَجْرِبَةَ اسْتِفَادَهَا وَ لَا حَرَكَةَ أَحْدَثَهَا وَ لَا هَمَامَةَ نَفْسٍ اضْطَرَبَ فِيهَا أَحَالَ الْأَشْيَاءِ لِأَوْقَاتِهَا وَ لَاعَمَ بَيْنَ مُخْتَلِفَاتِهَا وَ غَرَزَ غَرَائِزَهَا وَ أَلْزَمَهَا أَشْبَاحَهَا عَالِمًا بِهَا قَبْلَ ابْتِدَائِهَا مُحِيطًا بِحُدُودِهَا وَ انْتِهَائِهَا عَارِفًا بِقَرَائِنِهَا وَ أَحْنَائِهَا « كَائِنٌ لَا عَنْ حَدَثٍ » لِأَنَّهُ مَكُونٌ الْمَحْدَثَاتِ .
« موجود لا عن عدم » لِأَنَّهُ مَوْجِدٌ الْمَعْدُومَاتِ .

« مع كل شيء لا بمقارنة » قال تعالى : . . . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا . . . ٢ .
« و غير كل شيء لا بمزايلة » . . . ليس كمثلته شيء . . . ٣ .
« فاعل لا بمعنى الحركات و الآلة » إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له

(١) أخرجه الصدوق في العيون ١ : ١٢٣ ح ٥١ ، و التوحيد : ٣٤ ح ٢ ، و المفيد في أماليه : ٢٥٣ ح

٤ المجلس (٣٠) ، و أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ٢٢ المجلس (١) .

(٢) المجادلة : ٧ .

(٣) الشورى : ١١ .

الصفحة ١٦٢

كن فيكون ١ .

« بصير إذ لا منظور إليه من خلقه » إذ البصيرية من صفات ذاته تعالى كالسمعية و العالمية ، و القدرة لا من صفات الفعل حتى يستلزم أن يكون منظورا إليه ، قال الصادق عليه السلام : « لم يزل الله تعالى ربنا ، و العلم ذاته و لا معلوم ،

و السمع ذاته و لا مسموع ، و البصر ذاته و لا مبصر ، و القدرة ذاته و لا مقدور ،
فلما أحدث الأشياء و كان المعلوم ، وقع العلم منه على المعلوم ، و السمع على المسموع ، و البصر على
المبصر ، و القدرة على المقدور « ٢ .

« متوحد إذ لا سكن يستأنس به ، و لا يستوحش لفقده » إذ التوحيد من صفات ذاته ، و الاستيناس و
الاستيحاش من صفات خلقه .

« أنشأ الخلق إنشاء و ابتدأه ابتداء » و معنى الإنشاء : أنه تعالى أوجد الخلق لا من مادة ، و معنى الابتداء
: أنه أوجدهم لا لتحصل له فائدة ، فعن الرضا عليه السلام في ما أملى في (التوحيد) على محمد بن زيد :
« الحمد لله فاطر الأشياء إنشاء ،

و مبتدعها ابتداء بقدرته و حكمته ، لا من شيء فيبطل الاختراع ، و لا لعلّة فلا يصحّ الابتداء ، خلق ما
شاء كيف شاء « ٣ .

« بلا روية » في (الصحاح) : الروية التفكر في الأمر .

« أجالها » أي : أدارها ، و الأصل فيه الجولان .

« و لا تجربة استفادها » كالبشر في أموره .

« و لا حركة أحدثها » كما يفعل من يريد الاتيان بعمل .

(١) يس : ٨٢ .

(٢) أخرجه ضمن حديث الكليني في الكافي ١ : ١٠٧ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ١٣٩ ح ١ ، و
باختصار أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ١٧٠ ، المجلس (٦) .

(٣) أخرجه ضمن حديث الصدوق في التوحيد : ٩٨ ، و علل الشرائع ١ : ٩ ح ٣ .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٣٦٤ مادة (روى) .

الصفحة ١٦٣

« و لا همامة » قال ابن أبي الحديد : إنّ الهمامة اصطلاح للتثوية . و في كتاب (المقالات) : إنّ همامة
من النور ، و همامة من الظلمة ، أي : قطعة منهما ، غيرتا أولاً ثم تقارنتا ، حتّى ابنتي منهما هذا العالم
المحسوس ، و إنّ أمير المؤمنين عليه السلام ردّ عليهم في اصطلاحهم ، و ليست بلفظة عربيّة ١ .

قلت : إنّ ابن أبي الحديد لا يراجع غير (الصحاح) ، و حيث لم يذكرها ، جعل اللفظة غير عربيّة ، و هو
غلط ، فنفهم عربيّتها من كلامه عليه السلام ككلام غيره من العرب ، و ذكرها (القاموس و اللسان) ، لكن
جعلها مصدرا من ال (همّ) بالكسر بمعنى : الشيخ الفاني .

قال الأوّل : و الهمّ و الهمّة بكسرهما : الشيخ الفاني ، و قد أهمّ . جمع الهمّ :

أهمام ، و هي همّة ، و جمعها : همّات و همائم ، و المصدر الهمومة و الهمامة ٢ .
و قال : الثاني : و الهمم بالكسر الشيخ الكبير البالي ، و الأثنى همّة بينة الهمامة ، و المصدر : الهمومة و الهمامة ، و قد انهمّ ، و قد يكون الهمّ و الهمّة من الابل ، قال : و ناب همّة لا خير فيها ٣ .
و الصواب أن يقال : إنه يجيء مصدرا من فعل الهمّ الذي قالوا ، و إن اختلفا فيه ، مع كونه على خلاف القياس من أهمّ كان أو انهمّ ، و يجيء مصدرا من هممت بالشيء إذا قصدته ، كما في كلامه عليه السلام ، و هو على القياس .
و بالجملة ، هل كتبوا اللغة إلا من موارد استعمال العرب ، و في ما كتبوا نواقص ، و لمن كتب أوهام ، حتى مثل الأصمعيّ الذي كان من أئمتهم فله

(١) يوجد هذا المعنى في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و كتاب المقالات بيدوانه للكعبي ، و ثمة كتب كثيرة بهذا الاسم لا تحصى ، و نقل الشهرستاني قريبا من هذه المقالة عن المرقيونية من الثنوية في الملل و النحل ١ : ٢٣٣ .

(٢) القاموس المحيط ٤ : ١٩٢ مادة (همم) .

(٣) لسان العرب ١٢ : ٦٢١ مادة (همم) .

الصفحة ١٦٤

أغلاط واضحة ، و منها في أبرد و أبرق ١ ، و (للصاح) أوهام فاضحة ، و منها في قوله : العلق بالكسر النفيس من كلّ شيء ، يقال : علق مضنّة ٢ .
و من الغريب أن ابن أبي الحديد يغلط يعرب بن قحطان إذا رأى في كلامه شيئا على خلاف قول (الصاح) ، و منه إنكاره كون الهمامة عربية لعدم ذكر (الصاح) لها ، مع أن (الصاح) ، و إن لم يذكر اللفظة ، إلا أنه قال : يقال :
أهمّتي الأمر ، إذا أقلقتك و حزنك ٣ . فلم لم يجعلها مشتقة منه ، كما يشهد له المقام و نفس الكلام ؟
« نفس اضطرب فيها » فإنّ كلّ ذلك من صفات الخلق ٤ .

« و لاعم بين مختلفاتها » قال النظام : الدليل على الصانع : أنا رأينا أشياء متضادة من شأنها التنافي و التباين و التماسد مجموعة ، و هي الحرارة و البرودة و الرطوبة و اليبوسة المجتمعة في كلّ حيوان و في أكثر سائر الأجسام ، فعلمنا أنّ جامعها قسرها على الاجتماع ، و لو لا ذلك لتباينت و تفسدت ، و لو جاز أن تجتمع المتضادات المتتافرات و تتقاوم من غير جامع جمعها لجاز أن يجتمع الماء و النار ، و يتقاوما من ذاتهما بغير جامع مدبّر مقيم يقيّمها ، و هذا محال لا يتوهم ، و في اجتماعها دليل على حدوثها لأنها لا يجوز عليها الانفراد ، فإذا كانت لا توجد إلا مجتمعّة بطل أن توجد كذلك إلا بجامع جمعها ، صحّ أنّه قبلها

، و أنّها لم توجد إلاّ حين ابتدعها مجتمعة ، و لو وجدت قبل ذلك لم يوجد إلاّ على أحد وجهين : إمّا أن يكون كلّ واحد منها منفردا ، و هذا محال ، أو تكون مجتمعة لا جامع لها ، و هذا أيضا محال ، فقد صحّ أنّها ابتدعت ،

- (١) نقل قول الأصمعي في لسان العرب ٣ : ١٨٠ ، مادة (رعد) .
 (٢) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٥٣٠ ، مادة (علق) .
 (٣) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ٢٠٦١ ، مادة (همم) .
 (٤) لم يتعرض الشارح لشرح فقرة : « أحال الأشياء لأوقاتها » .

الصفحة ١٦٥

و أنّ الذي جمعها كان موجودا قبلها ١ .
 و في حديث الديصاني و كان من الزنادقة مع الصادق عليه السّلام : دلّني على معبودي و لا تسألني عن اسمي و كان اسمه عبد الله فقال عليه السّلام له : اجلس و اذا غلام له صغير في كفّه بيضة يلعب بها ، فقال عليه السّلام : يا غلام ناولني البيضة .
 فناوله ، فقال عليه السّلام : يا ديصاني هذا حصن مكنون له جلد غليظ ، و تحت الجلد الغليظ جلد رقيق ، و تحت الجلد الرقيق ذهب مائعة ، و فضة ذاتية ، فلا الذهب المائعة تختلط بالفضة الذاتية ، و لا الفضة الذاتية تختلط بالذهب المائعة ، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح ، فيخبر عن صلاحها ، و لا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها ، لا يدري اللّذكر خلقت أم للانثى ، تتفلق عن مثل ألوان الطواويس . أتري لها مدبرا ؟ فأطرق مليّا ، ثمّ قال : أشهد ألاّ إله إلاّ الله ٢ .
 و قد كشف العلم الجديد أنّ الماء مركّب من جزأين قتّالين ٣ ،
 و بتركيبهما صاروا حياة لكلّ ذي روح .
 « و غرّز غرائزها » و هب لكلّ ذي طبيعة من نوع الإنسان و أجناس الحيوان و أصناف الطيور ، و أقسام الوحوش ، و صنوف الحيتان طبيعتها .
 « و ألزمها أشباحها » هكذا في (المصرية و ابن أبي الحديد) ٤ ، و لكن في (ابن ميثم) « أسناخها » ٥ .

- (١) نقله عنه الكراجكي في كنز الفوائد : ٨٦ .
 (٢) أخرجه باختلاف يسير الكليني في الكافي ١ : ٧٩ ح ٤ ، و الصدوق في التوحيد : ١٢٣ ح ١ و الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣٣ .

- (٣) هما غاز الاوكسجين و الهيدروجين : و قوله « قتالين » غريب ، خصوصا في مورد الاوكسجين ، لأنه مادة تجتذبها الرئة و عليها تتوقف الحياة .
- (٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٥ .
- (٥) في شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « أشباحها » أيضا .

الصفحة ١٦٦

جعل كل نطفة مبدأ لدابة و طير و سابح ، و كل بذر منشأ لنبات و شجر .
« عالما بها قبل ابتدائها » فإنه لو لم يكن عالما بها قبل ابتدائها لما قدر على ابتدائها ، و حيث إن علمه من صفات ذاته ، فعلمه بها قبلها كعلمه بها بعدها ، و أمّا البشر فقد يعمل عملا فيجد أثرا فيه بدون علمه بترتبه.

« محيطا بحدودها ، و انتهائها » جعل لكل شيء حدا و انتهاء لا يتجاوزه ،
فلنشو الانسان و الحيوان و الشجر و النبات حدّ تنتهي إليه إنا كل شيء خلقناه بقدر ١ .
« عارفا بقرائنها » أي : ما يوافقها فيقرنها .
« و أحنائها » في الصحاح : الحنو بالكسر : واحد أحناء ، السرج و القنتب ،
و حنو كل شيء أيضا اعوجاجه ، و منه حنو الجبل ٢ .
هذا ، و قال المجلسي في شرح قوله عليه السلام : « عارفا بقرائنها و أحنائها » إنه يدل على جواز اطلاق العارف عليه تعالى ، و منعه بعضهم ٣ .
قلت : إنما يفهم منه جواز إطلاق عارف مقيد لا مطلق .

٤

من الخطبة (٤٩) و من خطبة له عليه السلام :
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَطَنَ خَفِيَّاتِ الْأُمُورِ وَ دَلَّتْ عَلَيْهِ أَعْلَامُ الظُّهُورِ وَ امْتَنَعَ عَلَى عَيْنِ الْبَصِيرِ فَلَا عَيْنٌ مَنْ لَمْ يَرَهُ
تُنْكِرُهُ وَ لَا قَلْبٌ مَنْ أَنْبَتَهُ يُبْصِرُهُ سَبَقَ فِي الْعُلُوِّ فَلَا شَيْءَ أَعْلَى مِنْهُ وَ قَرُبَ فِي الدُّنُوِّ فَلَا شَيْءَ

(١) القمر : ٤٩ .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٣٢١ مادة (حنو) .

(٣) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨١ .

الصفحة ١٦٧

أَقْرَبُ مِنْهُ فَلَا اسْتِعْلَاؤُهُ بَاعِدَهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ وَ لَا قُرْبِيَهُ سَاوَاهُمْ فِي الْمَكَانِ بِهِ لَمْ يُطْلِعِ الْعُقُولَ عَلَى تَحْدِيدِ صِفَتِهِ وَ لَمْ يَحْجُبْهَا عَنْ وَاجِبِ مَعْرِفَتِهِ فَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ لَهُ أَعْلَامُ الْوُجُودِ عَلَى إِقْرَارِ قَلْبِ ذِي الْجُودِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْمُشْبَهُونَ بِهِ وَ الْجَاوِدُونَ لَهُ عُلُوقًا كَبِيرًا « الحمد لله الذي بطن خفيات الأمور » أي : صار باطنا لها حتى كأنها ظاهرة بالنسبة إليه تعالى ، كما قال عليه السلام في كلام له آخر : « كل باطن غيره ظاهر » ١ و ذلك لإمكان درك ذاتها ، و استحالة ذلك في حقه تعالى .

و قال ابن أبي الحديد و تبعه ابن ميثم و الخوئي ٢ : معنى قوله عليه السلام : « بطن خفيات الأمور » علم بالبواطن و الخفيات ، و هو كما ترى ، مع أنه يأباه قوله عليه السلام بعد . « و دلت عليه أعلام الظهور » فإنه دال على أن كنهه تعالى و إن كان أخفى الأمور إلا أن وجوده تعالى أجلى الأشیاء ، و في غاية الظهور لكثرة شواهد ، و توفر أدلته : سنريهم آياتنا في الأفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ٣ .

و في كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

٤ « و امتنع على عين البصير » أن تبصره و تراه ، و عن عاصم بن حميد : ذكرت الصادق عليه السلام في ما يروون من الرؤية ، فقال : الشمس جزء من سبعين جزءا من نور الكرسي ، و الكرسي جزء من سبعين جزءا من نور العرش ،

(١) لفظ الفقرة : « و كل باطن غيره غير ظاهر » كما في نهج البلاغة ١ : ١١٣ الخطبة (٦٣) ، و شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٧١ ،

و شرح ابن ميثم ٢ : ١٦٧ ، و الفرق كثير .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩٢ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ١٢٧ ، و شرح الخوئي ٢ : ٧٨ .

(٣) فصلت : ٥٣ .

(٤) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ١٤٤ .

الصفحة ١٦٨

و العرش جزء من سبعين جزءا من نور الحجاب ، و الحجاب جزء من سبعين جزءا من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليملؤوا أعينهم من الشمس ، ليس دونها سحاب ١ .

و قال المفيد : لا يصح رؤية الباري سبحانه بالأبصار ، و بذلك شهد العقل ، و نطق القرآن ، و تواتر الخبر عن أئمة الهدى عليهم السلام من آل محمد صلى الله عليه و آله ، و عليه جمهور أهل الامامة و عامة متكلميهم ، إلا من شذ منهم لشبهة عرضت له في تأويل الأخبار ٢ . « فلا عين من لم يره تنكره ، و لا قلب من أثبتته يبصره » قال ابن أبي الحديد : و قد روي هذا الكلام على وجه آخر ، قالوا في الخطبة : « فلا قلب من لم يره ينكره ، و لا عين من أثبتته تبصره » ٣ .

قلت : هو أنسب جدًا ، فالإنكار ينسب الى القلب ، و الإبصار الى العين ، و الأوّل عكسه ، و لا يصحّ إلا بتأويل ، دخل رجل من الخوارج على الباقر عليه السلام و قال له : أي شيء تعبد ؟ قال : الله تعالى . قال : رأيته ؟ قال : بلى ، و لكن لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ، و لكن رأته القلوب بحقائق الايمان . لا يعرف بالقياس ، و لا يدرك بالحواس ، و لا يشبه بالناس ، موصوف بالآيات ، معروف بالعلامات . لا يجور في حكمه ، ذلك الله لا إله إلا هو . فخرج الرجل و هو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته ٤ .

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٨ ح ٧ ، و الصدوق في التوحيد : ١٠٨ ح ٣ .

(٢) أوائل المقالات للمفيد : ٦٢ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩٢ .

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٧ ح ٥ ، و الصدوق في التوحيد : ١٠٨ ح ٥ ، و الأمالي : ٢٢٩ ح ٤ المجلس (٤٧) ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٢١ عن الباقر عليه السلام ، و رواه الاربلي في كشف الغمة ٢ : ٤١٨ مترددا عن الباقر أو الصادق عليهما السلام ، و روي هذا المعنى عن علي و الصادق عليهما السلام كما يأتي في تحقيق حديث ذعلب في شرح الخطبة (١٧٧) ، العنوان (٢٣) من هذا الفصل .

الصفحة ١٦٩

« سبق في العلو » لكونه خالقا .

« فلا شيء أعلى منه » لأنّ كل شيء مخلوق له تعالى .

« و قرب في الدنو فلا شيء أقرب منه » حتّى إنّ المحتضر مع قرب أقاربه منه ذاك الحين و اجتماعهم حوله ، هو تعالى أقرب إليه منهم ، حتّى يتوفى تعالى نفسه : فلو لا إذا بلغت الحلقوم . و أنتم حينئذ تنظرون . و نحن أقرب اليه منكم و لكن لا تبصرون ١ ، و حتّى إنّ الأجزاء الباطنية للإنسان مع كونها

في غاية القرب من صاحبها هو تعالى أقرب إليه منها : . . . و نحن أقرب إليه من حبل الوريد ٢ ، . . .
يحول بين المرء و قلبه . . . ٣ .

« فلا استعلاؤه باعده عن شيء من خلقه » كما باعد استعلاء السماء على الأرض السماء عن الأرض .
« و لا قربه ساواهم في المكان به » كما ساوى قرب نفرين جارين بينهما في المكان ، لأنّ استعلاءه و
قربه ليس كاستعلاء بعض الخلق على بعض ، و كقرب بعضهم من بعض .

« لم يطلع العقول على تحديد صفته ، و لم يحجبها عن واجب معرفته » قال الصادق عليه السّلام للمفضّل
بن عمرو : إنّ العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ، و لا يعرفه بما يوجب له الإحاطة
بصفته . فإن قالوا : فكيف يكلف العبد الضعيف معرفته بالعقل اللطيف ، و لا يحيط به ؟ قيل لهم : إنّما
كلف العباد من ذلك في ما طاقتهم أن يبلغوه ، و هو أن يوقنوا به و يقفوا عند أمره و نهيه ، و لم يكلفوا
الإحاطة بصفته ، كما أنّ الملك لا يكلف رعيته أن يعلموا أطويل هو أم

(١) الواقعة : ٨٣ ٨٥ .

(٢) ق : ١٦ .

(٣) الأنفال : ٢٤ .

الصفحة ١٧٠

قصير ، أبيض هو أم أسمر ، و إنّما يكلفهم الإذعان لسلطانه و الانتهاء إلى أمره ،
ألا ترى أنّ رجلا لو أتى الى باب الملك و قال : اعرض عليّ نفسك حتّى أتقصّي معرفتك ، و إلاّ لم أسمع
لك كان قد أحلّ نفسه بالعقوبة ؟ فكذا القائل : إنّّه لا يقرّ بالخالق سبحانه حتّى يحيط بكنهه متعرّضا لسخطه
. ١

« فهو الذي تشهد له أعلام الوجود على إقرار قلب ذي الجود » هو نظير قوله عليه السّلام في ما يأتي :
« المتجلّي لخلقه بخلقه ، و الظاهر لقلوبهم بحجّته » ٢ .

مناظرة ابن أبي العوجاء مع الصادق عليه السّلام :

قال أبو منصور المتطبّب : أخبرني رجل من أصحابي ، قال : كنت أنا و ابن أبي العوجاء و عبد الله بن
المقفع في المسجد الحرام ، فقال ابن المقفع :

ترون هذا الخلق و أو ما بيده إلى موضع الطواف ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية إلاّ ذلك الشيخ
الجالس يعني : أبا عبد الله جعفر بن محمّد عليه السّلام فأما الباقر فرعاع و بهائم . فقال له ابن أبي

العوجاء : و كيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ دون هؤلاء ؟ قال : لأنني رأيت عنده ما لم أراه عندهم . قال : فقال له ابن أبي العوجاء : لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه . فقال له ابن المقفّع : لا تفعل ، فإنني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك . فقال : ليس ذا رأيك ، و لكن تخاف أن يضعف رأيك عندي في إجلالك إياه المحلّ الذي و صفت . فقال ابن المقفّع : أمّا إذا توهمت عليّ هذا ، فقم إليه و تحفّظ ما استطعت من الزلل ، و لا تثن عنانك إلى استرسال فيسلمك إلى عقال ، و سمه مالك أو عليك .
قال : فقام ابن أبي العوجاء و بقيت أنا و ابن المقفّع جالسين ، فلما رجع

(١) توحيد المفضل : ١٧٧ .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٢٠٦ الخطبة (١٠٦) ، و يأتي في العنوان (١٥) من هذا الفصل .

الصفحة ١٧١

الينا ابن أبي العوجاء ، قال : ويلك يا ابن المقفّع ما هذا ببشر ، و إن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهرا ، و يتروّح إذا شاء باطنا ، فهو هذا . فقال له :
و كيف ذلك ؟ قال : جلست إليه ، فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني ، فقال : إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ، يعني أهل الطواف و هو على ما يقولون فقد سلموا و عطبتهم ، و إن يكن الأمر على ما تقولون ، و ليس كما تقولون ، فقد استويتم و هم . فقلت له : يرحمك الله ، و أيّ شيء نقول ، و أيّ شيء يقولون ؟ ما قولي و قولهم إلاّ واحد . فقال : و كيف يكون قولك و قولهم واحدا و هم يقولون : إنّ لهم معادا ، و ثوبا و عقابا ، و يدينون بأنّ في السماء إليها و أنّها عمران ، و أنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد ؟ قال : فاغتمتها منه ، فقلت له : ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه ، و يدعوهم الى عبادته حتّى لا يختلف منهم اثنان ؟ و لم احتجب عنهم ، و أرسل اليهم الرسل ، و لو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الايمان به ؟ فقال لي : ويلك ، و كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك : نشوءك و لم تكن ، و كبرك بعد صغرك ، و قوتك بعد ضعفك ، و ضعفك بعد قوتك ، و سقمك بعد صحتك ، و صحتك بعد سقمك ، و رضاك بعد غضبك ، و غضبك بعد رضاك ، و حزنك بعد فرحك ، و فرحك بعد حزنك ، و حبك بعد بغضك ، و بغضك بعد حبك ، و عزمك بعد أناتك ، و أناتك بعد عزمك ،
و شهوتك بعد كراهتك ، و كراهتك بعد شهوتك ، و رغبتك بعد رهبتك ، و رهبتك بعد رغبتك ، و رجاءك بعد يأسك ، و يأسك بعد رجائك ، و خاطرك بما لم يكن في وهمك ، و عزوب ما أنت معتقده عن ذهنك .
و ما زال يعدّد عليّ قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتّى ظننت : أنّه سيظهر في ما بيني و بينه ١ .
و من الشواهد على ما ذكره عليه السّلام من إقرار قلب ذي الجحود : أنّ كلّ

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٧٤ ح ٢ ، و الصدوق في التوحيد : ١٢٥ ح ٤ .

الصفحة ١٧٢

جحد إذا انقطع رجاؤه عن الأسباب الظاهرية ، و صار إلى الاضطرار يتوجّه إلى مبدئه بلا اختيار : . . .
فطرة الله التي فطر الناس عليها . . . ١ ، فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى
البر إذا هم يشركون ٢ .

و حتّى إنّ عمرو بن العاص الذي عادى النبيّ صلّى الله عليه و آله إلى أن فتح النبيّ صلّى الله عليه و آله
و سلّم مكة فاستسلم و لم يسلم و أسرّ كفره ، ثمّ عادى أمير المؤمنين عليه السّلام إلى شهادته ،
كان مقراً بأنّ ما قدر الله تعالى يقع ، و لو على خلاف الأسباب الظاهرية ، ففي (صفين نصر) أنّ
معاوية لما أعطى عمرو بن العاص مصر ليعينه على أمير المؤمنين عليه السّلام و كتب له كتابا ، و كتب
فيه : على أن لا ينقض شرط طاعة ، و كتب عمرو : على أن لا تنقض طاعة شرطاً ، و كاید كلّ واحد
منهما صاحبه ، و كان مع عمرو ابن عمّ له فتى شاب ، و كان داهيا حليما ، فلما جاء عمرو بالكتاب
مسرورا عجب الفتى ، و قال : ألا تخبرني يا عمرو بأيّ رأي تعيش في قريش ؟

أعطيت دينك و منيت دنيا غيرك ، أرى أهل مصر و هم قتلة عثمان يدفعونها إلى معاوية و عليّ حيّ ، و
تراها إن صارت إلى معاوية لا يأخذها بالحرف الذي قدّمه في الكتاب ؟ فقال له عمرو : يا بن الأخ إنّ
الأمر لله دون عليّ و معاوية . . . ٣ . « تعالى الله عمّا يقول المشبهون به و الجاحدون له علوا كبيرا »
روي عن إبراهيم بن محمد الخزاز و محمد بن الحسين أنّهما حكيا للرضا عليه السّلام : إنّ محمّد صلّى الله
عليه و آله رأى ربّه في صورة الشاب الموفق في سنّ أبناء ثلاثين سنة إلى أن قال فخرّ ساجدا لله ، ثمّ قال
: سبحانك ما عرفوك و لا وحدوك ، فمن أجل ذلك و صفوك إلى أن قال إنّ النبيّ صلّى الله عليه و آله
حين نظر إلى عظمة ربّه كان في هيئة

(١) الروم : ٣٠ .

(٢) العنكبوت : ٦٥ .

(٣) وقعة صفين : ٤٠ .

الصفحة ١٧٣

الشاب الموفق و سنّ أبناء ثلاثين سنة ، يا محمّد عظم ربّي عز و جل أن يكون في صفة المخلوقين . قال :
قلت له : جعلت فداك من كانت رجلاه في خضرة ؟

قال : ذاك محمدٌ صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلمٌ ، كان إذا نظر الى ربّه بقلبه جعله في نور مثل نور الحجب حتّى يستبين له ما في الحجب ١ .

و روي عن داود الرقيّ ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز و جل :
و كان عرشه على الماء . . . ٢ ، فقال : ما يقولون ؟ قلت : يقولون : إنّه العرش على الماء ، و الربّ فوقه . فقال : كذبوا ، من زعم هذا فقد صير الله محمولاً ،

و وصفه بصفة المخلوق ، و لزمه أنّ الشيء الذي يحمله أقوى منه ٣ .

و أمّا قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ٤ فهو من قبيل قول الشاعر :

قد استوى بشر على العراق

من غير سيف و دم مهراق

٥ في كون المراد به مجرد الاستيلاء و السلطنة .

هذا ، و في (كامل الجزري) : و في سنة (٣٢٣) خرج توقيع الراضي الخليفة بما يقرأ على الحنابلة ، ينكر عليهم فعلهم و يوبّخهم باعتقاد التشبيه و غيره ،

فمنه : تارة أنكم تزعمون أنّ صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال ربّ العالمين ، و هيئتكم الرذلة على هيئته ، و تذكرون الكفّ و الأصابع و الرجلين و النعلين المذهبين ، و الشعر القطط ، و الصعود الى السماء ، و النزول الى الدنيا .

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٠٠ ح ٣ ، و الصدوق في التوحيد : ١١٣ ح ١٣ ضمن حديث طويل ، و أخرج معناه أيضا الكليني في الكافي ١ : ١٠٦ ح ٨ ، و الصدوق في التوحيد : ١٧ ح ١ .
(٢) هود : ٧ .

(٣) أخرجه ضمن حديث الكليني في الكافي ١ : ١٣٢ ح ٧ ، و الصدوق في التوحيد : ٣١٩ ح ١ .
(٤) طه : ٥ .

(٥) أورده لسان العرب ١٤ : ٤١٤ مادة (سوا) .

الصفحة ١٧٤

تبارك الله عمّا يقول الظالمون و الجاحدون علواً كبيراً . . . ١ .

قلت : و الأصل في زعمهم قول النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله و سلمٌ : فإنّ الله تعالى خلق آدم على صورته ٢ ، و الضمير في (صورته) راجع الى رجل سبّه من قال النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله له ذلك ، فتوهموا رجوعه إلى (الله) ، روى (العيون) عن الحسين بن خالد قال : قلت للرضا عليه السلام : يابن رسول الله . إنّ الناس يروون أنّ النبي صَلَّى اللهُ عليه و آله قال : إنّ الله خلق آدم على صورته . فقال : قاتلهم

اللَّهِ لَقَدْ حَذَفُوا أَوَّلَ الْحَدِيثِ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَرَّ بِرَجُلَيْنِ يَتَسَابَّانِ ، فَسَمِعَ أَحَدَهُمَا يَقُولُ لِصَاحِبِهِ قَبَّحَ اللَّهُ وَجْهَكَ ، وَوَجْهَ مَنْ يَشْبِهُكَ . فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَهُ : يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَقُلْ هَذَا لِأَخِيكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ ٣ .

و في (الكامل) أيضا في سنة (٤٥٨) : ذكر أن فيه توفي أبو يعلى الحنبلي مصنف كتاب (الصفات) ، أتى فيه بكل عجيبة ، و فيه التجسيم ، و كان ابن تميم

(١) الكامل لابن الأثير ٨ : ٣٠٨ ، سنة (٣٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤ : ٢١٨٣ ح ٢٨ ، و أحمد بطريقين في مسنده ٢ : ٣١٥ ، ٣٢٣ ، و الطبراني في السنة ، و الدار قطني في الصفات عنهما منتخب كنز العمال ١ : ١١٣ ، و أخرج معناه عنه عبد الرزاق في الجامع ، و ابن عساكر في التاريخ ، منتخب كنز العمال ١ : ١١٣ ، و أخرجه ابن قتيبة في تأويل المختلف : ٢٢٠ مجردا عن ابن عمر بلفظ « ان الله خلق آدم على صورة الرحمن » ، و نحو هذا اللفظ أخرج الطبراني عنه كنوز الحقائق ٢ : ١٥٩ ، و روى الكشي اختيار الكشي : ٢٨٤ ح ٥٠٣ عن هشام بن سالم أنه يقول : « إن آدم خلق على مثال الرب » ، و روى الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٤٤ ضمن حديث طويل عن الصادق عليه السلام نسبة التمسك بهذا الحديث الى أصحاب التناسخ ، و جاء ما يشبه هذا الحديث في التوراة الموجودة ، العهد العتيق سفر التكوين الاصحاح الأول : ٢٦ ، ٢٧ و في رسالة بولس الى أهل افسس ، العهد الجديد الرسالة المذكورة الاصحاح الرابع : ٢٤ ، و ما نقل من صحف ادريس عليه السلام ابن طاووس في سعد السعود : ٣٣ .

(٣) أخرجه الصدوق في العيون ١ : ٩٨ ح ١٢ ، و التوحيد : ١٥٢ ح ١١ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٤١٠ عن الرضا عليه السلام ، و روى معناه الصدوق في التوحيد مسندا : ١٥٢ ح ١٠ ، و ابن قتيبة في تأويل المختلف : ٢١٩ ، و المرتضى في تنزيه الأنبياء : ١٢٧ ، و ابن خالويه في الاعراب مجردا : ١٢٩ ، و جاء في شرح الحديث روايات غير هذه الرواية ، منها : ما رواه الصدوق في التوحيد : ١٠٣ ح ١٨ ، و الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٢٣ عن الباقر عليه السلام .

الصفحة ١٧٥

الحنبلي يقول : لقد خرى أبو يعلى على الحنابلة خرية لا يغسلها ماء ١ .

هذا ، و نوع ابن أبي الحديد القول بالتشبيه من قائله أحد عشر نوعا :

كونه تعالى جسما و جوهرًا ، و ذا أعضاء ، و ذا جهة ، و كونه عرضا ، و محلا لشيء آخر ، و متحدًا بغيره ، و كونه ذا أعراض و لون ، و ذا شهوة ، و نفرة ، و ذاتناه ، و كونه مرئيا ، و نقل في كل نوع أباطيل من قائله ، إلا أن في نقله الغث و السمين ، فنسب الى جمع من أجلة الشيعة أضاليل ٢ ، كما نقل ما

لا ينبغي نقله من ترهات قصص العامة ، مثل ما نقل عن قاصّ طبري : أن في القيامة يخفى الله يزيد بن معاوية تحت قوائم عرشه من فاطمة ، و يرغبها في العفو عنه بإرائته لها قدمه المجروحة من سهم نمرود و عفوّه عنه ٣ ، و نقل عن معاذ العنبري أنّ له جميع الأعضاء حتّى الفرج ٤ . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

٥

من الخطبة (٦٣) و من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْ لَهُ حَالٌ حَالًا فَيَكُونُ أَوْلًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ آخِرًا وَ يَكُونُ ظَاهِرًا قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بَاطِنًا كُلُّ مُسَمًّى بِالْوَحْدَةِ غَيْرُهُ قَلِيلٌ وَ كُلُّ عَزِيزٍ غَيْرُهُ ذَلِيلٌ وَ كُلُّ قَوِيٍّ غَيْرُهُ ضَعِيفٌ وَ كُلُّ مَالِكٍ غَيْرُهُ مَمْلُوكٌ وَ كُلُّ عَالِمٍ غَيْرُهُ مُتَعَلِّمٌ وَ كُلُّ قَادِرٍ غَيْرُهُ يَقْدِرُ وَ يَعْجُزُ وَ كُلُّ سَمِيعٍ غَيْرُهُ يَصْمُ عَنْ لَطِيفِ الْأَصْوَاتِ وَ يُصِمُّهُ كَبِيرُهَا وَ يَذْهَبُ عَنْهُ مَا بَعْدَ مِنْهَا

(١) الكامل لابن الأثير ١٠ : ٥٢ .

(٢) مقصود الشارح هشام بن الحكم و هشام بن سالم و يونس بن عبد الرحمن و محمد بن النعمان صاحب الطاق و الفضل بن شاذان ، و النسب التي نسبها اليهم ابن أبي الحديد رواها جمع من مؤلفي الشيعة و السنة ، لم يسع المقام لنقل رواياتهم .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩٥ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩٤ نقله الشارح بالمعنى .

الصفحة ١٧٦

وَ كُلُّ بَصِيرٍ غَيْرُهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الْأَلْوَانِ وَ لَطِيفِ الْأَجْسَامِ وَ كُلُّ ظَاهِرٍ غَيْرُهُ غَيْرُ بَاطِنٍ وَ كُلُّ بَاطِنٍ غَيْرُهُ غَيْرُ ظَاهِرٍ لَمْ يَخْلُقْ مَا خَلَقَهُ لِتَشْدِيدِ سُلْطَانِ وَ لَا تَخَوْفٍ مِنْ عَوَاقِبِ زَمَانٍ وَ لَا اسْتِعَانَةَ عَلَى نَدِّ مُتَأَوِّرٍ وَ لَا شَرِيكَ مُكَائِرٍ وَ لَا ضِدَّ مُنَافِرٍ وَ لَكِنْ خَلَائِقُ مَرْبُوبُونَ وَ عِبَادٌ دَاخِرُونَ لَمْ يَحْتَلْ فِي الْأَشْيَاءِ فَيَقَالَ هُوَ فِيهَا كَائِنٌ وَ لَمْ يَبْنَأْ عَنْهَا فَيَقَالَ هُوَ مِنْهَا بَائِنٌ لَمْ يُوَدِّهِ خَلْقٌ مَا ابْتَدَأَ وَ لَا تَدَبَّرَهُ مَا ذَرَأَ وَ لَا وَقَفَ بِهِ عَجْزٌ عَمَّا خَلَقَ وَ لَا وَلَجَتْ عَلَيْهِ شُبُهَةٌ فِيمَا قَضَى وَ قَدَّرَ بِلِ قَضَاءِ مُتَقَنٍّ وَ عِلْمِ مُحْكَمٍ وَ أَمْرٍ مُبْرَمٍ الْمَأْمُولُ مَعَ النِّقْمِ الْمَرْجُوعُ مَعَ النَّعْمِ « الحمد لله » حمده تعالى باعتبار خمسة عشر وصفا ، لا يوصف بواحد منها غيره تعالى :

الأول : « الذي لم يسبق له حال حالا ، فيكون أولا قبل أن يكون آخرا » و غيره تعالى لا يوصف بالأولية و الآخرية في زمان واحد ، مثل أول سلطنة سلطان و آخرها ، و أول فاكهة و آخرها ، و أمّا هو تعالى

ففي كل وقت أول و آخر ، و سئل الصادق عليه السلام عن معنى الأول و الآخر فيه تعالى ، فقال : الأول : لا عن أول قبله و لا عن بدء سبقه ، و الآخر : لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين ، و لكن قديم أول آخر لم يزل و لا يزول بلا بدء و لا نهاية ١ .

« و يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا » هو أيضا كسابقه تفريع على قوله : « لم يسبق له حال حالا » فكما أنه تعالى في حين آخريته أول ، كذلك هو في حين باطنيته ظاهر ، قال تعالى : هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكلّ

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١١٦ ح ٦ ، و الصدوق في التوحيد : ٣١٣ ح ١ ، و معاني الأخبار : ١٢ ح ١ عن ميمون اللبان عن الصادق عليه السلام .

الصفحة ١٧٧

شيء عليم ١ .

و قال الرضا عليه السلام في خبر في أسمائه تعالى : و أمّا الظاهر فليس من أجل أنه علا الأشياء بركوب فوقها و قعود عليها ، و تسنم لذراها ، و لكن ذلك لقهره و لغلبته الأشياء و قدرته عليها ، كقول الرجل : ظهرت على أعدائي ، و أظهرني الله على خصمي ، يخبر عن الفلج و الغلبة ، فهكذا ظهور الله على الأشياء . و وجه آخر أنه الظاهر لمن أراده ، و لا يخفى عليه شيء ، و أنه مدبر لكل ما برأ ، فأبى ظاهر أظهر و أوضح من الله تعالى ؟ لأنك لا تعدم صنعته حيثما توجهت ، و فيك من آثاره ما يغنيك ، و الظاهر منّا البارز بنفسه ، و المعلوم بحدّه . فقد جمعنا الاسم و لم يجمعنا المعنى .

و أمّا الباطن فليس على معنى الاستبطان للأشياء بأن يغور فيها ، و لكن ذلك منه على استبطانه للأشياء علما و حفظا و تدبيرا ، كقول القائل : أبطنته ،

يعني : خبرته ، و علمت مكتوم سرّه . و الباطن منّا الغائب في الشيء المستتر ،

فقد جمعنا الاسم و اختلف المعنى ٢ .

الثاني : « كلّ مسمّى بالوحدة غيره قليل » في وحدته ، روى الفتح بن يزيد عن الرضا عليه السلام في خبر : فالإنسان واحد في الاسم لا واحد في المعنى ، و الله تعالى واحد لا واحد غيره ، و لا اختلاف فيه و لا تفاوت ، و لا زيادة و لا نقصان ،

فأمّا الإنسان المخلوق المصنوع المؤلّف ، فمن أجزاء مختلفة و جواهر شتى ،

غير أنه بالاجتماع شيء واحد ٣ .

- (٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٢٠ ح ٢ ، و الصدوق في التوحيد : ١٨٩ ح ٢ ، و العيون ١ : ١٢٢ ح ٥٠ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٩٨ .
- (٣) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٦٢ ح ١٨ ضمن حديث طويل ، و أخرجه أيضا الكليني في الكافي ١ : ١٣٧ ح ٣ ، لكن ليس في حديث الكافي هذه القطعة .

الصفحة ١٧٨

و في خبر عن الجواد عليه السلام : فلا يقال : الله مؤتلف و لا الله قليل و لا كثير .
 و لكنه القديم في ذاته ، لأن ما سوى الواحد متجزىء ، و الله واحد لا متجزىء ، و لا متوهم بالقلّة و الكثرة ، و كل متجزىء أو متوهم بالقلّة و الكثرة فهو مخلوق دالّ على خالق له ١ .
 الثالث : « و كل عزيز غيره ذليل » . . . أبيتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعا ٢ . و العزّة في غيره تعالى و إن كان مجازيا إلا أنّها أيضا بيده ،
 فلا ينالها إلا من يشاء تعالى : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعزّ من تشاء و تدلّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ٣ .
 كما أنّه تعالى جعلها بمعنى آخر للمنسوبين إليه . . . و لله العزّة و لرسوله و للمؤمنين و لكن المنافقين لا يعلمون ٤ و كلتاها و إن كانت غير حقيقية ، إلا أنّ الأولى ظاهرية و الثانية باطنية .
 الرابع : « و كل قوي غيره ضعيف » كيف لا يكون غيره ضعيفا ، و الإنسان الذي سخر له ما في السماوات و الأرض ، و قال تعالى فيه : و لقد كرّمنا بني آدم و حملناهم في البرّ و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ٥ في غاية الضعف ، فقال تعالى : . . . و خلق الإنسان ضعيفا ٦ ، و قال عليه السلام : « مسكين ابن آدم مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ

- (١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١١٦ ح ٧ ، و الصدوق في التوحيد : ١٩٣ ح ٧ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٤٤٢ .
- (٢) النساء : ١٣٩ .
- (٣) آل عمران : ٢٦ .
- (٤) المنافقون : ٨ .
- (٥) الإسراء : ٧٠ .
- (٦) النساء : ٢٨ .

العمل ، تؤلمه البقعة و تقتله الشرقة ، و تنته العرقة » ١ .
 الخامس : « و كلّ مالك غيره مملوك » هو تعالى . . . له ملك السماوات و الأرض . . . ٢ ، و غيره . . .
 . و لا يملكون لأنفسهم ضراً و لا نفعاً و لا يملكون موتاً و لا حياة و لا نشوراً ٣ ، . . . و ما يملكون من
 قطمير ٤ .

قال الجوهري : القطمير الفوفة التي في النواة ، و هي القشرة الرقيقة ،
 و يقال : هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة ، تنبت منها النخلة ٥ .
 السادس : « و كلّ عالم غيره متعلّم » و أمّا هو تعالى فعلمه من صفات ذاته .
 السابع : « و كلّ قادر غيره يقدر » على أشياء معدودة « و يعجز » عن أشياء غير محصورة ، و أمّا هو
 تعالى فقادر على كلّ أمر غير مستحيل ، و أمّا المستحيل كإدخال الدنيا في بيضة مع ابقائهما على حالهما ،
 كما اقترحه جاهل معاند ، فخارج عن موضوع القدرة ، مع أنّه تعالى فعل نظيره .
 قال الديصاني لهشام بن الحكم : ألك ربّ ؟ فقال : بلى . قال : أقادر هو ؟
 قال : نعم ، قادر قاهر . قال : يقدر أن يدخل الدنيا كلّها البيضة لا تكبر البيضة ، و لا تصغر الدنيا ؟ قال
 هشام : النظر . فقال له : قد أنظرتك حولا . ثمّ خرج عنه ،
 فركب هشام الى الصادق عليه السّلام فاستأذن عليه ، فأذن له ، فقال له : يابن رسول الله أتاني عبد الله
 الديصاني بمسألة ليس المعول فيها إلاّ على الله و عليك ، فقال له أبو عبد الله عليه السّلام : عن ماذا سألك
 ؟ فقال : قال لي : كيت و كيت . فقال أبو عبد الله عليه السّلام : يا هشام كم حواسك ؟ قال : خمس . قال :
 أيها أصغر ؟ قال : الناظر .

(١) نهج البلاغة ٤ : ٩٨ الحكمة (٤١٩) .

(٢) الفرقان : ٢ .

(٣) الفرقان : ٣ .

(٤) فاطر : ١٣ .

(٥) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٧٩٧ مادة (قطمر) .

الصفحة ١٨٠

قال : و كم قدر الناظر ؟ قال : مثل العدسة أو أقلّ منها . فقال عليه السّلام له : يا هشام فانظر أمامك و
 فوقك و اخبرني بما ترى . فقال : أرى سماء و أرضاً و دوراً و قصوراً و براري و جبالا و أنهاراً . فقال
 له أبو عبد الله عليه السّلام : إنّ الذي قدر أن يدخل الذي تراه العدسة أو أقلّ منها قادر أن يدخل الدنيا كلّها

البيضة ، لا تصغر الدنيا و لا تكبر البيضة . فأكبّ هشام عليه ، و قبل يديه و رأسه و رجليه و قال :
حسبي يابن رسول الله ، و رجع إلى الديصاني فأجابه . فقال : ليس هذا من عندك ١ .
الثامن : « و كلّ سميع غيره يصمّ » بالفتح ، كناية عن عدم السّماع « عن لطيف الأصوات و يصمّه »
بالضمّ « كبيرها » و أمّا هو تعالى فيسمع السرّ و أخفى ، و هو ما خطر بالقلب ٢ ، « و يذهب عنه ما بعد
منها » بخلافه تعالى ، فالقرب و البعد عنده سواء ، بل ليس عنده قرب و لا بعد .
التاسع : « و كلّ بصير غيره يعمى » كناية عن عدم الرؤية « عن خفيّ الألوان و لطيف الأجسام »
الظاهر سقوط ما يؤدّي معنى قوله عليه السّلام في السابق « و يذهب عنه ما بعد منها » فكما يذهب عن كلّ
سميع غيره تعالى ما بعد من الأصوات ، كذلك يذهب عن كلّ بصير غيره جلّ و علا ما بعد من الألوان و
لو كانت واضحة ، و الأجسام و لو كانت عظيمة ، فإنّ السّامعة و الباصرة منّا محدودتان ، و غاية ما قالوا
في القصص التاريخيّة : إنّ زرقاء اليمامة كانت تبصر الراكب من مسيرة ثلاثة أيّام ، و أنّها قالت لقومها
جديس لما بعث ملك

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٧٩ ح ٤ ، و الصدوق في التوحيد ١٢٢ ح ١ ، و حديث البيضة جاء
بألفاظ أخرى ، منها :
سؤال ابليس عيسى عليه السّلام أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٢٧ ح ٥ ، و منها سؤال رجل عليّ عليه
السّلام أخرجه بروايتين الصدوق في التوحيد : ١٣٠ ح ٩ ، ١٠ ، و سؤال رجل الرضا عليه السّلام أخرجه
الصدوق في التوحيد : ١٣٠ ح ١١ .
(٢) قول الشارح إشارة الى قوله تعالى : فانه يعلم السر و أخفى طه : ٧ ، و تفسيره بما خطر بالقلب
مروي موقوفا عن علي بن ابراهيم و قتادة و الحسن البصري و عكرمة ، يجيء تخريجه في العنوان (١٥)
من هذا الفصل .

الصفحة ١٨١

اليمن اليهم لأخذ ثأر طسم منهم ، و كانوا خافوا أن تبصرهم فتندروهم فيستعدّوا و لا يقدرُوا عليهم ، فقطعوا
الأشجار و جعل كلّ رجل منهم بين يديه شجرة : أرى أشجارا تقبل اليكم ، و أرى فيها رجلا معه كتف
يأكلها أو نعل يخصفها ، ففندوها ، فصبّحوهم على غرّة و أبادوهم ١ .
العاشر : « و كلّ ظاهر غيره غير باطن ، و كلّ باطن غيره غير ظاهر » لأنّ الظاهر و الباطن في غيره
تعالى ضدّان لا يجتمعان بخلافهما فيه جلّ و علا ، كما عرفت معناهما في شرح قوله عليه السّلام « و
يكون ظاهرا قبل أن يكون باطنا » ٢ .

الحادي عشر : « لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان » . . . و ما خلقت الجنّ و الإنس إلا ليعبدون . ما أريد من رزق و ما أريد أن يطعمون ٣ « و لا تخوف من عواقب زمان » كالمولوك في أفعالهم . و في (تاريخ الطبري) : أنّ المنصور بنى الهاشمية قبالة مدينة ابن هبيرة التي كانت إلى جانب الكوفة ، و بني أيضا الرصافة بظهر الكوفة ، فلما ثارت الراوندية في هاشميتها كره سكنها ، لاضطراب من اضطرب أمره عليه من الراوندية مع قرب جواره من الكوفة ، و لم يأمن أهلها على نفسه ، فأراد أن يبعدهم من جوارهم ، فذكر أنه خرج بنفسه يرتاد موضعا يتخذ مسكنا لنفسه و جنده ، فبدأ فأنحدر إلى جرجرايا ، ثم صار إلى بغداد ، ثم مضى إلى الموصل ، ثم عاد إلى بغداد ، فقال : هذا موضع معسكر صالح ، هذه دجلة ليس بيننا و بين الصين شيء ، يأتيها فيها كل ما في البحر ، و تأتينا الميرة من الجزيرة و أرمينية و ما حول ذلك . و هذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام

(١) نقل القصة بطولها الحموي في معجم البلدان ٥ : ٤٤٦ .

(٢) هي الفقرة الثالثة من هذا العنوان .

(٣) الذاريات : ٥٦ ٥٧ .

الصفحة ١٨٢

و الرقة و ما حول ذلك ، فنزل و ضرب عسكره على الصراط و خطّ المدينة ، و وكلّ بكلّ ربع قائدا ١ .
« و لا استعانة على ندّ » بالكسر : المثل و النظر .
« مثاور » أي : موائب .
« و لا شريك مكائر » كأهل الدنيا اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب و لهو و زينة و تفاخر بينكم و تكائر في الأموال و الأولاد . . . ٢ .
و في (المروج) : كتب ملك الصين إلى أنو شيروان : من فغفور ملك الصين صاحب قصر الدرّ و الجواهر الذي يجري في قصره نهران يسقيان العود و الكافور الذي توجد رائحته على فرسخين ، و الذي تخدمه بنات ألف ملك ، و الذي في مربطه ألف فيل أبيض إلى أخيه كسرى أنو شيروان ٣ .
و فيه : و كتب إليه ملك الهند : من ملك الهند و عظيم أراكنة المشرق ،
و صاحب قصر الذهب ، و أبواب الياقوت و الدرّ إلى أخيه ملك فارس صاحب التاج و الراية كسرى أنو شيروان ٤ .

« و لا ضدّ منافر » كالسلطين في استحكاماتهم .

و في (تاريخ الطبري) : قيل للمنصور في ما قيل له في محاسن موضع بغداد ليتّخذ حصنا : و أنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر و أخرجت القناطر لم يصل إليك عدوك . . .

و التدبير في المدن أن تتخذ لها الأسوار و الخنادق و الحصون ، و دجلة و الفرات

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٣٤ سنة (١٤٥) ، و نقلها الشارح بتلخيص .

(٢) الحديد : ٢٠ .

(٣) مروج الذهب ١ : ٢٩٢ .

(٤) مروج الذهب ١ : ٢٩٣ .

الصفحة ١٨٣

خنادق لمدينتك ١ .

« و لكن خلائق مربوبون ، و عباد داخرون » بالذال المهملة ، أي : صاغرون ذليلون . . . إن يشأ يذهبكم

و يأت بخلق جديد ٢ ، فكيف يعمل عملا لتشديد سلطان أو سائر ما ذكر ؟

الثاني عشر : « لم يحلل في الأشياء فيقال : هو فيها كائن ، و لم ينأ » بفتح الهمزة ، أي : لم يبعد و لم

ينفصل « عنها ، فيقال : هو منها بائن » مثلا لا يقال : إنه تعالى حلّ في السماء ، كما لا يقال : إنه عزّ و

جلّ نأى عن الأرض ، بل نسبتها إليه تعالى على السواء و هو الذي في السماء إليه و في الأرض إليه . . .

٣ .

هذا ، و (توحيد الصدوق) روى الثاني عشر قبل الحادي عشر ٤ ،

و الظاهر أصحّيته ، فإنّ المناسب أن يكون قوله : « لم يحلل . . . » بعد قوله « و كلّ باطن غيره غير

ظاهر » ، كما أنّ المناسب أن يكون الثالث عشر « لم يؤده . . . » بعد قوله « لم يخلق . . . » لكونهما

من واد واحد .

كما أنّه زاد بعد قوله « بائن » : « و لم يخل منها فيقال له : أين ، لكنّه سبحانه أحاط بها علمه ، و أتقنها

صنعه ، و أحصاها حفظه » فالظاهر وقوع سقط في النهج لكون الزائد من موضوعه كتنظيم و تأخير .

الثالث عشر : « لم يؤده » أي : لم يثقله ، من آده الحمل أثقله ، أو من أدني هذا الأمر بلغ منّي المجهود .

« خلق ما ابتداء » . . . وسع كرسيه السماوات و الأرض و لا يؤوده حفظهما و هو العليّ العظيم ٥ . « و

لا تدبير ما ذرأ » في (الصحاح) :

(١) تاريخ الطبري ٦ : ٢٣٦ سنة (١٤٥) .

(٢) ابراهيم : ١٩ .

(٣) الزخرف : ٨٤ .

(٤) التوحيد للصدوق : ٤٢ ، ٤٣ ح ٣ .

(٥) البقرة : ٢٥٥ .

الصفحة ١٨٤

حكى بعضهم ذرات الأرض ، أي : بذرتها ، و زرع ذريّ ، على فعيل ، و أنشد :

شققت القلب ثم ذرات فيه

هواك فليم فالتأم الفطور

١ إنّ الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . . . ، ٢ . . .

فقال لها و للأرض انتنيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في

كلّ سماء أمرها و زيّننا السماء الدنيا بمصابيح و حفظا ذلك تقدير العزيز العليم ٣ .

« و لا وقف به عجز عمّا خلق » هكذا في النسخ ٤ ، و الظاهر وقوع تصحيف ،

فقولك وقف بي الأمر الفلاني عن الشيء الفلاني إنّما يقال اذا لم تفعله ، فلا بدّ أنّ الأصل (و لا وقف به

عجز في ما خلق) أو (و لا وقف به عجز عمّا لم يخلق) .

و يشهد له رواية (التوحيد) للخطبة : و لا من عجز ، و لا من فترة ، بما خلق اكتفى ، علم ما خلق و

خلق ما علم ٥ .

الرابع عشر : « و لا ولجت عليه شبهة في ما قضى و قدر ، بل قضاء منتقن ، و علم محكم ، و أمر مبرم

« ، و في (التوحيد) : لا بالتفكّر و لا بعلم حادث أصاب ما خلق ،

و لا شبهة دخلت عليه في ما لم يخلق ، لكن قضاء مبرم . . . ٦ .

قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسبح بحمدك و نقدر لك قال إنّني أعلم ما لا تعلمون .

. . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنّني أعلم غيب السماوات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما

(١) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٥١ مادة (ذرا) .

(٢) فاطر : ٤١ .

(٣) فصلت : ١٢ ١١ .

(٤) كذا في نهج البلاغة ١ : ١١٣ ، و شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٧١ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ١٦٨ .

(٥) التوحيد للصدوق : ٤٣ ح ٣ .

(٦) المصدر نفسه .

الصفحة ١٨٥

كنتم تكتمون ١ .

الخامس عشر « المأمول مع النقم و المرجو مع النعم » هكذا في (المصرية) ،
و الصواب : (و المرهوب مع النعم) كما في (ابن ميثم ، و غيره) ٢ .
يدل على كونه تعالى مأمولا مع النقم ، و مرهوبا مع النعم ما ورد أنه تعالى قال لداود عليه السلام : بشر
المذنبين ، و انذر الصديقين .

قال داود : كيف أبشر المذنبين ، و انذر الصديقين ؟ قال : يا داود بشر المذنبين أنني أقبل التوبة و أعفو عن
الذنب ، و انذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم ، فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك ٣ .
هذا ، و نقل ابن أبي الحديد ٤ هنا آيات و أبياتا لا ربط لها بالمقام ، كقوله تعالى . . . فعسى أن تكرهوا
شيئا و يجعل الله فيه خيرا كثيرا ٥ ، و كقول الشاعر :

من عاش لاقى ما يسوء

من الأنوار و ما يسرّ

٦

من الخطبة (٨٣) و من خطبة له عليه السلام :
وَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْأَوَّلُ لَا شَيْءَ قَبْلَهُ وَ الْآخِرُ لَا غَايَةَ لَهُ لَا تَقَعُ الْأَوْهَامُ لَهُ عَلَى
صِفَةٍ وَ لَا تُعْقَدُ الْقُلُوبُ مِنْهُ عَلَى كَيْفِيَّةٍ وَ لَا تَنَالُهُ التَّجَرُّنَةُ وَ النَّبْعِيضُ وَ لَا تُحِيطُ بِهِ الْأَبْصَارُ وَ الْقُلُوبُ

(١) البقرة : ٣٠ ، ٣٣ .

(٢) في شرح ابن ميثم ٢ : ١٦٨ « المرجو » أيضا ، لكن في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٧١ «
المرهوب » ، و ليس قبله واو .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٢ : ٣١٤ ح ٨ في ذيل حديث عن الصادق عليه السلام عن النبي صلى
الله عليه و آله .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٤٧٥ .

(٥) النساء : ١٩ .

الصفحة ١٨٦

« و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له » روى (ثواب الأعمال) عن النبي صلى الله عليه و آله في خبر يقول تعالى : فمن لقيني منكم يشهد ألا إله إلا أنا ، و أن محمداً عبدي و رسولي أدخلته الجنة برحمتي . ١

« الأول لا شيء قبله ، و الآخر لا غاية له » ، و في الخطبة (٩٩) : « الأول قبل كل أول ، و الآخر بعد كل آخر ، بأوليته و جب أن لا أول له ، و بأخريته و جب أن لا آخر له » ٢ ، و في الخطبة (٩٤) : « الحمد لله الأول فلا شيء قبله ، و الآخر فلا شيء بعده ، و الظاهر فلا شيء فوقه ، و الباطن فلا شيء دونه » ٣ . و مرّ في العنوان (١) من هذا الفصل .

« لا تقع الأوهام له على صفة » في حديث الزنديق مع الصادق عليه السلام : قال الزنديق : فإنما لم نجد موهوماً إلا مخلوقاً . قال أبو عبد الله عليه السلام : لو كان ذلك كما تقول لكان التوحيد عناً مرتفعاً ، لأننا لم نكف أن نعتقد غير موهوم ، و لكننا نقول : كل موهوم بالحواس مدرك ، فما تجده الحواس و تمتله فهو مخلوق ، و لا بدّ من إثبات صانع الأشياء خارج من الجهتين المذمومتين : إحداهما : النفي ، إذا كان النفي هو الإبطال و العدم ، و الجهة الثانية : التشبيه ، إذا كان التشبيه من صفة المخلوق الظاهر التركيب و التأليف ، فلم يكن بدّ من إثبات الصانع لوجود المصنوعين و الاضطراب منهم إليه ٤ . « و لا تقعد » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و لا تعقد) بتقديم العين ، كما في (ابن ميثم) و غيره ٥ .

-
- (١) أخرجه الصدوق في ثواب الأعمال : ٢٥ ح ٢ .
 (٢) نهج البلاغة ١ : ١٩٤ الخطبة (٩٩) .
 (٣) نهج البلاغة ١ : ١٨٦ الخطبة (٩٤) .
 (٤) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٢٤٥ ح ١ ، و الكليني في الكافي ١ : ٨٠ ح ٥ ، لكن ليس في حديث الكافي هذه القطعة .
 (٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٢٠ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٢٧٤ « تقعد » أيضا .

الصفحة ١٨٧

و من الغريب أن محشّي (المصرية) قرّر الغلط ، و قال : إنه مجاز عن استقرار حكمها ١ . « القلوب منه على كيفية » هو ردّ على المشبهة حيث قالوا : كل ما لم تعقد القلوب منه على كيفية ، و لم ترجع فيه إلى إثبات هيئة لم نعقل منه شيئاً . فردّ عليه السلام عليهم : أنه واحد بلا كيفية ، و أن القلوب تعرفه بلا إحاطة . و قال الصادق عليه السلام : من نظر في الله : كيف هو هلك ٢ .

« و لا تتاله التجزئة و التبعض » و ما ورد من مثل . . . يد الله فوق أيديهم . . . ٣ و . . . بل يذاه مبسوطان ينفق كيف يشاء . . . ٤ فكنايات و استعارات .

« و لا تحيط به الأبصار و القلوب » قال الصادق عليه السلام : يا بن آدم لو أكل قلبك طائر لم يشبعه ، و بصرك لو وضع عليه خرق إبرة لغطاه ، تريد أن تعرف بهما ملكوت السماوات و الأرض إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلق من خلق الله ،

فإن قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول ٥ .

هذا ، و يناسب كلامه عليه السلام في هذه الخطبة قول الهادي عليه السلام : إلهي تاهت أوهام المتوهمين و قصر طرف الطارفين ، و تلاشت أوصاف الواصفين ،

و اضمحلت أقاويل المبطلين عن الدرك لعجيب شأنك ، أو الوقوع بالبلوغ إلى علوك ، فأنت في المكان الذي لا يتناهى ، و لم تقع عليك عيون بإشارة و لا عبارة ،

هيهات ثم هيهات ، يا أولي يا وحداني يا فرداني ، شمخت في العلو بعز الكبر ،

-
- (١) المحشي هو الشيخ محمد عبده ، كذا قال في ذيل نهج البلاغة ١ : ١٤٨ .
- (٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٣ ح ٥ ، و البرقي في المحاسن : ٢٣٧ ح ٢٠٨ .
- (٣) الفتح : ١٠ .
- (٤) المائدة : ٦٤ .
- (٥) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٣ ح ٨ ، و الصدوق في التوحيد : ٤٥٥ ح ٥ .

الصفحة ١٨٨

و ارتفعت من وراء كل غورة و نهاية جبروت الفخر ١ .

٧

من الخطبة (٨٨) و من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ وَ الْخَالِقِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ الَّذِي لَمْ يَزَلْ قَائِمًا دَائِمًا إِذْ لَا سَمَاءَ ذَاتُ أَبْرَاجٍ وَ لَا حُجُبَ ذَاتُ إِرْتَاجٍ وَ لَا لَيْلٌ دَاجٍ وَ لَا بَحْرٌ سَاجٍ وَ لَا جَبَلٌ ذُو فَجَاجٍ وَ لَا فَجٌّ ذُو اعْوِجَاجٍ وَ لَا أَرْضٌ ذَاتُ مِهَادٍ وَ لَا خَلْقٌ ذُو اعْتِمَادٍ ذَلِكَ مُبْتَدِعُ الْخَلْقِ وَ وَارِثُهُ وَ إِلَهُ الْخَلْقِ وَ رَازِقُهُ وَ الشَّمْسُ وَ الْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ وَ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ قَسَمَ أَرْزَاقَهُمْ وَ أَحْصَى آثَارَهُمْ وَ أَعْمَلَهُمْ وَ عَدَدَ أَنْفُسِهِمْ وَ خَائِنَةَ أَعْيُنِهِمْ وَ مَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ مِنَ الضَّمِيرِ وَ مُسْتَفْرَهُمْ وَ مُسْتَوْدَعَهُمْ مِنَ الْأَرْحَامِ وَ الظُّهُورِ إِلَى أَنْ تَنْتَاهِيَ بِهِمُ الْغَايَاتُ هُوَ الَّذِي اسْتَدَّتْ نِقْمَتُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ وَ اتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ لَأَوْلِيَائِهِ فِي شِدَّةِ نِقْمَتِهِ قَاهِرٌ مَنْ

عَازَّةٌ وَ مَدْمَرٌ مِّنْ شَاقَّةٍ وَ مَذَلٌ مِّنْ نَّوَاهٍ وَ غَالِبٌ مِّنْ عَادَاهُ مَن تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَّاهُ وَ مَن سَأَلَهُ أُعْطَاهُ وَ مَن أَقْرَضَهُ قَضَاهُ وَ مَن شَكَرَهُ جَزَّاهُ « الحمد لله » حمده على أوصاف أوجبت حمده :

الأول : « المعروف من غير رؤية » الابصار ، بل من رؤية القلوب ، و أملى الرضا عليه السلام في (التوحيد) : احتجب بغير حجاب محجوب ، و استتر بغير ستر مستور ، عرف بغير رؤية ، و وصف بغير صورة ، و نعت بغير جسم ، لا إله إلاّ

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٦٦ ح ١٩ .

الصفحة ١٨٩

الله الكبير المتعال ١ .
 الثاني : « و الخالق من غير رؤية » بخلاف باقي الصانعين .
 و الثالث : « الذي لم يزل قائماً دائماً » قبل أن يكون خلق .
 « إذ لا سماء ذات أبراج » قال في (اللسان) : إن الأبراج جمع البرج كالبروج ٢ .
 قال تعالى : و السماء ذات البروج ٣ ، تبارك الذي جعل في السماء بروجاً و جعل فيها سراجاً و قمراً منيراً ٤ ، و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زينناها للنّاظرين و حفظناها من كلّ شيطان رجيم . إلاّ من استترق السمع فأتبعه شهاب مبين ٥ .
 و البروج الاثنا عشر معروفة ، و عن الفراء : اختلفوا في البروج فقالوا : هي النجوم . و قالوا : هي البروج المعروفة اثنا عشر برجاً . و قالوا : هي القصور في السماء . و الله أعلم بما أراد ٦ .
 « و لا حجب » و في خبر زيد بن وهب : سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن الحجب . فقال : أول الحجب سبعة ، غلظ كلّ حجاب مسيرة خمسمائة عام ، بين كلّ حجابين منها مسيرة خمسمائة عام ، و الحجاب الثالث سبعون حجاباً ، بين كلّ حجابين منها مسيرة خمسمائة عام ، و طوله خمسمائة عام ، حبة كلّ حجاب منها سبعون ألف ملك قوة كلّ ملك منهم قوة الثقلين ، منها ظلمة ، و منها نور ، و منها نار ، و منها دخان ، و منها سحب ، و منها برق ، و منها مطر ،

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٩٨ ح ٥ ، و العلل ١ : ٩ ح ٣ .

(٢) لسان العرب ٢ : ٢١٢ مادة (برج) .

(٣) البروج : ١ .

(٤) الفرقان : ٦١ .

(٥) الحجر : ١٦ ١٨ .

(٦) نقله عن الفراء لسان العرب ٢ : ٢١٢ ، مادة (برج) .

الصفحة ١٩٠

و منها رعد ، و منها ضوء ، و منها رمل ، و منها جبل ، و منها عجاج ، و منها ماء ،
و منها أنهار ، و هي حجب مختلفة ، غلظ كل حجاب مسيرة سبعين ألف عام ١ .
« ذات إرتاج » بالكسر بمعنى : الاغلاق .

« و لا ليل داج » في معنى قوله تعالى : و اللّيل إذا يغشى ٢ . قال الأصمعي : دجا الليل إنّما هو ألبس كلّ شيء ، و ليس هو من الظلمة ، و منه قولهم : « دجا الإسلام » أي : قوي ، و ألبس كلّ شيء ٣ .
و ممّا ذكرنا يظهر لك ما في قول الشّراح « ليل داج » أي : مظلم ٤ .
« و لا بحر ساج » أي : ساكن ، قال الأعشى :

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمّكم

و بحرك ساج لا يوارى الدعامصا

٥ و منه أيضا و اللّيل اذا سجي ٦ أي : بلغ النهاية في الظلمة فسكن .

« و لا جبل ذو فجاج » فجاج : جمع فج ، قال تعالى : . . . من كلّ فج عميق ٧ .

و في (اللسان) : قال أبو الهيثم : الفجّ الطريق الواسع في الجبل ، و كلّ طريق بعد فهو فجّ ٨ .

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٢٧٨ ح ٣ ، و الخصال ٢ : ٤٠١ ح ١٠٩ ضمن حديث .

(٢) اللّيل : ١ .

(٣) هذا قول بعض أهل اللغة ، قال به ابن الاثير في النهاية ٢ : ١٠٣ مادة (دجى) ، و نقله ابن

منظور عن مجهول في لسان العرب ١٤ : ٢٤٩ مادة (دجى) ، و لم أر من نسبه الى الاصمعي ، بل

حكى ابن منظور في لسان العرب ١٤ : ٢٥٠ عن الأصمعي أنّ (دجى الليل) بمعنى : هذا و سكن ، و

ذكر شاهده على قوله .

(٤) كذا قال ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ١٣٧ ، و المجلسي في شرح الخطبة في بحار الأنوار ٥٧ :

٢٦ ، و الخوئي في شرحه ٣ : ٦٨ ، و النقل بالمعنى .

(٥) أورده لسان العرب ١٤ : ٣٧١ مادة (سجا) .

(٦) الضحى : ٢ .

(٧) الحج : ٢٧ .

(٨) لسان العرب ٢ : ٣٣٩ مادة (فجج) .

الصفحة ١٩١

و قول بعضهم : الفجّ الطريق الواسع بين جبليين ١ يأباه قوله عليه السّلام هذا ، فجعل عليه السّلام لجبل واحد فجاجا ، بل الأصل فيه الطريق الواسع ، و لو لم يكن في جبل ، قال تعالى : و الله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ٢ . و كون الجبل ذا فجّ لا يستلزم أن يكون كلّ فجّ في الجبل ، فهو نظير أن تقول : جبل ذو عيون ، مع حصول العين في غير الجبل . « و لا فجّ ذو اعوجاج » هو أيضا لا يستلزم أن يكون الفجّ معوجّا ، و إنّما هو وصف غالبي كسابقه ، فإنّ الأغلب في الجبال أن تكون ذات فجاج ، كما أنّ الأغلب في الفجاج أن تكون ذات اعوجاج . « و لا أرض ذات مهاد » ألم نجعل الأرض مهادا ٣ ، و الأرض فرشناها فنعم الماهدون ٤ ، الذي جعل لكم الأرض مهادا و جعل لكم فيها سبلا . . . ٥ ، الذي جعل لكم الأرض مهادا و سلك لكم فيها سبلا . . . ٦ .

هذا ، و نقل (الهيئة و الإسلام) ٧ عن بعضهم الاستدلال بالآية الأخيرة على حركة الأرض لكون المهدي يتحرك بلا اضطراب . قلت : و مثلها الآية الثالثة .

« و لا خلق ذو اعتماد » قال ابن أبي الحديد : أي و لا مخلوق يسعى برجلين فيعتمد عليهما ، أو يطير بجناحيه فيعتمد عليهما ، و نحو ذلك ، و الاعتماد هنا

(١) هو مختار ابن منظور في لسان العرب ٢ : ٣٣٨ مادة (فجج) ، و غيره .

(٢) نوح : ٢٠ ١٩ .

(٣) النبأ : ٦ .

(٤) الذاريات : ٤٨ .

(٥) الزخرف : ١٠ .

(٦) طه : ٥٣ .

(٧) الهيئة و الإسلام ١ : ٦٨ .

الصفحة ١٩٢

البطش و التصرف ١ .

قلت : بل الظاهر أنّ المراد أنّه لم يكن مخلوقا من مخلوقاته الحيّة التي لها قصد في مآربهم و حوائجهم . يقال : اعتمد فلان فلانا في حاجته إذا قصده ،

و منه قتل العمدة ، أي : قتل عن قصد ، و قال خفاف بن ندبة :

و إن تك خيلي قد أصيب صميمها

فعمدا على عين تيممت مالكا

٢ « و الشمس و القمر دائبان » ٣ أي : جادان ، من دأب فلان ، أي : جدّ و تعب .

و الأصل في كلامه عليه السّلام قوله تعالى : و سخرّ لكم الشمس و القمر دائبين . . . ٤ .

« في مرضاته » حيث إنّهما مسخرّان له فلا يقدران خلافه ، قال تعالى :

و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . و القمر قدّرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم ٥ .

و قال الصادق عليه السّلام للزّنديق المصريّ : يلجان فلا يشتبهان ، و يرجعان قد اضطرّا ، ليس لهما مكان

إلاّ مكانهما ، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان ؟ و إن كانا غير مضطريّن فلم لا يصير اللّيل

نهارا و النهار ليلا ؟

اضطرّا و الله يا أبا أهل مصر الى دوامهما ، و الذي اضطرارهما أحكم منهما و أكبر . فقال الزّنديق :

صدقت ٦ .

« بيليان » أي يجعلان باليا .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٧ .

(٢) أورده لسان العرب ٣ : ٣٠٢ مادة (عمد) .

(٣) لم يتعرّض الشارح لشرح فقرتين ، هما : « ذلك مبتدع الخلق و وارثه » ، « و إله الخلق و رازقه

» .

(٤) ابراهيم : ٣٣ .

(٥) يس : ٣٨ ٣٩ .

(٦) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٧٣ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ٢٩٥ ح ٤ ، و رواه الطبرسي

في الاحتجاج ٢ : ٣٣٤ .

الصفحة ١٩٣

« كلّ جديد » قال أبو النّجم :

طير عنها قنزا من قنزع

مرّ اللّيليّ أبطنيّ و أسرع

أفناه قيل لله للشمس اطلعي

حتّى إذا داراك أفق فارجي

١ « و يقربان كلّ بعيد » قال الصّلتان العبديّ :

أشباب الصغير و أفنى الكبير

.

إذا هرمت ليلة يومها

أتى بعد ذلك يوم فتى

٢ « قسم أرزاقهم ، و أحصى آثارهم ، و أعمالهم » قالوا : مأخوذ من قوله تعالى :

نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا . . . ٣ ، و قوله تعالى :

و نكتب ما قدموا و آثارهم . . . ٤ .

قلت : و من قوله عزّ و جلّ : فالمقسّمات أمرا ٥ ، و كلّ صغير و كبير مستطر ٦ ، ما يلفظ من قول إلّا

لديه رقيب عتيد ٧ و و إنّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ٨ .

« و عدد أنفاسهم » في الخبر : أنّ المراد من قوله تعالى : . . . إنّما نعدّ لهم عدّا ٩ عدّ الله تعالى لعدد

أنفاس عبّيده لا لسنيّهم ، فإنّ سنيّهم يعدّها

(١) نقله السيوطي في شواهد المغني ٢ : ٥٤٥ .

(٢) نقله التفتازاني في المطول : ٦١ ، أحوال الاسناد الخبري بلفظ :

أشباب الصغير و أفنى الكبير

ذكر الغداة و مرّ العشي

(٣) الزخرف : ٣٢ .

(٤) يس : ١٢ .

(٥) الذاريات : ٤ .

(٦) القمر : ٥٣ .

(٧) ق : ١٨ .

(٨) الانفطار : ١٠ ١٢ .

(٩) مريم : ٨٤ .

الصفحة ١٩٤

أبواهم أيضا ١ .

« و خائنة أعينهم ، و ما تخفي صدورهم من الضمير » قال الله تعالى : يعلم خائنة الأعين و ما تخفي

الصدور ٢ .

« و مستقرّهم و مستودعهم من الأرحام و الظهور إلى أن تنتاهى بهم الغايات » و هو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقرّ و مستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ٣ ، و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرّها و مستودعها كل في كتاب مبين ٤ .

و عن الحسن : الإنسان مستقرّ في القبر و مستودع في الدنيا ٥ .

و قال سليمان العدوي :

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا

فالناس مفجوع به و مفجع

مستودع أو مستقرّ مدخلا

فالمستقرّ يزوره المستودع

٦ و الظاهر أنّ كلامه عليه السلام ناظر إلى قوله تعالى : و لقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقه فخلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميئون . ثم إنكم يوم

(١) أخرج هذا المعنى عبد بن حميد في مسنده عنه الدر المنثور ٤ : ٢٨٤ عن الباقر عليه السلام ، و أخرجه علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٥٣ ، و الكليني في الكافي ٣ : ٢٥٩ ح ٣٣ عن الصادق عليه السلام ، و أخرجه ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم ، و عنهما الدر المنثور ٤ : ٢٨٤ عن ابن عباس ، و جاء أيضا عنه في تنوير المقباس ٣ : ٢١٨ .

(٢) غافر : ١٩ .

(٣) الأنعام : ٩٨ .

(٤) هود : ٦ .

(٥) أخرجه ابو الشيخ عنه الدر المنثور ٣ : ٣٦ عن الحسن و قتادة ، و جاء في المصدر أقوال أخرى في الآية .

(٦) أورده مجمع البيان ٤ : ٣٤٠ .

الصفحة ١٩٥

القيامة تبعثون ١ .

« هو الذي اشتدّت نعمته على أعدائه في سعة رحمته ، و اتسعت رحمته لأوليائه في شدة نعمته » بخلاف الملوك ، فلا تجتمع فيهم شدة النعمة و سعة الرحمة في وقت واحد ، و في (دعاء الافتتاح) : أيقنت أنّك أرحم الراحمين في موضع العفو و الرحمة ، و أشدّ المعاقبين في موضع النكال و النعمة ٢ .

« قاهر من عازّه » أي : غالبه ، بمعنى : أراد الغلبة عليه ، و قال فرعون يا أيّها الملاء ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعليّ أطلع الى إله موسى و إنّي لأظنّه من الكاذبين . و استكبر هو و جنوده في الأرض بغير الحقّ و ظنّوا أنّهم اليينا لا يرجعون . فأخذناه و جنوده فنبدناهم في اليمّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ٣ .

« و مدلّ من ناواه » أي : عاداه ، قال الجوهرى : و أصله الهمزة ، لأنّه من النوء ، و هو النهوض ٤ .

قال تعالى : . . . و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ فأخذتهم فكيف كان عقاب ٥ ، . . . فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا و منهم من أخذته الصيحة و منهم من خسفنا به الأرض و منهم من أغرقنا . . . ٦ . « و غالب من عاداه » قال تعالى : . . . و الله غالب على أمره و لكنّ أكثر الناس

(١) المؤمنون : ١٢ ١٦ .

(٢) نقله ضمن الدعاء الطوسي في مصباح المتهدد : ٥٢٠ ، و الكفعمي في البلد الأمين : ١٩٣ .

(٣) القصص : ٤٠ ٣٨ ، لم يتعرض الشارح لشرح فقرة : « و مدمّر من شاقّه » .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٥١٧ مادة (نوى) .

(٥) غافر : ٥ .

(٦) العنكبوت : ٤٠ .

الصفحة ١٩٦

لا يعلمون ١ ، و قال الشاعر في قيام قريش ، و كانوا يكتون عنهم بسخينة على رسوله صلّى الله عليه و آله :

زعمت سخينة أن ستغلب ربّها

و ليغلبنّ مغالب الغلاب

٢ « و من توكلّ عليه كفاه » . . . و من يتوكّل على الله فهو حسبه . . . ٣ ، و قد كفى تعالى من

المتوكلين عليه خليله ابراهيم عليه السّلام ، قال تعالى : قالوا حرّقوه و انصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كوني بردا و سلاما على ابراهيم . و أرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ٤ .

و كفى حبيبه محمّدا صلّى الله عليه و آله ، قال تعالى له : فاصدع بما تؤمر و اعرض عن المشركين . إنّنا

كفيناك المستهزئين . . . ٥ فأهلك تعالى جميع المستهزئين به : الوليد بن المغيرة ، و العاص بن وائل ، و

عدي بن قيس ،

و الأسود بن المطلب ، و الأسود بن عبد يغوث ، و غيرهم ، كلّ واحد ببليّة .

« و من سأله أعطاه » قال زكريا : . . . فهب لي من لدنك وليًا . يرثني و يرث من آل يعقوب و اجعله ربّ رضىًا . يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً . قال ربّ أنى يكون لي غلام و كانت امرأتى عاقرا و قد بلغت من الكبر عتياً . قال كذلك قال ربك هو عليّ هين و قد خلقتك من قبل و لم تك شيئاً ٦ .

« و من أقرضه قضاة » و أعطاه ما أقرض من ذا الذي يقرض الله قرضا

(١) يوسف : ٢١ .

(٢) أورده أساس البلاغة : ٢٠٥ مادة (سخن) .

(٣) الطلاق : ٣ .

(٤) الأنبياء : ٦٨ ٧٠ .

(٥) الحجر : ٩٤ ٩٥ .

(٦) مريم : ٩٥ .

الصفحة ١٩٧

حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة . . . ١ ، من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له و له أجر كريم . ٢

« و من شكره جزاه » . . . لئن شكرتم لأزيدنكم . . . ٣ .

٨

من الخطبة (٨٩) و من خطبة له عليه السلام تعرف بخطبة الأشباح ، و هي من جلائل خطبه ،

و كان سأله سائل أن يصف الله حتى كأنه يراه عيانا ، فغضب عليه السلام لذلك :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَفْرُهُ الْمَنْعُ وَ الْجُمُودُ وَ لَا يُكْدِيهِ الْإِعْطَاءُ وَ الْجُودُ إِذْ كُلُّ مُعْطٍ مُنْتَقِصٌ سِوَاهُ وَ كُلُّ مَانِعٍ مَذْمُومٌ مَا خَلَاهُ وَ هُوَ الْمَنَّانُ بِفَوَائِدِ النَّعْمِ وَ عَوَائِدِ الْمَزِيدِ وَ الْقَسَمَ عِيَالُهُ الْخَلْقُ ضَمِنَ أَرْزَاقَهُمْ وَ قَدَّرَ أَقْوَاتَهُمْ وَ نَهَجَ سَبِيلَ الرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ وَ الطَّالِبِينَ مَا لَدَيْهِ وَ لَيْسَ بِمَا سُئِلَ بِأَجُودَ مِنْهُ بِمَا لَمْ يُسْأَلِ الْأَوَّلُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلُ فَيَكُونُ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَ الْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ بَعْدُ فَيَكُونُ شَيْءٌ بَعْدَهُ وَ الرَّادِعُ أَنَّاسِيَّ الْأَبْصَارِ عَنِ أَنْ تَنَالَهُ أَوْ تُدْرِكَهُ مَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ دَهْرٌ فَيُخْتَلَفَ مِنْهُ الْحَالُ وَ لَا كَانَ فِي مَكَانٍ فَيَجُوزُ عَلَيْهِ الْإِنْتِقَالَ قَوْلُ الْمُصَنِّفِ : «

تعرف بخطبة الأشباح » قال ابن أبي الحديد : الأشباح :

الأشخاص ، و المراد بهم ها هنا الملائكة لأنّ الخطبة تتضمن ذكر الملائكة ٤ ،

(١) البقرة : ٢٤٥ .

(٢) الحديد : ١١ .

(٣) ابراهيم : ٧ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٩ .

الصفحة ١٩٨

و تبعه الخوئي ١ ، إلا أن الظاهر أن الخطبة كانت متضمنة لذكر لفظ الأشباح ، كما أن الخطبة الشفقيّة ٢ متضمنة لذكر الشفقة ، و روى (الروضة) خطبة معروفة بالطوتية ٣ تضمّت قصة طالوت ، و روى خطبة معروفة بالوسيلة ٤ لكونها متضمنة لذكر الوسيلة ، و في هذه و إن لم نقف على لفظ أشباح ، إلا أن المصنف لم ينقل جميعها ، بل انتخب منها ، فقال تارة فيها : منها :

في صفة خلق السماء ، و أخرى قال : منها : ثم خلق سبحانه ، و ثالثة : منها : في صفة الأرض .
و لو كانت العلة ما ذكر كان كثير من خطب النهج متضمنًا لذكر الملائكة ، و منها في الأولى ، فلم خصّت هذه بالتسمية ، مع أنه أي مناسبة للتعبير عن الملائكة بالأشباح ؟ و إنما استعمل الأشباح في كلامه عليه السلام في مقابل الأجناس ، ففي خطبة له عليه السلام رواها (توحيد الصدوق) : « ليس بجنس فتعادلها الأجناس ، و لا بشبح فتضارعه الأشباح » ٥ ، و الظاهر أن المراد به الجسميّة ،
ففي أخرى رواها : « ليس بشبح فيرى » ٦ .
و الظاهر أنه كان فيها هذه الفقرة : « و كيف يوصف بالأشباح و ينعت بالألسن الفصاح » رواها أواخر توحيد توحيدة ٧ فسقطت منها ، يعني لم ينقلها .

(١) شرح الخوئي ٣ : ٧٤ .

(٢) نهج البلاغة ١ : ٣٠ الخطبة (٣) .

(٣) الكافي ٨ : ٣١ ح ٥ .

(٤) الكافي ٨ : ١٨ ح ٤ .

(٥) التوحيد للصدوق : ٧٠ ح ٢٦ .

(٦) التوحيد للصدوق : ٧٨ ح ٣٤ .

(٧) أخرج الصدوق الخطبة بروايتين في التوحيد : ٤٨ ح ١٣ و : ٧٧ ح ٣٤ ، و توجد هذه الفقرة في الرواية الثانية فقط ، و الأولى أوفق بلفظ نهج البلاغة .

الصفحة ١٩٩

« و هي من جلائل » جمع الجليّة .

« خطبه » و في (ابن أبي الحديد) ١ « الخطب » .
 « و كان سأله سائل » هكذا في (المصرية) ، و لكن في (ابن ميثم و الخطية) ٢ « و كان سائل سأله »

« أن يصف الله » هكذا في (المصرية) و زاد ابن ميثم : ٣ « تعالى » و (الخطية) :
 « له » .

« حتّى كأنه يراه عيانا فغضب عليه السّلام لذلك » و زاد ابن ميثم ٤ : « و قال الخطبة » .
 ثم الكلام من قوله : « و كان إلى لذلك » في (المصرية) و (ابن ميثم و الخطبة) على اختلاف كما
 عرفت ، و ليس في (ابن أبي الحديد) رأسا ، و نقل ابن أبي الحديد بدل ذلك الكلام : « روى مسعدة بن
 صدقة عن الصادق جعفر بن محمد عليه السّلام أنّه قال : خطب أمير المؤمنين عليه السّلام بهذه الخطبة
 على منبر الكوفة ،

و ذلك أنّ رجلا أتاه فقال : يا أمير المؤمنين صف لنا ربنا مثل ما نراه عيانا لنزداد له حبا و به معرفة ،
 فغضب و نادى الصلاة جامعة . فاجتمع إليه الناس حتى غصّ المسجد بأهله ، فصعد المنبر و هو مغضب
 متغيّر اللون ، فحمد الله و أثنى عليه ، و صلّى على النبي صلّى الله عليه و آله ثمّ قال : . . . » و مثله
 نقل ابن ميثم زائدا على ذلك الكلام بدون فقرة « مثل ما نراه عيانا » و تبديل « ثمّ قال » في الآخر بقوله :
 « ثمّ خطبها » ٥ و ليس في (الخطية) رأسا ٦ .

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٨ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٢ « خطبه » أيضا .

(٢) شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٢ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه .

(٥) و حذف الباء من أول هذه و حذف (إليه) بعد (فاجتمع) .

(٦) جمع ابن ميثم بين عنوان نهج البلاغة ١ : ١٦٠ و شرح ابن أبي الحديد بفرق يسير ، و العنوان

المذكور في رواية التوحيد :

٤٨ ح ١٣ نحو ابن أبي الحديد ، و قد مرت الإشارة الى الاختلاف في مقدمة المؤلف .

الصفحة ٢٠٠

و جمع الرّضي رضوان الله عليه بينهما مشكل حيث إنه كالتكرار ، و ليس ذلك دأبه ، و كأنّ نسخ النهج
 كانت مختلفة ، فنسخة ابن أبي الحديد منه كانت متضمنة لنقل الرواية ، و النسخة الخطية لنقل الكلام بدلها ،
 و ابن ميثم جمع بينهما .

و كيف كان ، فلا ريب أنه رواية مسعدة عن الصادق عليه السلام ، فروى (توحيد الصدوق) عن الأسدي عن البرمكي عن علي بن العباس عن إسماعيل بن مهران عن إسماعيل بن إسحاق الجهني عن فرج بن فروة عن مسعدة عن الصادق عليه السلام : بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على المنبر بالكوفة إذ قام إليه رجل ، فقال : يا أمير المؤمنين صف لنا ربك لنزداد له حبا و به معرفة ، فغضب أمير المؤمنين عليه السلام و نادى الصلاة جامعة . فاجتمع الناس حتى غصّ المسجد بأهله ثم قام متغيّر اللون ، فقال : الحمد لله الذي لا يفره المنع ، و لا يكديه الإعطاء . . . ١ لكن ليس فيه جميع ما في النهج ، و فيه اختلافات .

و كيف كان فإنما غضب عليه السلام لأنه أحسّ من الرجل أنه طلب منه عليه السلام و صفه تعالى بالكنه ، و تعريفه بالتشبيه ، ففي الخطبة على رواية (التوحيد) :

« الذي عجزت الملائكة على قربهم من كرسي كرامته ، و طول ولهم إليه ، و تعظيم جلال عزّه ، و قربهم من غيب ملكوته أن يعلموا من أمره إلا ما أعلمهم » ٢ .
و فيها أيضا : « أيها السائل اعلم أنّ من شبّه ربنا الجليل بتباين أعضاء

(١) التوحيد للصدوق : ٤٨ ح ١٣ .

(٢) التوحيد للصدوق : ٥٠ ح ١٣ .

الصفحة ٢٠١

خلقه . . . » ١ فسؤال الرجل و غضبه عليه السلام نظير سؤال بني إسرائيل موسى بن عمران عليه السلام أن يريهم الله عيانا ، فغضب تعالى عليهم كما أخبر عزّ و جلّ عنهم بقوله : و إذ قلت يا موسى لنؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الساعة و أنتم تنتظرون ٢ .

« الحمد لله الذي لا يفره » هنا متعدّ و يأتي لازما أيضا ، يقال : و فرت الشيء و وفر الشيء .
« المنع » كالنّاس .

« و الجمود » هكذا في (المصرية) ، و ليست الكلمة في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٣ ، فهي زائدة .

« و لا يكديه » بالضمّ ، قال تعالى : و أعطى قليلا و أكدى ٤ ، أي : قطع القليل .
« الإعطاء و الجود » كالمخلوقين .

« إذ كلّ معط منتقص سواه » علة لقوله : « و لا يكديه الإعطاء و الجود » .

« و كلّ مانع مذموم » صفة مانع .

« ما خلاه » يعني : سواء ، و الجملة علّة لقوله : « لا يفره المنع » يعني ليس منعه بخلا فيستحقّ الذم ، بل حكمة فيستحقّ الحمد أيضا ، لأنّه منع ظاهرا و أعطى في الحقيقة ، و المعنى : و لو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض و لكن ينزل بقدر ما يشاء إنّه بعباده خبير بصير ٥ ، و أصبح الذين تمنّوا

(١) التوحيد للصدوق : ٥٤ ح ١٣ .

(٢) البقرة : ٥٥ .

(٣) توجد الكلمة في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٨ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٣ أيضا .

(٤) النجم : ٣٤ .

(٥) الشورى : ٢٧ .

الصفحة ٢٠٢

مكانه بالأمس يقولون و يكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر لو لا أن منّ الله علينا لخسف بنا ١ .

و وجه كونه علّة : أنّ المنع لو فر المال مذموم لكونه بخلا .

« و هو » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (هو) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) . ٢ .

« المنان بفوائد النعم ، و عوائد المزيد و القسم » و لكن الله يمنّ على من يشاء من عباده . . . ٣ ،

. . . قال أنا يوسف و هذا أخي قد منّ الله علينا إنّه من يتّق و يصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ٤ .

« عياله الخلق » هكذا في (المصرية) ، و الصواب (الخلائق) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و

الخطبة) ٥ ، فالنهج كان (الخلائق) و لكن نقله (التوحيد) : « و بجوده ضمن عيالة الخلق » ٦ .

و في (دعاء أبي حمزة) : « و الخلق كلّهم عيالك و في قبضتك » ٧ .

و في قوله تعالى : و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرّها و مستودعها كلّ في كتاب

مبين ٨ ، و لا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم و إياكم إنّ قتلهم كان خطأ كبيرا ٩ .

(١) القصص : ٨٢ .

(٢) توجد (الواو) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٨ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٣ أيضا .

(٣) ابراهيم : ١١ .

(٤) يوسف : ٩٠ .

(٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٨ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٢ « الخلق » أيضا .

(٦) التوحيد للصدوق : ٤٩ ح ١٣ .

(٧) رواه ضمن الدعاء الطوسي في مصباح المتهدد : ٥٣٥ .

(٨) هود : ٦ .

(٩) الاسراء : ٣١ .

الصفحة ٢٠٣

« ضمن أرزاقهم » و « قدر أقاتهم » أي : أرزاق جميع خلقه من الانسان و أقسام الحيوان ، و أصناف الطير ، و صنوف الوحش و الهوام و الحيتان ، و لكن غلب الإنسان في الضمير . و هو أيضا من باب التغليب ، فقدّر لكلّ جنس قوته بحسب ما يناسبه حتّى الجنين و الرضيع ، و الأصل في كلامه عليه السّلام قوله تعالى :

و قدر فيها أقاتها في أربعة أيام سواء للسائلين ١ .

« و نهج » أي : أوضح .

« سبيل الرّاعبين إليه » لعبادته .

« و الطّالبيين ما لديه » من الأجر و الثواب بنهج السبيل ، بخلق العقول لهم ،

و بعث الرّسل إليهم ، و إنزال الكتب عليهم .

« و ليس بما سئل بأجود منه بما لم يسأل » و في الدّعاء : يا من يعطي من سأله و من لم يسأله تحننا منه و رحمة ، و يبتدىء بالخير من لم يسأله تفضلا منه و كرما ٢ .

و في الخبر : « كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فإنّ موسى بن عمران عليه السّلام خرج يقتبس لأهله نارا فكلمه الله عزّ و جلّ و رجع نبيا مرسلا ،

و خرجت ملكة سبأ فأسلمت مع سليمان عليه السّلام ، و خرجت سحرة فرعون يطلبون العزّ لفرعون فرجعوا مؤمنين » ٣ .

« الأوّل الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله ، و الآخر الذي ليس له بعد فيكون

(١) فصلت : ١٠ .

(٢) هذه قطعة من دعاء السحر ، رواه الطوسي في مصباح المتهدد : ٥٤٠ .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٨٣ ح ٣ ، و الصدوق في الفقيه ٤ : ٢٨٤ ح ٣ مسندا ، و في الفقيه

٣ : ١٠١ ح ٤٤ مجردا ، و هو في الأمالي : ١٥٠ ح ٧ المجلس (٣٣) ، و ابن شعبة في تحف العقول :

٢٠٨ عن علي عليه السّلام ، و أخرج صدر الحديث الكليني في الكافي ٥ : ٨٣ ح ٢ عن الصادق عليه

السّلام .

الصفحة ٢٠٤

شيء بعده « قد مرّ نظيره ١ .

و « الرادع » أي : المانع .

« أناسي » جمع إنسان العين ، و في (الصحاح) : إنسان العين : المثال الذي يرى في السواد ، أي : سواد العين ، و جيمع أيضا على أناسي . قال ذو الرمة يصف إبلاغات عيونها من التعب و السير : أناسي ملحود لها في الحواجب

٢ .

« الأبصار عن أن تناله » أي : تصله .

« أو تدركه » كما تدرك الأجسام ، قال الصادق عليه السلام : « إنّ الأبصار لا تدرك إلا ما له لون و كيفية ، و الله خالق الألوان و الكيفية » ٣ و لما جاء موسى لميقاتنا و كلمه ربّه قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني و لكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكا و خرّ موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك و أنا أول المؤمنين ٤ .

هذا و في (تاريخ الطبري) في الفداء بين المسلمين و صاحب الروم عن الواثق الخليفة : أنه وجّه من يمتحن الاسراء منهم : فمن قال منهم إن القرآن مخلوق و إن الله عزّ و جلّ لا يرى في الآخرة فودي به ، و من لم يقل ذلك ترك في أيدي الروم ٥ .

و فيه أيضا : قتل الواثق بيده بسيف عمرو بن معد يكرب أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي و كان جدّه مالك أحد نقباء بني العباس و حضر

(١) مر في العنوان (٥ و ٦) من هذا الفصل .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٩٠١ مادة (أنس) .

(٣) أخرجه الصدوق في الأمالي : ٣٣٤ ح ٣ المجلس (٦٤) ، و رواه الفتال في روضة الواعظين ١ : ٣٤ .

(٤) الاعراف : ١٤٣ .

(٥) تاريخ الطبري ٧ : ٣٣٢ سنة (٢٣١) .

الصفحة ٢٠٥

على رأسه في بغداد حظيرة ، و ضرب عليه فسطاط ، و أقيم عليه الحرس ،

و عرف ذلك الموضع برأس أحمد بن نصر ، و كتب في أذنه رقعة : هذا رأس الكافر المشرك الضالّ الذي أقرّ بالتشبيه ، و تكلم بالكفر ، فاستحلّ دمه . و كان الواثق قال له : ما تقول في ربك ؟ فقال : جاءت الآثار عن النبي صلّى الله عليه و آله أنه قال :

ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ، لا تضامون في رؤيته . فنحن على الخبر . و قال حدثني سفيان بن عيينة بحديث يرفعه : إن قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الله يقبله ، و أنّ النبي صلّى الله عليه و آله كان يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي . . . ١ و خبره الأول موضوع و أخيرا عمّا رآه بمراحل .

« ما اختلف عليه دهر فيختلف منه الحال » يمكن أن يريد عليه السلام بعدم اختلاف الحال منه تعالى لعدم اختلاف الدهر عليه ، بالنسبة إلى الفقرات المذكورة قبله من إعطائه تعالى و منعه ، و ضمانه للأرزاق ، و تقديره للأقوات ، و نهجه السبيل ،

و استواء المساوئ فيه عنده مع غيره ، و غيرها ، فإنّ أسخياء الناس إنّما يجودون إذا جاد عليهم الزمان ، و يبخلون إذا بخل عليهم ، و يعطون أوّلا ثمّ يمنعون ، و يضمنون شيئا ثمّ يتبرؤون ، كلّ ذلك بحسب تأثير الدهر و الزمان فيهم ، و هو تعالى منزّه عن ذلك .

و يمكن أن يريد عليه السلام به الأعمّ ، مثلا الإنسان في نشئه ، و باختلاف دهره يختلف حاله ، فهو كما في فقه اللغة ما دام في الرحم فهو جنين ، فإذا ولد فهو وليد ، و مادام لم يستتم سبعة أيّام فهو صديغ ، لأنّه لا يشتدّ صدغه إلى تمام السبعة ، ثمّ ما دام يرضع فهو رضيع ، ثمّ إذا قطع عنه اللبن فهو فطيم ، ثمّ إذا غلظ و ذهب عنه ترارة الرضاع فهو جحوش عن الأصمعي و أنشد للهنليّ :

قتلنا مخلدا و ابني حراق

و آخر جحوشا فوق الفطيم

(١) تاريخ الطبري ٧ : ٣٢٨ سنة (٢٣١) ، و النقل بتصريف .

الصفحة ٢٠٦

قال الأزهري : كأنه مأخوذ من الجحش الذي هو ولد الحمار ، ثمّ هو إذا دبّ و نما دارج ، فإذا بلغ طوله خمسة أشبار فهو خماسيّ ، فإذا سقطت روضعه فهو مثنور ، عن أبي زيد ، فإذا نبتت أسنانه بعد السقوط فهو مثنور بالتاء و متغرّ بالتاء ، عن أبي عمرو ، فإذا كاد يجاوز عشر سنين أو جاوزها فهو مترعرع و ناشئ ، فإذا كاد يبلغ الحلم أو بلغه فهو يافع و مراهق ، فإذا أدرك و اجتمعت قوّته فهو حزور ، و اسمه في جميع هذه الأحوال غلام ، فإذا اخضرّ شاربه و أخذ عذاره يسيل قيل : بقل وجهه ، فإذا صار ذا فتاء فهو فتى و شارخ ،

فإذا اجتمعت لحيته و بلغ غاية شبابه ، فهو مجتمع ، ثم مادام بين الثلاثين و الأربعين فهو شاب ، ثم هو كهل الى أن يستوفي ستين ١ . و هكذا نقل له أسام بحسب ازدياد سنّه ، و الله تعالى منزّه عن جميع ذلك . « و لا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال » قيل للرضا عليه السّلام : ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس أنّ النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم قال : ينزل الله تعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا ؟ ٢ فقال : لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه ، و الله ما قال النبيّ صلّى الله عليه و آله ذلك ، إنّما قال : إنّ الله ينزل ملكا الى السماء الدنيا كلّ ليلة في الثلث الأخير ، و ليلة الجمعة في أوّل الليل ٣ .

(١) فقه اللغة الثعالبي : ٨١ الباب (١٤) الفصل (٢٠) .

(٢) حديث نزول الربّ أخرج أحمد في مسنده ١ : ١٢٠ عن علي عليه السّلام عن النبيّ صلّى الله عليه و آله ، و أخرجه جعفر الحضرمي في أصله : ٦٩ عن الباقر عليه السّلام ، و يحضر عندي له (٥١) طريقا عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري و رفاة الجهني و جبير بن مطعم و ابن مسعود و أبي الدرداء و عبادة بن الصامت عن النبيّ صلّى الله عليه و آله ، و أخرج زيد النرسي في أصله : ٥٤ عن الصادق عليه السّلام : « ان الله ينزل في يوم عرفة . . . » ، و أخرج الصدوق في التوحيد في بعض نسخه : ٢٤٨ الهامش ، البحار ٣ :

٣٣١ عن الصادق عليه السّلام تأييد حديث نزول الربّ و تصحيحه ، و أخرج علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٢٠٤ عن الصادق عليه السّلام : « ينزل أمره كل ليلة » ، و في نقل البحار ٣ : ٣١٥ عنه : « ينزل كلّ ليلة » .

(٣) حديث الرضا عليه السّلام أخرج الصدوق في العيون ١ : ١٠٤ ح ٢١ ، و التوحيد : ١٧٦ ح ٧ و أماليه : ٣٣٥ ح ٥ المجلس (٦٤) ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٤١٠ ، و أخرج نحوه الكليني في الكافي ١ : ١٢٥ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ١٨٣ ح ١٨

الصفحة ٢٠٧

من الخطبة (٨٩) بعد ما مرّ في سابقه :

و لَوْ وَهَبَ مَا تَنَفَّسَتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ وَ ضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ مِنْ فَلَزِّ اللَّجِينِ وَ الْعَقِيَانِ وَ نَثَارَةِ الدَّرِّ وَ حَصِيدِ الْمَرْجَانِ مَا أَثَرَ ذَلِكَ فِي جُودِهِ وَ لَا أَنْفَدَ سَعَةَ مَا عِنْدَهُ وَ لَكَانَ عِنْدَهُ مِنْ ذَخَائِرِ الْأَنْعَامِ مَا لَا تُنْفِدُهُ مَطَالِبُ الْأَنْامِ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا يَغِيضُهُ سُؤَالُ السَّائِلِينَ وَ لَا يُبْخِلُهُ الْإِحَاحُ الْمُلْحِينِ « و لو وهب » قال

ابن أبي الحديد : هذا الكلام من تنمة الكلام الأول ، و هو قوله عليه السلام : « لا يفره المنع و الجمود و لا يكديه الإعطاء » ١ .

قلت : بل خصوص قوله « و لا يكديه الإعطاء » ، و لا ربط له بقوله « لا يفره المنع » .
« ما تنفست عنه معادن الجبال » هو استعارة كقوله تعالى : و الصبح اذا تنفس ٢ ، و المراد ما تشققت عنه المعادن .

« و ضحكت عنه » هو أيضا استعارة كقوله تنفست ، و المراد أيضا ما تشققت ، و لا يخفى حسن التعبير عن تشقق الجبال بالفلزات بالتنفس عن الشيء ، و عن تشقق الأصداف بالالآلي بالضحك عنه .
« أصداف البحار » و الصدف غشاء الدرّة .

« من فلز » بكسرتين ، و جوز (القاموس) فيه الضمّتين كعتلّ ، و الكسر عن الكاظم عليه السلام ، و الكليني في الكافي ١ : ١٢٦ ح ٤ عن الهادي عليه السلام ، و روى قريبا منه ابن طاووس في جمال الاسبوع : ١٨٢ بلا عزو .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٠ .

(٢) التكوير : ١٨ .

الصفحة ٢٠٨

فالفتح كهجف ، و قال : الفلزّ نحاس أبيض تجعل منه القدور المفرغة أو خبث الحديد أو الحجارة أو جواهر الأرض كلّها أو ما ينقيه الكير من كلّ ما يذاب منها ١ .

قلت : الصواب هو القول الرابع لقوله عليه السلام : « اللّجين » بالتصغير الفضة .

« و العقيان » بالكسر الذهب الخالص ، و رواه (التوحيد) « و سبائك العقيان » ٢ .

« و نثارة الدرّ » في (الصحاح) : النثار بالضم ما تتأثر من الشيء ٣ ، و الدرّة :

اللؤلؤ ، و الجمع درّ و درّات و درر .

« و حصيد المرجان » و رواه (التوحيد) « و نضائد المرجان » ٤ و قال ابن أبي الحديد : و يروى « و حصباء المرجان » ٥ .

قلت : و أبو نؤاس نسب الحصباء إلى الدرّ ، فقال :

كأنّ صغرى و كبرى من فقاقتها

حصباء درّ على أرض من الذهب

٦ و في (اللسان) : قال بعضهم : المرجان البستد و هو جوهر أحمر ، قال ابن برّي : الذي عليه الجمهور

إنه صغار اللؤلؤ ، كما ذكره الجوهري ، و الدليل على صحة ذلك قول امرئ القيس ابن حجر :

أذود القوافي عني زيادا
 زياد غلام جريّ جيادا

(١) القاموس المحيط ٢ : ١٨٦ مادة (فلز) .

(٢) التوحيد للصدوق : ٤٩ ح ١٣ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٨٢٢ مادة (نثر) .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٠ .

(٦) أورده ابن هشام في شرح القطر : ٣١٦ .

الصفحة ٢٠٩

فأعزل مرجانها جانبا

و أخذ من درّها المستجادا

١ قلت : جعله في الآية يخرج منهما اللؤلؤ و المرجان ٢ ، و في كلامه عليه السلام و في شعر امرئ القيس مقابل اللؤلؤ ، و الدرّ دالّ على كونه غيره ، و في (المصباح) قال الطرطوشي : هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكفّ ، قال : و هكذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيرا ٣ .

ثمّ الأكثر ذكرها مرجان في مرج ، و عن الأزهري : لا أدري أرباعي هو أم ثلاثي ؟ ٤ هذا ، و « من فلز اللّجين و العقيان » راجع الى معادن الجبال ، و « و نثارة الدرّ و حصيد المرجان » راجع إلى أصداف البحار .

« ما أترّ ذلك في جوده ، و لا أنفد سعة ما عنده » و كيف ينفد و له خزائن السموات و الأرض ، و في (أصل البرسيّ) : إنّ الله تعالى قال لداود : « يا داود و عزّتي و جلالتي ، لو أنّ أهل سماواتي و أرضي أمّلوني فأعطيت كلّ مؤمّل أمله بقدر دنياكم سبعين ضعفا لم يكن ذلك إلّا كما يغمس أحدكم إبرة في البحر و يرفعها ، فكيف ينقص شيء أنا أعطيته » ٥ .

« و لكان عنده من ذخائر الأنعام ما لا تتفده مطالب الأنام » ، و في رواية (التوحيد) : « و لكان عنده من ذخائر الإفضال ما لا ينفده مطالب السّؤال ، و لا

(١) لسان العرب ٢ : ٣٦٦ مادة (مرج) و ما نقله عن الجوهري في صحاح اللغة ١ : ٣٤١ مادة (مرج) .

- (٢) الرحمن : ٢٢ .
- (٣) المصباح المنير ٢ : ٢٦٤ مادة (مرج) .
- (٤) نقله عن الأزهرى لسان العرب ٢ : ٣٦٦ مادة (مرج) ، و قال : « و أورده في رباعي الجيم » .
- (٥) رواه الحافظ البرسي في مشارق الأنوار : ٤٢ بلا إسناد ، لكن أخرج معناه الكليني بروايتين في الكافي ٢ : ٦٦ و ٦٧ ، ح ٧ ،
- ٨ و أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢ : ١٩٦ المجلس (٦) و جاء قريبا منه أربع روايات رواها الطبرسي في مشكاة الأنوار :
- ١٦ ، ١٧ ، و أما قول الشارح اصل البرسي فهو ، لأن الحافظ رجب البرسي ليس من أصحاب الأصول ، بل صاحب الأصل هو زيد النرسي و ليس في أصله أثر من هذا الحديث .

الصفحة ٢١٠

يخطر لكثرة على بال « ١ و إن من شيء إلا عندنا خزائنه و ما ننزله إلا بقدر معلوم ٢ .

« لأنه الجواد الذي لا يغيضه » من غاض الماء قل و نصب . قال الجوهرى :

و غيظ الماء فعل به ذلك ، يتعدى و لا يتعدى . و قال الأخفش في قوله تعالى :

و ما تغيض الأرحام . . . ٣ أي : ما تنقص . و يقال غاض الكرام أي قلوبا ،

و فاض اللئام أي كثروا ، و أعطاه غيضا من فيض ، أي : قليلا من كثير ٤ .

« سؤال السائلين و لا يبخله إلحاح الملحّين » و في رواية (التوحيد) بدل « لأنه الجواد . . . » : « لأنه الجواد الذي لا تنقصه المواهب ، و لا ينحله إلحاح الملحّين ،

و إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » ٥ .

١٠

من الخطبة (٨٩) بعد ما مرّ في سابقة :

وَ أَنْظِرْ أَيُّهَا السَّائِلُ فَمَا ذَلِكَ ؟ الْقُرْآنُ ؟ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَانْتَمَّ بِهِ وَ اسْتَضَى بِنُورِ هِدَايَتِهِ وَ مَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرَضُهُ وَ لَا فِي سُنَّةِ ؟ النَّبِيِّ ص ؟ وَ أئِمَّةِ الْهُدَى أَنْزَرَهُ فَكُلُّ عِلْمِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَإِنَّ ذَلِكَ مُنْتَهَى حَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ وَ اعْلَمْ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ هُمُ الَّذِينَ أَغْنَاهُمْ عَنِ اقْتِحَامِ السُّدَدِ الْمَضْرُوبَةِ دُونَ الْغُيُوبِ الْبَاقِرَارِ بِجُمْلَةٍ مَا جَهَلُوا تَفْسِيرَهُ مِنَ الْغَيْبِ الْمَحْجُوبِ

(١) التوحيد للصدوق : ٤٩ ح ١٣ .

(٢) الحجر : ٢١ .

(٣) الرعد : ٨ .

(٤) صحاح اللغة ٣ : ١٠٩٦ مادة (غيض) .

(٥) التوحيد للصدوق : ٤٩ ح ١٣ و فقرة « انما أمره . . . » هي لفظ الآية (٨٢) من سورة يس .

الصفحة ٢١١

فَمَدَحَ اللَّهُ عَزَّ وَ جَلَّ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ تَتَاوُلِ مَا لَمْ يُحِبُّوا بِهِ عِلْمًا وَ سَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفَهُمُ
الْبَحْثَ عَنْ كُنْهِهِ رُسُوخًا فَأَقْتَصِرَ عَلَى ذَلِكَ وَ لَا تُقَدَّرُ عَظَمَةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ فَتَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ
أقول : و رواه (التوحيد) مع زيادة و تغيير ، ففيه : « الذي لما شبَّهه العادلون بالخلق المبعوض المحدود
في صفاته ، ذي الأقطار و النواحي المختلفة في طبقاته ، و كان عزَّ و جلَّ الموجود بنفسه لا بأداته ، انتفى
أن يكون قدره حق قدره ، فقال تنزيها لنفسه عن مشاركة الأنداد ، و ارتفعا عن قياس المقدرين له
بالمحدود من كفره العباد : و ما قدروا الله حقَّ قدره و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السماوات
مطويات بيمينه سبحانه و تعالى عما يشركون ١ ،

فما ذلك القرآن عليه من صفته فاتبعه ليوصل بينك و بين معرفته ، و ائتمَّ به ،

و استضى بنور هدايته ، فإنما هي نعمة و حكمة أوتيتهما ، فخذ ما أوتيت و كن من الشاكرين ، و ما ذلك
الشیطان . . . » ٢ .

« و انظر أيها السائل فما ذلك القرآن عليه من صفته فانتتمَّ به ، و استضى بنور هدايته » و ممَّا دلَّنا القرآن
عليه من صفته تعالى : . . . لا تأخذه سنة و لا نوم له ما في السماوات و ما في الأرض . . . و هو العليّ
العظيم ٣ ، و قال تعالى : قل هو الله أحد . . . ٤ ، و قال جلَّ و علا : . . . ليس كمثل شيء و هو
السميع البصير ٥ .

« و ما كلَّفك الشيطان علمه » من عرفان كنهه .

« ممَّا ليس في الكتاب » أي : القرآن .

(١) الزمر : ٦٧ .

(٢) التوحيد للصدوق : ٥٥ ح ١٣ .

(٣) البقرة : ٢٥٥ .

(٤) الإخلاص : ٤١ .

(٥) الشورى : ١١ .

الصفحة ٢١٢

« عليك فرضه ، و لا في سنة النبي صلى الله عليه و آله و أمة الهدى » و هم أهل بيته عليهم السلام :

و أما الثلاثة و إن سمّوهم الخلفاء الراشدين ، إلا أنه لا يصدق إلا إذا صدق قول من قال : . . . ما أرىكم إلا ما أرى و ما أهدىكم إلا سبيل الرشاد ١ .

« أثره فكل » من و كل أي : فوض .

« علمه إلى الله سبحانه » كان عليّ بن الحسين عليه السلام يقول : سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه إلا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ، كما لم يجعل في أحد من معرفة إدراكه أكثر من العلم أنه لا يدركه ٢ .

« فإن ذلك منتهى حقّ الله عليك » لأنه لم يكلف أحدا ما لم يطقه .

و في (الكافي) عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : و أنّ إلى ربك المنتهى ٣ قال : « إذا انتهى الكلام إلى الله تعالى فامسكوا » ٤ .

و في آخر عنه عليه السلام : « إنّ الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله ،

فاذا سمعتم ذلك فقولوا : لا إله إلا الله الواحد الذي ليس كمثل شيء » ٥ .

« و اعلم أنّ الراسخين » أي : الثابتين ، قال ليبيد :

رسخ الدمن على أعضاده

تلمته كل ريح و سبل

٦ « في العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام » الاقتحام : الرمي بالنفس في شيء من غير روية .

(١) غافر : ٢٩ ، و هو مقول فرعون .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ٣٩٤ ح ٥٩٢ .

(٣) النجم : ٤٢ .

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٢ ح ٣ ، و البرقي في المحاسن : ٢٣٧ ح ٢٠٦ ، و الصدوق في

الهداية : ٤٦ عن الصادق عليه السلام ، و أخرجه علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٣٣٨ بلا عزو .

(٥) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٢ ح ٣ عن الصادق عليه السلام ، و أخرجه البرقي في المحاسن :

٢٣٧ ح ٢٠٩ عن الباقر عليه السلام .

(٦) أورده أساس البلاغة ١٦٢ مادة (رسخ) .

الصفحة ٢١٣

« السّدّ » بالضمّ فالفتح : جمع السّدة باب الدّار ، و في الخبر : « الشعث الرؤوس الذين لا تفتح لهم السّدّ

» ١ .

و قال الجزريّ : السّدة كالظّلة على الباب لتقي الباب من المطر ، و قيل : هي الباب نفسه ، و قيل : هي

الساحة بين يديه ٢ .

« المضروبة دون الغيوب » فلا يمكن لأحد الوقوف عليها .

« الإقرار » و هو فاعل « أغناهم » .

« بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب » أشار عليه السلام الى قوله تعالى :

هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب و آخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ

فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة و ابتغاء تأويله و ما يعلم تأويله إلاّ الله و الراسخون في العلم يقولون آمنا

به كلّ من عند ربّنا و ما يذكر إلاّ أولو الألباب . ربّنا لا تزع قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا من لدنك رحمة

إنك أنت الوهاب ٣ .

ثمّ إنّه و إن اختلفت الخاصّة و العامّة في الآية هل و الراسخون في العلم عطف على (الله) أو مستأنف ٤

، إلاّ أنّ كلامه عليه السلام دالّ على الثاني ،

و هو الظاهر من الآية ، حيث إنّه لو كان عطفًا لكان الأنسب أن يقال : « و يقولون »

- (١) نقل ابن منظور في لسان العرب ٣ : ٢٠٩ ، مادة (سد) هذا اللفظ ، و أخرجه الترمذي ٤ : ٦٢٩ ح ٢٤٤٤ ، و ابن ماجه ٢ :
- ١٤٣٨ ح ٤٣٠٣ ، و الحاكم في المستدرک عنه الجامع الصغير ١ : ٩٠ ، و أحمد في مسنده ٥ : ٢٧٥ عن ثوبان عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله فِي حَدِيثٍ فِي وَرُودِ الْحَوْضِ : « الشَّعْثُ رُؤُوسُ الدَّنَسِ ثِيَابِ الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَعَمَّاتِ وَ لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّدِّدِ » .
- و أخرج قريبا منه الضياء المقدسي في المختارة ، و الطبراني في معجمه الكبير عنهما منتخب كنز العمال ٦ : ٩٢ عن أبي أمامة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله .
- (٢) النهاية لابن الأثير ٢ : ٣٥٣ مادة (سد) .
- (٣) آل عمران : ٨٧ .
- (٤) ليس الاختلاف راجعا الى المذهب ، بل القولان العطف و الاستيناف يوجدان في كلا المذهبين ، و لكل على مذهبه تفسير و تأويل .

الصفحة ٢١٤

- لا « يقولون » ، و يأتي فيه زيادة كلام .
- و لا ينافي ذلك علم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ أوصيائه بتأويل القرآن ، فإن علمهم به بوحيه و إلهامه ، فعلم تأويله من علم الغيب ، و قد قال تعالى في موضع : عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول . . . مع أنه قال :
- إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ . . . ٢ وَ قَالَ : قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . . . ٣ ، وَ حِينَئِذٍ فَالْآيَةِ فِي مَقَامٍ آخَرَ نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى الْآخِرِ : . . . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَ أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا . . . ٤ .
- « فمدح الله عزّ و جلّ اعترافهم بالعجز عن تناول » أي : فهم .
- « ما لم يحيطوا به علما » من المتشابه ، حيث حكى عنهم أنهم يقولون : آمنا به أي : بالكتاب كلّ من المحكم الذي فهمنا ، و المتشابه الذي لم نفهمه من عند ربنا .
- « و سمى تركهم التعمق في ما لم يكلفهم البحث » أي : الكشف ، و الأصل فيه كشف التراب عن الشيء المدفون ، قال ابن دريد : و في مثل من أمثالهم : كباحثة عن حنظلها بظلفها ، و ذلك أنّ شاة بحثت عن سكين مدفون بظلفها فذبحت به ٥ .

« عن كنهه » أي : حقيقته و بلوغ غايته .

« رسوخا » أي : ثبوتا مستحكما ، من رسخ الجبل ، فعبر عنهم بقوله :

و الراسخون في العلم .

(١) الجن : ٢٦ ٢٧ .

(٢) الحجرات : ١٨ .

(٣) النمل : ٦٥ .

(٤) البقرة : ٢٦ .

(٥) جمهرة اللغة لابن دريد ١ : ١٩٩ .

الصفحة ٢١٥

« فاقصر على ذلك » و تأدب بأدب الله .

« و لا تقدر » أي : لا تعين مقدار .

« عظمة الله » و ذاته .

« على قدر عقلك » لقصوره .

« فتكون من الهالكين » حيث تجاوزت حدك ، قال الباقر عليه السلام : إن قوما تكلموا في الله عزّ و جلّ فتأهوا حتى كان الرجل ينادي من بين يديه فيجيب من خلفه ، و ينادي من خلفه فيجيب من بين يديه ١ .

و قال الصادق عليه السلام : إن ملكا عظيم الشأن كان في مجلس له ، فتناول الربّ تعالى ، ففقد فما يدرى أين هو ٢ .

و في خبر آخر : تكلموا في كل شيء ، و لا تتكلموا في ذات الله تعالى ٣ .

و عن الباقر عليه السلام : تكلموا في خلق الله ، و لا تتكلموا في الله ، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيرا ٤ .

من الخطبة (٨٩) أيضا بعد ما مرّ :

هُوَ الْقَادِرُ الَّذِي إِذَا ارْتَمَتْ الْأَوْهَامُ لِنُدْرِكَ مُنْقَطِعَ قُدْرَتِهِ وَ حَاوَلَ

- (١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٤٥٥ ح ٧ ، و البرقي في المحاسن : ٢٣٨ ح ٢١١ في ذيل حديث عن الباقر عليه السلام ، و رواه صاحب فقه الرضا عنه بحار الأنوار ٣ : ٢٦٢ ح ١٤ بلا عزو .
- (٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٣ ح ٦ ، و الصدوق في التوحيد : ٤٥٨ ح ١٩ ، و البرقي في المحاسن : ٢٤٠ ح ٢١٩ عن الصادق عليه السلام .
- (٣) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٢ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ٤٥٥ ح ٢ عن الباقر عليه السلام .
- (٤) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٢ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ٤٥٤ ح ١ عن الباقر عليه السلام ، و قد جاءت في هذا المعنى أحاديث كثيرة لم يسع المقام لذكرها .

الصفحة ٢١٦

الْفِكْرُ الْمُبْرَأُ مِنْ خَطَرَاتِ الْوَسَاوِسِ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ فِي عَمِيقَاتِ غُيُوبِ مَلَكُوتِهِ وَ تَوَلَّهَتْ الْقُلُوبُ إِلَيْهِ لِتَجْرِي فِي كَيْفِيَّةِ صِفَاتِهِ وَ غَمَضَتْ مَدَاخِلَ الْعُقُولِ فِي حَيْثُ لَا تَبْلُغُهُ الصِّفَاتُ لِتَتَاوَلَ عِلْمُ ذَاتِهِ رَدْعَهَا وَ هِيَ تَجُوبُ مَهَاوِي سُدْفِ الْغُيُوبِ مُتَخَلِّصَةً إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ فَرَجَعَتْ إِذْ جُبِهَتْ مُعْتَرِفَةً بِأَنَّهُ لَا يُنَالُ بِجَوْرِ الْإِعْتِسَافِ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ وَ لَا تَخْطُرُ بِبَالِ أَوْلِي الرُّوَايَاتِ خَاطِرَةً مِنْ تَقْدِيرِ جَلَالِ عِزَّتِهِ « هُوَ الْقَادِرُ » عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .

« الذي إذا ارتمت » أي : قصدت ، و الأصل فيه رمي الصيد .

« الأوهام لتندرك منقطع قدرته » و في رواية (التوحيد) بدل جميع الكلام :

« لأنه اللطيف الذي إذا أرادت الأوهام أن تقع عليه في عميقات غيوب ملكه » ١ .

« و حاول » أي : قصد .

« الفكر المبرأ من خطرات » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (من خطر) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) ٢ .

« الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته » و في رواية (التوحيد) بدل جميع الكلام : « و حاولت الفكر المبرأة من خطر الوسواس إدراك علم ذاته » ٣ .

« و تولّعت » أي : صارت و الهة .

« القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته » و في رواية (التوحيد) « لتحوي منه مكيّفا في صفاته » ٤ .

(١) التوحيد للصدوق : ٥١ ح ١٣ .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٢ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ « خطرات » أيضا .

(٣) التوحيد للصدوق : ٥١ ح ١٣ .

(٤) التوحيد للصدوق : ٥١ ح ١٣ .

الصفحة ٢١٧

« و غمضت » من أغمض في الأرض ، إذا ذهب و غاب .

« مداخل العقول في حيث » أي : في مكان .

« لا تبلغه الصفات » أي : التوصيفات .

« لتناول » و في (ابن ميثم و الخطية) ١ « لتناول » .

« علم ذاته » أي : حقيقته ، قال ابن أبي الحديد : ذات : لفظة قد طال فيها كلام كثير من أهل العربية ، فأنكر قوم إطلاقها على الله تعالى و إضافتها إليه ، أمّا إطلاقها فلأنّها لفظة تأنيث ، و الباري سبحانه منزّه عن الأسماء و الصفات المؤنثة ، و أمّا إضافتها فلأنّها عين الشيء ، و الشيء لا يضاف إلى نفسه ، و أجاز آخرون إطلاقها في الباري تعالى و إضافتها إليه ، أمّا استعمالها فلو جهان :

أحدهما : أنّها جاءت في الشعر القديم ، قال حبيب الصحابيّ عند صلبه :

و ذلك في ذات الإله و إن يشأ
ببإرک علی أوصال شلو موزع

و يروى : ممزَع .

و قال النابغة :

محببتهم ذات الإله و دينهم
قديم فما يخشون غير العواقب

و الوجه الثاني : أنها لفظة اصطلاحية ، فجاز استعمالها لا على أنها مؤنث ذو ، بل تستعمل ارتجالاً في
مسمّاهما الذي عبّر عنه بها أرباب النظر الإلهي ، كما استعمالوا لفظ الجواهر و العرض و غيرهما في غير
ما كان أهل العريّة و اللغة يستعملونها فيه ، و أمّا منعهم إضافتها إليه تعالى و أنه لا يقال :

ذاته ، لأنّ الشيء لا يضاف الى نفسه فباطل بقولهم : أخذته نفسه ، و أخذته عينه ٢ .

(١) في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٢ أيضا « لتناول » .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٢ .

الصفحة ٢١٨

قلت : من المنكرين ابن برهان ، قال الفيوميّ : قال ابن برهان من النحاة :

قول المتكلمين : « ذات الله » جهل ، لأنّ أسماءه لا تلحقها تاء التأنيث ، فلا يقال :

علامة و إن كان أعلم العالمين . قال : و قولهم : « الصفات الذاتية » خطأ أيضا ، فإنّ النسبة إلى ذوات
ذويّ ، لأنّ النسبة تردّ الاسم إلى أصله ١ .

قلت : كلامه غلط في غلط ، فإنّ ذاتا بمعنى الحقيقة ليس تاؤه للتأنيث ،

و إنّما ذات و صفي ، في قبال ذو تاؤه للتأنيث ، تقول : رجل ذو مال و امرأة ذات مال ، كما أن (علامة) ليست تاؤه للتأنيث ، بل للمبالغة ، كيف و يطلق على الرجال ، فيقال : فلان علامة الدهر ؟ و ذات بمعنى الحقيقة : اسم ، و قد خلطوا بينه و بين ذات و صفي بمعنى :

الصّاحبة ، و يشهد لخلطهم ما في (اللسان) : أنّ ابن الأنباري قال في قوله تعالى :

إنّه عليم بذات الصدور ٢ : معناه بحقيقة القلوب من المضمورات . فتأنيث ذات لهذا المعنى ، كما قال : . . .
و تودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم . . . ٣ فأنت على معنى الطائفة ٤ .

فجعل « ذات الصدور » كذات الشوكة مع أنّ الثاني وصف و الأصل أنّ الطائفة غير ذات الشوكة لقوله تعالى قبل : و إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم . . . ٥ و الأول اسم ، و صرّح بالفرق بينهما الفيومي أيضا ٦ .

و قد استعمل (الذات) مضافا إليه تعالى في غير كلامه عليه السلام ، و بيت الصّحار ،

-
- (١) المصباح المنير ١ : ٢٥٧ مادة (ذوى) .
(٢) هود : ٥ .
(٣) الأنفال : ٧ .
(٤) لسان العرب ١٥ : ٤٥٩ مادة (ذو) .
(٥) الأنفال : ٧ .
(٦) المصباح المنير ١ : ٢٥٧ مادة (ذوى) .

الصفحة ٢١٩

و بيت النابغة ، و في كلام سيّدة النساء في خطبتها في فدك : « مكودا في ذات الله » ١ ، و كلامها في مرضها الذي توفيت فيه : « و تنمره في ذات الله » ٢ .

و في بيت أبي تمام :

و يضرب في ذات الإله فيوجع

نقله (المصباح) ٣ و (المغرب) ٤ ، و في كلام العرب على نقل التكملة كما فيهما ٥ : جعل الله ما بيننا في ذاته .

و مرّ خبر (الكافي) : و لا تتكلموا في ذات الله ٦ .

و جاء (ذات) مضافا إلى غير الله في بيت سويد بن كراع العكلي ، و قد نقله (كتاب سيويه) شاهدا لكفّ لعلّ بلفظة (ما) :

تحلّ و عالج ذات نفسك و انظرن
أبا جعل لعلّما أنت حالم

٧ و في بيت ذي الرّمّة ، و قد نقله (الأساس) ، و هو :

و إنّ هوى صيداء في ذات نفسه
بسائر أسباب الصباية راجح

٨ و في بيت حكاة ابن فارس في (متخيّر ألفاظه) كما في (المصباح) :

(١) رواه الطبري في دلائل الامامة : ٣٤ ، و الاربلي في كشف الغمة ٢ : ١١٢ ، و الطبرسي في الاحتجاج ١ : ١٠١ ، لكن رواه ابن أبي الحديد في شرحه ٤ : ٧٩ بدون هذه الفقرة .

(٢) رواه الصدوق في معاني الأخبار : ٣٥٥ ح ١ ، و الجوهري في السقيفة : ١١٨ ، و الطبري في دلائل الامامة : ٤٠ ، و أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ٣٨٤ ، المجلس (١٣) ، و الطبرسي في الاحتجاج ١ : ١٠٨ .

(٣) المصباح المنير ١ : ٣٥٧ مادة (ذوى) .

(٤) المغرب : ١٩٦ مادة (ذوى) .

(٥) المصدران أنفسهما .

(٦) مر هذا الخبر و أخبار أخرى في المعنى في العنوان (١٠) من هذا الفصل .

(٧) أورده سيويه في الكتاب ١ : ٢٨٣ .

(٨) نقله أساس البلاغة : ١٤٧ مادة (ذوى) .

فنعلم ابن عمّ القوم في ذات ماله
إذا كان بعض القوم في ماله كلبا

١ ثمّ الظاهر أنّ معناه في الكلّ واحد في الأصل ، و الاختلاف فيه من خصوصيّة المقام ، فهو في بيت النابغة بمعنى الإله نفسه ، قال الفيومي في بيت النابغة : المجلة (بالجيم) الصحيفة ، أي : كتابهم عبوديّة نفس الإله ٢ .

و في كلامه عليه السّلام و في كلام الصادق عليه السّلام : (ذات الله) أي : حقيقته و هويّته ،

و في كلام الصّديقة عليهما السّلام و بيت الصّحار ، و بيت أبي تمام ، و كلام العرب بمعنى في جنب الله و لأجله .

و في قوله تعالى : عليم بذات الصدور ٣ أي : بباطنها و خفيّتها ، فهو في معنى قوله تعالى : و ما تخفي الصدور ٤ ، و في بيت سويد أيضا بمعنى الباطن ، و في بيت ذي الرّمّة بمعنى شخصه ، و في بيت ابن فارس بمعنى أصله .

« ردعها » أي : كفّها .

« و هي تجوب » أي : تقطع .

« مهاوي » أي : مهالك .

« سدف » أي : ظلم .

« الغيوب متخلّصة إليه سبحانه » لا يخالطها قصد غيره .

« فرجعت إذ جبهت » أي : صكّت جباهها .

« معترفة بأنّه » تعالى .

« لا ينال » بلفظ المجهول .

- (١) المصباح المنير ١ : ٣٥٧ مادة (ذوى) .
 (٢) المصدر نفسه .
 (٣) هود : ٥ .
 (٤) غافر : ١٩ .

الصفحة ٢٢١

« بجور » أي : كثرة .

« الاعتساف » أي : الأخذ على غير الطريق .

« كنه معرفته » عزّ و جلّ ، لكونه من المحالات .

« و لا تخطر ببال » أي : ذهن .

« أولي الرويات » أي : أصحاب التفكر في الأمور .

« خاطرة من تقدير جلال عزّته » كيف لا ، و قد قال تعالى : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربّي و لو جئنا بمثله مددا ١ ؟ و كلامه عليه السّلام من أوّله إلى آخره ناظر إلى قوله تعالى : . . . ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثمّ ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا و هو حسير ٢ .

و مثله دعاء قنوت (الصحيفة السجادية) الثانية : سبحانك طوت الأبصار في صنعتك مديدتها ، و ثنت الألباب عن كنهك أعنتها ٣ .

و قال الصادق عليه السّلام للمفضّل : فإن قالوا : و لم يختلف فيه تعالى ؟ قيل لهم :

لقصر الأوهام عن مدى عظّمته ، و تعدّيها أقدارها في طلب معرفته ، و أنّها تروم الإحاطة به ، و هي تعجز عن ذلك و ما دونه ، فمن ذلك : هذه الشمس التي تراها تطلع على العالم و لا يوقف على حقيقة أمرها ، و لذلك كثرت الأقاويل فيها ،

و اختلف الفلاسفة المذكورون في وصفها ، فقال بعضهم : هو فلك أجوف مملو ناراً له فم يجيش بهذا الوهج و الشعاع . و قال آخرون : هو سحابة . و قال

(١) الكهف : ١٠٩ .

(٢) الملك : ٤٣ .

(٣) لم أعر على نسخته .

الصفحة ٢٢٢

آخرون : هو جسم زجاجي يقل نارياً في العالم و يرسل عليه شعاعها . و قال آخرون : هو صفو لطيف ينعد ماء البحر ، و قال آخرون : هو أجزاء كثيرة مجتمعة من النار . و قال آخرون : هو من جوهر خامس سوى الجواهر الأربعة .

ثم اختلفوا في شكلها و كذلك اختلفوا في مقدارها ففي اختلاف هذه الأقاويل منهم في الشمس دليل على أنهم لم يقفوا على الحقيقة من أمرها ، فإذا كانت هذه الشمس التي يقع عليها البصر و يدركها الحس قد عجزت العقول عن الوقوف على حقيقتها ، فكيف ما لطف عن الحس و استتر عن الوهم ١ .

هذا ، و زاد في رواية التوحيد بعد « من تقدير جلال عزته » : « لبعده من أن يكون في قوى المحدودين لأنه خلاف خلقه فلا شبه له من المخلوقين ، و إنما يشبه الشيء بعديله ، فأما ما لا عدل له ، فكيف يشبهه بغير مثاله » ٢ .

١٢

من الخطبة (٨٩) بعد ما مرّ :

الَّذِي ابْتَدَعَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ امْتَنَلَهُ وَ لَا مِقْدَارٍ اِحْتَدَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ مَعْبُودٍ كَانَ قَبْلَهُ وَ أَرَانَا مِنْ مَلَكُوتِ قُدْرَتِهِ وَ عَجَائِبِ مَا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ وَ اعْتِرَافِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُقِيمَهَا بِمَسَاكِ قُوَّتِهِ مَا دَلَّنَا بِاضْطِرَارٍ قِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ فَظَهَرَتْ فِي الْبَدَائِعِ الَّتِي أَحْدَثَتْهَا آثَارُ صَنْعَتِهِ وَ أَعْلَامِ حِكْمَتِهِ فَصَارَ كُلُّ مَا خَلَقَ حُجَّةً لَهُ وَ دَلِيلًا عَلَيْهِ وَ إِنْ كَانَ خَلْقًا صَامِتًا فَحُجَّتُهُ بِالتَّذَبُّبِ نَاطِقَةً وَ دَلَالَتُهُ عَلَى الْبُدْعِ قَائِمَةٌ

(١) توحيد المفضل : ١٧٨ .

(٢) التوحيد للصدوق : ٥٢ ح ١٣ .

الصفحة ٢٢٣

« الذي ابتدع الخلق » أي : اخترعه ، قال تعالى : بديع السماوات و الأرض . . . ١ .

« على غير مثال امتثله » لنفسه ، كالصائغ الذي يصوغ حلقة من رصاص ،

ثم يصوغ حلقة من ذهب عليها ، و كالبناء الذي يخط في الأرض أو غيرها خطوطا ، ثم يبني بحسبها ، و كالذي يضرب اللبن على القالب .

« و لا مقدار احتذى عليه » أي : جعله مقابلا له ، يقال : حذو النعل بالنعل ،

و القذة بالقذة ٢ . و القذة ، ريش السهم .

« من خالق معبود » و في (المصرية) : « معهود » و هو غلط ٣ .

« كان قبله » كصنّاع يتبعون صنّاعا قبلهم كانوا مخترعي تلك الصنعة .

« و أرانا من ملكوت قدرته » قال تعالى : و من آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ٤ ، فهل قدرة أملك من تلك القدرة التي جعلت التراب بشرا ينتشر ؟

« و عجائب ما نطقت به آثار حكمته » و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ٥ .

فهل من حكمة أعجب من هذه فلو لم تكن أزواج الناس من جنس

(١) البقرة : ١١٧ .

(٢) هذا اصطلاح سائد في لغة العرب ، و جاء في الحديث النبوي : « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو

النعل بالنعل و القذة بالقذة » ، رواه رزين في الجمع عنه جامع الاصول ١٠ : ٤٠٨ ح ٧٤٧١ ، و

الطوسي في الاقتصاد : ٢١٣ ، و المفصح : ١٢٧ ،

- و أورد الميداني في مجمع الأمثال ١ : ١٩٥ و الزمخشري في المستقصى ٢ : ٦١ : « حذو القذة بالقذة » ، و قال الزمخشري يضرب في التماثلين .
- (٣) لفظ شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٣ : « معبود » ، و لفظ شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ : « معهود » .
- (٤) الروم : ٢٠ .
- (٥) الروم : ٢١ .

الصفحة ٢٢٤

أنفسهم لنفروا عنها و لم يسكنوا اليها ، و لنفرت الأزواج عنهم ، و لم تسكن إليهم ، كما أنه لو لم يكن جعل تعالى بينهم مودة و رحمة ، كيف كان الرجال يتحملون مشاق مؤونات النساء ، و كيف كانت النساء يتحملن مشاق تكاليفات الرجال ، الى غير ذلك من غرائب قدرته و عجائب حكمته في خلقه الذي لا يحصى .

« و اعتراف الحاجة من الخلق » بلسان الحال .

« إلى أن » هكذا في النسخ ١ ، و الظاهر كونه مصحّف (إلى من) .

« يقيمها بمساک قوّته » إنّ الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . . . ٢ .

« ما » مفعول ثان لقوله « و أرانا » .

« دلّنا باضطرار قيام الحجّة له على معرفته » بالوجود و القدرة و الحكمة .

« و ظهرت في البدائع التي أحدثها آثار صنعته و أعلام حكمته » هكذا في (النهج) ٣ ، و الظاهر وقوع سقط لعدم ربط الكلام من أوله بما قبله .

و يشهد للسقط رواية (التوحيد) ففيها قبله « الذي صدرت الأمور عن مشيئته ، و تصاغرت عزّة المتجبرين دون جلال عظّمته ، و خضعت له الرقاب ،

و عنت الوجوه من مخافته » ٤ .

« فصار كلّ ما خلق حجّة له و دليلا عليه » قال :

فوا عجا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد

- (١) كذا في نهج البلاغة ١ : ١٦٣ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٣ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ .
(٢) فاطر : ٤١ .
(٣) كذا في نهج البلاغة ١ : ١٦٣ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٣ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ .
(٤) التوحيد للصدوق : ٥٢ ح ١٣ .

الصفحة ٢٢٥

و في كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

١ « و إن كان خلقا صامتا » و في (ابن ميثم) ٢ : « و إن كان صامتا » .

« فحجته بالتدبير » أي : بوجود مدبر للخلائق .

« ناطقة » بلسان الحال .

« و دلالاته على البدع » : أي كونه تعالى مبدعا لها .

« قائمة » بشهادة العقول ، قال بعضهم في وصف النرجس :

عيون في جفون في فنون
بدت فأجاد صنعتها المليك

بأبصار التغنج لا محات
كأن حذاقها ذهب سبيك

على غصن الزمرد مخبرات
بأن الله ليس له شريك

من الخطبة (٨٩) بعد ما مرّ :

فَأَشْهَدُ أَنَّ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايِنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ وَ تَلَاحُمِ حَقَاقِ مَفَاصِلِهِمُ الْمُحْتَجِبَةِ لِتَدْبِيرِ حِكْمَتِكَ لَمْ يَعْقُدْ غَيْبَ ضَمِيرِهِ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَ لَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ الْبَقِيْنَ بِأَنَّهُ لَا نَدَّ لَكَ وَ كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ تَبَرُّؤَ التَّابِعِينَ مِنَ الْمَتَّبِعِينَ إِذْ يَقُولُونَ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ١ ١٠ ٢٦ : ٩٧ ٩٨ ٣ كَذَبَ الْعَادِلُونَ بِكَ إِذْ شَبَّهُوكَ بِأَصْنَافِهِمْ وَ نَحَلُّوكَ حَلِيَّةَ الْمَخْلُوقِينَ بِأَوْهَامِهِمْ وَ جَزَعُوكَ تَجْزِئَةَ الْمَجْسَمَاتِ بِخَوَاطِرِهِمْ وَ قَدَّرُوكَ عَلَى الْخَلْقَةِ الْمُخْتَلَفَةِ الْقَوَى بِقِرَائِحِ عُقُولِهِمْ وَ أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ

(١) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ١٤٤ .

(٢) في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ ، و في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٣ « خلقا صامتا » أيضا .

(٣) الشعراء : ٩٧ ٩٨ .

الصفحة ٢٢٦

سَأَوَاكَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِكَ فَقَدْ عَدَلَ بِكَ وَ الْعَادِلُ بِكَ كَافِرٌ بِمَا نَزَلَتْ بِهِ مُحْكَمُ آيَاتِكَ وَ نَطَقَتْ بِهِ شَوَاهِدُ حُجَجِ بَيِّنَاتِكَ وَ أَنْتَ اللَّهُ الَّذِي لَمْ تَتَنَاهَ فِي الْعُقُولِ فَتَكُونَ فِي مَهَبٍ فِكْرَهَا مُكَيِّفًا وَ لَا فِي رَوِيَّاتِ خَاطِرِهَا مَحْدُودًا مُصْرَفًا « فَأَشْهَدُ » إِبْرَارَهُ عَلَيْهِ السَّلَامَ عَنْ شَهَادَتِهِ لِتَأْكِيدِ الْمَطْلَبِ نَظِيرِ قَوْلِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامَ لِقَوْمِهِ :

إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ . من دونه

« أَنْ مَنْ شَبَّهَكَ بِتَبَايِنِ أَعْضَاءِ خَلْقِكَ » فِي كَوْنِ بَعْضِهَا أَفْرَادًا وَ بَعْضِهَا أَزْوَاجًا ، قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمَفْضَلِ : فَالرَّأْسُ مِمَّا خَلَقَ فَرْدًا ، وَ لَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ صِلَاحٌ فِي أَنْ يَكُونَ لَهُ أَكْثَرُ مِنْ وَاحِدٍ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ أُضِيفَ إِلَى رَأْسِ الْإِنْسَانِ رَأْسٌ آخَرَ لَكَانَ تَقْلًا عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَيْهِ ، لِأَنَّ الْحَوَاسِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا مَجْتَمَعَةٌ فِي رَأْسٍ وَاحِدٍ ، ثُمَّ كَانَ الْإِنْسَانُ يَنْقَسِمُ قَسْمَيْنِ لَوْ كَانَ لَهُ رَأْسَانِ ، فَإِنْ تَكَلَّمَ مِنْ أَحَدِهِمَا كَانَ الْآخَرُ مَعْطَلًا لَا إِرْبَ فِيهِ وَ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَ إِنْ تَكَلَّمَ مِنْهُمَا جَمِيعًا بِكَلَامٍ وَاحِدٍ كَانَ أَحَدُهُمَا فَضْلًا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، وَ إِنْ تَكَلَّمَ بِأَحَدِهِمَا بِغَيْرِ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ مِنَ الْآخَرِ ، لَمْ يَدْرِ السَّمَاعُ بِأَيِّ ذَلِكَ يَأْخُذُ ، وَ أَشْبَاهُ هَذِهِ مِنَ الْأَخْلَاطِ . وَ الْبِدَانُ مِمَّا خَلَقَ أَزْوَاجًا ، وَ لَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ خَيْرٌ فِي أَنْ يَكُونَ لَهُ يَدٌ وَاحِدَةٌ ، لِأَنَّ ذَلِكَ كَانَ يَخْلُ بِهَ فِي مَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعَالَجَتِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ النَّجَارَ وَ الْبِنَّاءَ لَوْ شَلَّتْ إِحْدَى يَدَيْهِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْالِجَ صِنَاعَتَهُ ، وَ إِنْ تَكَلَّفَ ذَلِكَ لَمْ يَحْكَمْهُ ، وَ لَمْ يَبْلُغْ مِنْهُ مَا يَبْلُغُهُ إِذَا كَانَتْ يَدَاهُ تَتَعَاوَنَانِ عَلَى الْعَمَلِ ٢ .

« وَ تَلَاحُمِ » أَي : تَلَاصِقِ ، مِنْ تَلَاحَمَتِ الشَّجَّةِ : تَلَاَمَ لِحْمَهَا .

« حقاق » جمع الحق بالضم ، و في (الجمهرة) : الحق رأس العضد الذي فيه

(١) هود : ٥٤ ٥٥ .

(٢) توحيد المفضل : ٦١ .

الصفحة ٢٢٧

الوابلة ، و أصل الورك الذي فيه عظم رأس الفخذ ١ ، و زاد (اللسان) : و النقرة التي في رأس الكتف أيضا ٢ .

« مفاصلهم المحتجة » عن العيون ، و في (توحيد المفضل) : و لو رأيت الدماغ اذا كشف عنه لرأيتك قد لف بحجب بعضها فوق بعض لتصونه من الأعراض و تمسكه فلا يضطرب ، و لرأيت عليه الجمجمة بمنزلة البيضة كيما تقيه هذ الصدمة و الصكة التي ربما وقعت في الرأس ، ثم قد جللت الجمجمة بالشعر حتى صارت بمنزلة الفرو للرأس ، يستره من شدة الحرّ و البرد ، فمن حصن الدماغ هذا التحصين إلا الذي خلقه ، و جعله ينبوع الحس و المستحق للحيطه و الصيانة بعلو منزلته من البدن ، و ارتفاع درجته و خطير مرتبته . تأمل يا مفضل الجفن على العين كيف جعل كالغشاء ، و الأشفار كالأشراج و أولجها في هذا الغار ، و أظللها بالحجاب ، و ما عليه من الشعر .

يا مفضل من غيب الفؤاد في جوف الصدر ، و كساه المدرعة التي هي غشاوة و حصنه بالجوانح ، و ما عليها من اللحم و العصب لئلا يصل إليه ما ينكؤه ٣ .

« لتدبير حكمتك » في تباين ما تباين من الأعضاء ، و تلاحم حقاق ما احتجبت من المفاصل على ما عرفت .

هذا و قال ابن أبي الحديد : روى بعضهم قوله عليه السلام : « المحتجة لتدبير حكمتك » : (المحتجة) فمن قال : المحتجة ، أراد أنها بما فيها من لطيف الصنعة كالمحتجة المستدلة على التدبير الحكمي من لدنه سبحانه ، و من قال :

(١) جمهرة اللغة لابن دريد ١ : ٦٣ .

(٢) لسان العرب ١٠ : ٥٦ مادة (حقق) .

(٣) توحيد المفضل : ٦٤ .

الصفحة ٢٢٨

المحتجبة ، أراد المستتره لأنّ تركيبها الباطن خفي محجوب ١ .

و الاشكال عليه أنّ ابن ميثم الذي نسخه بخطّ المصنّف لم ينقل غير « المحتجبة » ٢ ، و رواية التوحيد أيضا بلفظ « المحتجبة » نسخة واحدة ٣ ، و قد عرفت أنّ التدبير مربوط بجميع الكلام لا بخصوص تلاحم حقايق المفاصل .

و كيف كان فبيانه عليه السّلام لتدبير حكمته تعالى في الأعضاء و المفاصل ضمنىّ ، فإنّه عليه السّلام في مقام إنكار تشبيهه الخالق بالخالق ، كما أنّه قد يكون الكلام في غير مقام المدح و القدح ، و يحصلان ضمنا .

كما أنّ قوله عليه السّلام : « شبّهك بتباين » جعل وجه الشبه و المشبّه و المشبّه به اختصارا و ايضاحا لشناعة فعالهم .

« لم يعقد غيب ضميره على معرفتك » أي أنّ المشبّه له تعالى بالخلق ، و إن ادعى أنّه عرفك ، إلاّ أنّه لم يصل إلى معرفتك ، حيث إنّ ما تصوره الربّ ليس بربّ .

و لما اتّهم الواثق أحمد بن نصر الخزاعيّ بالخروج عليه ، فأخذ و حمل اليه ، قال له الواثق : دع ما أخذت له ، أفتري ربّك في القيامة ؟

قال : كذا جاءت الرواية .

فقال : ويحك يرى كما يرى المحدود المتجسم يحويه مكان ، و يحصره الناظر ، أنا أكفر بربّ هذه صفته ، ما تقولون فيه ؟

فقال ابن أبي داود : شيخ مختل لعلّ به عاهة أو تغير عقل .

قال الواثق : ما أراه إلاّ مؤدّيا لكفره قائما بما يعتقد ، و دعا بالصّمصامة

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٤ .

(٢) في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٢٩ (المحتجبة) .

(٣) التوحيد للصدوق : ٥٤ ح ١٣ و لم ينقل في الهامش اختلاف بين النسخ .

الصفحة ٢٢٩

و قال : إذا قمت إليه ، فلا يقوم أحد معي ، فإني أحتسب خطاي إلى هذا الكافر الذي يعبد رباً لا نعبده ،
و لا نعرفه بالصفة التي وصفه بها . و مشى إليه حتى ضرب عنقه ١ .

و من المضحك أنّ الخطيب الحشويّ وضع له نومين ، أحدهما : رأوه في النوم ، فقال : لقيت الله فضحك
إليّ . و الثاني : رأوه في النوم ، فقال : غضبت لله فأباحني النظر الى وجهه . تعالى الله عما يقول
الظالمون علواً كبيراً .

و روى ذلك الحشوي في عنوانه للحسين بن شبيب خبراً عن أبي بكر الصيد لاني عن أبي بكر المروزيّ
بأسناد له أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله و سلم قال : الكرسيّ الذي يجلس عليه الربّ و ما يفضل منه إلاّ
قدر أربع ، و إن له أطيطاً كأطيط الرّحل الجديد (أي صوته) .

و قال ذلك الحشويّ : من ردّ هذا فإنما أراد الطعن على أبي بكر المروزي ،

و على أبي بكر بن سلم . و هل كانا إلاّ رجلين معروفين بالمنكر ؟ و من العجب أنّ ذلك الحشوي يطعن
على أدلّة العقول و على كلام الرسول صلى الله عليه و آله ، و يذعن و يسكن الى جمع حشويين ناصبيين
معتقدين بما تكاد السماوات ينفطرن منه و تتشقّ الأرض و تخرّ الجبال هذا ٢ .

و قال الرضا عليه السلام : إلهي بدت قدرتك ، و لم تبد هيئته ، فجهلوك و قدّروك ،

و التقدير على غير ما به وصفوك ، و إنّي بريء يا إلهي من الذين بالتشبيه طلبوك ٣ .

(١) نقله الطبري في التاريخ ٧ : ٣٢٨ (سنة ٢٣١) ، و نقله الشارح بتصريف ، و قد سبق بعض
القصة في العنوان (٨) من هذا الفصل .

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٨ : ٥٢ ، و الآية (٩٠) من سورة مريم .

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٢٤ ح ٢ ، و العيون ١ : ٩٥ ح ٥ ، و أماليه : ٤٨٧ ح ٢ المجلس

(٨٩) ، و نقله المجلسي عن الكتاب العتيق للغروي في بحار الأنوار ٩٤ : ١٨١ ح ٩ عن الرضا عليه

السلام ، و أخرجه المفيد في الإرشاد : ٢٦٠ عن السجاد عليه السلام .

الصفحة ٢٣٠

« و لم يباشر قلبه اليقين بأنه لا ندّ » أي : مثل .

« لك » و إنما استندوا إلى أوهام ، و اعتمدوا على أباطيل ، و منهم أبو إسماعيل الهرويّ ، فاستند في ما توهم إلى ما عن مراره بمراحل ، فقال : لما عاب تعالى الأصنام بعدم أرجل يمشون بها ، و أيد يبطشون بها ، و أعين يبصرون بها ، و آذان يسمعون بها حيث قال : ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ١ ، و قال : إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ، ٢ و قال : أ لم يروا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلا ، ٣ و قال : أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ٤ تبين أنه تعالى تمدّح بها ، و أنها حقائق فيه ٥ .

فإنّ عيبهم بما قال لا يستلزم مدحه بها كما توهم ، و إلّا لزم أن يكون جميع البشر آلهة ، فعاب ألتهم بعدم كونهم مثلهم تهجيناً لعقولهم ، و لا ينافي ذلك اختصاص الإله من عبده بكونه جامعاً للصفات الكمالية بدون الحاجة إلى الجوارح الظاهرية .

« و كأنه لم يسمع تبرؤ التابعين من المتبوعين إذ يقولون تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم بربّ العالمين » ٦ و الآيتان في الشعراء ، و قبلهما :

قالوا و هم فيها يختصمون ٧ . و المراد من التابعين : الغاوون ، و من

(١) الأعراف : ١٩٥ .

(٢) فاطر : ١٤ .

(٣) الأعراف : ١٤٨ .

(٤) طه : ٨٩ .

(٥) نقله عن ابن طاووس في الطرائف ٢ : ٣٤٥ .

(٦) الشعراء : ٩٧ ٩٨ .

(٧) الشعراء : ٩٦ .

الصفحة ٢٣١

المتبوعين : ما يعبدون من دون الله ، قال تعالى : و برزت الجحيم للغاوين .

و قيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ١ .

و خطابه عليه السّلام و إن كان مع الموحّدين ، و الآيات في المشركين ، إلا أنّهم لما شبّهوه بخلقه صاروا كالمشركين غيره تعالى له عزّ وجلّ كما قال عليه السّلام ٢ .

« إذ شبّهوك بأصنامهم » في إثبات الجسميّة له ، و في (التوحيد) بدل (بأصنامهم) (بأصنافهم) ٣ .

« و نحلوك » أي : ادّعوا لك باطلا .

« حلية المخلوقين » التي يكون الخالق منزّها عنها .

« بأوهامهم » و لم يراجعوا عقولهم .

« و جزؤوك تجزئة المجسمات بخواطرهم ، و قدّروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائح عقولهم » الناقصة ، و المراد : باستنباط عقولهم الضعيفة ، و الأصل في القريحة أول ماء يستنبط من البئر .

قال الدواني : المشبّهة منهم من قال : إنّه جسم حقيقة . ثم افترقوا ، فقال بعضهم : إنّه مركّب من لحم و دم . و قال بعضهم : هو نور متألّي كالسبيكة البيضاء طوله سبعة أشبار بشبر نفسه ، و منهم من قال : إنّه على صورة إنسان . و منهم من يقول : إنّه شاب أمرد جعد ققط . و منهم من قال : إنّه شيخ أشمط الرأس و اللحية . و منهم من قال : هو في جهة الفوق مماسّ للصّحفة العليا من العرش ، و يجوز عليه الحركة و الانتقال ، تبدل الجهات و يئطّ العرش

(١) الشعراء : ٩٣ ٩١ .

(٢) لم يتعرض الشارح لشرح فقرة « كذب العادلون بك » .

(٣) التوحيد للصدوق : ٥١ ح ١٣ و نصه : « إذ شبّهوه بمثل أصنافهم » و في نسخة (أصنامهم) .

الصفحة ٢٣٢

تحتة أطيط الرجل الجديد تحت الرّاكب الثقيل ، و هو يفضل على العرش بقدر أربع أصابع . و منهم من قال : هو محاذ للعرش غير مماسّ له ، و بعده عنه بمسافة متناهية ، و قيل : بمسافة غير متناهية ١ . . . إلى غير ذلك من خرافاتهم .

تعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً .

« و أشهد أنّ من ساواك بشيء من خلقك فقد عدل بك » عن جلالك .

« و العادل بك » غيرك .

« كافر بما نزلت به محكم آياتك » قال تعالى : أله مع الله بل هم قوم يعدلون ٢ ، و لا تتبّع أهواء الذين كذبوا بآياتنا و الذين لا يؤمنون بالآخرة و هم بربّهم يعدلون ٣ ، ثم الذين كفروا بربّهم يعدلون ٤ .

« و نطقت به شواهد حجج بيّناتك » من دلالة العقول على عدم إمكان كون الخالق كالخلائق .

« و أنت الله الذي لم تتناه في العقول » لقصورها عن الإحاطة بك .

« فتكون في مهبّ » رياح .

« فكرها » ككثير من الأشياء .

« مكيفًا » بكيفية .

« و لا في روّيات خاطرها » أي تفكرها في الأمور .

« محدودا مصرّفًا » كخلقه ، ورد أنّ رجلا قال له عليه السّلام : أين المعبود ؟

فقال عليه السّلام : لا يقال له : أين . لأنّه أين الأينية ، و لا يقال له : كيف . لأنّه كيف الكيفية ، و لا يقال له : ما هو . لأنّه خلق الماهية . سبحانه من عظيم تاهت الفطن

(١) نقله عن الدواني المجلسي في بحار الأنوار ٣ : ٢٨٩ .

(٢) النمل : ٦٠ .

(٣) الأنعام : ١٥٠ .

(٤) الأنعام : ١ .

هذا ، و في (منهاج العلامة) : حكى عن بعض المنقطعين التاركين من شيوخ الحشوية أنه اجتاز عليه في بعض الأيام نفاط و معه أمرد حسن الصورة ققط الشعر على الصفات التي يصفون ربهم بها ، فألح بالنظر إليه و كرّره ، فتوهم منه النفاط أمرا ، فجاء إليه ليلا و قال له : رأيتك تلح بالنظر إلى هذا الغلام و قد أتيتك به ، فإن كان لك فيه نية فأنت الحاكم . فحرد عليه ، و قال :

إنما كررت النظر لأن مذهبي : أن الله ينزل على صورة هذا الغلام ، فتوهمت أنه الله . فقال له النفاط : و الله ما أنا عليه من النفاطة أجود مما أنت عليه من الزهد مع هذه المقالة .

و فيه : و ذهب بعضهم إلى أنه تعالى ينزل في كل ليلة جمعة على شكل أمرد ببغداد راكبا على حمار ، حتى ان بعضهم ببغداد صنع على سطح داره معلقا ، و يضع كل ليلة جمعة فيه شعيرا و تبنا ، فلعل ينزل الله على حماره على ذلك السطح ، فيشتغل الحمار بالأكل ، و يشتغل الرب بالنداء ، و يقول : هل تائب مستغفر ؟ ٢

١٤

من الخطبة (٨٩) بعد ما مر :

قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَلْطَفَ تَقْدِيرَهُ وَ دَبَّرَهُ فَأَحْكَمَ تَدْبِيرَهُ وَ وَجَّهَهُ لَوَجْهَتِهِ فَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَ مَنَزَلَتِهِ وَ لَمْ يَقْصُرْ دُونَ
الْإِنْتِهَاءِ إِلَى غَايَتِهِ وَ لَمْ

(١) رواه الفتال في روضة الواعظين ١ : ٣٧ و روى في معناه كثيرا لم يسع المقام لذكره .

(٢) نقلهما العلامة الحلي في منهاج الكرامة : ٧ و نقلناهما بتصريف يسير .

الصفحة ٢٣٤

يَسْتَصْعَبُ إِذْ أَمَرَ بِالْمُضِيِّ عَلَى إِرَادَتِهِ وَ كَيْفَ وَ إِنَّمَا صَدَرَتْ الْأُمُورُ عَنْ مَشِيئَتِهِ الْمُنْشِئِ أَصْنَافَ الْأَشْيَاءِ بِلَا
رَوِيَّةٍ فِكْرٍ آلِ إِلَيْهَا وَ لَا قَرِيحَةٍ غَرِيِزَةٍ أَضْمَرَ عَلَيْهَا وَ لَا تَجْرِبَةَ اسْتِفَادَهَا مِنْ حَوَادِثِ الدُّهُورِ وَ لَا شَرِيكَ
أَعَانَهُ عَلَى ابْتِدَاعِ عَجَائِبِ الْأُمُورِ فَتَمَّ خَلْقُهُ وَ أَدْعَنَ لِبَطَاعَتِهِ وَ أَجَابَ إِلَى دَعْوَتِهِ وَ لَمْ يَعْتَرِضْ دُونَهُ رَيْثُ
الْبَطِيّ وَ لَا أَنَاةُ الْمُتَلَكِّيِّ فَأَقَامَ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْدَهَا وَ نَهَجَ حُدُودَهَا وَ لَاعَمَّ بِقُدْرَتِهِ بَيْنَ مُتَضَادِّهَا وَ وَصَلَ أَسْبَابَ
قَرَائِنِهَا وَ فَرَّقَهَا أَجْنَاسًا مُخْتَلِفَاتٍ فِي الْحُدُودِ وَ الْأَقْدَارِ وَ الْغَرَائِزِ وَ الْهَيْئَاتِ بَدَائِيًا خَلَاتِقَ أَحْكَمَ صُنْعَهَا وَ

فَطَرَهَا عَلَى مَا أَرَادَ وَ ابْتَدَعَهَا « قَدَّرَ مَا خَلَقَ فَأَلْطَفَ » هكذا في (المصرية) ١ ، و الصواب : (فأحکم)

« تقديره » فالق الإصباح و جعل الليل سكنا و الشمس و القمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ٢ ، سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض و من أنفسهم و مما لا يعلمون . و آية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . و الشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . و القمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ٣ .

« و دبره فأحکم » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (فألطف) كما في غيرها ٤ .

« تدبيره » قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . و جعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها و قدر

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٥ « فأحکم » و في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤٠ « فألطف » .

(٢) الأنعام : ٩٦ .

(٣) يس : ٣٦ ٣٩ .

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٣٥ « فألطف » ، و في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤١ « فأحکم » .

الصفحة ٢٣٥

فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ١ .

و في دعاء الهلال : « سبحانه ما أعجب ما دبر في أمرك ، و ألطف ما صنع في شأنك ، جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث » ٢ .

و في (توحيد المفضل) قال الصادق عليه السلام : « انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خص بها الإنسان في خلقه ، و شرف بها على غيره ، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ليتمكن من مطالعة الأشياء ، و لم تجعل في الأعضاء التي تحتهن كاليدين و الرجلين فتعترضها الآفات ،

و يصيبها من مباشرة العمل و الحركة ما يعللها و يؤثر فيها ، و ينقص منها ، و لا في الأعضاء التي وسط البدن كالبدن و الظهر ، فيعسر ثقلها و اطلاعها نحو الأشياء » ٣ . و فيه أيضا : « اعتبر الآن يا مفضل بعظم النعمة على الإنسان في مطعمه و مشربه ، و تسهيل خروج الأذى ، أليس من حسن التقدير في بناء

الدار أن يكون الخلاء في أستر موضع منها ؟ فكذا جعل الله سبحانه المنفذ المهيباً للخلاء من الإنسان في أستر موضع منه ، فلم يجعله بارزا من خلفه ، و لا ناشرا من بين يديه ، بل هو مغيب في موضع غامض من البدن ، مستور محجوب يلتقي عليه الفخذان ، و تحجبه الإليتان بما عليهما من اللحم فتواريانه ، فإذا احتاج الإنسان الى الخلاء و جلس تلك الجلسة ألقى ذلك المنفذ منه منصبا مهيباً لانحدار الثقل ، فتبارك من تظاهرت آلاؤه و لا تحصى نعمائه « ٤ .

« و وجهه » أي : ما خلق .

« لوجهته » التي ينبغي أن يكون عليها .

(١) فصلت : ١٠٩ .

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة : ٢١٠ ، الدعاء (٤٣) .

(٣) توحيد المفضل : ٥٨ .

(٤) توحيد المفضل : ٧٠ .

الصفحة ٢٣٦

« فلم يتعدّ حدود منزلته ، و لم يقصر دون الانتهاء إلى غايته » بل يصير إلى ما خلق له بلا زيادة و لا نقصان .

في (توحيد المفضل) : انظر الآن كيف حياء الأنثى من الفيلة في أسفل بطنها ، فإذا هاجت للضراب ارتفع و برز حتى يتمكن الفحل من ضربها ، فاعتبر كيف جعل حياء الأنثى من الفيلة على خلاف ما عليه في غيرها من الأنعام ، ثم جعلت فيه هذه الخلّة ليتها للأمر الذي فيه قوام النسل و دوامه ١ .

« و لم يستصعب » ما خلق .

« إذ أمر بالمضي » و النفوذ .

« على إرادته » و وفق مشيئته ، قال تعالى : ثم استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض اتئبنا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها و زيناً السماء الدنيا بمصابيح و حفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ٢ ، و : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كلّ في فلك يسبحون ٣ .

« و كيف » يستصعب شيء عن إرادته تعالى .

« و إنما صدرت الأمور عن مشيئته » إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ٤ ، و ما تشاؤون إلاّ أن يشاء الله ٥ .

« المنشئ أصناف الأشياء بلا رويّة » أي : تأمل .

« فكر آل » أي : رجع .

(١) توحيد المفضل : ١٠٤ .

(٢) فصلت : ١٢ ١١ .

(٣) يس : ٤٠ .

(٤) يس : ٨٢ .

(٥) الانسان : ٣٠ .

الصفحة ٢٣٧

« اليها » كالناس في أفعالهم و هو الذي أنشأ جنّات معروشات و غير معروشات و النّخل و الزّرع مختلفا أكله و الزيتون و الرّمان متشابها و غير متشابهة كلوا من ثمره إذا أثمر و أتوا حقّه يوم حصاده و لا تسرفوا إنّه لا يحبّ المسرفين . و من الأنعام حمولة و فرشا ١ .

« و لا قريحة » و الأصل في القريحة أوّل ماء يستنبط من البئر ، ثمّ استعير لما يستنبط بجودة الطبع .

« غريزة » بتقديم الرّاء على الزّاء ، أي : الطبيعة .

« أضمر » أي : عمل في الضمير .

« عليها » أي : على تلك القريحة .

« و لا تجربة استفادها من حوادث الدهور » كالنّاس المعمّرين .

« و لا شريك أعانه على ابتداع عجائب الأمور » حسب شأن الخلائق .

« فتمّ خلقه » من حيث جمعه لجميع مصالحه . . . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . . . ٢ .

« و أذعن » أي : خضع و ذلّ .

« لطاعته » أي : إطاعته .

« و أجاب إلى دعوته » فلما قال بلسان القدرة للسماء و الأرض : . . . ائتيا طوعا أو كرها . . . قالتا بلسان المذلة له : . . . ائتينا طائعين ٣ .

« و لم يعترض دونه ريث » الرّيث : ضد العجلة كالبطء .

« البطيء و لا أناة » أي : تأن .

(١) الأنعام : ١٤١ ١٤٢ .

(٢) الملك : ٣ .

(٣) هذا اقتباس من قوله تعالى : ثم استوى الى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا ائتينا طائعين فصلت : ١١ .

الصفحة ٢٣٨

« المتلكّي » أي : المتباطئ ، في رواية (التوحيد) بدل « و أجاب إلى دعوته . . . »

أناة المتلكّي « : « و وافى الوقت الذي أخرجه إليه إجابة لم يعترض دونها ريث المبطئ ، و لا أناة المتلكّي « ١ . و هو الأقرب لإفادة المقصد .

و المراد : أنّ ما يحصل في الوجود كالأسنان للرّضيع ، و اللحية للرجل ،

و التّدي للمرأة ، إنّما كان لأنّ الأوّل إنّما يوافي الوقت الذي يحتاج إلى الأكل ،

و الثاني إنّما يوافي الوقت الذي يتميّز الرّجل من الطفل ، و الثالث إنّما يوافي الوقت الذي تستعدّ المرأة للحمل ، و كلّ منها قبل ذلك وجوده لغو ، لا أنّها تلكأت و أبطأت عليه تعالى كالناس يريدون شيئا لا يحصل لهم في ذلك الوقت .

« فأقام من الأشياء أودها » أي : عوجها .

« و نهج » أي : أوضح .

« حدودها » و نقله ابن أبي الحديد (جددها) ، و قال : أي طريقها ٢ . مع أن في (الصحاح) : الجدد ، بالفتح ، الأرض الصلبة ٣ ، و في (اللسان) قال ابن شميل :

الجدد ما استوى من الأرض ٤ .

قلت : و يشهد للثاني المثل : من سلك الجدد أمن العثار ٥ . ثم في (التوحيد) بدل الجملة « و نهى معالم حدودها » ٦ .

« و لاعم بقدرته بين متضادها » فسر متضاد الأشياء التي لاعم تعالى

(١) التوحيد للصدوق : ٥٣ ح ١٣ .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٥ « حدودها » أيضا ، و في : ١٤٦ شرح فقرة « نهج البلاغة » بلفظ « أوضح الطريق » ، و في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤٤ « جددها » ، و في : ٣٤٤ جعل « حدودها » رواية و شرح الفقرة بلفظ « هو ايضاحه لكل شيء و جهته و غايته التي تيسرها له » .

(٣) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٤٤٩ مادة (جدد) .

(٤) لسان العرب ٣ : ١٠٩ مادة (جدد) .

(٥) أورده الميداني في مجمع الأمثال ٢ : ٣٠٦ و الزمخشري في المستقصى ٢ : ٣٥٦ و قالوا : يضرب في طلب العافية .

(٦) التوحيد للصدوق : ٥٤ ح ١٣ .

الصفحة ٢٣٩

بينها بعضهم بالحرارة و البرودة و الرطوبة و اليبوسة ، و بعضهم بالنار و الماء و الريح و التراب .

« و وصل أسباب قرانها » قيل : المراد اقتران النفوس بالأبدان . و قيل :

هدايتها لما هو الأليق بها في معاشها و معادها . و زاد (التوحيد) « و خالف بين ألوانها » ١ .

« و فرّقها أجناساً مختلفات » الإنسان و أنواع الحيوانات و الطيور و الهوامّ .

« في الحدود و الأقدار » أي : المقادير .

« و الغرائز » بتقديم الرّاء ، أي : الطّبائع .

« و الهيئات » أي : الأشكال ، قال الصادق عليه السّلام للمفضّل : فكّر يا مفضّل في هذه الأصناف الثلاثة من الحيوان ، و في خلقها على ما هي عليه ممّا صلاح كلّ واحد منها ، فالإنس لما قدروا أن يكونوا ذوي ذهن و فطنة و علاج لمثل هذه الصناعات من البناء و النجارة و الصباغة و غير ذلك خلقت لهم أكفّ كبار ذوات أصابع غلاظ ، ليتمكنوا من القبض على الأشياء و أوكدها هذه الصناعات ، و آكلات اللحم لما قدر أن تكون معائشها من الصيد خلقت لهم أكفّ لطاف مدمجة ذوات برائن و مخالبا تصلح لأخذ الصيد و لا تصلح للصناعات ، و آكلات النبات لما قدر أن يكونوا لا ذوات صنعة و لا ذوات صيد ،

خلقت لبعضها أظلاف تقيها خشونة الأرض إذا حاولت طلب المرعى ،

و لبعضها حوافر مملمة ذوات قعر كأخمص القدم تنطبق على الأرض عند تهيئتها للركوب و الحمولة . تأمل التدبير في خلق آكلات اللحم من الحيوان حين خلقت ذوات أسنان حداد و برائن شداد و أشداق و أفواه واسعة ، فإنّه لما قدر أن يكون طعمها اللحم ، خلقت خلقة تشاكل ذلك ، و أعينت بسلاح و أدوات

(١) التوحيد للصدوق : ٥٤ ح ١٣ .

الصفحة ٢٤٠

تصلح للصيد ، و كذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير و مخالبا مهياً لفعالها ،

و لو كانت الوحوش ذوات مخالبا كانت قد أعطيت ما لا تحتاج إليه ، لأنها لا تصيد و لا تأكل اللحم ، و لو كانت السباع ذوات أظلاف كانت قد منعت ما تحتاج إليه ، أعني السلاح الذي تصيد و تتعيش . أفلا ترى كيف أعطي كلّ واحد من الصنفين ما يشاكل صنفه و طبقتة ، بل ما فيه بقاؤه و صلاحه ١ .

« بدايا خلائق أحكم صنعها » قال الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر في خلق الزرافة و اختلاف أعضائها ، و شبهها بأعضاء أصناف من الحيوان ، فرأسها رأس فرس ، و عنقها عنق جمل ، و أظلافها أظلاف بقرة ، و جلدها جلد نمر ،

و زعم ناس من الجهال بالله تعالى أنّ نتاجها من فحول شتى قالوا : و سبب ذلك أنّ أصنافا من حيوان البرّ إذا وردت الماء تنزو على بعض السائمة و ينتج مثل هذا الشخص الذي هو كالملتقط من أصناف شتى ، و هذا جهل من قائله و قلة معرفة بالبارئ جلّ قدسه ، و ليس كلّ صنف من الحيوان يلقح كلّ صنف ، فلا الفرس يلقح الجمل ، و لا الجمل يلقح البقر ، و إنّما يكون التلقيح من بعض الحيوان في ما يشاكله ، و يقرب من خلقه كما يلقح الفرس الحمار ، فيخرج بينهما البغل ، و يلقح الذئب الضبع ، فيخرج بينهما السمع . ٢

« و فطرها على ما أراد و ابتدعها » سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . و الذي قدر فهدى ٣ .

و قال الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر في الفطن التي جعلت في البهائم لمصلحتها بالطبع و الخلق ، لطف من الله عزّ و جلّ لهم لئلاّ يخلو من نعمه جلّ

(١) توحيد المفضل : ٩٦ .

(٢) توحيد المفضل : ١٠٤ .

(٣) الأعلى : ٣١ .

الصفحة ٢٤١

و عزّ أحد من خلقه ، لا بعقل و رويّة ، فإنّ الأيل يأكل الحيات فيعطش عطشا شديدا ، فيمتنع عن شرب الماء خوفا من أن يدبّ السمّ في جسمه فيقتله ، و يقف على الغدير و هو مجهود عطشا ، فيعجّ عجيجا عاليا و لا يشرب منه ، و لو شرب لمات من ساعته . فانظر إلى ما جعل من طباع هذه البهيمة من تحمل الظماء الغالب الشديد خوفا من المضرّة في الشرب ، و ذلك ممّا لا يكاد الإنسان العاقل المميّز يضبطه من نفسه ١ .

هذا ، و زاد (التوحيد) على ما مرّ : « انتظم علمه صنوف نرئها ، و أدرك تدبيره حسن تقديرها » ٢ .

من الخطبة (١٠٦) و من خطبة له عليه السلام (و هي من خطب الملاحم) :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمُتَجَلِّي لَخَلْقِهِ بِخَلْقِهِ وَ الظَّاهِرِ لِقُلُوبِهِمْ بِحُجَّتِهِ خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ إِذْ كَانَتْ الرُّوِيَّاتُ لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِذَوِي الضَّمَائِرِ وَ لَيْسَ بِذِي ضَمِيرٍ فِي نَفْسِهِ خَرَقَ عِلْمُهُ بَاطِنَ غَيْبِ السُّتْرَاتِ وَ أَحَاطَ بِغُمُوضِ عَقَائِدِ السَّرِيرَاتِ قَوْلِ المَصْنَفِّ : « و هي من خطب الملاحم » الملاحم : الوقائع العظيمة في الفتن ، جعلها منها لأنَّ فيها : « رأيت ضلالة قد قامت على قطبها . . . » ، كما يأتي في فصل إخباره عليه السلام بالملاحم . ٣

قوله عليه السلام : « الحمد لله المتجلي لخلقه » تجلياً أجلى من الشمس فقد يشك

(١) توحيد المفضل : ١٠٩ .

(٢) التوحيد للصدوق : ٥٤ ح ١٣ .

(٣) يأتي في العنوان (٣٠) منه .

الصفحة ٢٤٢

في طلوع الشمس و غروبها و زوالها و محلّها من السماء إذا كانت تحت السحاب ، و ليس يشك في وجود الصانع غير مكابر في وقت . . . أ في الله شك فاطر السموات و الأرض . . . ١ .

« بخلقه » : أي تجليّه بسبب مشاهدة مخلوقاته ، و لو لم يكن في خلقه إلا الشمس لكفاه في تجليّه لخلقه ، كيف و خلقه لا يحصى ؟ « و الظاهر لقلوبهم بحجته » و إن لم يظهر لأعينهم بمشاهدته ، كالم الصادق عليه السلام ابن أبي العوجاء يوماً فعاد اليه غدا . فقال : كأنك جئت تعيد بعض ما كنا فيه . فقال : أردت ذلك يابن رسول الله . فقال له أبو عبد الله عليه السلام : ما أعجب هذا ، تتكر الله و تشهد أنني ابن رسول الله فقال : العادة تحملني على ذلك .

فقال عليه السلام : فما يمنعك من الكلام ؟ قال : اجلالاً لك و مهابة ما ينطلق لساني بين يديك ، فإني شاهدت العلماء و ناظرت المتكلمين فما تداخني هيبة قطّ مثل ما تداخني من هيبتك .

قال : يكون ذلك و لكن أفتح عليك بسؤال و أقبل عليه ، فقال له : أ مصنوع أنت أم غير مصنوع ؟ فقال عبد الكريم بن أبي العوجاء : بل أنا غير مصنوع .

فقال عليه السّلام : فصف لي لو كنت مصنوعا كيف كنت تكون ؟

فبقي عبد الكريم مليّا لا يحير جوابا ، و ولع بخشبة كانت بين يديه و هو يقول : طويل عريض عميق قصير متحرك ساكن كل ذلك صفة خلقه .

فقال عليه السّلام : فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة غيرها فاجعل نفسك مصنوعا لما تجد في نفسك ممّا يحدث من هذه الأمور . فقال له عبد الكريم : سألتني عن مسألة لم يسألني عنها أحد قبلك ، و لا يسألني أحد بعدك عن مثلها . فقال أبو عبد الله عليه السّلام : هبك علمت أنّك لم تسأل في ما مضى ، فما علمك أنّك لا تسأل في

(١) ابراهيم : ١٠ .

الصفحة ٢٤٣

ما بعد ؟ على أنّك يا عبد الكريم نقضت قولك ، لأنك تزعم أنّ الأشياء من الأوّل سواء ، فكيف قدّمت و أخّرت ؟ ثم قال : يا عبد الكريم أزيدك وضوحا :

أرأيت لو كان معك كيس فيه جواهر ، فقال لك قائل : هل في الكيس دينار ؟

فنفيت كون الدينار في الكيس ، فقال لك : صف لي الدينار ، و كنت غير عالم بصفته ، هل كان لك أن تتفي كون الدينار عن الكيس و أنت لا تعلم ؟ قال : لا . فقال أبو عبد الله عليه السّلام : فالعالم أكبر و أطول و أعرض من الكيس ، فلعلّ في العالم صنعة من حيث لا تعلم صفة الصنعة من غير الصنعة . (أي : فكيف تتفي الصنعة ؟) . فانقطع عبد الكريم ، و أجاب إلى الإسلام بعض أصحابه و بقي معه بعض . فعاد في اليوم الثالث ، فقال : ألقب السؤال . فقال له أبو عبد الله عليه السّلام : سل عمّا شئت . فقال : ما الدليل على حدث الأجسام ؟ فقال عليه السّلام : إنّي ما وجدت شيئا صغيرا و لا كبيرا إلّا و إذا ضمّ إليه مثله صار أكبر ، و في ذلك زوال و انتقال عن الحالة الأولى ، و لو كان قديما ما زال و لا حال ، لأنّ الذي يزول و يحول يجوز أن يوجد و يبطل ، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث ، و في كونه في الأزل دخوله في العدم ، و لن تجتمع صفة الأزل و العدم و الحدوث ، و القدم في شيء واحد . فقال عبد الكريم : هبك علمت في جري الحاليتين و الزمانين على ما ذكرت و استدلتت بذلك على حدوثها ، فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدلّ على حدوثهنّ ؟ فقال عليه السّلام : إنّما نتكلّم على هذا العالم الموضوع ، فلو رفعناه و وضعنا عالما آخر كان لا شيء أدلّ على الحدث من رفعنا إياه ، و وضعنا

غيره ، و لكن أجيبك من حيث قدرت أن تلزمتنا ، فنقول : إنّ الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنّه متى ضمّ شيء إلى مثله كان أكبر ، و في جواز التغيير عليه خروجه من القدم ، كما أنّ في تغييره دخوله في الحدث ليس لك و راءه شيء يا عبد الكريم . فانقطع و خزي .

الصفحة ٢٤٤

فلما كان من العالم القابل التقى معه في الحرم ، فقال له بعض شيعته : إنّ ابن أبي العوجاء قد أسلم . فقال عليه السّلام : هو أعمى من ذلك ، لا يسلم . فلما بصر به عليه السّلام قال : يا سيدي و مولاي . فقال عليه السّلام : ما جاء بك الى هذا الموضع ؟ فقال :

عادة الجسد و سنة البلد ، و لننظر ما الناس فيه من الجنون و الحلق و رمي الحجارة . فقال له عليه السّلام : أنت بعد على عتوك و ضلالك يا عبد الكريم ، فذهب يتكلم .

فقال عليه السّلام له : لا جدال في الحجّ ، و نفض رداءه من يده ، و قال : إن يكن الأمر كما تقول و ليس كما تقول نجونا و نجوت ، و إن يكن الأمر كما تقول و هو كما تقول نجونا و هلكت .

فأقبل عبد الكريم على من معه ، فقال : وجدت في قلبي حزازة فردوني ،

فردوه فمات ١ .

« خلق الخلق من غير رويّة » أي : تفكّر .

« إذ كانت الرويات لا تليق إلا بذوي الضمائر » الذين لهم قلوب في الصدور .

« و ليس بذوي ضمير في نفسه » و هو نظير قوله عليه السّلام في الخطبة الأولى : « بلا رويّة أجالها و لا تجربة استفادها و لا حركة أحدثها و لا همامة نفس اضطرب فيها » ٢ .

« خرق علمه باطن غيب السترات » فجعلها منكشفة ، يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ٣ ، . . . فإنّه يعلم السرّ و أخفى ٤ .

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٧٦ ح ٢ ، و الصدوق في التوحيد : ٢٩٦ ح ٢ ، لكن الحديث في عدد من نسخ الكافي لا كلّها .

(٢) نهج البلاغة ١ : ١٦ شرح الخطبة (١) .

(٣) غافر : ١٩ .

(٤) طه : ٧ .

الصفحة ٢٤٥

قالوا : أخفى من السرّ ما خطر بالقلب و لم يحصل في الخارج ١ .

« و أحاط بغموض » أي : خفي .

« عقائد السريرات » قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ،

و يعلم ما في السماوات و الأرض . . . ٢ ، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ و لا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ و هو معهم إذ يبيّنون ما لا يرضى من القول و كان الله بما يعملون محيطا ٣ ، و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو و يعلم ما في البرّ و البحر و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها و لا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين . و هو الذي يتوفاكم بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار . . . ٤ .

١٦

من الخطبة (١٠٧) و من خطبة له عليه السلام :

كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ وَ كُلُّ شَيْءٍ قَائِمٌ بِهِ غِنَى كُلِّ فَاقِرٍ وَ عِزُّ كُلِّ ذَلِيلٍ وَ قُوَّةُ كُلِّ ضَعِيفٍ وَ مَفْزَعُ كُلِّ مَلْهُوفٍ
مَنْ تَكَلَّمَ سَمِعَ نَطْقَهُ وَ مَنْ سَكَتَ عِلْمَ سِرِّهِ وَ مَنْ عَاشَ فَعَلَيْهِ رِزْقُهُ وَ مَنْ مَاتَ فَالِيهِ مُنْقَلَبُهُ لَمْ تَرَكَ الْعَيُونَ
فَتُخْبِرَ عَنْكَ بَلْ كُنْتَ قَبْلَ الْوَاصِفِينَ مِنْ خَلْقِكَ لَمْ تَخْلُقِ الْخَلْقَ لَوْحَشَةَ وَ لَا اسْتَعْمَلْتَهُمْ لِمَنْفَعَةٍ وَ لَا يَسْبِقُكَ مَنْ
طَلَبْتَ وَ لَا يُفْلِتُكَ مَنْ أَخَذْتَ وَ لَا يَنْقُصُ سُلْطَانَكَ مَنْ عَصَاكَ وَ لَا يَزِيدُ فِي مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ وَ لَا يَرُدُّ أَمْرَكَ
مَنْ سَخَطَ قَضَاءَكَ وَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْكَ مَنْ تَوَلَّى

(١) أخرج ما في معناه علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٥٩ ، و عبد الرزاق في الجامع ، و عبد بن

حميد في مسنده عن قتادة ، و عبد بن حميد في مسنده ، و ابن المنذر عن الحسن البصري ، و عكرمة

عنهم الدر المنثور ٤ : ٢٩٠ .

(٢) آل عمران : ٢٩ .

(٣) النساء : ١٠٨ .

(٤) الأنعام : ٦٠ ٥٩ .

الصفحة ٢٤٦

عَنْ أَمْرِكَ كُلُّ سِرٍّ عِنْدَكَ عَلَانِيَةٌ وَ كُلُّ غَيْبٍ عِنْدَكَ شَهَادَةٌ أَنْتَ الْأَبْدُ فَلَا أَمَدَ لَكَ وَ أَنْتَ الْمُنْتَهَى لَا مَحِيصَ عَنكَ وَ أَنْتَ الْمَوْعِدُ لَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ بِيَدِكَ نَاصِيَةٌ كُلُّ دَابَّةٍ وَ إِلَيْكَ مَصِيرٌ كُلُّ نَسَمَةٍ سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَ مَا نَرَى مِنْ خَلْقِكَ وَ مَا أَصْغَرَ عَظْمَهُ فِي جَنْبِ قُدْرَتِكَ وَ مَا أَهْوَلَ مَا نَرَى مِنْ مَلَكُوتِكَ وَ مَا أَحْقَرَ ذَلِكَ فِيمَا غَابَ عَنَّا مِنْ سُلْطَانِكَ وَ مَا أَسْبَغَ نِعْمَكَ فِي الدُّنْيَا وَ مَا أَصْغَرَهَا فِي نِعَمِ الْآخِرَةِ « كُلُّ شَيْءٍ خَاضِعٌ لَهُ » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (خاشع له) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيئة) ١ . و خشوع كل شيء له بمعنى كونه تحت إرادته كالسجود له ، قال تعالى : و لله يسجد من في السموات و الأرض طوعا و كرها و ظلّالهم بالغدوّ و الأصال ٢ ، أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيا ظلّاله عن اليمين و الشمال سجدا لله و هم داخرون . و لله يسجد ما في السموات و ما في الأرض من دابة و الملائكة و هم لا يستكبرون ٣ .

« و كل شيء قائم به » أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت . . . ٤ ، إن الله يمسك السموات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . . . ٥ . « غنى كل فقير » هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفصوا و لله خزائن السموات و الأرض و لكن المنافقين لا يفقهون ٦ ،

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٧ ، و في شرح ابن ميثم ٣ : ٤٩ « خاضع » أيضا .

(٢) الرعد : ١٥ .

(٣) النحل : ٤٨ ٤٩ .

(٤) الرعد : ٣٣ .

(٥) فاطر : ٤١ .

(٦) المنافقون : ٧ .

الصفحة ٢٤٧

و وجدك عائلا فأغنى ١ ، . . . إن ترن أنا أقلّ منك مالا و ولدا . فعسى ربّي أن يؤتيني خيرا من جنتك . . . ٢ .

« و عزّ كلّ ذليل » . . . أبيتغون عندهم العزّة فإنّ العزّة لله جميعا ٣ ،

ولله العزّة و لرسوله و للمؤمنين و لكنّ المنافقين لا يعلمون ٤ .

« و قوّة كلّ ضعيف » ألم يجدك يتيما فأوى ٥ .

« و مفزع كلّ ملهوف » أمنّ يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء . . . ٦ ، و ما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسكم الضرّ فأليه تجأرون ٧ . و يشهد لجميع الفقرات قوله تعالى : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعزّ من تشاء و تذللّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شيء قدير . تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل و تخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي و ترزق من تشاء بغير حساب ٨ .

« و من » هكذا في (المصرية) و الصواب : (من) بدون واو ، كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٩ .

« تكلم سمع نطقه ، و من سكت علم سرّه » سواء منكم من أسرّ القول و من

(١) الضحى : ٨ .

(٢) الكهف : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) النساء : ١٣٩ .

(٤) المنافقون : ٨ .

(٥) الضحى : ٦ .

(٦) النمل : ٦٢ .

(٧) النحل : ٥٣ .

(٨) آل عمران : ٢٦ ، ٢٧ .

(٩) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٧ ، و مع (الواو) في شرح ابن ميثم ٣ : ٤٩ .

الصفحة ٢٤٨

جهر به و من هو مستخف بالليل و سارب بالنهار ١ ، و إن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ و أخفى ٢ .

« و من عاش فعليه رزقه » و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها و مستودعها كل في كتاب مبين ٣ .

و قال الشاعر :

إنّ الذي شقّ فمي ضامن
للرزق حتّى يتوفّاني

« و من مات فإليه منقلبه » قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكلّ بكم ثمّ إلى ربكم ترجعون ٤ .

« لم ترك » الكاف مفعول (لم تر) .

« العيون » كما ترى الجسمانيات .

« فتخبر عنك » بكيفية أو كمية .

« بل كنت قبل الواصفين من خلقك » يعني أنّ شهادة العقول بكونك قبل الخلق دالة على أنّ المخبر عنك إنّما هو القلوب الشاهدة للغيوب لا العيون القاصرة عن رؤية أمر محجوب .

« لم تخلق الخلق لوحشة » و ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعبدون ٥ .

« و لا استعملتهم لمنفعة » ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمون .

إنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين ٦ .

(١) الرعد : ١٠ .

(٢) طه : ٧ .

(٣) هود : ٦ .

(٤) السجدة : ١١ .

(٥) الذاريات : ٥٦ .

(٦) الذاريات : ٥٧ ٥٨ .

الصفحة ٢٤٩

« و لا يسبقك من طلبت » . . . و إذا أراد الله بقوم سوءا فلا مردّ له و ما لهم من دونه من وال ١ ، أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا . . . ٢ .

« و لا يفلتاك » أي : لا يخرج من تحت يدك .

« من أخذت » . . . فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ٣ ، فحسبنا به و بداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله ٤ ، فلو لا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ٥ .

« و لا ينقص سلطانك من عصاك » و لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا . . .

٦ ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ٧ .

« و لا يزيد في ملكك من أطاعك » من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها . . . ٨ ، . . . و من شكر فإنما يشكر لنفسه و من كفر فإنّ ربّي غنيّ كريم ٩ « و لا يردّ أمرك » المراد : أمره القدريّ لا التكليفي .

« من سخط قضاءك » . . . و له أسلم من في السماوات و الأرض طوعا

(١) الرعد : ١١ .

(٢) الأنبياء : ٤٣ .

(٣) القمر : ٤٢ .

(٤) القصص : ٨١ .

(٥) الواقعة : ٨٦ ٨٧ .

(٦) آل عمران : ١٧٦ .

(٧) يونس : ٢٣ .

(٨) فصلت : ٤٦ .

(٩) النمل : ٤٠ .

و كرها . . . ١ و . . . يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا و إناثا و يجعل من يشاء عقيما . . . ٢ .

« و لا يستغني عنك من تولى عن أمرك » و المراد : أمره التشريعي ، و لذا لم يقل عنه مع تقدّم قوله : و لا يردّ أمرك ، و إذا مسّ الإنسان الضرّ دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مرّ كأن لم يدعنا إلى ضرّ مسّه . . . ٣ ،

و ما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسّكم الضرّ فإليه تجأرون ثمّ إذا كشف الضرّ عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ٤ .

« كلّ سرّ عندك علانية » ألا أنّهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون و ما يعلنون إنّه عليهم بذات الصدور ٥ .

« و كلّ غيب عندك شهادة » . . . عالم الغيب و الشهادة و هو الحكيم الخبير ٦ .

« أنت الأبد » أي : وجودك أبديّ .

« لا أمد » أي : لا نهاية .

« لك » كما للخلق حتى السماء و الأرض و الشمس و القمر ، و قال ابن أبي الحديد : « أنت الأبد فلا أمد لك » هذا الكلام علويّ شريف لا يفهمه إلاّ الراسخون في العلم ، و فيه شمة من قول النبيّ صلّى الله عليه و آله : « لا تسبوا الدهر فإنّ الدهر هو الله » ٧ .

(١) آل عمران : ٨٣ .

(٢) الشورى : ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) يونس : ١٢ .

(٤) النحل : ٥٣ ، ٥٤ .

(٥) هود : ٥ .

(٦) الأنعام : ٧٣ .

(٧) أخرجه الشريف الرضي في المجازات النبوية : ٢٣٥ ، و أخرجه باختلاف لفظي آخرون ، جمع بعض طرقه و ألفاظه السيوطي في الدر المنثور ٦ : ٣٥ .

الصفحة ٢٥١

و في مناجاة الحكماء لمحمة منه أيضا و هو قولهم : أنت الأزل السرمد ،

و أنت الأبد الذي لا ينفد ١ .

قلت : و هو كما ترى ، فإنّ الطبيعيين ينسبون الخلق إلى الدهر فيعبرون عن الله تعالى بالدهر ، و أمّا الأبد فلم ينسب أحد إليه أفعال الله ، و النهي عن سبّ الدهر في الخبر إنّما هو لكون الناس إذا نزلت بهم حادثة ينسبونها إلى الدهر و يسبونه ، مع أنّ المبدئ لكلّ أمر هو الله تعالى ، و الكلام الذي نسبه إلى الحكماء لا يعرف حجّيته ، مع أنّه لو كان مأخوذاً من كلامه عليه السّلام فيه تجوز ، و الأصل إلى الأبد .

« و أنت المنتهى لا محيص » أي : لا عدول .

« عنك » و أن إلى ربك المنتهى ٢ .

« و أنت الموعد » أي في القيامة .

« لا منجي منك إلا إليك » الكلام بتمامه في (المصرية) ، و أما في (ابن ميثم) ،

و الخطية) فليس قوله : « إلا إليك » فيهما ، لكن الأوّل ذكره في الشرح ، و كأنه أخذه من (ابن أبي الحديد) ٣ .

و كيف كان فالأصل فيه قوله تعالى : . . . و ظنّوا ألا ملجأ من الله إلا إليه . . . ٤ ، لأنّه في معنى كلامه عليه السّلام ، فكما لا ملجأ غيره كذلك لا منجي غيره .

« بيدك ناصية كلّ دابة » . . . ما من دابة إلا هو أخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم ٥ .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٨ .

(٢) النجم : ٤٢ .

(٣) في ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٧ « فلا منجي منك إلا إليك » و في ابن ميثم ٣ : ٥٠ مثله بلا (فاء)

قبل (لا) .

(٤) التوبة : ١١٨ .

(٥) هود : ٥٦ .

الصفحة ٢٥٢

« و اليك مصير كل نسمة » أي : ذي روح أو ذي نفس ، إليه مرجعكم جميعا . . . ١ .

« سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك » من السماء و الأرض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و البحار و الأنهار و الوحوش و الطيور .

« و ما أصغر عظمه » هكذا في (المصرية) و الصواب : (عظيمه) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم ، و الخطية) ٢ .

« في جنب قدرتك » قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددا ٣ ، إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد . و ما ذلك على الله بعزيز ٤ .

و في الخبر أن رجلا جاء اليه عليه السلام فقال : أيقدر الله أن يدخل الأرض في بيضة و لا يصغر الأرض و لا يكبر البيضة ؟ فقال : ويليك إن الله لا يوصف بالعجز ، و من أقدر ممن يلطف الأرض أو يعظم البيضة ٥ .

« و ما أهول ما نرى من ملكوتك ، و ما أحقر ذلك في ما غاب عنا من سلطانك » . . . خلق سبع سماوات و من الأرض مثلهنّ يتنزل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كل شيء قدير . . . ٦ ، له ما في السماوات و ما في الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى ٧ ، . . . وسع كرسيه السماوات و الأرض و لا يؤوده

(١) يونس : ٤ .

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٧ ، و في شرح ابن ميثم ٣ : ٥٠ « عظمه » أيضا .

(٣) الكهف : ١٠٩ .

(٤) ابراهيم : ٢٠ ١٩ .

(٥) أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٣٠ ح ١٠ عن علي عليه السلام ، و أخرج ما في معناه أيضا في

التوحيد : ١٣٠ ح ٩ عن علي عليه السلام ،

و روى هذا المعنى عن عيسى و الصادق و الرضا عليهم السّلام مر تخريجه في العنوان (٥) من هذا الفصل .

(٦) الطلاق : ١٢ .

(٧) طه : ٦ .

الصفحة ٢٥٣

حفظهما و هو العلي العظيم ١ ، قل من ربّ السماوات السبع و ربّ العرش العظيم . سيقولون لله . . . ٢ . . . ، و ينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء و يصرفه عمّن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ٣ .

و في (الفقيه) في باب وصف الصلاة عن الصادق عليه السّلام : صار التسبيح أفضل من القراءة في الأخيرتين لأن النبي صلّى الله عليه و آله لمّا كان في الأخيرتين ذكر ما رأى من عظمة الله عزّ و جلّ فدهش فقال : « سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلاّ الله و الله أكبر » ، فلذلك صار التسبيح أفضل من القراءة ٤ .

« و ما أسبغ » أي ما أكمل .

« نعمك في الدّنيا » . . . و أسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة . . . ٥ .

« و ما أصغرها في نعيم » هكذا في (المصرية) و الصواب : (في نعم) كما في الثلاثة ٦ .

« الآخرة » فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون ٧ .

و في الخبر : في الجنّة ما لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا على خاطر خطر ، و ان نعمة أدنى أهل الجنّة سبعون ضعفا لنعم الدّنيا جميعا ٨ .

(١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢) المؤمنون : ٨٦ ٨٧ .

(٣) النور : ٤٣ .

(٤) أخرجه الصدوق ضمن حديث في الفقيه ١ : ٢٠٢ ح ١٠ ، و في علل الشرائع ٢ : ٣٢٢ ح ٢ .

- (٥) لقمان : ٢٠ .
- (٦) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٧ ، و في شرح ابن ميثم ٣ : ٥٠ « نعيم » أيضا .
- (٧) السجدة : ١٧ .
- (٨) أخرجه الى قوله : « خاطر خطر » البخاري في صحيحه ٢ : ٢١٧ ، و مسلم في صحيحه ٤ : ٢١٧٤ ٢١٧٥ ح ٢ و ٣ و ٤ ،
- و الترمذي في سننه ٥ : ٣٤٦ ح ٣١٩٧ ، و ابن ماجه في سننه ٢ : ١٤٤٧ ح ٤٣٢٨ ، و الدارمي في سننه ٢ : ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، و أحمد في مسنده ٢ : ٣٦٩ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٦٢ ، ٥٠٦ ، و ابن أبي شيبة في مسنده ، و هناد و أحمد كلاهما في الزهد ، و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه و ابن الأتباري عنهم الدر المنثور ٥ : ١٧٦ عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، و روي عن عدة طرق عن أبي سعيد الخدري و سهل بن سعد و ابن عباس و ابن مسعود و المغيرة بن شعبة و أبي اليمان الهذلي و غيرهم ، و أما عبارة « ان نعمة أدنى أهل الجنة » فقد روي ما في معناه كثيرا ، و لا يسع المقام لذكر الطرق كلها .

الصفحة ٢٥٤

١٧

من الخطبة (١٣١) و من كلام له عليه السلام :

وَ انْقَادَتْ لَهُ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةُ بِأَزْمَتِهَا وَ قَذَفَتْ إِلَيْهِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُونَ مَقَالِيدَهَا وَ سَجَدَتْ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَ النَّصَالِ النَّاشِجَارُ النَّاصِرَةُ وَ قَدَحَتْ لَهُ مِنْ قُضْبَانِهَا النَّيِّرَانَ الْمُضِيئَةَ وَ آتَتْ أَكْلَهَا بِكَلِمَاتِهِ الثَّمَارُ اللَّيَانِعَةَ « و انقادت له الدنيا و الآخرة بأزمتها » كانقياد الخيول لراكبيها بأعنتها ، أما انقياد الدنيا له تعالى بأزمتها فلأنه كما وصف نفسه : قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تنزل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل و تخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي و ترزق من تشاء بغير حساب ١ .

و أما انقياد الآخرة له تعالى فأوضح ، فلا يملك غيره يومئذ شيئا :

لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ٢ ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا و الأمر يومئذ لله ٣ ، . . . و خشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا .

(١) آل عمران : ٢٦ ٢٧ .

(٢) غافر : ١٦ .

(٣) الانفطار : ١٩ .

الصفحة ٢٥٥

يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن و رضي له قولا . يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم و لا يحيطون به علما . و عنت الوجوه للحي القيوم و قد خاب من حمل ظلما ١ .

« و قذفت » أي : ألقى .

« إليه السماوات و الأرضون مقاليدها » جمع مقلد المفتاح ، و الأصل فيه قوله تعالى : له مقاليد السماوات و الأرض . . . ٢ . و قذف السماوات و الأرض مقاليدها إليه تعالى كناية حسنة عن كمال سيطرته عليهما ، كبيت مفتاحه بيد شخص يفتحه متى شاء و يغلقه متى شاء ، فمتى شاء تعالى جادت السماء ،

و متى شاء بخلت ، و متى شاء أخصبت الأرض ، و متى شاء أجذبت ، و قال تعالى في قصة نوح في ابتدائها : ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . و فجّرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ٣ ، و في انتهائها : و قيل يا أرض ابلعي ماءك و يا سماء أقلعي . . . ٤ .

ثمّ الذي وقفنا عليه في النسخ : (بأزمّتها) و (مقاليدها) ٥ ، و الظاهر وقوع تصحيف و كون الأصل (بأزمّتهما) و (مقاليدهما) بلفظ التثنية إرجاعا للأول إلى الدنيا و الآخرة ، و للتّاني إلى السماوات و (الأرضون) . فإنّ أولّ الثاني بكون السماوات و (الأرضون) بلفظ الجمع فلا يتأتى في الأول ، لكون كلّ من الدنيا و الآخرة بلفظ المفرد ، و ليسا في معنى الجمع حتّى يعبر عنهما بلفظ الجمع ،

(١) طه : ١٠٨ ١١١ .

(٢) الزمر : ٦٣ .

(٣) القمر : ١١ ١٢ .

(٤) هود : ٤٤ .

(٥) كذا في نهج البلاغة ٢ : ١٦ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٣٦١ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ١٥٢ .

الصفحة ٢٥٦

نظرا إلى المعنى كقوله تعالى : هذان خصمان اختصموا في ربهم . . . ١ ، مع أنّ الثاني أيضا يعبر عنه بلفظ الاثنين كقوله تعالى : أو لم ير الذين كفروا أنّ السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما . . . ٢ .

« و سجدت له بالغدو » على فعول جمع الغدو على فعل ، كما قاله الليث و جمعه الآخر الغدوات ، و أمّا الغدايا في قولهم : « إني لآتيه بالغدايا و العشايا » فلا يأتي جمعا إلاّ ازدواجا مع العشايا .

« و الأصال » جمع الأصيل : الوقت بعد العصر إلى المغرب .

و في القرآن كلّما ذكر الأصيل ذكر مع بكرة ، و كلّما ذكر الأصال ذكر مع الغدو ، كما أنّه كلّما ذكر الأولان نكرا فقال : بكرة و أصيلا و كلّما ذكر الأخيران عرفا فقال : بالغدو و الأصال . الأول في أربع آيات في الفرقان و الأحزاب و الفتح و الدهر ٣ ، و الثاني في ثلاث في الأعراف و الرعد و النور ٤ .

« الأشجار الناضرة » أي : ذات الحسن و الرؤنق ، و الأشجار الناضرة و إن تسجد له تعالى في كلّ حال حسب غيرها من الأشياء كما قال تعالى : ألم تر أنّ الله يسجد له من في السماوات و من في الأرض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و الشجر و الدوابّ . . . ٥ إلاّ أنّه عليه السلام قيّد سجودها بالغدو و الأصال ،

لأنّ المراد بالسجود لها هنا سجود خاص بظهور طراوتها و صفاتها و انتشار شميمها فيهما ، دون السجود العام المراد به الدخول تحت خضوع التكوّن ، كما أراد عزّ و جلّ فيها .

(١) الحج : ١٩ .

(٢) الأنبياء : ٣٠ .

(٣) الفرقان : ٥ ، الأحزاب : ٤٢ ، الفتح : ٩ ، الدهر : ٢٥ .

(٤) الأعراف : ٢٠٥ ، الرعد : ١٥ ، النور : ٣٦ .

(٥) الحج : ١٨ .

الصفحة ٢٥٧

« و قدحت » بلفظ المجهول من قدحت النار ، أي : أو قدتها .

« له » أي : لأمره .

« من قضبانها » القضبان جمع القضيب ، أي : الغصن .

« النيران » جمع النار .

« المضيئة » أفرأيت النار التي تورون . أ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة و متاعا للمقوين ١ ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ٢ .

« و آنت » أي : أعطت .

« أكلها » أي : ما يؤكل منها ، مفعول مقدم .

« بكلماته الثمار اليانعة » و ينع الثمر : نضجه ، قال تعالى : . . . انظروا الى ثمره إذا أثمر و ينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ٣ ، و قوله عليه السلام :

« بكلماته » إشارة الى قوله تعالى : تؤتي أكلها كل حين باذن ربها . . . ٤ .

و نظير فقراته عليه السلام في العنوان كلام السجّاد عليه السلام من عترته في مناجاته الإنجيلية : فسبّحت له السماوات و أكنافها ، و الأرض و أطرافها ، و الجبال و أعراقها ، و الشجر و أغصانها ، و البحار و حيتانها ، و النجوم في مطالعها ،

و الأمطار في مواقعها ، و وحوش الأرض و سباعها ، و مدر الأنهار و أمواجها ،

و عذب المياه و أجاجها ، و هبوب الرياح و عجاجها ، و كل ما وقع عليه وصف و تسمية ، أو يدركه حدّ يحويه ممّا يتصور في الفكر ، أو يتمثل بجسم أو قدر أو ينسب إلى عرض أو جوهر ، من صغير حقير أو خطير كبير ، مقرّا له

(١) الواقعة : ٧١ ٧٣ .

(٢) يس : ٨٠ .

(٣) الأنعام : ٩٩ .

(٤) ابراهيم : ٢٥ .

الصفحة ٢٥٨

بالعبودية ، خاشعا معترفا له بالوحدانية ، طائعا مستجيبا لدعوته ، خاضعا متضرعا لمشيئته متواضعا ١ .

١٨

من الخطبة (١٥٠) و من كلام له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ وَ بِمُحَدِّثِ خَلْقِهِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ وَ بِأَشْبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ لَا تَسْتَلِمُهُ
الْمَشَاعِرُ وَ لَا تَحْجِبُهُ السَّوَاتِرُ لِافْتِرَاقِ الصَّانِعِ وَ الْمَصْنُوعِ وَ الْحَادِّ وَ الْمَحْدُودِ وَ الرَّبِّ وَ الْمَرْبُوبِ الْأَحَدِ لَا
بِتَأْوِيلِ عَدَدٍ وَ الْخَالِقِ لَا بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَ نَصَبٍ وَ السَّمِيعِ لَا بِأَدَاةٍ وَ الْبَصِيرِ لَا بِتَفْرِيقِ آلَةٍ وَ الشَّاهِدِ لَا
بِمُمَاسَّةٍ وَ الْبَائِنِ لَا بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ وَ الظَّاهِرِ لَا بِرُؤْيَةٍ وَ الْبَاطِنِ لَا بِلَطَافَةٍ بَانَ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا وَ الْقُدْرَةَ
عَلَيْهَا وَ بَانَتِ الْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالْخُضُوعِ لَهُ وَ الرُّجُوعِ إِلَيْهِ مِنْ وَصْفِهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَ مِنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ وَ مِنْ عَدَّهُ فَقَدْ
أَبْطَلَ أَرْزَلَهُ وَ مَنْ قَالَ كَيْفَ فَقَدْ اسْتَوْصَفَهُ وَ مَنْ قَالَ أَيْنَ فَقَدْ حَيَّرَهُ عَالِمٍ إِذْ لَا مَعْلُومٌ وَ رَبٌّ إِذْ لَا مَرْبُوبٌ وَ
قَادِرٌ إِذْ لَا مَقْدُورٌ أَقُولُ : رواه (الكافي) في إسناد عن الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه
السلام، و في آخر عن الكاظم عليه السلام ، و رواه (توحيد الصدوق) عن الرضا عليه السلام .

فروى الأول أولا عن علي بن محمد عن سهل عن شباب الصير في عن علي بن سيف عن إسماعيل بن
قتيبة قال : دخلت أنا و عيسى شلقان على أبي عبد الله عليه السلام فابتدأنا فقال : عجا لأقوام يدعون على
أمير المؤمنين عليه السلام ما لم يتكلم به قط ، خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس بالكوفة فقال : الحمد
لله الملهم

(١) روى هذه القطعة ضمن المناجاة الانجيلية المجلسي في بحار الأنوار ٩٤ : ١٥٩ عن كتاب أنيس
العابدين .

الصفحة ٢٥٩

عباده حمده ، و فاطرهم على معرفة ربوبيته ، الدال على وجوده بخلقه ،

و بحدوث خلقه على أزله ، و بأشبتباههم على أن لا شبه له ، المستشهد بآياته على قدرته ، الممتنعة من
الصفات ذاته ، و من الأبصار رؤيته ، و من الأوهام الإحاطة به ، لا أمد لكونه ، و لا غاية لبقائه ، لا
تشمله المشاعر ، و لا تحجبه الحجب ، و الحجاب بينه و بين خلقه ، خلقه إياهم لامتناعه مما يمكن في
ذواتهم ،

و لإمكان مما يتمتع منه ، و لا افتراق الصانع من المصنوع ، و الحادّ من المحدود ،

و الربّ من المربوب ، الواحد بلا تأويل عدد ، و الخالق لا بمعنى حركة ، و البصير لا بأداة ، و السميع لا بتفريق آلة ، و الشاهد لا بمماسّة ، و الباطن لا باجتان ،

و الظاهر البائن لا بتراخي مسافة ، أزله نهية لمجاول الأفكار ، و دوامه ردع لطامحات العقول ، قد حسر كنهه نوافذ الأبصار ، و قمع وجوده جوائل الأوهام ، فمن وصف الله فقد حدّه ، و من حدّه فقد عدّه ، و من عدّه فقد أبطل أزله ،

و من قال : أين . فقد غيابه ، و من قال : علام . فقد أخلى منه ، و من قال : فيم . فقد ضمّنه ١ .

ثم قال : و رواه محمد بن الحسين عن صالح بن حمزة عن فتح بن عبد الله مولى بني هاشم ، قال : كتبت إلى أبي إبراهيم عليه السلام أسأله عن شيء من التوحيد ،

فكتب إليّ بخطه : الحمد لله ، و ذكر مثل ما رواه سهل إلى قوله و قمع وجوده جوائل الأوهام . رواه في باب جوامع التوحيد ٢ .

و روى الثاني عن الدقاق عن الأسدي عن البرمكي عن عليّ بن عباس بن جعفر بن محمد الأشعري عن فتح بن يزيد الجرجاني ، قال : كتبت إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام أسأله عن شيء من التوحيد ، فكتب إليّ بخطه ، قال جعفر :

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٣٩ ح ٥ .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٤٠ ح ٦ و زاد فيه « أول الديانة به معرفته . . . » .

الصفحة ٢٦٠

و إنّ فتحاً أخرج إليّ الكتاب فقرأته فخطّ أبي الحسن عليه السلام . . . مع تفاوت يسير ١ .

« الحمد لله الدالّ على وجوده بخلقه ، و بمحدث خلقه على أزليّته ، و بأشباههم على أن لا شبه له » استدلّ عليه السلام على أصل وجوده تعالى ، ثمّ على أزليّته ، ثمّ على نفي الشبه له بما ذكر .

قال الصادق عليه السلام : لم يكن بدّ من إثبات الصانع لوجود المصنوعين و الاضطرار منهم إليه أثبت أنّهم مصنوعون ، و أنّ صناعتهم غيرهم ، و ليس مثلهم إذا كان مثلهم شبيها بهم في ظاهر التركيب و التآليف ، و فيما يجري عليهم من حدوثهم بعد أن لم يكونوا ، و تتقلهم من صغر إلى كبر ، و من سواد إلى بياض ، و من قوّة إلى ضعف ٢ .

« لا تستلمه » من استلم الحجر إذا مسه .

« المشاعر » أي : الحواس الظاهرة ، و هي السامعة و الباصرة و الذائقة و الشامة و اللامسة ، قال الشاعر :

و الرأس مرتفع فيه مشاعره
يهدى السبيل له سمع و عينان

٣ « و لا تحجبه السّواتر » كما تستر البيت أستار الكعبة .

« لافتراق الصانع و المصنوع » فلا يمكن أن يكون في الصانع مشاعر مثل مشاعر المصنوعين .

« و الحادّ و المحدود ، و الربّ و المربوب » فلا يمكن أن تحجبه السواتر كالمحدود و المربوب .

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٥٦ ح ١٤ .

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٢٤٦ ح ١ ضمن احتجاج له عليه السلام ، و روى هذا الاحتجاج

الكليني في الكافي ١ : ٨٠ ح ٥ ، و الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣١ ، و لكن ليست هذه القطعة فيهما .

(٣) لسان العرب ٤ : ٤١٣ مادة (شعر) و الشاعر بلعاء بن قيس .

الصفحة ٢٦١

« الأحد لا بتأويل عدد » هكذا في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ١ و أمّا ما في (المصرية) « الأحد بلا تأويل عدد » فغلط .

و في الخبر : أنّ أعرابيا قام يوم الجمل الى أمير المؤمنين عليه السلام ، فقال يا أمير المؤمنين أ تقول : إنّ الله واحد ؟ ثمّ انجرّ الحديث إلى أن قال عليه السلام : إنّ القول في أنّ الله واحد على أربعة أقسام ، فوجهان منها لا يجوزان على الله تعالى ،

و وجهان يثبتان فيه ، فأما اللذان لا يجوزان عليه : فقول القائل واحد يقصد به باب الأعداد ، فهذا ما لا يجوز لأن ما لا ثاني له لا يدخل في باب الأعداد . . . ٢ .

و أما ما في دعاء (الصحيفة) : « لك يا إلهي وحدانيّة العدد » ٣ فالمراد به أنه لا يطلق عليه من لفظ الأعداد إلا الواحد ، و إن لم يكن إطلاقه عليه بمعنى كونه أول الأعداد ، بل بمعنى أنه لا ثاني له .

و أما قول ابن سينا كما نقل عنه في استشكله في كون موضوع علم الحساب العدد الحاصل في المادة ، بأنّ المحاسب يبحث عن العدد المفارق للمادة في الخارج أيضا ، لعروضه المجردات كالعقول و النفوس و ذات الواجب إن قلنا : إنّ الواحد عدد ٤ فخطأ منه حسب كثير من أوهامه في أصول الدين .

« و الخالق لا بمعنى حركة و نصب » أي : تعب إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ٥ .

« و السميع لا بأداة » أي : أذن و سامعة .

-
- (١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٢٢ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٢٢٨ « بلا تأويل » أيضا .
 (٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٨٣ ح ٣ ، و معاني الأخبار : ٥ ح ٢ ، و الخصال ١ : ٢ ح ١ .
 (٣) الصحيفة السجادية الكاملة : ١٥١ الدعاء (٢٨) .
 (٤) قاله ابن سينا في المقالة الثالثة في إلهيات الشفاء : ٣٣٥ من الفصل الثاني الى السادس بتفصيل ، و هذا مستنبط من كلامه .
 (٥) يس : ٨٢ .

الصفحة ٢٦٢

« و البصير لا بتفريق » و أما ما في (المصرية) : « و البصير بلا تفريق » فغلط ١ .

« آلة » قد عرفت أنّ (الكافي) رواه : « البصير لا بأداة و السميع لا بتفريق آلة » ٢ .

لكن الظاهر صحّة ما هنا لتصديق (التوحيد) له ٣ ، مع أنه لا معنى لتفريق الآلة في السمع بخلافه في البصر ، فالإنسان في إبطاره للأشياء يفرّق الآلة (أي الحدقة) مرّة إلى شيء و أخرى إلى آخر ، و سماعه لشيئين و إن كان بتوجّهه إلى هذا مرّة ، و إلى ذاك أخرى إلا أنه ليس فيه تفريق آلة .

قال ابن أبي الحديد : المراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منّا مبصراً ، فإنّ القائلين بالشعاع يقولون : إنّه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعة ، و تكون آلة للحَيِّ في أبصار المبصرات فيتفرّق عليها ، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصراً ٤ .

قلت : و على ما فسّرنا كلامه عليه السّلام لا يستلزم صحّة القول بالشعاع ، بل الأصحّ هو القول بالانطباع ، و تشهد له الأخبار الدالّة على أنّ الله تعالى أدخل العالم بكبره في سواد العين الذي يكون بقدر عدسة ٥ .

« و الشاهد » للأشياء .

- (١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٢٢ « لا بتفريق » ، و في شرح ابن ميثم ٣ : ٢٢٨ « بلا تفريق » و في نهج البلاغة ٢ : ٤٠ « لا بتفريق » أيضا .
- (٢) مرّ في بداية هذا العنوان .
- (٣) التوحيد للصدوق : ٥٦ ح ١٤ .
- (٤) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٢٣ .
- (٥) مقصود الشارح حديث سؤال الديصاني هشام بن الحكم و جواب الصادق عليه السّلام له ، أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٧٩ ح ٤ ، و الصدوق في التوحيد : ١٢٢ ح ١ ، و مر متن الحديث في العنوان (٥) من هذا الفصل .

الصفحة ٢٦٣

« لا بمماسّة » منه تعالى له بل بعلمه و إحاطته بها .

« و البائن » أي : البعيد عن الأشياء .

« لا بتراخي » تفاعل من الرخو مقابل الصعب ، و المراد البعد ، يقال : تراخى السماء ، إذا بعد نزول المطر .

« مسافة » و الأصل في المسافة : سفت الشيء ، إذا شمّمته ، كان الدليل على الطريق إذا كان في فلاة أخذ التراب فشمّمه ليعلم أعلى قصد أم جور ، قال رؤبة :

إذا الدليل استاف أخلاق الطرق

١ ثمّ أكثر حتى سمّوا البعد مسافة . و المسافة في قصر الصلاة أربعة و عشرون ميلا .

« و الظاهر لا برؤية » أحد له كظهور غيره من الأشياء .

« و الباطن لا بلطافة » كبطون غيره من الأشياء .

« بان » أي : انفصل و بعد .

« من الأشياء بالقهر لها و القدرة عليها » جملة (بان . . .) تفسير و شرح لقوله :

« و البائن لا بتراخي مسافة » .

« و بانّت الأشياء منه بالخضوع له و الرجوع إليه » الجملة من تنمة الأولى ،

فإنّه اذا كان تعالى بان من الأشياء كانت الأشياء بائنة منه ، لكن كلّ منهما لا بمعنى البينونة في الأشياء بعضها مع بعض .

« من وصفه فقد حدّه » و لا حدّ له .

« و من حدّه فقد عدّه » و هو منزّه عن العدد .

« و من عدّه فقد أبطل أزلّه » مع أنّه أزلّي لا آخر له ، فلا يجيء العدّ في أمده .

« و من قال : كيف » خبرا .

(١) أساس البلاغة : ٢٢٥ مادة (سوف) ، و لسان العرب ١ : ١٦٥ مادة (سوف) .

الصفحة ٢٦٤

« فقد استوصفه » و محال استيصافه ، و بيان وصف له .

« و من قال : أين » خبرا .

« فقد حيّزه » أي : جعله في حيّز و موضع ، قال القطاميّ في امرأة خافت أن يصير ضيفها :

تحيّز منّي خشية أن أضيفها
كما انحازت الأفعى مخافة ضارب

١ و في (الكافي) بدل « فقد حيّزه » : « فقد غيّاه » ٢ ، و في (التوحيد) بدله « فقد أخلى منه » ٣ .

« عالم إذ لا معلوم ، و ربّ إذ لا مربوب ، و قادر إذ لا مقدور » إذ الثلاثة من صفات الذات لا الفعل ، و صفات الذات أبدية بلا ضدّ بخلاف صفات الفعل .

قال الكليني : إنّ كلّ شيئين وصفت الله بهما و كانا جميعا في الوجود فذلك صفة فعل ، و تفسير هذه الجملة أنّك تثبت في الوجود ما يريد و ما لا يريد ،

و ما يرضاه و ما يسخطه ، و ما يحبّ و ما يبغض ثم قال إنّنا لا نجد في الوجود ما لا يعلم و ما لا يقدر عليه ٤ .

قال الصادق عليه السلام لبكير بن أعين لما سأله : هل علمه تعالى و مشيئته مختلفان أو متّفقان ؟ : العلم ليس هو المشيئة ، ألا ترى أنّك تقول : سأفعل كذا إن شاء الله ، و لا تقول : سأفعل إن علم الله ٥ .

و بالجملة كان عزّ و جلّ عالما و ربّا و قادرا أبدا قبل الخلق و بعد الخلق .

(١) لسان العرب ٥ : ٣٤٣ مادة (حيّز) .

(٢) الكافي ١ : ١٤٠ ح ٥ .

(٣) التوحيد للصدوق : ٥٧ ح ١٤ .

(٤) الكافي ١ : ١١١ .

(٥) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٠٩ ح ٢ ، و الصدوق في التوحيد : ١٤٦ ح ١٦ ، و نقله الحسن بن سليمان في مختصر بصائر الدرجات : ١٤٠ في صدر حديث .

من الخطبة (١٦١) و من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْعِبَادِ وَ سَاطِحِ الْمِهَادِ وَ مُسِيلِ الْوَهَادِ وَ مُخْصِبِ النَّجَادِ لَيْسَ لِأَوْلِيَّتِهِ ابْتِدَاءٌ وَ لَا لِأَزْلِيَّتِهِ انْقِضَاءٌ هُوَ الْأَوَّلُ لَمْ يَزَلْ وَ الْبَاقِي بِلَا أَجَلٍ خَرَّتْ لَهُ الْجِبَاهُ وَ وَحَدَّتْهُ الشِّفَاهُ حَدَّ الْأَشْيَاءِ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إِبَانَةٌ لَهُ مِنْ شَبْهَهَا لَا تَقْدَرُهُ الْأَوْهَامُ بِالْحُدُودِ وَ الْحَرَكَاتِ وَ لَا بِالْجَوَارِحِ وَ الْأَدَوَاتِ لَا يُقَالُ لَهُ مَتَى وَ لَا يُضْرَبُ لَهُ أَمْدٌ بِحَتَّى الظَّاهِرِ لَا يُقَالُ مِمَّا وَ الْبَاطِنِ لَا يُقَالُ فِيمَا لَا شَيْخَ فَيَنْقُضِي وَ لَا مَحْجُوبٌ فَيُحَوِي لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالتَّصَاقِ وَ لَمْ يَبْعُدْ عَنْهَا بِالْفِتْرَاقِ وَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شَخُوصٌ لِحُظَّةٍ وَ لَا كُرُورٌ لَفُظَّةٍ وَ لَا ازْدِلَافٌ رُبُوبَةٍ وَ لَا انْبِسَاطٌ خُطُوبَةٍ فِي لَيْلٍ دَاجٍ وَ لَا غَسَقٍ سَاجٍ يَنْفِيًا عَلَيْهِ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ وَ تَعْقِبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الْأَفْوَالِ وَ الْكُرُورِ وَ تَقْلُبُ الْأَزْمَنَةَ وَ الدُّهُورِ مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ وَ إِدْبَارِ نَهَارٍ مُدْبِرٍ قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَ مَدَّةٍ وَ كُلِّ إِحْصَاءٍ وَ عِدَّةٍ تَعَالَى عَمَّا يَنْحُلُهُ الْمُحَدِّثُونَ مِنْ صِفَاتِ الْأَقْدَارِ وَ نِهَايَاتِ الْأَقْطَارِ وَ تَأْتِلُ الْمَسَاكِينُ وَ تَمَكَّنُ الْأَمَاكِينُ فَالْحَدُّ لِحَلْقِهِ مَضْرُوبٌ وَ إِلَى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ لَمْ يَخْلُقِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أُصُولٍ أَرْزَلِيَّةٍ وَ لَا مِنْ أَوَائِلِ أَيْدِيَّةٍ بَلْ خَلَقَ مَا خَلَقَ فَاقَامَ حُدَّهُ وَ صَوَّرَ مَا صَوَّرَ فَأَحْسَنَ صُورَتَهُ لَيْسَ لَشَيْءٍ مِنْهُ امْتِنَاعٌ وَ لَا لَهُ بَطَاعَةٌ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ عِلْمُهُ بِالْأُمُوتِ الْمَاضِينَ كَعِلْمِهِ بِالْحَيَاءِ الْبَاقِينَ وَ عِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَاوَاتِ الْعُلَى كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقُولُ : لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ فِي الْخُطْبَةِ مَا رَوَاهُ (تَوْحِيدُ الصَّدُوقِ)

الصفحة ٢٦٦

مسندا عن أبي المعتمر مسلم بن أوس ، قال : حضرت مجلس علي عليه السلام في جامع الكوفة فقام إليه رجل مصفر اللون كأنه من منهودة اليمن . فقال : يا أمير المؤمنين صف لنا خالقك و انعته لنا كأننا نراه و ننظر إليه . فسبح علي عليه السلام ربه و عظمه ، و قال : الحمد لله الذي هو أول بلا بدء ممّا ، و لا باطن فيما ، و لا يزال مهما ، و لا ممازج مع ما ، و لا خيال وهما . ليس بشبح فيرى ، و لا بجسم فيتجزى ، و لا بذى غاية فيتهى ، و لا بمحدث فيبصر ، و لا بمستتر فيكشف ، و لا بذى حجب فيحوى . كان و لا أماكن تحمله أكنافها ، و لا حملة ترفعه بقوتها ، و لا كان بعد أن لم يكن ، بل حارت الأوهام أن تكيف المكيف للأشياء ، و من لم يزل بلا مكان ، و لا يزول باختلاف الأزمان ، و لا ينقلب شأننا بعد شأن ، البعيد من حدس القلوب ، المتعالي عن الأشياء و الضروب ، الوتر علام الغيوب . فمعاني الخلق عنه منفية و سرائرهم عليه غير خفية . المعرف بغير كيفية ، لا يدرك بالحواس ، و لا يقاس بالناس ، و لا تدركه الأبصار ، و لا تحيط به الأفكار ، و لا تقدره العقول ، و لا تقع عليه الأوهام . فكل ما قدره عقل أو عرف له مثل فهو محدود ، و كيف يوصف بالأشباح و ينعت بالألسن الفصاح من لم يحلل في الأشياء فيقال : هو فيها كائن ، و لم ينأ عنها فيقال : هو عنها بائن ، و لم يخل منها فيقال : أين ، و لم يقرب منها بالالتزاق ، و لم يبعد عنها بالافتراق ، بل هو في الأشياء بلا كيفية ، و هو أقرب إلينا من حبل الوريد ، و

أبعد من الشبه من كل بعيد . لم يخلق الأشياء من أصول أزلية ، و لا من أوائل كانت قبله بديه ، بل خلق ما خلق و أتقن خلقه ، و صور ما صور فأحسن صورته . فسبحان من توحد في علوه ، فليس لشيء منه امتناع ، و لا له بطاعة أحد من خلقه انتفاع . إجابته للداعين سريعة ، و الملائكة له في السماوات و الأرض مطيعة . كلم موسى تكليما بلا جوارح و أدوات و لا شفة و لا لهوات . سبحانه و تعالى عن الصفات ، فمن زعم أن إله

الصفحة ٢٦٧

الخلق محدود ، فقد جهل الخالق المعبود . . . ١ .

فإنهما مشتركتان في كثير من الفقرات ، و اختلافهما في بعضها لا يبعد أن يكون من اختلاف الروايات ، كما أن نقصهما و زيادتهما لا يبعد أن يكونا من حيث إن الرضي رضوان الله عليه ينتخب من الخطب ، و قد قال في هذه الخطبة : « و منها أيها المخلوق السوي . . . » ٢ .

و صرح (التوحيد) أيضا بأن الخطبة طويلة أخذ منها موضع الحاجة ٣ .

« الحمد لله خالق العباد » يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيرا و نساء . . . ٤ .

يمكن أن يراد بقوله عليه السلام : « العباد » البشر فقط ، و يمكن أن يراد به الجنّ و الإنس معا لقوله تعالى : و ما خلقت الجنّ و الإنس إلا ليعبدون ٥ ، فالكلّ عباده ، بل مع الملائكة لقوله تعالى : إن كلّ من في السماوات و الأرض إلا أتى الرحمن عبدا . لقد احصاهم و عدّهم عدّا . و كلّهم آتية يوم القيامة فردا ٦ .

« و ساطح المهاد » أي : الأرض التي جعلها للناس كالمهد للطفل ، قال تعالى :

ألم نجعل الأرض مهادا ٧ ، أو الأرض التي جعلناها ممهّدة و مهيةً لانتفاع الناس بها ، أي نوع أرادوا منها ، قال تعالى : و الله جعل لكم الأرض بساطا

(١) أخرج الصدوق في التوحيد : ٧٧ ح ٣٤ و قال بعد فقرة « فقد جهله الخالق المعبود » : « و الخطبة طويلة أخذنا منها موضع الحاجة » .

(٢) نهج البلاغة ٢ : ٦٧ .

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٧٧ ح ٣٤ و قال بعد فقرة « فقد جهله الخالق المعبود » : « و الخطبة طويلة اخذنا منها موضع الحاجة » .

(٤) النساء : ١ .

(٥) الذاريات : ٥٦ .

(٦) مريم : ٩٣ ٩٥ .

(٧) النبأ : ٦ .

الصفحة ٢٦٨

لتسلخوا منها سبلا فجاءا ١ ، و قال عزّ و جلّ : و الأرض فرشناها فنعم الماهدون ٢ ، و قال عزّ اسمه : و إلى الأرض كيف سطحت ٣ .

هذا ، و قالوا : إنّ قوله عليه السّلام : « ساطح المهاد » كالأية الأخيرة لا ينافي كروية الأرض ٤ .

« و مسيل الوهاد » أي : الأمكنة المنخفضة ، حمد الله تعالى على إيجاد الأراضي المنخفضة التي تجري فيها سيول المطر ، لأنه لو لا ذلك لما حدثت هذه الأنهار ، و لا حصلت منها البساتين و الأشجار ، و الرياحين و الأزهار .

« و مخصب النّجاد » النّجاد : جمع النّجد الموضع المرتفع ، عكس الوهد ،

و الخصب ضدّ الجذب . حمد تعالى على إخصابه النّجاد بإنزال الأمطار عليها في ما لم تجر الأنهار إليها ، و لو لا ذلك لبقيت الأراضي المرتفعة و رؤوس الجبال و الآكام معطّلة مجدبة .

« ليس لأوليّته ابتداء ، و لا لأزليّته انقضاء » هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن . . . ٥ .

و سئل الصادق عليه السّلام عن الأوّل ، و الآخر في وصفه تعالى ، فقال : الأوّل لا عن أوّل قبيله و لا عن بدء سبقه ، و الآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين ، و لكن قديم أوّل آخر لم يزل و لا يزول بلا بدء و لا نهاية ٦ .

(١) نوح : ١٩ ٢٠ .

(٢) الذاريات : ٤٨ .

(٣) الغاشية : ٢٠ .

(٤) لسان العرب ١٥ : ١١٦ ١١٧ مادة (غدا) ، عن الليث « يقال : غدا غدك ، و غدا غدوك ، ناقص و تام » ، و في موضع آخر قال الليث : « الغدو جمع ، مثل الغدوات ، و الغدى جمع غدوة » .
 (٥) الحديد : ٣ .
 (٦) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١١٦ ح ٦ ، و الصدوق في التوحيد : ٣١٣ ح ١ ، و في معاني الأخبار : ١٢ ح ١ عن ميمون البان عن الصادق عليه السلام ، و قد مر الحديث في العنوان (٥) من هذا الفصل .

الصفحة ٢٦٩

« هو الأوّل لم يزل ، و الباقي بلا أجل » هما كالشرح لسابقيهما .

« خرّت له الجباه » الجباه جمع الجبهة ، يمكن أن يراد بالجباه الجباه الظاهرة ، فيكون المراد جباه بني آدم ، و يمكن أن يراد بها جباه الذلّة و المسكنة من جميع الخليقة استعارة ، و هو الأظهر ، قال تعالى : أ و لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتقياً ظلاله عن اليمين و الشمال سجّداً لله و هم داخرون ١ ،

و لله يسجد من في السماوات و الأرض طوعاً و كرهاً و ظلّاهم بالغدوّ و الآصال ٢ .

« و وحدته الشّفاء » الشّفاء جمع الشّفة ، و الكلام فيه كسابقه ، فيمكن أن يكون الكلام على الحقيقة ، و يمكن أن يكون استعارة ، فيراد بالشّفاء شفاء الاعتراف بلسان الحال من كلّ الحقيقة بربوبيته : . . . و إن من شيء إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم . . . ٣ .

« حدّ الأشياء عند خلقه لها » أي : جعلها محدودة ، فلنشو الحيوان و النبات حدّ .

« إبانة » أي : فصلا .

« له » تعالى .

« من شبهها » فلا يمكن أن يكون محدوداً ، و في خطبة أخرى له عليه السلام « إبانة لها من شبهه و إبانة له من شبهها » ٤ .

« لا تقدّره الأوهام » أي : لا تقدر الأفكار أن تعيّن له مقدارا .

« بالحدود و الحركات » كما تكون للكواكب .

(١) النحل : ٤٨ .

(٢) الرعد : ١٥ .

(٣) الاسراء : ٤٤ .

(٤) هذه قطعة من خطبة أخرجها الكليني في الكافي ١ : ١٣٥ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ٤٢ ح ٣ .

الصفحة ٢٧٠

« و لا بالجوارح و الأدوات » كما تكون للإنسان و الحيوانات .

« لا يقال له : متى » لأنها موضوعة للسؤال عن الزمان ، قال امرؤ القيس :

متى عهدنا بطعان الكماة
و المجد و الحمد و السؤدد

١ و قال جرير :

متى كان حكم الله في كرب النخل

٢ و هو تعالى منزّه عن المكان .

« و لا يضرب له أمد » أي : مدة .

« بحتى » لأنها موضوعة للانتهاء ، و لا انتهاء له تعالى .

« الظاهر لا يقال : مما » كما تقول : ظهرت الشمس من السحاب .

« و الباطن لا يقال : في ما » كما تقول : بطن القمر في السحاب ، و (ما) في (مما) و (في ما) كناية

عن الشيء غير المعين .

« لا شبح » يأتي الشبح بمعنى الجسد ، كقولهم : أشباح بلا أرواح ،

و بمعنى الهباء ، كقولهم : أدقّ من شبح باطل . و الظاهر أنّ المراد هنا : الثاني لقوله عليه السلام :

« فينقضى » أي : فينقضى .

« و لا محجوب » كملوك الدنيا .

« فيحوى » بالأستار و الكل .

« لم يقرب من الأشياء بالتصاق » كقرب جسم من جسم .

« و لم يبعد عنها بافتراق » كعبد شخص عن شخص .

« لا يخفى عليه من عباده شخوص » من شخص بصره إذا فتحه ، و جعل

(١) أورده لسان العرب ١٥ : ٤٧٥ مادة (متى) .

(٢) المصدر نفسه .

الصفحة ٢٧١

لا يطرف .

« لحظة » أي : النظّر بمؤخر العين ، و اللحاظ بالفتح مؤخر العين ، و اللحاظ بالكسر مصدر لا حظ ، قال تعالى : يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ١ .

« و لا كرور » مصدر كرّ .

« لفظة » و الأصل في اللفظ الحذف ، يقال : لفظ اللقمة من فيه ، سمّي اللفظ لفظاً لأنّه يحذف من الفم ، قال تعالى : ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد ٢ ، و قال عزّ و جلّ : . . . ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم و لا خمسة إلاّ هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ثمّ ينبئهم بما عملوا يوم القيامة . . . ٣ .

« و لا ازدلاف » أي : التقدّم و التقرب ، قال الشاعر :

و كلّ يوم مضى أو ليلة سلفت
فيها النفوس إلى الأجال تزدلف

٤ « ربوة » بالضمّ و الفتح و الكسر : الموضع المرتفع .

« و لا انبساط خطوة » بالفتح : المشي قدما واحدة ، و أمّا بالضمّ فما بين قدمين مرّة أو أكثر .

« في ليل داج » أي : مظلم ، و عن الأصمعي معنى ليل داج : ألبس كلّ شيء نقولهم : دجى الإسلام . . .
٥ و قال الشاعر :

(١) غافر : ١٩ .

(٢) ق : ١٨ .

(٣) المجادلة : ٧ .

(٤) أساس البلاغة : ١٩٤ مادة (زلف) .

(٥) مرّ الكلام حول تخريجه في العنوان (٧) من هذا الفصل .

الصفحة ٢٧٢

و الليل داج كنفنا جلبابه

١ « و لا غسق » عطف على شخوص ، قال الجوهري : الغاسق الليل إذا غاب الشفق ٢ .

« ساج » أي : دام و سكن ، قال تعالى : و الليل إذا سجي ٣ ، و كيف يخفى عليه شيء و قد قال عزّ و
جلّ : و ما تكون في شأن و ما تتلو منه من قرآن و لا تعملون من عمل إلاّ كنّا عليكم شهودا إذ تفيضون
فيه و ما يعزب عن ربك من مثقال ذرّة في الأرض و لا في السماء و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلاّ في
كتاب مبين ٤ ، سواء منكم من أسرّ القول و من جهر به و من هو مستخف بالليل و سارب بالنهار ٥ .

« يتقياً » أي : يرجع .

« عليه » أي : على الليل الداجي أو الغسق الساجي .

« القمر المنير » أ و لم يروا إلى ما خلق الله من شيء ينفيًا ظلاله عن اليمين و الشمال سجداً لله و هم داخرون ٦ .

« و تعقبه الشمس ذات النور في الأفول » أي : الغروب .

« و الكرور » أي : الرجوع و الطلوع ، قال تعالى : و الشمس و ضحاها .

و القمر إذا تلاها . و النهار إذا جلاها . و الليل إذا يغشاها ٧ ، و قال عزّ و جلّ :

(١) أساس البلاغة : ١٢٧ ، مادة (دجى) .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٥٣٧ مادة (غسق) .

(٣) الضحى : ٢ .

(٤) يونس : ٦١ .

(٥) الرعد : ١٠ .

(٦) النحل : ٤٨ .

(٧) الشمس : ٤١ .

الصفحة ٢٧٣

و الليل إذا يغشى . و النهار إذا تجلّى ١ .

« و تقليب » و في (المصرية) : (و تقلب) و هو غلط ٢ .

« الأزمنة و الدهور من إقبال ليل مقبل و إدبار نهار مدبر » قال تعالى : كلاً و القمر . و الليل إذ أدبر و الصبح إذا أسفر ٣ .

و لعلّ وجه تخصيصه عليه السّلام الإقبال بالليل و الإدبار بالنهار ، مع أنّ لكلّ منهما إقبالا و إدبارا : كون الأمور في الدّنيا على خلاف المراد في الأغلب .

« قبل كلّ غاية و مدّة » فلا يمكن أن تكونا مضافتين إليه تعالى .

« و كلّ إحصاء و عدة » فلا يمكن أن يكونا منسوبين إليه جلّ و علا .

« تعالى » أي : ارتفع .

« عما ينحله » بالفتح أي : يدّعيه .

« المحدّدون » له تعالى .

« من صفات الأقدار » : أي : الأشياء التي لها مقدار .

« و نهايات الأقطار » من الطول و العرض و العمق .

« و تأتّل » أي : اتخذ .

« المساكن و تمكّن الأماكن » أي : جعلها مكانا له .

« فالحدّ لخلقه مضروب » و هو تعالى أجلّ من أن يحدّ .

« و إلى غيره منسوب » فمن نسبه إليه فقد أخطأ .

« لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة ، و لا أوائل أبدية » هو مثل قوله عليه السّلام في خطبة له أخرى : « لا من شيء خلق ما كان » ٤ .

(١) الليل : ٢١ .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٥٨ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٢٩٧ « تقلب » أيضا .

(٣) المدثر : ٣٢ ٣٤ .

(٤) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٣١٤ ح ١ .

الصفحة ٢٧٤

و قال الكليني بعد نقل ذلك القول : دفع عليه السّلام بقوله جميع حجج الثنوية و شبههم ، لأنّ أكثر ما يعتمد الثنوية في عدم حدوث العالم أن يقولوا : لا يخلو من أن يكون الخالق خلق الأشياء من شيء أو من لا شيء . فقولهم من شيء خطأ ، و قولهم من لا شيء مناقضة و إحالة ، لأنّ من توجب شيئا و لا شيء تنفيه ، فأخرج أمير المؤمنين عليه السّلام هذه اللفظة على أبلغ الألفاظ و أصحّها ، فقال :

لا من شيء خلق ما كان . فنفى من إذ كانت توجب شيئاً ، و نفى الشيء إذ كان كل شيء مخلوقاً محدثاً لا من أصل أحدثه الخالق كما قالت الثنوية : إنه خلق من أصل قديم فلا يكون تدبير إلاّ باحتذاء مثال ١ .
« بل خلق ما خلق فأقام حدّه » الذي خلق كل شيء ثم هدى ٢ .
« و صور ما صور فأحسن صورته » . . . و صوركم فأحسن صوركم و إليه المصير ٣ ، الذي أحسن كل شيء خلقه و بدأ خلق الإنسان من طين ٤ .

« ليس لشيء منه امتناع » إن يشأ يذهبكم و يأتي بخلق جديد . و ما ذلك على الله بعزيز ٥ .

« و لا له بطاعة شيء انتفاع » و قال موسى ان تكفروا أنتم و من في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد ٦ .
« علمه بالأموات الماضين كعلمه بالأحياء الباقين » و لقد علمنا

(١) الكافي ١ : ١٣٦ .

(٢) في طه : ٥٠ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

(٣) التغابن : ٣ .

(٤) السجدة : ٧ .

(٥) فاطر : ١٦ و ١٧ .

(٦) إبراهيم : ٨ .

الصفحة ٢٧٥

المستقدمين منكم و لقد علمنا المستأخرين ١ .

« و علمه بما في السماوات العلى كعلمه بما في الأرضين السفلى » و لله غيب السماوات و الأرض و إليه يرجع الأمر كله . . . ٢ .

و في الخبر أنّ داود عليه السلام لما وقف الموقف بعرفة نظر إلى الناس و كثرتهم ، فصعد الجبل فأقبل يدعو ، فلما قضى نسكه أتاه جبرئيل عليه السلام فقال له : يا داود يقول لك ربك : لم سعدت الجبل ، ظننت أنّه يخفى عليّ صوت من صوت ؟ ثم مضى به الى البحر إلى جدّة ، فرسب به في الماء مسيرة أربعين صباحاً في البرّ ، فإذا صخرة ففلقها فإذا فيها دودة ، فقال له : يا داود يقول لك ربك : أنا أسمع صوت هذه في بطن هذه الصخرة في قعر هذا البحر . فظننت أنّه يخفى عليّ صوت من صوت ٣ .

من الخطبة (١٧٦) و من خطبة له عليه السلام :

لَا يَشْغَلُهُ شَأْنٌ وَ لَا يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ وَ لَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ وَ لَا يَصِفُهُ لِسَانٌ وَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ الْمَاءِ وَ لَا نُجُومِ السَّمَاءِ وَ لَا سَوَافِي الرِّيحِ فِي الْهَوَاءِ وَ لَا دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَ لَا مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يَعْطَمُ مَسَاقِطَ الْأُورَاقِ وَ خَفِيَ طَرْفِ الْأَحْدَاقِ « لا يشغله شأن » أي : عن شأن آخر كما هو شأن الناس ، فإذا اشتغل أحد

(١) الحجر : ٢٤ .

(٢) هود : ١٢٣ .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٤ : ٢١٤ ح ١١ ، و اخرج قريبا منه الحسين بن سعيد في الزهد : ٦٤ ح ١٦٩ ، ١٧٠ ، و بلا استناد الثعلبي في العرائس : ٢٧٦ ، و المسعودي في اثبات الوصية : ٥٦ ، و رواية الكليني عن الصادق عليه السلام و رواية الحسين بن سعيد عنه و عن الباقر عليه السلام .

الصفحة ٢٧٦

بالخياطة لا يمكنه النجارة ، و إذا تكلم مع زيد لا يستطيع التكلم مع عمرو .

« و لا يغيره زمان » كما يغير الخلق .

« و لا يحويه » أي : لا يضمه .

« مكان » كما يحوي الجسمانيات ، و في الخبر : سأل يونس بن عبد الرحمن الكاظم عليه السلام عن عروج النبي صلى الله عليه و آله و سلم إلى السماء ثم إلى سدرة المنتهى ثم إلى حجب النور ، فخاطبه و ناجاه هناك ، و الله لا يوصف بمكان . فقال عليه السلام : إن الله تبارك و تعالى لا يوصف بمكان ، و لا يجري عليه زمان ، و لكنه عزّ و جلّ أراد أن يشرف به ملائكته و سكان سماواته ، و يكرمهم بمشاهدته ، و يريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه ١ .

« و لا يصفه لسان » قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددا ٢ .

« و لا يعزب » أي : لا يغيب و لا يبعد .

« عنه عدد قطر » بالكسر فالفتح ، جمع قطرة .

« الماء » من الأمطار و البحار ، قال تعالى : . . . و أحصى كلّ شيء عددا ٣ .

« و لا نجوم السماء » . . . و النجوم مسخرات بأمره . . . ٤ .

« و لا سوافي » جمع سافية ، من سفت الريح التراب إذا ذرته .

« الريح في الهواء » و المراد ذرات التراب التي تثيرها الرياح في الفضاء ،

قال تعالى : . . . عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات و لا في

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٧٥ ح ٥ ، و علل الشرائع ١ : ١٣٢ ح ٢ .

(٢) الكهف : ١٠٩ .

(٣) الجن : ٢٨ .

(٤) النحل : ١٢ .

الصفحة ٢٧٧

الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلا في كتاب مبین ١ .

« و لا ديبب » و هو المشي على البطن .

« النمل على الصفا » أي : الصخرة الملساء . . . وسع ربنا كلّ شيء علما . . . ٢ .

« و لا مقيل » أي : مستقرّ ، قال ابن رواة :

اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله

٣ « الذرّ » قال الجوهري : الذرّ جمع ذرّة ، و هي أصغر من النمل ٤ .

« في الليلة الظلماء » و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرّها و مستودعها كلّ في كتاب مبین ٥ .

« يعلم مساقط الأوراق » . . . و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها و لا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبین ٦ .

« و خفيّ » عن اضافة الصفة .

« طرف » بالفتح فالسكون ، قال الجوهريّ : طرف بصره يطرف طرفا إذا أطبق أحد جفنيه على الآخر .
الواحدة من ذلك طرفة ، يقال : أسرع من طرفة عين ، و فلان مطروف العين بفلان إذا كان لا ينظر إلا إليه ٧ .

« الأحداق » جمع الحدقة سواد العين الأعظم ، قال تعالى : يعلم خائنة

(١) سبأ : ٣ .

(٢) الأعراف : ٨٩ .

(٣) لسان العرب : ١١ : ٥٧٨ مادة (قيل) .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٦٦٣ مادة (ذر) .

(٥) هود : ٦ .

(٦) الأنعام : ٥٩ .

(٧) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٣٩٥ مادة (طرف) .

الصفحة ٢٧٨

الأعين و ما تخفي الصدور ١ .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُؤَارِي عَنْهُ سَمَاءُ سَمَاءٍ وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا فِي تَسْبِيحِ (الصحيفة) : سبحانك تسمع و ترى ما تحت الثرى ، سبحانك أنت شاهد كل نجوى ، سبحانك موضع كل شكوى ، سبحانك حاضر كل ملا ،

سبحانك عظيم الرجاء ، سبحانك ترى ما في قعر الماء ، سبحانك تسمع أنفاس الحيتان في قعور البحار . سبحانك تعلم وزن السماوات . سبحانك تعلم وزن الأرضين ، سبحانك تعلم وزن الشمس و القمر ، سبحانك تعلم وزن الظلمة و النور ، سبحانك تعلم وزن الفيء و الهواء ، سبحانك تعلم وزن الريح كم هي من مثقال ذرة ، سبحانك قدوس قدوس قدوس ٢ . و قال تعالى : يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج منها و ما ينزل من السماء و ما يعرج فيها . . . ٣ . . . و هو معكم أينما كنتم و الله بما تعملون بصير ٤ ، . . . و ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلا في كتاب مبين ٥ .

(١) غافر : ١٩ .

(٢) ملحقات الصحيفة السجادية الكاملة : ٣١٩ الدعاء (١) .

(٣) سبأ : ٢ .

(٤) الحديد : ٤ .

(٥) يونس : ٦١ .

الصفحة ٢٧٩

٢٢

من الخطبة (١٩٦) و من خطبة له عليه السلام :

يَعْلَمُ عَجِيجَ الْوُحُوشِ فِي الْفَلَوَاتِ وَ مَعَاصِيَ الْعِبَادِ فِي الْخَلَوَاتِ وَ اخْتِلَافَ النَّيْنَانِ فِي الْبِحَارِ الْغَامِرَاتِ وَ تَلَاظُمَ الْمَاءِ بِالرِّيَّاحِ الْعَاصِفَاتِ « يعلم عجيج » أي : صياح .

« الوحوش » و المراد ما يعم السباع .

« في الفلوات » أي : البراري و المفازات . و مرّ خبر داود في ذلك ١ .

« و معاصي العباد في الخلوات » و هو الذي يتوفاكم بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون ٢ . و في (دعاء الوتر) : فإن قلت : نعم . فأين المهرب من عدلك ، و إن قلت : لم أفعل . قلت : ألم أكن الشاهد عليك ٣ .

و في الخبر : إن إبراهيم عليه السلام لما أرى ملكوت السماوات و الأرض التفت فرأى رجلا يزني ، فدعا عليه فمات ، حتى رأى ثلاثة فدعا عليهم فماتوا ، فأوحى تعالى إليه : أن دعوتك مجابة ، فلا تدع على عبادي ، و لو شئت لم أخلقهم ٤ .

(١) مر في العنوان (١٩) من هذا الفصل .

(٢) الأنعام : ٦٠ .

(٣) هذا دعاء في تعقيب صلاة الوتر ، و يسمى بدعاء الحزين ، رواه الطبرسي في مكارم الأخلاق : ٢٩٦ عن السجاد عليه السلام ، و رواه الطوسي في مصباح المتهدد : ١٤٥ بلا عزو .

(٤) أخرجه ابن مردويه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه و آله ، و أخرجه أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عنهم الدر المنثور ٣ : ٢٤ عن معاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه و آله ، و أخرجه صاحب تفسير العسكري : ٢٣٤ ، و الطبرسي في الاحتجاج ١ : ٣٥ عن النبي صلى الله عليه و آله ، و أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ٣٠٥ ح ٤٧٣ ، و علي بن إبراهيم في تفسيره ١ : ٢٠٦ ، و العياشي في تفسيره ١ : ٣٦٤ ح ٣٧ ، و الصدوق في علل الشرائع ٢ : ٥٨٥ ح ٣١ عن الصادق عليه السلام ، و روى موقفا عن سلمان و عطاء و شهر بن حوشب بطرق الدر المنثور ٣ : ٢٤ ، و نقلها الشارح هنا باختصار .

الصفحة ٢٨٠

هذا ، و في (اليتيمة) : يحكى أنه كان في جملة القضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ، و يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على أطراح الحشمة و التبسط في القصف و الخلاعة ، ابن قريعة و ابن معروف و القاضي التنوخي ، و ما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، و كذلك كان الوزير المهلبى ، فإذا تكامل الأنس و طاب المجلس ، و لذّ السماع ، و أخذ الطرب منهم مأخذه ، و هبوا ثوب الوقار للعقار ، و تقلّبوا في أعطاف العيش بين الخفة و الطيش ، و وضع في يد كلّ منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوءا شرابا قطر بليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيه بل ينقعها حتى تنتشر أكثره ، و يرش بها بعضهم على بعض و يرقصون أجمعهم ، و عليهم المصبغات ، و مخانق البرم و المنثور ،

و يقولون كلما يكثر شربهم : « هرهر » . و إياهم عنى السرى بقوله :

مجالس ترقص القضاة بها
إذا انتشوا في مخانق البرم

و صاحب يخلط المجون لنا
بشيمة حلوة من الشيم

تخضب بالراح شيبة عبثا
أنامل مثل حمرة النعم

حتى تحال العيون شيبته
شيبة فعلان ضرّجت بدم

فإذا أصبحوا عادتهم عادتهم في التوقّر و التحفّظ بأبهة القضاة و حشمة المشائخ الكبراء ١ .

قلت : ألم يكونوا سمعوا قوله تعالى : يستخفون من الناس و لا يستخفون من الله و هو معهم إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول و كان الله بما يعملون محيطا ٢ ، . . . فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول

(١) يتيمة الدهر ٢ : ٣٣٥ .

(٢) النساء : ١٠٨ .

الصفحة ٢٨١

و الله يكتب ما يبيّتون . . . ١ .

« و اختلاف النّينان » جمع النّون أي : الحيتان بأنواعها التي لا يعلمها إلا خالقها و اختلافها بالذّهاب و الإياب في الماء .

و في (توحيد المفضل) : تأمل خلق السمك و مشاكلته للأمر الذي قدر أن يكون عليه ، فإنه خلق غير ذي قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشي إذ كان مسكنه الماء ، و خلق غير ذي رية لأنه لا يستطيع أن يتنفس و هو منغمس في اللجة ، و جعلت له مكان القوائم أجنحة شداد يضرب بها في جانبيه كما يضرب الملاح

بالمجاديف من جانبي السفينة ، و كسي جسمه قشورا متانا متداخلة كتداخل الدروع و الجواشن لتقيه من الآفات . فأعين بفضل حسّ في الشّم لأنّ بصره ضعيف و الماء يحجبه ، فصار يشمّ الطعم من البعد البعيد ، فينتجعه فيتبعه ، و إلا فكيف يعلم به و بموضعه ؟ و اعلم أنّ من فيه إلى صماخه منافذ فهو يعبّ الماء بفيه ، و يرسله من صماخيه فيتروّح إلى ذلك كما يتروّح غيره من الحيوان إلى تنسّم هذا النسيم .

فكر الآن في كثرة نسله ، و ما خصّ به من ذلك ، فإنّك ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة ، و العلة في ذلك أن يتسع لما يغتذي به من أصناف الحيوان فإنّ أكثرها يأكل السمك ، حتى إنّ السباع في حافات الآجام عاكفة على الماء كي ترصد السمك ، فإذا مرّ بها خطفته ، فلمّا كانت السباع تأكل السمك ، و الطير يأكل السمك ، و الناس يأكلون السمك ، و السمك يأكل السمك كان من التدبير فيه أن يكون على ما هو عليه من الكثرة .

فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق و قصر علم المخلوقين فانظر إلى ما في البحار من ضروب السمك و دوابّ الماء و الأصداف و الأصناف التي لا

(١) النساء : ٨١ .

الصفحة ٢٨٢

تحصى و لا تعرف منافعها ، إلاّ الشيء بعد الشيء يدركه الناس بأسباب تحدث مثل القرمز ، فإنّه لمّا عرف الناس صبغه ، بأنّ كلبة تجول على شاطئ البحر فوجدت شيئاً من الصّنف الذي يسمّى الحلزون فأكلته ، فاخضب خطمها بدمه ، فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً ، و أشباه هذا ممّا يقف الناس عليه حالاً بعد حال و زماناً بعد زمان ١ .

« في البحار الغامرات » أي : تغمر كلّ شيء دخلها و تغطيه لكثرتها ، فالبهار ثلاثة أرباع الأرض .

قال الصادق عليه السلام للمفضّل : فإن شككت في منفعة هذا الماء الكثير المتراكم في البحار ، و قلت : ما الإرب فيه ؟ فاعلم أنّه مكتنف و مضطرب ما لا يحصى من أصناف السمك و دوابّ البحر ، و معدن اللؤلؤ و الياقوت و العنبر و أصناف شتى تستخرج من البحر ، و في سواحله منابت العود اليلنجوج و ضروب من الطيب و العقاقير ، ثمّ هو بعد مركب للناس و محمل لهذه التجارات التي تجلب من البلدان البعيدة ، كمثل ما يجلب من الصين إلى العراق ،

و من العراق إلى الصين ، فإنّ هذه التجارات لو لم يكن لها محمل إلاّ على الظهر لبارت و بقيت في بلدانها و أيدي أهلها ، لأنّ أجر حملها يجاوز أثمانها فلا يتعرّض أحد لحملها ، و كان يجتمع في ذلك أمران : أحدهما : فقد أشياء كثيرة تعظم الحاجة إليها . و الآخر : انقطاع معاش من يحملها و يتعيّش بفضلها ٢ .

« و تلاطم الماء بالرياح العاصفات » قال تعالى : و المرسلات عرفا .

فالعاصفات عسفا ٣ ، أي : الرياح الشديدة ، كعرف الفرس يتلو بعضه بعضا .

(١) توحيد المفضل : ١٢٣ .

(٢) توحيد المفضل : ١٤٦ .

(٣) المرسلات : ٢١ .

الصفحة ٢٨٣

و قال جلّ و علا : . . . حتى إذا كنتم في الفلك و جرين بهم بريح طيبة و فرحوا بها جاءت ريح عاصف و جاءهم الموج من كلّ مكان . . . ١ .

٢٣

من الخطبة (١٧٧) و من كلام له ع و قد سأله ؟ ذلعب اليماني ؟ فقال هل رأيت ربك يا ؟ أمير المؤمنين ؟ فقال ع :

أ فأعبد ما لا أرى فقال و كيف تراه فقال لا تُدرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ وَ لَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مَلَامَسٍ بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرٌ مُبَايِنٍ مُتَكَلِّمٌ لَا بَرَوِيَّةَ مُرِيدٌ لَا بَهْمَةَ صَانِعٍ لَا بَجَارِحَةَ لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَةِ رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَّةِ تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ وَ تَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ قَوْلُ الْمَصْنَفِ : « و من كلام له عليه السّلام » المفهوم من أسانيده أنّه من خطبة له عليه السّلام ٢ . فروى الصدوق في (التوحيد) بروايتين و في (الأمالي) برواية مسندا عن الأصبغ ، قال : لما بايع الناس عليّا عليه السّلام خرج إلى الناس متعمّما بعمامة النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم لابسا بردته صلّى الله عليه و آله و سلّم متعلّلا نعله صلى الله عليه و آله و سلّم متقلّدا سيفه صلّى الله عليه و آله ، فصعد

(١) يونس : ٢٢ .

(٢) المفهوم من رواية الديلمي في إرشاد القلوب : ١٦٧ ح ٥ لحديث ذعلب أنه كلام له عليه السلام ، و يؤيده ما روى الكليني في الكافي ١ : ٩٧ ح ٦ ، و الصدوق في التوحيد : ١٠٩ ح ٦ بلفظ « جاء حبر إلى علي عليه السلام » ، و ما رواه البرقي في المحاسن : ٢٣٩ ح ٢١٦ بلفظ « جاء رجل من اليهود إلى علي عليه السلام » . و ما رواه المفيد في الإرشاد : ١٢٠ ، و الطبرسي في الاحتجاج ١ : ٢٠٩ بلفظ « جاء رجل إلى علي عليه السلام » و ما رواه سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص : ١٥٧ بلفظ « سأل رجل عليًا عليه السلام » لكن يؤيد كونه خطبة مضافا إلى رواية الصدوق المذكورة في رواية الكليني في الكافي ١ : ١٣٨ ح ٤ ، و المفيد في الاختصاص : ٢٣٦ .

الصفحة ٢٨٤

المنبر فجلس متمكنا ، ثم شبك أصابعه فوضعها أسفل بطنه ، ثم قال : يا معاشر الناس سلوني قبل أن تفقدوني هذا سبط العلم ، هذا لعاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، هذا ما زقني النبي صلى الله عليه وآله زقا زقا ، سلوني فإنّ عندي علم الأولين و الآخرين ، أما و الله لو ثبتت لي الوسادة فجلست عليها ، لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم حتى تنطق التوراة فتقول : صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، و أفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم ، حتى ينطق الإنجيل فيقول : صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، و أفتيت أهل القرآن بقرآنهم حتى ينطق القرآن فيقول : صدق علي ما كذب ، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيّ ، و أنتم تتلون القرآن ليلا و نهارا ، فهل فيكم أحد يعلم ما نزل فيه ؟ و لو لا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان و ما يكون إلى يوم القيامة ، و الآية : يمحو الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب ١ . ثم قال : سلوني قبل أن تفقدوني ، فو الذي فلق الحبة و برأ النسمة لو سألتموني عن آية آية في ليل أنزلت أو في نهار أنزلت ، مكّيها و مدنيها ، سفريها و حضريها ، ناسخها و منسوخها ، محكمها و متشابها ، تأويلها و تنزيلها ، لأخبرتكم . فقام إليه رجل يقال له ذعلب ، و كان نرب اللسان بليغا في الخطب شجاع القلب ، فقال : لقد ارتقى ابن أبي طالب مرقة صعبة لأخجلنه اليوم لكم في مسألتني إياه . فقال له : هل رأيت ربك ؟ قال : و يلك يا ذعلب لم أكن بالذي أعبد ربّا لم أراه .

فقال : فكيف رأيته صفه لنا ؟

قال : و يلك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ، و لكن رأته القلوب بحقائق الإيمان ، و يلك يا ذعلب إن ربّي لا يوصف بالبعد ، و لا بالحركة و لا بالسكون ،

و لا بالقيام قيام انتصاب ، و لا بمجيء و لا بذهاب ، لطيف اللطافة لا يوصف

(١) الرد : ٣٩ .

الصفحة ٢٨٥

باللطيف ، عظيم العظمة لا يوصف بالعظم ، كبير الكبر لا يوصف بالكبر ، جليل الجلالة لا يوصف بالغلظ ، رؤوف الرحمة لا يوصف بالرقّة ، مؤمن لا بعبادة ،

مدرك لا بمجسّة ، قائل لا باللفظ . هو في الأشياء على غير ممازجة ، خارج منها على غير مباينة ، فوق كلّ شيء فلا يقال شيء فوقه ، و أمام كلّ شيء و لا يقال له أمام ، داخل في الأشياء لا كشيء في شيء داخل ، و خارج منها لا كشيء من شيء خارج .

قال : فخرّ ذعلب مغشياً عليه ، ثم قال : تالله ما سمعت بمثل هذا الجواب ،

و الله لا عدت إلى مثلها ١ .

لكن يمكن أن يقال : إنه يصدق مع ذلك أن يجعل العنوان كلاماً ، لأنه كان كلاماً خارجاً عن خطبته عليه السلام في جواب ذعلب لما اعترض في الأثناء .

« و قد سأله ذعلب اليمانيّ » لم أف في أسانيده على وصف ذعلب باليمانيّ ، فقد رأيت خلوّ أسناد الصدوق في (التوحيد) و (الأماليّ) عنه ، و رواه (الكافي) في باب جوامع التوحيد عن محمد بن أبي عبد الله مرفوعاً عن الصادق عليه السلام ، قال : بينا أمير المؤمنين عليه السلام يخطب على منبر الكوفة إذ قام إليه رجل يقال له ذعلب ذو لسان بليغ في الخطب ، شجاع القلب ، فقال : يا أمير المؤمنين هل رأيت ربك ٢ . . . باختلاف مع رواية الصدوق .

و في (الإرشاد) في باب مختصر من كلامه عليه السلام في وجوب المعرفة بالله : روى أهل السيرة و علماء النقلة أنّ رجلاً جاء إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : يا أمير المؤمنين خبرني عن الله تعالى ، رأيت حين عبده ؟

فقال له أمير المؤمنين عليه السلام : لم أك بالذي أعبد من لم أره .

- (١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٠٤ ح ١ ، و ٣٠٨ ح ٢ بروايتين و في الأمالي : ٢٨٠ ح ١ المجلس (٥٥) .
- (٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٣٨ ح ٤ .

الصفحة ٢٨٦

فقال له : فكيف رأيته حين رأيته ؟

فقال له : ويحك لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ، و لكن رأته القلوب بحقائق الايمان ، معروف بالدلالات ، منعوت بالعلامات ، لا يقاس بالناس ، و لا تدركه الحواس .

فانصرف الرجل و هو يقول : الله أعلم حيث يجعل رسالته . و تبعه في (الاحتجاج) ١ .

و روى مضمون الخبر (الكافي) في باب إبطال الرؤية عن الباقر عليه السلام و اشتمل على أن رجلا من الخوارج سأل الباقر عليه السلام ٢ .

فالظاهر و هم المفيد في نسبه إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، و لعلّ المصنّف وقف على مستند آخر غير سند الكليني و الصدوق في الكتابين و كان مشتملا على ذكر اليماني ٣ .

لكن الظاهر أنّ ذعلب اليمانيّ كان رجلا آخر متأخرا من الرواة التبس على المصنّف هذا بذاك ، فقال نفسه في الخطبة (٢٣٢) : روى ذعلب اليماني عن أحمد بن قتيبة عن عبد الله بن يزيد عن مالك بن دحية قال : كنا عند أمير المؤمنين عليه السلام . . . ٤ ، لكن نقله ابن أبي الحديد على ما في النسخة « ذعلب

(١) أخرجه المفيد في الإرشاد : ١٢٠ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ١ : ٢٠٩ و بينهما اختلاف لفظي يسير .

(٢) أخرج المضمون الكليني في الكافي ١ : ٩٧ ح ٥ ، و الصدوق في التوحيد : ١٠٨ ح ٥ ، و الأمالي : ٢٢٩ ح ٤ المجلس (٤٧) ،

و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٢١ عن الباقر عليه السلام و رواه بلا اشارة الى كون الرجل من الخوارج الديلمي في ارشاد القلوب : ١٦٧ ح ١ ، و الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣٦ ، و رواه مترددا عن الباقر أو الصادق عليهما السلام الاربلي في كشف الغمة ٢ : ٤١٨ .

(٣) يؤيد هذا الاحتمال رواية الديلمي في ارشاد القلوب التي كانت أوفق الروايات للفظ نهج البلاغة ، و لكونه أكمل متنا لا يحتل روايته عن نهج البلاغة ، بل المحتمل رواية كليهما عن مصدر واحد ، و في لفظ الديلمي « ذعلب اليماني » أيضا .

(٤) لفظ نهج البلاغة ٢ : ٢٢٧ « روى اليماني » بدون ذكر ذعلب و لفظ ابن ميثم في شرحه ٤ : ١١٤ « روى أبو محمد اليماني » .

الصفحة ٢٨٧

اليماني « ١ .

« فقال : هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين » و قد عرفت أنّ خارجيًا سأل الباقر عليه السلام عن مثله .

« فقال : أفأعبد ما لا أرى » و روى (المحاسن) أنّ رجلا من اليهود أتاه عليه السلام فقال : يا علي هل رأيت ربك ؟ فقال عليه السلام ما كنت بالذي أعبد إلها لم أره . ثم قال : لم تره العيون في مشاهدة الأبصار غير أنّ الإيمان بالغيب بين عقد القلوب ٢ .

« فقال : و كيف تراه ؟ فقال « هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (قال : كيف تراه ؟ قال) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٣ ، ثم كلمة (قال) الثانية زائدة توكيدا ، و إلّا يصير ما بعدها مقولها ، و يبقى قوله : « و من كلام له عليه السلام » خبرا بلا مبتدأ .

« لا تدركه العيون بمشاهدة العيان » ، و في رواية الكليني و الصدوق : « لم تره العيون بمشاهدة الأبصار » ٤ .

« و لكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان » و إدراك القلوب فوق إدراك العيون ،

لعدم وقوع لبس في إدراكها ، بخلاف إدراك العيون فيقع اللبس فيها كثيرا ،

و لبعضهم :

لئن لم ترك العين

فقد أبصر قلب

وقال الصدوق في (توحيده) : و الأخبار التي ذكرها أحمد بن محمد بن عيسى في (نوارده) و محمد بن أحمد بن يحيى في (جامعه) في معنى الرؤية صحيحة لا يردّها إلاّ مكذّب بالحق أو جاهل به ، و ألفاظه ألفاظ القرآن ، و لكلّ

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٨٦ .

(٢) أخرجه البرقي في المحاسن : ٢٣٩ ح ٢١٦ .

(٣) لفظ ابن أبي الحديد ٢ : ٥٠٤ « فقال : و كيف تراه ؟ قال » ، و لفظ ابن ميثم ٣ : ٣٧٣ ، فقال : و كيف تراه ؟ فقال » .

(٤) الكافي ١ : ٩٧ ح ٥ ، و التوحيد للصدوق : ٣٠٥ ح ١ ، و ٣٠٨ ح ٢ .

الصفحة ٢٨٨

خبر معنى ينفي التشبيه و التعطيل و يثبت التوحيد ، و قد أمرنا الأئمة عليهم السلام أن لا نكلّم الناس إلاّ على قدر عقولهم ، و معنى الرؤية الواردة في الأخبار : العلم ، و ذلك أنّ الدّنيا دار شكوك و ارتياب و خطرات ، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله و أموره في ثوابه و عقابه ما يزول به الشكوك ، و يعلم حقيقة قدرة الله تعالى ، و تصديق ذلك في كتاب الله تعالى : لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ١ ، فمعنى ما روي في الحديث أنّه تعالى يرى ، أي : يعلم علما يقينا ، كقوله تعالى : ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظلّ . . . ٢ و قوله تعالى : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه . . . ٣ و قوله تعالى : ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم و هم ألوف حذر الموت . . . ٤ و قوله تعالى : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ٥ و أشباه ذلك من رؤية القلب ، و ليست من رؤية العين ، و أمّا قوله تعالى : . . . فلما تجلّى ربه للجبل . . . ٦ ، فمعناه لما ظهر عزّ و جلّ للجبل بأية من آيات الآخرة التي يكون بها الجبال سرايا و التي ينسف بها الجبال نسفا ، تدكدك الجبل فصار ترابا لأنّه لم يطق حمل تلك الآية ، و قد قيل : إنّه بداله من نور العرش ٧ .

و أمّا قول موسى عليه السلام : . . . ربّ أرني أنظر إليك . . . ٨ فليس دالّا على تجويز موسى عليه السلام رؤيته تعالى ، فإنّه عليه السلام قال ذلك لما سأله قومه رؤيته

(١) ق : ٢٢ .

(٢) الفرقان : ٤٥ .

(٣) البقرة : ٢٥٨ .

(٤) البقرة : ٢٤٣ .

(٥) الفيل : ١ .

(٦) الأعراف : ١٤٣ .

(٧) التوحيد للصدوق : ١١٩ .

(٨) الأعراف : ١٤٣ .

الصفحة ٢٨٩

تعالى جهرة ، فقال ذلك ليفهمهم امتناعها بجوابه تعالى . . . لن تراني . . . ١ ،

كما يشهد له قوله تعالى في موضع آخر : يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله فأخذتهم الصاعقة بظلمهم . . . ٢ ، فإنّ القصة في الآيتين واحدة ، و قد صرّح في الثانية بأنّ السؤال له تعالى كان منهم ، فكان موسى عليه السّلام حاكيا عنهم .

هذا ، و الإمامية و المعتزلة على امتناع رؤيته تعالى في الدّنيا و الآخرة لقوله تعالى : لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير ٣ و لقوله تعالى : لموسى عليه السّلام : . . . لن تراني . . . ٤ .

و ذهبت الأشاعرة إلى جواز رؤيته في الدّنيا منزّها عن الجهة و المكان و المقابلة . و قالت المشبهة و الكرامية برؤيته في الجهة و المكان لكونه عندهم جسما ٥ ، و نسبوا إلى ابن عباس أنّه قال : إنّ الله اختصّ محمدا بالرؤية ، كما اختص موسى بالكلام ٦ .

و قال أحمد بن خابط و الفضل الحدّثي و هما من أصحاب النّظام بحمل كلّ ما ورد في الخبر من رؤية الباري تعالى مثل قوله صلّى الله عليه و آله : « إنّكم سترون

(١) الأعراف : ١٤٣ .

(٢) النساء : ١٥٣ .

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

(٤) الأعراف : ١٤٣ .

(٥) هذا اقتباس من قول المجلسي في بحار الأنوار ٤ : ٦٠ ٥٩ ، و خلاصة قول المفيد في أوائل

المقالات : ٦٣ أنّ صحة رؤية الله تعالى قول المشبهة و بعض الصفاتية ، و عدم رؤيته قول جمهور

الإمامية و عامة متكلمي الإمامية إلا من شذ منهم ،

و جميع المعتزلة ، و جمهور المرجئة ، و كثير من الخوارج ، و الزيدية ، و بعض أهل الحديث .
 (٦) هذا المعنى أخرجه النسائي و الحاكم و ابن مردويه عن ابن عباس ، و أخرجه الحاكم في المستدرک
 و ابن مردويه و ابن جرير و ابن المنذر و عبد بن حميد في مسنده عن الشعبي : أن كعباً قاله بحضرة ابن
 عباس ، و عنهم الدر المنثور ٦ : ١٢٤ .

الصفحة ٢٩٠

ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر و لا تضامون في رؤيته « ١ على رؤية العقل الأول الذي هو
 أول مبدع ، و هو العقل الفعال الذي منه تفيض الصور على الموجودات ، و إياه عنى النبي صلى الله عليه
 و آله بقوله : « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل . ثم قال له : أدبر فأدبر . فقال : و عزتي و
 جلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك ، و بك أعزّ و بك أدلّ و بك أعطي و بك أمنع » ٢ . فهو الذي يظهر يوم
 القيامة ، و ترتفع الحجب بينه و بين الصور التي فاضت منه ، فيرونه كمثل القمر ليلة البدر ، فأما واهب
 العقل فلا يرى البتة و لا يشبه إلا مبدع بمبدع إلى غير ذلك من مذاهبهم البدعية التي نقلها (الملل) ٣ .

و الرجالن و إن نفيا عنه رؤية البصر و هو حق إلا أنّهما جعلاه شريكا ،

و تعالى الله عما يشركون .

« قريب من الأشياء غير ملامس » قال تعالى في وصف قربه : . . . و نعلم ما توسوس به نفسه و نحن
 أقرب إليه من حبل الوريد ٤ . و قال عزّ و جلّ : و إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا
 دعان . . . ٥ .

(١) أخرجه عدّة عن أبي هريرة و أبي سعيد الخدري و ابن رزين و صهيب و جابر بن عبد الله
 باختلاف يسير و جمع بعض طرقه و ألفاظه ابن الأثير في جامع الأصول ١١ : ١٦٨ ح ٨٠٩٨ ، و المتقي
 في منتخب كنز العمال ٦ : ١٢٤ ، و شرح الحديث الشريف الرضي في المجازات النبوية : ٤٧ و الشريف
 المرتضى في تنزيه الأنبياء : ١٢٨ .

(٢) أخرجه بفرق يسير داود بن المحبّر في كتاب العقل ، و عنه هامش جامع الاصول ٤ : ٤٢٢ ، و
 الكراجكي في كنز الفوائد :

١٤ ، و كون العقل أول ما خلق الله أخرجه الصدوق في الفقيه ٤ : ٢٦٧ ، و رواه الطبرسي في مكارم
 الأخلاق : ٤٤٢ ، و كون العقل أول خلق من الروحانيين أخرجه البرقي في المحاسن : ١٩٦ ح ٢٢ ، و
 الكليني في الكافي ١ : ٢٠ ح ١٤ ، و الصدوق في الخصال ٢ : ٥٨٨ ح ١٣ عن الصادق عليه السلام ،

- لكن اللفظ المشهور في حديث العقل : « لما خلق الله العقل . . . » رواه عدة عن النبي صلى الله عليه و آله و الباقر عليه السلام و الصادق عليه السلام و موقوفا عن الحسن البصري لا يسع ذكره المقام .
- (٣) الممل و النحل للشهرستاني ١ : ٦٣ .
- (٤) ق : ١٦ .
- (٥) البقرة : ١٨٦ .

الصفحة ٢٩١

- « بعيد منها غير مباين » فالبعد بالبينونة صفة الأجسام .
- « متكلم لا بروية » كالإنسان يتروى أولا في المعاني ثم يتكلم بالألفاظ .
- « مرید لا بهمة » بالإضمار في نفسه .
- « صانع لا بجارحة » كالإنسان يصنع شيئا بيده .
- « لطيف لا يوصف بالخفاء » كأرواح ذوي الأرواح .
- « كبير لا يوصف بالجفاء » كأجساد ذوي الأجساد الجسمية .
- « بصير لا يوصف بالحاسة » أي : الباصرة .
- « رحيم لا يوصف بالرقّة » للقلب .
- « تعنو » أي : تخضع و تذلل .
- « الوجوه لعظمته » و عنت الوجوه للحي القيوم و قد خاب من حمل ظلما ١ .
- « و تجب » أي : تضطرب .
- « القلوب من مخافته » و الذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم و جلة أنهم إلى ربهم راجعون ٢ ، ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا و هب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ٣ .

من الخطبة (١٨٣) و من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا تُدْرِكُهُ الشَّوَاهِدُ وَلَا تَحْوِيهِ الْمَشَاهِدُ وَلَا تَرَاهُ

(١) طه : ١١١ .

(٢) المؤمنون : ٦٠ .

(٣) آل عمران : ٨ .

الصفحة ٢٩٢

النَّوَظِرُ وَلَا تَحْجِبُهُ السَّوَاتِرُ الدَّالُّ عَلَى قَدَمِهِ بِحُدُوثِ خَلْقِهِ وَ بِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لَا شَبَهَ لَهُ الَّذِي صَدَقَ فِي مِيعَادِهِ وَ ارْتَفَعَ عَنْ ظُلْمِ عِبَادِهِ وَ قَامَ بِالْقِسْطِ فِي خَلْقِهِ وَ عَدَلَ عَلَيْهِمْ فِي حُكْمِهِ مُسْتَشْهِدٌ بِحُدُوثِ الْأَشْيَاءِ عَلَى أَرْزَلِيَّتِهِ وَ بِمَا وَسَمَهَا بِهِ مِنَ الْعَجْزِ عَلَى قُدْرَتِهِ وَ بِمَا اضْطَرَّهَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَنَاءِ عَلَى دَوَامِهِ وَاحِدٌ لَا بَعْدَ دَائِمٍ لَا بِأَمَدٍ وَ قَائِمٌ لَا بَعْدَ تَنَقُّاهِ الْأَذْهَانَ لَا بِمُشَاعِرَةٍ وَ تَشْهَدُ لَهُ الْمَرَائِي لَا بِمُحَاضِرَةٍ لَمْ تُحِطْ بِهِ الْأَوْهَامُ بَلْ تَجَلَّى لَهَا بِهَا وَ بِهَا امْتَنَعَ مِنْهَا وَ إِلَيْهَا حَاكَمَهَا لَيْسَ بِذِي كِبَرٍ امْتَدَّتْ بِهِ النَّهَائِيَاتُ فَكَبَّرَتْهُ تَجْسِيمًا وَ لَا بِذِي عِظَمٍ تَنَاهَتْ بِهِ الْغَايَاتُ فَعَظَّمَتْهُ تَجْسِيدًا بَلْ كَبُرَ شَأْنَا وَ عَظُمَ سُلْطَانَا أَقُولُ : قد عرفت في أول الكتاب ١ أن نسخنا من هنا إلى خطبة المتقين ، بينهما سبع خطب مختلفة مع نسخة ابن أبي الحديد ، و قد عرفت تصريح ابن ميثم بالاختلاف من الأول .

« الحمد لله الذي لا تدرکه الشواهد » الشواهد جمع الشاهدة ، و الشاهدة الحاسة . فيكون المعنى لا تدرکه الحواس الظاهرة : السامعة ، و الباصرة ،

و الذائفة ، و الشامة ، و اللامسة ، فإنها تدرک المحسوسات .

« و لا تحويه » قال الجوهرى : حواه يحويه حيا ، أي : جمعه ٢ .

« المشاهد » أي : المحاضر ، قالوا : مشاهد مكة مواطن يحضرها الناس ،

و إنه تعالى شاهد كل مأل ، و لا يحويه مشهد .

« و لا تراه النواظر » النواظر جمع الناظرة ، أي : القوة الباصرة ، قال تعالى :

(١) مرّ في مقدّمة المؤلف .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٣٢٢ مادة (حوى) .

الصفحة ٢٩٣

لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير ١ .

« و لا تحجبه السواتر » بخلاف باقي الأشياء حتى الشمس ، فإنّها مع كونها أظهر من كلّ شيء و بها يظهر كلّ شيء تحجب بغمام ، بل بقتام .

« الدالّ على قدمه بحدوث خلقه » و إلّا لزم التسلسل المحال ، و زاد (الاحتجاج) : « و بحدوث خلقه على وجوده » ٢ .

« و باشتباههم على أن لا شبه له » أي : لما امتنع عند العقل مشابهة الصانع و المصنوع و نرى في جميع الأشياء التشابه ، نعم أنّه تعالى هو الذي ليس له شبه .

« الذي صدق في ميعاده » . . . إنّ وعد الله حقّ فلا تغرنكم الحياة الدّنيا . . . ٣ .

« و ارتفع عن ظلم عباده » إنّ الله لا يظلم النّاس شيئاً و لكنّ النّاس أنفسهم يظلمون ٤ . و الظالم إنّما يظلم إمّا لاحتياجه و إمّا لجهله ، كما أنّ المخلف لو عده إنّما يخلف إمّا لعجزه عن الوفاء به أو لجهله بقبحه ، و هو تعالى منزّه عن الحاجة و العجز و الجهل .

نعم يمكن صفحه عن وعيده ، و في الدّعاء : يا من إذا وعد و في ، و إذا تواعد عفا ٥ .

« و قام بالقسط » أي : العدل .

(١) الأنعام : ١٠٣ .

(٢) الاحتجاج للطبرسي ١ : ٢٠٤ روى الخطبة بتمامها .

(٣) لقمان : ٣٣ .

(٤) يونس : ٤٤ .

(٥) الفقرتان جاءتا ضمن دعاء رواه المجلسي في بحار الأنوار ٩٤ : ١٣٢ عن الكتاب العتيق الغروي عن السجاد عليه السلام ، و جاء قريبا منه ما في دعاء رواه الطبرسي في مكارم الأخلاق : ٢٩٥ عن الباقر و الصادق عليهما السلام مترددا .

الصفحة ٢٩٤

« في خلقه » شهد الله أنه لا إله إلا هو و الملائكة و أولو العلم قائما بالقسط . . . ١ .

« و عدل عليهم في حكمه » . . . و يؤت كل ذي فضل فضله . . . ٢ . . . إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى . . . ٣ . . . و ما كان الله ليضيع أيمانكم . . . ٤ . . . إنا لا نضيع أجر المصلحين ٥ . . . و لا نضيع أجر المحسنين ٦ . . . فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ٧ ، يستبشرون بنعمة من الله و فضل و أن الله لا يضيع أجر المؤمنين ٨ . . . إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ٩ .

« مستشهد بحدوث الأشياء على أزليته » قال الرضا عليه السلام : خلق السموات و الأرض في ستة أيام ثم استوى على عرشه ، و كان قادرا على أن يخلقها في طرفة عين ، و لكنه تعالى خلقها في ستة أيام ليظهر للملائكة ما يخلقه منها شيئا بعد شيء ، فيستدل بحدوث ما يحدث على الله تعالى مرة بعد مرة ١٠ .

« و بما وسمها » أي : جعل لها علامة ، من وسمه إذا أثر فيه بسمه و كي .

« به من العجز على قدرته » فحيث إن كلهم عاجزون ، و معلوم أن في

(١) آل عمران : ١٨ .

(٢) هود : ٣ .

(٣) آل عمران : ١٩٥ .

(٤) البقرة : ١٤٣ .

(٥) الأعراف : ١٧٠ .

(٦) يوسف : ٥٦ .

(٧) هود : ١١٥ .

(٨) آل عمران : ١٧١ .

(٩) الكهف : ٣٠ .

(١٠) أخرجه الصدوق في العيون ١ : ١١٠ ح ٣٣ ضمن حديث روى معناه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٤١٢ عن علي عليه السلام .

الصفحة ٢٩٥

الوجود قادرا على ما يشاء ، يعلم أنه هو القادر ، قال تعالى : . . . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا و لو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب و المطلوب ١ ، . . . إن يشأ يذهبكم و يأتي بخلق جديد . و ما ذلك على الله بعزيز ٢ .

« و بما اضطرّها إليه من الفناء » أي : مستشهد به أيضا .

« على دوامه » فحيث نرى جميع الخلق فانين ، و معلوم أنه يجب أن يكون في الوجود مفن دائم الوجود ، نعلم و نفهم من فنائهم دوامه تعالى ، قال تعالى :

كلّ شيء هالك إلاّ وجهه . . . ٣ ، كلّ من عليها فان . و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام ٤ .

« واحد لا بعدد » أي : أحد لا ثاني له .

« دائم لا بأمد » أي : مدّة و انتهاء ، و كلّ شيء سواه تعالى حتّى الأرض و السّماء و الشمس و القمر و الجبال و البحار التي يضرب الناس بها الأمثال في الدوام ، له أمد و مدّة ، قال تعالى : . . . و سخرّ الشمس و القمر كلّ يجري لأجل مسمّى . . . ٥ .

« و قائم لا بعمد » كلّ قائم سواه تعالى على ساق يعتمد عليه كالإنسان و أقسام الحيوان ، أو على عمد يستند إليه كالأبنية و الأخبية ، و هو تعالى قائم بوجوب ذاته .

« تتلقاه الأذهان » أي : العقول .

(١) الحج : ٧٣ .

(٢) ابراهيم : ٢٠ ١٩ .

(٣) القصص : ٨٨ .

(٤) الرحمن : ٢٦ ٢٧ .

(٥) الزمر : ٥ .

الصفحة ٢٩٦

« لا بمشاعرة » فإن كثيرا من الأشياء تتلقاه الأذهان من المشاعر الظاهرية ، و هو عزّ و جلّ لا يتلقى إلا من البراهين العقلية .

« و تشهد له المرآة لا بمحاضرة » هكذا في النسخ ١ ، و يمكن أن يكون (المرآة) مصحف (المرآة) جمع المرآة ، فيكون المعنى : أن المرآة تشهد لما حاضرها بالتقابل بالوجود لانتقائه فيها ، و أمّا الباري تعالى فتشهد لوجوده مرآة العقول من غير حضور و مقابلة .

و يحتمل أن يكون (المرآة) جمع (المرآة) اسم مكان بمعنى المنظر ،

و هو الناظر كما قاله ابن ميثم ٢ ، فيكون المعنى : أن رؤيته تعالى لما كانت بالقلب لا بالنواظر لا يحتاج إلى أن يكون حاضرا للناظر . و لا يخلو من بعد .

و أمّا ما قال ابن أبي الحديد ٣ من أنه من قولهم : فلان هو حسن في مرآة عيني يقول : إن جنس الرؤية يشهد بوجود الباري تعالى من غير محاضرة منه للحواس ، ففي غاية البعد .

و أمّا ما قاله الخوئي ٤ تبعا للمجلسي ٥ من أنه جمع المرآة (بلفظ المفعول) ، أي : المرآتيات تشهد بوجوده تعالى من غير محاضرة منه ، فلا وجه له ، فإنّ الشاهد لشيء إنّما يكون الرائي لا المرآة ، و المرآتيات و إن تشهد له تعالى إلا أنه ليس من حيث كونها مرآة بل من حيث كونها أشياء .

« لم تحط به الأوهام » لقصرها عن الإحاطة به .

(١) كذا في نهج البلاغة ٢ : ١١٥ ، و شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٩٤ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٢١ .

(٢) شرح ابن ميثم ٤ : ١٢٥ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٩٦ .

(٤) شرح الخوئي ٥ : ١٢٧ .

(٥) بحار الأنوار ٤ : ٢٦١ و جعله المجلسي احتمالا ثانيا ، و احتماله الأول كونه جمع مرآة بفتح الميم ، من قولهم : هو حسن في مرآة عيني .

« بل تجلّى لها » هكذا في (المصرية) الأخيرة ، و في (المصرية) الأولى : « بل تجلّى بها » و كلتاهما ناقصتان . و الصواب ما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ١ بلفظ : « بل تجلّى لها بها » . هذا من حيث إحراز ما في النهج ، لكن الظاهر وقوع تحريف فيه ، و أنّ الأصل : « بل تجلّى للعقول بها » . كما يشهد له قوله عليه السّلام في الآتي ٢ : « بها تجلّى صانعها للعقول » .

و حينئذ يكون معنى قوله عليه السّلام بعده : « و بها امتنع منها ، و إليها حاكمها » أنّ بالعقول و حكمها أنّه تعالى لا يدرك بالأوهام امتنع من الأوهام أن تدركه ، و أنّ ؟ ؟ ؟ ؟ العقول حاكم تعالى الأوهام لو تدعي معرفته تعالى ، حتّى تحكم العقول بعجزها عن إدراك جلاله ، فيكون الضمير في (بها) راجعا إلى (العقول) و في (منها) راجعا إلى الأوهام ، و في (إليها) أيضا راجعا إلى (العقول) و في (حاكمها) راجعا إلى الأوهام .

و أمّا على ما في النهج من إرجاع الضمائر كلّها إلى الأوهام كما يقتضيه السياق فيحتاج المعنى إلى تكلف ، بأن يكون المراد من الأوهام المعنى الأعم لها من المتعارف ، و من معنى العقول كما احتمله المجلسي ٣ .

« ليس بذّي كبير امتدّت به النّهيات » أي : الطّول و العرض و العمق .

« فكبرّته تجسيما » حسب شأن أشياء نهاياتها ممتدّة .

« و لا بذّي عظم تناهت به الغايات » في أبعاده .

« فعظّمته تجسيما » و جعل جسده ضخيمًا .

« بل كبير شأنًا و عظم سلطانًا » يعني أنّ الكبير و العظمة بالنسبة إليه تعالى

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٩٤ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٢١ « بل تجلّى لها و بها » .

(٢) يأتي في متن الخطبة في العنوان (٢٥) .

(٣) بحار الأنوار ٤ : ٢٦٢ .

قال تعالى في كبره : عالم الغيب و الشهادة الكبير المتعال ١ . و قال عزّ و جلّ في عظمه : فسبح باسم ربك العظيم ٢ .

٢٥

من الخطبة (١٨٤) و من خطبة له عليه السلام في التوحيد ، و تجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمه خطبة :

مَا وَحَدَّهُ مِنْ كَيْفِهِ وَ لَا حَقِيقَتَهُ أَصَابَ مِنْ مِثْلِهِ وَ لَا إِيَّاهُ عَنَى مِنْ شَبَّهَهُ وَ لَا صَمَدَهُ مِنْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَ تَوَهَّمَهُ كُلُّ مَعْرُوفٍ بِنَفْسِهِ مَصْنُوعٌ وَ كُلُّ قَائِمٍ فِي سِوَاهُ مَعْلُوفٌ فَاعِلٌ لَا بِاضْطِرَابِ آلَةٍ مُقَدَّرٌ لَا بِجَوْلِ فِكْرَةٍ غَنِيٌّ لَا بِاسْتِفَادَةٍ لَا تَصْحَبُهُ الْأَوْقَاتُ وَ لَا تَرْفُدُهُ الْأَدَوَاتُ سَبَقَ الْأَوْقَاتُ كَوْنَهُ وَ الْعَدَمَ وَجُودُهُ وَ الْإِبْتِدَاءَ أَرْلَهُ بِتَشْعِيرِهِ الْمَشَاعِرَ عُرِفَ أَنْ لَا مَشْعَرَ لَهُ وَ بِمُضَادَّتِهِ بَيْنَ الْأُمُورِ عُرِفَ أَنْ لَا ضِدَّ لَهُ وَ بِمُقَارَنَتِهِ بَيْنَ الْأَشْيَاءِ عُرِفَ أَنْ لَا قَرِينَ لَهُ ضَادُّ النُّورِ بِالظُّلْمَةِ وَ الْوُضُوحِ بِالْبُهْمَةِ وَ الْجُمُودِ بِالْبَلَلِ وَ الْحَرُورِ بِالصَّرْدِ مُؤَلَّفٌ بَيْنَ مُتَعَادِيَاتِهَا مُقَارِنٌ بَيْنَ مُتَبَايِنَاتِهَا مُقَرَّبٌ بَيْنَ مُتَبَاعِدَاتِهَا مُفْرَقٌ بَيْنَ مُتَدَانِيَاتِهَا لَا يُشْمَلُ بِحَدِّ ٣ وَ لَا يُحْسَبُ بِعَدِّ وَ إِنَّمَا تَحْدُ الْأَدَوَاتُ أَنْفُسَهَا وَ تَشِيرُ الْأَلَاتُ إِلَى نِظَائِرِهَا مَنَعَتْهَا مِنْذُ الْقَدَمِيَّةِ وَ حَمَّتْهَا قَدُّ الْأَزَلِيَّةِ وَ جَنَّبَتْهَا لَوْ لَا التَّكْمِلَةَ بِهَا تَجَلَّى صَانِعُهَا لِلْعُقُولِ وَ بِهَا امْتَنَعَ

(١) الرعد : ٩ .

(٢) الواقعة : ٧٤ ، ٩٦ .

(٣) قال الشارح و من بعض النسخ « مقرب بين متبايعاتها ، و مفرق بين متدانياتها ، لا يشمل بحد » .

الصفحة ٢٩٩

عَنْ نَظَرِ الْعُيُونِ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ السُّكُونُ وَ الْحَرَكَةُ وَ كَيْفَ يَجْرِي عَلَيْهِ مَا هُوَ أَجْرَاهُ وَ يَعُودُ فِيهِ مَا هُوَ أَبْدَاهُ وَ يَحْدُثُ فِيهِ مَا هُوَ أَحْدَثُهُ إِذَا لَتَقَاوَتَتْ ذَاتُهُ وَ لَتَجَزَّأَ كُنْهُهُ وَ لَا مَتْنَعَ مِنَ الْأَزْلِ مَعْنَاهُ وَ لَكَانَ لَهُ وَرَاءَ إِذْ وَجَدَ لَهُ أَمَامٌ وَ لَا تَمَسَّ التَّمَامَ إِذْ لَزِمَهُ النُّقْصَانُ وَ إِذَا لَقَامَتْ آيَةُ الْمَصْنُوعِ فِيهِ وَ لَتَحَوَّلَ دَلِيلًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مَدْلُولًا عَلَيْهِ وَ خَرَجَ بِسُلْطَانِ الْإِمْتِنَاعِ مِنْ أَنْ يُؤَثَّرَ فِيهِ مَا يُؤَثَّرُ فِي غَيْرِهِ الَّذِي لَا يَحُولُ وَ لَا يَزُولُ وَ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْأُفُولُ وَ لَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ مَوْلُودًا وَ لَمْ يُوَلَدْ فَيَصِيرَ مَحْدُودًا جَلَّ عَنِ اتِّخَاذِ الْأَبْنَاءِ وَ طَهَّرَ عَنِ مَلَامَسَةِ النِّسَاءِ لَا تَتَّالَهُ الْأَوْهَامُ فَتَقْدَرُهُ وَ لَا تَتَوَهَّمُهُ الْفِطْنُ فَتُصَوِّرُهُ وَ لَا تَدْرِكُهُ الْحَوَاسُ فَتُحَسِّسُهُ وَ لَا تَلْمِسُهُ الْأَيْدِي فَتَمَسَّهُ وَ لَا يَتَغَيَّرُ بِحَالٍ وَ لَا يَتَبَدَّلُ بِالْأَحْوَالِ وَ لَا تُبْلِيهِ اللَّيَالِي وَ الْأَيَّامُ وَ لَا يُغَيِّرُهُ الضِّيَاءُ وَ الظُّلَامُ وَ لَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْأَجْزَاءِ وَ لَا بِالْجَوَارِحِ وَ الْأَعْضَاءِ وَ لَا بَعَرَضٍ مِنَ الْأَعْرَاضِ وَ لَا بِالْغَيْرِيَّةِ وَ الْأَبْعَاضِ وَ لَا يُقَالُ لَهُ

حَدٌّ وَلَا نَهَايَةً وَلَا انْقِطَاعٌ وَلَا غَايَةً وَلَا أَنَّ الْأَشْيَاءَ تَحْوِيهِ فُتْقَلُهُ أَوْ تَهْوِيهِ أَوْ أَنَّ شَيْئًا يَحْمِلُهُ فَيَمِيلُهُ أَوْ يُعَدِّلُهُ لَيْسَ فِي الْأَشْيَاءِ بَوَالِجٌ وَلَا عَنْهَا بَخَارِجٌ يُخْبِرُ لَا بِلِسَانٍ وَلَا هَوَاتٍ وَيَسْمَعُ لَا بِخُرُوقٍ وَلَا أَدْوَاتٍ يَقُولُ وَلَا يَلْفُظُ وَلَا يَحْفَظُ وَلَا يَتَحَفَّظُ وَيُرِيدُ وَلَا يَضْمُرُ يُحِبُّ وَيَرْضَى مِنْ غَيْرِ رِقَّةٍ وَيُبْغِضُ وَيَغْضَبُ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ يَقُولُ لِمَنْ أَرَادَ كَوْنَهُ كُنْ فَيَكُونُ لَا بِصَوْتٍ يَقْرَعُ وَلَا بِبِنْدَاءٍ يُسْمَعُ وَإِنَّمَا كَلَامُهُ سُبْحَانَهُ فَعَلُ مِنْهُ أَنْشَاءُ وَمِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَانْنَا وَلَا لَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهَا ثَانِيًا لَا يُقَالُ كَانَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ فَتَجْرِي عَلَيْهِ الصِّفَاتُ الْمُحَدَّثَاتُ وَلَا يَكُونُ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ فَصْلٌ وَلَا لَهُ عَلَيْهَا فَضْلٌ فَيَسْتَوِي الصَّانِعُ

الصفحة ٣٠٠

وَالْمَصْنُوعُ وَيَتَكَافَأُ الْمُبْتَدِعُ وَالْبَدِيعُ خَلَقَ الْخَالِئِقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلَا عَنْ غَيْرِهِ وَلَا يَسْتَعِينُ عَلَى خَلْقِهَا بِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ وَأَنْشَأَ الْأَرْضَ فَأَمْسَكَهَا مِنْ غَيْرِ اسْتِغَالٍ وَأَرْسَاهَا عَلَى غَيْرِ قَرَارٍ وَأَقَامَهَا بِغَيْرِ قَوَائِمٍ وَرَفَعَهَا بِغَيْرِ دَعَائِمٍ وَحَصَّنَهَا مِنَ الْأَوْدِ وَالْإِعْوَجَاجِ وَمَنْعَهَا مِنَ التَّهَافُتِ وَالْإِنْفِرَاجِ أَرْسَى أَوْتَادَهَا وَضَرَبَ أَسْدَادَهَا وَاسْتَفَاضَ عِيُونَهَا وَخَدَّ أَوْدِيَّتَهَا فَلَمْ يَهِنْ مَا بَنَاهُ وَلَا ضَعُفَ مَا قَوَّاهُ هُوَ الظَّاهِرُ عَلَيْهَا بِسُلْطَانِهِ وَعَظْمَتِهِ وَهُوَ الْبَاطِنُ لَهَا بِعِلْمِهِ وَمَعْرِفَتِهِ وَالْعَالِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْهَا بِجَلَالِهِ وَعِزَّتِهِ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ مِنْهَا طَلَبُهُ وَلَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ فَيَغْلِبُهُ وَلَا يَقْوَتُهُ السَّرْبِيعُ مِنْهَا فَيَسْبِقُهُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى ذِي مَالٍ فَيَرزُقُهُ خَضَعَتِ الْأَشْيَاءُ لَهُ وَذَلَّتْ مُسْتَكِينَةً لِعَظْمَتِهِ لَا يَسْتَطِيعُ الْهَرَبَ مِنْ سُلْطَانِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَيَمْتَنِعُ مِنْ نَفْعِهِ وَضُرِّهِ وَلَا كُفَاءَ لَهُ فَيُكَافِئُهُ وَلَا نَظِيرَ لَهُ فَيَسَاوِيهِ هُوَ الْمُفْنِي لَهَا بَعْدَ وُجُودِهَا حَتَّى يَصِيرَ مَوْجُودَهَا كَمَفْقُودِهَا .

وَلَيْسَ فَنَاءُ الدُّنْيَا بَعْدَ ابْتِدَاعِهَا بِأَعْجَبَ مِنْ إِنْشَائِهَا وَاخْتِرَاعِهَا وَكَيْفَ لَوْ اجْتَمَعَ جَمِيعُ حَيَوَانِهَا مِنْ طَيْرِهَا وَبَهَائِمِهَا وَمَا كَانَ مِنْ مُرَاحِهَا وَسَائِمِهَا وَأَصْنَافِ أَسْنَاخِهَا وَأَجْنَاسِهَا وَمُتَبَدِّلَةِ أُمَّمِهَا وَأَكْيَاسِهَا عَلَى إِحْدَاثِ بَعُوضَةٍ مَا قَدَّرَتْ عَلَى إِحْدَاثِهَا وَلَا عَرَفَتْ كَيْفَ السَّبِيلِ إِلَى إِيجَادِهَا وَتَحْيِيرَتِ عَقُولِهَا فِي عِلْمِ ذَلِكَ وَتَاهَتْ وَعَجَزَتْ قُوَاهَا وَتَنَاهَتْ وَرَجَعَتْ خَاسِئَةً حَسِيرَةً عَارِفَةً بِأَنَّهَا مَقْهُورَةٌ مَقْرَّةٌ بِالْعَجْزِ عَنْ إِنْشَائِهَا مُدْعِنَةٌ بِالضَّعْفِ عَنْ إِنْفَائِهَا وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَعُودُ بَعْدَ فَنَاءِ الدُّنْيَا وَحَدَهُ لَا شَيْءَ مَعَهُ كَمَا كَانَ قَبْلَ ابْتِدَائِهَا كَذَلِكَ يَكُونُ بَعْدَ فَنَائِهَا بِلَا وَقْتٍ وَلَا مَكَانٍ وَلَا حِينٍ وَلَا

الصفحة ٣٠١

زَمَانَ عُدِمَتْ عِنْدَ ذَلِكَ الْأَجَالُ وَالْأَوْقَاتُ وَزَالَتِ السُّنُونَ وَالسَّاعَاتُ فَلَا شَيْءَ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ الَّذِي إِلَيْهِ مَصِيرُ جَمِيعِ الْأُمُورِ بِلَا قُدْرَةٍ مِنْهَا كَانَ ابْتِدَاءُ خَلْقِهَا وَبِغَيْرِ امْتِنَاعٍ مِنْهَا كَانَ فَنَائُهَا وَ لَوْ قَدَّرَتْ عَلَى الْأَمْتِنَاعِ لَدَامَ بَقَاؤُهَا لَمْ يَتَكَادَهُ صُنْعُ شَيْءٍ مِنْهَا إِذْ صَنَعَهُ وَ لَمْ يُوَدِّهِ مِنْهَا خَلْقُ مَا خَلَقَهُ وَ بَرَأَهُ وَ لَمْ يَكُونِهَا لِتَشْدِيدِ سُلْطَانٍ وَلَا لَخَوْفٍ مِنْ زَوَالٍ وَ نَقْصَانٍ وَلَا لِاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى نَدِّ مَكَائِرٍ وَلَا لِالْحِثْرَازِ بِهَا مِنْ ضِدِّ مُثَاوِرٍ وَلَا لِالْإِزْدِيَادِ بِهَا فِي مُلْكِهِ وَلَا لِالْمُكَاتَرَةِ شَرِيكِ فِي شَرِكِهِ وَلَا لِوَحْشَةِ كَانَتْ مِنْهُ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَأْنِسَ

إِيَّاهَا ثُمَّ هُوَ يُفْنِيهَا بَعْدَ تَكْوِينِهَا لَا لِسَامٍ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي تَصْرِيْفِهَا وَ تَدْبِيرِهَا وَ لَا لِرَاحَةِ وَاصِلَةٍ إِلَيْهِ وَ لَا لِثِقَلِ شَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهِ لَمْ يَمْلُ طُولُ بَقَائِهَا فَيَدْعُوهُ إِلَى سُرْعَةِ إِفْنَائِهَا وَ لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ دَبَّرَهَا بِلُطْفِهِ وَ أَمْسَكَهَا بِأَمْرِهِ وَ أَتَقَنَّا بِقُدْرَتِهِ ثُمَّ يُعِيدُهَا بَعْدَ الْفَنَاءِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ مِنْهُ إِلَيْهَا وَ لَا لِاسْتِعَانَةٍ بِشَيْءٍ مِنْهَا عَلَيْهَا وَ لَا لِانْصِرَافٍ مِنْ حَالٍ وَ حَشَّةٍ إِلَى حَالٍ اسْتِنْسَاسٍ وَ لَا مِنْ حَالٍ جَهْلٍ وَ عَمَى إِلَى عِلْمٍ وَ التَّمَاسِ وَ لَا مِنْ فَقْرٍ وَ حَاجَةٍ إِلَى غِنَى وَ كَثْرَةٍ وَ لَا مِنْ ذُلٍّ وَ ضِعَّةٍ [ضِعَّةٌ . خ] إِلَى عِزٍّ وَ قُدْرَةٍ أَقُولُ : وَ رَوَاهُ (تحف العقول) مع اختلاف ، إلى فقرة : « و لتحول دليلا » .

قول المصنف : « و تجمع هذه الخطبة من أصول العلم ما لا تجمه خطبة » .

قلت : و بعد هذه الخطبة في الجامعية خطبة الأشباح المتقدمة ٢ .

(١) تحف العقول : ٦١ روايته يشبه بعضها بالخطبة (١) و بعضها بالخطبة (١٨٤) من نهج البلاغة، لكن الاختلاف كثير .

(٢) تقدم في العنوان (٨) من هذا الفصل و رقمه (٨٩) .

الصفحة ٣٠٢

قوله عليه السلام : « ما وحده من كيِّفه » لأنَّ من كيِّفه فقد ثناه .

« و لا حقيقته أصاب من مثله » لأنَّه ليس كمثلته شيء ، فمن مثله أخطأه تعالى و أصاب غيره .

هذا ، و في (ميزان الذهبى) في أبي السعادات أحمد بن منصور قال : من وضعه حديث يقول فيه : و بين يدي الربِّ لوح فيه أسماء من يثبت الصورة و الرؤية و الكيفيّة ، فيباهي بهم الملائكة ١ .

قلت : فتكنيته بأبي السعادات من قبيل ما قيل بالفارسيّة : « بر عكس نهند نام زنگى كافور » ٢ . و إلّا فهو أبو الشقاوات .

« و لا إياه عنى » أي : قصد .

« من شبّهه » و ما قدروا الله حقَّ قدره . . . ٣ .

« و لا صمده » أي : قصده .

« من أشار إليه » عن الباقر عليه السلام : أنّ الكفار نبّهوا عن آلهتهم بحرف إشارة الشاهد المدرك ، فقالوا
النبيّ صلى الله عليه وآله : هذه آلهتنا المحسوسة المدركة بالأبصار ،

فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو إليه حتى نراه و ندركه و لا نأله فيه ،

فأنزل الله تعالى : قل هو الله أحد ٤ .

و حاصله أنّه الغائب عن درك الأبصار و لمس الحواس .

« و توهمه » عطف على (أشار إليه) ، و لكن في (تحف العقول) : « و لا إياه أراد من توهمه » ٥ .
و هو الأصحّ .

« كلّ معروف بنفسه » أي : بذاته .

(١) ميزان الاعتدال للذهبي ١ : ١٥٩ .

(٢) أورده (دهخدا) في أمثال و حكم ١ : ٤٢٣ و ترجمة المثل : يسمون الزنجي كافورا بالعكس .

(٣) الأنعام : ٩١ .

(٤) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٨٨ ح ١ ، و الآية (١) من سورة الاخلاص .

(٥) تحف العقول : ٦٢ .

الصفحة ٣٠٣

« مصنوع » و ليس بالصانع .

« و كلّ قائم في سواه معلول » و الباري تعالى قائم بذاته ، و زاد (التحف) :

« باطن لا بمداخلة ، ظاهر لا بمزايلة ، متجلّ لا باشتمال رؤية ، لطيف لا بتجسّم » ١ .

« فاعل لا باضطراب آلة » كالناس إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ٢ .

« و مقدر » فالق الإصباح و جعل الليل سكنا و الشمس و القمر حسبنا ذلك تقدير العزيز العليم ٣ ، و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ٤ ، . . . و زيننا السماء الدنيا بمصابيح و حفظا ذلك تقدير العزيز العليم ٥ ، . . . و خلق كل شيء فقدره تقديرا ٦ ، إنا كل شيء خلقناه بقدر ٧ .

« لا بجول » أي : جولان .

« فكرة » كالنّاس ، بل بإيجاده على طبق الحكمة .

« غنيّ لا باستفادة » شيء كالنّاس . . . و لله خزائن السموات و الأرض و لكنّ المنافقين لا يفقهون ٨ .

« لا تصحبه الأوقات » لكونه جاعل الأوقات .

(١) تحف العقول : ٦٣ .

(٢) يس : ٨٢ .

(٣) الأنعام : ٩٦ .

(٤) يس : ٣٨ .

(٥) فصلت : ١٢ .

(٦) الفرقان : ٢ .

(٧) القمر : ٤٩ .

(٨) المنافقون : ٧ .

الصفحة ٣٠٤

« و لا ترفده » أي : لا تعينه .

« الأدوات » جمع الأداة أي الآلات ، و كيف ترفده تعالى و هو موجدّها ؟ « سبق الأوقات » بالنصب .

« كونه » أي : وجوده ، فالأوقات عبارة عن الليل و النهار و الشهور و السنين ، و هي لا توجد إلا من طلوع الشمس و غروبها و قطع الشمس و القمر بروجهما ، و هو تعالى سابق عليهما .

« و العدم » بالنصب أيضا .

« وجوده » بالرفع ، و إنما سبق العدم وجود خلقه .

« و الابتداء » أيضا بالنصب .

« أزله » بالرفع ، و إنما يكون ابتداء لشيء لم يكن أزلًا .

« بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له » زاد في رواية (التحف) :

« و بتجهيره الجواهر علم أن لا جوهر له ، و بانشائه البرايا علم أن لا منشئ له » ١ . و المشاعر : الحواس ، قال بلعاء :

و الرأس مرتفع فيه مشاعره
يهدى السبيل له سمع و عيان

٢ « و بمضادته بين الامور عرف ان لا ضد له ، و بمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له » .

« ضادّ النور بالظلمة » قال تعالى : الحمد لله الذي خلق السماوات و الأرض و جعل الظلمات و النور . .
٣ . و جعل كلاً من الضدين ذا حكمة في نظام العالم و صلاح بني آدم ، فإنه لو كان النهار و لم يكن ليل
كم كان يدخل على الناس ، كما في عكسه كالنور و الظلمة .

(١) تحف العقول : ٦٤ .

(٢) لسان العرب ٤ : ٤١٣ مادة (شعر) .

(٣) الأنعام : ١ .

الصفحة ٣٠٥

« و الوضوح بالبهمة » فجعل علم الحرث و الغرس و اتّخاذ الأنعام و استخراج المعادن واضحا جليًا في
جميع الأدوار ، و عند جميع الأجيال ،

و جعل علم الآجال و الرّزايا و البلايا المقدّرة مبهما خفيًا ، و إلا لتغصّ عيش الإنسان ، و لم يتمتّع بشيء
من النعم .

« و الجمود بالبلل ، و الحرور بالصرد » أي : البرد ، فجعل كلاً منها ذا حكمة ،

فلو لم يجعل جمود الخريف و بلل الربيع ، و حرور الصيف و صرد الشتاء ، لما وجد كثير من المصالح و تولد كثير من المفاسد .

و قالوا : يؤجل العنين سنة في فسخ امرأته العقد لعلّه يرفع عجزه بأحد الفصول الأربعة ، ثم بعد السنة للمرأة الفسخ إذا لم يرفع مرضه ، إذ علم أنّ العلة لم تكن البلل و الجمود و الحرور و الصرد ١ . كما أنّه تعالى خلق الذكر و الأنثى في البشر و غيره ، و إلا لما حصل نسل .

هذا ، و في (المروج) عن يموت بن المزارع ابن اخت الجاحظ في ذكر علته التي مات فيها : و كان يطلي نصفه الأيمن بالصندل و الكافور لشدة حرارته ،

(١) تأجيل العنين سنة مروى و أفني به ، أخرج الرواية الحميري في قرب الاسناد : ٥٠ ، و الطوسي في التهذيب ٧ : ٤٣١ ح ٣٠ ، و الاستبصار ٣ : ٢٤٩ ح ٤ ، و رواه القاضي النعمان في دعائم الاسلام ٢ : ٢٣١ ح ٨٦٩ عن علي عليه السلام ، و أخرجه أحمد بن محمد بن عيسى في النوادر عنه البحار ١٠٣ : ٣٦٤ ح ١٧ ، و الكليني في الكافي ٥ : ٤١١ ح ٧ و الطوسي بروايتين في التهذيب ٧ : ٤٢٩ ح ٢٠ ، و ٤٣١ ح ٢٧ ، و الاستبصار ٣ : ٢٤٩ ح ١ ، و : ٢٥١ ح ٣ عن الباقر عليه السلام ، و أخرجه أحمد بن محمد بن عيسى في النوادر و عنه البحار ١٠٣ : ٣٦٦ ح ٢٦ ، و الكليني في الكافي ٥ : ٤١١ ح ٥ ، و الطوسي في الاستبصار ٣ :

٢٤٩ ح ٣ ، و رواه القاضي النعمان في دعائم الاسلام ٢ : ٢٣٢ ح ٨٧٠ عن الصادق عليه السلام ، و أخرجه الطوسي في التهذيب ٧ :

٤٣١ ح ٢٩ عن أبي الصباح ، و الظاهر أنه حدثه عن الصادق عليه السلام ، و أخرجه صاحب فقه الرضا عليه السلام عنه البحار ١٠٣ :

٣٦٢ ح ١٠ ، و أخرجه الصدوق في المقنع : ٢٦ بلا عزو ، و رواه موقوفا ابن حجر في بلوغ المرام : ٢١٢ ح ١٠٤١ عن عمر و مالك في الموطأ : ٥٢٨ عن سعيد بن المسيب . و اما الفتوى فنقلها العلامة الحلّي في المختلف : ٥٥٥ عن الصدوق و المفيد و المرتضى و الطوسي و ابن زهرة و بتفصيل عن ابن الجنيد ، و نقله الوزير في الافصاح ٢ : ٣٤٠ عن مالك و أبي حنيفة و الشافعي و أحمد .

الصفحة ٣٠٦

و النصف الآخر لو قرض بالمقاريض ما شعر به من خدره و برده ١ .

« مؤلف بين متعادياتها ، مقارن بين متبايناتها » قال تعالى : ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله . . . ٢ .

« مقرب بين متبايناتها » بجعل أسباب لذلك ، و في (توحيد المفضل) : لو كان فرج الرجل مسترخيا كيف كان يصل إلى قعر الرحم حتى يفرغ النطفة فيه ، و لو كان منعظا أبدا كيف كان الرجل يتقلب في الفراش أو يمشي بين الناس و شيء شاخص أمامه . ثم يكون في ذلك مع قبح المنظر تحريك الشهوة في كل وقت من الرجال و النساء جميعا ، فقدر الله جل اسمه أن يكون أكثر ذلك لا يبدو للبصر في كل وقت ، و لا يكون على الرجال منه مؤنة ، بل جعل فيه قوة الانتصاب وقت الحاجة إلى ذلك ، لما قدر أن يكون فيه من دوام النسل و بقاءه ٣ .

« لا يشمل بحدّ ، و لا يحسب بعدّ » و في (التحف) : « أحد لا بتأويل عدد . صمد لا بتبعيض بحدّ » ٤ .
« و إنما تحدّ الأدوات أنفسها ، و تشير الآلات إلى نظائرها » الظاهر وقوع سقط في الكلام لعدم ذكر حكم للأدوات و الآلات قبل حتى يقال بعدّ « و إنما . . . » و يشهد للسقط أن في (التحف) ٥ و خطبة الرضا عليه السلام ٦ و (مجالس

(١) مروج الذهب للمسعودي ٤ : ١٠٩ .

(٢) النور : ٤٣ .

(٣) توحيد المفضل : ٦٩ .

(٤) تحف العقول : ٦٣ .

(٥) تحف العقول : ٦٥ .

(٦) هذه خطبة للرضا عليه السلام ، خطبها عند المأمون ، و ألفاظها نحو رواية تحف العقول عن علي عليه السلام ، روى هذه الخطبة الصدوق في التوحيد : ٣٤ ح ٢ ، و في العيون ١ : ١٢٥ ، و الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٩٨ ، و الفقرة في التوحيد : ٣٨ ، و العيون : ١٢٥ ، و الاحتجاج ٢ : ٤٠٠ .

الصفحة ٣٠٧

(الشيخ) ١ قبل هذا الكلام : « له معنى الربوبية إذ لا مربوب ، و حقيقة الإلهية إذ لا مألوه ، و معنى العالم و لا معلوم ، و معنى الخالق و لا مخلوق ، و تأويل السمع و لا مسموع . ليس مذ خلق استحق معنى الخالق ، و لا بإحداثه البرايا استفاد معنى البرائية . كيف و لا تغيبه مذ ، و لا تدنيه قد ، و لا تحجبه لعل ، و لا توقته متى ،

و لا تشمله حين ، و لا تقارنه مع . لكن في الأخير بدل قوله : « و لا بإحداثه البرايا استفاد معنى البرائية » : « و لا من حيث أحدث استفاد معنى المحدث » .

و حينئذ يكون معنى قوله : « و إنما تحدّ الأدوات أنفسها و تشير الآلات إلى نظائرها » أنّ هذه الأدوات و الآلات ، أي : (مذ ، و قد ، و لعلّ ، و متى ، و حين ،

و مع) إنما تعين الحدّ لأنفسها من الممكنات ، و تشير إلى نظائرها من المخلوقات ، و لا يمكن أن تحدّ الباري تعالى و تشير إليه جلّ و علا .

هذا ، و زاد (التحف) بعد (إلى نظائرها) : « و عن الفاقة تخبر الأداة ، و عن الضدّ يخبر التضادّ ، و إلى شبهه يؤول الشبيه ، و مع الأحداث أوقاتها ،

و بالأسماء تفترق صفاتها ، و منها فصلت قرائنها ، و إليها آلت أحداثها » ٢ .

« منعتها منذ » تخفف (منذ) فيقال : « مذ » . قال :

و ما زلت أبغي المال مذ أنا يافع ٣ و مع ان (التحف) بدلتها بها ٤ .

(١) أمالي ابي علي الطوسي ١ : ٢٣ ، المجلس (١) ، و رواية ابن علي أيضا عن الرضا عليه السلام .

(٢) تحف العقول : ٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) أورده السيوطي و نسبه إلى الأعشى في شواهد المغني ٢ : ٧٥٧ ، و نقل في ٢ : ٥٧٦ عن ابن

اسحاق : « إذ أنا يافع » ، و ليس بشاهد حينئذ ، و نقل سيبويه في الكتاب ١ : ٢٣٩ بيتا قريبا منه .

الصفحة ٣٠٨

« القدمية » هكذا في (المصرية) و الصواب : (القدمة) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) .

« و حمتها » أي : منعتها .

« قد » في (اللسان) قال الخليل : هي (أي قد) جواب لقوم ينتظرون الخبر أو لقوم ينتظرون شيئاً ، تقول : « قد مات فلان » و لو أخبره و هو لا ينتظره لم يقل :

« قد مات » ، و لكن يقول : « مات فلان » . و قيل : هي جواب قولك : « لما يفعل » فيقول :

قد فعل ، قال النابغة :

أفد الترحل غير أن ركابنا
لما تزل برحالنا و كأن قد

أي و كأن قد زالت ، فحذف الجملة ، ثم قال أيضا : و تكون (قد) مع الأفعال الآتية بمنزلة ربما ، قال الهذلي :

قد أترك القرن مصفرا أنامله
كأن أثوابه مجت بفرصاد

ثم قال أيضا : و تكون (قد) بمنزلة (ما) فينفى بها ، سمع بعض الفصحاء يقول :

قد كنت في خير فتعرفه ٢ و في (القاموس) ل (قد) ستة معان : التوقع : (قد يقدم الغائب) ، و تقريب الماضي من الحال : (قد قام زيد) ، و التحقيق : قد أفلح من زكاهها ٣ ، و النفي :

(قد كنت في خير فتعرفه) بنصب تعرف ، و التقليل : (قد يصدق الكذوب) ،

و التكثير : (قد أترك القرن مصفرا أنامله) ٤ .

« الأزلية » له تعالى .

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٦ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٣ : ١٤٦ « القدمية » أيضا .

(٢) لسان العرب ٣ : ٣٤٦ ٣٤٧ مادة (قدد) .

(٣) الشمس : ٩ .

(٤) القاموس المحيط ١ : ٣٢٦ مادة (قدد) .

الصفحة ٣٠٩

« و جنبتها لو لا » التي تثبت النقص ، فنقول : « نعم الرجل فلان لو لا فيه الشيء الفلاني » ، و قال الشاعر :

فلو لا حصين غيبه أن أسوءه
و إن بني سعد صديق و والد

« التكملة » أي : كماله تعالى في ذاته ، و جعل (اللسان) التكملة كالتكميل خطأ ١ .

هذا ، و في (التحف) بدل « و جنبتها لو لا التكملة » : « و نفت عنها لو لا الجبرية » ٢ .

ثم إن ابن أبي الحديد قال : إن بعضهم نصب (القدمة) و (الأزلية) و (التكملة) على أنها مفعول ثان ، و الأول : الضمائر المتصلة بالأفعال ، و الفاعل (منذ) و (قد) و (لو لا) ، فيكون المعنى : إن إطلاق (منذ) على الآلات و الأدوات يمنعها عن كونها قديمة ، و اطلاق (لو لا) عليها يمنعها من التكملة . قال : و بعضهم رفع (القدمة) و (الأزلية) و (التكملة) على الفاعلية ، و تكون الضمائر مفعولا أولا ، و (منذ) و (قد) و (لو لا) مفعولا ثانيا ، و يكون المعنى : أن قدم الباري و أزليته و كماله منعت الأدوات و الآلات من اطلاق (منذ) و (قد) و (لو لا) عليه سبحانه ٣ .

و قال ابن ميثم بعد نقلهما : و الرواية الأولى أولى لوجودها في نسخة الرضي ٤ بخطه .

قلت : و التحقيق أن الأفعال الثلاثة ليس لها إلا مفعول واحد ، و إنما تتعدى

(١) هكذا قال ابن منظور في لسان العرب ١١ : ٥٩٨ مادة (كمل) ، و قال بقوله ابن الحاجب في متن

الشافعية ، و رضي الدين في شرحه شرح الشافية ١ : ١٦٣ ١٦٤ .

(٢) تحف العقول : ٦٦ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٦ نقله بالمعنى .

(٤) شرح ابن ميثم ٤ : ١٥٩ .

الصفحة ٣١٠

إلى مفعول آخر بواسطة (من) و (عن) و ليستا في الكلام ، و إن (منذ) و (قد) و (لو لا) بدل بعض من الضمائر في (منعنها) و (حمتها) و (جنبتها) ، فيتعين كون (القدمة) و (الأزلية) و

التكلمة (بالرفع فواعل لأفعالها ، فقد عرفت من رواية (التحف) أن قبل قوله عليه السلام : « و إنما تحدّ الأدوات » كان قوله عليه السلام « و لا تغيبه مذ ، و لا تدنيه قد ، و لا تحجبه لعل ، و لا توقّته متى ، و لا تشمله حين و لا تقارنه مع » و حينئذ فالأدوات و الآلات عبارة عن (منذ) و (قد) و (لو لا) .

و في كلام للحسين عليه السلام : لا تحلّه (في) ، و لا توقّته (إذ) و لا تؤامره (إن) ١ .

« بها تجلّى صانعها للعقول » قالت الشّراح : معنى الجملة أن بمشاعرنا و خلقه تعالى إيّاها ، و تصويره لها تجلّى صانعها لعقولنا بالعلم و القدرة ٢ .

فجعلوا الضمير في (بها) للمشاعر ، مع أن الظاهر أن الضمير للأمر و الأشياء في قوله عليه السلام « و بمضادته بين الأمور » و « بمقارنته بين الأشياء » بعد قوله عليه السلام : « و بتشعيره المشاعر » : و يشهد له أن قبل الفقرة في خطبة الرضا عليه السلام : « افتترقت فدلّت على مفرقها ، و تباينت فأعربت عن مباينها » ٣ فإنّ الضمير في (افتترقت) و (تباينت) للأمر و الأشياء قطعاً .

و يمكن أن يكون الضمير في (بها) للتشعير و المضادة و المقارنة في الفقرات الثلاث المتقدمة .

« و بها امتنع عن نظر العيون » قال بعضهم : أي و بمشاعرنا استتبطننا استحالة كونه مرئياً بالعيون ، لأننا بالمشاعر و الحواسّ كملت عقولنا ،

و بعقولنا استخرجنا الدلالة على أنه لا تصحّ رؤيته ٤ .

-
- (١) أخرجه ابن شعبة في تحف العقول : ٢٤٥ ضمن حديث طويل عن الحسين عليه السلام .
 (٢) قال هذا المعنى ابن أبي الحديد في شرحه ٣ : ٢٠٧ ، و ابن ميثم في شرحه ٤ : ١٥٩ ، و الخوئي في شرحه ٥ : ١٥٣ .
 (٣) التوحيد للصدوق : ٣٩ ، و العيون للصدوق ١ : ١٢٥ ، و الاحتجاج للطبرسي ٢ : ٤٠٠ .
 (٤) القائل ابن أبي الحديد في شرحه ٣ : ٢٠٦ و النقل بالمعنى ، و نقل أيضا عنه ابن ميثم في شرحه ٤ : ١٦٠ مشيراً إليه ببعض الشارحين ، و يمكن نقل كليهما من شارح أقدم .

الصفحة ٣١١

و قال بعضهم : أي بايجاده المشاعر مدركة لحاسة البصر ظهر امتناعه عن نظر العيون ١ .

قلت : و كلاهما كما ترى ، و الصواب كون الضمير في (و بها) راجعا إلى العقول المذكورة قبله أي بالعقول و حكمها امتنع عن نظر العيون .

و يشهد له أيضا أنّ (التحف) زاد بعد الفقرة : « و إليها تحاكم الأوهام » ٢ .

و لا ريب أنّ الضمير في (و إليها) راجع إلى العقول ، مع أنه لو كان الضمير راجعا إلى مرجع الأول لما احتاج إلى تكراره ، و كان يقول : « و امتنع عن نظر العيون » ، مع أنك قد عرفت أنّ الضمير الأول أيضا غير راجع إلى المشاعر .

« لا يجري عليه السكون و الحركة ، و كيف يجري عليه ما هو أجراه ، و يعود فيه ما هو أبداه ، و يحدث فيه ما هو أحدثه ، إذن لتفاوتت ذاته و لتجزأ كنهه » زاد (التحف) ٣ و خطبة الرضا عليه السلام ٤ قبله فقرات ، و في آخرها : « فكل ما في الخلق لا يوجد في خالقه ، و كل ما يمكن فيه يمتنع من صانعه » .

« و لامتنع من الأزل معناه » زاد (التحف) ٥ ، و خطبة الرضا عليه السلام ٦ : « و لما كان البارئ معنى غير المبروء » .

« و لكان له وراء إذ وجد له أمام » إذ هما من الأمور الإضافية .

« و لالتمس التمام إذ لزمه النقصان » كما هو شأن كل ساكن يتحرك .

(١) القائل ابن ميثم في شرحه ٤ : ١٥٩ و النقل بالمعنى .

(٢) تحف العقول : ٦٦ .

(٣) تحف العقول : ٦٧ .

(٤) التوحيد للصدوق : ٤٠ ، و العيون للصدوق ١ : ١٢٥ ١٢٦ ، و الاحتجاج للطبرسي ٢ : ٤٠٠ .

(٥) تحف العقول : ٦٧ .

(٦) التوحيد للصدوق : ٤٠ ، و العيون للصدوق ١ : ١٢٥ ١٢٦ ، و الاحتجاج للطبرسي ٢ : ٤٠٠ .

الصفحة ٣١٢

« و إذن لقامت آية المصنوع فيه » زادا قبله ١ : « كيف يستحقّ الأزل من لا يمتنع من الحدث ، و كيف ينشئ الأشياء من لا يمتنع من الإنشاء » ، و زاد الأول ٢ : « و كيف يستأهل الدوام من تنقله الأحوال و الأعوام » .

« و لتحوّل دليلاً بعد أن كان مدلولاً عليه » حسب دلالة المصنوع على الصانع ، و البناء على الباني .
 « و خرج » مستأنفة ، و لا يبعد أن يكون (و خرج) محرّف (قد خرج) ، فالفرق بينهما في الخطّ قليل .

« بسطان الامتاع من أن يؤثّر فيه ما يؤثّر في غيره » إذن لتساوى مع باقي الأشياء ، . . . ليس كمثلته شيء . . . ٣ .

« الذي لا يحول و لا يزول ، و لا يجوز عليه الأفول » أي : الغيبة ، بشهادة العقول أنّ كلّ آفل لا يمكن أن يكون ربّاً ، و لذا كان الخليل عليه السّلام لمّا رأى أفول الكوكب و القمر و الشمس أنكر على عابديها بأفولها ، و قال لهم : إني بريء ممّا تعبدون من دونه تعالى ٤ .

« و لم يلد » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (لم يلد) بدون واو ، كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٥ ، و لأنّ المقام مقام الفصل .

« فيكون مولوداً » كما هو شأن المتوالدة .

« و لم يولد فيصير محدوداً » فإنّ كلّ مولود محدود ٦ .

(١) تحف العقول : ٦٧ ، التوحيد للصدوق : ٤٠ ، و العيون للصدوق ١ : ١٢٥ ١٢٦ ، و الاحتجاج

للطبرسي ٢ : ٤٠٠ .

(٢) تحف العقول : ٦٧ .

(٣) الشورى : ١١ .

(٤) ما نقل عن الخليل عليه السّلام مقتبس من قوله تعالى في سورة الأنعام : ٧٥ ٧٨ .

(٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٧ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٧ « و لم يلد » أيضا .

(٦) الفقرتان مأخوذتان من قوله تعالى : لم يلد و لم يولد الا خلاص : ٣ .

« جلّ عن اتخاذ الأبناء » ردّ على اليهود في قولهم : . . . عزيز ابن الله . . . ١ و على النصارى في قولهم : . . . المسيح ابن الله . . . ٢ و على الوثنيين في قولهم : إنّ الملائكة بنات الله . قال تعالى : و قالوا اتّخذ الرّحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ٣ .

و ورد أنّ اليهود و النصارى حضروا عند النبيّ صلّى الله عليه و آله للمحاجة . فقال لليهود : ما الذي دعاكم إلى القول بأنّ عزيزا ابن الله ؟

قالوا : لأنّه أحيا لبني إسرائيل التوراة بعد ما ذهب ، و لم يفعل به هذا إلّا لأنّه ابنه .

فقال النبيّ صلّى الله عليه و آله : فكيف صار عزيز ابن الله دون موسى ، و هو الذي جاءهم بالتوراة و رأى منه من المعجزات ما قد علمتم ، و لئن كان عزيز ابن الله لأظهر من إكرامه بإحياء التوراة ، فلقد كان موسى بالبنوة أولى و أحقّ ، و لئن كان هذا المقدار من الكرامة لعزيز يوجب أنّه ابنه فأضعاف هذه الكرامة لموسى يوجب له منزلة أجلّ من البنوة ، لأنكم إن كنتم إنّما تريدون بالبنوة الدلالة على سبيل ما تشاهدون في دنياكم هذه من ولادة الأمّهات الأولاد بوطء آبائهم لهنّ ، فقد كفرتم بالله و شبّهتموه بخلقه و أوجبتم فيه صفات المحدثين ، و وجب عندكم أن يكون محدثا مخلوقا ، و أنّ له خالقا صنعه و ابتدعه .

قالوا : لسنا نعني هذا فإنّ هذا كفر كما قلت ، لكنّا نعني أنّه ابنه على معنى الكرامة و إن لم يكن هناك ولادة ، كما يقول بعض عظمائنا لمن يريد إكرامه

(١) قول اليهود و النصارى جاء في سورة التوبة : ٣٠ .

(٢) هذا مفهوم من قوله تعالى في النحل : ٥٧ ، و الزخرف : ١٦ ، و الطور : ٣٩ ، و الأنبياء : ٢٦ . ٢٩ .

(٣) الأنبياء : ٢٦ .

الصفحة ٣١٤

و إبانته بالمنزلة من غيره : « يا بنيّ » و « إنّه ابني » لا على إثبات ولادته منه ، لأنّه قد يقول ذلك لمن هو أجنبيّ و لا نسب له بينه و بينه ، و كذلك لمّا فعل الله بعزير ما فعل كان قد اتّخذ ابنه على الكرامة لا على الولادة .

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : فهذا ما قلته لكم إنه إن وجب على هذا القول أن يكون عزيز ابنه فإن هذه المنزلة بموسى أولى ، وإن الله يفضح كل مبطل بإقراره و يغلب على حجته ، إن ما احتججتم به يؤدبكم إلى ما هو أكثر مما ذكرته ،

لأنكم قلتم : إن عظيمًا من عظمائكم يقول لأجنبي لا نسب بينه وبينه : يا بني لا على طريق الولادة ، فقد تجدون هذا العظيم يقول لأجنبي آخر : « هذا أخي » و لآخر : « هذا شيعي و أبي » و لآخر : « هذا سيدي » و : « يا سيدي » على سبيل الإكرام ، و إن من زاده في الكرامة زاده في مثل هذا القول ، فإذن يجوز عندكم أن يكون موسى أخا لله و شيخا له أو أبا و سيّدا ، لأنه قد زاده في الإكرام مما لعزير . فبهتوا .

ثم أقبل على النصارى و قال لهم : و أنتم قلتم : إن القديم عزّ و جلّ اتّحد بالمسيح ابنه ، ما الذي أردتموه بهذا القول ؟ فإن أردتم بأنّ القديم صار محدثا فقد أبطلتم ، لأنّ القديم محال أن ينقلب فيصير محدثا ، و إن أردتم أنّ المحدث صار قديما فقد أحلتم ، لأنّ المحدث أيضا محال أن ينقلب فيصير قديما ، و إن أردتم بقولكم : « اتّحد به » أنه اختصّه و اصطفاه على سائر عباداه فقد أقررتم بحدوث عيسى ، و بحدوث المعنى الذي اتّحد به من أجله .

فقالوا : لما أظهر الله على يده من الأشياء العجيبة ما أظهر فقد اتّخذ ولدًا على جهة الكرامة .

فقال لهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : فقد سمعتم ما قلته لليهود في هذا المعنى و أعاده .

الصفحة ٣١٥

فقال رجل منهم : قولنا « عيسى ابن الله » كقولك : « ابراهيم خليل الله » .

فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إنما سمّاه الله تعالى خليلا لما قال لجبرئيل لما لقيه في الهواء : لا حاجة لي إلا إليه . و الخليل من الخلّة و هي : الفاقة ، و ذلك لا يوجب تشبيها بخلقه ، و الخلّة يمكن أن تسلب و الولادة لا يمكن أن تسلب ، ثمّ يجب على قولكم أن يجوز أن يقال ذلك لموسى .

فقال بعضهم : في الكتب المنزلة أنّ عيسى قال « اذهب إلى أبي » .

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إن كنتم تعملون بذاك الكتاب ففيه « اذهب إلى أبي و أبيكم » ، فقولوا : إن جميع مخاطبيه أيضا كانوا أبناء الله و ما يدريكم لعلّه عنى « اذهب الى آدم و نوح » برفعه الله إليه ، و جمعه بينه و بينهما و هما أبواه و أبواهم ، فسكتوا ١ .

« و طهر عن ملامسة النساء » و لم يكن له كفوا أحد ٢ ، . . . أنى يكون له ولد و لم تكن له صاحبة و خلق كل شيء و هو بكل شيء عليم ٣ و أنه تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبة و لا ولدا ٤ .

« لا تتاله الأوهام » أي : الخيالات .

« فتقدّره » أي : تعيّن له مقدارا بتخمينها .

« و لا تتوهّمه الفطن » بالكسر فالفتح جمع الفطنة .

« فتصوّره » أي : تعيّن له صورة بحدسها .

« و لا تدرکه الحواسّ » جمع الحاسّة ، و المراد : السامعة و الباصرة و الشامّة و اللامسة .

(١) أخرجه صاحب تفسير العسكري : ٢٤٤ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ١ : ٢٣ و النقل بتلخيص و تصرف .

(٢) الإخلاص : ٤ .

(٣) الأنعام : ١٠١ .

(٤) الجن : ٣ .

الصفحة ٣١٦

« فتحسّه » أي : تجعله من محسوساتها .

« و لا تلمسه الأيدي فتمسّه » ذكر الأيدي بعد الحواسّ من ذكر الخاصّ بعد العامّ ، و أمّا الخبر « يده بيد الله يرفعه » ١ فاستعارة .

« لا يتغيّر بحال » كالإنسان يكون أوّلا طفلا ، ثمّ شابّا ، ثم شيخا .

« و لا يتبدل بالأحوال » هكذا في (المصرية) و الصواب : (في الأحوال) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيب) ٢ .

« و لا تبليه » أي : لا تجعله باليا .

« الليلي و الأيام » كما تبليان الإنسان و الحيوان و النبات .

« و لا يغيره الضياء و الظلام » فهو متجلّ بالوجود في الظلام كالضياء ،

و مستور بالكنه في الضياء كالظلام .

« و لا يوصف بشيء من الأجزاء » حتّى الأجزاء العقلية ، فعلمه و قدرته عين ذاته .

« و لا بالجوارح و الأعضاء » و أمّا قوله تعالى . . . يد الله فوق أيديهم . . . ٣ فهو استعارة .

« و لا بعرض من الأعراض » كأبيض يصير أسود أو أحمر أو أخضر أو أصفر ، و سليم يصير سقيما .

« و لا بالغيريّة و الأبعاض » فليست سمعيّته غير بصيرّته ، كما أنّ السّمع ليس بعضا منه ، و لا البصر بعضا منه ، كما هو كذلك في خلقه .

و في خبر الصادق عليه السّلام مع الزنديق : ليس قولي : « أنّه سميع بصير » أي :

(١) أخرجه الشريف الرضي في نهج البلاغة ٤ : ٦ الحكمة (١٩) و لفظه « يد الله بيده يرفعه » .

(٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٧ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٧ « بالأحوال » أيضا .

(٣) الفتح : ١٠ .

الصفحة ٣١٧

يسمع بنفسه ، و يبصر بنفسه ، إنّ شيء و النّفس شيء آخر ، و إنّما أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولا ، و افهاما لك إذ كنت سائلا . فأقول : إنّ سميع بكلّه ، لا أنّ الكلّ منه له بعض ، و لكنّي أردت إفهامك و التّعبير عن نفسي ١ .

« و لا يقال له حدّ و لا نهاية » فكلّ ذي روح له حدّ و نهاية في حياته الطبيعية .

« و لا انقطاع و لا غاية » كما ليس له أول و بداية .

« و لا أن الأشياء تحويه » أي : تجمعه و تستولي عليه .

« فتقله » أي : ترفعه . يقال : أقلّ الجرّة ، إذا أطاق رفعها .

« أو تهويه » أي : تخفضه .

« أو أن شيئاً يحمله فيميله أو يعدّله » أي ليس محمولاً على شيء حتى يميله أو يعدّله على ظهره من غير ميل .

« و ليس » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (ليس) بدون و او كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٢ .

« في الأشياء بوالج » أي : داخل .

« و لا عنها بخارج » فإنّ ذلك صفة مخلوقه ، بل كما قال هو تعالى : يعلم ما يلج في الأرض و ما يخرج منها . . . ٣ .

« يخبر لا بلسان و لهوات » اللّهوات جمع اللّهاة : اللّحمة في أقصى سقف الفم .

« و يسمع لا بخروق » أي خروق الآذان .

« و أدوات » يتركّب منها السامعة ، روى الفتح الجرجاني عن الهادي عليه السّلام

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٠٩ ح ٢ ، و الصدوق بطريقين في التوحيد : ١٤٤ ح ١٠ ، و : ٢٤٥ ح ١ : و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣٢ ، لكن توجد فيه هذه القطعة ، و قد مر في العنوان (٢) من هذا الفصل .

(٢) كذا في شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٧ ، و لكن مع الواو في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٨ .

(٣) سبأ : ٢ .

الصفحة ٣١٨

قال : سمى ربنا سمياً لا بخرت فيه ، يسمع به الصوت ، و لا يبصر به ، كما أن خرتنا الذي به نسمع لا نقوى به على البصر ، و لكنه أخبر أنه لا يخفى عليه شيء من الأصوات ، و هكذا البصر لا بخرت منه أبصر ، كما أنا نبصر بخرت منا لا ننتفع به في غيره ١ .

« يقول و لا يلفظ » أي : لا يكون قوله خارجاً من فم .

و من أمثالهم « أسمح من لافظة » ٢ . قيل : المراد باللافظة العنز ، لأنها تشلى للحلب و هي تجتر ، فتلفظ بجرتها و تقبل فرحاً منها بالحلب . و قيل : المراد بها الطيور التي ترق فراخها ، لأنها تخرج ما في جوفها و تطعمها . و قيل : المراد بها الديك ، لأنه يلفظ الحب من منقاره لدجاجه . و قيل : المراد بها الرحي ، لأنها تلفظ ما صبب فيها . و قيل : المراد بها البحر ، لأنه يلفظ بالعنبر و الجواهر .

« و يحفظ » كل شيء .

« و لا يتحفظ » بالقوة الحافظة مثلنا .

« و يريد » شيئاً .

« و لا يضر » في النفس مثلنا .

« يحبّ و يرضى من غير رقة » له تحصل في القلب مثلنا .

« و يبغض » و في (الكافي) عن الصادق عليه السلام : ما من شيء مما أحله الله عزّ و جلّ أبغض إليه من الطلاق ، و إنّ الله يبغض المطلق الذواق ٣ .

(١) أخرجه الكليني ضمن حديث طويل في الكافي ١ : ١٢١ ح ٢ عن علي بن محمد مرسلًا عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ،

و أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٨٨ ح ٢ ، و العيون ١ : ١٢١ ح ٥٠ بإسناده عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٩٧ بلا إسناد عن الرضا عليه السلام ، و لكن ليس في رواية الطبرسي هذه القطعة ، و اما قول الشارح الفتح الجرجاني عن الهادي عليه السلام فسهو و هو حديث آخر .

- (٢) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٣٥٣ ، و الزمخشري في المستقصى ١ : ١٧١ .
 (٣) رواه الكليني في الكافي ٦ : ٥٤ ح ٢ ، و صاحب تحفة الإخوان عنه المستدرک ٣ : ٢ الباب (١)
 ح ٣ و روى في معناه كثيرا .

الصفحة ٣١٩

« و يغضب » في الخبر : لا يغضب تعالى كغضبه لظلم الضعيفين النساء و الأطفال ١ .

و روى (الكافي) عن الباقر و الصادق عليهما السلام عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله قَالَ : صدقة السرّ تطفئ غضب الربّ ٢ .

« من غير مشقة » أي : غضبه ليس كغضبنا بتأثر و انقلاب في النفس يوجب المشقة ، قال الباقر عليه السلام في قوله سبحانه : . . . و من يحلل عليه غضبي فقد هوى ٣ : إنّ غضبه هو عقابه لا أنه استنزاه شيء ٤ .

« يقول لمن » هكذا في (المصرية) و الصحيح : (لما) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٥ .

« أراد كونه » أي : وجوده .

« كن فيكون » أي : فيوجد .

« لا بصوت يقرع ، و لا بنداء يسمع » كما في أقوال الناس بعضهم مع بعض ،

(١) أخرج هذا المعنى الحميري في قرب الاسناد : ٤٤ ، و الكليني في الكافي ٥ : ٥١١ ح ٣ ، و البيهقي في شعب الايمان عنه الجامع الصغير ١ : ٨ ، و الصدوق في الفقيه ٣ : ٢٤٨ ح ١ ، و الخصال ١ : ٣٧ ح ١٣ و غيرهم .

(٢) أخرج صاحب مسند زيد : ١٩٩ ، و ابن الأشتع في سننه : ٥٦ ، و الصدوق في الفقيه ٢ : ٣٨ ح ٨ ، و معاني الأخبار : ٢٦٤ ح ١ ، و الطوسي في التهذيب ٤ : ١٠٥ ح ٣٣ ، و الطبراني و ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج ، و البيهقي في شعب الإيمان ،

و الاصبهاني في الترغيب عنهم الدر المنثور ١ : ٣٥٤ و ابن عساكر في التاريخ عنه الجامع الصغير ١ : ٩١ ، و رواه القاضي النعمان في دعائم الإسلام ١ : ٢٤١ ، و الراوندي في النوادر عنه البحار ٩٦ : ١٨١ ح ٢٧ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله ، و رواه الصدوق في ثواب الأعمال : ١٧٢ ح ١ ، و الاربلي في كشف الغمة ٢ : ٢٨٩ عن السجاد عليه السلام ، و الأهوازي في الزهد : ٣٦ ح ٩٤ عن الباقر عليه السلام ، و الصدوق في ثواب الأعمال : ١٧٢ ح ١ عن الصادق عليه السلام ، و أما الكليني فأخرجه بروايتين في الكافي ٤ : ٧ ح ١ ، و ٨ ح ٣ عن الباقر عليه السلام عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله و معنى الحديث روي كثيرا .

(٣) طه : ٨١ .

(٤) أخرج هذا المعنى الصدوق في التوحيد : ١٦٨ ح ١ ، و معاني الأخبار : ١٨ ح ١ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٢٢ عن الباقر عليه السلام .
(٥) في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠٨ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٨ « لمن » أيضا .

الصفحة ٣٢٠

فإنّ كلامهم أثر يؤثره اصطكاك الأجسام في الهواء ، و الهواء يؤديه إلى المسامع ، و ليس كلامه تعالى و المراد كلامه التكويني كذلك ليس فيه صوت يقرع و لا نداء يسمع ، بل هو فعله و خلقه كما قال .

« و إنّما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه و مثله » فله تعالى صفات ذات ، كالعلم و القدرة ، و صفات فعل ، كالمشيئة و الإرادة و كلامه مع خلقه .

« لم يكن » أي : ذاك الفعل الذي أنشأه و مثله .

« من قبل ذلك » أي : أنشأه تعالى .

« كائنا » أي : موجودا .

« و لو كان قديما » أي : وجد قبل .

« لكان إليها ثانيا » مع الله تعالى .

و قلنا : إنّ مراده عليه السلام كلامه تعالى التكويني ، و أمّا كلامه التكليفي مع ملائكته و رسله فبإيجاده الكلمات .

ففي خبر عن الرضا عليه السلام في موسى عليه السلام : لَمَّا كَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، وَ قَرَّبَهُ نَجِيًّا رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ كَلَّمَهُ وَ قَرَّبَهُ وَ نَاجَاهُ . فَقَالُوا : لَنْ نُوْمِنَ لَكَ حَتَّى نَسْمَعَ كَلَامَهُ كَمَا سَمِعْتَ . وَ كَانَ الْقَوْمُ سَبْعِمِائَةَ أَلْفٍ رَجُلٍ ،

فَاخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ أَلْفًا ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعَةَ أَلْفٍ ، ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِمِائَةَ ،

ثُمَّ اخْتَارَ مِنْهُمْ سَبْعِينَ رَجُلًا لَمِيقَاتِ رَبِّهِ ، فَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى طُورِ سَيْنَاءَ ، فَأَقَامَهُمْ فِي سَفْحِ الْجَبَلِ وَ صَعَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الطُّورِ ، وَ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكَلِّمَهُ ،

وَ يَسْمَعَهُمْ كَلَامَهُ ، فَكَلَّمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَ سَمِعُوا كَلَامَهُ مِنْ فَوْقِ وَ أَسْفَلِ ، وَ يَمِينِ وَ شِمَالِ ، وَ وَرَاءِ وَ أَمَامِ ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَ جَلَّ أَحَدَثَهُ فِي الشَّجَرَةِ ، ثُمَّ جَعَلَهُ مُنْبَعًا مِنْهَا ، حَتَّى سَمِعُوهُ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ ١ .

(١) أَخْرَجَهُ الصَّدُوقُ فِي التَّوْحِيدِ : ١٢١ ح ٢٤ وَ ضَمَّنَ حَدِيثَ طَوِيلٍ فِي الْعَيُونِ ١ : ١٥٩ ح ١ ، وَ رَوَاهُ الطَّبْرَسِيُّ فِي الْاِحْتِجَاجِ ٢ : ٤٢٩ عَنِ الرِّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَ رَوَى مَعْنَاهُ الْمُرْتَضَى فِي تَنْزِيهِ الْأَنْبِيَاءِ : ١٧٥ بَلَا عَزْوٍ .

الصفحة ٣٢١

وَ فِي (كِتَابِ أَخْطَبِ خَوَارِزْمِ) عَنِ ابْنِ عَمْرِو قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ قَدْ سئِلَ بِأَيِّ لُغَةٍ خَاطَبْتُكَ رَبُّكَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ ؟ فَقَالَ : بِلُغَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . فَأَلْهَمَنِي أَنْ قُلْتُ : أَمْ خَاطَبْتَنِي أَنْتَ أَمْ عَلِيٌّ ؟ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ أَنَا شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ ، لَا أَقَاسُ بِالنَّاسِ ، وَ لَا أَوْصَفُ بِالْأَشْيَاءِ . خَلَقْتَكُ مِنْ نُورٍ ، وَ خَلَقْتَ عَلِيًّا مِنْ نُورِكَ ،

فَاطْلَعْتَ عَلَى سِرَائِرِ قَلْبِكَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَى قَلْبِكَ أَحَبِيَّ مِنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ،

فَخَاطَبْتَكُ بِلِسَانِهِ كَيْمَا يَطْمِئِنُّ قَلْبُكَ ١ .

وَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ « وَ إِنَّمَا كَلَامُهُ سَبْحَانَهُ فَعَلَ مِنْهُ أَنْشَأَهُ وَ مَثَّلَهُ » إِشَارَةً إِلَى كَلَامِهِ التَّكْلِيفِيِّ الَّذِي قَلْنَا ، لَكِنْ مَعَ وَقُوعِ تَحْرِيفِ فِيهِ ، وَ أَنَّ الْأَصْلَ :

« و أمّا كلامه سبحانه فقول منه أنشأه و مثله » ، و حينئذ فقله بعد « لم يكن من قبل ذلك كائنا ، و لو كان لكان إليها ثانيا » معناه : أنّ كلامه تعالى لمّا كان صفة فعله ليس بقديم ، و لو كان قديما و هو غيره صار إليها ثانيا .

و في خبر أبي بصير عن الصادق عليه السلام قلت : فلم يزل الله متكلمًا ؟ قال :

فقال : إنّ الكلام صفة محدثة ليست بأزليّة ، كان الله تعالى و لا متكلم ٢ .

و من كلامه عليه السلام يظهر بطلان مذاهب الحنابلة ، و الكراميّة ، و الأشاعرة .

قالت الحنابلة : إنّ كلامه تعالى حروف و أصوات قديمة . و قالت الكراميّة : إنّ كلامه تعالى صفة له مؤلّفة من الحروف و الأصوات الحادثة القائمة بذاته ،

و قالت الأشاعرة : كلامه تعالى معنى واحد بسيط قائم بذاته القديمة ٣ .

(١) أخرجه الخوارزمي في المناقب : ٣٧ .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٠٧ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ١٣٩ ح ١ ، و قريبا منه أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ١٧٠ المجلس (٦) .

(٣) نقل هذه المقالات الفاضل السيوري في إرشاد الطالبين : ٢١٩ ، لكن نسبة المقالة المذكورة إلى الكرامية بإطلاقها مشكل ، كما يظهر لك من الملل و النحل للشهرستاني ١ : ١٠٣ ٩٩ .

الصفحة ٣٢٢

هذا ، و في (ملل الشهرستاني) في ذكر انفرادات الجبائي و ابنه أبي هاشم قال : إنّهما حكما بكونه تعالى متكلمًا بكلام يخلقه في محلّ ، و حقيقة الكلام عندهما أصوات مقطعة و حروف منظومة ، و المتكلم من فعل الكلام لا من قام به الكلام ، إلاّ ان الجبائي خالف أصحابه خصوصا بقوله يحدث الله تعالى عند كلّ قارئ كلاما لنفسه في محلّ القراءة ، و ذلك حين ألزم أنّ الذي يقرؤه القارئ ليس بكلام الله ، و المسموع منه ليس من كلام الله ، فالتزم هذا المحال من إثبات أمر غير معقول و لا مسموع ، و هو اثبات كلامين في محلّ واحد ١ .

« لا يقال كان بعد أن لم يكن » يعني : أنّ قولنا (كان) في . . . كان الله سميعا بصيرا ٢ و . . . كان الله عليما حكيفا ٣ بمعنى الاستمرار لا بمعنى (صار) ،

و إلا لزمت بواطل :

أحدها : « فتجري عليه الصفات المحدثات » قال ابن أبي الحديد و ابن ميثم :

و روى (صفات المحدثات) ٤ : أي بالاضافة ، و كيف كان فوجه جريان المحدثات عليه حينئذ : أن شيئاً لم يكن ثمّ كان محدثاً .

و ثانيها : « و لا يكون بينها » أي : المحدثات .

« و بينه » تعالى .

« فصل » لكونه مثلها في السبق بالعدم .

و ثالثها « و لا له عليها فضل » بدوام الوجود .

« فيستوي الصانع و المصنوع » في كونه معدوماً أولاً .

(١) الملل و النحل ١ : ٧٤ .

(٢) النساء : ١٣٤ .

(٣) النساء : ١٧ ، ٩٢ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١٧٠ ، و الفتح : ٤ .

(٤) نقل ابن أبي الحديد هذه الرواية في شرحه ٣ : ٢١٠ ، و لكن لم نجدها في شرح ابن ميثم ٤ : ١٧٣ و سائر الصفحات .

الصفحة ٣٢٣

« و يتكافأ المبتدع » قال ابن ميثم : و في نسخة الرضيّ « المبدع » بفتح الدال ١ .

« و البديع » أي : الله تعالى ، قال عزّ و جلّ : بديع السماوات و الأرض . . . ٢ .

« و خلق الخلائق على غير مثال خلا » أي : مضى .

« عن غيره » كيف لا ، و لم يكن موجودا غيره تعالى ، فكيف يكون منه له مثال ؟ « و لم يستعن على خلقها بأحد من خلقه » فلم يكن خلق حتى يستعين بهم في خلقه .

« و أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال » بأمسكها عن فعل آخر ، كأحدنا إذا أمسك شيئا يشتغل به عن شيء آخر : إن الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده
٣ .

« و أرساها » أي : أثبتها .

« على غير قرار » لها ، فإنها تتحرك في الفضاء و تدور .

« و أقامها بغير قوائم » جمع القائمة .

« و رفعها » في الفضاء كباقي الكرات .

« بغير دعائم » جمع الدعامات ، أي : العماد لها .

« و حصنّها » بالتشديد ، أي : أحكمها .

« من الأود » أي : الميل و الانحناء عن مدارها .

« و الاعوجاج » بالخروج عن مركزها .

(١) شرح ابن ميثم ٤ : ١٧٤ .

(٢) البقرة : ١١٧ .

(٣) فاطر : ٤١ .

الصفحة ٣٢٤

« و منعها من التهافت » أي : التساقط قطعة قطعة .

« و الانفراج » أي : الانشكاف ، قال : له فرجة كحل العقال ١ .

« أرسى » أي : أثبت .

« أوتادها » و هي جبالها ، قال تعالى : و الجبال أرساها ٢ .

« و ضرب أسدادها » حتى لا يختلط شيء منها بشيء آخر ، قال تعالى :

مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لا يبغيان ٣ ، أمّن جعل الأرض قرارا و جعل خلالها أنهارا و جعل لها رواسي و جعل بين البحرين حاجزا إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ٤ .

« و استفاض » يقال : فاض الماء يفيض ، إذا كثر حتىّ سال .

« عيونها » أي : ينابيعها ، أخرج منها ماءها و مرعاها ٥ .

« و خدّ » أي : شقّ و حفر .

« أوديتها » جمع الوادي ، و في (اللسان) عن ابن سيده : الوادي كلّ مفرج بين الجبال و التلال و الآكام ، سمّي بذلك لسيلانه يكون مسلكا للسيل و منفذا .

قال أبو الربيب التغلبي :

لا صلح بيني فاعلموه و لا
بينكم ما حملت عاتقي

سيفي و ما كُنّا بنجد و ما
قرقر قمر الواد بالشاهق

(١) أورده أساس البلاغة : ٣٣٧ مادة (خرج) ، و لسان العرب ٢ : ٣٤١ مادة (خرج) ، و الشاعر

أميّة ابن أبي الصلت ، و البيت بتمامه في العنوان (٣٥) من هذا الفصل .

(٢) النازعات : ٣٢ .

(٣) الرحمن : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) النمل : ٦١ .

(٥) النازعات : ٣١ .

(٦) لسان العرب ١٥ : ٣٨٤ مادة (ودى) .

الصفحة ٣٢٥

و قوله عزّ و جلّ : أ لم تر أنّهم في كلّ واد يهيمون ١ . ليس يعني أودية الأرض إنّما هو مثل لشعر الشعراء ، كما تقول : أنا لك في واد ، و أنت لي في واد .

أي : يقولون في الذم و يكذبون ، و في المدح و يكذبون ، و جمع الوادي أوداء و أودية و أوداية ، قال : « و اقطع الأبحر و الأودية » ٢ .

« فلم يهن » أي : لم يضعف .

« ما بناه » و السماء بنيناها بأيد و إنّنا لموسعون . و الأرض فرشناها فنعم الماهدون ٣ .

« و لا ضعف ما قواه » و بنيينا فوقكم سبعا شدادا . و جعلنا سراجا وهاجا ٤ ، أنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . و أغطش ليلها و أخرج ضحاها . و الأرض بعد ذلك دحاها ٥ .

« هو الظاهر عليها » الضمير في (عليها) راجع إلى (الأرض) في قوله :

« و أنشأ الأرض » ، أو إلى (الخلائق) في قوله : « خلق الخلائق » ، و الأول أقرب لفظا ، و الثاني معنى .

« بسلطانه و عظمته » يتصرف فيها ما يشاء كيف يشاء .

« و هو الباطن لها بعلمه و معرفته » و لقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه و نحن أقرب إليه من حبل الوريد ٦ .

« و العالي على كلّ شيء منها بجلاله و عزّته » . . . و الله غالب على أمره و لكنّ

(١) الشعراء : ٢٢٥ .

- (٢) لسان العرب ١٥ : ٣٨٥ مادة (ودى) .
 (٣) الذاريات : ٤٧ ٤٨ .
 (٤) النبأ : ١٢ ١٣ .
 (٥) النازعات : ٢٧ ٣٠ .
 (٦) ق : ١٦ .

الصفحة ٣٢٦

أكثر الناس لا يعلمون ١ .

« و لا يعجزه شيء منها طلبه » و من لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض و ليس له من دونه أولياء . . . ٢ . . . و لا يؤوده حفظهما و هو العليّ العظيم ٣ .

« و لا يمتنع » شيء .

« عليه فيغلبه » ذلك الشيء ، قال تعالى : فلو لا إن كنتم غير مدينين .

ترجعونها إن كنتم صادقين ٤ .

« و لا يفوته السّريع منها » كما يفوتنا كثير من الأشياء السريعة .

« فيسبغه » فلا يلحقه ، . . . يا أيّها النّاس إنّما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدّنيا ثمّ إلينا مرجعكم فننّبئكم بما كنتم تعملون ٥ .

و في الخبر : إنّ إبراهيم عليه السّلام لما أرى ملكوت السماوات و الأرض ، فالتفت ثلاثاً و رأى رجالاً يزنون فدعا عليهم فماتوا ، أوحى تعالى إليه : إنّني خلقتهم على أصناف : عبد يعبد غيري فلن يفوتني . . . ٦ .

« و لا يحتاج إلى ذي مال فيرزقه » و ما خلقت الجنّ و الإنس إلاّ ليعبدون .

ما أريد منهم من رزق و ما أريد أن يطعمون . إنّ الله هو الرزاق ذو القوّة المتين ٧ .

- (١) يوسف : ٢١ .
 (٢) الاحقاف : ٣٢ .
 (٣) البقرة : ٢٥٥ .
 (٤) الواقعة : ٨٦ ٨٧ .
 (٥) يونس : ٢٣ .
 (٦) روي بطرق عديدة عن النبي صَلَّى الله عليه وآله و عن الصادق عليه السلام و عن سلمان و عطاء و شهر بن حوشب ، و قد مر تخريجه في العنوان (٢٢) من هذا الفصل .
 (٧) الذاريات : ٥٦ ٥٨ .

الصفحة ٣٢٧

« خضعت الأشياء له ، و ذلت مستكينة لعظمته » قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين و تجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . و جعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها و قدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سماوات في يومين و أوحى في كل سماء أمرها و زيننا السماء الدنيا بمصابيح و حفظا ذلك تقدير العزيز العليم ١ .

« لا يستطيع الهرب من سلطانه إلى غيره فيمتنع من نفعه و ضره » فهرب موسى عليه السلام من مصر لما خاف أن يقتله فرعون ، فورد ماء مدين و امتنع من أن تتاله يد فرعون ٢ ، و هرب النبي صَلَّى الله عليه و آله من مشركي مكة لما أرادوا قتله ، فلما ورد المدينة أمن من أذاهم ٣ ، و كثير من الناس إذا لم يرضوا بسلطانهم يخرجون من مملكته فيمتنعون من نفعه و ضره ، و أمّا هو تعالى فالأرض و السماء في سلطانه ، و البرّ و البحر من مملكته ، قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة . . . ٤ ، قل إنني لا أملك لكم ضرا و لا رشدا . قل إنني لن يجيرني من الله أحد و لن أجد من دونه ملتحدا ٥ .

« و لا كفاء له فيكافئه » كيف و هو الخالق و غيره مخلوق ؟ « و لا نظير له فيساويه » . . . ليس كمثلته شيء و هو السميع البصير ٦ .

- (١) فصلت : ١٢ ٩ .
 (٢) جاءت القصة في أوائل سورة القصص .
 (٣) القصة مشهورة في كتب السيرة و التاريخ ، و أشار إليها تعالى في التوبة : ٤٠ .

(٤) الأحزاب : ١٧ .

(٥) الجن : ٢١ ٢٢ .

(٦) الشورى : ١١ .

الصفحة ٣٢٨

« هو المفني لها بعد وجودها حتى يصير موجودها كمفقودها » كل من عليها فان . و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الاكرام ١ .

« و ليس فناء » هكذا في النسخ ٢ ، و الظاهر أن الأصل (افناء) .

« الدنيا بعد ابتداعها » و خلقها .

« بأعجب من إنشائها و اختراعها » كيف لا و الإيجاد أصعب من الاحزاب ؟ فاستبعاد من استبعد إخراب هذه الأفلاك من قصر نظره و ضعف بصره .

« و كيف » لا يكون الإنشاء و الإفناء مختصين به تعالى .

« لو اجتمع جميع حيوانها من طيرها و بهائمها » البهائم جمع البهيمة ، و في (اللسان) : البهيمة : كل ذات أربع قوائم من دواب البرّ و الماء . ثم نقل عن الزجاج :

كل حي لا يميز بهيمة ٣ .

« و ما كان من مراحتها » بالضمّ ، و المراد به : ما أريح من تعب الرعي كالحمير و البغال و الخيل .

« و سائمها » و المراد بالسائم ما ترعى ، كالأغنام و ما من قبيلها ، فالتقابل واقع بين المراح و السائم مثل الطير و البهائم ، و لقد وقع ابن أبي الحديد و كثير منهم هنا في حيص و بيض و خبط و خلط .

« و أصناف أسناخها » أي : أصولها .

« و أجناسها » أي : أنواعها ، فالضأن و المعز متّحان بالأصل مختلفان بالنوع .

« و متبّدة » من البلادة ضدّ الذكاوة و الكياسة ، و قولهم « بيضة البلد » في

- (١) الرحمن : ٢٦ ٢٧ .
 (٢) كذا في نهج البلاغة ٢ : ١٢٤ ، و شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢١١ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٩ .
 (٣) لسان العرب ١٢ : ٥٦ مادة (بهم) .

الصفحة ٣٢٩

الذمّ ، كقول حسّان في نفسه :

و ابن الفريضة أمسى بيضة البلد

١ بكسر اللّام ، الوصف من البلادة ، و المراد بالبلد فيه النعامة ، فمن أمثالهم « أحقق من نعامة » ٢ ، قالوا : إنّها تنتشر للطعم فربّما رأّت بيض نعامة قد انتشرت لمثل ما انتشرت هي له ، فتحضن بيضها و تنسى بيض نفسها ، قال ابن هرمة :

كتاركة بيضها بالعراء

و ملبسة بيض أخرى جناحا

٣ و قالوا أيضا : أذلّ من بيضة البلد ٤ .

و فسّر (أم البيض) بالنعامة في قول الشاعر :

و أتانا يسعى تفرس أمّ البيض

شدا و قد تعالى النهار

٥ و أمّا في المدح كقول أخت عمرو بن عبدود فيه عليه السّلام :

و كان يدعى ابوه بيضة البلد

٦ فالبلد فيه بالفتح واحد البلاد ، كما أنّ البيضة في الأوّل بيضة الطير ، و في الثاني بيضة الحديد التي يقال لها بالفارسية (كلاه خود) ٧ ، و قد خلطوا بينهما فقالوا : بيضة البلد يأتي للمدح و الذم ، و الحقيقة ما عرفت .

- (١) لسان العرب ٧ : ١٢٦ ، مادة (بيض) و صدره : رأى الجلابيب قد عزّوا و قد كثروا . و احتمل ابن منظور كون البيت لرجل آخر يهجو حسّان بن ثابت .
- (٢) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٢٢٥ ، و الزمخشري في المستقصى ١ : ٨٥ .
- (٣) أورده في مجمع الأمثال ١ : ٢٢٥ ، و المستقصى ١ : ٨٥ و نسبه الزمخشري إلى أبي داود .
- (٤) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٢٨٥ و الزمخشري في المستقصى ١ : ١٣٢ .
- (٥) لسان العرب ١٢ : ٣٢ مادة (أمم) و نسبه إلى أبي داود .
- (٦) هذا شطر من بيتين مرّ في شرح خطبة الرضي ، و قد أشرنا إلى اختلاف ألفاظ الروايات و هذا اللفظ لابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٧ .
- (٧) (كلاه خود) آلة حربية حديدية تستعمل لوقاية الرأس ، و في العربية : البيضة أو الخوذة و الأخير معرب خود أيضا .

الصفحة ٣٣٠

هذا ، و قد يأتي التبدل في قبال التجلّد ، إذا كان تبدّله عارضا من شدّة المصيبة ، قال الشاعر :

ألا لا تلمه إن يتبدّلا

فقد غلب المحزون أن يتبدّلا

١ « أممها » قال الجوهري : كلّ جنس من الحيوان أمّة ٢ .

و في الحديث : « لو لا أنّ الكلاب أمّة من الأمم لأمرت بقتلها » ٣ .

قلت : لم خصّ الأمّة بالحيوان ، و قد قال تعالى : و ما من دابة في الأرض و لا طائر يطير بجناحيه إلاّ أم أمثالكم . . . ٤ .

« و أكياسها » أي : أذكائها ، و من أمثالهم : « أكيس من قشة » ٥ ، و هي جرو القرد ، كما أنّ من أمثالهم : « أبلد من ثور و من سلحفاة » ٦ .

« على إحداث بعوضة ما قدرت على إحداثها » . . . إنّ الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا و لو اجتمعوا له . . . ٧ .

« و لا عرفت كيف السبيل إلى ايجادها » أفرأيتم ما تمنون . أ أنتم تخلقونه

- (١) لسان العرب ٣ : ٩٦ مادة (بلد) .
- (٢) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ١٨٦٤ مادة (أمم) .
- (٣) هذا صدر حديث أخرجه الترمذي بطريقين في سننه ٤ : ٧٨ ، و ٨٠ ح ١٤٨٦ و ١٤٨٩ ، و النسائي في سننه ٧ : ١٨٥ ، و أبو داود في سننه ٣ : ١٠٨ ح ٢٨٤٥ ، و ابن ماجه في سننه ٢ : ١٠٦٩ ح ٣٢٠٥ ، و الدارمي في سننه ٢ : ٩٠ ، و أحمد في مسنده ٥ : ٥٤ و ٥٦ بطريقين عن عبد الله بن مغفل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله ، و أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عنه منتخب كنز العمال ٦ :
- ١٤٥ ، و رواه من الشيعة بلا اسناد أبو الفتح في تفسيره عن عبد الله بن مغفل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله ، و الاحسائي في غوالي اللآلي عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله عنهما المستدرك ٣ : ٦٥ الباب (٣٢) ح ٢ ، و شرحه ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث : ١٣٣ ، و السندي في حاشية سنن النسائي ٧ : ١٨٥ .
- (٤) الأنعام : ٣٨ .
- (٥) أورده الميداني في مجمع الأمثال ٢ : ١٦٩ ، و الزمخشري في المستقصى ١ : ٢٩٧ ، قال الميداني : و هي جرو القرد ، ثم قال : يضرب مثلا للسوار خاصة .
- (٦) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١ : ١١٩ ، و الزمخشري في المستقصى ١ : ٢٨ .
- (٧) الحج : ٧٣ .

الصفحة ٣٣١

أم نحن الخالقون ١ .

« و لتحيرت عقولها في علم ذلك » كيف لا ، و لا وقفت بعد على حقيقة الروح و عرفانها فضلا عن علم ايجادها .

« و تاهت » أي : ضلّت .

« و عجزت قواها ، و تناهت » أي : بلغت إلى النهاية .

« و رجعت خاسئة » من خسأ البصر : كلّ و أعيا .

« حسيرة » من حسر بصره ، إذا كلّ و انقطع من طول النَّظر ، و الأصل في كلامه عليه السَّلام قوله تعالى : . . . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً و هو حسير ٢ .

« عارفة بأنّها مقهورة » أي : مغلوبة .

« مقرة بالعجز عن إنشائها » فكيف تقدر على ايجاد الرّوح فيها ، و كيف تقدر على ايجاد السامعة و الباصرة و الذائقة و الشّامة و اللامسة فيها ، بل و العاطفة و قوى آخر غير محصورة ؟

« مذعنة » أي : معنقدة .

« بالضعف عن إفنائها » و المراد إفناء نوعها .

« و إنّ الله » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و إنّه) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٣ .

« سبحانه يعود بعد فناء الدّنيا وحده لا شيء معه كما كان » وحده لا شيء معه .

(١) الواقعة : ٥٨ ٥٩ .

(٢) الملك ٣ ٤ .

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢١١ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٩ « و ان الله » أيضا .

الصفحة ٣٣٢

« قبل ابتدائها كذلك يكون » وحده لا شيء معه .

« بعد فنائها » حتّى ملك الموت أيضا لا يبقى ، روى (الكافي) في نوادر جنائزه عن يعقوب الأحمر قال : دخلنا على الصادق عليه السَّلام نعزيه بإسماعيل فترحمّ عليه ، ثم قال : إنّ الله عزّ و جلّ نعى إلى نبيّه صلى الله عليه و آله نفسه ، فقال : إنّك ميّت و إنهم ميّتون ١ ، و قال عزّ و جلّ : كلّ نفس ذائقة الموت . . . ٢ . ثم انشأ يحدث فقال : إنّ يموت أهل الأرض حتّى لا يبقى أحد ، ثم يموت أهل السّماء حتّى لا يبقى أحد إلاّ ملك الموت و حملة العرش و جبرئيل و ميكائيل . قال :

فيجيء ملك الموت حتى يقوم بين يدي الله ، فيقال له : من بقي ؟ و هو أعلم .

فيقول : يا ربّ لم يبق إلا ملك الموت و حملة العرش و جبرئيل و ميكائيل .

فيقال له : قل لجبرئيل و ميكائيل فليموتا . . . فيقول : يا ربّ لم يبق إلا ملك الموت .

فيقال له : مت يا ملك الموت ، فيموت . ثم يأخذ الأرض بيمينه و السماوات بيمينه ، و يقول : أين الذين كانوا يدعون معي شريكا ، أين الذين كانوا يجعلون معي إلها آخر ؟ ٣ « بلا وقت » من ليل أو نهار .

« و لا مكان » أرض أو سماء .

« و لا حين و لا زمان » شهر أو سنة .

« عدمت عند ذلك » أي فناء العالم .

« الآجال » للأشياء .

« و الأوقات » للأمر لعدم وجود شمس و قمر .

(١) الزمر : ١ .

(٢) آل عمران : ١٨٥ .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٢٥٦ ح ٢٥ ، و أحمد بن محمد بن عيسى في النوادر عنه البحار ٦ :

٣٢٩ ح ١٤ .

الصفحة ٣٣٣

« و السنون » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و زالت السنون) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ١ .

« و الساعات » التي هي أجزاء الليل و النهار .

« فلا شيء إلا الواحد القهار » . . . لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ٢ .

« الذي إليه مصير جميع الأمور » و تدبيرها .

« بلا قدرة منها » الظرف الأول خبر كان قدّم لكونه مهمًا في القصد ،

و الظرف الثاني متعلّق بالأول .

« كان ابتداء خلقها » كيف لا و لم تكن شيئًا حتّى تكون ذات قدرة ؟ « و بغير امتناع منها » مثل سابقه في التركيب .

« كان فناؤها » و لو كان فيها استعداد البقاء .

« و لو قدرت على الامتناع » من الفناء .

« دام » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (لدام) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ٣ .

« بقاؤها » بالامتناع من الفناء .

« لم يتكأده » أي : لم يشقّ عليه .

« صنع شيء منها إذ صنعه » و ما ذلك على الله بعزيز ٤ .

« و لم يؤده » بدون واو ، أي : لم يتقل عليه .

« منها خلق ما خلقه و برأه » أي : خلقه عن غير مثال .

« و لم يكوّنها » أي : لم يوجد لها .

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢١١ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٩ .

(٢) غافر : ١٦ .

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢١١ ، و بلا (لام) في شرح ابن ميثم ٤ : ١٤٩ .

(٤) ابراهيم : ٢٠ .

الصفحة ٣٣٤

« لتشديد سلطان » كسلاطين الدنيا يصنعون أمورا لتشديد سلطانهم ،

و منهم المعتصم جمع من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم كما في المروج أنواع الديباج و المناطق المذهبية و الحلية المذهبية ، و أبانهم بالزّي عن سائر جنوده ، و قد كان اصطنع قوما من خوف مصر و من خوف اليمن و خوف قيس فسمّاهم المغاربة ، و استعدّ رجال خراسان من الفراغنة و غيرهم من الأشروسية ، فكثّر جيشه حتّى اضطر إلى الخروج عن بغداد لما ينال الناس من جيشه ، فانقل إلى محل سامراء و بناها . ١

« و لا لخوف من زوال و نقصان » كالناس يبنون القلاع لتصونهم من الزوال و النقصان .

« و لا للاستعانة بها على ندّ » أي : مثل و نظير .

« مكائر » له .

« و لا للاحتراز بها » أي : التوقّي .

« من ضدّ مثار » أي : موائب ، بنى المنصور تحت قصره نفقا يخرج إلى خارج البلد لكي يفرّ إذا غلبه عدو .

« و لا للازدياد بها في ملكه » كملوك الدنيا في بنائهم للبلاد .

« و لا لمكائرة شريك في شركه » كأهل الدنيا في تكاثرهم بالأموال و الأولاد في ما بينهم .

« و لا لوحشة كانت منه » إذ كان وحده .

« فأراد أن يستأنس إليها » و يرفع وحشته بها .

« ثمّ هو » تعالى .

« بفنيها بعد تكوينها » و إيجادها .

(١) مروج الذهب للمسعودي ٣ : ٤٦٥ و النقل بالمعنى .

الصفحة ٣٣٥

« لا لسأم » أي : ملال .

« دخل عليه في تصريفها » و تغييرها من حال إلى حال .

« و تدبيرها » بما يكون صلاحها .

« و لا لراحة واصلة إليه » من إفنائها .

« و لا لتقل شيء منها عليه » وقت بقائها .

« لم يملّه » أي : لم يجعله ملولا .

« طول بقائها فيدعوه » ملله .

« إلى سرعة إفنائها » حتى لا يزداد ملله .

« لكنه سبحانه دبّر لها » حين ابقائها .

« بلطفه » . . . الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ١ .

« و أمسكها بأمره » لكيلا تضمحلّ .

« و أتقنها » أي : أحكمها .

« بقدرته » فلم يكن فيها انقطاع دون ما أريد منها .

« ثم يعيدها بعد الفناء من غير حاجة منه إليها » كمن يخرّب بيته ، ثم يعيده لحاجته إلى سكناه .

« و لا لاستعانة بشيء منها عليها » كالنّاس في أسباب أعمالهم .

« و لا لانصراف من حال وحشة » حين الفناء .

« إلى حال استئناس » بها بعد إعادتها .

« و لا من حال جهل و عمى » في إفنائها .

« إلى حال علم » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (إلى علم) كما في (ابن

(١) طه : ٥٠ .

الصفحة ٣٣٦

أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة (١) .

« و التماس » أي : تبصّر .

« و لا من فقر و حاجة » من فنائها .

« إلى غنى و كثرة » بإعادتها .

« و لا من ذلّ و ضعة » أي : انحطاط من انعدامها .

« إلى عزّ و قدرة » بعد إيجادها .

٢٦

من الخطبة (١٩٣) و من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ وَ جَلَالَ كِبْرِيَائِهِ مَا حَيْرَ مُقَلَّ الْعُيُونِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ وَ رَدَعَ
خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النَّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ « الحمد لله الذي أظهر من آثار سلطانه » في تصرفه في
العالم و في نفوس بني آدم بما شاء و كيف شاء .

« و جلال كبريائه » من خلقه السماء و الأرض و الشمس و القمر و النجوم و الجبال و البحار و أصناف الخلق .

« ما حير » و أدهش .

« مقل » بالضمّ فالفتح جمع مقلّة : شحمة العين التي تجمع البياض و السواد .

« العيون » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (العقول) كما في (ابن أبي

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢١٢ ، و شرح ابن ميثم ٤ : ١٥٠ « إلى حال علم » أيضا .

الصفحة ٣٣٧

الحديد و ابن ميثم و الخطبة (١) .

« من عجائب قدرته » و منها ما بيّنه في قوله عزّ و جلّ : إنّ في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس و ما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بثّ فيها من كلّ دابةّ و تصريف الرياح و السحاب المسخرّ بين السماء و الأرض آيات لقوم يعقلون ٢ .

و قال الصادق عليه السّلام للمفضّل في ما بيّنه من حكم الباري تعالى : و اعلم يا مفضل إنّ اسم هذا العالم بلسان اليونانية الجاري المعروف عندهم (قوسموس) ٣ و تفسيره الزينة ، و كذلك سمّته الفلاسفة و من ادّعى الحكمة ، أفكانوا يسمّونه بهذا الاسم إلاّ لما رأوا فيه من التقدير و النظام ، فلم يرضوا أن يسمّوه تقديرا و نظاما حتى سمّوه زينة ليخبروا أنّه مع ما هو عليه من الصواب و الاتقان على غاية الحسن و البهاء ٤ .

و قال الرضا عليه السّلام : خلق الله الخلق على أنواع شتى ، و لم يخلقهم نوعا واحدا لئلاّ يقع في الأوهام أنّه عاجز ، فلا يقع في وهم أحد صورة إلاّ و قد خلق تعالى عليها خلقا ، و لا يقول قائل : هل يقدر الله على أن يخلق على صورة كذا و كذا إلاّ وجد ذلك في خلقه عزّ و جلّ ، فيعلم بالنظر إلى أنواع خلقه أنّه على كلّ

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٣٨ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٤٣١ « العيون » أيضا .

(٢) البقرة : ١٦٤ .

(٣) (قوسموس) معرب () اليونانية ذكر () و () في معجم اليونانية [الصفحة ٧٨٢] من معاني الكلمة : « الترتيب الجيد : النظم الجيد » و « الزينة الحلية » و « العالم الكائنات » و قالوا أول من استعمل هذه الكلمة في معنى العالم فيثاغورس في فلسفته لنظم العالم و ترتيبه الكامل .

(٤) توحيد المفضل : ١٧٦ .

الصفحة ٣٣٨

شيء قدير . ١

« وردع » أي : كف .

« خطرات » مما يخطر بالبال .

« هماهم » جمع الهمهمة ، ترديد الصوت في الصدر .

« النفوس عن عرفان كنه صفته » جلّ و علا فإذا كان الإنسان لا يعرف كنه كثير مما أظهر من آثار سلطنته من الشمس و القمر و النجوم و السماء و غيرها مما يشاهدها كيف يعرف كنه صانعها .

و في (الحلية) قال أحمد بن أبي الحواري : حدثني أحمد بن داود قال :

اجتمع بنو اسرائيل فأخرجوا من كلّ عشرة واحدا ، ثمّ أخرجوا من كلّ مائة واحدا ، ثمّ أخرجوا من كلّ ألف واحدا حتّى أخرجوا سبعة خيار بني إسرائيل .

فقال : أدخلونا في بيت و طينوا علينا ، و لا تخرجونا حتّى نعرف ربّنا .

ففعّلوا ، فمات أولّ يوم واحد ، و في اليوم الثاني آخر ، ثم مات في اليوم الثالث آخر ، فقال شابّ و كان أصغرهم : أخرجونا قد عرفته . قال : ففتحوا فأخرجوهم . فقال لهم : قد عرفته . قالوا : و أي شيء عرفت . قال : عرفت أنّه لا يعرف . فإن شئتم فدعونا حتّى نموت عن آخرنا و إن شئتم أخرجونا ٢ .

من الخطبة (١٥٣) و من خطبة له عليه السلام : يذكر فيها بديع خلقه الخفّاش :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي انْحَسَرَتِ الْأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ وَ رَدَعَتْ عَظَمَتُهُ الْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغًا إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ هُوَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ

(١) أخرجه الصدوق في علل الشرايع ١ : ١٤ ح ١٣ بفرق يسير .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٠ : ١٢ .

الصفحة ٣٣٩

الْمُبِينُ ١١ ١٢ ٢٤ : ٢٥ أَحَقُّ وَ أْبِينُ مِمَّا تَرَى الْعَيْونُ لَمْ تَبْلُغْهُ الْعُقُولُ بِتَحْدِيدِ فَيَكُونُ مُشَبَّهًا وَ لَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ الْأَوْهَامُ فَيَكُونُ مُمَثَّلًا ١ خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمَثِيلٍ وَ لَا مَشُورَةَ مُشِيرٍ وَ لَا مَعُونَةَ مُعِينٍ فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ وَ أَدْعَى لِبَطَاعَتِهِ فَأَجَابَ وَ لَمْ يَدْفَعْ وَ انْقَادَ وَ لَمْ يُنَازِعْ « الحمد لله الذي انحسرت » أي : كَلَّتْ وَ انْقَطَعَتْ .

« الأوصاف عن كنه معرفته » كيف لا تنحسر عن كنه معرفته ، و قد انحسرت عن كنه كثير من خلقه ؟
« و ردعت » أي : كَفَّتْ .

« عظمته العقول » عن فهمه .

« فلم تجد مساعا » أي : جوازاً ، و الأصل فيه : ساع الشراب ، إذا سهل مدخله في الحلق .

« إلى بلوغ غاية ملكوته » قال تعالى : قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي و لو جئنا بمثله مددا ٢ .

و قال الصادق عليه السلام : فقالوا و لم لا يدرك تعالى بالعقل ؟ قيل : لأنه فوق مرتبة العقل ، كما لا يدرك البصر ما هو فوق مرتبته ، فإنك لو رأيت حجرا يرتفع في الهواء علمت أن راميا رمى به . فليس هذا العلم من قبل البصر بل من قبل العقل ، لأنى العقل هو الذي يميزه ، فيعلم أن الحجر لا يذهب علوا من تلقاء نفسه ، أفلا ترى كيف وقف البصر على حدّه فلم يتجاوزّه ، فكذلك يقف العقل على حدّه من معرفة الخالق فلا يعدوه ، و لكن يعقله بعقل أقرّ أن فيه نفسا و لم يعاينها و لم يدركها بحاسة من الحواس . و على حسب هذا أيضا نقول : إنّ

(١) قال الشارح و في نسخ « و لم تقع على الاوهام بتقدير فيكون ممثلا » .

(٢) الكهف : ١٠٩ .

الصفحة ٣٤٠

العقل يعرف الخالق من جهة توجب عليه الإقرار ، و لا يعرفه بما يوجب له الإحاطة بصفته إلى أن قال فان قالوا : أ و ليس قد نصفه ؟ فنقول : هو العزيز الحكيم الجواد الكريم . قيل لهم : كل هذه صفات إقرار ، و ليست صفات إحاطة فإننا نعلم أنه حكيم ، و لا نعلم بكنه ذلك منه ، و كذلك قدير و جواد ، و سائر صفاته كما قد نرى السماء ، فلا ندري ما هو جوهرها و نرى البحر و لا ندري أين منتهاه ١ .

« هو الله الملك » هكذا في (المصرية) ، و كلمة (الملك) زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٢ .

« الحق المبين » يومئذ يوفيه الله دينهم الحق و يعلمون أن الله هو الحق المبين ٣ .

« أحق و أبين مما تراه العيون » لأن ما تراه العيون قد يقع فيه الخطأ ، و أما هو تعالى فتحققه بالعقل الذي استحال أن يخطئ .

قال الصادق عليه السلام بعد ما مرّ في ما مرّ : فإن قالوا فأنتم الآن تصفون من قصور العلم عنه وصفا حتى كأنه غير معلوم . قيل لهم : هو كذلك من جهة إذا رام العقل معرفة كنهه و الإحاطة به ، و هو من جهة أخرى أقرب من كل قريب ،

إذا استدّل عليه بالدلائل الشافية ، فهو من جهة كالواضح لا يخفى على أحد ،

و هو من جهة كالغامض لا يدركه أحد ، و كذلك العقل أيضا ظاهر بشواهد و مستور بذاته ٤ .

« لم تبلغه العقول بتحديد فيكون مشبها ، و لم تقع عليه الأوهام فيكون ممثلا »

(١) توحيد المفضل : ١٧٦ .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٣٣ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٢٥٢ توجد كلمة « الملك » أيضا .

(٣) النور : ٢٥ .

(٤) توحيد المفضل : ١٨٠ .

الصفحة ٣٤١

قال الصادق عليه السلام : فإن قالوا : كيف يعقل أن يكون مباينا لكل شيء متعاليا عن كل شيء ؟

قيل لهم : الحق الذي تطلب معرفته من الأشياء هو أربعة أوجه ، فأولها :

أن ينظر أوجود هو أم ليس بموجود . و الثاني : أن يعرف ما هو في ذاته و جوهره . و الثالث : أن يعرف كيف هو و ما صفته . و الرابع : أن يعلم لماذا هو ،

و لأيّ علّة ، فليس من هذه الوجوه شيء يمكن المخلوق أن يعرفه من الخالق حق معرفته غير أنه موجود فقط . فإذا قلنا : (و كيف) و (ما هو) فممتنع علم كنهه و كمال المعرفة به ، و أمّا (لماذا هو) فساقط في صفة الخالق ، لأنه جل ثناؤه علّة كلّ شيء ، و ليس شيء بعلة له ، ثمّ ليس علم الإنسان بأنه موجود يوجب له أن يعلم ما هو و كيف هو ، كما أنّ علمه بوجود النفس لا يوجب أن يعلم ما هي و كيف هي ، و كذلك الأمور الروحانية اللطيفة ١ .

« خلق الخلق على غير تمثيل ، و لا مشورة مشير ، و لا معونة معين » كيف لا و لم يكن شيء حتى يخلق على تمثيله ، و لم يكن أحد حتى يكون مشيرا له أو معيناً ؟ « فتمّ خلقه بأمره » إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ٢ .

« و أذن » أي : اعترف بلسان الحال .

« لطاعته فأجاب و لم يدفع ، و انقاد و لم ينازع » بحصوله على وفق مراده ،

قال تعالى : . . . فقال لها و للأرض اتتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين .

فقضاهن سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها و زيّن السماء

(١) توحيد المفضل : ١٧٩ .

(٢) يس : ٨٢ .

الصفحة ٣٤٢

الدنيا بمصائب و حفظا ذلك تقدير العزيز العليم ١ .

من الخطبة (١٨٩) و من خطبة له عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي حَمْدُهُ وَ الْغَالِبِ جُنْدُهُ وَ الْمَتَعَالِي جَدُّهُ أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ التُّوَامِ وَ الْإِنِّهِ الْعِظَامِ الَّذِي عَظُمَ حِلْمُهُ فَعَفَا وَ عَدَلَ فِي كُلِّ مَا قَضَى وَ عَلِمَ مَا يَمْضِي وَ مَا مَضَى مُبْتَدِعِ الْخَلَائِقِ بَعْلَمِهِ وَ مُنْشِئِهِمْ بِحُكْمِهِ بِلاَ إِفْتِدَاءٍ وَ لاَ تَعْلِيمٍ وَ لاَ إِحْتِدَاءٍ لِمِثَالِ صَانِعِ حَكِيمٍ وَ لاَ إِصَابَةِ خَطَأٍ وَ لاَ حَضْرَةَ مَلَأَ « الحمد لله الفاشي » أي المنتشر .

« حمده » قال تعالى : تسبِّح له السماوات السبع و الأرض و من فيهنَّ و إن من شيء إلا يسبِّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم . . . ٢ ، و له الحمد في السماوات و الأرض و عشيّاً و حين تظهرون ٣ ، يسبِّح لله ما في السماوات و ما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ٤ .

« و الغالب جنده » و إن جندنا لهم الغالبون ٥ ، كتب الله لأغلبنَّ أنا و رسلي إنَّ الله قويّ عزيز ٦ .

« و المتعالي جدّه » أي : عظمته ، و الأصل فيه قوله تعالى حكاية عن الجنّ :

(١) فصلت : ١٢ ١١ .

(٢) الاسراء : ٤٤ .

(٣) الروم : ١٨ .

(٤) الجمعة : ١ .

(٥) الصافات : ١٧٣ .

(٦) المجادلة : ٢١ .

الصفحة ٣٤٣

و أنه تعالى جدّ ربّنا ما اتّخذ صاحبة و لا ولدا ١ .

« أحمدده على نعمه التّوأم » جمع توأم أي المتواترة ، قال الشاعر :

قالت لنا و دمعها تَوَام
كالدَّرِّ إذ أسلمه النَّظَام

على الَّذِينَ ارتحلوا السَّلَام

٢ و الظاهر كونه استعارة ، و الأصل فيه : الولدان التَّوَامان .

« و آلائه » أي : نعمائه ، قال الجوهري : الآلاء النعم واحدها (ألى) بالفتح ،

و قد يكسر و يكتب بالياء ، مثاله : معي و أمعاء ٣ . و قال الفيروز آبادي : واحدها إلي و ألو و ألي و ألى و إلى ٤ .

قلت : و لم أقف على استعمال مفرد للآلاء أصلاً ، و لنا جموع لا يستعمل مفرد لها .

« العظام » و كلَّ نعمة منه تعالى عظيمة ، و إنّما فيها عظيم و أعظم .

« الَّذِي عَظَمَ حِلْمَهُ فَعَفَا » و لو يؤاخذ الله النَّاسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهرِها من دَابَّةٍ . . . ٥ ، و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير ٦ .

« و عدل في كلِّ ما قضى » إنّ الله يأمر بالعدل و الاحسان و ابتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغي . . . ٧ ، و قل آمنتم بما أنزل الله من

(١) الجن : ٣ .

(٢) لسان العرب ١٢ : ٦١ مادة (تَأَم) .

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٢٧٠ مادة (ألى) .

(٤) القاموس المحيط ٤ : ٣٠٠ مادة (الا) .

(٥) فاطر : ٤٥ .

(٦) الشورى : ٣٠ .

(٧) النحل : ٩٠ .

كتاب و أمرت لأعدل بينكم . . . ١ .

و قال جابر الجعفيّ للباقر عليه السّلام : نرى من الأطفال من يولد ميّتا ، و منهم من يسقط غير تامّ ، و منهم من يولد أعمى أو أخرس أو أصمّ ، و منهم من يموت من ساعته إذا سقط على الأرض ، و منهم من يبقى إلى الاحتلام ، و منهم من يعمرّ حتّى يصير شيخا ، فكيف ذلك و ما وجهه ؟

فقال عليه السّلام : إنّ الله أولى بما يدبّره من أمر خلقه منه و هو الخالق و المالك لهم ، فمن منعه التّعير فإنّما منعه ما ليس له ، و من عمّره فإنّما أعطاه ما ليس له ، فهو المتفضّل بما أعطى و عادل في ما منع . ٢ .

« و علم ما يمضي و ما مضى » قال تعالى : و لقد علمنا المستقدمين منكم و لقد علمنا المستأخرين ٣ .

« مبتدع الخلائق بعلمه » قال الصدوق : من الدليل على أنّ الله تبارك و تعالى عالم : أنّ الأفعال المختلفة التّقدير المتضادّة التدبير المتفاوتة الصنعة لا تقع على ما ينبغي أن يكون عليه من الحكمة ممّن لا يعلمها ، و لا يستمرّ على منهاج منتظم ممّن يجهلها ، ألا ترى أنّه لا يصوغ قرطا يحكم صنعته ، و يضع كلاً من دقيقه و جليله موضعه من لا يعرف الصياغة ، و لا أن ينتظم كتابة يتبع كلّ حرف منها ما قبله من لا يعلم الكتابة ، و العالم ألطف صنعة و أبدع تقريرا ممّا وصفناه ، فوقوعه من غير عالم بكيفيته قبل وجوده أبعده و أشدّ استحالة ٤ .

(١) الشورى : ١٥ .

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٩٧ ح ١٣ في صدر الحديث .

(٣) الحجر : ٢٤ .

(٤) التوحيد للصدوق : ١٣٧ .

الصفحة ٣٤٥

« و منشئهم بحكمه » و لقد علمتم النشأة الاولى فلو لا تذكّرون ١ ،

هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها . . . ٢ ، و هو الذي أنشأكم من نفس واحدة . . . ٣ .

« بلا اقتداء » لغيره .

« و لا تعليم » من سواه .

« و لا احتذاء » يقال : حذوت النعل بالنعل ، إذا قدّرت كل واحدة على صاحبها .

« لمثال صانع حكيم » لعدم وجود لغيره .

« و لا إصابة » أحد .

« خطأ » له في خلقه : . . . ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً و هو حسير ٤ .

و اجتهد الطبيعويون في إصابة خطأ في الخليفة ، فعابوا بجهلهم الشعر النَّابت على الركبة و على الابطين ، و كون بطن الإنسان مصمتاً لا يمكن فتحه لعلاجه ، و وجود الموت و الفناء ، و وجود الآفات الحادثة في بعض الأحيان ،

مثل الوباء و اليرقان و الجراد ، و قلة المطر و كثرتة و الزلازل و غيرها ، مع أنّ ذلك عين الصواب و محض الحكمة ، كما شرحه الصادق عليه السلام للمفضل في (توحيده) .

« و لا حضرة ملاً » وقت خلقه ما خلق : و جعلوا الملائكة الذين هم عباد

(١) الواقعة : ٦٦ .

(٢) هود : ٦١ .

(٣) الأنعام : ٩٨ .

(٤) الملك : ٤٣ .

الصفحة ٣٤٦

الرحمن إنائاً أشهدوا خلقهم . . . ١ ، و ما أشهدتهم خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم و ما كنت متخذ المضللين عضداً ٢ .

من الخطبة (١٨٠) و من خطبة له عليه السلام : روي عن نوف البكالي ، قال : خطبنا هذه الخطبة بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام و هو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي . . . ٣ ، فقال عليه السلام :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ مَصَائِرُ الْخَلْقِ وَ عَوَاقِبُ الْأَمْرِ نَحْمَدُهُ عَلَى عَظِيمِ إِحْسَانِهِ وَ نَيْرِ بُرْهَانِهِ وَ نَوَامِي فَضْلِهِ وَ امْتِنَانِهِ حَمْدًا يَكُونُ لِحَقِّهِ قَضَاءً وَ لَشُكْرِهِ أَدَاءً وَ إِلَى ثَوَابِهِ مَقْرَبًا وَ لِحُسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِبًا وَ نَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعَانَةً رَاجٍ لِفَضْلِهِ مُؤَمِّلٍ لِنَفْعِهِ وَ آتِقٍ بِدَفْعِهِ مُعْتَرِفٍ لَهُ بِالطَّوْلِ مُذْعِنٌ لَهُ بِالْعَمَلِ وَ الْقَوْلِ وَ نُؤْمِنُ بِهِ بِإِيمَانٍ مِنْ رَجَاهُ مُوقِنًا وَ أَنَابٍ إِلَيْهِ مُؤْمِنًا وَ خَنَعَ لَهُ مُدْعِنًا وَ أَخْلَصَ لَهُ مُوَحِّدًا وَ عَظَّمَهُ مُمَجِّدًا وَ لَادَ بِهِ رَاغِبًا مُجْتَهِدًا لَمْ يُولَدْ ٤ ٥ ١١٢ : ٣ سُبْحَانَهُ فَيَكُونُ فِي الْعَزِّ مُشَارِكًا وَ لَمْ يَلِدْ ١ ٢ ١١٢ : ٣ فَيَكُونُ مَوْرِثًا هَالِكًا وَ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتُ وَ لَا زَمَانٌ وَ لَمْ يَتَعَاوَرَهُ زِيَادَةٌ وَ لَا نُقْصَانٌ بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عِلْمَاتِ التَّدْبِيرِ الْمُتَّقِنِ وَ الْقَضَاءِ الْمُبْرَمِ وَ مِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ مُوَدَّاتٍ بِلَا عَمَدٍ قَائِمَاتٍ بِلَا سَنَدٍ دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعَاتٍ مُذْعِنَاتٍ غَيْرِ مُتَلَكِّئَاتٍ وَ لَا مُبْطِنَاتٍ وَ لَوْ لَا إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَ إِذْعَانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ لَمَا

(١) الزخرف : ١٩ .

(٢) الكهف : ٥١ .

(٣) بقية قول نوف : « و عليه مدرعة من صوف و حمائل سيفه ليف و في رجليه نعلان من ليف و كأن جبينه ثفنة بعير » نهج البلاغة ٢ : ١٠٣ .

الصفحة ٣٤٧

جَعَلَهُنَّ مَوْضِعًا لِعَرْشِهِ وَ لَا مَسْكَنًا لِمَلَائِكَتِهِ وَ لَا مَصْنَعًا لِلِكَلِمِ الطَّيِّبِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ جَعَلَ نُجُومَهَا أَعْلَامًا يَسْتَدِلُّ بِهَا الْحَيْرَانَ فِي مُخْتَلَفِ فِجَاجِ الْأَقْطَارِ لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِهَا إِذْلَهَامَ سُجْفِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ وَ لَا اسْتِطَاعَتِ جَلَابِيبِ سَوَادِ الْحَنَادِسِ أَنْ تَرُدَّ مَا شَاعَ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ تَلَالُؤِ نُورِ الْقَمَرِ فَسُبْحَانَ مَنْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سَوَادُ غَسَقِ دَاجٍ وَ لَا لَيْلِ سَاجٍ فِي بِقَاعِ الْأَرْضِينَ الْمُتَطَاطِنَاتِ وَ لَا فِي بِقَاعِ السُّفَعِ الْمُتَجَاوِرَاتِ وَ مَا يَتَجَلَّجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ وَ مَا تَلَاثَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمَامِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تَزِيلُهَا عَنْ مَسْقَطِهَا عَوَاصِفُ الْأَنْوَاءِ وَ انْهْطَالُ السَّمَاءِ وَ يَعْلَمُ مَسْقُطَ الْقَطْرَةِ وَ مَقْرَهَا وَ مَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَ مَجْرَهَا وَ مَا يَكْفِي الْبُعُوضَةَ مِنْ قُوَّتِهَا وَ مَا تَحْمِلُ الْأُنْتَى فِي بَطْنِهَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيُّ أَوْ عَرْشٌ أَوْ سَمَاءٌ أَوْ أَرْضٌ أَوْ جَانٌّ أَوْ إِنْسٌ لَا يُدْرِكُ بُوْهْمٌ وَ لَا يُفَدَّرُ بِفَهْمٍ وَ لَا يَشْغَلُهُ سَائِلٌ وَ لَا يَنْقُصُهُ نَائِلٌ وَ لَا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ وَ لَا يُحَدِّثُ بِأَيِّنٍ وَ لَا يُوصَفُ بِالْأَزْوَاجِ وَ لَا يَخْلُقُ بِعِلَاجٍ وَ لَا يُدْرِكُ بِالْحَوَاسِّ وَ لَا يُقَاسُ بِالنَّاسِ الَّذِي كَلَّمَ؟ مُوسَى؟ تَكْلِيمًا وَ أَرَاهُ مِنْ آيَاتِهِ عَظِيمًا بِلَا جَوَارِحٍ وَ لَا أَدْوَاتٍ وَ لَا نُطْقٍ وَ لَا لَهَوَاتٍ بَلْ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا

أَيُّهَا الْمَتَكَلِّفُ لَوْصَفَ رَبِّكَ فَصِفْ ؟ جِبْرَائِيلَ ؟ وَ ؟ مِيكَائِيلَ ؟ وَ جُنُودَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فِي حُجْرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِينَ مُتَوَلِّهَةً عَقُولُهُمْ أَنْ يَحْدُثُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ فَإِنَّمَا يُدْرِكُ بِالصِّفَاتِ ذَوُو الْهَيْئَاتِ وَالْأَدْوَاتِ وَمَنْ يَنْقُضِي إِذَا بَلَغَ أَمَدَ حُدِّهِ بِالْفَنَاءِ فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَضَاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلَامٍ وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ قَوْلِ الْمَصْنَفِ :

« روي عن نوف البكالي » قال ابن أبي الحديد : قال

الصفحة ٣٤٨

صاحب (الصحاح) : نوف البكالي بفتح الباء كان حاجب علي عليه السلام ١ .

قلت : لم يقل صاحب (الصحاح) : إن بكال بفتح الباء فهذا نصّه :

نوف البكالي : قال الثعلب : هو منسوب إلى بكالة قبيلة . . . و بنو بكال من حمير منهم نوف البكالي صاحب علي عليه السلام ٢ . و لو كان (الصحاح) قال : إنه بالفتح لغلظه (القاموس) حيث إنه قال : إنه ككتاب ٣ . و إنما قال ابن بري محشي (الصحاح) كما نقل عنه في (اللسان) قال المهلب : بكالة بكسر الباء قبيلة من اليمن و المحدثون يقولون : نوف البكالي بفتح الباء و التشديد ٤ . و كيف كان فقال الجوهري و الفيروزآبادي : إن (بكالا) من همدان ، و (بكالا) من حمير .

لكن الصواب : كون بكال أيضا من همدان ، فروى الطبري في ذكر خبر الخوارج خبرا في سنده جبر بن نوف أبو الوداك الهمداني ٥ ، و قد صرح (المغرب) أن جبرا بن نوف البكالي ٦ ، و الراوي عن جبر هذا كان أعرف به فوصفه بالهمداني . و اختار ما قلنا ابن دريد في جمهرته مع تردد . فقال : بنو بكيل ، و بنو بكال بطنان من العرب أحسبهما من همدان أو يكون بكال من حمير و بكيل من همدان ، منهم نوف البكالي صاحب علي عليه السلام ٧ ، بل قال به الفيروز آبادي أيضا في مادة (خير) بالخاء و الياء المثناة . فقال ثمة : خير بن نوف من همدان ٨ . لكن الظاهر و همه في جعل الابن خيرا بل هو جبر بالجيم .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٠٩ .

(٢) كذا في صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٦٣٨ مادة (بكل) ، و فيه مثل ما نقله ابن أبي الحديد أيضا .

(٣) القاموس المحيط ٣ : ٣٣٩ مادة (بكل) .

(٤) لسان العرب ١١ : ٦٣ مادة (بكل) .

(٥) تاريخ الطبري ٤ : ٥٧ سنة (٣٧) .

(٦) المغرب : ٢٤٣ مادة (ودك) .

(٧) جمهرة اللغة ١ : ٣٢٥ .

(٨) لفظ القاموس المحيط ٢ : ٢٥ مادة (خير) : « و والد نوف بن همدان » ، و في بعض النسخ : « و ولد نوف بن همدان » .
و الاقيانوس شرح القاموس ١ : ٨٤٩ خال من هذا ، و في تاج العروس ١١ : ٢٤٥ أيضا « ولد نوف بن همدان » ، نقله عن ابن الجواني النسابة .

الصفحة ٣٤٩

و الموحدة ، كما عرفته من (المغرب) .

هذا ، و المفهوم من خليفة كونه من كهلان ، فعنون (الاستيعاب) عمرو البكالي ، و نقل عن خليفة في الصحابة و هو من بني بكال بن دتمي بن سعد بن عوف بن عدي بن مالك بن زيد بن كهلان ١ .

« قال خطبنا هذه » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (بهذه) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٢ .

« الخطبة » الظاهر أنّ هذه الخطبة كانت آخر خطباته عليه السلام ، فقال نوف في آخرها : فما دارت الجمعة حتّى ضربه الملعون .

« بالكوفة أمير المؤمنين عليه السلام » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) لكن ليس في نسخة (ابن ميثم) لفظ (بالكوفة) رأسا ٣ .

« و هو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي » و هو ابن أخته عليه السلام أمّ هاني ، و روى الكشي عن الصادق عليه السلام : « كان مع أمير المؤمنين عليه السلام من قريش خمسة نفر ، و كانت ثلاث عشرة قبيلة مع معاوية ،

فأمّا الخمسة محمد بن أبي بكر أتته النجابة من قبل أمّه أسماء بنت عميس ،

و كان معه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال ، و كان معه جعدة بن هبيرة المخزومي ، و كان أمير المؤمنين عليه السلام خاله ، و هو الذي قال له عتبة بن أبي

- (١) الاستيعاب لابن عبد البر ٢ : ٥٣٣ ، وقال ابن منظور في لسان العرب ١١ : ٦٣ مادة (بكل) : « بنو بكيل هي من همدان » ثم قال : و بنو بكال (بكسر الباء) من حمير منهم نوف البكالي صاحب علي عليه السلام « و أقول : همدان المذكور كرارا من ولد كهلان و هو من ولد قحطان .
- (٢) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٠٨ ، لكن في شرح ابن ميثم ٣ : ٣٨٠ بدون (الباء) أيضا .
- (٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٠٨ ، لكن يوجد في شرح ابن ميثم ٣ : ٣٨٠ « بالكوفة » أيضا .

الصفحة ٣٥٠

سفيان : إنما لك هذه الشدة في الحرب من قبل خالك . فقال له جعدة : لو كان لك خال مثل خالي لانسيت أباك ١ .

- و روى (صفين نصر بن مزاحم) : أنه عليه السلام لما ورد الكوفة من البصرة نزل على جعدة ٢ .
- و روى الطبري أنه عليه السلام لما ضرب تقدم جعدة فصلّى بالناس الغداة ٣ .
- « الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق » . . . و صوركم فأحسن صوركم و إليه المصير ٤ .
- « و عواقب الأمر » . . . ألا إلى الله تصير الأمور ٥ . . . و لله عاقبة الأمور ٦ ، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء و إليه ترجعون ٧ ، له ملك السماوات و الأرض و إلى الله ترجع الامور ٨ .
- « نحمده على عظيم إحسانه » قال عزّ و جلّ : خلق الإنسان علمه البيان ٩ ، خلق الإنسان من علق . . . علم الإنسان ما لم يعلم ١٠ ألم نجعل له عينين . و لسانا و شفقتين . و هديناه النجدين ١١ .
- « و نير برهانه » و من آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر

- (١) اختيار رجال الكشي ٦٣ : ١١١ .
- (٢) وقعة صفين : ٥ .
- (٣) تاريخ الطبري ٤ : ١١ سنة (٤٠) ، و لم يتعرض الشارح لشرح قول نوف : « و عليه مدرعة من صوف . . . » .
- (٤) التغابن : ٣ .
- (٥) الشورى : ٥٣ .
- (٦) الحج : ٤١ .

(٧) يس : ٨٣ .

(٨) الحديد : ٥ .

(٩) الرحمن : ٤٣ .

(١٠) العلق : ٥٢ .

(١١) البلد : ١٠٨ .

الصفحة ٣٥١

تنتشرون ١ ، . . . أفي الله شك فاطر السماوات و الأرض . . . ٢ ، و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها و جعل بينكم مودة و رحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . و من آياته خلق السماوات و الأرض و اختلاف ألسنتكم و ألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين . و من آياته منامكم بالليل و النهار و ابتغواكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون . و من آياته يريكم البرق خوفا و طمعا و ينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . و من آياته أن تقوم السماء و الأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ٣ .

« و نوامي » من إضافة الصفة .

« فضله و امتنانه » على كل شخص و كل نوع ، قال تعالى : ألم نجعل الأرض مهادا . و الجبال أوتادا . و خلقناكم أزواجا . و جعلنا نومكم سباتا .

و جعلنا الليل لباسا . و جعلنا النهار معاشا . و بنينا فوقكم سبعا شدادا .

و جعلنا سراجا و هاجا . و أنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا و نباتا . و جنات ألفافا ٤ .

« حمدا يكون لحقه قضاء و لشكره أداء » أي : بالإجمال كقولنا : الحمد لله كما هو أهله ٥ ، و كما ينبغي لكرم وجهه و عزّ جلاله . و كقولنا : لا أحصي ثناء عليك ،

(١) الروم : ٢٠ .

(٢) ابراهيم : ١٠ .

(٣) الروم : ٢١ ٢٥ .

(٤) النبأ : ١٦٦ .

(٥) هذا التحميد رواه ابن فهد في عدّة الداعي عنه بحار الأنوار ٩٣ : ٢١٦ ح ٢١ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَ الصَّدُوق فِي ثَوَابِ الْأَعْمَالِ : ٢٨ ح ١ عَنِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

الصفحة ٣٥٢

أنت كما أثبتت على نفسك ١ . و أمّا حمده التفصيلي فخارج عن طوق البشر لعدم إحصاء نعمه و مننه .

« و إلى ثوابه مقرّباً » . . . كذلك نجزي من شكر ٢ ، . . . و من يرد ثواب الآخرة نؤته منها و سنجزي الشاكرين ٣ .

« و لحسن مزیده موجبا » . . . لئن شكرتم لأزيدنكم . . . ٤ .

« و نستعين به استعانة راج لفضله ، مؤمل لنفعه ، واثق بدفعه ، معترف له بالطول « بفتح الطاء ، أي : المنّ ، يقال : « تطوّل عليه » أي : منّ .

« مذعن « أي : مقرّ .

« له بالعمل و القول « جعل عليه السّلام في قوله « و نستعين به . . . » استعانته به تعالى استعانة متّصف بالصّفات الخمس ، ليعلم أنّه لا ينبغي الاستعانة إلاّ به تعالى ، كما قال عزّ و جلّ مؤدّباً لهم و إيّاك نستعين ٥ .

« و نؤمن به إيمان من رجاه موقناً « بأنّه هو محلّ الرجاء لا غيره .

« و أناب « أي : أقبل و تاب .

« إليه « تعالى .

« مؤمنا « أي : معتقدا بأنّه تعالى أهل ذلك .

« و خنع « أي : خضع .

« له مذعنا « أي : مقرّاً .

- (١) هذا الثناء أخرجه ضمن حديث صاحب مصباح الشريعة : ٥٦ ، و الدار قطني في الافراد عنه منتخب كنز العمال ١ : ٣٤٨ ، و غيرهما عن النبي صلى الله عليه و آله ، و مرّ تخريجه في العنوان (١) من هذا الفصل .
- (٢) القمر : ٣٥ .
- (٣) آل عمران : ١٤٥ .
- (٤) ابراهيم : ٧ .
- (٥) فاتحة الكتاب : ٥ .

الصفحة ٣٥٣

- « و أخلص له موحّداً . . . و ادعوه مخلصين له الدّين كما بدأكم تعودون ١ .
- « و عظّمه ممجّداً . . . و من يعظّم شعائر الله فإنّها من تقوى القلوب ٢ ،
- و من يعظّم حرّمات الله فهو خير له عند ربّه . . . ٣ .
- « و لاذ « أي : لجأ .
- « به راغبا مجتهدا » أي : ساعيا ، جعل عليه السّلام إيمانه في قوله « و نؤمن به . . . » إيمان متّصف بالصّفات الستّ ، ليفهم أنّه الإيمان المطلوب ، قال تعالى : يا أيّها الذين آمنوا آمنوا بالله و رسوله و الكتاب الذي نزل على رسوله و الكتاب الذي أنزل من قبل . . . ٤ .
- « لم يولد سبحانه فيكون في العزّ مشاركا » لأنّ والد العزيز عزيز و لو بسببه ، قال الشاعر :
- كما علا برسول الله عدنان
- ٥ « و لم يلد فيكون مورثا » هكذا في (المصريّة) ، و الصواب : (موروثا) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٦ .
- « هالكا » فليس الموروث إلاّ هالكا .

« و لم يتقدّمه وقت و لا زمان » الظاهر كون الوقت خاصًا و الزّمان عامًا ، فإنّ الوقت يأتي للزّمان المعين كثيرا ، قال تعالى : . . . إنّ الصلاة كانت على

(١) الأعراف : ٢٩ .

(٢) الحج : ٣٢ .

(٣) الحج : ٣٠ .

(٤) النساء : ١٣٦ .

(٥) أورده ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ١٦٧ ، و الشاعر علي بن العباس بن جريح ، مرّ ذكره مفصّلاً في شرح خطبة الرضي .

(٦) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥١٠ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٣٨١ « مورثا » أيضا .

الصفحة ٣٥٤

المؤمنين كتابا موقوتا ١ و لا يصحّ كتابا مزمنا .

و من ذلك يظهر لك ما في قول ابن أبي الحديد من كونهما مترادفين ٢ ،

و قول (ابن ميثم) بكون الأوّل جزء الثاني ٣ .

« و لم يتعاوره » أي : لم يعترضه .

« زيادة و لا نقصان » فإنّهما من عوارض الجسمانيّات .

« بل ظهر للعقول بما أرانا من علامات التدبير المتقن و القضاء المبرم » الذي جعل لكم الأرض مهذا و سلك لكم فيها سبلا و أنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا و ارعوا أنعامكم إنّ في ذلك لآيات لأولي النّهي ٤ ، أ لم تر أنّ الله أنزل من السّماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثمّ يخرج به زراعا مختلفا ألوانه ثمّ يهيح فتراه مصفرا ثمّ يجعله حطاما إنّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب ٥ .

« و من » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (فمن) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة)

. ٦

« شواهد خلقه » أي : من شواهد ظهوره لعقول خلقه .

« خلق السماوات موطّدت » أي : مثبتات .

« بلا عمد » قال تعالى : الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها . . . ٧ .

(١) النساء : ١٠٣ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥١٠ .

(٣) شرح ابن ميثم ٣ : ٣٨٥ .

(٤) طه : ٥٣ ٥٤ .

(٥) الزمر : ٢١ .

(٦) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥١٠ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٣ : ٣٨١ : « و من » أيضا .

(٧) الرعد : ٢ ، و لم يتعرض الشارح لشرح فقرة : « قائما بلا سند » .

الصفحة ٣٥٥

« داهن فأجين طائعات مذعنات » أي : معترفات .

« غير متلكّات » أي : معتلات .

« و لا مبطنات » أي : و لا غير مسرعات ، قال تعالى : . . . فقال لها و للأرض اثنتا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ١ ، و المراد من إجابتها : إجابتها بلسان الحال لا المقال . و نظيره في كلام العرب كثير ، قال الشماخ :

كأنّي كسرت الرجل أخفت سوقها

أطاع له مرزا متين حديق

فجعل الحديد مطيعا للغير لما تمكن من رعيه .

« و لو لا إقرارهنّ له بالربوبية و إذعانهنّ له » هكذا في (المصرية و ابن ميثم) ٢ و ليست كلمة (له) في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٣ .

« بالطّواعية » أي : الطاعة .

« لما جعلهنّ موضعا لعرشه » و لا ينافي ذلك قوله تعالى : . . . و كان عرشه على الماء . . . ٤ ، فقبله و هو الذي خلق السماوات و الأرض في ستة أيّام . . . ٥ ،

فالمراد : أنّ العرش كان على الماء قبل خلق السماوات ، و يأتي تصريح الخبر بذلك ٦ .

« و لا مسكنا لملائكته » روي عن الرضا عليه السّلام : أنّ الله تعالى خلق العرش و الماء و الملائكة قبل خلق السماوات و الأرض ، و كانت الملائكة تستدلّ بأنفسها و بالعرش و الماء على الله تعالى ، ثمّ جعل عرشه على الماء ليظهر بذلك قدرته للملائكة ، فيعلم أنّه على كلّ شيء قدير ، ثمّ رفع العرش بقدرته ،

(١) فصلت : ١١ .

(٢) شرح ابن ميثم ٣ : ٣٨١ .

(٣) لفظ شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥١٠ كذلك أيضا .

(٤) هود : ٧ .

(٥) هود : ٧ .

(٦) مقصوده الخبر المروي عن الرضا عليه السّلام الذي يأتي في شرح الفقرة الآتية .

الصفحة ٣٥٦

و نقله فجعله فوق السماوات السبع ١ .

و قال شيخنا المفيد : فأما العرش الذي تحمله الملائكة فهو بعض الملك ،

و هو عرش خلقه الله تعالى في السماء السابعة ، و تعبّد الملائكة بحمله و تعظيمه ، كما خلق سبحانه بيّنا في الأرض ، و أمر البشر بقصده و زيارته ،

و الحجّ إليه و تعظيمه ، و قد جاء الحديث : أنّ الله تعالى خلق بيّنا تحت العرش سمّاه البيت المعمور تحجّه الملائكة في كلّ عام ، و خلق في السماء الرابعة بيّنا سمّاه الضّراح ، و تعبّد الملائكة بحجّه و التعظيم له و الطواف حوله ، و خلق البيت الحرام في الأرض فجعله تحت الضّراح ٢ .

و روي عن الصادق عليه السّلام أنّه قال : لو ألقي حجر من العرش لوقع على ظهر البيت المعمور ، و لو ألقي حجر من البيت المعمور لسقط على ظهر البيت الحرام ٣ .

و لم يخلق الله عرشا لنفسه ليستوطنه تعالى الله عن ذلك لكنه خلق عرشا أضافه إلى نفسه تكرامة له و إعظاما ، و تعبد الملائكة بحمله كما خلق بيتا في الأرض ، و لم يخلقه لنفسه و لا ليسكنه ٤ .

« و لا مصعدا للكلم الطيب و العمل الصالح من خلقه » و الأصل في كلامه عليه السلام قوله تعالى : . . . إليه يصعد الكلم الطيب و العمل الصالح يرفعه . . . ٥ و الصعود و الرّفع إلى السماوات : صعود و رفع إلى الله تعالى فلا تنافي .

- (١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٢٠ ح ٢ ، و العيون ١ : ١١٠ ح ٣٣ .
- (٢) لم أجد الخبر بهذا اللفظ ، و لكن ثمة أخبار عديدة بهذا المعنى ، فعن الدر المنثور ٦ : ١١٧ ١١٨ ، و بحار الأنوار ٥٨ : ٥٥ ، الباب (٧) ، و الأقوى أن المفيد أخذ لفظه من مشائخ الحديث لكنه جرّد الخبر عن السند .
- (٣) لم أجد الخبر بهذا اللفظ ، و لكن ثمة أخبار عديدة بهذا المعنى ، فعن الدر المنثور ٦ : ١١٧ ١١٨ ، و بحار الأنوار ٥٨ : ٥٥ ، الباب (٧) ، و الأقوى أن المفيد أخذ لفظه من مشائخ الحديث لكنه جرّد الخبر عن السند .
- (٤) تصحيح الاعتقاد للمفيد : ٢٩ .
- (٥) فاطر : ١٠ .

الصفحة ٣٥٧

« جعل نجومها أعلاما يستدلّ بها الحيران في مختلف فجاج » بالضمّ ، قال الفيروز آبادي : هو الطريق الواسع بين الجبلين ١ .

« الأقطار » قال تعالى : و هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ و البحر . . . ٢ .

و قال الصادق عليه السلام : فكّر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنّة و تحتجب في بعضها ، كمثل الثريا و الجوزاء و الشعريين و سهيل ، فإنّها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس ، و يهتدون بها لبعض أمورهم كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثريا و الجوزاء إذا طلعت ، و احتجابها إذا احتجبت ، فصار ظهور كلّ واحد و احتجابها في وقت غير وقت الآخر ، لينتفع الناس بما يدلّ كلّ منها عليه على حدته ، و ما جعلت الثريا و أشباهها تظهر حيناً و تحتجب حيناً إلا لضرب من المصلحة ، و كذلك جعلت بنات النعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة ، فإنّها

بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البرّ و البحر للطريق المجهولة ، و كذلك إنّها لا تغيب و لا تتوارى فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شأؤوا ، و صار الأمر أنّ جميعا على اختلافهما موجّهين نحو الإرب و المصلحة ، و فيهما مآرب أخرى علامات و دلالات على أوقات كثيرة من الأعمال ، كالزراعة و الغراس و السّفر في البرّ و البحر ، و أشياء ممّا يحدث في الأزمنة من الأمطار و الرياح ، و الحرّ و البرد ، و بها يهتدي السائرون في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة و اللّجج الهائلة ، مع ما في ترّدّها في

(١) القاموس المحيط ١ : ٢٠٢ مادة (فجع) .

(٢) الأنعام : ٩٧ .

الصفحة ٣٥٨

كبد السماء ١ .

« لم يمنع ضوء » مفعول مقدّم .

« نورها » أي : نور النجوم .

« ادلهمام » أي : ظلمة .

« سجع » أي : ستور .

« اللّيل المظلم » قال الصادق عليه السّلام في إدامة قوله : و جعل فيها (أي في النجوم) جزءا يسيرا من الضوء ليسدّ مسدّ الأضواء إذا لم يكن قمر ، و يمكن فيه الحركة إذا حدثت ضرورة ، كما قد يحدث الحادث على المرء ، فيحتاج إلى التجافي في جوف الليل ، فإن لم يكن شيء من الضوء يهتدي به لم يستطع أن يبرح مكانه ، فتأمل اللّطف و الحكمة في هذا التقدير حين جعل للظلمة دولة و مدّة لحاجة إليها ، و جعل خلالها شيء من الضوء للمآرب التي وصفنا ٢ .

« و لا استطاعت جلابيب » أي : ملاحف ، قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلًا :

تمشي النسور إليه و هي لاهية

مشي العذارى عليهنّ الجلابيب

٣ « سواد الحنادس » أي : الظلم الشديدة .

« أن تردّ ما شاع في السماوات من تألؤ نور القمر » فيوجد مع الظلام نور ،

قال الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر في إنارة القمر في ظلمة الليل و الإرب في ذلك ،

فإنّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان ، و برد الهواء على النبات لم يكن صلاح في أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها ، فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنّه ربّما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم في بعض

(١) توحيد المفضل : ١٣٤ .

(٢) توحيد المفضل : ١٣٦ .

(٣) لسان العرب ١ : ٢٧٢ مادة (جلب) .

الصفحة ٣٥٩

الأعمال في النهار ، و لشدة الحرّ و إفراطه ، فيعمل في ضوء القمر أعمالا شتّى ،

كحرث الأرض و ضرب اللبن و قطع الخشب و ما أشبه ذلك ، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معاشهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، و أنسا للسائرين ، و جعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ، و نقص مع ذلك عن نور الشمس و ضيائها ،

لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار ، و يمتنعوا من الهدوء و القرار فيهلكهم ذلك ، و في تصرف القمر خاصّة في مهله و محاقه ، و زيادته و نقصانه ،

و كسوفه من التنبيه على قدرة الله تعالى خالقه ، المصرّف له هذا التصريف لصلاح العالم ما يعتبر به المعترفون ١ .

« فسبحان من لا يخفى عليه سواد غسق » في (الصباح) : الغسق أوّل ظلمة الليل ، و الغاسق الليل إذا غاب الشفق ، و قوله تعالى : و من شرّ غاسق إذا وقب ٢ قال الحسن : الليل إذا دخل ، و يقال : إنه القمر

« داج » قال الأصمعي : دجا الليل إنما هو ألبس كل شيء ، و ليس هو من الظلمة ، و منه قولهم : دجى الاسلام ، أي : قوي ٤ .

قلت : و يمكن أن يكون منه قولهم : و إنه لفي عيش داج . قالوا : أي عيش خفض .

« و لا ليل ساج » أي : سكن و دام من قوله تعالى : و الليل إذا سجي ٥ و منه البحر الساجي . قال الأعشى :

(١) توحيد المفضل : ١٣١ .

(٢) الفلق : ٣ .

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٥٣٧ مادة (غسق) .

(٤) قد مرّ الكلام حول تخريجه في العنوان (٧) من هذا الفصل .

(٥) الضحى : ٢ .

الصفحة ٣٦٠

فما ذنبنا أن جاش بحر ابن عمكم
و بحرك ساج لا يوارى الدعامصا

١ « في بقاع الأرضين المتطأطئات » أي : المنهبطات .

« و لا في يفاع » أي : ارتفاع ، من أيفع الغلام فهو يافع ، على خلاف الأصل .

« السّفع » بالضمّ سواد شرب حمرة ، و منه قيل للأثافي السفع .

« المتجاورات » و المراد بالسّفع المتجاورات هنا الجبال أو الأكم و الأطلال .

« و ما يتجلجل » قال الجوهري : الجلجلة : صوت الرّعد أيضا ، و المجلجل السحاب الذي فيه صوت الرّعد ٢ .

« به الرّعد في أفق السّماء » قيده بالأفق غالبي .

« و ما تلاشت » قال ابن أبي الحديد : أهمل بناء تلاشت كثير من أئمة اللغة و هي صحيحة و قد جاءت و وردت ، قال ابن الاعرابي : لشا الرجل إذا اتضع و خسّ بعد رفعة ٣ ، و إذا صحّ أصلها صحّ استعمال الناس تلاشي الشيء بمعنى اضمحل . و قال القطب الراوندي : تلاشي مركّب من لا شيء ، و لم يقف على أصل الكلمة ٤ .

قلت : لم يتفطن ابن أبي الحديد أنّ (لشا الرجل) الذي ذكره ابن الاعرابي أيضا أصله من لا شيء ، و المراد أنّه كان شيئاً ثم صار لا شيئاً . و مثل تلاشي قولهم : أيش ، و قولهم : بلاش ، فإنّ الأصل في الأوّل أيّ شيء ، و في الثاني بلا شيء ، و كذلك قولهم : لوحش فإنّه مخفف لا أوحش ، و ليس لنا في اللّغة أيش ، و بلاش ، و لحش ، كما ليس لشى ، و نظيرها في الفارسية قولهم :

-
- (١) أورده لسان العرب ١٤ : ٣٧١ مادة (سجي) .
 (٢) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٦٥٩ مادة (جلجل) .
 (٣) نقله عن ابن الاعرابي ابن منظور في لسان العرب ١٥ : ٢٤٦ مادة (لشا) .
 (٤) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥١٢ .
-

الصفحة ٣٦١

(نفرين) في مقابل (آفرين) ، فإنّه مخفّف (نه آفرين) و معنى (آفرين) حييت ،

و معنى (نفرين) : لا حييت .

« عنه بروق الغمام » أي : السحاب .

« و ما تسقط » عطف على سواد . مثل (و ما يتجلجل) و (و ما تلاشت) أي : لا يخفى عليه ما تسقط .

« من ورقة » قال تعالى : . . . و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها و لا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين ١ .

« تزيلها عن مسقطها » أي : مكان سقوطها .

« عواصف » صفة لرياح مقدره ، أي : شدائد ، و الإضافة فيه بمعنى اللام .

« الأنواء » جمع النَّوء بالفتح ، و في (الصحاح) النَّوء : سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر ، و طلوع رقيبته من المشرق يقابله من ساعته في كلِّ ساعة إلى ثلاثة عشر يوماً ، و هكذا كلَّ نجم منها إلى انقضاء السنَّة ما خلا الجبهة فإنَّ لها أربعة عشر يوماً . قال أبو عبيد : و لم نسمع في النَّوء أنه السقوط إلاَّ في هذا الموضع ، و كانت العرب تضيف الأمطار و الرياح و الحرَّ و البرد إلى الساقط منها . و قال الأصمعي : إلى الطالع منها في سلطانه فتقول مطر بالنَّوء كذا ٢ .

« و انهطال السماء » أي : تتابع المطر .

« و يعلم مسقط القطرة » أي : قطرة المطر .

« و مقرَّها » في سيلانها .

« و مسحب الذرَّة » أي : دبيبها ، و الذرَّة أصغر النمل .

(١) الأنعام : ٥٩ .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٧٩ مادة (نوء) .

الصفحة ٣٦٢

« و مجرَّها » أي : مكان تجرَّ قوتها إليه .

« و ما يكفي البعوضة » أي : البق .

« من قوتها » قال تعالى : و ما من دابة في الأرض إلاَّ على الله رزقها و يعلم مستقرَّها و مستودعها كلَّ في كتاب مبين ١ .

« و ما تحمل الأنثى في بطنها » . . . و ما تحمل من أنثى و لا تضع إلاَّ بعلمه و ما يعمر من مُعمرٍ و لا ينقص من عمره إلاَّ في كتاب إنَّ ذلك على الله يسير ٢ ، . . . و يعلم ما في الأرحام . . . ٣ ، الله يعلم ما تحمل كلَّ أنثى و ما تغيض الأرحام و ما تزداد و كلَّ شيء عنده بمقدار ٤ .

« الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسِيَّ » الذي قال فيه : . . . وسع كرسيه السموات و الأرض . . . ٥ .

« أو عرش » الذي قال فيه : . . . و هو ربّ العرش العظيم ٦ .

و في (اعتقادات الصدوق) : اعتقادنا في الكرسي أنّه وعاء جميع الخلق و العرش و السماوات و الأرض ، و كلّ شيء خلق الله في الكرسي في وجه آخر هو العلم .

و قد سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ و جلّ : وسع كرسيه السماوات و الأرض قال : هو علمه . ٧

(١) هود : ٦ .

(٢) فاطر : ١١ .

(٣) لقمان : ٣٤ .

(٤) الرعد : ٨ .

(٥) البقرة : ٢٥٥ .

(٦) التوبة : ١٢٩ .

(٧) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٢٧ ح ١ ، و معاني الأخبار : ٣٠ ح ٢ و الهداية : ٤٦ .

الصفحة ٣٦٣

و فيه : اعتقادنا في العرش أنّه جملة جميع الخلق ، و العرش في وجه آخر هو العلم .

و سئل الصادق عليه السلام عن قول الله عزّ و جلّ الرحمن على العرش استوى ١ فقال : استوى من كلّ شيء ، فليس شيء أقرب إليه من شيء ٢ .

فأمّا العرش الذي هو حمل جميع الخلق فحملته ثمانية من الملائكة ، لكلّ واحد منهم ثماني أعين ، كلّ عين طباق الدنيا ٣ ، واحد منهم على صورة بني آدم فهو يسترزق الله لولد آدم ، و واحد منهم على صورة الثور يسترزق الله تعالى للبهائم كلّها ، و واحد منهم على صورة الأسد يسترزق الله تعالى للسمّاع ،

و واحد منهم على صورة الديك يسترزق الله للطيور ، فهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية . ٤

و أمّا العرش الذي هو العلم فحملته أربعة من الأولين و أربعة من الآخرين ، فأمّا الأربعة من الأولين ، فنوح و ابراهيم و موسى و عيسى عليهم السلام ،

و أما الأربعة من الآخرين فمحمّد و عليّ و الحسن و الحسين صلوات الله عليهم ٥ .

(١) طه : ٥ .

(٢) أخرجه الصدوق بأربع طرق في التوحيد : ٣١٥ ح ١ ، ٢ ، ٤ ، ٧ ، و معاني الأخبار : ٢٩ ح ١ ، و الهداية : ٤٦ و الكليني بثلاث طرق في الكافي ١ : ١٢٧ ١٢٨ ح ٦ ، ٧ ، ٨ ، و علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٥٩ .

(٣) هذا المعنى أخرجه الصدوق في الخصال ٢ : ٤٠٧ ح ٤ عن الصادق عليه السلام .

(٤) هذا المعنى أخرجه الصدوق في الخصال ٢ : ٤٠٧ ح ٥ عن الصادق عليه السلام و علي بن ابراهيم في تفسيره ١ : ٨٥ عن علي عليه السلام ، و روى موقوفا بطرق عديدة عن وهب بن منبه و أبي مالك و مكحول و عروة ، جمعها السيوطي في الدر المنثور ١ : ٣٢٨ و ٣ : ٢٩٨ و ٥ : ٣٤٦ ٣٤٧ و ٦ : ٢٦١ من عدا الصدوق روى بدل الديك (النسر) .

(٥) هذا المعنى رواه البحراني في البرهان ٤ : ٩١ ح ٦ و ٣٧٧ ح ٤ ، و شرف الدين في تأويل الآيات عنه البحار ٥٨ : ٣٥ ح ٥٦ عن الباقر عليه السلام و الكاشاني في الشافي ١ : ٥٧ عن الكاظم عليه السلام و علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٣٨٤ بلا عزو ، و أخرج قريبا منه الكليني في الكافي ١ : ١٣٢ ح ٦ عن الصادق عليه السلام و علي بن ابراهيم في تفسيره ٢ : ٢٥٥ بلا عزو .

الصفحة ٣٦٤

قال الصدوق : هكذا روي بالأسانيد الصحيحة عن الأئمة في العرش و حملته ١ .

« أو سماء » قل من ربّ السماوات السبع . . . ٢ .

« أو أرض » و هو الذي في السماء إله و في الأرض إله . . . ٣ .

« أو جانّ أو إنس » خلق الإنسان من صلصال كالفخار . و خلق الجانّ من نار ٤ و معلوم تقدّم الخالق على المخلوق ، و الرّبّ على المرئوب ، و المالك على المملوك .

« لا يدرك بوهم » لعجز الوهم عن إدراكه .

« و لا يقدر بفهم » لأجلّيته تعالى عن ذلك . سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون ٥ .

« و لا يشغله سائل » عن سائل آخر كباقي المسؤولين .

« و لا ينقصه نائل » أي : عطاء كباقي المعطين .

« و لا ينظر بعين » كذوي الأرواح .

« و لا يحدّ بأين » كالجسمانيّات ، فلا تطلق لفظة (أين) عليه تعالى ، قال ابن أبي الحديد بعد قوله عليه السلام « و لا يحدّ بأين » : و لفظة (أين) في الأصل مبنية على الفتح ، فإذا نكرتها صارت اسما متمكنا ، كما قال الشاعر :

ليت شعري و أين مني ليت

إنّ ليئا و إنّ لوّا عناء

٦

(١) الاعتقادات للصدوق : ١٠ ١١ .

(٢) المؤمنون : ٨٦ .

(٣) الزخرف : ٨٤ .

(٤) الرحمن : ١٤ ١٥ .

(٥) الصافات : ١٨٠ .

(٦) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥١٣ .

الصفحة ٣٦٥

قلت : في ما قال أولًا : إنّ (أين) في قوله عليه السلام : « و لا يحدّ بأين » أريد به لفظه ،

فهو اسم متمكّن لا أنّه نكر ، و إنّما يقال في مثل (صه) أنّه قد ينكر فيدخله تنوين التّكثير لا هنا ، و ثانيا : إنّ البيت الذي استشهد به ، (أين) فيه على أصله مبنية على الفتح ، و إنّما (ليت) و (لو) أريد بهما فيه اللفظ فصارا اسمين و أعربا ، لا (أين) كما هو مدّعا .

« و لا يوصف بالأزواج » و قال الله : . . . لا تتخذوا الهين اثنين إنّما هو إله واحد فإياي فارهبون ١ .

« و لا يخلق بعلاج » كالبشر إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ٢ .

« و لا يدرك بالحواس » . . . قال ربّ أرني أنظر إليك قال لن تراني . . . ٣ .

« و لا يقاس بالنّاس » . . . ليس كمثل شيء و هو السميع البصير ٤ .

« الذي كَلَّمَ موسى تكليماً ، و أراه من آياته عظيماً » من جعل عصاه حيّة تسعى ، و جعل يده بيضاء من غير سوء و غيرهما .

قال تعالى : و هل أتاك حديث موسى . إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنّي آنست ناراً لعلّي آتيتكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودي يا موسى . إنّي أنا ربّك فالخلع نعليك إنّك بالواد المقدّس طوى . و أنا اخترتك فاستمع لما يوحى . . . و ما تلك ببيمينك يا موسى . قال هي عصاي أتوكأ عليها و أهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى . قال ألقها يا موسى . فألقاها فإذا هي حيّة تسعى . قال خذها و لا تخف سنعيدها سيرتها الأولى . و اضمم

(١) النحل : ٥١ .

(٢) يس : ٨٢ .

(٣) الأعراف : ١٤٣ .

(٤) الشورى : ١١ .

الصفحة ٣٦٦

يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . لنريك من آياتنا الكبرى ١ .

« بلا جوارح » أي : بلا أعضاء يفعل شيئاً بها .

« و لا أدوات » أي : أسباب و آلات ، فإنّ النّاس قد يفعلون أفعالاً بأيديهم و جوارحهم بلا توسّط أسباب و آلات ، و قد يفعلون بتوسّطها ، و هو تعالى منزّه عن جميع ذلك .

« و لا نطق و لا لهوات » لهوات جمع لهاة : الهنة المطبقة في أقصى سقف الفم ، و قوله عليه السّلام : « بلا جوارح و لا أدوات » متعلّق بقوله : « و أراه من آياته عظيماً » ، و قوله : « و لا نطق و لا لهوات

« متعلق بقوله : « الذي كلم موسى تكليما » على خلاف اللف ، و كان تكليمه تعالى مع موسى بلا نطق و لا لهوات ، و إنما أوجد الصوت في الجهات الست ، فكان يسمعه من كل جهة .

« بل إن كنت صادقاً أيها المتكلم لوصف ربك فصف جبرائيل و ميكائيل ،

و جنود الملائكة المقربين » يشرح ماهيتهم و تركيبهم و قواهم ، و سيأتي كلامه عليه السلام في العجز عن وصف عزرائيل في كيفية قبضه للأرواح ٢ ، فإذا لم يستطع وصف خلقه فعدم إمكان وصفه تعالى أولى .

و في خبر قدوم الجاثليق مع مائة من النصارى بعد وفاة النبي صلى الله عليه و آله و سلم و إرشاده إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال الجاثليق له عليه السلام : أخبرني عن وجه الربّ تعالى ؟

فدعا عليّ عليه السلام بنار و حطب فأضرمه ، فلما اشتعلت ، قال علي عليه السلام : أين وجه هذه النار ؟ قال النصراني : هي وجه من جميع حدودها . قال علي عليه السلام : هذه

(١) طه : ٢٣٩ .

(٢) يأتي في العنوان (٣٠) من هذا الفصل .

الصفحة ٣٦٧

النار مدبرة مصنوعة لا يعرف وجهها ، و خالقها لا يشبهها و لله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله . . . ١ .

« في حجرات القدس مرجحين » كمقشعرين ، أي : خاضعين ، و في المثل :

« إذا ارجحنّ شاصيا فارفع يدا » ٢ ، يعني : إذا خضع لك فاكفف عنه .

« متولّهة » أي : متحيرة .

« عقولهم إن يحدّوا أحسن الخالقين » لعدم إمكان ذلك لهم .

« فإنما يدرك بالصفات ذو الهيئات و الأدوات » و هو تعالى منزّه عن أن يكون له هيئة أو أداة .

« و من » بمعنى : الذي ، عطف على (ذو) .

« ينقضي إذا بلغ أمد حدّه » أي : غاية أجله .

« بالفناء » متعلّق بقوله : « ينقضي » ، و هو تعالى باق أبد الآباد ، فكيف يمكن إدراكه بالصفات ؟ « فلا إله إلا هو » بلا شريك .

« أضاء بنوره » أي : بنهاره .

« كلّ ظلام » من البرّ و البحر و المنكشف و المسقف ، و الأرض و السماء .

« و أظلم بظلمته » أي : بليله .

« كلّ نور » من كوكب و قمر و سراج و نار لعدم إغنائها إغناء كاملا ، قال تعالى : و اللّيل إذا يغشى . و النّهار إذا تجلّى ٣ أي يغشى اللّيل كلّ شيء ،

و يتجلّى بالنّهار كلّ شيء ، و لا يقدر أحد أن يظلم نوره أو يضيء ظلامه . و فسّر

-
- (١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٨٢ ح ١٦ ضمن حديث ، و الآية (١١٥) من سورة البقرة .
 (٢) أورده الزمخشري في المستقصى ١ : ١٢٢ ، و قال : يضرب في العفو عن العدو عند ذلّه و استكانته .
 (٣) اللّيل : ٢١ .

الصفحة ٣٦٨

الشراح قوله عليه السّلام : « بنوره » و « بظلمته » بمعان مختلفة ، و الأظهر ما عرفت .

من الخطبة (١١٠) و من خطبة له عليه السّلام ذكر فيها ملك الموت :

هَلْ تَحْسُ بِهِ إِذَا دَخَلَ مَنْزِلًا أَمْ هَلْ تَرَاهُ إِذَا تَوَفَّى أَحَدًا بَلْ كَيْفَ يَتَوَفَّى الْجَنِينَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَيْلِجُ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ جَوَارِحِهَا أَمْ الرُّوحُ أَجَابَتْهُ بِإِذْنِ رَبِّهَا أَمْ هُوَ سَاكِنٌ مَعَهُ فِي أَحْسَائِهَا كَيْفَ يَصِفُ إِلَهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ « هل تحسّ » بالفتح .

« به إذا دخل منزلا » قال الصادق عليه السلام : ما من أهل بيت شعر و لا وبر إلا و ملك الموت يتصفّحهم في كل يوم خمس مرّات ١ .

« أم هل تراه إذا توفّى » بلفظ المعلوم .

« أحدا » قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكلّ بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون ٢ ، فلو لا إذا بلغت الحلقوم . و أنتم حينئذ تنظرون . و نحن أقرب إليه منكم و لكن لا تبصرون ٣ .

« بل كيف يتوفّى الجنين . . . في أحسائها » روى الصدوق عن الصادق عليه السلام :

أنّه قيل لملك الموت : كيف تقبض الأرواح و بعضها في المغرب و بعضها في المشرق في ساعة واحدة ؟ فقال : أدعوها فتجيبني . قال : فقال ملك الموت عليه السلام :

إنّ الدنيا بين يديّ كالقصة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء ، و الدنيا

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٢٥٦ ح ٢٢ .

(٢) السجدة : ١١ .

(٣) الواقعة : ٨٣ ٨٥ .

الصفحة ٣٦٩

عندي كالدرهم في كفّ أحدكم يقلّبه كيف يشاء ١ .

« كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله » هو نظير قوله عليه السلام في سابقه : « بل إن كنت صادقاً أيّها المتكلّف لو صف ربك فصف جبرائيل و ميكايل . . . » ، بل الإنسان عاجز عن وصف نفسه و روحه و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي . . . ٢ . فكيف لا يعجز عن وصف ربّ لو كان البحر مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته و لو جيء بمثله مددا ؟

من الخطبة (١٦٥) أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ وَ الْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْحَامِ وَ مُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ .
 بُدِئْتَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ٥ ٢٣ : ١٢ وَ وُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ٢ ٧٧ : ٢٢ ٢١ وَ
 أَجَلَ مَقْسُومٍ تَمُورٍ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِينًا لَا تَحِيرُ دُعَاءً وَ لَا تَسْمَعُ نِدَاءً ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ
 تَشْهَدْهَا وَ لَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا فَمَنْ هَذَاكَ لِاجْتِرَارِ الْغِذَاءِ مِنْ تَدْيِ أُمِّكَ وَ عَرَفَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ مَوَاضِعَ
 طَلِبَتِكَ وَ إِرَادَتِكَ هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي الْهَيْئَةِ وَ الْأَدَوَاتِ فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجِزٌ وَ مَنْ
 تَتَاوَلَهُ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ « أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ » وَ الْمَرَادُ نَوْعَ الْإِنْسَانِ .

« السَّوِيُّ » أَي : الْمُسْتَقِيمُ مِنْ بَيْنِ نَوْيِ الْأَرْوَاحِ ، قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمُفَضَّلِ : انظُرْ إِلَى مَا خَصَّ
 بِهِ الْإِنْسَانَ فِي خَلْقِهِ تَشْرِيفًا وَ تَفْضِيلًا عَلَى الْبِهَائِمِ ،

فَإِنَّهُ خَلِقَ يَنْتَصِبُ قَائِمًا وَ يَسْتَوِي جَالِسًا لِيَسْتَقْبَلَ الْأَشْيَاءَ بِيَدَيْهِ وَ جَوَارِحَهُ ،

(١) أَخْرَجَهُ الصَّدُوقُ فِي الْفَقِيهِ ١ : ٨٠ ح ١٢ .

(٢) الْإِسْرَاءُ : ٨٥ .

الصفحة ٣٧٠

وَ يُمْكِنُهُ الْعِلَاجُ وَ الْعَمَلُ بِهِمَا ، فَلَوْ كَانَ مَكْبُوبًا عَلَى وَجْهِهِ كَذَوَاتِ الْأَرْبَعِ لَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَعْمَلَ شَيْئًا مِنْ
 الْأَعْمَالِ ١ .

« وَ الْمُنْشَأُ » وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ . . . ٢ ، . . . هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .
 . . . ٣ .

« الْمَرْعِيُّ » مَنْ قَبِلَ رَبَّهُ فِي نَشْوئِهِ .

« فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْحَامِ » . . . يَخْلُقُكُمْ فِي بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلْمَاتِ ثَلَاثٍ . . . ٤ .

« وَ مُضَاعَفَاتِ الْأَسْتَارِ » سِتْرُ الْبَطْنِ ، وَ سِتْرُ الرَّحْمِ ، وَ سِتْرُ الْمَشِيمَةِ ، قَالَ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْمُفَضَّلِ
 : تَصَوَّرَ الْجَنِينَ فِي الرَّحْمِ حَيْثُ لَا تَرَاهُ عَيْنٌ وَ لَا تَنَالُهُ يَدٌ ،

تدبره حتى يخرج سوياً مستوفياً جميع ما فيه قوامه و صلاحه من الأحشاء و الجوارح ، و العوامل إلى ما في تركيب أعضائه من العظام و اللحم و الشحم و المخّ و العصب و العروق و الغضاريف ، فإذا أخرج إلى العالم تراه كيف ينمو بجميع أعضائه ، و هو ثابت على شكل و هيئة لا تتزايد و لا تنقص إلى أن يبلغ أشده ، إن مدّ في عمره ، أو يستوفى مدّته قبل ذلك ، هل هذا إلا من لطيف التدبير و الحكمة ٥ .

« بدئت من سلالة من طين ، و وضعت في قرار مكين » الأصل فيه قوله تعالى :

و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ٦ .

(١) توحيد المفضل : ٥٨ .

(٢) الأنعام : ٩٨ .

(٣) هود : ٦١ .

(٤) الزمر : ٦ .

(٥) توحيد المفضل : ٥٧ .

(٦) المؤمنون : ١٢ ١٣ .

الصفحة ٣٧١

و سلالة من قولهم سللت الشيء من الشيء إذا استخراجته منه ، و هو خلاصته ،

و من طين متعلق بقوله سلالة .

« إلى قدر معلوم و أجل مقسوم » من سنة أشهر إلى تسعة أشهر ، أيام الحمل و مدّة تحولات النطفة إلى نفخ الروح فيه ، كما قال عزّ و جلّ : ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثمّ أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ١ .

« تمور » أي : تتحرك ، قال الأعشى :

كأنّ مشيتها من بيت جاريتها

مور السحابة لا ريث و لا عجل

٢ « في بطن أمك جنينا » . . . و إذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم . . . ٣ .

« لا تحير » أي : لا تجيب ، و منه المحاوره .

« دعاء » إذا دعاك أحد .

« و لا تسمع نداء » إذا نوديت ، قال الصادق عليه السلام في ذكر خلق الإنسان :

فأول ذلك ما يدبر به الجنين في الرحم ، و هو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، و ظلمة الرحم ، و ظلمة المشيمة ، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ، و لا دفع أذى ، و لا استجلاب منفعة ، و لا دفع مضرة ، فإنه يجري إليه من دم الحيض ما يغذوه الماء و النبات ، فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه ، و استحكم بدنه ، و قوي أديمه على مباشرة الهواء ، و بصره على ملاقاته الضياء ، هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد إزعاج ، و أعنفه حتى يولد ، فإذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذوه من دم أمه إلى ثديها ، و انقلب الطعم و اللون إلى ضرب آخر من

(١) المؤمنون : ١٤ .

(٢) أورده لسان العرب ٥ : ١٨٦ مادة (مور) .

(٣) النجم : ٣٢ .

الصفحة ٣٧٢

الغذاء ، و هو أشد موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه ، فحين يولد قد تلمظ و حرك شفثيه طلبا للرضاع ، فهو يجد ثدي أمه كالإداوتين المعلقتين لحاجته ، فلا يزال يغتذي باللبن ما دام رطب البدن ، رقيق الأمعاء ، لين الأعضاء حتى إذا تحرك و احتاج إلى غذاء فيه صلابة ليشتد و يقوى بدنه ،

طلعت له الطواحن من الأسنان و الأضراس ليمضغ بها الطعام فيلين عليه ،

و يسهل له إساغته ، فلا يزال كذلك حتى يدرك فإذا أدرك و كان نكرا طلع الشعر في وجهه فكان ذلك علامة الذكر ، و عزّ الرجل الذي يخرج به من حدّ الصبا و شبه النساء ، و إن كانت أنثى يبقى وجهها نقيا من الشعر لتبقى لها البهجة و النضارة التي تحرك الرجال لما فيه دوام النسل و بقاؤه .

اعتبر يا مفضل في ما يدبر به الإنسان في هذه الأحوال المختلفة ، هل ترى مثله يمكن أن يكون بالإهمال ؟
أفرايت لو لم يجر إليه ذلك الدّم و هو في الرّحم ، ألم يكن سيذوي و يجفّ كما يجفّ النّبات إذا فقد الماء ،
و لو لم يزعجه المخاض عند استحكامه ، ألم يكن سيبقى في الرّحم كالموودة في الأرض ،

و لو لم يوافقه اللبن مع ولادته ، ألم يكن سيموت جوعا أو يغتذي بغذاء لا يلائمه و لا يصلح عليه بدنه ، و
لو لم تطلع له الأسنان في وقتها ، ألم يكن سيمتنع عليه مضغ الطعام و إساغته أو يقيمه على الرضّاع ، فلا
يشتدّ بدنه و لا يصلح لعمل ، ثمّ كان يشغل أمّه بنفسه عن تربية غيره من الأولاد ، و لو لم يخرج الشعر
في وجهه في وقته ، ألم يكن سيبقى في هيئة الصبيان و النساء ، فلا ترى له جلاله و لا وقارا ؟ ١ « ثمّ
أخرجت من مقرّك » من الرّحم .

« إلى دار لم تشهدها » و هي هذا العالم .

(١) توحيد المفضل : ٤٨ .

الصفحة ٣٧٣

« و لم تعرف سبل منافعها » و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا . . . ١ .

قال الصادق عليه السّلام : و لو كان المولود يولد فهما عاقلا لأنكر العالم عند ولادته ، و لبقّي حيرانا تائه
العقل إذا رأى ما لم يعرف ، و ورد عليه ما لم ير مثله من اختلاف صور العالم من البهائم و الطير ، إلى
غير ذلك ممّا يشاهده ساعة بعد ساعة ، و يوما بعد يوم .

و اعتبر ذلك بأنّ من سبي من بلد إلى بلد ، و هو عاقل يكون كالواله الحيران ، فلا يسرع في تعلّم الكلام ،
و قبول الأدب كما يسرع الذي يسبى صغيرا غير عاقل . ثمّ لو ولد عاقلا كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه
محمولا مرضعا معصبا بالخرق مسجّى في المهد ، لأنّه لا يستغني عن هذا كلّ لرقّة بدنه ، و رطوبته حين
يولد . ثمّ كان لا يوجد له من الحلاوة و الوقع من القلوب ما يوجد للطفل ، فصار يخرج إلى الدنيا غيبا
غافلا عمّا فيه أهله ، فيلقى الأشياء بذهن ضعيف و معرفة ناقصة ، ثمّ لا يزال يتزايد في المعرفة قليلا قليلا
و شيئا بعد شيء و حالا بعد حال ، حتّى يألف الأشياء و يتمرّن و يستمرّ عليها ، فيخرج من حدّ التأمّل لها
و الحيرة فيها إلى التصرّف و الاضطراب ، إلى المعاش بعقله و حيلته ، و إلى الاعتبار و الطاعة و السّهو
و الغفلة و المعصية ٢ .

« فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك و عرفك عند الحاجة موضع طلبتك و إرادتك » و لو لا هدايته تعالى و عرفانه لو كان عقلاء العالم مجمعين على أن يهدوه لعجزوا .

هذا ، و في (حيوان الجاحظ) : أن طاعونا جارفا جاء في البصرة على أهل

(١) النحل : ٧٨ .

(٢) توحيد المفضل : ٥١ .

الصفحة ٣٧٤

دار فلم يشك أهل تلك المحلة أنه لم يبق فيها صغير و لا كبير ، و قد كان فيها صبي يرتضع و يحبو ، و لا يقوم على رجله ، فعمد من بقي من المطعونين من أهل تلك المحلة إلى باب تلك الدار ، فسدوه فلما كان بعد ذلك بأشهر تحول فيها بعض ورثة القوم ، ففتح الباب فلما أفضى إلى عرصة الدار إذا هو بصبي يلعب مع جراء كلبة قد كانت لأهل الدار فراعته ذلك ، فلم يلبث أن أقبلت كلبة فلما رآها الصبي حبا إليها ، فأمكنته من أطبائها ، فمصها فظنوا أن الصبي لما بقي في الدار و صار منسياً و اشتد جوعه و رأى جراء الكلبة تستقي من أطبائها ، حبا إليها ، فعطفت عليه ، فلما سقته مرة أدامت ذلك له ، و أدام هو الطلب ، و الذي ألهم هذا المولود مص إبهامه ساعة يولد ، و لم يعرف كيف الارتضاع ، هو الذي هداه إلى الارتضاع من أطباء الكلبة ١ .

٣٢

من الخطبة (١٥٨) و من خطبة له عليه السلام :

أمره قضاءً و حكمةً و رضاه أمانٌ و رحمةً يقضي بعلمٍ و يعفو بحلمٍ اللهم لك الحمد على ما تأخذ و تعطي و على ما تعافي و تبلي حمداً يكون أرضى الحمد لك و أحب الحمد إليك و أفضل الحمد عندك حمداً يملأ ما خلقت و يبلغ ما أردت حمداً لا يحجب عنك و لا يقصر دونك حمداً لا ينقطع عدده و لا يفنى مدده فلسنا نعلم كنه عظمتك إلا أننا نعلم أنك حي قيوم لا تأخذك سنة و لا نوم لم ينته إليك نظرٌ و لم يدركك بصرٌ أدركت الأبصار و أحصيت الأعمال و أخذت بالنواصي و الأقدام و ما الذي نرى من خلقك و نعجب له من

(١) الحيوان للجاحظ ٢ : ١٥٥ و النقل بتصرف في اللفظ ، و لم يتعرض الشارح لشرح قوله : « هيهات

إن من يعجز . . . » .

الصفحة ٣٧٥

قُدْرَتِكَ وَ نَصْفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ وَ مَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ وَ قَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ وَ انْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ وَ حَالَتْ سُتُورُ الْغَيْبِ بَيْنَنَا وَ بَيْنَهُ أَعْظَمُ « أمره قضاء » لا مردّ له إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ١ .

« و حكمة » و لو لم يهتد إليها الأفهام ، فقالت الملائكة في خلق آدم :

أ تجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء و نحن نسيح بحمدك و نقس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ٢ ، و كم من أمر خفيت حكمته أولاً و ظهرت أخيراً ،

فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات و الأرض و أعلم ما تبون و ما كنتم تكتمون ٣ .

« و رضاه » تعالى عن العبد .

« أمان » من عذابه .

« و رحمة » منه تعالى .

« يقضي » بين عباده .

« بعلم » فيقضي حقاً .

« و يعفو » عمّن يستحق العقوبة .

« بحلم » و لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة . . . ٤ .

« اللهم لك الحمد على ما تأخذ و تعطي » لأنّ كلاّ منهما على حسب المصلحة ، و في الخبر : قال موسى عليه السلام : يا ربّ رضيت بما قضيت ، تميت

(٢) البقرة : ٣٠ .

(٣) البقرة : ٣٣ .

(٤) النحل : ٦١ .

الصفحة ٣٧٦

الكبير ، و تبقي الصغير . فقال تعالى : يا موسى أما ترضاني لهم رازقا و كفيلا ؟

قال : بلى يا ربّ ، فنعم الوكيل أنت و نعم الكفيل ١ .

« و على ما تعافي و تبثلي » لأنّ ابتلاءه من الحكمة ، و في الخبر : أوحى تعالى إلى موسى عليه السلام ما خلقت خلقا أحبّ إليّ من عبدي المؤمن ، فإنّي إنّما ابتليته لما هو خير له ، و أعافيه لما هو خير له ، و أزوي عنه ما هو شرّ له لما هو خير له ، و أنا أعلم بما يصلح عليه عبدي ، فليصبر على بلائي ، و ليشكر نعمائي ،

و ليرض بقضائي ، أكتبه في الصّدّيقين عندي ٢ .

و إذا كان أمره تعالى عن حكمة و قضاء بعلم و عفوه عن حلم يجب حمده تعالى على كلّ فعل منه تعالى ، كما قال عليه السلام ، و لكن كثيرا من العامّة قالوا :

إنّ له تعالى أن يفعل كلّ ما شاء ، لا من حيث الحكمة ، بل من حيث قدرته كالسبع القوي .

قال الغزالي : إنّ السبع يخاف لا لجناية سبقت إليه ، بل لصفته و بطشه و هيئته ، و لأنّه يفعل ما يفعل و لا يبالي ، فإن قتلك لم يرق قلبه ، و إن خلّك لم يخلّك شفقة عليك ، و إبقاء على روحك ، بل أنت أحسنّ عنده من أن يلتفت إليك ،

بل إهلاك ألف مثلك ، و إهلاك نملة عنده على و تيرة واحدة ، و إذ لا يقدر ذلك في عالم سبعيته ، و ما هو موصوف به من قدرته و سطوته . . . و لله المثل الأعلى . . . ٣ و لكن من عرفه عرفه بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى و أوثق من المشاهدة الظاهرة ، إنّه صادق في قوله : « هؤلاء إلى الجنّة و لا أبالي ،

و هؤلاء إلى النّار و لا أبالي . . . ٤ و ما أجهل قوما يصفون إلههم هكذا ، تعالى عمّا يقولون علوا كبيرا .

- (١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٧٤ ح ١٨ .
 (٢) أخرجه الكليني في الكافي : ٢ : ٦١ ح ٧ ، و أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ٢٤٣ .
 (٣) النحل : ٦٠ .
 (٤) قاله الغزالي في إحياء العلوم ٤ : ١٣٩ ، و النقل بتصريف يسير .

الصفحة ٣٧٧

« حمدا يكون أرضى الحمد لك . . . حمدا لا ينقطع عدده ، و لا يفنى مدده » و في (دعاء تحميد الصحيفة) : حمدا نعمرّ به في من حمده من خلقه ، و نسبق به من سبق إلى رضاه و عفوّه ، حمدا يضيء لنا به ظلمات البرزخ ، و يسهل علينا به سبيل المبعث ، و يشرفّ به منازلنا عند مواقف الأشهاد يوم تجزى كلّ نفس بما كسبت و هم لا يظلمون ١ ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا و لا هم ينصرون ٢ حمدا يرتفع منا إلى أعلى عليين في كتاب مرقوم . يشهده المقرّبون ٣ حمدا تقرّ به عيوننا إذا برقت الأبصار ، و تبيضّ به وجوهنا إذا اسودّت الأبخار ، حمدا نعتق به من أليم نار الله إلى كريم جوار الله ، حمدا نزاحم به ملائكته المقرّبين ، و نضامّ به أنبياءه المرسلين ، في دار المقامة التي لا تزول ، و محلّ كرامته التي لا تحول ٤ .

أيضا : و الحمد لله بكلّ ما حمده به أدنى ملائكته إليه ، و أكرم خليقته عليه ، و أرضى حامديه لديه ، حمدا يفضل سائر الحمد ، كفضل ربّنا على جميع خلقه . ثمّ له الحمد مكان كلّ نعمة له علينا ، و على جميع عباده الماضين و الباقيين ٥ .

« فلنسا نعلم كنه عظمتك » قال السجاد عليه السلام : لو اجتمع أهل السماء و الأرض على أن يصفوا الله بعظمته ما قدروا ٦ .

« إلاّ أنا نعلم أنّك حيّ قيّوم لا تأخذك سنة و لا نوم » كما وصف نفسه

- (١) الجاثية : ٢٢ .
 (٢) الدخان : ٤١ .
 (٣) المطففين : ٢٠ ٢١ .
 (٤) الصحيفة السجادية الكاملة : ٢٥ الدعاء (١) .
 (٥) الصحيفة السجادية الكاملة : ٢٨ الدعاء (١) .
 (٦) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ١٠٢ ح ٤ و النقل بتصريف يسير .

الصفحة ٣٧٨

عزّ و جلّ في قوله : الله لا إله إلا هو الحيّ القيوم لا تأخذه سنة و لا نوم . . . ١ .

و سئل الرضا عليه السّلام عن أدنى المعرفة فقال : الإقرار بأنّه لا إله غيره ، و لا شبه له و لا نظير ، و أنّه قديم مثبت ، موجود غير فقيد ، و أنّه ليس كمثله شيء ٢ .

« لم ينته إليك نظر » من نبيّ أو ملك .

« و لم يدركك بصر » من جنّ أو إنس ، و النظر أعمّ من أن يكون بالبصر .

« أدركت الأبصار » لا تدركه الأبصار و هو يدرك الأبصار و هو اللطيف الخبير ٣ .

« و أحصيت الأعمار » هكذا في (المصرية) ، و (الأعمال) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم) ٤ .

قال تعالى حكاية عن العباد يوم التّناد : . . . و يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلاّ أحصاها و وجدوا ما عملوا حاضرا . . . ٥ .

« و أخذت بالنواصي و الأقدام » قال تعالى : . . . ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم ٦ .

و احتمل الخوئي ٧ أن يكون كلامه عليه السّلام إشارة إلى قوله عزّ و جلّ :

يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي و الأقدام ٨ . و هو كما ترى .

(١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٨٦ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ٢٨٣ ح ١ ، و العيون ١ : ١٠٩ ح ٢٩ .

(٣) الأنعام : ١٠٣ .

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٤٧ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٢٧٧ « الأعمار » أيضا .

(٥) الكهف : ٤٩ .

(٦) هود : ٥٦ .

(٧) شرح الخوئي ٤ : ٢٣٨ .

(٨) الرحمن : ٤١ .

الصفحة ٣٧٩

« وما الذي نرى من خلقك . . . و حالت ستور » هكذا في (المصرية) ، و الصواب :

(سواتر) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ١ .

« الغيب بيننا و بينه أعظم » و في الخبر : أن في السموات السبع لبحارا عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام فيها ملائكة قيام منذ خلقهم الله تعالى ،

و الماء إلى ركبهم ٢ .

٣٣

من الكتاب (٣١) وَ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ وَ لَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَ سُلْطَانِهِ وَ لَعَرَفْتَ أَعْمَالَهُ وَ صِفَاتِهِ وَ لَكُنَّ إِلَهُ وَ أَحَدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ وَ لَا يَزُولُ أَبَدًا وَ لَمْ يَزَلْ أَوَّلُ قَبْلِ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوْلِيَّةٍ وَ آخِرُ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَائَةٍ عَظُمَ عَنْ أَنْ تَتَّبِعَ رُبُوبِيَّتَهُ بِإِحَاطَةٍ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صَغَرِ خَطَرِهِ وَ قَلَّةِ مَقْدَرَتِهِ وَ كَثْرَةِ عَجْزِهِ وَ عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ وَ الْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ وَ الشَّفَقَةِ مِنْ سَخَطِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنِ وَ لَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَ اعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ . . . وَ لَعَرَفْتَ أَعْمَالَهُ وَ صِفَاتَهُ » برهان عقلي على وحدة الصانع فكل رسول جاء من رب واحد ، فلو كان رب آخر موجودا لأرسل أيضا رسلا ، و كل ما عرفنا من آثار الملك و السلطان لم نعرفها من غير إله واحد ، فلو كان إله آخر لخلق سموات آخر ، و أرضا أخرى ،

كما نرى لغير ملكنا ملوكا آخرين لهم ممالك ، و كل ما عرفنا من أفعال الإله

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٤٧ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٢٧٧ « ستور » أيضا .

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٢٨١ ح ٩ .

الصفحة ٣٨٠

و صفاته لم نعرفهما من غير خالق واحد ، فلو كان خالق آخر لعرفنا صفاته بأن صفاتي هكذا غير صفات ذاك الخالق ، مثلا عرف عبد الملك أخلاقه بأنه ليس كعثمان ، و لا كعواوية ، و لا كيزيد ، الثلاثة قبله من عشيرته .

و الاستدلال بالبرهان العقلي على توحيدة تعالى في القرآن أيضا كثير ،

كقوله تعالى : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا . سبحانه و تعالى عما يقولون علوا كبيرا ١ ، و كقوله تعالى : أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ٢ ، و كقوله تعالى : ما اتخذ الله من ولد و ما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق و لعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ٣ ، و كقوله تعالى : قل رأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا ٤ ، و كقوله تعالى : أمن خلق السماوات و الأرض و أنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تثبتوا شجرها إله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا و جعل خلالها أنهارا و جعل لها رواسي و جعل بين البحرين حاجزا إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . أمن يجيب المضطر إذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلا ما تذكرون . أمن يهديكم في ظلمات البر و البحر و من يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته إله مع الله تعالى الله عما يشركون . أمن يبدأ الخلق ثم يعيده

(١) الإسراء : ٤٢ ٤٣ .

(٢) الأنبياء : ٢١ ٢٢ .

(٣) المؤمنون : ٩١ .

(٤) فاطر : ٤٠ .

الصفحة ٣٨١

و من يرزقكم من السماء و الأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ١ .

« و لكنّه إله واحد » بعد ثبوت عدم شريك له .

« كما وصف نفسه » في قوله : قل هو الله أحد ٢ ، وقد عرفت البرهان على عدم إمكان تعدده .

و لما قال الحباب بن المنذر يوم السقيفة لقريش ، إن أبيتم فمنا أمير و منكم أمير . قال عمر : هيهات لا يجتمع سيفان في غمد واحد ٣ .

و كان ابن عباس في وقعة الحرّة في الطائف فسأل عن أمير أهل المدينة ، فقيل له : عبد الله بن مطيع على قريش ، و عبد الله بن حنظلة على الأنصار . فقال : أميران هلك القوم ٤ .

و لما خرج عبد الملك لقتال مصعب أغلق عمرو بن سعيد الأشدق باب دمشق فرجع عبد الملك ، و صالحه على كون عمرو خليفته ، و أنّ له مع كلّ عامل عاملا ، و أن يكون بيده بيت المال ، ثمّ بعث إليه يوما أحبّ أن أخلو بك لأشاورك في أمور ، فلما وقع عنده أمر بأخذه فأخذ و أمر أخاه أن يقتله ، و خرج للصلاة فرجع و رأى أنه لم يقتله ، فشتمه و أخذ الحربة بيده ، و قال له : لو علمت أنّك تبقى و يصلح لي ملكي لفديتك بدم الناظر ، و لكن قلما اجتمع فحلان في نود إلاّ عدا أحدهما على الآخر ، و رفع الحربة فقتله ٥ .

(١) النمل : ٦٠ ٦٤ .

(٢) الاخلاص : ١ .

(٣) رواه الطبري في تاريخه ٢ : ٤٥٧ سنة (١١) ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ١ : ٧ ، و الجوهري في السقيفة : ٦٢ .

(٤) نقله ابن عبد ربه في العقد الفريد ٥ : ١٢٩ .

(٥) نقل القصة الطبري في التاريخ ٤ : ٥٩٩ سنة (٦٩) ، و المسعودي في مروج الذهب ٣ : ١٠٤ ، و ابن قتيبة في الإمامة و السياسة ٢ : ٢٦ بفرق يسير .

الصفحة ٣٨٢

و قال المنصور لقتيبة بن مسلم : ما تقول في قتل أبي مسلم ؟ قال : لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا . . . قال : حسبك يا أبا أمية ١ .

« لا يضاذه في ملكه أحد » كما يضاذ ملوك الدنيا كثيرا كثيرا .

« و لا يزول أبدا و لم يزل » أي : أنه أبدي سرمدي .

« أول قبل الأشياء بلا أولية ، و آخر بعد الأشياء بلا نهاية » هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكل شيء عليم ٢ .

« عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر » قال الجواد عليه السلام : أوهام القلوب أدق من أبصار العيون ، أنت قد تدرك بوهمك السند و الهند ، و البلدان التي لم تدخلها ، و لم تدركها ببصرك ، و أوهام القلوب لا تدركه ، فكيف أبصار العيون ٣ .

« فإذا عرفت ذلك » أنه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد ، و أنه لا يزول و لم يزل ، و أنه أول قبل الأشياء بلا أولية له ، و آخر بعدها بلا نهاية له ، و ربوبيته أجل من أن يحيط به بصر أو قلب .

« فافعل كما ينبغي لمثلك » مسكين تقتله الشرقة ، و تؤلمه البقرة ، و تنتنه العرقة ، مكتوم الأجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل .

« أن يفعله في صغر خطره » أي : خسة قيمته .

« و قلة مقدرته » فلم يقدر على عمل أمر صغير إذا لم يكن مقدرًا .

« و كثرة عجزه » في أموره ، و لو كان ملكا .

(١) ذكر قصة قتل أبي مسلم جمع منهم الطبري في التاريخ ٦ : ١٢٧ سنة (١٣٧) بتفصيل ، لكن لم

أجد في كلامهم ذكر قتيبة بن مسلم . و الآية (٢٢) من سورة الأنبياء .

(٢) الحديد : ٣ .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٩٩ ح ١١ ، و الصدوق في التوحيد : ١١٣ ح ١٢ ، و رواه

الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٤٤٢ عن أبي هاشم الجعفري عن الجواد عليه السلام ، و روى معناه عن عدة طرق أخرجه في العنوان (١) من هذا الفصل .

١ « و عظيم حاجته إلى ربّه » أنا فأنا ، و في دعاء الثمالي : « لا الذي أحسن استغنى عن عونك و رحمتك ، و لا الذي أساء و اجترأ عليك و لم يرضك خرج عن قدرتك » ٢ .

« في طلب طاعته » بتوفيقه .

« و الخشية » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و الرّهبة) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٣ ، أي : الخوف .

« من عقوبته » فلا تقوم لها السماوات و الأرض ، فكيف مثل الإنسان الضعيف .

« و الشفقة » أي : الخوف .

« من سخطه » أي : غضبه . فغضبه إهلاك من غضب عليه .

« فإنه لم يأمرك إلا بحسن ، و لم ينهك إلا عن قبيح » فيجب عقلا إطاعته في أوامره لكونها وفق صلاحه ، و في زواجه لترتب المفسد عليها .

٣٤

من الحكمة (٢٥٠) و قال عليه السلام :

عَرَفْتُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَرَائِمِ وَ حَلِّ الْعُقُودِ أَقُولُ : قال ابن أبي الحديد : هذا فصل يتضمّن كلاما دقيقا يذكره المتكلمون في خاطر الذي يخطر عن غير موجب لخطوره ، فإنه لا يجوز أن

(١) أورده التفتازاني في المطول : ١٢٦ أحوال المسند إليه ، و الشاعر أبو الطيب المتنبّي .

(٢) هذه من أوائل دعاء أبي حمزة رواه الطوسي عن أبي حمزة الثمالي عن السجاد عليه السلام في مصباح المتهدد : ٥٢٤ .

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٨ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٢٢ « الخشية » أيضا .

يكون الإنسان أخطره بباله ، و إلا لكان ترجيحاً من غير مرجح لجانب الوجود على جابن العدم ، فلا بدّ أن يكون المخطر له بالبال شيئاً خارجاً عن ذات الإنسان ، و ذلك الشيء هو الشيء المسمّى بصانع العالم .

ثمّ قال : و يقال : إنّ عضد الدولة وقعت في يده قصّة و هو يتصفّح القصص فأمر بصلب صاحبها ، ثمّ أتبع الخادم خادماً آخر يقول له : قل للمطهّر و كان وزيره لا يصلبه ، و لكن أخرجته من الحبس فاقطع يده اليمنى ، ثمّ أتبعه خادماً ثالثاً فقال : بل تقول له يقطع أعصاب رجله ، ثمّ أتبعه خادماً آخر فقال له : ينقله إلى القلعة بسيراف في قيوده فيجعله هناك ، فاختلف دواعيه في ساعة واحدة أربع مرّات ١ .

قلت : و الظاهر أنّ الخبر الذي روي عن النبي صلّى الله عليه و آله : « ما من آدمي إلا و قلبه بين إصبعين من أصابع الله » ٢ في معنى كلامه عليه السّلام :

« عرفت الله بفسخ العزائم و حلّ العقود » بأن يكون معناه أنّه تعالى يتصرّف في قلوب عبّده كيف شاء بعزمها على أمر ، و عقدها له فيفسخها و يحلّها ، و بالعكس ، كتصرّف من أخذ خاتماً بين إصبعيه فيه ، و يشهد له قوله تعالى : . . . و اعلموا أنّ الله يحول بين المرء و قلبه و أنّه إليه تحشرون ٣ ،

و الحديث القدسي : « لا تقضوا أوقاتكم بسبب الملوك فإنّ قلوبها بيدي أجعلها

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٥٠ .

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه ١ : ٧٢ ح ١٩٩ ، و أحمد في مسنده ٤ : ١٨٢ ، و الحاكم في المستدرک ، و الطبراني في معجمه الكبير ، و الدار قطني في الصفات عنهم منتخب كنز العمال ١ : ١١٤ ، و : ١١٦ عن النّوأس بن سمعان عن النبي صلّى الله عليه و آله ،

و روي أيضاً عن طريق أنس بن مالك و عبد الله بن عمر و أمّ سلمة عن النبي صلّى الله عليه و آله ، و أخرجه الصدوق في علل الشرائع ٢ : ٦٠٤ ح ٧٥ عن الباقر عليه السّلام ، و شرحه الشريف الرضي في المجازات النبوية : ٣٤٦ ، و الشريف المرتضى في أماليه ٢ : ٢ المجلس (٢٢) ، و تنزيه الأنبياء : ١٢٥ ، و ابن قتيبة في تأويل المختلف : ٢٠٨ ، و لفظ الكتاب للرضي .

(٣) الانفال : ٢٤ .

و أما قول المصنّف في (مجازاته النبويّة) : إنّ معنى قلبه بين إصبعين من أصابع الله هو : أنّ الإصبع بمعنى النعمة ، و الأثر الجميل كقول الراعي :

ضعيف العصا بادي العروق ترى له
عليها إذا ما أجدب الناس إصبعا

أي : ما من آدمي إلاّ و قلبه من الله سبحانه بين نعمتين حسنتين : إحداهما ما من الله عليه من معرفة خالقه و رازقه ، و الأخرى ما امتنّ عليه من تحسين خلقه و توسيع رزقه ٢ .

فكما ترى ، فإنّ الموضوع في النعمتين اللتين قالهما نفس الإنسان لا قلبه ، فإن صحّ في الأولى جعل القلب موضوعا بتكلّف ، ففي الثانية غير صحيح ، مع أنّ الأولى غير صحيحة في نفسها ، فكم آدمي لم يرزق معرفة خالقه و رازقه ، بل هم أكثر من العارفين برّبهم ، مع أنّ الخبر تضمن أنّه ما من آدمي إلاّ و هو كذا ، و أيضا فرق بين قولهم : لفلان عليّ إصبع ، و قولهم : أمري بين إصبعيه ، فالأول بمعنى : أنّ له عندي نعمة ، و أمّا الثاني فبمعنى : أمري بيده ، و مثله الخبر . و كيف كان ففي (عيون ابن قتيبة) : أتى رجل يزيد بن أبي مسلم برقعة يسأله أن يرفعها إلى الحجاج ، فنظر فيها يزيد فقال : ليست هذه من الحوائج التي ترفع إلى الأمير . فقال الرجل : فإنّي أسألك أن ترفعها فلعلّها توافق قدرا فيقضئها و هو كاره . فأدخلها و أخبره بمقالته . فنظر في الرقعة ،

و قال له : قل للرجل : إنها وافقت قدرا ، و قد قضئناها ، و نحن له كارهون ٣ .

و في (أغاني أبي الفرج) قال أحمد بن خلّاد : حدّثني أبي قال : كنت أكلم

(١) أخرجه الصدوق في أماليه : ٢٩٩ ح ٩ المجلس (٥٨) و النقل بالمعنى .

(٢) المجازات النبوية : ٣٤٦ ح ٢٦٨ ، و بين اللفظ المنقول و لفظ المجازات فرق كثير .

(٣) عيون الأخبار لابن قتيبة ٣ : ١٣٠ و النقل بتصرف يسير .

الصفحة ٣٨٦

بشّار الشاعر و أردّ عليه سوء مذهبه بميله إلى الإلحاد ، فكان يقول : لا أعرف إلاّ ما عاينته أو عاينت مثله . و كان الكلام يطول بيننا ، فقال لي يوما : ما أظنّ الأمر يا أبا خالد إلاّ كما تقول ، و أنّ الذي نحن فيه خذلان ، و لذلك أقول :

طبعت على ما في غير مخير
هو اي و لو خيرت كنت المهذباً

أريد فلا أعطى و أعطى فلم أرد
و قصر علمي أن أنال المغيباً

فأصرف عن قصدي و علمي مقصر
و أمسي و ما أعقت إلا التعجباً

١

٣٥

الحكمة (٣٥١) و قال عليه السلام :

عِنْدَ تَنَاهِي الشَّدَةِ تَكُونُ الْفَرْجَةُ وَ عِنْدَ تَضَائِقِ حَلْقِ الْبَلَاءِ يَكُونُ الرَّخَاءُ هُوَ أَحَدُ الشَّوَاهِدِ وَ الْأَدْلَةُ أَيْضًا عَلَى
وجود الباري تعالى ، فالفرج و الرخاء للشخص لئلا يهلك كدفع الآفات عن العالم لئلا يفنى دليل على وجود
صانع حكيم رؤوف رحيم ، وضع للإنسان شدة كما للعالم آفة حكمة ،

و يرفعهما بعد حين رافة و رحمة ، و قد صنّف في حكايات من فرّج عنهم بعد غاية الشدة كتب ، و منها
كتاب لأبي الحسن المدائني ، و كتاب لحسين بن سعد الدهستاني ، و كتاب لابن أبي الدنيا البغدادي ، و
كتاب لمحسن بن علي التنوخي .

و في (تاريخ بغداد) في يعقوب بن داود السلمى الذي استوزره المهديّ ،

ثمّ غضب عليه لإطلاقه علويًا أمره بقتله فحبسه في المطبق : قال يعقوب :

حبسني المهديّ في بئر و بنيت عليّ قبة ، فمكنت فيها خمس عشرة حجة

الصفحة ٣٨٧

مضى صدر من خلافة الرشيد ، و كان يدلى إليّ في كلّ يوم رغيف و كوز من ماء ، و أوزن بأوقات الصلوات ، فلما كان في رأس ثلاث عشرة حجّة أتاني آت في منامي ، فقال :

حنا على يوسف ربّ فأخرجه
من قعر جبّ و بيت حوله غم

فحمدت الله و قلت : أتى الفرج . فمكثت حولا لا أرى شيئا ، ثمّ أتاني ذلك الآت بعد حول ، فقال :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه
يكون وراءه فرج قريب

فيأمن خائف و يفكّ عان
و يأتي أهله النائي الغريب

فلما أصبحت نوديت ، فظننت أنّي أوزن بالصلاة فدليّ لي حبل أسود و قيل لي : اشدد به وسطك . ففعلت ، فأخرجوني فلما قابلت الضوء غشي بصري . فانطلقوا بي فأدخلوني على الرشيد . . . فقال لي الرشيد : و الله ما شفّع فيك أحد غير أنّي حملت الليلة صبيّة لي على عنقي ، فذكرت حملك إياي على عنقك فرثيت لك .

و في (المعجم) أنشد لإبراهيم الصولي :

ربما تجزع النفوس من الأمر
له فرجة كحلّ العقال

و نكت بقلمه ثمّ قال :

و لربّ نازلة يضيق بها الفتى
ذرها و عند الله منها المخرج

كملت فلما استحكمت حلقاتها
فرجت و كنت أظنّها لا تفرج

(١) تاريخ بغداد ١٤ : ٢٦٤ و النقل بتصريف .

(٢) معجم الادباء للحموي ١ : ١٨٦ .

الصفحة ٣٨٨

من الخطبة (٨١) و من خطبة له عليه السلام عجيبة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَلَا بِحَوْلِهِ وَ دَنَا بِطَوْلِهِ مَانِحٌ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَ فَضْلٌ وَ كَاشِفٌ كُلِّ بَلِيَّةٍ وَ أَزَلُّ أَحْمَدُهُ عَلَى عَوَاطِفِ كَرَمِهِ وَ سَوَابِغِ نِعَمِهِ وَ أَوْمِنُ بِهِ أَوْلَاً بِأَدْيَاً وَ أَسْتَهْدِيهِ قَرِيْباً هَادِيّاً وَ أَسْتَعِينُهُ قَادِراً قَاهِراً وَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ كَافِيّاً نَاصِراً أَقُولُ : وَ رَوَى (أَمَالِي الشَّيْخِ) مُسْنِداً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالَ : خَطَبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يَحْوِيهِ مَكَانٌ ، وَ لَا يَحْدَهُ زَمَانٌ ، عَلَا بِطَوْلِهِ ، وَ دَنَا بِحَوْلِهِ ، سَابِقُ كُلِّ غَنِيمَةٍ وَ فَضْلٌ ، وَ كَاشِفُ كُلِّ عَظِيمَةٍ وَ أَزَلُّ ، أَحْمَدُهُ عَلَى جُودِ كَرَمِهِ ، وَ سَبُوحُ نِعَمِهِ ، وَ أَسْتَعِينُهُ عَلَى بُلُوغِ رِضَاةٍ ، وَ الرِّضَا بِمَا قَضَاهُ ، وَ أَوْمِنُ بِهِ إِيْمَاناً ، وَ أَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ إِيْقَاناً ، وَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ فَبْنَاهَا ، وَ سَطَحَ الْأَرْضَ فَطَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَ مَرَعَاهَا . وَ الْجِبَالَ أَرْسَاهَا ١ لَا يُؤْوِدُهُ خَلْقٌ ، وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ . . . » ٢ .

قول المصنّف : « و من خطبة له عجيبة » هكذا في (المصرية) ، و لكن في (ابن أبي الحديد) : « و من خطبة له عليه السلام و تسمّى بالغراء و هي من الخطب العجيبة » ٣ و في (ابن ميثم) : « و من خطبة له عليه السلام و هي من الخطب العجيبة و تسمّى الغراء » ٤ ، و في (خطبة مصححة) تاريخها سنة (١٠٧٥) : « و من خطبة له عليه السلام عجيبة تسمّى الغراء » ، و هذا الاختلاف عجيب ، و لعلّ في النسخ

(١) النازعات : ٣١ ٣٢ .

(٢) أخرجه أبو جعفر الطوسي في أماليه ٢ : ٢٩٦ المجلس (٢٠) .

(٣) لفظ ابن أبي الحديد ٢ : ٨٥ « و تسمّى بالغراء و هي من الخطب العجيبة » .

(٤) لفظ ابن ميثم ٢ : ٢٣٠ « و هي من الخطب العجيبة » .

الصفحة ٣٨٩

تصحيحاً ، و كيف كان فمن اتَّفاق الثلاثة على فقرة (و تسمى الغراء) يعلم سقوطها من (المصرية) ، إلا أن قول المصنّف في آخر الخطبة : « و من النَّاس من يسمي هذه الخطبة الغراء ، لا يناسب ثبوتها ، و لعلّه نسي قوله في الأوّل ، و كيف كان ، فقال ابن أبي الحديد بعد ذكر نكات في ألفاظ العنوان و معانيها :

« و هذه اللّطائف و الدقائق من معجزاته عليه السّلام » ١ .

« الحمد لله الذي علا بحوله » أي : بقوته ، قال ابن ميثم : و قد أثنى عليه السّلام على الله تعالى في هذا الفصل باعتبارات أربعة من نعوت جلاله ، الأوّل : كونه عليّاً ، و إذ ليس المراد به العلوّ المكانيّ لتقدّسه عن الجسميّة كما سبق ، فالمراد العلوّ المعقول له باعتبار كونه مبدأ كلّ موجود و مرجعه ، فهو العليّ المطلق الذي لا أعلى منه في وجود و كمال رتبة و شرف ، كما سبق بيانه ، و لمّا عرفت أن معنى الدنوّ إلى كلّ موجود صدر عن قدرته و قوته ، لا جرم جعل للحوقه له مبدأ هو حوله ٢ .

« و دنا بطوله » أي : بمنّه ، قال ابن ميثم : لمّا عرفت أن معنى الدنوّ و القرب في حقّه تعالى ليس مكانياً أيضاً ، كان اعتباراً تحدّثه عقولنا له تعالى من قرب إفاضة نعمه على قوابلها ، و قربه من إِبصار البصائر في صورة نعمة نعمة منها ، و لذلك جعل طوله مبدأ لدنوّه ٣ .

« مانح » أي : معط .

« كلّ غنيمة » . . . و لا تقولوا لمن ألقى إليكم السّلام لست مؤمناً تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغنم كثيرة . . . ٤ .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨٦ .

(٢) شرح ابن ميثم ٢ : ٢٣١ .

(٣) شرح ابن ميثم ٢ : ٢٣١ .

(٤) النساء : ٩٤ .

الصفحة ٣٩٠

« و فضل » . . . و يؤت كلّ ذي فضل فضله . . . ١ .

« و كاشف كلّ بليّة و أزل » أي : ضيق ، قال ابن ميثم : (مانح) و (كاشف) إشارة إلى كلّ نعمة صدرت عنه تعالى على قابلها ، فمبدؤه جوده و رحمته ،

سواء كانت وجوديّة كالصحة و المال و العقل و غيرها ، أو عدمية كدفع البأساء و الضراء ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : و ما بكم من نعمة فمن الله ثمّ إذا مسكم الضرّ فالإيه تجأرون . ثم إذا كشف الضرّ عنكم . . . ٢ ، و قوله تعالى : أمنّ يجيب المضطرّ إذا دعاه و يكشف السوء و يجعلكم خلفاء الأرض . . . ٣ .

قلت : و كلامه عليه السلام من الأوّل إلى هنا في ثنائه عليه تعالى باعتبارات بيّنها عليه السلام من حوله تعالى و طوله ، و مانحيته و كاشفيته ، نظير قوله تعالى :

سبّح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوّى . و الذي قدر فهدى . و الذي أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ٤ ، فأمر تعالى بوجوب تسبيحه و الثناء عليه باعتبارات بيّنها من خلقه فتسويته ، و تقديره فهدايته ، و إخراج المرعى .

« أحمده على عواطف » من إضافة الصّفة .

« كرمه » مفرد بمعنى الجمع .

« و سوابغ » أي : كوامل .

« نعمه » . . . و أسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة . . . ٥ .

قال ابن ميثم : قوله عليه السلام (أحمده) الى قوله (نعمه) تنبيه للسامعين على مبدأ استحقاقه لاعتبار الحمد ، و هو كرمه ، قال بعض الفضلاء : الكريم هو الذي

(١) هود : ٣ .

(٢) النحل : ٥٣ ٥٤ .

(٣) شرح ابن ميثم ٢ : ٢٣١ ، و الآية (٦٢) من سورة النمل .

(٤) الأعلى : ٥١ .

(٥) لقمان : ٢٠ .

الصفحة ٣٩١

إذا قدر عفا ، و إذا وعد وفا ، و إذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ، و لا يبالي كم أعطى و لا لمن أعطى ، و إن رفع إلى غيره حاجة لا يرضى ، و إذا جفا عاتب و ما استقصى ، و لا يضيع من لاذ به و التجأ ، و يغنيه عن الوسائل و الشفعاء . فمن اجتمعت له هذه الاعتبارات حقيقة من غير تكلف فهو الكريم المطلق ، و ليس ذلك إلا الله تعالى ، و الأجمع الأمانع في رسم هذا الاعتبار يعود إلى فيضان الخير عنه من غير بخل و منع و تعويق على كل من يقدر أن يقبله بقدر ما يقبله ،

و عواطف كرمه هي نعمه و آثاره الخيرية التي تعود على عباده مرة بعد أخرى ، و نعمه السابغة التي لا قصور فيها عن قبول قابلها ١ .

« و أوّمن به أوّلا باديا » أي : ظاهرا . أوّلا باديا حالان من الضمير في (به) كقوله عليه السلام بعد : قريبا هاديا ، و قادرا قاهرا ، و كافيا ناصرا ، و الكلّ للثبوت كقوله تعالى : . . . قائما بالقسط . . . ٢ . بمعنى أنه يجب الايمان به تعالى لكونه أوّلا و مبدأ لجميع الأشياء ، و لكونه تعالى ظاهرا جليّا بآثاره ، و خلّاتقه عند جميع العقلاء .

و أمّا قول ابن أبي الحديد : « أوّلا منصوب على الظرفية ، كأنه قال : قبل كل شيء ٣ » فبلا معنى ، فأيّ شيء يقول في قوله عليه السلام : (باديا) و الظاهر أنه جعله ظرفا لقول (الصراح) : نقول : ما رأيته مذ عام أوّل ، و مذ عام أوّل ٤ . فمن رفع الأوّل جعله صفة لعام كأنه قال : أوّل من عامنا ، و من نصبه جعله كالظرف كأنه قال : مذ عام قبل عامنا .

« و أستهديه قريبا هاديا » و الاستهداء من البعيد و لو كان هاديا أو القريب

(١) شرح ابن ميثم ٢ : ٢٣١ .

(٢) آل عمران : ١٨ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨٦ .

(٤) صحاح اللغة ، الجوهري ٥ : ١٨٣٨ مادة (أول) .

الصفحة ٣٩٢

غير الهادي بلا ثمر ، و لا يجمعهما حقيقة غيره تعالى فيجب الاستهداء منه .

« و أستعينه قادرا قاهرا » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و أستعينه قاهرا قادرا) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخوئي و الخطيب) ١ .

قال ابن ميثم : استعانته طلب المعونة منه على ما ينبغي من طاعته ،

و سلوك سبيله ، و القاهر هو الذي لا يجري في ملكه بخلاف حكمه ، بل كلّ موجود مسخرّ تحت حكمه و قدرته ، و حقير في قبضته ، و القادر هو الذي إذا شاء فعل و إذا لم يشأ لم يفعل ، و إن لم يلزم أنه لا يشاء فلا يفعل كما سبق بيانه ،

و ظاهر أنه باعتبار هذين الوصفين مبدأ للاستعانة ٢ .

« و أتوكلّ عليه كافيا ناصرا » قال ابن ميثم : التوكلّ كما علمت يعود إلى اعتماد الانسان في ما يرجو أو يخاف على غيره ، و الكافي اعتبار كونه معطيا لكلّ قابل من خلقه ما يكفي استحقاقه من منفعة ، و دفع مضرة ، و الناصر هو اعتبار إعطائه النصر لعباده على أعدائهم بإفاضة هدايته و قوته ، و ظاهر أنه تعالى باعتبار هذين الوصفين مبدأ لتوكلّ عباده عليه ، و إلقاء مقاليد أمورهم إليه ٣ .

قلت : و لذا قال نوح عليه السلام لقومه : . . . يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي و تذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم و شركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة ثم اقصوا إليّ و لا تنظرون ٤ .

و مثله قال الحسين عليه السلام يوم الطفّ لأهل الكوفة ، كما رواه أبو مخنف ٥ .

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٨٥ ، و شرح الخوئي ٢ : ٢٤٠ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٢٣٠ « قادرا قاهرا » أيضا .

(٢) شرح ابن ميثم ٢ : ٢٣٢ .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) يونس : ٧١ .

(٥) رواه الطبري في تاريخه ٤ : ٣٢٢ سنة (٦١) عن أبي مخنف ، لكن ليس في كتاب مقتل الحسين المنسوب إلى أبي مخنف .

الحكمة (١٣) و قال عليه السّلام :

مَنْ ضَيَعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبْعَدُ أَقُولُ : هو أيضا إحدى آيات الله تعالى ، فمن ضيعه الأقرب لو لم يقدر له الأبعد لهلك ، و نرى أنّ كثيرا من المؤمنين الذين يتبرأ منهم أقاربهم ،

و يدعونهم يقدر الله لهم من يخدمهم من الأبعد ، كما أنّ موسى عليه السّلام لما ألقته أمّه في اليمّ أخذه عدوّه و ربّاه ١ .

٣٨

الحكمة (٨٤) و قال عليه السّلام :

بَقِيَّةُ السَّيْفِ أَبْقَى عَدَدًا وَ أَكْثَرُ وِلْدَانًا أَقُولُ : الأصل في العنوان أنّ الحسين بن المنذر كتب إليه عليه السّلام كما في العقد ، أنّ السيف أكثر في ربيعة ، فوقع عليه السّلام في جوابه : بقية السيف أنمي عددا ٢ .

و في (بيان الجاحظ) : قال عليّ كرم الله وجهه : بقية السيف أنمي عددا و أكرم ولدا ، و وجد الناس ذلك بالعيان الذي صار إليه ولده من نهك السيف ،

و كثرة الذرء و كرم النّجل ٣ .

و قال ابن أبي الحديد : قال شيخنا أبو عثمان (يعني الجاحظ) : لبيته عليه السّلام

(١) القصة مذكورة في قوله تعالى في سورة طه : ٣٩ .

(٢) العقد الفريد ٤ : ٢٥٦ .

(٣) البيان و التبیین ٢ : ٣٥٥ .

الصفحة ٣٩٤

لما ذكر الحكم ذكر العلة ، ثم قال : قد وجدنا مصداق قوله أولاده ، و أولاد الزبير ، و بني المهلب و أمثالهم ١ .

قلت : أمّا العلة فالعناية الإلهية بجبران من وقع عليه ظلم ، فمضر حيث كانت فيهم السلطنة ، و كانوا أعداء ربيعة فأكثرُوا من إفنائهم ، ثمّ الذي وجدت في كتاب الجاحظ الاقتصار على ولده ٢ ، و أمّا جمعه معهم ولد الزبير و ولد المهلب كما نقل ففي غير محلّه ، حيث إنّ الزبير إنّما قتل جمع من ولده أيّام نهوض عبد الملك فقط ، فقتل مع عبد الله بن الزبير ابنه الزبير و عروة ، و أخوه المنذر ، و ابن أخيه عمرو بن عروة ، و قتل مع مصعب أخيه ابنه عيسى ، كما أنّ المهلب قتل جمع من ولده أيّام خرج يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك .

و أمّا ولده عليه السّلام فكان القتل فيهم في كلّ زمان في مدّة سلطنة بني أمية و سلطنة بني العباس ، سوى وقعة الطفّ التي أرادوا فيها استيصالهم حتّى قتلوا رضيّعهم و أرادوا قتل عليهم ، حتّى صنّف في مقاتلهم كتب كثيرة بالخصوص ، و منها (مقاتل الطالبين) لأبي الفرج الاصبهاني الأمويّ ، و مع ذلك ولده عليه السّلام أكثر من جميع طوائف قريش حتّى مع العباسيين ، مع بني هاشم ، و قد كانوا أكثرُوا أيّام سلطنتهم ، و قد كان المأمون أمر بإحصائهم لما أراد جعل عليّ بن موسى الرضا عليه السّلام ولي عهده ، فكانوا ثلاثة و ثلاثين ألفاً صغيراً و كبيراً ، فقال المأمون للنّاس أنّه نظر في ولد العباس و ولد عليّ عليه السّلام فلم يجد في وقته أحداً أفضل و لا أحقّ بالأمر من عليّ بن موسى عليه السّلام . نقل ذلك

(١) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٧٩ .

(٢) قال الجاحظ في البيان و التبيين ٢ : ٣٥٥ : « قال المهلب : ليس أنمى من بقية السيف ، فوجد الناس تصديق قوله فيما نال أولاده من السيف و صار فيهم من النماء ، و قال علي بن أبي طالب : بقية السيف أنمى عدداً و أكرم ولداً . و وجد الناس ذلك بالعيان الذي صار إليه من ولده من نهك السيف و كثرة الذرء و كرم النجل » فقال في ٣٥٦ : « و لم يظهر من عدد القتلى مثل الذي يظهر في آل أبي طالب و آل الزبير و آل المهلب » .

الصفحة ٣٩٥

الطبري و المسعودي ١ ، بل المعروف من جميع قريش منذ قرون و في كلّ قرن كلّ صقع مشحون من ولده عليه السّلام ، و ذلك من آيات الله الخاصة فيه عليه السّلام .

قال محمّد بن محمّد بن النعمان في (إرشاده) : و من آيات الله تعالى فيه عليه السّلام أنّه لم يمن أحد في ولده و ذريّته بمثل ما مني عليه السّلام في ذريّته ، و ذلك أنّه لم يعرف خوف شمل جماعة من ولد نبيّ ، و لا إمام ، و لا ملك زمان ، و لا برّ و لا فجر كالخوف الذي شمل ذرية أمير المؤمنين عليه السّلام ، و لا لحق أحداً من القتل و الطرد عن الديار و الأوطان و الإخافة و الإرهاب ما لحق ذرية أمير المؤمنين عليه

السَّلام و ولده ، و لم يجر على طائفة من الناس من ضروب النكال ما جرى عليهم من ذلك ، فقتلوا بالفتك و الغيلة و الاحتيال ، و بني على كثير منهم و هم أحياء البنيان ، و عذبوا بالجوع و العطش حتى ذهبَت أنفسهم على الهلاك ،

و أحوجهم ذلك إلى التمزق في البلاد ، و مفارقة الديار و الأهل و الأوطان ،

و كتمان نسبهم عن أكثر الناس ، و بلغ بهم الخوف إلى الاستخفاء عن أحبائهم فضلا عن الأعداء ، و بلغ هربهم من أوطانهم إلى أقصى الشرق و الغرب ،

و المواضع النائية عن العمارة ، و زهد في معرفتهم أكثر الناس ، و رغبوا عن تقربهم ، و الاختلاط بهم مخافة على أنفسهم و ذريتهم من جبايرة الزمان ،

و هذه كلّها أسباب تقتضي انقطاع نظامهم و اجتناب أصولهم و قلة عددهم ،

و هم مع ما وصفناه أكثر ذريّة من الأنبياء و الصالحين و الأولياء ، بل أكثر من ذراري كلّ أحد من الناس ، قد طبقوا بكثرتهم البلاد ، و غلبوا في الكثرة على ذراري أكثر العباد .

(١) الطبري في التاريخ ٧ : ١٣٢ ، سنة (٢٠٠) ، و المسعودي في المروج ٣ : ٤٤٠ ، و لفظ المسعودي « و أحصي في هذه السنة ولد العباس فبلغوا ثلاثة و ثلاثين ألفا ما بين ذكر و أنثى » و روى قول المأمون للناس في الرضا عليه السَّلام الطبري في التاريخ ٧ : ١٣٩ سنة (٢٠١) ، و المسعودي في المروج ٣ : ٤٤١ .

الصفحة ٣٩٦

هذا مع اختصاص مناكحهم في أنفسهم دون البعداء ، و حصرها في ذوي أنسابهم دينة من الأقرباء ، و في ذلك خرق العادة على ما بيّناه ، و هو دليل الآية الباهرة في أمير المؤمنين عليه السَّلام كما وصفناه و بيّناه ، و هذا ما لا شبهة فيه ١ .

قلت : و كثرة أولاد أمير المؤمنين عليه السَّلام مع قتلهم و حبسهم و طردهم في كلّ زمان و مكان شاهدة لتصديق وعد الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه و آله الكوثر ، كما أنّ انقراض جماهير قریش الشانئين للنبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السَّلام دليل لتصديق وعيد الله تعالى شائنه صلّى الله عليه و آله لكونه أبتر بالخصوص ، مضافا الى وعيده تعالى الظالمين عموما بقطع دابرهم في قوله تعالى : فقطع

دابِر القوم الذين ظلموا و الحمد لله ربّ العالمين ٢ . و ممّا يشهد لقوله عليه السّلام في كون بقية السّيف أكثر عددا عناية منه تعالى ببقاء النوع الإنساني في غير الظالمين ، فبعد الحربين العالميتين كانت النساء في أوروبا ٣ كما قالوا لم يلدن غير البنين لفناء رجال كثيرين منهنّ .

٣٩

الحكمة (١٣٩) و قال عليه السّلام :

تَنْزِلُ الْمَعُونَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَثُونَةِ أَقُولُ : هو أيضا أحد الأدلة على وجود الخالق الرّازق ، و ذلك أمر مشاهد بالعيان ، فالإنسان إذا كان وحده يكون رزقه بقدره نوعا ، و إذا صار ذا زوجة

(١) الإرشاد للمفيد : ١٦٤ .

(٢) الأنعام : ٤٥ .

(٣) لم يختص هذا الحرب بأوروبا ، بل قلّمّا يوجد بلد لم تسر إليه الفتنة في العالم .

الصفحة ٣٩٧

يزداد في رزقه بقدرها ، و إذا صار ذا أولاد يزداد في رزقه بقدرهم ، بمعنى أنّه لا يمكن أن يرزق أقل ، و إلاّ فقد يرزق من وحده بقدر مؤونة عدّة .

و المراد ما إذا تعرض للرزق أو لم يكن له حيلة ، و إلاّ ففي الخبر : من جلس في بيته و دعا للرزق مع تمكنه يكون ممّن لا يستجاب لهم ١ .

قال ابن أبي الحديد : كان على بعض الموسرين رسوم لجماعة من الفقراء يدفعها إليهم كلّ سنة فاستكثرها فأمر كاتبه بقطعها ، فرآى في المنام كأنّ له أموالا كثيرة في داره تصعدّها أقوام من الأرض إلى السماء و هو يجزّع من ذلك ، فيقول : يا ربّ رزقي ، فقيل له : إنّما رزقناك هذه لتصرفها في ما كنت تصرفها فيه ، فإذا قطعت ذلك رفعناها منك ، و جعلناها لغيرك . فلمّا أصبح أمر كاتبه بإعادة تلك الرسوم أجمع ٢ .

قلت : و في (تاريخ بغداد) : أنّ الواقديّ كتب رقعة إلى المأمون يذكر فيها غلبة الدّين و غمّه بذلك . فوقع المأمون على ظهرها : فيك خلّتان السخاء و الحياء ، فأما السخاء فهو الذي أطلق ما ملكت ، و أمّا الحياء فهو الذي منعك من اطلاعنا على ما أنت عليه ، و قد أمرنا بكذا و كذا ، فإنّ كُنّا أصبنا إرادتك في بسط

يدك فإن خزائن الله مفتوحة ، و أنت كنت حدثتني و أنت على قضاء الرشيد عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن أنس أن النبي صلى الله عليه و آله قال للزبير : إن باب الرزق مفتوح بباب العرش ينزل الله على العباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم ، فمن قلل قلل له ، و من كثر كثر له . قال الواقدي : و كنت قد أنسيت هذا الحديث فكان

(١) هذا المعنى أخرجه الحميري في قرب الإسناد : ٣٨ ، و الكليني بخمس طرق في الكافي ٢ : ٥١١ ح ٢ و ٣ ، و ٥ : ٦٥ ح ١ ، و ٥ : ٧٧ ح ١ ، و الصدوق في الفقيه ٢ : ٣٩ ح ١٠ و بطريقين في الخصال : ١٦٠ ح ٢٠٨ ، و ٢٩٩ ح ٧١ ، و الطوسي في التهذيب ٦ : ٣٢٢ ح ٨ و أماليه ٢ : ٢٩٢ المجلس ١٩ ، و الكراجكي في كنز الفوائد : ٢٩١ ، و ابن إدريس في السرائر عنه الوسائل ٤ : ١١٦٠ ح ٤ ، و جمع آخر .
(٢) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣٠٩ .

الصفحة ٣٩٨

تذكرته إيّاي أحبّ إليّ من جائزته قال الراوي : بلغني أنّ الجائزة كانت مائة ألف درهم فكان الحديث أحبّ إليه من مائة ألف .

٤٠

الحكمة (١٤٤) و قال عليه السلام :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ وَ مَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخْذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ حَبَطَ أَجْرُهُ « ينزل الصبر على قدر المصيبة » نزول الصبر على قدر المصيبة أيضا هو إحدى آياته تعالى و حكمه و أطافه على عبده ، كنزول المعونة عليهم على قدر مؤونتهم .

و في (توحيد المفضل) بعد ذكر نعمة الحافظة ، و أنه لولاها لاختلّ حال الناس : و أعظم من النعمة على الإنسان في الحفاظ النعمة في النسيان ، فإنه لو لا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ، و لا انقضت له حسرة ، و لا مات له حقد ،

و لا استمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ، و لا رجاء غفلة من سلطان ،

و لا فترة من حاسد . أفلا ترى كيف جعل في الانسان الحفظ و النسيان و هما مختلفان متضادان ، و جعل له في كل منهما ضرب من المصلحة ؟ و ما عسى أن يقول الذين قسّموا الأشياء بين خالقين متضادين في هذه الأشياء المتضادة المتباينة ، و قد تراها تجتمع على ما فيه الصّلاح و المنفعة ٢ .

و روى (الكافي) عن الصادق عليه السّلام أيضا : أن الميّت إذا مات بعث الله تعالى ملكا إلى أوجع أهله ، فمسح على قلبه ، فأنساه لوعة الحزن ، و لو لا ذلك

(١) تاريخ بغداد ٣ : ١٩ ، و النقل بتصريف يسير .

(٢) توحيد المفضل : ٧٨ .

الصفحة ٣٩٩

لم تعمر الدنيا ١ .

و عنه عليه السّلام أيضا : إن الله تبارك و تعالى تطول على عباده بثلاث : ألقى عليهم الرّيح بعد الرّوح ، و لو لا ذلك ما دفن حميم حميما ، و ألقى عليهم السّلوة ،

و لو لا ذلك لانقطع النّسل ، و ألقى على هذه الحبة الدّابة ، و لو لا ذلك لكنزها ملوكهم كما يكنزون الذهب و الفضة ٢ .

« و من ضرب يده على فخذة عند مصيبيته حبط أجره » و في (المصرية) بدل (أجره) : (عمله) و هو تصحيف ٣ ، و كيف كان روى الفقرة (تحف العقول) عنه عليه السّلام ٤ ، و لكن رواه (الكافي) عن الصادق عليه السّلام عن النبي صلّى الله عليه و آله ٥ ، و لا غرو فإنّ النبيّ و الوصيّ صلوات الله عليهما و على آلهما كانا كنفس واحدة ،

و موجبيّته للحبط لكشفه عن عدم رضاء العبد بقضاء ربّه فلا بدّ أن يحبط أجره .

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٢٢٧ ح ١ ، و الصدوق في الفقيه ١ : ١١٢ ح ٢١ .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٢٢٧ ح ٢ ، و الصدوق في الفقيه ١ : ١١٨ ح ٨ ، و علل الشرائع

١ : ٢٩٩ ح ١ ، و الخصال ١ : ١١٢ ح ٨٧ ، و أخرج معناه أيضا الصدوق في علل الشرائع ١ : ٢٩٩

ح ٢ .

- (٣) لفظ شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٣١٠ ، و شرح ابن ميثم ٥ : ٣١٩ « أجره » أيضا .
- (٤) روى ابن شعبة في تحف العقول : ٢٢١ هذا اللفظ : « و من ضرب بيده على فخذة عند المصيبة حبط أجره ، و الصنوعة لا تكون صنوعة إلا عند ذي حسب أو دين ، و الله ينزل الصبر على قدر المصيبة » .
- (٥) فقرة « ينزل الصبر على قدر المصيبة » أخرجه الحميري في قرب الأسناد : ٥٥ ، و ابن عدي في الكامل ، و ابن بلال عنهما الجامع الصغير ١ : ٧٨ ، و رواه الراوندي في لب اللباب ، و عنه المستدرک ١ : ١٤٠ ح ٣٧ عن النبي صلى الله عليه و آله ، و أخرجه ابن شعبة في تحف العقول : ٢٢١ عن علي عليه السلام ، و أخرجه الصدوق في الفقيه ٤ : ٢٩٨ ح ٨٠ عن الصادق عليه السلام باختلاف يسير ، و فقرة « من ضرب يده على فخذة عند مصيبة حبط أجره » أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٢٢٤ ح ٤ عن النبي صلى الله عليه و آله ، و أخرجه ابن شعبة في تحف العقول : ٢٢١ عن علي عليه السلام ، و أخرجه الصدوق في الفقيه ٤ : ٢٩٨ ح ٨٠ و الخصال : ١٩١ ح ٢٦٥ عن الصادق عليه السلام ، و أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٢٢٥ ح ٩ عن الكاظم عليه السلام ، و أخرجه صاحب فقه الرضا عنه البحار ٨٢ : ٧٩ ح ١٦ عن الرضا عليه السلام ، و ينحصر الجمع بين الفقرتين برواية الفقيه .

الصفحة ٤٠٠

٤١

الحكمة (١٥) و (٤٥٩) و قال عليه السلام :

تَنْزِلُ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ حَتَّى يَكُونَ الْحَتْفُ فِي التَّدْبِيرِ يَغْلِبُ الْمَقْدَارُ عَلَى التَّقْدِيرِ حَتَّى تَكُونَ الْأَفَةُ فِي التَّدْبِيرِ وَ قَدْ مَضَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَا تَقَدَّمَ بِرَوَايَةٍ تَخَالَفَ بَعْضُ هَذِهِ الْأَفَافِ .

أقول : و حكاة الجهشياري في (وزرائه) بلفظ آخر فقال : دخل يحيى البرمكي على الرشيد لما ابتدأت حاله في الفساد و هو خال فرجع فعرف خبره .

فقال لبعض الخدم : الحق يحيى و قل له : خنتني فاتهمتني ، فأبلغه الرسول فقال له : قل للرشيد : إذا انقضت المدة كان الحنف في الحيلة . و الله ما انصرفت عن خلوتك إلا تخفيفا عنك . قال و هذا كلام لعلي بن أبي طالب كرم الله مثواه : « إذا انقضت المدة كان الهلاك في العدة » قال : و سرق هذا المعنى ابن الرومي فقال :

غاط الطيب علي غلطة مورد
عجزت محالته عن الأصدار

و الناس يلحون الطيب و إنما
غاط الطيب إصابة المقدار

١ و رواه (إرشاد المفيد) مع الأصل فيه ، و أنّ أصل المعنى ليزدجرد آخر ملوك فارس ، فقال : سأل أمير المؤمنين عليه السّلام شاهزنان بنت كسرى حين أسرت : ما حفظت عن أبيك بعد وقعة الفيل ؟ قال : حفظت عنه أنّه كان يقول : « إذا غلب الله على أمر دلت المطامع دونه ، و إذا انقضت المدّة كان الحنف في الحيلة » .

فقال عليه السّلام : ما أحسن ما قال أبوك تذلّ الأمور للمقادير حتّى يكون الحنف في التدبير ٢ .

(١) الوزراء للجهمياري : ٢٢٧ و النقل بتصريف يسير .

(٢) (الإرشاد للمفيد : ١٥٩ .

الصفحة ٤٠١

و ممّا يشهد للمعنى ما في (عيون القتيبي) : إنّ أبا مسلم لما قدم المدائن في اليوم الذي قتل فيه جعل يضرب بالسّوط معرفة برذونه و يقول بالفارسية كلاما معناه : ما تغني المعرفة إذا لم تقدر على دفع المحتوم . ثم قال : « جارة ذيلها تدعو يا ويلها بدجلة أو حولها ، كأننا بعد ساعة قد صرنا في دجلة » ١ .

و ما في (تاريخ الطبري) : قال أبو مسلم لنيزك : إنّني و الله ما رأيت طويلا أعقل منك ، فما ترى في إتياني المنصور ، فقد جاءت هذه الكتب ، و قد قال القوم ما قالوا ؟ قال : لا أرى أن تأتيه ، و أرى أن تأتي الرّي فتقيم بها ، فيصير ما بين خراسان و الرّي لك ، و هم جندك ، ما يخالفك أحد إلى أن نقل قول أبي مسلم رأيت أنّ أوجه أبا إسحاق إلى المنصور ، فيأتيني برأيه فإنّه ممّن أثق به ،

فوجهه ، فلمّا قدم تلقاه بنو هاشم بكلّ ما يحبّ ، و قال له المنصور : اصرفه عن وجهه و لك ولاية خراسان ، و أجازره فرجع أبو اسحاق إلى أبي مسلم ، فقال له :

ما أنكرت شيئا رأيتهم معظّمين لحقك إلى أن قال فقال له : نيزك : قد أجمعت على الرجوع ؟ قال : نعم ، و تمثّل :

ما للرجال مع القضاء محالة
ذهب القضاء بحيلة الأقوام

٢ و يشهد له ما في (المروج) : ذكر المدائني و العتبي و غيرهما أن مروان حين نزل على الزاب جرّد من رجاله من اختاره من سائر جيشه من أهل الشام و الجزيرة و غيرهم مائة ألف فارس على مائة ألف قارح ، فلمّا كان يوم الواقعة و أشرف عبد الله بن عليّ في المسوّد ، و في أوائلهم البنود السّود يحملها الرجال على الجمال البخت ، و قد جعلت أفتابها من خشب الصفصاف و الغرب ،

قال مروان لمن قرب منه : أما ترون رماحهم كأنهم النّخل غلظا ، أما ترون إلى

(١) رواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ١ : ٢٦ و النقل بتصريف يسير .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ١٣٢ سنة (١٣٧) .

الصفحة ٤٠٢

أعلامهم فوق هذه الإبل كأنها قطع من الغمام سود ، فبينما هو كذلك إذ طار من أفرجة هنالك قطعة من الغرابيب سود فاجتمعت على أوّل رايات عبد الله بن عليّ و اتّصل سوادها بسواد تلك الرايات و البنود ، و مروان ينظر فتطير من ذلك ، فقال : أما ترون السّود قد اتّصل بالسواد ، و كان الغرابيب كالسحب سوادا ، ثمّ نظر إلى أصحابه المحاربين ، و قد استشعروا الجزع و الفزع و الفشل فقال : إنّها لعدّة و ما تنفع العدّة إذا انقضت المدّة ١ .

و ما في (تاريخ الطبري) : كان مروان لما لقيه أهل خراسان لا يدبّر شيئا إلّا كان فيه الخلل و الفساد ، كان يوم انهزم واقفا و الناس يقتتلون إذ أمر بالأموال فأخرجت فقال للنّاس : اصبروا و قاتلوا فهذه الأموال لكم ، فجعل ناس يصيبون من ذلك المال ، فأرسلوا إليه أنّ الناس قد مالوا على هذا المال و لا نأمنهم أن يذهبوا به ، فأرسل إلى ابنه عبد الله أن سر في أصحابك إلى مؤخر عسكري ، فاقتل من أخذ من ذلك المال و امنعهم ، فمال عبد الله برايته و أصحابه فقال للنّاس الهزيمة فانهزموا ٢ .

و في (أذكىء ابن الجوزي) باب في من احتال فانعكس عليه مقصوده و نقل أمورا ، و منها : عن عليّ بن المحسن عن أبيه قال : حدّثنا جماعة من أهل جند سابور و فيهم كتّاب و تجار و غير ذلك أنّه كان عندهم في سنة نيف و أربعين و ثلاثمائة شابّ من كتّاب النصارى و هو ابن أبي الطيب القلانسي ،

فخرج إلى بعض شأنه في الرستاق ، فأخذته الأكراد و عذبوه و طالبوه أن يشتري نفسه منهم ، و كتب إلى أهله انفذوا إليّ أربعة دراهم أفيون و اعلموا أنني أشربها فتلحقني سكتة ، فلا تشكّ الأكراد أنني متّ فيحملوني إليكم ، فإذا

(١) مروج الذهب ٣ : ٢٥٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٦ : ٩٠ سنة (١٣٢) .

الصفحة ٤٠٣

حصلت عنكم فأدخلوني الحمام و اضربوني ليحمي بدني و سوكوني بالايارج ، فإنّي أفيق ، و كان سمع أنّ من شرب أفيونا أسكت ، فإذا أدخل الحمّام و ضرب و سوّك بالأيارج برأ ، فلم يعلم مقداراً لشربه ، فشرّب أربعة دراهم ، فلم يشكّ الأكراد في موته ، فلفّوه في شيء و أنفّوه إلى أهله ، فلمّا حصل عندهم أدخلوه الحمّام و ضربوه و سوّكوه ، فما تحركّ و أقام في الحمّام أياماً ، و رآه أهل الطب فقالوا : قد تلف كم شرب ؟ قالوا : أربعة دراهم . فقالوا : هذا الوشوى في جهنم ما عاش . إنّما يجوز أن يفعل هذا بمن شرب أربعة دوانيق أو وزن درهم أو حواليه . فأمّا هذا فقد مات . فلم يقبل أهله ذلك ، فتركوه في الحمّام حتّى أراح و تغيّر فدفنوه ، و انعكست الحيلة عليه .

و منها : روي أنّ بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعريّ كان في حبس الحجاج و كان يعذبّه ، و كان كلّ من مات في الحبس رفع خبره إلى الحجاج ، فيأمر بإخراجه و تسليمه إلى أهله . فقال بلال للسجّان : خذ منّي عشرة آلاف درهم و أخرج اسمي إلى الحجاج في الموتى ، فإذا أمرك بتسليمي إلى أهلي هربت في الأرض ، فلم يعرف الحجاج خبري ، و إن شئت أن تهرب معي فعلت و عليّ غناك أبداً . فأخذ السجّان المال و رفع اسمه في الموتى ، فقال الحجاج مثل هذا لا يجوز أن يخرج إلى أهله حتّى أراه ، هاته . فعاد إلى بلال ،

فقال : اعهد . قال : و ما الخبر ؟ قال : إنّ الحجاج قال كيت و كيت ، فإن لم أحضرك إليه ميتاً قتلني و علم أنني أردت الحيلة عليه ، و لا بدّ أن أقتلك خنقا ، فبكى بلال و سأله أن لا يفعل ، فلم يكن إلى ذلك طريق ، فأوصى ، فأخذ السجّان و خنقه و أخرجه إلى الحجاج ، فلمّا رآه ميتاً قال : سلّمه إلى أهله ، فأخذوه ، و قد اشترى القتل لنفسه بعشرة آلاف درهم و جعلت الحيلة عليه ١ .

(١) رواه ابن الجوزي في الأنكباء : ١١٠ و النقل بتصريف يسير .

الصفحة ٤٠٤

ثم معلوم بعد جمعنا بين العنوانين أن قول المصنّف في الثاني « و قد مضى هذا المعنى » إشارة إلى ذكره في الأول باختلاف في بعض ألفاظه .

٤٢

الحكمة (٧) و قال عليه السلام :

اعْجَبُوا لِهَذَا الْإِنْسَانِ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ وَ يَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ وَ يَسْمَعُ بِعَظْمٍ وَ يَتَنَفَّسُ فِي خُرْمٍ أَقُولُ : و كذا يجب أن يتعجب من محالها ، و من طعوم فيها :

أما الأول ، ففي (توحيد المفضل) : انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خص بها الإنسان في خلقه ، و شرف بها على غيره ، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة ، ليتمكن من مطالعة الأشياء ، و لم تجعل في الأعضاء التي تحتهن كاليدين الرجلين فتعرضها الآفات و يصيبها من مباشرة العمل و الحركة ما يعللها و يؤثر فيها و ينقص منها ، و لا في الأعضاء التي وسط البدن كالبتن و الظهر فيعسر تقلبها و اطلاعها نحو الأشياء ، فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أسنى المواضع للحواس ، و هو بمنزلة الصومعة لها ، فجعل الحواس خمساً تلقى خمساً ، لكيلا يفوتها شيء من المحسوسات ، فخلق البصر ليدرك الألوان ، فلو كانت الألوان و لم يكن بصر يدركها لم تكن فيها منفعة ، و خلق السمع ليدرك الأصوات ، فلو كانت الأصوات و لم يكن سمع يدركها لم يكن فيها إرب ، و كذلك سائر الحواس ١ .

و أما الثاني فروى أبو نعيم في (حليته) عن عمرو بن جميع قال : دخلت

(١) توحيد المفضل : ٥٨ .

الصفحة ٤٠٥

على جعفر بن محمد أنا و ابن أبي ليلى و أبو حنيفة . فقال لابن أبي ليلى : من هذا معك ؟

قال : هذا رجل له بصر و نفاذ في أمر الدين . قال : لعنه يقيس الدين برأيه .

قال : نعم . فقال جعفر لأبي حنيفة : ما اسمك ؟ قال : نعمان . قال : يا نعمان هل قست رأسك بعد ؟ قال : كيف أقيس رأسي ؟ قال : ما أراك تحسن شيئاً ، هل علمت ما الملوحة في العينين ، و المرارة في الأذنين ، و الحرارة في المنخرين ،

و العذوبة في الشفتين ؟ قال : لا . قال : ما أراك تحسن شيئاً ، قال : فهل علمت كلمة أولها كفر و آخرها إيمان ؟ فقال ابن أبي ليلى : يا بن رسول الله أخبرنا بهذه الأشياء التي سألته عنها .

فقال : أخبرني أبي عن جدّي أنّ النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم قال : إنّ الله تعالى بمنّه و فضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنهما شحمتان ، و لو لا ذلك لذابتا ،

و إنّ الله تعالى بمنّه و فضله و رحمته على ابن آدم جعل المرارة في الأذنين حجاباً من الدّواب ، فإن دخلت الرأس دابةً و التمسّت إلى الدّماغ فإذا ذاقت المرارة التمسّت الخروج ، و إنّ الله تعالى بمنّه و فضله و رحمته على ابن آدم جعل الحرارة في المنخرين يستنشق بهما الرّيح ، و لو لا ذلك لأنتن الدّماغ ، و إنّ الله تعالى بمنّه و كرمه و رحمته لابن آدم جعل العذوبة في الشفتين يجد بها استطعام كلّ شيء ١ .

« اعجبوا لهذا الانسان » قال ابن ميثم : نبّه عليه السّلام على لطف خلق الإنسان ببعض أسرار حكمة الله تعالى فيه و غايته من ذلك الاستدلال على حكمة صانعه و مبدعه ، و ذكر أربعة من محالّ النظر و الاعتبار ، و هي : آلة البصر

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣ : ١٩٦ ، و رواه ابن شهر آشوب في المناقب ٤ : ٢٥٢ ، و الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٥٨ .

الصفحة ٤٠٦

و الكلام و السّمع و التنفّس ، و خصّها بالذكر لكونها مع ضعفها ضرورية في وجود الإنسان على شرفه و علوّ رتبته في المخلوقات ، و لا يقوم إلّا بها ليكون ذلك محلّ التعجّب و اعتبار لطف الصانع الحكيم ١ .

« ينظر بشحم » قال ابن ميثم : أراد بالشّم الذي ينظر به الرطوبة المسماة في عرف الأطباء بالبيضة أو الرطوبة الجليدية ، فإنّ العين مركبة من سبع طبقات و ثلاث رطوبات ، كلّ منها يختصّ في عرفهم باسم

٢ .

و قال ابن أبي الحديد : قيل : أمّا الإبصار فقد اختلف فيه ، فقيل : إنه بخروج شعاع من العين يتصل بالمرئي ، و قيل : إنّ القوّة المبصرة التي في العين تلاقي بذاتها المرئيات فتبصرها ، و قال قوم : بل يتكيف الهواء بالشعاع البصري من غير خروج ، فيصير الهواء باعتبار تكيفه بالشعاع به آلة للعين في الإدراك ، و قال المحققون من الحكماء : إنّ الإدراك البصري هو بانطباع أشباح المرئيات في الرطوبة الجليديّة من العين عند توسط الهواء الشفاف المضيء كما تنطبع الصورة في المرآة ٣ .

قلت : و يصدّق الأخير أخبارهم عليهم السّلام ، فورد أن الديصاني قال لهشام بن الحكم : أيّقدر ربك إذا كان قادرا أن يدخل الدّنيا كلّها في البيضة ، لا يكبر البيضة و لا يصغر الدّنيا ؟ فراجع هشام في ذلك الصادق عليه السّلام ، فقال عليه السّلام له : كم حواسك ؟ قال : خمس . قال : أيّها أصغر ؟ قال : الناظر . قال : و كم قدر الناظر ؟ قال : مثل العدسة أو أقلّ . فقال له : انظر أمامك و فوقك و أخبرني بما ترى . فقال : أرى سماء و أرضا و دورا و قصورا و جبالا و أنهارا . فقال عليه السّلام : إنّ الذي قدر أن

(١) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٤٢ .

(٢) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٤٣ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٢٤٤ .

الصفحة ٤٠٧

يدخل الذي تراه العدس أو أقلّ قادر على أن يدخل الدّنيا كلّها في البيضة ، لا يصغر الدّنيا و لا يكبر البيضة . ١

« و يتكلم بلحم » قال ابن ميثم : و عنى عليه السّلام باللحم اللّسان ، فإنّه لحم أبيض رخو تلتفّ به عروق صغار كثيرة فيها دم ، و لذلك يتبين أحمر و تحته عروق و شريانات و أعصاب كثيرة ، و تحته فوهتان يسيل منهما اللّعاب ينتهيان إلى لحم غددي رخو موضوع في أصله يسمى مولد اللّعاب ، و بهاتين الفوهتين يبقى للسان و ما حوله النّداوة الطّبيعيّة ٢ .

قلت : و في (توحيد المفضل) : أطل الفكر يا مفضل في الصّوت و الكلام و تهيئة آلاته في الإنسان ، فالحنجرة كالأنبوبة لخروج الصوت ، و اللّسان و الشفتان و الأسنان لصياغة الحروف و النّغم ، ألا ترى أنّ من سقطت أسنانه لم يغم السّين ، و من سقطت شفته لم يصحّ الفاء ، و من ثقل لسانه لم يفصح الرّاء ، و أشبه شيء بذلك المزمار الأعظم ، فالحنجرة تشبه قصبه المزمار ،

و الرئة تشبه الزق الذي ينفخ فيه لتدخل الريح ، و العضلات التي تقبض على الرئة ليخرج الصوت كالأصابع التي تقبض على الزق حتى تجري الريح في المزمار ، و الشفتان و الأسنان التي تصوغ الصوت حروفا و نغما كالأصابع التي تختلف في فم المزمار ، فتصوغ صفيه ألعانا ، غير أنه و إن كان مخرج الصوت يشبه المزمار بالآلة و التعريف ، فإن الزمار في الحقيقة هو المشبه بمخرج الصوت إلى أن قال تأمل يا مفضل ما أنعم الله به على الإنسان من هذا المنطق الذي يعبر به عما في ضميره و ما يخطر بقلبه و ينتجه فكره ، و به

(١) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٧٩ ح ٤ ، و الصدوق في التوحيد : ١٢٢ ح ١ ، و حديث البيضة جاء بألفاظ أخرى عن عيسى و علي و الرضا عليه السلام ، مرّ تخريجه في العنوان (٥) من هذا الفصل .
(٢) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٤٣ .

الصفحة ٤٠٨

يفهم عن غيره ما في نفسه ، و لو لا ذلك كان بمنزلة البهائم المهملّة التي لا تخبر عن نفسها بشيء ، و لا تفهم عن مخبر شيئا ١ .

قلت : و لكون نعمة اللسان بتلك المثابة في تمييز الإنسان من الحيوان ،

قال الرّحمن جلّ و علا في مقام الامتتان : خلق الإنسان . علمه البيان ٢ .

« و يسمع بعظم » قال ابن ميثم : و أراد بالعظم الذي يسمع به العظم المسمّى الحجريّ ، و هو عظم صلب فيه مجرى الأذن ، كثير التعاريج و العطفات ، يمرّ كذلك إلى أن يلقي العصبية النابتة من الدماغ ، التي هي مجرى الروح الحامل للقوة السامعة . . . ٣ .

قلت : و في (توحيد المفضل) : و كذلك من عدم السّمع يختلّ في أمور كثيرة ، فإنّه يفقد روح المخاطبة و المحاورّة ، و يعدم لذّة الأصوات و اللّحون المشجية المطربة ، و تعظم المؤونة على النّاس في محاورته حتّى يتبرّموا به ،

و لا يسمع شيئا من أخبار الناس و أحاديثهم حتّى يكون كالغائب و هو شاهد ،

و كالميت و هو حيّ ٤ .

و في أذكار السّجّدين « سجد وجهي للذي خلقه و شقّ سمعه و بصره » ٥ .

« و يتنفس في خرم » بالضمّ ، و هو ثقب الأنف ، قال ابن ميثم : و في هذه و أمثالها من بدن الإنسان و سائر الحيوان عبرة لمن اعتبر ، و كمال شهادة

(١) توحيد المفضل : ٦٢ ، ٧٩ .

(٢) الرحمن : ٤٣ .

(٣) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٤٣ .

(٤) توحيد المفضل : ٦٠ .

(٥) هذا الذكر أخرجه الكليني في الكافي ٣ : ٣٢١ ح ١ ، و الطوسي في التهذيب ٢ : ٧٩ ح ٦٣ ، و رواه القاضي النعمان في دعائم الإسلام ١ : ١٦٤ عن الصادق عليه السلام .

الصفحة ٤٠٩

بوجود الصانع الحكيم لها ، و من نظر في تشريح بدن الإنسان حضرته شواهد من الحكم الإلهية يحار فيها لبّه و يدهش فيها عقله . و قرأ الصادق عليه السلام قوله تعالى : . . . و خلق الإنسان ضعيفا ١ ثمّ قال : كيف لا يكون ضعيفا و هو ينظر بشحم ، و يسمع بعظم ، و ينطق بلحم ٢ .

٤٣

الحكمة (٣٠٢) و قال عليه السلام :

مَا الْمُبْتَلَى الَّذِي قَدْ اِسْتَدَّ بِهِ الْبَلَاءُ بِأَحْوَجَ إِلَى الدَّعَاءِ مِنَ الْمَعْفَى الَّذِي لَا يَأْمَنُ الْبَلَاءَ أَقُولُ : هو أيضا إحدى آياته تعالى ، روى (الكافي) عن سيف بن ليث قال :

خلفت ابنا لي عليلا بمصر عند خروجي منها ، و ابنا لي آخر أسنّ منه كان وصيّي و قيّمي على عيالي ، و في ضياعي ، فكتبت إلى أبي محمّد عليه السلام أسأله الدعاء لابني العليل . فكتب عليه السلام إليّ : قد عوفي ابنك المعتلّ ، و مات الكبير وصيّك و قيّمك ، فاحمد الله و لا تجزع فيحبط أجرك ، فورد عليّ الخبر أنّ ابني قد عوفي من علته و مات الكبير يوم ورد جواب أبي محمّد عليه السلام ٣ .

و روى (العيون) عن محمد بن داود قال : كنت أنا و أخي عند الرضا عليه السلام فأتاه من أخبره أنه قد ربط ذقن محمد بن جعفر ، فمضى أبو الحسن عليه السلام و مضينا معه و إذا لحياه قد ربطا ، و إذا إسحاق بن جعفر و ولده و جماعة آل

(١) النساء : ٢٨ .

(٢) شرح ابن ميثم ٥ : ٢٤٣ .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ١ : ٥١١ ح ١٨ ، و رواه ابن شهر آشوب في المناقب ٤ : ٤٣٣ ، و الإربلي في كشف الغمة ٣ : ٢١٤ عن سيف بن الليث ، و روى معناه الإربلي في كشف الغمة ٣ : ٢١٢ ، و الراوندي في الخرائج عنه بحار الأنوار ٥٠ : ٢٦٩ ح ٣١ ، و : ٢٧٤ ح ٤٤ كلاهما عن علي بن يزيد و حجاج بن يوسف العبدي .

الصفحة ٤١٠

أبي طالب يبكون ، فجلس أبو الحسن عليه السلام عند رأسه و نظر في وجهه فتبسّم ،

فنقم من كان في المجلس عليه ، فقال بعضهم : إنما تبسّم شامتا بعمّه . قال :

و خرج ليصلي في المسجد ، فقلنا له : قد سمعنا فيك من هؤلاء ما نكره حين تبسّم . فقال أبو الحسن عليه السلام إنما تعجبت من بكاء إسحاق و هو يموت و الله قبله و يبكيه محمد . قال : فبرئ محمد و مات إسحاق ١ .

و قال الشاعر :

كم مريض عاش من بعد يأس

بعد موت الطبيب و العوّد

قد يصاد القطا فينجو سليما

و يحلّ القضاء بالصيّد

و قال أيضا :

أ كان الجبان يرى أنه

يدافع عند الفرار الأجل

فقد يدرك الحادثات الجبان

و يسلم منها الشجاع البطل

٤٤

من الخطبة (١٩٧) بعد ذكر الصلّاة و الزكاة و أداء الأمانة :

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا الْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَ نَهَارِهِمْ لَطْفَ بِهِ خُبْرًا وَ أَحَاطَ بِهِ عِلْمًا
أَعْضَاؤَكُمْ شُهُودُهُ وَ جَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ وَ ضَمَائِرُكُمْ عِيُونُهُ وَ خَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ « إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى » هكذا
في (المصرية) ، و كلمة (و تعالى) زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ٢ .

(١) أخرجه الصدوق في العيون ٢ : ٢٠٦ ح ٦ ، و أخرج في معناه هو في العيون ٢ : ٢٠٦ ح ٧
برواية أخرى ، و الطبري في دلائل الإمامة : ١٧١ ، و رواه ابن شهر آشوب في المناقب ٤ : ٣٤٠ ، و
نقله عن دلائل الامامة ابن طاووس في فرج المهموم : ٢٣١ .
(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٤٩ ، و في شرح ابن ميثم ٣ : ٤٦٢ « سبحانه و تعالى » أيضا .

الصفحة ٤١١

« لا يخفى عليه ما العباد مقترفون » أي : مكتسبون للذنب . . . يعلم ما تكسب كل نفس . . . ١ .
« في ليلهم و نهارهم » سواء منكم من أسرّ القول و من جهر به و من هو مستخف بالليل و سارب بالنهار . ٢ .
« لطف به خبرا » يا بنيّ إنّها إن تك من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في
الأرض يأت بها الله إنّ الله لطيف خبير ٣ .
« و أحاط به علما » . . . و قد أحطنا بما لديه خبرا ٤ .

« أعضاءكم شهوده » استشهد له بقوله تعالى : و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتّى إذا ما
جاؤوها شهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون . و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا

أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء و هو خلقكم أول مرة و إليه ترجعون . و ما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم و لا أبصاركم و لا جلودكم و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ٥ .

و بما في (تفسير القمّي) في قوله تعالى : اليوم نختم على أفواههم و تكلمنا أيديهم و تشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ٦ قال : إذا جمع الله تعالى الخلق يوم القيامة دفع إلى كل إنسان كتابه فينظرون فيه ، فينكرون أنهم عملوا من ذلك شيئا ، فتشهد عليهم الملائكة فيقولون : يا ربّ ملائكتك يشهدون لك ثم

(١) الرعد : ٤٢ .

(٢) الرعد : ١٠ .

(٣) لقمان : ١٦ .

(٤) الكهف : ٩١ .

(٥) فصلت : ١٩ ٢٢ .

(٦) يس : ٦٥ .

الصفحة ٤١٢

يخلفون أنهم لم يعملوا من ذلك شيئا ، و هو قوله تعالى : يوم يبعثهم الله جميعا فيخلفون له كما يخلفون لكم . . . ١ فإذا فعلوا ذلك ختم الله على ألسنتهم و تنطق جوارحهم بما كانوا يكسبون ٢ .

« و جوارحكم جنوده » فإذا كانت جوارح الناس شهوده يصح أن يقال : إنها أيضا جنوده . . . و لله جنود السماوات و الأرض . . . ٣ .

« و ضمائرهم عيونهم » أي : جواسيسه يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ٤ .

« و خلواتكم عيانه » أ لا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون و ما يعلنون إنه عليهم بذات الصدور ٥ .

اعلموا علماً يقيناً أنّ الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته واشتدت طلبته وقويت مكيدته أكثر مما سمي له في الذكر الحكيم ولم يحل بين العبد في ضعفه وقلة حيلته وبين أن يبلغ ما سمي له في الذكر الحكيم والعارف لهذا العامل به أعظم الناس راحة في منفعة والتارك له الشاك فيه أعظم الناس شغلاً في مضرة ورب منعم عليه مستدرج بالنعمة ورب مبتلى مصنوع له بالبلوى فزد أيها المستمع

(١) المجادلة : ١٨ .

(٢) تفسير علي بن إبراهيم القمي ٢ : ٢١٦ .

(٣) الفتح : ٤ .

(٤) غافر : ١٩ .

(٥) هود : ٥ .

الصفحة ٤١٣

في شكرك وقصر من عجلتك وقف عند منتهى رزقك أقول : ورواه ابن شعبة الحراني في (تحف عقوله) ، و زاد بعد قوله : « ما سمي له في الذكر الحكيم » : « إنه لن يزداد امرؤ نقيرا بحذقه ، ولن ينتقص نقيرا بحمقه » ، و بدل قوله : « فزد أيها المستمع في شكرك » بقوله : « فأفق أيها المستمع من شكرك » . ١

و رواه (الكافي) في باب الإجمال في الطلب مع زيادات واختلافات يسيرة ٢ ، و كيف كان فهو أيضا من آياته تعالى ، و إن الأمر ليس بيد الخلاق ،

وإنه لا يقع إلا ما أراد الخالق .

« اعلموا علماً يقيناً » لا يختلجكم فيه شك .

« أنّ الله لم يجعل للعبد وإن عظمت حيلته » و تدابيره .

« واشتدت طلبته » و سعيه .

« و قويت مكيدته » و فطانتته .

« أكثر » مفعول لقوله : « لم يجعل » .

« ممّا سمّي » و عيّن .

« له في الذكر الحكيم » و هو لفظ القرآن ، قال تعالى : ذلك نزلوه عليك من الآيات و الذكر الحكيم ٣ .

و الظاهر أنّ المراد به في كلامه عليه السّلام اللّوح المحفوظ الذي فيه مقدرات الخلق ، و كيف كان نرى ما قاله عليه السّلام بالمشاهدة و العيان ، فكثير من الناس ممّن لهم فطانة زائدة يدبّرون تدبيرات لزيادة أرزاقهم و لا يتيسر لهم إلّا ما قدر الله

(١) تحف العقول : ١٥٥ ، و لفظه : « ما كتب له في الذكر الحكيم أيّها الناس أنّه لن يزداد امرؤ نقيرا

بحذقه و لن ينتقص نقيرا بحمقه » .

(٢) الكافي للكلييني ٥ : ٨١ ح ٩ .

(٣) آل عمران : ٥٨ .

الصفحة ٤١٤

تعالى لهم .

و روى (الكافي) عن الباقر عليه السّلام قال : قال النبي صلّى الله عليه و آله في حجة الوداع : ألا إنّ الرّوح الأمين نفث في روعي أنّه لا تموت نفس حتّى تستكمل رزقها . فاتّقوا الله عزّ و جلّ و أجملوا في الطلب ، و لا يحملنكم استبطاء شيء من الرزق أن تطلبوه بشيء من معصية الله ، فإنّ الله تعالى قسم الأرزاق بين خلقه حلالا ، و لم يقسمها حراما ، فمن اتقى الله تعالى و صبر أثناء الله برزقه من حلّه ، و من هتك حجاب السّتر و عجل فأخذه من غير حلّه ، قصّ به من رزقه الحلال ، و حوسب عليه يوم القيامة . ١

و روي عن أمير المؤمنين عليه السّلام : كم من متعب نفسه مقترّ عليه ، و مقتصد في الطلب قد ساعدته المقادير ٢ .

و روي عن الثمالي قال : ذكر عند عليّ بن الحسين عليه السّلام غلاء السّعر .

فقال : و ما عليّ من غلائه ، إن غلا فهو عليه ، و إن رخص فهو عليه ٣ .

و عن الصادق عليه السلام : لو كان العبد في حجر لأتاه الله برزقه ، فأجملوا في الطلب ٤ .

- (١) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٨٠ ح ١ ، و بفرق يسير علاء بن رزين في أصله : ١٥٣ ، و عاصم بن حميد في أصله : ٢٣ ، و الاسكافي في التمهيد : ٥٢ ح ١٠٠ ، و الكليني بثلاث روايات في الكافي ٢ : ٧٤ ح ٢ ، و ٥ : ٨٠ ح ٣ ، و ٥ : ٨٣ ح ١١ ، و الصدوق في أماليه : ٢٤١ ح ١ المجلس ٤٩ ، و المفيد في المقنعة : ٩٠ ، و الطوسي في التهذيب ٦ : ٣٢١ ح ١ ، و رواه أبو القاسم الكوفي في الأخلاق عنه المستدرك ٢ : ٤١٨ ، الباب ١٠ ح ١٣ ، و الديلمي في أعلام الدين عنه المستدرك ٢ : ٤١٨ الباب ١٠ ح ١٠ .
- (٢) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٨١ ح ٦ ، و الاسكافي في التمهيد : ٥٣ ح ١٠١ ، و الصدوق في الفقيه ٤ : ٢٧٦ ضمن وصيته عليه السلام لابن الحنفية .
- (٣) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٨١ ح ٧ ، و الصدوق في الفقيه ٣ : ١٧٠ ح ١٣ ، و التوحيد : ٣٨٨ ح ٣٤ ، و الطوسي في التهذيب ٦ : ٣٢١ ح ٢ .
- (٤) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٨١ ح ٤ ، و الاسكافي في التمهيد : ٥٣ ح ١٠٣ .

الصفحة ٤١٥

« و لم يحل » تعالى .

« بين العبد في ضعفه » في بدنه .

« و قلّة حيلته » في أموره .

« و بين أن يبلغ ما سمّي له في الذكر الحكيم » من الرزق ، بل الغالب كون رزقهم أكثر ، قال الصادق عليه السلام : إنّ الله تعالى وسّع في أرزاق الحمقى ليعتبر العقلاء ، و يعلموا أنّ الدنيا ليس ينال ما فيها بعمل و لا حيلة ١ .

« و العارف لهذا » أي : العارف بأنّه لا ينال إلاّ ما قدر له .

« العامل به » على طبق علمه .

« أعظم الناس راحة في منفعة » حيث إنّ يعلم أن ما قدر له يأتيه بلا تعب ،

قال الصادق عليه السلام : إذا فتحت بابك ، و بسطت بساطك ، فقد قضيت ما عليك ٢ .

« و التارك له الشاكّ فيه » بظنه أنّ الرزق بجده و جهده .

« أعظم الناس شغلا في مضرة » حيث إنه يكدّ ليله و نهاره و يسلب راحته ،

و لا يحصل له إلا ما قدر له .

« و ربّ منعم عليه مستدرج » أي : مأخوذ تدريجا ، و الأصل فيه قوله تعالى :

و الذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ٣ .

« بالنعمى » فكانت سبب غرته ، فلو لم يكن منعما عليه كان له أولى ، قال تعالى : أ يحسبون أنّما نمدهم به من مال و بنين . نسارع لهم في الخيرات بل

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٨٢ ح ١٠ ، و الاسكافي في التمهيد : ٥٣ ح ١٠٢ ، و الصدوق في علل الشرائع ١ : ٩٢ ح ١ ، و الطوسي في التهذيب ٦ : ٣٢٢ ح ٥ ، و رواه الورّام في تنبيه الخواطر ١ : ١٤ عن الصادق عليه السلام .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٥ : ٧٩ ح ١ ، و الصدوق في الفقيه ٣ : ١٠٠ ح ٤٢ ، و الطوسي في التهذيب ٦ : ٣٢٣ ح ٧ ، و أخرج معناه أيضا الصدوق في الفقيه ٣ : ١٠٠ ح ٤١ ، كلّهم عن الصادق عليه السلام .

(٣) الأعراف : ١٨٢ .

الصفحة ٤١٦

لا يشعرون ١ .

« و ربّ مبتلى مصنوع له » من الله تعالى .

« بالبلوى » أي : بالابتلاء ، روى (التوحيد) عن النبي صلى الله عليه و آله قال : قال تعالى :

« إنّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلح إيمانه إلا بالفقر و لو أغنيته لأفسده ذلك » ٢ .

« فزد أيها المستمع و قف عند منتهى رزقك » و لا تطمع في الزيادة عليه سفاهة ، و قد عرفت ما بدّل (التحف) الجملة ٣ .

و رواها (الكافي) : « فاتق الله أيها الساعي من سعيك ، و قصر من عجلتك ، و انتبه من سنة غفلتك ، و تفكر في ما جاء عن الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه و آله ٤ .

٤٦

الحكمة (٨٤) و من خطبة له عليه السلام :

قَدْ عَلِمَ السَّرَائِرَ وَ خَبَرَ الضَّمَائِرَ لَهُ الْإِحَاطَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ وَ الْغَلْبَةُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَ الْقُوَّةُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ « قد علم السرائر » . . . و الله يعلم إسرارهم ٥ ، ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم و نجواهم . . . ٦ .

(١) المؤمنون : ٥٦ ٥٥ .

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٤٠٠ ح ١ ، و علل الشرائع ١ : ١٢ ح ٧ ، و أخرج في معناه الكليني في الكافي ٢ : ٩٠ ح ٤ .

(٣) مرّ في بدء هذا العنوان من تحف العقول : ١٥٦ .

(٤) الكافي للكليني ٥ : ٨٢ ح ٩ ، و في بعض نسخ الكافي « فأفق أيها الساعي » .

(٥) محمد : ٢٦ .

(٦) التوبة : ٧٨ .

الصفحة ٤١٧

« و خبر » بالفتح : أي علم .

« الضمائر » . . . فإنه يعلم السرّ و أخفى ١ . . . و هو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول . . . ٢ .

« له الإحاطة بكلّ شيء » و لله ما في السمّوات و ما في الأرض و كان الله بكلّ شيء محيطا ٣ .

« و الغلبة لكلّ شيء » . . . و الله غالب على أمره و لكنّ أكثر الناس لا يعلمون ٤ .

أراد نمرود و فرعون منع تولّد إبراهيم و موسى عليهما السّلام ، و أراد إخوة يوسف دفعه عمّا قدّر له من الرّفعة ٥ ، فصاروا مغلوبين في قبال أمره تعالى .

« و القوّة على كلّ شيء » . . . و لو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنّ القوّة لله جميعا . . . ٦ .

(١) طه : ٧ .

(٢) النساء : ١٠٨ .

(٣) النساء : ١٢٦ .

(٤) يوسف : ٢١ .

(٥) منع تولّد إبراهيم لم يجئ في القرآن ، لكن أخرجه علي بن إبراهيم في تفسيره ١ : ٢٠٧ و الكليني في الكافي ٨ : ٣٦٦ ح ٥٥٨ ، و الصدوق في كمال الدين ١ : ١٣٨ ح ٧ ، و رواه الراوندي في قصص الأنبياء عنه البحار ١٢ : ٤٢ ح ٣١ مسندا عن الصادق عليه السّلام ، و أخرجه المسعودي في إثبات الوصيّة : ٢٩ مرسلا عن العالم عليه السّلام ، و رواه موقوفا أو بلا اسناد الطبري في التاريخ ١ : ١٦٣ ، و المسعودي في مروج الذهب ١ : ٥٦ ، و الثعلبي في العرائس : ٧٣ ٧٤ ، و الطبرسي في مجمع البيان ٤ : ٣٢٥ ، و أما قصة منع تولّد موسى عليه السّلام فجاءت في القرآن ، طه : ٣٨ ٤٠ ، و القصص : ٩٤ ، و أما قصة أخوة يوسف عليه السّلام فجاءت مفصّلة في القرآن في سورة يوسف .

(٦) البقرة : ١٦٥ .

الصفحة ٤١٨

٤٧

من الخطبة (٩٩) و من خطبة له عليه السّلام أخرى :

الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ أَوَّلٍ وَ الْآخِرُ بَعْدَ كُلِّ آخِرٍ بِأَوْلِيَّتِهِ وَ جَبَّ أَنْ لَا أَوَّلَ لَهُ وَ بِآخِرِيَّتِهِ وَ جَبَّ أَنْ لَا آخِرَ لَهُ وَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَهَادَةً يُوَافِقُ فِيهَا السَّرُّ الْإِعْلَانُ وَ الْقَلْبُ اللَّسَانَ قَوْلَ الْمُصَنِّفِ : « و من خطبة له عليه السّلام أخرى » هكذا في (المصرية) ، و لا معنى لكلمة (أخرى) ، فإنّ كلّ خطبة من الكتاب غير سابقتها ، و فيها نقص . ففي (ابن أبي الحديد) ١ : « و من خطبة له عليه السّلام ، و هي من الخطب التي تشتمل على ذكر الملاحم » و كذا (ابن ميثم) ٢ بدون قوله : « و هي من الخطب التي » و مثل (ابن ميثم) : (الخطية) ، لكن فيها « الملحمة » بدل (الملاحم) .

قوله عليه السّلام : « الأوّل قبل كلّ أوّل ، و الآخر بعد كلّ آخر » روى (توحيد الصدوق) أنّ الصادق عليه السّلام سئل عن قوله تعالى : هو الأوّل و الآخر ، فقال : الأوّل لا عن أوّل كان قبله ، و لا عن بدء سبقه ، و الآخر لا عن نهاية كما يعقل من صفة المخلوقين ، و لكن قديم أوّل آخر لم يزل و لا يزال ، بلا بدء و لا نهاية ، لا يقع عليه الحدوث ، و لا يحول من حال إلى حال ، خالق كلّ شيء ٣ .

« بأوّليته و جب أن لا أوّل له » أي : بأوّليته قبل جميع الأشياء و جب أن لا يكون له أوّل ، فيكون شيء قبله .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٩٢ .

(٢) شرح ابن ميثم ٣ : ٩ .

(٣) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣١٣ ح ١ ، و معاني الأخبار : ١٢ ح ١ ، و الكليني في الكافي ١ : ١١٦ ح ٦ عن ميمون اللّبان عن الصادق عليه السّلام ، و قد مرّ في العنوان (٥ ، ١٩) من هذا الفصل .

الصفحة ٤١٩

« و بأخريّته أن لا آخر له » هكذا في (المصرية) ، و الصواب ما في (ابن أبي الحديد) ١ : (و بأخريّته و جب أن لا آخر له) .

و في (توحيد الصدوق) أيضا عن ابن أبي يعفور : سألت أبا عبد الله عليه السّلام عن قوله تعالى : هو الأوّل و الآخر ، و قلت : أمّا الأوّل فقد عرفناه ، و أمّا الآخر فبيّن لنا تفسيره . فقال : إنّه ليس شيء إلاّ يبيد أو يتغيّر أو يدخله الغير و الزوال أو ينتقل من لون إلى لون ، و من هيئة إلى هيئة ، و من صفة إلى صفة ، و من زيادة إلى نقصان ، و من نقصان إلى زيادة ، إلاّ ربّ العالمين ، فإنّه لم يزل و لا يزال واحدا ، هو الأوّل قبل كلّ شيء ، و هو الآخر على ما لم يزل ، لا تختلف عليه الصفات و الأسماء ما يختلف على غيره ، مثل الإنسان الذي يكون ترابا و مرّة لحما ، و مرّة دما ، و مرّة رفاتا و رميما ، و كالتمرّ الذي يكون مرّة بلحا ، و مرّة بسرا ، و مرّة رطبا ، و مرّة تمرا ، فيتبدّل عليه الأسماء و الصفات ، و الله عزّ و جلّ بخلاف ذلك ٢ .

« و أشهد أن لا إله إلاّ الله شهادة يوافق فيها السرّ الإعلان » لا كشهادة اليهود و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنّما نحن مستهزون ٣ .

« و القلب اللسان » لا كشهادة المنافقين إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله و الله يعلم إنك لرسوله و الله يشهد إن المنافقين لكاذبون ٤ ،
يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . . . ٥ .

- (١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٩٢ ، و لفظ شرح ابن ميثم ٣ : ٩ نحو الطبعة المصرية .
(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣١٤ ح ٢ ، و الكليني في الكافي ١ : ١١٥ ح ٥ ، و قد مرّ في العنوان (١) من هذا الفصل .
(٣) البقرة : ١٤ .
(٤) المنافقون : ١ .
(٥) الفتح : ١١ .

الصفحة ٤٢٠

٤٨

من الخطبة (١٨١) فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يُخَفِ عَنْكُمْ شَيْئًا مِنْ دِينِهِ وَ لَمْ يَتْرِكْ شَيْئًا رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلَّا وَ جَعَلَ لَهُ عِلْمًا بَادِيًا وَ آيَةً مُحْكَمَةً تَزْجُرُ عَنْهُ أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ وَ سَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ وَ اعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخَطَهُ عَلَيَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَ لَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَ إِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرِ بَيْنٍ وَ تَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلِ قَدْ قَالَهُ الرَّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ قَدْ كَفَاكُمْ مَنُونَةَ دُنْيَاكُمْ وَ حَتَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ وَ افْتَرَضَ مِنْ أَسْنِنَتِكُمُ الذِّكْرَ وَ أَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى وَ جَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ وَ حَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينِهِ وَ نَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ وَ تَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ إِنْ أَسْرَرْتُمْ عِلْمَهُ وَ إِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ قَدْ وَكَلَّ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَامًا لَا يُسْقَطُونَ حَقًّا وَ لَا يُنْبِتُونَ بَاطِلًا « فَعَظَّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ » قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك ممن تشاء و تعز من تشاء و تدل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار و تولج النهار في الليل و تخرج الحي من الميت و تخرج الميت من الحي و ترزق من تشاء بغير حساب ١ ،

و لله المشرق و المغرب فأينما تولوا فثم وجه الله . . . ٢ ، الله الذي خلق سبع سماوات و من الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء

(٢) البقرة : ١١٥ .

الصفحة ٤٢١

قدير و أنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علما ١ ، قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربّي و لو جئنا بمثله مددا ٢ ، و ما قدروا الله حقّ قدره و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السماوات مطويات بيمينه . . . ٣ ، . . . إن يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد . و ما ذلك على الله بعزيز ٤ .

« فإنّه لم يخف » من أخفى .

« عنكم شيئا من دينه » فقد قال تعالى في كتابه : . . . اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا . . . ٥ ، و المراد الإكمال بالكتاب و العترة معا ، فقد قال النبيّ صلّى الله عليه و آله و سلّم في المتواتر عنه : إنّي تارك فيكم الثقلين : كتاب الله و عترتي ، و أنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض ٦ .

« و لم يترك شيئا رضيّه أو كرهه إلاّ و جعل له » أي : لما رضيّه أو كرهه .

« علما » أي : علامة .

« باديا » أي : ظاهرا ، أي من سنّته .

(١) الطلاق : ١٢ .

(٢) الكهف : ١٠٩ .

(٣) الزمر : ٦٧ .

(٤) إبراهيم : ١٩ ، ٢٠ .

(٥) المائدة : ٣ .

(٦) اسناد هذا الحديث يزيد على المنات عن طريق أهل السنة و الامامية و الزيدية ، اقتصر على ما أخرجه و صحّحه مسلم في صحيحه ٤ : ١٨٧٣ و ١٨٧٤ ح ٣٦ ، ٣٧ بأربع طرق ، و الحاكم في مستدرک الصحيحين عنه إحياء الميت : ١١ ح ٦ عن زيد بن أرقم عن النبيّ صلّى الله عليه و آله ، و أخرجه صاحب صحيفة الرضا عليه السّلام فيه : ٥٩ ح ٨٣ ، و صاحب مسند زيد بن عليّ فيه : ٤٠٤ ، و القاضي الصعدي في درر الأحاديث : ٥٢ عن الرضا عليه السّلام ، و زيد بن عليّ ، و الهادي إلى الحق

عن علي عليه السلام عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، و جمع بعض طرقه الصدوق في كمال الدين ١ :
٢٣٤ ٢٤١ ، و السيوطي في إحياء الميت : ٤٨ ١١ .

الصفحة ٤٢٢

« و آية » بمعنى أو آية .

« محكمة » غير متشابهة من كتابه .

« تزجر عنه » أي : عن ذلك الشيء الذي كرهه .

« أو تدعو إليه » أي : إلى ذلك الشيء الذي رضي به ، و قد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حُجَّةٍ وَدَاعِهِ :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ وَاللَّهِ مَا مِنْ شَيْءٍ يَقْرَبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا وَ قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ ، وَ مَا مِنْ شَيْءٍ يَقْرَبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا وَ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ » ١ .

« فرضاه في ما بقي » من الزمان أو من الناس .

« واحد » فالناس عنده سواء .

« و سخطه في ما بقي واحد » لكون حلاله و حرامه على حالهما إلى الأبد .

« و اعلّموا أنه لن يرضى عنكم بشيء سخطه على من كان قبلكم » من الأمم الماضية أو ممّن كان في عصر الرّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

« و لن يسخط » أي : لن يغضب .

« عليكم بشيء رضيه ممّن كان قبلكم » لكون حكم الجميع واحدا .

« و إنّما تسيرون في أثر بيّن » من الدّين . . . قد تبين الرّشد من الغي . . . ٢ .

« و تتكلّمون برجع قول قد قاله الرّجال من قبلكم » قال ابن أبي الحديد : يعني كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)
(قد قالها الموحّدون من قبل هذه الملة لا تقليدا ، بل بالنظر و الدليل ، فقولوها أنتم كذلك ٣ .

قلت : لم أفهم كيفية دلالة (رجع القول) على ما قال ، و إنما المستفاد من

- (١) هذا صدر خطبة الكليني رواها في الكافي ٢ : ٧٤ ح ٢ ، و عاصم بن حميد في أصله : ٢٣ ، و رواه أبو القاسم الكوفي في الأخلاق عنه المستدرک ٢ : ٤١٩ ح ١٣ ، و الديلمي في أعلام الدين عنه المستدرک ٢ : ٤١٨ ح ١٠ .
- (٢) البقرة : ٢٥٦ .
- (٣) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٢٣ .

الصفحة ٤٢٣

مورد آية . . . و لو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربّهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكنّا مؤمنين .

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل و النهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله . . . ١ كون رجع القول تكرارا لمجاوبة بين فريقين ، و لعلّ الرجع هنا بمعنى النّفع ، كما قيل في قوله تعالى : و السماء ذات الرّجّع ٢ .

« قد كفاكم مؤونة دنياكم » و في السماء رزقكم و ما تعدون . فو ربّ السماء و الأرض إنّه لحقّ مثل ما أنكم تنطقون ٣ .

« و حتّم على الشّكر » و لقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله و من يشكر فإنّما يشكر لنفسه و من كفر فإنّ الله غني حميد ٤ ، . . . لئن شكرتم لأزيدنكم و لئن كفرتم إنّ عذابي لشديد ٥ .

« و افترض من ألسنتكم الذّكر » صادرا عن القلب . . . و اذكروا الله كثيرا لعلّكم تفلحون ٦ ، و اذكر ربّك في نفسك تضرّعا و خيفة و دون الجهر من القول بالغدوّ و الأصال و لا تكن من الخافلين ٧ .

« و أوصاكم بالتّقوى » . . . و لقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم

- (١) سبأ : ٣١ ٣٣ .
- (٢) الطارق : ١١ .
- (٣) الذاريات : ٢٢ ٢٣ .

- (٤) لقمان : ١٢ .
 (٥) ابراهيم : ٧ .
 (٦) الجمعة : ١٠ .
 (٧) الأعراف : ٢٠٥ .

الصفحة ٤٢٤

- و إِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ١ .
 « و جعلها منتهى رضاه » من عباده إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ٢ .
 « و حاجته من خلقه » يا أيُّها الذين امنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلَّكم تتقون ٣ .
 « فاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بَعِينُهُ » و أن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه و لا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلك وصاكم به لعلَّكم تتقون ٤ ، و لقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه و نحن أقرب إليه من حبل الوريد ٥ ، و هو الَّذِي يتوفَّاكم بالليل و يعلم ما جرحتم بالنهار ثمَّ يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ٦ .
 « و نواصيكم بيده » ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إنَّ ربي على صراط مستقيم ٧ .
 « و تقلِّبكم في قبضته » و الله يعلم متقلِّبكم و مثواكم ٨ ، فلا يغررك تقلِّبهم في البلاد ٩ .
 « إن أسررت علمه » يعلم السرَّ في السماوات و الأرض ١٠ ،

- (١) النساء : ١٣١ .
 (٢) الحجرات : ١٣ .
 (٣) البقرة : ١٨٣ .
 (٤) الأنعام : ١٥٣ .
 (٥) ق : ١٦ .
 (٦) الأنعام : ٦٠ .
 (٧) هود : ٥٦ .
 (٨) محمد : ١٩ .
 (٩) غافر : ٤ .

(١٠) الفرقان : ٦ .

الصفحة ٤٢٥

تسرّون إليهم بالموّدة و أنا أعلم بما أخفيتم و ما أعلنتم . . . ١ ، . . . يخرج الخبء في السماوات و الأرض و يعلم ما تخفون و ما تعلنون ٢ .

« و إن أعلنتم كتبه » و كلّ صغير و كبير مستطر ٣ ، . . . و نكتب ما قدّموا و آثارهم و كلّ شيء أحصيناه في إمام ميين ٤ ، ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد ٥ .

« قد وكلّ بكم » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (بذلك) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٦ .

« حفظة كراما » و هو القاهر فوق عباده و يرسل عليكم حفظة حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا و هم لا يفرطون ٧ .

« لا يسقطون حقّا و لا يثبتون باطلا » لا ككتاب الأمراء و الملوك يثبتون الباطل على الناس و يسقطون الحقّ لهم .

قال تعالى : و إنّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ٨ ، إذ يتلقّى المتلقّيان عن اليمين و عن الشمال قعيد ٩ ،

و يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلّا أحصاها

(١) الممتحنة : ١ .

(٢) النمل : ٢٥ .

(٣) القمر : ٥٣ .

(٤) يس : ١٢ .

(٥) ق : ١٨ .

(٦) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٢٢ ، و شرح ابن ميثم ٣ : ٣٩٨ « بكم » أيضا .

(٧) الأنعام : ٦١ .

(٨) الانفطار : ١٠ ١٢ .

الصفحة ٤٢٦

و وجدوا ما عملوا حاضرا و لا يظلم ربك أحدا ١ .

٤٩

من الخطبة (١٩٣) وَ اعْلَمُوا عِبَادَ اللَّهِ أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثًا وَ لَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلًا عِلْمَ مَبْلَغِ نِعْمِهِ عَلَيْكُمْ وَ أَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ فَاسْتَفْتَحُوهُ وَ اسْتَجَبُوهُ وَ أَطْلَبُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَمْنَحُوهُ فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ وَ لَا أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ وَ إِنَّهُ لِبِكْلِ مَكَانٍ وَ فِي كُلِّ حِينٍ وَ أَوَانَ وَ مَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَ جَانٍّ لَا يَتْلُمُهُ الْعَطَاءُ وَ لَا يَنْقُصُهُ الْحَبَاءُ وَ لَا يَسْتَنْفِذُهُ سَائِلٌ وَ لَا يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ وَ لَا يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ وَ لَا يُلْهِمُهُ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ وَ لَا تَحْجُزُهُ هَبَّةٌ عَنْ سَلْبٍ وَ لَا يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ وَ لَا تُولِيهِ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ وَ لَا تُجْنُهُ الْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ وَ لَا تَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ الْبُطُونِ قَرْبَ فَنَائِي وَ عَلَا فِدْنَا وَ ظَهَرَ فَبَطْنٍ وَ بَطَنَ فَعَلَنَ وَ دَانَ وَ لَمْ يَدْنُ لَمْ يَذَرَأِ الْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ وَ لَا اسْتِعَانَ بِهِمْ لِكَلَالٍ « وَ اعلموا عباد الله أنه لم يخلقكم عبثا » أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون ٢ .

« و لم يرسلكم هملا » كإبل بلا راع أ يحسب الإنسان أن يترك سدى . أ لم يك نطفة من مني يمى . ثم كان علة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر و الأنثى . أ ليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ٣ .

« علم مبلغ نعمه عليكم و أحصى إحسانه إليكم » و إنما الخلق لا يعلمون

(١) الكهف : ٤٩ .

(٢) المؤمنون : ١١٥ .

(٣) القيامة : ٤٠ ٣٦ .

الصفحة ٤٢٧

مبلغ نعمه و لا يحصون مقدار إحسانه ، قال تعالى : . . . و إن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . . ١ .

« فاستفتحوه » فإنه القادر على فتح أبواب النعم عليكم .

« و استتجوه » فهو القادر لإنجاح حوائجكم .

« و اطلبوا إليه » مطالبكم كليها و جزئها ، و في الخبر : أوحى إلى موسى :

اطلب مني جميع حوائجك حتى علف شانك و ملح خميرك ٢ .

« و استمنحوه » و روي (استمنحوه) ٣ و كلّ منهما بمعنى اطلبوا العطاء منه تعالى : . . . و اسألوا الله من فضله إن الله كان بكلّ شيء عليما ٤ .

« فما قطعكم عنه حجاب » كالملوك و الأمراء .

« و لا أغلق عنكم دونه باب » كأهل الدنيا .

« و إنه ليكلّ مكان » قال رجلان من علماء اليهود له عليه السلام : أين ربك ؟

فقال عليه السلام لهما ضاربا لهما مثلا : أقبل ملك من المشرق و ملك من المغرب ،

و ملك من السماء ، و ملك من الأرض . فقال صاحب المشرق لصاحب المغرب :

من أين أقبلت ؟ قال : من عند ربّي . و قال صاحب المغرب لصاحب المشرق : من أين أقبلت ؟ قال من عند ربّي . و قال الخارج من الأرض للنازل من السماء : من أين أقبلت ؟ قال من عند ربّي . و قال النازل من السماء للخارج من الأرض : من أين أقبلت ؟ قال : من عند ربّي ٥ .

« و في كلّ حين » أي : زمان ، عطف على (ليكلّ) .

(١) إبراهيم : ٣٤ .

(٢) رواه ابن فهد في عدّة الداعي عنه الجواهر السنّية : ٦١ و النقل بالمعنى .

(٣) نقل هذه الرواية ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ٥٣٩ .

(٤) النساء : ٣٢ .

(٥) أخرجه الصدوق ضمن حديث طويل في التوحيد : ١٨٠ ح ١٥ عن علي عليه السلام .

الصفحة ٤٢٨

« و أوان » أي : وقت ، لأنه خالق الأوقات و الأزمنة ، كما أنه خالق الأمكنة .

« و مع كل إنس و جان » . . . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم و لا خمسة إلا هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إنَّ الله بكلِّ شيءٍ عليم ١ .

« لا يئلمه » أي : لا يورد عليه خلا ، يقال : « في الإناء تلم » إذا انكسر من شفته شيء .

« العطاء » كما يئلم الخلق .

« و لا ينقصه » بالفتح ، هنا متعدّ ، و يأتي لازماً يقال : « نقص الشيء و نقصته » .

« الحباء » أي : العطاء ، و كيف يئلمه عطاء ، و ينقصه حباء ، و هو الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون .

« و لا يستنفده » أي : لا يجعل ما عنده فانيا ، يقال : « نفذ الشيء » إذا أفني .

« سائل » . . . و لله خزائن السموات و الأرض . . . ٢ .

« و لا يستقصيه » أي : لا يبلغ أقصاه .

« نائل » أي : عطاء كالنوال .

« و لا يلويه » أي : لا يميله .

« شخص عن شخص » آخر كالنّاس .

« و لا يلهيه » آخر كالخلائق .

« و لا تحجزه » أي : لا تمنعه .

« هبة » لأحد .

(١) المجادلة : ٧ .

(٢) المنافقون : ٧ .

الصفحة ٤٢٩

« عن سلب » عن آخر ، . . . يهب لمن يشاء إناثا و يهب لمن يشاء الذكور .

أو يزوجهم ذكرانا و إناثا و يجعل من يشاء عقيما . . . ١ .

« لا تولهه » أي : لا تغفله .

« رحمة » لأحد .

« عن عقاب » لآخر . . . إن ربك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم ٢ .

فإن قيل : إن غيره تعالى قد يهب لواحد ، و يسلب آخر ، و يغضب على رجل ، و يرحم آخر ، و يعاقب شخصا ، و يترحم على آخر . فأبي امتياز له تعالى ؟

قلت : غيره تعالى يفعل ما ذكر على التعاقب على حسب حال تعرض له من حصول رقة أو ثورة أو غيرهما ، و هو تعالى يفعل جميع ذلك في وقت واحد بدون حصول تأثر له .

« و لا تجنه » بالفتح و الضمّ ، قال الجوهرى : جنت الميّت و أجنته ، أي :

واريته ٣ .

« البطون عن الظهر ، و لا تقطعه الظهر عن البطون » قال ابن أبي الحديد :

الظهر و البطون مصدران ، تقول : ظهر ظهورا ، و بطن بطونا ٤ .

قلت : و يحتمل أن يكونا جمع الظهر و البطن ، و يكون المراد أن الخلاق إذا وردوا في بطون الأشياء تكون ظهورها عنهم مستورة و بالعكس ، و الخالق ليس كذلك ، بل بطون الأشياء و ظهورها عنده سواء .

« قرب » و إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا

(١) الشورى : ٥٠ ٤٩ .

(٢) فصلت : ٤٣ .

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ٢٠٩٣ مادة (جنن) .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٣٩ و النقل بالمعنى .

الصفحة ٤٣٠

دعان . . . ١ .

« فنأى » أي : بعد . . . ربّ أرني أنظر اليك قال لن تراني و لكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا و خرّ موسى صعقا . . . ٢ .

« و علا » سبّح اسم ربّك الأعلى . الذي خلق فسوّى . و الذي قدر فهدى .

و الذي أخرج المرعى ٣ .

« فدنا » أي : قرب . . . و نحن أقرب إليه من حبل الوريد ٤ .

« و ظهر فبطن » هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكلّ شيء عليم ٥ .

« و بطن فعلمن » قالت رسلهم أ في الله شكّ فاطر السماوات و الأرض . . . ٦ .

و روى (توحيد الصدوق) عن أحمد بن محسن الميثمي ، قال : كنت عند أبي منصور المتطبّب ، فقال : أخبرني رجل من أصحابي ، قال : كنت أنا و ابن أبي العوجاء ، و عبد الله بن المقفّع في المسجد الحرام . فقال ابن المقفّع : ترون هذا الخلق ؟ و أوماً بيده إلى موضع الطّواف ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية ، إلّا ذلك الشيخ الجالس يعني جعفر بن محمّد عليه السّلام فأما الباقر فرعاع و بهائم . فقال له ابن أبي العوجاء : و كيف أوجبت هذا الاسم لهذا الشيخ

(١) البقرة : ١٨٦ .

(٢) الأعراف : ١٤٣ .

(٣) الأعلى : ٤١ .

(٤) ق : ١٦ .

(٥) الحديد : ٣ .

(٦) ابراهيم : ١٠ .

الصفحة ٤٣١

دون هؤلاء ؟ قال : لأنني رأيت عنده ما لم أر عندهم . فقال ابن أبي العوجاء : لا بدّ من اختبار ما قلت فيه منه . فقال له ابن المقفع : لا تفعل ، فإنني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك . فقال : ليس ذا رأيك ، و لكنك تخاف أن يضعف رأيك عندي في إحلالك إياه المحلّ الذي وصفت . فقال له ابن المقفع : أمّا إذا توهمت على هذا فقم إليه ، و تحفظ ما استطعت من الزلّ ، و لا تثن عنائك إلى استرسال يسلمك إلى عقاب و سمه مالك أو عليك . قال : فقام ابن أبي العوجاء و بقيت أنا و ابن المقفع فرجع إلينا و قال : يا ابن المقفع ما هذا ببشر و إن كان في الدنيا روحاني يتجسّد إذا شاء ظاهرا و يتروّح إذا شاء باطنا فهو هذا . فقال له : و كيف ذلك ؟

فقال : جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني ، فقال : ان يكن الأمر على ما يقول هؤلاء ، و هو على ما يقولون يعني أهل الطّواف فقد سلموا و عطبتهم ،

و إن يكن أمر على ما تقولون و ليس كما تقولون فقد استويتم أنتم و هم .

فقلت له : يرحمك الله ، و أيّ شيء نقول ، و أيّ شيء يقولون ؟ ما قولي و قولهم إلاّ واحد . قال : فكيف يكون قولك و قولهم واحدا ، و هم يقولون : إنّ لهم معادا و ثوابا و عقابا و يدينون بأنّ للسّماء إليها و أنّها عمران ، و أنتم تزعمون أنّ السّماء خراب ليس فيها أحد ؟

قال : فاغتمتها منه ، فقلت له : ما منعه إن كان الأمر كما تقول أن يظهر لخلقه و يدعوهم إلى عبادته حتّى لا يختلف منهم اثنان ، و لم احتجب عنهم ،

و أرسل إليهم الرّسل ، و لو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الايمان به ؟

فقال لي : ويليك ، و كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك : نشوءك و لم تكن ، و كبرك بعد صغرك ، و قوتك بعد ضعفك ، و ضعفك بعد قوتك ،

و سقمك بعد صحتك ، و صحتك بعد سقمك ، و رضاك بعد غضبك ، و غضبك بعد رضاك ، و حزنك بعد فرحك ، و فرحك بعد حزنك ، و حبك بعد بغضك ،

الصفحة ٤٣٢

و بغضك بعد حبك ، و عزمك بعد إبانك ، و إبانك بعد عزمك ، و شهوتك بعد كراهتك ، و كراهتك بعد شهوتك ، و رغبتك بعد رهبتك ، و رهبتك بعد رغبتك ،

و رجاك بعد يأسك ، و يأسك بعد رجاك ، و خاطرك بما لم يكن في وهمك ،

و عزوب ما أنت معتقده عن ذهنك . . . و ما زال يعدّ عليّ قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه سيظهر إلهه فيما بيني و بينه ١ .

« و دان » أي : جزى فلو لا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين ٢ .

« لم يدن » بلفظ المجهول ، أي : و لم يجزه أحد ، قال تعالى : لا يسأل عما يفعل و هم يسألون ٣ .

« لم يذراً » الذرة : الخلق المتفرق الكثير ، كما في قوله تعالى : و ما ذراً لكم في الأرض مختلفا ألوانه . . . ٤ ، و جعلوا لله ممّا ذراً من الحرث و الأنعام نصيباً . . . ٥ ، . . . جعل لكم من أنفسكم أزواجا و من الأنعام أزواجا يذروكم فيه . . . ٦ .

« الخلق » أي : مخلوقاته .

« باحتيال » و حيلة إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ٧ .

« و لا استعان بهم » أي : بخلقه .

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ١٢٥ ح ٤ ، و الكليني في الكافي ١ : ٧٤ ح ٢ ، و قد مرّ الحديث

في العنوان (٤) من هذا الفصل .

(٢) الواقعة : ٨٦ ٨٧ .

(٣) الأنبياء : ٢٣ .

(٤) النحل : ١٣ .

(٥) الأنعام : ١٣٦ .

(٦) الشورى : ١١ .

(٧) يس : ٨٢ .

الصفحة ٤٣٣

« لكلال » أي : عيٍّ و مسّ تعب ، قال تعالى : و لقد خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما في ستة أيّام و ما مسنا من لغوب ١ .

٥٠

من الخطبة (٨٩) و قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَ قَلَّلَهَا وَ قَسَمَهَا عَلَى الضَّيِّقِ وَ السَّعَةِ فَعَدَلَ فِيهَا لِيَبْتَلِيَ مَنْ أَرَادَ بِمَيْسُورِهَا وَ مَعْسُورِهَا وَ لِيَخْتَبِرَ بِذَلِكَ الشُّكْرَ وَ الصَّبْرَ مِنْ غَنِيِّهَا وَ فَقِيرِهَا ثُمَّ قَرَنَ بِسَعَتِهَا عِقَابِيلَ فَاقْتَهَا وَ بِسَلَامَتِهَا طَوَارِقَ آفَاتِهَا وَ بِفُرَجِ أَفْرَاحِهَا غُصَصَ أَتْرَاحِهَا وَ خَلَقَ الْأَجَالَ فَأَطَالَهَا وَ قَصَرَهَا وَ قَدَمَهَا وَ أَخْرَهَا وَ وَصَلَ بِالْمَوْتِ أَسْبَابَهَا وَ جَعَلَهُ خَالِجًا لِأَشْطَانِهَا وَ قَاطِعًا لِمَرَائِرِ أَقْرَانِهَا « و قَدَّرَ الْأَرْزَاقَ فَكَثَّرَهَا وَ قَلَّلَهَا »
الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له . . . ٢ .

« و قَسَمَهَا عَلَى الضَّيِّقِ وَ السَّعَةِ » . . . نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا . . . ٣ .

« فعدل فيها » لأنّ تقديره تعالى و تقسيمه عزّ و جلّ على وفق الحكمة ، و في الخبر : من منعه تعالى منعه ما ليس له ، و من أعطاه فإنما أعطاه ما ليس له ، فهو المتفضل بما أعطى و العادل في ما منع ، و لا يفعل إلا ما كان حكمة و صوابا ،

و من وجد في نفسه حرجا في شيء مما قضى فقد كفر ٤ .

(١) ق : ٣٨ .

(٢) العنكبوت : ٦٢ .

(٣) الزخرف : ٣٢ .

(٤) أخرجه الصدوق في نيل حديث في معنى لفظ (الجواد) في العيون ١ : ١١٦ ح ٤١ ، و معاني

الأخبار : ٢٥٦ ح ١ ، و الخصال : ٤٣ ح ٣٦ .

الصفحة ٤٣٤

« ليبتلّي » أي : يمتحن .

« من أراد بميسورها و معسورها » أي : يمتحن بعضا بالميسور ، و بعضا بالمعسور ، و روى التوحيد عن أنس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ فِي حَدِيثٍ قَالَ : قَالَ تَعَالَى :

وَ إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلِحُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِالْفَقْرِ ، وَ لَوْ أَغْنَيْتَهُ لِأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ، وَ إِنَّ مِنْ عِبَادِي الْمُؤْمِنِينَ لَمَنْ لَا يَصْلِحُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِالْغِنَاءِ ، وَ لَوْ أَفْقَرْتَهُ لِأَفْسَدَهُ ذَلِكَ ١ .

« و ليختبر » أي : يمتحن .

« بذلك الشكر و الصبر من غنيّها و فقيرها » هل يشكر غنيّها ، و هل يصبر فقيرها ، و في (الكافي) عن الكاظم عليه السلام يقول تعالى : إِنِّي لَمْ أَغْنِ الْغِنَى لِكِرَامَةٍ بِهِ عَلَيَّ ، وَ لَمْ أَفْقِر الْفَقِيرَ لِهَوَانٍ بِهِ عَلَيَّ ، وَ مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ الْأَغْنِيَاءَ بِالْفُقَرَاءِ ، وَ لَوْ لَا الْفُقَرَاءُ لَمْ يَسْتَوْجِبِ الْأَغْنِيَاءَ الْجَنَّةَ ٢ .

« ثمّ قرن بسعتها عقابيل » جمع عقبول ، و هي قرح صغار تخرج بالشفة من بقايا المرض ، و المراد هنا الشدائد .

« فافتها » فقالوا : الفقر الموت الأحمر ، و لا شيء أمرّ منه .

« و بسلامتها طوارق » و الأصل في الطروق الإتيان ليلا ، و هنا كناية عن البغثة .

« آفاتها » فحكمته اقتضت جعل الدنّيا كذلك لئلا يخلد النّاس إليها و ينسوا إليهم .

« و بفرج » بالضمّ فالفتح ، جمع فرجة .

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٤٠٠ ح ١ ، و علل الشرائع ١ : ١٢ ح ٧ ، و الكليني في الكافي ٢ :

٩٠ ح ٤ ، و قد مرّ في العنوان (٤٥) من هذا الفصل .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٢ : ٢٦٥ ح ٢٠ ، و الاسكافي في التمهيد : ٤٧ ح ٦٩ .

« أفرأحها » و مسارّها .

« غصص » الأصل في الغصّة اعتراض الطعام في الحلق .

« أترأحها » جمع التّرح ضدّ الفرح ، و لم تر في الدّنيا فرحا لا يخلطه ترح ،

و الحكمة ما مرّ .

« و خلق الأجل فأطالها و قصرها و قدّمها و أخرها » بدون أن يطلع عليها أحدا ،

و الجاهل و العالم في ذلك سواء حتّى الأطباء ، قال تعالى : هو الذي خلقكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ يخرجكم طفلا ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثمّ لتكونوا شيوخا و منكم من يتوفّى من قبل و لتبلغوا أجلا مسمّى و لعلكم تعقلون ١ .

« و وصل بالموت أسبابها » أي : أسباب الأجل ، و المراد الأمراض و الآفات .

« و جعله » أي : الموت .

« خالجا » أي : جاذبا .

« لأشطانها » أي : حبالها الطويلة .

« و قاطعا لمرائر » جمع مريرة ، حبل اشتدّ فتله .

« أقرانها » أي : حبالها ، و إضافة مرائر إليه من إضافة الصّفة ، و لكلّ أمّة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون ٢ .

عَالَمِ السِّرِّ مِنْ ضَمَائِرِ الْمُضْمَرِينَ وَ نَجْوَى الْمُتَخَافَتِينَ وَ خَوَاطِرِ رَجَمِ الظُّنُونِ وَ عَقْدِ عَزِيمَاتِ اليَقِينِ وَ
مَسَارِقِ إِيْمَاضِ الْجُفُونِ وَ مَا ضَمِنْتَهُ

(١) غافر : ٦٧ .

(٢) الأعراف : ٣٤ .

الصفحة ٤٣٦

أَكْنَانُ الْقُلُوبِ وَ غِيَابَاتُ الْغُيُوبِ وَ مَا أَصْنَعْتَ لِاسْتِرَاقِهِ مَصَائِحُ الْأَسْمَاعِ وَ مَصَايِفُ الذَّرِّ وَ مَشَاتِي الْهَوَامِّ وَ
رَجْعُ الْحَنِينِ مِنَ الْمُؤَلَّهَاتِ وَ هَمْسُ الْأَقْدَامِ وَ مُنْفَسِحُ الثَّمَرَةِ مِنْ وَ لَائِحِ غُلْفِ الْأَكْمَامِ وَ مُنْقَمَعُ الْوُحُوشِ مِنْ
غَيْرَانِ الْجِبَالِ وَ أُوْدِيَّتِهَا وَ مُخْتَبِئِ الْبَعُوضِ بَيْنَ سُوقِ الْأَشْجَارِ وَ أَحْيَيْتَهَا وَ مَغْرَزِ الْوُرَاقِ مِنَ الْأَفْنَانِ وَ مَحَطِّ
الْأَمْشَاجِ مِنْ مَسَارِبِ الْأَصْلَابِ وَ نَاشِئَةِ الْغُيُومِ وَ مُتَلَاوِحِهَا وَ دُرُورِ قَطْرِ السَّحَابِ فِي مُتْرَاكِمِهَا وَ مَا تَسْفِي
الْأَعَاصِيرُ بِذَيْوَلِهَا وَ تَعْفُو الْأَمْطَارُ بِسَيْوُولِهَا وَ عَوْمُ بَنَاتِ الْأَرْضِ فِي كَثْبَانِ الرَّمَالِ وَ مُسْتَقَرُّ ذَوَاتِ الْأَجْنِحَةِ
بِذُرَا شَنَاخِيْبِ الْجِبَالِ وَ تَغْرِيدُ ذَوَاتِ الْمَنْطِقِ فِي دِيَاجِيرِ الْوُكَاارِ وَ مَا أَوْعَبْتَهُ الْأَصْدَافُ وَ حَضَنْتَ عَلَيْهِ
أَمْوَاجُ الْبِحَارِ وَ مَا غَشِيَتْهُ سُدْفَةُ لَيْلٍ أَوْ ذَرٌّ عَلَيْهِ شَارِقُ نَهَارٍ وَ مَا اعْتَقَبْتَ عَلَيْهِ أَطْبَاقُ الدِّيَاجِيرِ وَ سُبْحَاتُ
النُّورِ وَ أَثَرِ كُلِّ خَطْوَةٍ وَ حِسِّ كُلِّ حَرَكَةٍ وَ رَجْعِ كُلِّ كَلِمَةٍ وَ تَحْرِيكِ كُلِّ شَفَةِ وَ مُسْتَقَرُّ كُلِّ نَسْمَةٍ وَ مِثْقَالِ كُلِّ
ذَرَّةٍ وَ هَمَاهِمِ كُلِّ نَفْسٍ هَامَّةٍ وَ مَا عَلَيْهَا مِنْ ثَمَرِ شَجَرَةٍ أَوْ سَاقِطِ وَرَقَةٍ أَوْ قَرَارَةِ نُطْفَةٍ أَوْ نِقَاعَةِ دَمٍ وَ مُضْغَةِ
أَوْ نَاشِئَةِ خَلْقٍ وَ سَلَالَةِ لَمْ يَلْحَقَهُ فِي ذَلِكَ كُفْلَةٌ وَ لَا اعْتَرَضَتْهُ فِي حِفْظِ مَا ابْتَدَعَهُ مِنْ خَلْقِهِ عَارِضَةٌ وَ لَا
اعْتَوَرَتْهُ فِي تَنْفِيذِ الْأُمُورِ وَ تَدْبِيرِ الْمَخْلُوقِينَ مَلَالَةٌ وَ لَا فِتْرَةٌ بَلْ نَفَذَ فِيهِمْ عِلْمَهُ وَ أَحْصَاهُمْ عَدَّهُ وَ وَسِعَهُمْ
عَدْلُهُ وَ غَمَرَهُمْ فَضْلُهُ مَعَ تَقْصِيرِهِمْ عَنْ كُنْهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ « عالم السر » . . . يعلم السرّ و أخفى ١ .

« من ضمائر المضميرين » و إنّ ربك ليعلم ما تكنّ صدورهم و ما

(١) طه : ٧ .

الصفحة ٤٣٧

يعلنون ١ .

« و نجوى المتخافتين » ألم تر أنّ الله يعلم ما في السموات و ما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ
هو رابعهم و لا خمسة إلاّ هو سادسهم و لا أدنى من ذلك و لا أكثر إلاّ هو معهم أينما كانوا ثمّ ينبئهم بما
عملوا يوم القيامة إنّ الله بكلّ شيء عليم ٢ .

« و خواطر رجم الظنون » ممّا لا حقيقة له ، و لا وجود له إلاّ في الخيال ، قال الجوهري : الرّجم أن يتكلّم الرّجل بالظنّ .

قال تعالى : . . . رجما بالغيب . . . ٣ يقال : صار فلان رجما لا يوقف على حقيقة أمره ٤ .

« و عقد » بالضمّ فالفتح جمع عقدة .

« عزيمات اليقين » أي : قطع يطابق الواقع .

« و مسارق » جمع مسروق ، يقال : هو يسارق النظر . إذا اهتبل غفلته .

« إيماض » من أو مضت المرأة إذا ساقنت النظر .

« الجفون » من العيون ، و الأصل في كلامه عليه السّلام قوله تعالى : يعلم خائنة الأعين و ما تخفي الصدور ٥ .

« و ما ضمنته » أي : جعلته في ضمنها .

« أكنان » جمع الكنّ ، بمعنى السّترة .

(١) النمل : ٧٤ .

(٢) المجادلة : ٧ .

(٣) الكهف : ٢٢ .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ١٩٢٨ مادة (رجم) .

(٥) غافر : ١٩ .

الصفحة ٤٣٨

« القلوب » و ربك يعلم ما تكنّ صدورهم و ما يعلنون ١ .

« و غيابات » جمع الغيابة ، يقال : غيابة الجب . أي : قعره .

« الغيوب » جمع الغيب خلاف الشهود ، و الأصل في الغيب المطمئن من الأرض ، قال لبيد في بقرة أكل السبع ولدها :

و تسمعت رزّ الأنيس فراعها
عن ظهر غيب و الأنيس سقامها

٢ و الغيب ما غاب من العين يقال : شاة ذات غيب . إذا كانت ذات شحم ،

لتغيبه عن العين .

قال تعالى : . . . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون ٣ .

« و ما أصغت » أي : استمعت .

« لاستراقه » من استرق السمع ، أي : استمع مستخفياً كأنه يسرق الخبر .

« مصائخ الأسماع » و المصائخ جمع المصيخة ، ما فيها قوّة السّماع ،

و الأسماع جمع السمع ، أي : الأذان السّمعية ، قال تعالى : و لقد جعلنا في السماء بروجا و زينّاها للناظرين . و حفظناها من كلّ شيطان رجيم . إلّا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ٤ .

« و مصائف الذرّ » الذرّ جمع ذرّة أصغر النمل ، و مصائفها مواضعها في الصيف .

« و مشاتي الهوامّ » الهوامّ جمع الهامّة ، قال الجوهري : لا يقع اسم الهامّة إلّا

(١) القصص : ٦٩ .

(٢) أورده لسان العرب ١ : ٦٥٥ مادة (غيب) .

(٣) البقرة : ٣٣ .

(٤) الحجر : ١٦ ١٨ .

على المخوف من الأحناش . و مشتاتها مواضعها في الشتاء ١ .

« و رجع الحنين » قال الجوهري : حنين الناقة : صوتها في نزاعها إلى ولدها ٢ .

« من المولهاة » جمع المولهة ، أي : التي فرّق بينها و بين ولدها فهي عليه و الهة .

« و همس الأقدام » أي : أخفى صوتها ، قال تعالى : . . . فلا تسمع إلا همسا ٣ .

« و منفسح الثمرة » أي : متسعة .

« من ولائج » جمع الوليجة ، أي : مداخل .

« غلف » بضمّتين : جمع غلاف .

« الأكمام » جمع الكمّ ، بالكسر وعاء الطّلع و غطاء النّور ، قال :

بوائج في أكمامها لم تفتق

. ٤

و أما الكمّ بالضمّ فهو كمّ القميص ، و ليس بمراد هنا .

« و منقمع » أي : مختفى .

« الوحوش » أي : حيوانات البرّ .

« من غيران » بالكسر جمع غار كالكهف في الجبل .

« الجبال و أوديتها » جمع الوادي ، و في (المصباح) : الوادي : كلّ منفرج بين

(١) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ٢٠٦٢ مادة (همم) .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ٢١٠٤ مادة (حنن) .

(٣) طه : ١٠٨ .

(٤) أورده لسان العرب ١٢ : ٥٢٦ مادة (كم) ، و نسبه إلى الشّمّاح و صدره : قضيت أمورا ثم غادرت بعدها

الصفحة ٤٤٠

جبال أو آكام يكون منفذا للسيل ١ .

« و مختبأ » أي : مختفى .

« البعوض » قال الجوهريّ : البعوض البق ٢ .

« بين سوق » بالضمّ ، جمع ساق .

« الأشجار و ألحيثها » بفتح الهمزة ، جمع اللحاء : قشر الشجر .

« و مغرز » من غرزت الشيء بالإبرة .

« الأوراق » جمع الورق ، و المراد ورق الشجر .

« من الأفنان » جمع الفنّ : غصن الشجر .

« و محطّ » أي : محلّ نزول .

« الأمشاج » أي : نطفة الرّجل و المرأة ، جمع المشيج ، مثل يتيم و أيتام ،

يقال : نطفة أمشاج . لماء الرجل يختلط بماء المرأة و دمها .

قال تعالى : إنّنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج . . . ٣ .

« من مسارب » جمع مسرب ، أي : مجرى .

« الأصلاب » قال تعالى : يخرج من بين الصّلب و التّرائب ٤ .

« و ناشئة » قال الجوهري : النّشء أوّل ما ينشأ من السّحاب ٥ .

« الغيوم » جمع الغيم ، يقال : غامت السماء ، إذا أطبق بها السحاب .

« و متلاحمها » أي : متضاعفها .

« و درور » أي : سيلان .

(١) المصباح المنير ٢ : ٣٧٢ مادة (ودي) .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٣ : ١٠٦٦ مادة (بعض) .

(٣) الإنسان : ٢ .

(٤) الطارق : ٧ .

(٥) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٧٧ مادة (نشأ) .

الصفحة ٤٤١

« قطر السحاب في متراكمها » أي : مجتمعا ، و ركوب بعضها بعضا .

« و ما تسفي » من سفت الرّيح التراب إذا ذرته .

« الأعاصير » جمع الإعصار ، و هو ريح تنثير الغبار فيرتفع إلى السماء كأنه عمود ، قال تعالى : . . . فأصابها إعصار فيه نار . . . ١ .

و يقال : هو ريح تنثير سحابا ذات رعد و برق .

« بذبولها » التي تلاقى الأرض .

« و تعفو » من عفت الرّيح المنزل : درسته .

« الأمطار بسبولها » أي : السيول الحاصلة منها .

« و عوم » أي : سباحة .

« بنات الأرض » روي « نبات » بتقديم النون ٢ ، فتكون إضافة العوم إليه مجازاً ، و بتقديم الباء فيكون المراد بها الحشرات و الهوامّ التي تكون في تلال الرّمال ، فتكون نسبة العوم إليها استعارة .

« في كَثبان الرمال » أي : تلالها ، قال الجوهري : كلّ ما انصبّ في شيء فقد انكثب فيه ، و منه سمّي الكثيب من الرّمل ، لأنه انصبّ في مكان فاجتمع فيه ،

و الجمع : الكَثبان ٣ .

« و مستقرّ ذوات الأجنحة » أي : الطيور .

« بذرى » بالضمّ ، جمع ذروة ، أي : أعالي .

« شناخيب الجبال » أي : رؤوسها .

« و تغريد » من غرّد الطائر اذا صوت و غنّى .

(١) البقرة : ٢٦٦ .

(٢) نقل هذه الرواية ابن ميثم في شرحه ٢ : ٣٨٣ .

(٣) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٢٠٩ مادة (كَثب) .

الصفحة ٤٤٢

« ذوات المنطق » أي : طيور تتغنّى ، و ليس كلّ طير كذلك .

« في دياجير » جمع ديجور ، أي : ظلمة .

« الأوكار » جمع الوكر : عشّ الطائر .

« و ما أوعبته » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و ما أوعته) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخوئي و الخطيبي) ١ ، و قالوا : و في نسخة « و ما أودعته » ٢ . و معنى (ما أوعته) : جعلت له وعاء .

« الأصداف » جمع الصدف : غشاء الدرّة .

« و حضنت » من : حضن الطائر بيضه ، إذا ضمّه إلى نفسه تحت جناحه ،

و كذلك المرأة إذا حضنت ولدها .

« عليه أمواج البحار » يفهم من كلامه عليه السّلام أنّ أمواج البحار تربيّ أشياء حيّة و غير حيّة .

« و ما غشيتّه » أي : حوته .

« سدفة » أي : ظلمة .

« ليل » قال النّابغة :

فإنّك كالليل الذي هو مدركي
و إن خلت أن المنتأى عنك واسع

٣ « أو ذرّ » من ذرّت الشّمس ، أي : طلعت .

« عليه شارق » أي : طالع ، يقال : لا آتيك ما ذرّ شارق .

« نهار » و المراد بشارق النّهار : الشّمس .

« و ما اعتقبت » أي : تعاقبت .

(١) كذا في شرح الخوئي ٣ : ١٣١ ، لكن في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٧ « ما أوعبته » أيضا .

(٢) أمّا ابن أبي الحديد فأورد في متن الخطبة في ٢ : ١٦٧ « أوعبته » ، و عند شرح الفقرة في ١٦٧ : « ما أودعته » و لم يصرّح إلى كونه في نسخة أخرى ، و الظاهر غلط الناسخ ، و أمّا ابن ميثم و الخوئي فلم نجد في شرحيهما هذه الرواية أصلا .

(٣) أورده التفتازاني في المطول : ٢٨٦ باب الإيجاز و الإطناب و المساواة .

« عليه أطاق » أي : طبقات .

« الدياجير » أي : الظلم .

« و سبحات النور » أي : أشعته .

« و أثر كل خطوة » أي : قدم .

« و حسّ » أي : صوت خفي .

« كل حركة » من كل متحرك .

« و رجع كل كلمة » أي : أثرها في الهواء بالتموج .

« و تحريك كل شفة » بكلام جهر أو خفي .

« و مستقر كل نسمة » أي : كل نفس إنسانا أو غيره ، قال تعالى : و ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها و يعلم مستقرها و مستودعها كل في كتاب مبين ١ .

« و مثقال كل ذرة » . . . و ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض و لا في السماء و لا أصغر من ذلك و لا أكبر إلا في كتاب مبين ٢ .

« و هماهم » جمع همهمة ، ترديد الصوت في الصدر .

« كل نفس هامة » بالتشديد ، أي : قاصدة لشيء لا تدري تفعله أم لا ، قال الشاعر :

هممت و لم أفعل و كدت و لييتني

تركت على عثمان تبكي حلاله

٣ « و ما عليها من ثمر شجرة » هكذا في النسخ ٤ ، و قال ابن أبي الحديد : « و ما عليها » أي : ما على الأرض ، فجاء بالضمير و لم يسبق ذكر صاحبه اعتمادا على

- (١) هود : ٦ .
 (٢) يونس : ٦١ .
 (٣) أورده الزمخشري في الكشاف ٢ : ٤٥٥ .
 (٤) نهج البلاغة ١ : ١٨٠ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٨ .

الصفحة ٤٤٤

فهم المخاطب ، كما قال تعالى : كلّ من عليها فان ١ .

قلت : و الأظهر حصول سقط في الكلام أو تقديم و تأخير أو تحريف ، و لا يبعد أن يكون الأصل (و ما ينع من ثمر شجرة) من قوله تعالى : . . . انظروا إلى ثمره إذا أثمر و ينعه . . . ٢ ، و إلا فمقتضى السياق أن يكون (قرارة نطفة) و ما بعده عطفاً على (ثمر شجرة) كقوله : « ساقط ورقة » و لا معنى له .

« أو ساقط ورقة » . . . و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها و لا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين ٣ .

« أو قرارة نطفة » ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ٤ .

« أو نقاعة دم » الظاهر أنّ المراد بنقاعة دم : العلقة ، بقريئة نكر النطفة قبلها و المضغعة بعدها .

و قال الجوهري : دم ناقع ، أي : طريّ ، قال الشاعر قسام بن رومة :

و ما زال من قنلي رزاح بعالج

دم ناقع أو جاسد غير ما صح

و قال أبو سعيد : يريد بالناقع الطريّ ، و بالجاسد القديم ٥ .

« و مضغعة » أي : قطعة لحم ، قال تعالى : ثمّ خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغعة . . . ٦ .

« أو ناشئة خلق » و المراد نطفة تصير منشأ مولود ، و ليس كلّ نطفة كذلك .

- (١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٩ ، و الآية (٢٦) من سورة الرحمن .
 (٢) الأنعام : ٩٩ .
 (٣) الأنعام : ٥٩ .
 (٤) المؤمنون : ١٣ .
 (٥) صحاح اللغة للجوهري ٣ : ١٢٩٢ مادة (نفع) .
 (٦) المؤمنون : ١٤ .

الصفحة ٤٤٥

- « و سلالة » أي : الخلاصة ، قال تعالى : و لقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ١ .
 « لم يلحقه » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (لم تلحقه) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٢ .
 « في ذلك كلفة » أي : مثقّة ، قال تعالى : و لقد خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما في ستة أيّام و ما مسّنا من لغوب ٣ .
 « و لا اعترضته في حفظ ما ابتدعه » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (ما ابتدع) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ٤ .
 « من خلقه عارضة » تمنعه من الحفظ ، قال تعالى : . . . وسع كرسيه السماوات و الأرض و لا يؤوده حفظهما و هو العليّ العظيم ٥ .
 « و لا اعتورته » أي : لا اعترضته .
 « في تنفيذ الأمور » و إمضائها .
 « و تدبير المخلوقين » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و تدابير المخلوقين) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخوئي و الخطية) ٦ .
 « ملالة و لا فترة » أي : ضعف ، و كيف تلحقه كلفة أو تعترضه عارضة أو تعتوره فترة في خلقه و أمره ، و هو الذي إذا أراد شيئاً يقول له كن فيكون ؟

- (١) المؤمنون : ١٢ .
 (٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٨ « لم يلحقه » أيضا .
 (٣) ق : ٣٨ .
 (٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٨ « ما ابتدعه » أيضا .
 (٥) البقرة : ٢٥٥ .
 (٦) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ ، و شرح الخوئي ٣ : ١٣١ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٨ « تدبير » أيضا .

الصفحة ٤٤٦

- « بل نفذ فيهم علمه » . . . يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم . . . ١ .
 « و أحصاهم عدّه » لقد أحصاهم و عدّهم عدّا ٢ .
 « و وسعهم عدله » و تمت كلمة ربك صدقا و عدلا لا مبدل لكلماته و هو السميع العليم ٣ .
 « و غمرهم » من غمره الماء إذا علاه .
 « فضله » . . . و لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض و لكن الله ذو فضل على العالمين . ٤ .
 « مع تقصيرهم عن كنهه » أي : حقيقة .
 « ما هو أهله » و ما قدروا الله حق قدره و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة و السماوات مطويات بيمينه سبحانه و تعالى عما يشركون ٥ .
 هذا ، و قال ابن أبي الحديد بعد نقل هذا العنوان : لو سمع النضر بن كنانة هذا الكلام لقال لقائله ما قاله علي بن إسماعيل بن جريح لإسماعيل بن بلبل :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
 كلاً و لكن لعمرى منه شيبان

و كم أب قد علا بابن نرى شرف
كما علا برسول الله عدنان

إذن كان يفتخر به على عدنان و قحطان بل كان يقرّ به عين أبيه إبراهيم خليل الرحمن ، و يقول له : إنّه لم يعف ما شيدت من معالم التوحيد ، بل أخرج الله لك من ظهري ولدا ابتدع من علوم التوحيد في جاهلية العرب ما لم تتدعه أنت في جاهليّة النبط ، بل لو سمع هذا الكلام أرسطا طاليس القائل بأنه تعالى لا

(١) البقرة : ٢٥٥ .

(٢) مريم : ٩٤ .

(٣) الأنعام : ١١٥ .

(٤) البقرة : ٢٥١ .

(٥) الزمر : ٦٧ .

الصفحة ٤٤٧

يعلم الجزئيات لخشع قلبه وقفّ شعره ، و اضطرب فكره . ألا ترى ما عليه من الرّواء و المهابة ، و العظمة ، و الفخامة ، و المتانة و الجزالة ، مع ما قد أشرب من الحلاوة و الطلاوة ، و اللطف و السلاسة ، و لا أرى كلاما يشبه هذا إلا أن يكون كلام الخالق سبحانه ، فإنّ هذا الكلام نبعة من تلك الشجرة ، و جدول من ذلك البحر ، و جذوة من تلك النّار ، و كأنه عليه السّلام شرح قوله تعالى : و عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو و يعلم ما في البرّ و البحر و ما تسقط من ورقة إلا يعلمها و لا حبة في ظلمات الأرض و لا رطب و لا يابس إلا في كتاب مبين ١ .

قلت : قد أجاد في ما أفاد ، لكن عرفت ممّا نقلنا من الآيات في شرح الفقرات أنّ كلامه عليه السّلام تفسير لما قاله من الآية و آيات أخر .

٥٢ الحكمة (٤٧٠)

و قال عليه السّلام في نسخة و سئل عن التّوحيد و العدل ، فقال عليه السّلام :

التّوحيّدُ أَلَّا تَتَوَهَّمَهُ وَ الْعَدْلُ أَلَّا تَتَّهَمَهُ وَ أَقُولُ : و قال الصادق عليه السّلام : أمّا التّوحيد فأن لا تجوز على ربك ما جاز عليك ، و أمّا العدل فأن لا تنتسب إلى خالقك ما لامك عليه ٢ .

و في الخبر : أن أبا الصلت الهروي قال للرّضا عليه السّلام : لأيّ علّة أغرق الله تعالى الدنيا كلّها في زمن نوح عليه السّلام و فيهم الأطفال و من لا ذنب له ؟ فقال : ما كان فيهم الأطفال لأنّ الله تعالى أعقم أصلاب قوم نوح عليه السّلام و أرحام نسائهم أربعين عاما ، فانقطع نسلهم فغرقوا و لا طفل فيهم ، و ما كان الله تعالى ليهلك

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٦٧ ، مرّ نقله و تحقيق ما نقل عن ارسطا طاليس في شرح خطبة الرضي ، و الآية (٥٩) من سورة الأنعام .
(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٩٦ ح ١ .

الصفحة ٤٤٨

بعذابه من لا ذنب له ، و أمّا الباقر من قوم نوح عليه السّلام فأغرقوا لتكذيبهم لنبيّ الله نوح عليه السّلام ، و سائرهم أغرقوا برضاهم بتكذيب المكذّبين ، و من غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهدته و أتاه ١ .

٥٣ من الخطبة (٢١٢)

و من خطبة له عليه السّلام :

وَ أَشْهَدُ أَنَّهُ عَدْلٌ عَدْلٌ وَ حَكْمٌ فَصَلَّ أَقُولُ : قال ابن أبي الحديد : الضمير في (أنه) يرجع إلى القضاء و القدر المذكور في صدر هذه الخطبة ، و لم يذكره الرضي رحمه الله ٢ .

قلت : إن وجد ، فالخطبة كما ذكر ، و إلّا فنقول : إنّ الضمير فيه يرجع إليه تعالى ، و لو كان راجعا إلى القدر كما ذكر لكانت القاعدة أن يقول : « عدل عدل فيه ، و حكم فصل فيه » و لا يحتاج إلى تكلف أنّه نسب العدل إلى القضاء مجازا ، و حينئذ ف (عدل) بمعنى : عادل ، و استعماله كذلك كثير ، كالخلق بمعنى المخلوق ، و (حكم) بفتحيتين ، بمعنى : الحاكم .

و في الخبر : أن يهوديا سأله عليه السّلام عمّا ليس لله ، و عمّا ليس عند الله ، و عمّا لا يعلمه الله .

فقال علي عليه السّلام : أمّا ما لا يعلمه الله فذلك قولكم يا معشر اليهود : عزيز ابن الله . و الله لا يعلم له ولدا ، و أمّا ما ليس عند الله فليس عند الله ظلم للعبيد ، و أمّا ما ليس لله فليس لله شريك . أشهد ألا إله إلاّ الله ، و أنّ محمّدا رسول الله ٣ .

- (١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٩٢ ح ٢ ، و العيون ٢ : ٧٤ ح ٢ ، و علل الشرائع ١ : ٣٠ ح ١ .
 (٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٣ .
 (٣) أخرجه صاحب صحيفة الرضا عليه السلام فيه : ٨٤ ح ١٩٣ ، و الصدوق في التوحيد : ٣٧٧ ح ٢٣ و العيون ١ : ١١٦ ح ٤٠ ، و ٢ : ٤٥ ح ١٧٢ بطريقين ، و أبو علي الطوسي في أماليه ١ : ٢٨٢ المجلس (١٠) ، و أخرجه ضمن حديث طويل محمد بن علي بن إبراهيم في عجائب الأحكام : ١٠١ ح ١٧٠ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ١ : ٢٠٧ .

الصفحة ٤٤٩

و ورد أنّ أبا حنيفة خرج من عند الصادق عليه السلام فاستقبله الكاظم عليه السلام و هو يومئذ غلام ، فقال له : يا غلام ممّن المعصية) فقال : لا يخلو من ثلاث : إمّا أن يكون من الله تعالى و ليست منه فلا ينبغي للكريم أن يعذب عبده بما لا يكتسبه ، و إمّا أن يكون من الله و من العبد و ليس كذلك فليس ينبغي للشريك القويّ أن يظلم الشريك الضعيف ، و إمّا أن يكون من العبد و هي منه فإن عاقبه الله فبذنبه ، و إن عفا عنه فبكرمه و جوده ١ .

هذا ، و ممّا يدخل في موضوع كتابه ، و لم ينقله ممّا هو راجع إلى التوحيد ما رواه الكليني عن البرقيّ و العطار مرفوعا ، و الصدوق في اسنادين عن الصادق عليه السلام أنّ أمير المؤمنين عليه السلام استنهض الناس في حرب معاوية في المرّة الثانية فلما حشد الناس قام خطيبا ، فقال :

« الحمد لله الواحد الأحد الصمد ، المتفرد الذي لا من شيء كان ، و لا من شيء خلق ما كان ، قدرة بان بها من الأشياء ، و بانّت الأشياء منه ، فليست له صفة تنال ، و لا حدّ يضرب له فيه الأمثال ، كلّ دون صفاته تحبير اللغات ، و ضلّ هناك تصارييف الصّفات ، و حار في ملكوته عميقات مذاهب التفكير ، و انقطع دون الرّسوخ في علمه جوامع التفسير ، و حال دون غيبه المكنون حجب من الغيوب ، تاهت في أدنى أدانيها طامحات العقول في لطيفات الأمور ، فتبارك الله الذي لا يبلغه بعد الهمم ، و لا يناله غوص الفطن ، و تعالى الذي ليس له وقت معدود ، و لا أجل ممدود ، و لا نعت محدود . سبحان الذي ليس له أوّل مبتدأ ، و لا غاية منتهى ، و لا آخر يفنى ، سبحانه هو كما وصف نفسه ، و الواصفون لا

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٩٦ ح ٢ ، و العيون ١ : ١١٣ ح ٣٧ ، و أماليه : ٣٣٤ ح ٤ المجلس (٦٤) ، و المرتضى في الفصول ١ : ٤٣ ، و الكراكي في كنز الفوائد : ١٧١ ، و ابن شعبة في تحف العقول : ٤١١ ، و رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٨٧ .

الصفحة ٤٥٠

يبلغون نعته ، و حدّ الأشياء كلّها عند خلقه إبانة لها من شبهه ، و إبانة له من شبهها ، لم يحل فيها فيقال هو فيها كائن ، و لم ينأ عنها فيقال هو منها بائن ،

و لم يخل منها فيقال له أين ، لكنّه سبحانه أحاط بها علمه ، و أتقنها صنعه ،

و أحصاها حفظه ، لم يعزب عنه خفيّات غيوب الهوى ، و لا غوامض مكنون ظلم الدّجى ، و لا ما في السماوات العلى إلى الأرضين السفلى .

لكلّ شيء منها حافظ و رقيب ، و كلّ شيء منها بشيء محيط ، و المحيط بما أحاط منها ، الواحد الأحد الصّمد ، الذي لا يغيّره صروف الزّمان ، و لا يتكأده صنع شيء كان ، إنّما قال لما شاء كن فكان .

ابتدع ما خلق بلا مثال سبق ، و لا تعب و لا نصب ، و كلّ صانع شيء ، فمن شيء صنع ، و الله لا من شيء صنع ما خلق ، و كلّ عالم فمن بعد جهل تعلم ، و الله لم يجهل و لم يتعلم ، أحاط بالأشياء علما قبل كونها ، فلم يزدد بكونها علما علمه بها قبل أن يكونها كعلمه بعد تكوينها ، لم يكونها لتشديد سلطان ، و لا خوف من زوال و نقصان ، و لا استعانة على ضدّ مناو ، و لا ندّ مكائر ، و لا شريك مكابر ، لكن خلاق مربوبون ، و عباد داخرون .

فسبحان الذي لا يؤوده خلق ما ابتدأ ، و لا تدبير ما برأ ، و لا من عجز و لا من فترة بما خلق اكتفى ، علم ما خلق ، و خلق ما علم ، لا بالتفكير في علم حادث أصاب ما خلق ، و لا شبهة دخلت عليه في ما لم يخلق ، لكن قضاء ميرم ، و علم محكم ، و أمر متقن ، توحد بالربوبية ، و خصّ نفسه بالوحدانية ، و استخلص بالمجد و الثناء ، و تفرّد بالتوحيد و المجد و الثناء ، و توحد بالتحميد ، و تمجّد بالتمجيد ، و علا عن اتّخاذ الأبناء ، و تطهّر و تقدّس عن ملامسة النساء ،

و عزّ و جلّ عن مجاورة الشركاء .

فليس له في ما خلق ضدّ ، و لا له في ما ملك ندّ ، و لم يشركه في ملكه أحد .

الصفحة ٤٥١

الواحد الأحد الصمد ، المبيد للأبد ، و الوارث للأمد ، الذي لم يزل و لا يزال وحدانيًا أزليًا قبل بدء الدهور ، و بعد صرف الأمور ، الذي لا يبيد و لا ينفد .

بذلك أصف ربّي ، فلا إله إلاّ الله من عظيم ما أعظمه ، و من جليل ما أجّله ،

و من عزيز ما أعزّه ، و تعالى الله عما يقول الظالمون علّوا كبيرا « ١ .

لكن مرّ بعض فقراتها في العناوين المتقدّمة باتّفاق و اختلاف .

و ما روياه بأسنادهما عن محمّد البرقي ، عن أحمد بن النضر و غيره ،

عن عمرو بن ثابت ٢ ، عن رجل سمّاه ، عن أبي إسحاق السبيعي عن الحارث الأعور قال : خطب أمير المؤمنين عليه السّلام خطبة بعد العصر فعجب النَّاس من حسن صفته ، و ما ذكره من تعظيم الله تعالى . قال أبو إسحاق : فقلت للحارث :

أو ما حفظتها ؟ قال : كتبتها . فأملأها علينا من كتابه :

« الحمد لله الذي لا يموت ، و لا تنقضي عجائبه ، لأنّه كلّ يوم في شأن من إحداث بديع لم يكن ، الذي لم يلد فيكون في العزّ مشاركا ، و لم يولد فيكون موروثا هالكا ، و لم تقع عليه الأوهام فتقدّره شبعا ماثلا ، و لم تتركه الأبصار فيكون بعد انتقالها حائلا . الذي ليست في أوليّته نهاية ، و لا لآخريته حدّ و لا غاية ، الذي لم يسبقه وقت و لم يتقدّمه زمان ، و لا يتعاوره زيادة و لا نقصان ،

و لا يوصف بأين و لا بم و لا مكان . الذي بطن من خفيّات الأمور ، و ظهر في العقول بما يرى في خلقه من علامات التدبير . الذي سئلت الأنبياء عنه فلم تصفه بحدّ ، و لا ببعض ، بل وصفته بفعاله ، و دلّت عليه بآياته . لا تستطيع عقول

(١) أخرجها الكليني في الكافي ١ : ١٣٤ ح ١ ، و الصدوق في التوحيد : ٤١ ح ٣ .

(٢) كذا في التوحيد ، لكن في الكافي احمد بن النضر ، و غيره عمّن ذكره عن عمرو بن ثابت ، و الظاهر أن رواية أحمد عن عمرو بغير واسطة كما يشهد عليه النظر في الطبقات ، و ما أخرجه البرقي في

المحاسن : ٥٨٣ ح ٧١ ، و الكليني في الكافي ٦ : ٣٨٥ ح ٢ عن أحمد بن النضر عن عمرو بن أبي المقدام (و أبو المقدام كنية ثابت أبيه) ، قال : رأيت أبا جعفر عليه السلام و هو يشرب في قدح من خزف .

الصفحة ٤٥٢

المتفكرين جده ، لأن من كانت السموات و الأرض فطرته ، و ما فيهنّ و ما بينهنّ ، و هو الصانع لهنّ ، فلا مدفع لقدرته . الذي نأى من الخلق فلا شيء كمثلته ،

الذي خلق الخلق لعبادته ، و أقدرهم على طاعته بما جعل فيهم ، و قطع عذرهم بالحجج ، فعن بيّنة هلك من هلك ، و بمنّه نجا من نجا ، و لله الفضل مبدئاً و معيداً ،

ثم إن الله و له الحمد افتتح الحمد لنفسه ، و ختم أمر الدنيا و محل الآخرة بالحمد لنفسه ، فقال : و قضي بينهم بالحقّ و قيل الحمد لله ربّ العالمين ١ .

الحمد لله اللّابس الكبرياء بلا تجسّد ، و المرتدي بالجلال بلا تمثيل ،

و المستوي على العرش بغير زوال ، و المتعالي على الخلق بلا تباعد منهم و لا ملامسة منه لهم ، ليس له حدّ ينتهي إلى حدّه ، و لا له مثل فيعرف بمثله ، ذلّ من تجبّر غيره ، و صغر من تكبّر دونه ، و تواضعت الأشياء لعظمته ، و انقادت لسلطانه و عزّته ، و كلّت عن إدراكه ظروف العيون ، و قصرت دون بلوغ صفته أو هام الخلائق . الأوّل قبل كلّ شيء و لا قبل له ، و الآخر بعد كلّ شيء و لا بعد له .

الظاهر على كلّ شيء بالقهر له ، و المشاهد لجميع الأماكن بلا انتقال إليها ، لا تلمسه لا مسة و لا تحسّه حاسة . هو الذي في السماء إله و في الأرض إله و هو الحكيم العليم ٢ أتقن ما أراد من خلقه من الأشباح كلّها لا بمثال سبق إليه ،

و لا لغوب دخل عليه في خلق ما خلق لديه ، ابتداءً ما أراد ابتداءه ، و أنشأ ما أراد إنشاءه ، على ما أراد من التقلين الجنّ و الإنس ، ليعرفوا بذلك ربوبيّته ، و تمكّن فيهم طاعته .

نحمده بجميع محامده كلّها على جميع نعمائه كلّها ، و نستهديه لمرشد أمورنا ، و نعوذ به من سيّئات أعمالنا ، و نستغفره للذنوب التي سبقت منّا

(١) الزمر : ٧٥ .

(٢) الزخرف : ٨٤ .

الصفحة ٤٥٣

و هي أيضا كسابقتها في اشتمال العناوين المتقدمة على بعض فقراتها .

و ما رواه الصدوق مسندا عن الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام : خطب أمير المؤمنين عليه السلام الناس في مسجد الكوفة ، فقال :

« الحمد لله الذي لا من شيء كان ، و لا من شيء كوّن ما قد كان ، مستشهد بحدوث الأشياء عن أزليّته ، و بما وسمها به من العجز على قدرته ، و بما اضطرّها إليه من الفناء على دوامه ، لم يخل منه مكان فيدرك بأينيّته ، و لا له شبه مثال فيوصف بكيفيّته ، و لم يرغب عن علمه شيء فيعلم بحينيّته ، مباين لجميع ما أحدث في الصفات ، و ممتنع عن الإدراك بما ابتدع من تصريف الذوات ، و خارج بالكبرياء و العظمة من جميع تصرف الحالات ، محرّم على بوارع ثاقبات الفطن تحديده ، و على عوامق ناقبات الفكر تكيفه ، و على غوائص سابحات الفطر تصويره ، لا تحويه الأماكن لعظمته ، و لا تدرعه المقادير لجلاله ، و لا تقطعه المتقاييس لكبريائه . ممتنع عن الأوهام أن تكتننه ،

و عن الأفهام أن تستغرقه ، و عن الأذهان أن تمثّله ، قد يئست من استنباط الإحاطة به طوامح العقول ، و نضبت عن الإشارة إليه بالاكنتاه بحار العلوم ،

و رجعت بالصغر عن السموّ إلى وصف قدرته لطائف الخصوم .

واحد لا من عدد ، و دائم لا بأمد ، و قائم لا بعمد ، ليس بجنس فتعادلّه الأجناس ، و لا بشبح فتضارعه الأشباح ، و لا كالأشياء فتقع عليه الصفات ، قد ضلّت العقول في أمواج تيّار إدراكه ، و تحيّرت الأوهام عن إحاطة ذكر أزليّته ،

و حصرت الأفهام عن استشعار وصف قدرته ، و غرقت الأذهان في لبح أفلاك ملكوته . مقتدر بالآلاء ، و ممتنع بالكبرياء و متملك على الأشياء ، فلا دهر يخلقه ،

و لا وصف يحيط به ، قد خضعت له ثوابت الصعاب في محلّ تخوم قرارها ،

الصفحة ٤٥٤

و أذعنت له رواصن الأسباب في منتهى شواهد أقطارها . مستشهد بكلية الأجناس على ربوبيته ، و بعجزها على قدرته ، و بفطورها على قدمته ، و بزوالها على بقائه ، فلا لها محيص عن إدراكه إياها ، و لا خروج من إحاطته بها ، و لا احتجاب عن إحصائه لها ، و لا امتناع من قدرته عليها . كفى بإتقان الصنع لها آية ، و بمركب الطبع عليها دلالة ، و بحدوث الفطر عليها قدمة ، و بإحكام الصنعة لها عبرة . فلا إليه حدّ منسوب ، و لا له مثل مضروب ، و لا شيء عنه محجوب .

تعالى عن ضرب الأمثال و الصفات المخلوقة علواً كبيراً « ١ .

و ما رواه أيضاً مسنداً عن الباقر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام ، قال : أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة خطبها بعد موت النبي صلى الله عليه و آله بسبعة أيام ، و ذلك حين فرغ من جمع القرآن ، فقال :

« الحمد لله الذي أعجز الأوهام أن تتال إلا وجوده ، و حجب العقول أن تتخيل ذاته في امتناعها من الشبه و الشكل ، بل هو الذي لم يتفاوت في ذاته ،

و لم يتبعض بتجزئة العدد في كماله . فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ،

و تمكّن منها لا على الممازجة ، و علمها لا بأداة لا يكون العلم إلا بها ، و ليس بينه و بين معلومه علم غيره . إن قيل : كان فعلى تأويل أزلية الوجود ، و إن قيل : لم يزل فعلى تأويل نفي العدم . فسبحانه و تعالى عن قول من عبد سواه ، و اتخذ إليها غيره علواً كبيراً « ٢ .

و رواه (الروضة) و (التحف) واصفين له بالخطبة المعروفة بالوسيلة ٣ .

(١) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٦٩ ح ٢٦ ، و العيون ١ : ٩٩ ح ١٥ .

(٢) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٧٩ ح ٢٧ .

(٣) أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ١٨ ح ٤ ، و ابن شعبة في تحف العقول : ٩٢ باختلاف كثير .

الصفحة ٤٥٥

و ما رواه (الروضة) بعنوان الخطبة الطالوتية مسنداً عن ابن التيهان أنّ أمير المؤمنين عليه السلام خطب الناس بالمدينة ، فقال :

« الحمد لله الذي لا إله إلا هو ، كان حيًا بلا كيف ، و لم يكن له كان ، و لا كان لكانه كيف ، و لا كان له أين ، و لا كان في شيء ، و لا كان على شيء ، و لا ابتدع لكانه مكانا ، و لا قوي بعد ما كَوّن شيئا ، و لا كان ضعيفا قبل أن يكوّن شيئا ، و لا كان مستوحشا قبل أن يبتدع شيئا ، و لا يشبه شيئا و لا كان خلوا عن الملك قبل إنشائه ، و لا يكون خلوا منه بعد ذهابه .

كان إليها حيًا بلا حياة ، و مالكا قبل أن ينشئ شيئا ، و مالكا بعد إنشائه للكون ، و ليس يكون لله كيف ، و لا أين ، و لا حدّ يعرف ، و لا شيء يشبهه ، و لا يهرم لطول بقائه ، و لا يضعف لذعرة ، و لا يخاف كما تخاف خليقته من شيء ،

و لكن سميع بغير سمع ، و بصير بغير بصر ، و قوّي بغير قوّة من خلقه ، لا تدركه حدق الناظرين ، و لا يحيط بسمعه سمع السّامعين . إذا أراد شيئا كان بلا مشورة ، و لا مظاهره و لا مخابرة ، و لا يسأل أحدا عن شيء من خلقه أراده « ١ .

و ما رواه أيضا مسندا عن الباقر عليه السّلام ، قال : خطب أمير المؤمنين عليه السّلام فقال :

« الحمد لله الخافض الرّافع ، الضارّ النّافع ، الجواد الواسع ، الجليل ثناؤه ،

الصّادقة أسماؤه ، المحيط بالغيوب ، و ما يخطر على القلوب ، الذي جعل الموت بين خلقه عدلا و أنعم بالحياة عليهم فضلا ، فأحيا و أمات ، و قدرّ الأقوات ،

أحكمها بعلمه تقديرا ، و أتقنها بحكمته تدبيرا ، إنّه كان خبيرا بصيرا ، هو الدائم بلا فناء ، و الباقي إلى غير منتهى . يعلم ما في الأرض و ما في السماء ، و ما

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ٣١ ح ٥ .

الصفحة ٤٥٦

بينهما و ما تحت الثرى ١ .

و ما رواه مسندا عن الصادق عليه السّلام أنّ أمير المؤمنين عليه السّلام خطب يوم الجمعة ، فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ، و وليه و منتهى الحمد و محلّه ، البدء البديع ، الأجلّ الأعظم ، و الأعزّ الأكرم ، المتوحّد بالكبرياء ، و المتفرد بالآلاء ، القاهر بعزّه ،

و المسلّط بقهره ، الممتنع بقوّته ، المهيمن بقدرته ، و المتعالي فوق كلّ شيء بجبروته ، المحمود بامتنانه و بإحسانه ، المتفضّل بعطائه ، و جزيل فوائده ،

الموسّع برزقه ، المسبغ بنعمه ، نحمده على آلائه ، و تظاهر نعمائه ، حمدا يزن عظمة جلاله ، و يملأ قدر آلائه و كبريائه » ٢ .

و ما رواه المسعودي في (إثباته) مرسلا من خطبته عليه السلام في انتقال نور النبي صلى الله عليه و آله :

« الحمد لله الذي توحدّ بصنع الأشياء ، و فطر أجناس البرايا على غير مثال سبقه في إنشائها ، و لا إعانة معين على ابتداعها ، بل ابتداعها بلطف قدرته ،

فامتثلت لمشيئته خاضعة مستحدثة لأمره . الواحد الأحد ، الدائم بغير حدّ و لا أمد ، و لا زوال و لا نفاذ ، و كذلك لم يزل و لا يزال . لا تغيّره الأزمنة ، و لا تحيط به الأمكنة ، و لا تبلغ مقامه الألسنة ، و لا تأخذه سنة و لا نوم ٣ . لم تره العيون فتخبر عنه برؤيته ، و لم تهجم عليه العقول فيتهم كنه صفته ، و لم تدر كيف هو إلا بما أخبر عن نفسه . ليس لقضائه مردّ ، و لا لقوله مكذب .

ابتدع الأشياء بغير تفكير ، و خلقها بلا ظهير و لا وزير ، فطرها بقدرته ،

و صيّرها بمشيئته ، و صاغ أشباحها ، و برأ أرواحها ، و استنبط أجناسها ، خلقا

(١) أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ١٧٠ ح ١٩٣ ، و الآية (٦) من سورة طه .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ١٧٣ ح ١٩٤ .

(٣) البقرة : ٢٥٥ .

مبروراً مذروراً في أقطار السماوات و الأرضين ، لم يأت بشيء على غير ما أراد أن يأتي عليه ، ليرى عباده آيات جلاله و آلائه . فسبحانه لا إله إلا هو الواحد القهار إلى أن قال لقد لطف علمك ، و جلّت قدرتك عن

التفسير ، إلا بما دعوت إليه من الاقرار بربوبيتك و أشهد أن الأعين لا تدرك ، و الأوهام لا تلحقك ، و العقول لا تصفك ، و المكان لا يسعك ، و كيف يسع المكان من خلقه و كان قبله ، أم كيف تدركه الأوهام ، و كيف تؤمر الأوهام ، و لا نهاية له و لا غاية ، و كيف يكون له نهاية و غاية ، و هو الذي ابتدأ الغايات و النهايات ، أم كيف تدركه العقول ، و لم يجعل لها سبيلا إلى إدراكه ، و كيف يكون لها سبيل إلى إدراكه ، و قد لطف بربوبيته عن المحاسة و المجاسة ، و كيف لا يلطف عنهما من لا ينتقل عن حال إلى حال ، و قد جعل الانتقال نقصا و زوالا ؟ فسبحانك ملأت كل شيء ، و باينت كل شيء . فأنت الذي لا يفقدك شيء ، و أنت الفعال لما تشاء ، تباركت يا من كل مدرك من خلقه ، و كل محدود من صنعه . أنت الذي لا يستغني عنك المكان و الزمان ، و لا نعرفك إلا بانفرادك بالوحدانية و القدرة « ١ .

و ما نقله البحراني في (الصحيفة العلوية) :

« الحمد لله أول محمود ، و آخر معبود ، و أقرب موجود . البدء بلا معلوم لأزليته و لا آخر لأوليته ، و الكائن قبل الكون بلا كيان ، و الموجود في كل مكان بلا عيان ، و القريب من كل نجوى بغير تدان . علنت عنده الغيوب ، و ضللت في عظمتها القلوب ، فلا الأبصار تدرك عظمتها ، و لا القلوب على احتجابه تتكر معرفته ، يمثل في القلوب بغير مثال تحدّه الأوهام أو تدركه الأحلام .

ثم جعل من نفسه دليلا على تكبره عن الضدّ و النذّ ، و الشكّل و المثل ،

(١) أخرجه المسعودي في إثبات الوصية : ١٠٦ .

الصفحة ٤٥٨

فالوحدانية آية الربوبية ، و الموت الآتي على خلقه مخبر عن خلقه و قدرته ، ثم خلقهم من نطفة و لم يكونوا شيئا دليل على إعادتهم خلقا جديدا بعد فنائهم كما خلقهم أول مرة .

و الحمد لله ربّ العالمين ، الذي لم يضره بالمعصية المتكبرون ، و لم ينفعه بالطاعة المتعبدون ، الحليم عن الجبارة المدّعين ، و المهمل الزاعمين له شركاء في ملكوته ، الدائم في سلطانه بغير أمد ، و الباقي في ملكه بعد انقضاء الأبد ، و الفرد الواحد الصمد ، و المتكبر عن الصاحبة و الولد ، رافع السماء بغير عمد ، و مجري السحاب بغير صدف ، قاهر الخلق بغير عدد ، لكن هو الله الواحد الفرد الأحد ، الذي لم يلد و لم يولد . و لم يكن له كفوا أحد ١ .

و الحمد لله الذي لم يخل من فضله المقيمون على معصيته ، و لم يجازه لأصغر نعمه المجتهدون في طاعته . الغنيّ الذي لا يضمن برزقه على جاحده ،

و لا ينقص عطاياه أرزاق خلقه ، خالق الخلق و مفرجه ، و معيده و مبديه و معاقبه ،

عالم ما أكنّته السرائر ، و أخبته الضمائر ، و اختلفت به الألسن ، و أنسته الأزمن .

الحيّ الذي لا يموت ، و القيوم الذي لا ينام ، و الدائم الذي لا يزول ، و العدل الذي لا يجوز ، الصافح عن الكبائر بفضله ، و المعذب من عدبّ بعدله ، لم يخف الفوت فحلم ، و علم الفقر إليه فرحم ، و قال في محكم كتابه : و لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ٢ . أحمدته حمداً أستزيده في نعمته ،

و أستجير به من نعمته ، و أتقرب إليه بالتصديق لنبيّه المصطفى لوحيه ،

المتحيز لرسالته ، المختصّ بشفاعته « ٣ .

و في الجميع فقرات مرّت في العناوين السابقة .

(١) الاخلاص : ٤٣ .

(٢) فاطر : ٤٥ .

(٣) الصحيفة العلوية الأولى : ٣٢ الخطبة (٢) .

الصفحة ٤٥٩

الفصل الثاني في خلق السّماء و الأرض و الشمس و القمر و النّجوم و العرش و الكرسيّ

الصفحة ٤٦٠

الصفحة ٤٦١

مرّ في الفصل الأوّل قوله عليه السّلام : « و أنشأ الأرض فأمسكها من غير اشتغال ، و أرساها على غير قرار ، و أقامها بغير قوائم ، و رفعها بغير دعائم ،

و حصنّها من الأود و الأعوجاج ، و منعها من التّهافت و الانفراج . أرسى أوتادها ،

و ضرب أسدادها ، و استفاض عيونها ، و خذّ أوديتها ، فلم يهن ما بناه ، و لا ضعف ما قواه « مع شرحه

. ١

١

من الخطبة (١) بعد ما مرّ في سابقه :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَّ الْأَجْوَاءَ وَ شَقَّ الْأَرْجَاءَ وَ سَكَتَكَ الْهَوَاءَ فَاجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاظِمًا تَيَّارُهُ مُتْرَاكِمًا زَخَّارُهُ
حَمَلُهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ وَ الزَّرْعِ الْقَاصِفَةِ فَأَمْرَهَا بَرْدُهُ وَ سَلْطَتُهَا عَلَى شِدَّةِ وَ قَرْنَهَا إِلَى حَدِّ الْهَوَاءِ
مِنْ تَحْتِهَا فَتَيْقُ وَ الْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقُ ثُمَّ أَنْشَأَ

(١) مرّ في العنوان (٢٥) من الفصل الأول شرح الخطبة (١٨٤) .

الصفحة ٤٦٢

سُبْحَانَهُ رِيحًا اعْتَقَمَ مَهَبُهَا وَ أَدَامَ مَرْبَهَا وَ أَعْصَفَ مَجْرَاهَا وَ أَبْعَدَ مَنَشَأَهَا فَأَمْرَهَا بِتَصْفِيقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ وَ
إِثَارَةِ مَوْجِ الْبِحَارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السَّقَاءِ وَ عَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ تَرْدُ أَوْلَهُ عَلَى آخِرِهِ وَ سَاجِيَهُ إِلَى
مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عِبَابُهُ وَ رَمَى بِالزَّبْدِ رُكَامُهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَنِقٍ وَ جَوٍّ مُنْفَهَقٍ فَسَوَى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
جَعَلَ سَفْلَاهُنَّ مَوْجًا مَكْفُوفًا وَ عَلِيَاهُنَّ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ سَمَكًا مَرْفُوعًا بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا وَ لَا دِسَارٍ يَنْظُمُهَا ثُمَّ
زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَ ضِيَاءِ النَّوَاقِبِ وَ أَجْرَى فِيهَا سِرَاجًا مُسْتَطِيرًا وَ قَمَرًا مُنِيرًا فِي فَلَكَ دَائِرٍ وَ سَقْفٍ
سَائِرٍ وَ رَقِيمٍ مَائِرٍ أَقُولُ : مرّ في أوّل الفصل السابق الكلام في مستنده ١ .

« ثم أنشأ سبحانه » قالوا : (ثم) هنا للتفصيل بعد الإجمال في سابقه .

« فتق » و الفتق ضدّ الرتق .

« الأجواء » جمع الجوِّ ، و فسّر الجوِّ بشيئين ما بين السماء و الأرض ،

و الفضاء الواسع ، لكن الصواب الثاني ، حيث إنّ كلامه عليه السّلام في الجوّ قبل خلق الأرض و السماء ، و قد قال أبو عمرو في قول طرفة :

يا لك من قبرة بمعمر
خلالك الجوّ فيبضي و اصفري

٢ الجو : ما اتسع من الأودية .

« و شقّ » مصدر عطف على (فتق) .

« الأرجاء » و الأرجاء جمع رجا ، أي : الناحية ، قال تعالى : و الملك على أرجائها . . . ٣ .

(١) مرّ في العنوان (١) من الفصل الأول في شرح الخطبة (١) .

(٢) أورده لسان العرب ٥ : ٦٩ مادة (قير) و الشاعر : طرفة و قيل كليب بن ربيعة .

(٣) الحاقة : ١٧ .

الصفحة ٤٦٣

« و سكائك الهواء » في (اللسان) : السّكّاء و السّكاكة : الهواء بين السماء و الأرض ، و قيل : الذي لا يلاقي أعنان السماء . و منه قولهم : لا أفعل ذلك و لو نزوت في السّكّاء ، أي : في السماء . و في حديث الصّبّية المفقودة قالت : فحملني على خافية من خوافيه ، ثمّ دوّم بي في السّكّاء ١ .

السّكّاء و السّكاكة : الجوّ ، و هو ما بين السماء و الأرض ، و منه حديث عليّ عليه السّلام : « شقّ الأرجاء و سكائك الهواء » . السّكّاء : جمع السّكاكة ، و هي السّكّاء ، كذوابة و ذوائب ٢ . و قال أيضا : السّكة الطريق المستوي ، و به سمّيت سكة البريد . قال الشماخ :

حنّت على سكة السّاري فجاوبها
حمامة من حمام ذات أطواق

ثم قال : و قال الشماخ :

نضربهم إذا أخذوا السكائكا

٣ هذا ، و بذل (مطالب السؤل) قوله « و سكاتك الهواء » بقوله « رتق الهواء » ٤ . و كيف كان فقال ابن أبي الحديد : ظاهر كلامه عليه السلام أنّ الفضاء الذي هو الفراغ الذي يحصل فيه الأجسام خلقه الله تعالى ، و لم يكن من قبل ، و هذا يقتضي كون الفضاء شيئاً ، لأنّ المخلوق لا يكون عدماً محضاً ، و ليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، و جعلوه جسماً لطيفاً خارجاً عن مشابهة هذه الأجسام ، و منهم من جعله مجرداً ٥ .

قلت : و الصواب كونه جسماً لطيفاً يشهد له قول السجاد عليه السلام في تسييح

(١) نقله أيضا ابن الأثير في النهاية ٢ : ٣٨٥ مادة (سكك) .

(٢) لسان العرب ١٠ : ٤٤١ مادة (سكك) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) في مطالب السؤل : ٢٨ « رافق الهواء » و الظاهر أنه تحريف .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ .

الصفحة ٤٦٤

الصحيفة : « سبحانك تعلم وزن الفيء و الهواء » ١ . و يمكن أن يكون قوله عليه السلام :

« و سكاتك الهواء » إشارة إلى ما اكتشفوه في هذه العصور من أمواج الهواء التي تحمل الأصوات في الراديات .

« فأجرى فيها ماء متلاطماً تياره » أي : موجه ، و في (الصحاح) : يقال قطع عرقاً تياراً ، أي : سريع الجرية ، و قال عدي :

كالبحر يقذف بالتّيّار تياراً

. ٢

« متراكماً » أي : متراكباً .

« زخاره » من زخر الوادي إذا امتدّ جدّاً و ارتفع .

« حمله على متن الريح العاصفة » أي : الشديدة .

« و الزّرع » أي : المحرّكة للأشياء .

« القاصفة » أي : الكاسرة لها ، يقال قصفت الرّيح السفينة ، قال المجلسي :

و هذه الرّيح غير الهواء المذكور أوّلا ، كما سيأتي في قول الصادق عليه السّلام للزّنديق : الرّيح على الهواء و الهواء تمسكه القدرة ٣ . فيمكن أن تكون مقدّمة في الخلق عليه و متأخرة عنه أو مقارنة له ٤ .

« فأمرها برده و سلّطها على شدّه و قرنّها إلى حدّه » قال المجلسي : أي : أمر الرّيح أن تحفظ الماء ، و تردّه بالمنع عن الجري الذي سبقت الإشارة إليه بقوله :

« فأجرى فيها ماء » ، فكان قبل الردّ قد خلّي و طبعه أي : عن الجري الذي يقتضيه طبعه و قواها على ضبطه كالأشياء المشدود ، و جعلها مقرونة إلى

(١) ملحقات الصحيفة السجادية الكاملة : ٣١٩ ، الدعاء (١) و قد مرّ في العنوان (٢١) من الفصل الأوّل .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٦٠٣ مادة (تير) .

(٣) الظاهر أنّه أشار إلى ما جاء في البحار ٦٠ : ١٥ ح ١٩ عن احتجاج الطبرسي ، و هو في الاحتجاج ٢ : ٣٥٠ ، لكن ليس بهذه الألفاظ ، و روى قريبا منه البرسي في المشارق : ٤٣ ، و المجلسي في البحار ٥٧ : ٢٠١ عن علي عليه السّلام .

(٤) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨٣ .

الصفحة ٤٦٥

انتهائه محيطه به ١ .

قلت : مقتضى كلامه أنّ الله تعالى أجرى الماء أوّلا في الهواء المجردّ بجعل الهواء حاملا له ، و أنّ الماء كان جاريا حينئذ على مقتضى طبعه من الحركة إلى السفلى ، ثمّ حمله على ظهر الرّيح فقسرت جريه و عكسته ، مع أنّ ظاهر كلامه عليه السّلام أنّ جريه أوّلا في الهواء كان بتوسّط حمله على ظهر الرّيح ،

فإنّ الظاهر أنّ قوله عليه السّلام : « حمله على متن الرّيح العاصفة . . . » حال من (ماء) في قوله : « فأجرى فيها ماء . . . » أي : أجرى الماء حاملا له على متن الرّيح ، و لو كان المعنى كما ذكر لقال عليه السّلام : (ثم حمله) .

« الهواء من تحتها فتيق » أي : منشقّ .

« و الماء من فوقها دفيق » قال الجوهري : دفقت الماء أدفقه دفقا ، أي :

صببته ، فهو ماء دافق ، أي : مدفوق ، كما قالوا : سرّ كاتم . أي : مكتوم ، لأنّه من قولك : دفق الماء على ما لم يسمّ فاعله ٢ .

قلت : بل الظاهر أنّ قولهم : ماء دافق ، و مثله ماء دفيق ، كما هنا بمعنى و ثاب ، قال تعالى : فلينظر الإنسان ممّ خلق . خلق من ماء دافق ٣ .

قال المجلسي في معنى قوله : « الهواء من تحتها فتيق و الماء من فوقها دفيق » أي : الهواء الذي هو محلّ الرّيح مفتوق ، أي : مفتوح منبسط من تحت الرّيح الحاملة للماء ، و الماء دفيق من فوقها ، أي : مصبوب مندفق ، و الغرض أنّه سبحانه بقدرته ضبط الماء المصبوب بالرّيح الحاملة له ، كما ضبط الرّيح بالهواء المنبسط ، و هو موضع العجب ٤ .

(١) المصدر نفسه ، و قال عقيب كلامه في حديث الصادق عليه السّلام : « و يمكن أن يكون المراد بها ما تحرك منه كما هو المشهور » .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٤٧٥ مادة (دفق) .

(٣) الطارق : ٦٥ .

(٤) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨٤ .

الصفحة ٤٦٦

قلت : بل الظاهر أنّ الغرض أنّ مقتضى الطبيعة أن يكون الماء تحت ،

و الرّيح فوقه ، و الهواء فوقها ، و هو تعالى جعل الرّيح وسطا و الماء فوقها و الهواء تحتها ، و هو موضع العجب .

« ثمّ أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبتها » اعتقم : من قولهم : رحم معقومة ، أي :

مشدودة لا تلد .

« و آدم مربّها » أي اقامتها في محلّها ، من قولهم : مربّ الإبل لمكان لزمته .

قال المجلسي : الظاهر أنّ هذه الريح غير ما جعلها الله محلاً للماء ، بل هي مخلوقة من الماء كما سيأتي في الرواية ١ .

قلت : كون هذه الريح غير الأولى لا يحتاج فيه إلى الاستناد إلى الرواية الدالة على خلقها من الماء ، بل نفس هذه الفقرة مع ظهورها في عدم خلقها من ذلك الماء كالصريحة في التّغاير للتعبير بقوله : « ثمّ أنشأ . . . » .

و قال ابن أبي الحديد : استدلّ الراوندي لتغاير الرّيح الثانية مع الأولى بتعريف الأولى و تكثير الثانية ، و ردّه بأنّه ليس مستفاداً من مجردهما ، بل من كون إحداهما تحت الماء و الأخرى فوقه ٢ .

قلت : و أيّ مانع من أن يجعل مقدارا من ريح واحدة تحت الماء ، و مقدارا فوقه ؟ فالصواب أن يستند إلى التّعبير بفقرة « ثمّ أنشأ » .

« و أعصف » أي : أشدّ .

« مجراها » أي : جريانها .

« و أبعد منشأها » من منتهاها .

« فأمرها بتصفيق » قال الجوهرى : الصّقق : الضرب الذي يسمع

(١) المصدر نفسه .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩ ، و النقل بالمعنى .

« الماء الزخار » أي : الكثير .

« و إثارة » من : أثار الغبار .

« موج البحار » بجعله فوق و تحت .

« فمخضته » أي : حرّكته .

« مخض السقاء » أي : سقاء اللّبن لأخذ زبده .

« و عصفت به » أي : بالماء .

« عصفها بالفضاء » أي : حرّكت الماء مثل تحريكها للفضاء .

« تردّ أوله إلى » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (على) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٢ .

« آخره و ساجيه » أي : ساكنه .

« إلى » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (على) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٣ .

« مائره » أي : متحرّكه ، قال الأعشى :

كأنّ مشيتها من بيت جارتها

مور السحابة لا ريث و لا عجل

٤ « حتّى عبّ عبابه » أي : ارتفع سيله و موجه ، أو صوت .

« و رمى بالزّبّد » أي : زبد الماء .

« ركامه » أي : متراكمه .

« فرفعه في هواء منفق » أي : منشقّ .

- (١) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٥٠٧ مادة (صفق) .
 (٢) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « الى آخره » أيضا .
 (٣) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « الى مائره » أيضا .
 (٤) أورده لسان العرب ٥ : ١٨٦ مادة (مور) .

الصفحة ٤٦٨

« و جوّ منفهق » أي : متّسع .

« فسوّى منه سبع سموات » و روى (الكافي) عن الباقر عليه السّلام قال : كان كلّ شيء ماء ، و كان عرشه على الماء ، فأمر الله تعالى الماء فاضطرم نارا ، ثمّ أمر النار فخدمت ، فارتفع من خمودها دخان فخلق الله السموات من ذلك الدخان ،

و خلق الأرض من الرماد ١ .

و روى في خبر آخر عنه عليه السّلام : و خلق الشيء الذي جميع الأشياء منه ،

و هو الماء الذي خلق الأشياء منه ، فجعل نسب كلّ شيء إلى الماء ، و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه ، و خلق الرّيح من الماء ، ثمّ سلّط الرّيح على الماء ،

فشققت الرّيح متن الماء حتّى صار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور ،

فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقية ليس فيها صدع و لا ثقب و لا صعود و لا هبوط و لا شجرة ، ثمّ طواها فوضعها فوق الماء ، ثمّ خلق الله النّار من الماء فشققت النّار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور ،

فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقية ليس فيها صدع و لا ثقب ٢ .

و روى (تفسير القمي) عن الصادق عليه السّلام في خبر قال : كان عرشه على الماء ، و الماء على الهواء ، و الهواء لا يحدّ و لم يكن يومئذ خلق غيرهما ، و الماء يومئذ عذب فارات ، فلمّا أراد أن يخلق الأرض أمر الرّياح فضربت الماء حتّى صار موجا ، ثمّ أزد فصار زبدا واحدا ، فجمعه في موضع البيت

، ثم جعله جبلا من زبد ، ثم دحا الأرض من تحته ، فقال : إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا . .
 ٣ . ثم مكث الرب تبارك و تعالى ما شاء ، فلما أراد أن يخلق

- (١) أخرجه الكليني في الكافي في صدر حديث في موضعين ٨ : ٩٥ ح ٦٨ ، و : ١٥٣ ح ١٤٢ .
 (٢) أخرجه الكليني ضمن حديث في الكافي ٨ : ٩٤ ح ٦٧ .
 (٣) آل عمران : ٩٦ .

الصفحة ٤٦٩

السماء أمر الرياح ، فضربت البحور حتى أزيدت بها فخرج من ذلك الموج و الزبد من وسطه دخان ساطع من غير نار ، فخلق منه السماء ، و جعل فيها البروج و النجوم ، و منازل الشمس و القمر ، و أجراها في الفلك ، و كانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر ، و كانت الأرض غبراء على لون الماء العذب ، و كانتا مرتوقيتين ليس لهما أبواب ١ .

« جعل سفلاهنّ موجا مكفوبا » عن السقوط ، و في خبر سؤال الرجل الشامي عن الباقر عليه السلام و سأله عن السماء الدنيا ممّ هي ؟ قال : من موج مكفوف ٢ .

« و علياهنّ سقفا محفوظا » هكذا في (النهج) ، و لكن في (مطالب السؤول) نقله « و سقفا محفوظا » بدون كلمة (علياهنّ) ٣ ، و عليه يصير المعنى كون سفلاهنّ سقفا محفوظا ككونها موجا مكفوبا ، و كأنّه أصحّ . فقال تعالى :

و جعلنا السماء سقفا محفوظا و هم عن آياتها معرضون ٤ فجعل السقلى سقفا محفوظا ، و كذلك قوله عليه السلام : « و سمكا مرفوعا » لم يخصّه الله تعالى

- (١) أخرجه علي بن إبراهيم في تفسيره ٢ : ٦٩ ، و قريب منه ما أخرجه صاحب تفسير العسكري فيه : ٦٩ عن النبي صلى الله عليه و آله ، و أخرجه الفرات الكوفي في تفسيره : ٦٦ عن علي عليه السلام ، و أخرجه العياشي في تفسيره ١ : ١٨٦ ح ٩١ ،

و الكليني بروايتين في الكافي ٤ : ١٨٩ ح ٧ ، و ٨ : ٩٤ ح ٦٧ عن الباقر عليه السلام ، و علي بن إبراهيم في تفسيره ١ : ٣٢١ بلا عزو ، و روي عن ابن عباس و ابن مسعود و ابن عمر و غيرهم موقوفا .

- (٢) أخرجه ضمن أسئلة رجل من الشام لعلي عليه السلام الصدوق في علل الشرائع ٢ : ٥٩٣ ح ٤٤ ،
و العيون : ١ : ١٨٨ ح ١ ،
و أخرج معناه ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ
ابن أبي حاتم عن أبي الجلد موقوفا ، و ابن راهويه في مسنده و ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم ، و الطبراني
في معجمه الأوسط ، و أبو الشيخ عن الربيع بن أنس موقوفا عنهم الدر المنثور ١ : ٤٤ ، و قد جاء ذكر (
الموج المكفوف) في أخبار أخرى لم يسع المقام لذكرها .
(٣) مطالب السؤل : ٢٨ .
(٤) الأنبياء : ٣٢ .

الصفحة ٤٧٠

بالعليا . فقال : أ أنتم أشدّ خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها ١ ،

و قال عزّ و جلّ : و السقف المرفوع ٢ ، بل قوله في ما يأتي : « ثم زينها بزينة الكواكب » أيضا يشهد
لزيادة كلمة (عليها) ، و عليه فلا يحتاج إلى ما تكلفه المجلسي في شرح الفقرة على نقل (النهج) ،
فقال : يخطر بالبال وجه آخر ، و هو أن يكون المراد أنه تعالى جعل الجهة السفلى من كلّ من السماوات
مواجهة متحركة واقعا ، أو في النظر ، و الجهة العليا منها سقفا محفوظا تستقرّ عليه الملائكة ، و لا يمكن
للشياطين خرقها ٣ .

« بغير عمد يدعمها » أي : يكون عمادا لها .

« و لا دسار » أي : مسمار .

« ينظمها » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (ينظمها) كما في (ابن أبي الحديد و الخطيب) ٤ .

« ثم زينها بزينة الكواكب » و لا ريب أنّ الضمير في (زينها) يرجع إلى السماء الدنيا لقوله تعالى : إنّنا
زيّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب ٥ ، و قوله عزّ و جلّ : و لقد زيّنا السماء الدنيا بمصابيح . . . ٦ .

« و ضياء الثواقب » و الأصل في الثقب : ثقب الدرّ ، و المراد ثقبها بضوئها ،

قال تعالى : و ما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب ٧ .

- (١) النازعات : ٢٧ ٢٨ .
 (٢) الطور : ٥ .
 (٣) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨٦ .
 (٤) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « ينظمها » أيضا .
 (٥) الصافات : ٦ .
 (٦) الملك : ٥ .
 (٧) الطارق : ٣٢ .

الصفحة ٤٧١

و عن الصادق عليه السلام : النّجم الثاقب : زحل ، و مطلعته في السماء السابعة ،
 و أنّه ثقب بضوئه حتّى أضاء في السّماء الدّنيا ، فمن ثمّ سمّاه الله النّجم الثاقب ١ .

« و أجرى فيها سراجا مستطيرا » قال تعالى : و جعلنا سراجا وهاجا ٢ ،

و قال عزّ و جلّ : و الشّمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣ .

و قال الصادق عليه السلام للمفضّل : فكّر الآن في تنقّل الشّمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنّة ،
 و ما في ذلك من التدبير . . . انظر إلى شروقها على العالم كيف دبّر أن يكون ، فإنّها لو كانت تبرزغ في
 موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها و منفعتها إلى كثير من الجهات ، لأنّ الجبال و
 الجدران كانت تحجبها عنها ، فجعلت تطلع أوّل النّهار من المشرق ، فتشرق على ما قابلها من وجه
 المغرب ، ثمّ لا تزال تدور و تغشى جهة بعد جهة حتّى تنتهي إلى المغرب ، فتشرق على ما استتر عنها
 في أوّل النّهار ، فلا يبقى موضع من المواضع إلّا أخذ بقسطه من المنفعة منها و الإرب التي قدرت له ٤ .

« و قمرا منيرا » و جعل القمر فيهنّ نورا . . . ٥ .

« في فلك دائر و سقف سائر و رقيم » أي : منتقش .

« مائر » أي : متحرّك ، و الظاهر أنّ (دائر) خبر لكلمة (كلّ) محذوفة لا صفة ل (فلك) ، و في (فلك)
 متعلّق به ، و مثله (سائر) و (مائر) ، فيكون المعنى : كلّ من الكواكب و الشمس و القمر دائر
 في فلك ، و سائر في سقف ، و مائر في رقيم .

- (١) هذا مقتبس من حديث طويل أخرجه الصدوق في الخصال ٢ : ٤٨٩ ح ٦٨ .
 (٢) النبأ : ١٣ .
 (٣) يس : ٣٨ .
 (٤) توحيد المفضل : ١٣٠ .
 (٥) نوح : ١٦ .

الصفحة ٤٧٢

فيكون مساوقا لقوله تعالى بعد ذكر الشمس و القمر : . . . كل في فلك يسبحون ١ .

وقال الصادق عليه السلام بعد ذكر مقدار من حكمه تعالى في الشمس و القمر و النجوم : مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة و مدبرة و مشرقة و مغربة من العبر ، فإنها تسير أسرع السير و أحته ، أ رأيت لو كانت الشمس و القمر و النجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه ، ألم تكن تستخطف الأبصار بوهجها و شعاعها ، كالذي يحدث أحيانا من البروق إذا توالى و اضطربت في الجو ؟ و كذلك لو أن أناسا كانوا في قبة مكللة بمصابيح تدور حولهم دورانا حثيثا ، لحارت أبصارهم حتى يخرؤا لوجوههم . فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضر في الأبصار ، و تنكأ فيها بأسرع السرعة ، لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها ٢ .

١

من الخطبة (١) بعد ما مرّ في سابقه :

ثُمَّ أَنْشَأَ سُبْحَانَهُ فَتَقَ الْأَجْوَاءَ وَ شَقَّ الْأَرْجَاءَ وَ سَكَانِكَ الْهَوَاءِ فَأَجْرَى فِيهَا مَاءً مُتَلَاظِمًا تَيَّارُهُ مُتْرَاكِمًا زَخَّارُهُ حَمَلُهُ عَلَى مَتْنِ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ وَ الزَّعْزَعِ الْقَاصِفَةِ فَأَمْرَهَا بَرْدٌ وَ سَلْطَتُهَا عَلَى شِدَّةٍ وَ قَرْنَهَا إِلَى حَدِّهِ الْهَوَاءُ مِنْ تَحْتِهَا فَتَبِقُ وَ الْمَاءُ مِنْ فَوْقِهَا دَفِيقٌ ثُمَّ أَنْشَأَ

(١) مرّ في العنوان (٢٥) من الفصل الأول شرح الخطبة (١٨٤) .

الصفحة ٤٧٣

سُبْحَانَهُ رِيحاً اعْتَقَمَ مَهَبَهَا وَ أَدَامَ مَرْبَهَا وَ أَعْصَفَ مَجْرَاهَا وَ أَبْعَدَ مَنْشَاهَا فَأَمْرَهَا بِتَصْفِيْقِ الْمَاءِ الزَّخَّارِ وَ
 إِثَارَةِ مَوْجِ الْبَحَارِ فَمَخَضَتْهُ مَخْضَ السَّقَاءِ وَ عَصَفَتْ بِهِ عَصْفَهَا بِالْفَضَاءِ تَرْدُ أَوْلَاهُ عَلَى آخِرِهِ وَ سَاجِيَهُ إِلَى
 مَائِرِهِ حَتَّى عَبَّ عَبَابُهُ وَ رَمَى بِالزَّبْدِ رُكَامَهُ فَرَفَعَهُ فِي هَوَاءٍ مُنْفَنِقٍ وَ جَوٍّ مُنْفَهِقٍ فَسَوَّى مِنْهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
 جَعَلَ سَفْلَاهُنَّ مَوْجاً مَكْفُوفاً وَ عَلِيَاهُنَّ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَ سَمَكاً مَرْفُوعاً بِغَيْرِ عَمَدٍ يَدْعُمُهَا وَ لَا دِسَارٍ يَنْظُمُهَا ثُمَّ
 زَيَّنَهَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَ ضِيَاءِ النَّوَاقِبِ وَ أَجْرَى فِيهَا سِرَاجاً مُسْتَطِيراً وَ قَمَراً مُنِيراً فِي فَلَكَ دَائِرٍ وَ سَقْفٍ
 سَائِرٍ وَ رَقِيمٍ مَائِرٍ أَقُولُ : مرّ في أوّل الفصل السابق الكلام في مستنده ١ .

« ثم أنشأ سبحانه » قالوا : (ثم) هنا للتفصيل بعد الإجمال في سابقه .

« فتق » و الفتق ضدّ الرتق .

« الأجواء » جمع الجوّ ، و فسّر الجوّ بشيئين ما بين السماء و الأرض ،

و الفضاء الواسع ، لكن الصواب الثاني ، حيث إنّ كلامه عليه السّلام في الجوّ قبل خلق الأرض و السماء ،
 و قد قال أبو عمرو في قول طرفة :

يا لك من قبرة بمعمر

خلالك الجوّ فبيضي و اصفري

٢ الجو : ما اتسع من الأودية .

« و شقّ » مصدر عطف على (فتق) .

« الأرجاء » و الأرجاء جمع رجا ، أي : النّاحية ، قال تعالى : و الملك على أرجائها . . . ٣ .

(١) مرّ في العنوان (١) من الفصل الأوّل في شرح الخطبة (١) .

(٢) أورده لسان العرب ٥ : ٦٩ مادة (قبر) و الشاعر : طرفة و قيل كليب بن ربيعة .

(٣) الحاقة : ١٧ .

« و سكائك الهواء » في (اللسان) : السكّاك و السكّاية : الهواء بين السماء و الأرض ، و قيل : الذي لا يلاقي أعنان السماء . و منه قولهم : لا أفعل ذلك و لو نزوت في السكّاك ، أي : في السماء . و في حديث الصبيّة المفقودة قالت : فحملني على خافية من خوافيه ، ثمّ دوّم بي في السكّاك ١ .

السكّاك و السكّاية : الجوّ ، و هو ما بين السماء و الأرض ، و منه حديث عليّ عليه السّلام : « شقّ الأرجاء و سكائك الهواء » . السكّائك : جمع السكّاية ، و هي السكّاك ، كذؤابة و ذوائب ٢ . و قال أيضا : السكّة الطريق المستوي ، و به سمّيت سكك البريد . قال الشماخ :

حنّت على سكة السّاري فجاوبها

حمامة من حمام ذات أطواق

ثم قال : و قال الشماخ :

نضربهم إذا أخذوا السكائكا

٣ هذا ، و بدّل (مطالب السؤل) قوله « و سكائك الهواء » بقوله « رتق الهواء » ٤ . و كيف كان فقال ابن أبي الحديد : ظاهر كلامه عليه السّلام أنّ الفضاء الذي هو الفراغ الذي يحصل فيه الأجسام خلقه الله تعالى ، و لم يكن من قبل ، و هذا يقتضي كون الفضاء شيئا ، لأنّ المخلوق لا يكون عدما محضا ، و ليس ذلك ببعيد ، فقد ذهب إليه قوم من أهل النظر ، و جعلوه جسما لطيفا خارجا عن مشابهة هذه الأجسام ، و منهم من جعله مجردا ٥ .

قلت : و الصواب كونه جسما لطيفا يشهد له قول السجاد عليه السّلام في تسييح

(١) نقله أيضا ابن الأثير في النهاية ٢ : ٣٨٥ مادة (سكك) .

(٢) لسان العرب ١٠ : ٤٤١ مادة (سكك) .

(٣) المصدر نفسه .

(٤) في مطالب السؤل : ٢٨ « رافق الهواء » و الظاهر أنّه تحريف .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ .

« و سكائك الهواء » إشارة إلى ما اكتشفوه في هذه العصور من أمواج الهواء التي تحمل الأصوات في الراديات .

« فأجرى فيها ماء متلاطما تياره » أي : موجه ، و في (الصحاح) : يقال قطع عرفا تيارا ، أي : سريع الجرية ، و قال عدي :

كالبحر يقذف بالتَّيَّار تيارا

. ٢

« متراكما » أي : متراكبا .

« زخاره » من زخر الوادي إذا امتدَّ جدًّا و ارتفع .

« حمله على متن الريح العاصفة » أي : الشديدة .

« و الزرع » أي : المحركة للأشياء .

« القاصفة » أي : الكاسرة لها ، يقال قصفت الريح السفينة ، قال المجلسي :

و هذه الريح غير الهواء المذكور أوّلا ، كما سيأتي في قول الصادق عليه السلام للزنديق : الريح على الهواء و الهواء تمسكه القدرة ٣ . فيمكن أن تكون مقدّمة في الخلق عليه و متأخرة عنه أو مقارنة له ٤ .

« فأمرها بردّه و سلّطها على شدّه و قرنّها إلى حدّه » قال المجلسي : أي : أمر الريح أن تحفظ الماء ، و تردّه بالمنع عن الجري الذي سبقت الإشارة إليه بقوله :

« فأجرى فيها ماء » ، فكان قبل الردّ قد خلّي و طبعه أي : عن الجري الذي يقتضيه طبعه و قواها على ضبطه كالشيء المشدود ، و جعلها مقرونة إلى

(١) ملحقات الصحيفة السجادية الكاملة : ٣١٩ ، الدعاء (١) و قد مرّ في العنوان (٢١) من الفصل الأوّل .

- (٢) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٦٠٣ مادة (تير) .
- (٣) الظاهر أنه أشار إلى ما جاء في البحار ٦٠ : ١٥ ح ١٩ عن احتجاج الطبرسي ، و هو في الاحتجاج ٢ : ٣٥٠ ، لكن ليس بهذه الألفاظ ، و روى قريبا منه البرسي في المشارق : ٤٣ ، و المجلسي في البحار ٥٧ : ٢٠١ عن علي عليه السلام .
- (٤) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨٣ .

الصفحة ٤٧٦

انتهائه محيطه به ١ .

قلت : مقتضى كلامه أن الله تعالى أجرى الماء أولا في الهواء المجرد بجعل الهواء حاملا له ، و أن الماء كان جاريا حينئذ على مقتضى طبعه من الحركة إلى السفلى ، ثم حمله على ظهر الريح فقسرت جريه و عكسته ، مع أن ظاهر كلامه عليه السلام أن جريه أولا في الهواء كان بتوسط حمله على ظهر الريح ،

فإن الظاهر أن قوله عليه السلام : « حمله على متن الريح العاصفة . . . » حال من (ماء) في قوله : « فأجرى فيها ماء . . . » أي : أجرى الماء حاملا له على متن الريح ، و لو كان المعنى كما ذكر لقال عليه السلام : (ثم حمله) .

« الهواء من تحتها فتيق » أي : منشق .

« و الماء من فوقها دفيق » قال الجوهري : دفقت الماء أدفقه دفقا ، أي :

صبيته ، فهو ماء دافق ، أي : مدفوق ، كما قالوا : سرّ كاتم . أي : مكتوم ، لأنه من قولك : دفق الماء على ما لم يسمّ فاعله ٢ .

قلت : بل الظاهر أن قولهم : ماء دافق ، و مثله ماء دفيق ، كما هنا بمعنى و ثاب ، قال تعالى : فلينظر الإنسان ممّ خلق . خلق من ماء دافق ٣ .

قال المجلسي في معنى قوله : « الهواء من تحتها فتيق و الماء من فوقها دفيق » أي : الهواء الذي هو محلّ الريح مفتوق ، أي : مفتوح منبسط من تحت الريح الحاملة للماء ، و الماء دفيق من فوقها ، أي : مصبوب مندفق ، و الغرض أنه سبحانه بقدرته ضبط الماء المصبوب بالريح الحاملة له ، كما ضبط الريح بالهواء المنبسط ، و هو موضع العجب ٤ .

- (١) المصدر نفسه ، و قال عقيب كلامه في حديث الصادق عليه السلام : « و يمكن أن يكون المراد بها ما تحرك منه كما هو المشهور » .
- (٢) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٤٧٥ مادة (دقق) .
- (٣) الطارق : ٦٥ .
- (٤) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨٤ .

الصفحة ٤٧٧

قلت : بل الظاهر أنّ الغرض أنّ مقتضى الطبيعة أن يكون الماء تحت ، و الرّيح فوقه ، و الهواء فوقها ، و هو تعالى جعل الرّيح وسطا و الماء فوقها و الهواء تحتها ، و هو موضع العجب .

« ثمّ أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبّها » اعتقم : من قولهم : رحم معقومة ، أي : مشدودة لا تلد .

« و أدام مربّها » أي اقامتها في محلّها ، من قولهم : مربّ الإبل لمكان لزمته .

قال المجلسي : الظاهر أنّ هذه الرّيح غير ما جعلها الله محلاً للماء ، بل هي مخلوقة من الماء كما سيأتي في الرواية ١ .

قلت : كون هذه الرّيح غير الأولى لا يحتاج فيه إلى الاستناد إلى الرواية الدالّة على خلقها من الماء ، بل نفس هذه الفقرة مع ظهورها في عدم خلقها من ذلك الماء كالصريحة في التّغاير للتعبير بقوله : « ثمّ أنشأ »

و قال ابن أبي الحديد : استدلّ الراوندي لتغاير الرّيح الثانية مع الأولى بتعريف الأولى و تكثير الثانية ، و ردّه بأنّه ليس مستفادا من مجردهما ، بل من كون إحداهما تحت الماء و الأخرى فوقه ٢ .

قلت : و أيّ مانع من أن يجعل مقدارا من ريح واحدة تحت الماء ، و مقدارا فوقه ؟ فالصواب أن يستند إلى التّعبير بفقرة « ثمّ أنشأ » .

« و أعصف » أي : أشدّ .

« مجراها » أي : جريانها .

« و أبعد منشأها » من منتهاها .

« فأمرها بتصفيق » قال الجوهرى : الصَّقق : الضرب الذي يسمع

(١) المصدر نفسه .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩ ، و النقل بالمعنى .

الصفحة ٤٧٨

له صوت ١ .

« الماء الزخّار » أي : الكثير .

« و إثارة » من : أثار الغبار .

« موج البحار » بجعله فوق و تحت .

« فمخضته » أي : حرّكته .

« مخض السقاء » أي : سقاء اللّبن لأخذ زبده .

« و عصفت به » أي : بالماء .

« عصفتها بالفضاء » أي : حرّكت الماء مثل تحريكها للفضاء .

« تردّ أوله إلى » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (على) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٢ .

« آخره و ساجيه » أي : ساكنه .

« إلى » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (على) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٣ .

« مائره » أي : متحركه ، قال الأعشى :

كأن مشيتها من بيت جارتها
مور السحابة لا ريث و لا عجل

٤ « حتى عبّ عبابه » أي : ارتفع سيله و موجه ، أو صوت .

« و رمى بالزبد » أي : زيد الماء .

« ركامه » أي : متراكمه .

« فرفعه في هواء منفق » أي : منشق .

(١) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٥٠٧ مادة (صقق) .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « الى آخره » أيضا .

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « الى مائره » أيضا .

(٤) أورده لسان العرب ٥ : ١٨٦ مادة (مور) .

الصفحة ٤٧٩

« و جوّ منفق » أي : متّسع .

« فسوّى منه سبع سموات » و روى (الكافي) عن الباقر عليه السلام قال : كان كلّ شيء ماء ، و كان عرشه على الماء ، فأمر الله تعالى الماء فاضطرم نارا ، ثمّ أمر النار فخدمت ، فارتفع من خمودها دخان فخلق الله السموات من ذلك الدخان ،

و خلق الأرض من الرماد ١ .

و روى في خبر آخر عنه عليه السلام : و خلق الشيء الذي جميع الأشياء منه ،

و هو الماء الذي خلق الأثيَاء منه ، فجعل نسب كل شيء إلى الماء ، و لم يجعل للماء نسبا يضاف إليه ، و خلق الريح من الماء ، ثم سلط الريح على الماء ،

فشقت الريح متن الماء حتى صار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور ،

فخلق من ذلك الزبد أرضا بيضاء نقيه ليس فيها صدع و لا ثقب و لا صعود و لا هبوط و لا شجرة ، ثم طواها فوضعها فوق الماء ، ثم خلق الله النار من الماء فشقت النار متن الماء حتى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور ،

فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقيه ليس فيها صدع و لا ثقب ٢ .

و روى (تفسير القمي) عن الصادق عليه السلام في خبر قال : كان عرشه على الماء ، و الماء على الهواء ، و الهواء لا يحدّ و لم يكن يومئذ خلق غيرهما ، و الماء يومئذ عذب فرات ، فلما أراد أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربت الماء حتى صار موجا ، ثم أزيد فصار زبدا واحدا ، فجمعه في موضع البيت ، ثم جعله جبلا من زبد ، ثم دحا الأرض من تحته ، فقال : إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا . . ٣ . ثم مكث الربّ تبارك و تعالى ما شاء ، فلما أراد أن يخلق

(١) أخرجه الكليني في الكافي في صدر حديث في موضعين ٨ : ٩٥ ح ٦٨ ، و : ١٥٣ ح ١٤٢ .

(٢) أخرجه الكليني ضمن حديث في الكافي ٨ : ٩٤ ح ٦٧ .

(٣) آل عمران : ٩٦ .

الصفحة ٤٨٠

السماء أمر الرياح ، فضربت البحور حتى أزيدت بها فخرج من ذلك الموج و الزيد من وسطه دخان ساطع من غير نار ، فخلق منه السماء ، و جعل فيها البروج و النجوم ، و منازل الشمس و القمر ، و أجراها في الفلك ، و كانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر ، و كانت الأرض غبراء على لون الماء العذب ، و كانتا مرتوقيتين ليس لهما أبواب ١ .

« جعل سفلاهنّ موجا مكفوفاً » عن السقوط ، و في خبر سؤال الرجل الشامي عن الباقر عليه السلام و سأله عن السماء الدنيا ممّ هي ؟ قال : من موج مكفوف ٢ .

« و علياهنّ سقفا محفوظا » هكذا في (النهج) ، و لكن في (مطالب السؤول) نقله « و سقفا محفوظا » بدون كلمة (علياهنّ) ٣ ، و عليه يصير المعنى كون سفلاهنّ سقفا محفوظا ككونها موجا مكفوفاً ، و كأنّه أصحّ . فقال تعالى :

و جعلنا السماء سقفا محفوظا و هم عن آياتها معرضون ٤ فجعل السقلى سقفا محفوظا ، و كذلك قوله عليه السّلام : « و سمكا مرفوعا » لم يخصّه الله تعالى

(١) أخرجه علي بن إبراهيم في تفسيره ٢ : ٦٩ ، و قريب منه ما أخرجه صاحب تفسير العسكري فيه : ٦٩ عن النبي صلّى الله عليه و آله ، و أخرجه الفرات الكوفي في تفسيره : ٦٦ عن علي عليه السّلام ، و أخرجه العياشي في تفسيره ١ : ١٨٦ ح ٩١ ، و الكليني بروايتين في الكافي ٤ : ١٨٩ ح ٧ ، و ٨ : ٩٤ ح ٦٧ عن الباقر عليه السّلام ، و علي بن إبراهيم في تفسيره ١ : ٣٢١ بلا عزو ، و روي عن ابن عباس و ابن مسعود و ابن عمر و غيرهم موقوفاً .

(٢) أخرجه ضمن أسئلة رجل من الشام لعلي عليه السّلام الصدوق في علل الشرائع ٢ : ٥٩٣ ح ٤٤ ، و العيون : ١ : ١٨٨ ح ١ ، و أخرج معناه ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه و آله و ابن أبي حاتم عن أبي الجلد موقوفاً ، و ابن راهويه في مسنده و ابن المنذر ، و ابن أبي حاتم ، و الطبراني في معجمه الأوسط ، و أبو الشيخ عن الربيع بن أنس موقوفاً عنهم الدرّ المنثور ١ : ٤٤ ، و قد جاء ذكر (الموج المكفوف) في أخبار أخرى لم يسع المقام لذكرها .

(٣) مطالب السؤول : ٢٨ .

(٤) الأنبياء : ٣٢ .

الصفحة ٤٨١

بالعليا . فقال : أ أنتم أشدّ خلقاً أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها ١ ،

و قال عزّ و جلّ : و السّقف المرفوع ٢ ، بل قوله في ما يأتي : « ثم زيّنها بزينة الكواكب » أيضاً يشهد لزيادة كلمة (علياهنّ) ، و عليه فلا يحتاج إلى ما تكلفه المجلسي في شرح الفقرة على نقل (النهج) ، فقال : يخطر بالبال وجه آخر ، و هو أن يكون المراد أنّه تعالى جعل الجهة السفلى من كلّ من السماوات موجة متحركة واقعا ، أو في النّظر ، و الجهة العليا منها سقفا محفوظا تستقرّ عليه الملائكة ، و لا يمكن للشياطين خرقها ٣ .

« بغير عمد يدعمها » أي : يكون عمادها لها .

« و لا دسار » أي : مسمار .

« ينظمها » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (ينظمها) كما في (ابن أبي الحديد و الخطيب) ٤ .

« ثم زينها بزينة الكواكب » و لا ريب أن الضمير في (زينها) يرجع إلى السماء الدنيا لقوله تعالى : إنا زيننا السماء الدنيا بزينة الكواكب ٥ ، و قوله عزّ و جلّ : و لقد زيننا السماء الدنيا بمصابيح . . . ٦ .

« و ضياء الثواقب » و الأصل في الثقب : ثقب الدرّ ، و المراد ثقبها بضوئها ،

قال تعالى : و ما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب ٧ .

(١) النازعات : ٢٧ ٢٨ .

(٢) الطور : ٥ .

(٣) بحار الأنوار ٥٧ : ١٨٦ .

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٧ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣١ « ينظمها » أيضا .

(٥) الصافات : ٦ .

(٦) الملك : ٥ .

(٧) الطارق : ٣٢ .

الصفحة ٤٨٢

و عن الصادق عليه السلام : النجم الثاقب : زحل ، و مطلعته في السماء السابعة ، و أنه ثقب بضوئه حتى أضاء في السماء الدنيا ، فمن ثم سمّاه الله النجم الثاقب ١ .

« و أجرى فيها سراجا مستطيرا » قال تعالى : و جعلنا سراجا وهّاجا ٢ ، و قال عزّ و جلّ : و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣ .

و قال الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة ، و ما في ذلك من التدبير . . . انظر إلى شروقها على العالم كيف دبّر أن يكون ، فإنها لو كانت تبرزغ في موضع من السماء فنقف لا تعدوه لما وصل شعاعها و منفعتها إلى كثير من الجهات ، لأنّ الجبال و الجدران كانت تحجبها عنها ، فجعلت تطلع أول النهار من المشرق ، فتشرق على ما قابلها من وجه

المغرب ، ثم لا تزال تدور و تعشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب ، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار ، فلا يبقى موضع من المواضع إلا أخذ بقسطه من المنفعة منها و الإرب التي قدرت له ٤ .
 « و قمرا منيرا » و جعل القمر فيهنّ نورا ٥ .
 « في فلك دائر و سقف سائر و رقيم » أي : منتفش .
 « مائر » أي : متحرك ، و الظاهر أنّ (دائر) خبر لكلمة (كلّ) محذوفة لا صفة ل (فلك) ، و في (فلك) متعلّق به ، و مثله (سائر) و (مائر) ، فيكون المعنى : كلّ من الكواكب و الشمس و القمر دائر في فلك ، و سائر في سقف ، و مائر في رقيم .

-
- (١) هذا مقتبس من حديث طويل أخرجه الصدوق في الخصال ٢ : ٤٨٩ ح ٦٨ .
 (٢) النبأ : ١٣ .
 (٣) يس : ٣٨ .
 (٤) توحيد المفضل : ١٣٠ .
 (٥) نوح : ١٦ .

الصفحة ٤٨٣

فيكون مساوقا لقوله تعالى بعد ذكر الشمس و القمر : . . . كلّ في فلك يسبحون ١ .

و قال الصادق عليه السلام بعد ذكر مقدار من حكمه تعالى في الشمس و القمر و النجوم : مع ما في ترددها في كبد السماء مقبلة و مدبرة و مشرقة و مغربة من العبر ، فإنها تسير أسرع السير و أحنّه ، أ رأيت لو كانت الشمس و القمر و النجوم بالقرب منا حتى يتبين لنا سرعة سيرها بكنه ما هي عليه ، ألم تكن تستخطف الأبصار بوجهها و شعاعها ، كالذي يحدث أحيانا من البروق إذا توالى و اضطربت في الجو ؟ و كذلك لو أنّ أناسا كانوا في قبة مكلّلة بمصابيح تدور حولهم دورانا حثيثا ، لحارت أبصارهم حتى يخرّوا لوجوههم . فانظر كيف قدر أن يكون مسيرها في البعد البعيد لكيلا تضرّ في الأبصار ، و تنكأ فيها بأسرع السرعة ، لكيلا تتخلف عن مقدار الحاجة في مسيرها ٢ .

وَ نَظْمَ بِلَا تَعْلِيْقٍ رَهَوَاتٍ فُرَجْهَآ وَ لَآحَمَ صُدُوعَ اِنْفِرَاجِهَا وَ وَشَّحَ بَيْنَهَا وَ بَيْنَ اَزْوَاجِهَا وَ ذَلَّلَ لِلْهَابِطِيْنَ بِأَمْرِهِ
وَ الصَّاعِدِيْنَ بِأَعْمَالِ خَلْفِهِ حُزُونََةَ مِعْرَاجِهَا وَ نَادَاهَا بَعْدَ اِذْ هِيَ دُخَانٌ فَالْتَحَمَتْ عَرَى اَشْرَاجِهَا وَ فَتَقَّ بَعْدَ
الْاِرْتِنَاقِ صَوَامِتَ اَبْوَابِهَا وَ اَقَامَ رَصْدًا مِّنَ الشُّهُبِ الثَّوَابِقِ عَلٰى نِقَابِهَا وَ اَمْسَكَهَا مِّنْ اَنْ تُمُورَ فِي خَرْقِ
الْهَوَاءِ بِاَيْدِيهِ وَ اَمْرَهَا اَنْ تَقْفَ مُسْتَسْلِمَةً لِأَمْرِهِ وَ جَعَلَ شَمْسَهَا آيَةً مُّبْصِرَةً لِنَهَارِهَا وَ قَمَرَهَا آيَةً

(١) يس : ٤٠ .

(٢) توحيد المفضل : ١٣٥ .

الصفحة ٤٨٤

مَمْحُوَّةً مِّنْ لَّيْلِهَا فَأَجْرَاهُمَا فِي مَنَاقِلِ مَجْرَاهُمَا وَ قَدَّرَ سَيْرَهُمَا فِي مَدَارِجِ دَرَجِهِمَا لِيُمَيِّزَ بَيْنَ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ
بِهِمَا وَ لِيُعْلَمَ عَدَدُ السَّنِيْنَ وَ الْحِسَابُ بِمَقَادِيرِهِمَا ثُمَّ عَلَّقَ فِي جَوْهَا فَلَكَّهَا وَ نَاطَ بِهَا زِينَتَهَا مِنْ خَفِيَّاتِ دَرَارِيَّهَا
وَ مَصَابِيحِ كَوَاكِبِهَا وَ رَمَى مُسْتَرْقِي السَّمْعِ بِثَوَاقِبِ شُهْبِهَا وَ أَجْرَاهَا عَلٰى أَذْلَالِ تَسْخِيرِهَا مِنْ ثَبَاتِ ثَابِتِهَا وَ
مَسِيرِ سَائِرِهَا وَ هُبُوطِهَا وَ صُعُودِهَا وَ نُحُوسِهَا وَ سُعُودِهَا « وَ نَظْمَ بِلَا تَعْلِيْقٍ رَهَوَاتٍ فُرَجْهَآ » قَالَ ابْنُ أَبِي
الحديد في شرح الفقرة :

يقول عليه السلام : كانت السماء أول ما خلقت غير منتظمة الأجزاء بل بعضها أرفع و بعضها أخفض ،
فنظمها سبحانه ، فجعلها بسيطا واحدا ، نظما اقتضته القدرة الإلهية من غير تعليق ، أي : لا كما ينظم
الإنسان ثوبا مع ثوب أو عقدا مع عقد بالتعليق و الخياطة . و تبعه الخوئي في ذلك ١ .
قلت : فيه أولا : إنه هل كان بناؤه تعالى للسماء كبناء الناس لشيء أولا غير منظم لعدم فهمهم الخلل ، ثم
ينظمونه بعد الوقوف على خلله تعالى عن ذلك ؟

و ثانيا : إن المعنى الذي قال يستلزم استعمال (الرهوات) في معنيين ،

قال (الصحاح) : الرهو و الرهوة : المكان المرتفع و المنخفض أيضا ، و يجتمع فيه الماء ٢ . و هو من
الأضداد ، و استعمال المشترك في معنيين غير جائز ،

و الأظهر أن رهوات في كلامه عليه السلام بمعنى المنفتحات ، كقوله تعالى : و اترك البحر رهوا . . . ٣ .
و المراد نظمها أولا ، و يشهد له إضافتها إلى فرجها .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٧ ، و شرح الخوئي ٣ : ٩٥ .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٣٦٥ مادة (رهو) .

الصفحة ٤٨٥

« و لآحم صدوع انفراجها » أي : جعلها ملصقة ابتداء .

« و وشج » أي : خلط ، و الأصل فيه الاشتباك ، و لهذا يطلق الوشيجة على عرق الشجر ، و على ليف يفتل لشدّ الحمل ، لأنهما يشتبكان .

« بينها و بين أزواجها » أي : قرائنها ، كقوله تعالى : احشروا الذين ظلموا و أزواجهم . . . ١ .

و قال ابن ميثم : المراد بأزواجها نفوسها التي هي الملائكة المساوية ٢ .

و ردّه المجلسي بنقل المرتضى : الإجماع من المسلمين على أنّ الأفلاك لا شعور لها و لا إرادة . و قال : يمكن أن يراد بالأزواج الملائكة الموكّلون بها ، أو القاطنون فيها ، أو أشباهها من الكواكب و الأفلاك الجزئية ، أو أشباحها في الجسمية و الإمكان من الأرضيات ٣ . و هو كما ترى ، لا سيّما الأوّل و الأخير من وجوهه . فلا معنى للتّوشيح بين السماوات و الملائكة ، و بينها و بين الأرضيات .

« و ذلّ للهابطين » أي : للملائكة الهابطين .

« بأمره » من السماء .

« و الصاعدين بأعمال خلقه » من الأرض .

« حزونة » أي : خشونة .

« معراجها » أي : العروج إليها .

« ناداها » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و ناداها) كما في (ابن أبي

(١) الصافات : ٢٢ .

(٢) شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤٦ .

(٣) بحار الأنوار ٥٧ : ١٢٨ ، و أمّا ما نقله عن المرتضى فعن ملحقات الدرر و الغرر له ، لكن لم يصرح المجلسي بكونه من الملحقات ، و نقل ابن طاووس في فرج المهموم : ٤١ قول المرتضى و نقده بتفصيل .

الصفحة ٤٨٦

الحديد و ابن ميثم و الخطيّة (١) .

« بعد إذ هي دخان » الأصل في كلامه عليه السّلام قوله تعالى : ثمّ استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض انثيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين .

فقضاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها . . . ٢ ، و النداء في كلامه عليه السّلام ، كالقول في الآية ، حالّي لا مقالّي .

« فالتحمت عرى » جمع عروة ، عروة الكوز و غيره .

« أشراجها » جمع الشّرج ، قال الفيروز آبادي : الشّرج محرّكة العرى و منفسح الوادي و مجرة السماء ، و فرج المرأة ، و انشقاق القوس ٣ .

قلت : و الظاهر أنّ الأصل في معناه الانشقاق فهو يجمع معاني ذكرها ،

و لكن ذكر (النهاية) له معنيين آخرين فقال : و في حديث الصوم : فأمرنا النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم بالفطر فأصبح الناس شرحين ، يعني نصفين : نصف صيام ،

و نصف مفاطير . و في حديث مازن : فلا رأيهم رأيي ، و لا شرحهم شرحي .

يقال : ليس هو من شرحه ، أي : من طبخته و شكله ، و منه حديث علقمة : و كان نسوة يأتينها مشارجات لها . أي : أتراب و أقران ٤ .

قلت : و يمكن إرجاعهما إليه أيضا ، و كيف كان فقال ابن أبي الحديد :

أشراجها : جمع شرح ، و هو عرى العيبة ، و أشرجت العيبة ، أي : أفضلت أشراجها ،

و تسمى مجرة السماء شرحا تشبيها بشرح العيبة ٥ .

قلت : لم يقل أحد أن الشرح عرى العيبة ، بل مطلق العرى ، و منشأ و هم

- (١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٦ ، لكن لا توجد (الواو) في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤٥ .
 (٢) فصلت : ١٢ ١١ .
 (٣) القاموس المحيط ١ : ١٩٥ مادة (شرح) .
 (٤) النهاية لابن الأثير ٢ : ٤٥٦ مادة (شرح) .
 (٥) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٧ .

الصفحة ٤٨٧

ابن أبي الحديد أن الجوهري قال : شرح العيبة عراها ١ . ففسر شرح العيبة بعرى العيبة ، لا مطلق الشرح . ثم على تفسيره ماذا يجعله معنى الكلام ، فيصير معناه : فالتحمت عرى عرى عيبتها ، و هو بلا معنى ، كما أن ما ذكره من أن مجرة السماء سميت شرحا تشبيها بشرح العيبة ، لم يذكره أحد ، و أيّ شباهة بينهما حتى تشبه به .

« و فتح بعد الارتفاق صوامت أبوابها » قال تعالى : أ و لم ير الذين كفروا أن السماوات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما . . . ٢ لكن الأخبار فسرت الآية بأن السماء كانت رتقا لا تمطر ، و الأرض رتقا لا تنبت . ففتقنا بالأمطار و النباتات ٣ .

و أما قوله عليه السلام : « صوامت أبوابها » فقال ابن أبي الحديد : هو و قوله بعد :

« على نقابها » صريح في أن للسماء أبوابا ، و هو مطابق لقوله تعالى : . . . لا تفتح لهم أبواب السماء . . . ٤ ، و القرآن و كلام هذا الامام المعظم أولى بالاتباع من كلام الفلاسفة الذين أحالوا الخرق على الفلك . ٥

و قال المجلسي : و فتح صوامت الأبواب ، إمّا كناية عن إيجاد الأبواب فيها و خرقها بعد ما كانت رتقا لا باب فيها ، أو فتح الأبواب المخلوقة فيها حين إيجادها ، و هذه الأبواب هي التي منها عروج الملائكة و هبوطها و صعود أعمال

- (١) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٣٢٤ مادة (شرح) .
- (٢) الأنبياء : ٣٠ .
- (٣) هذا التفسير نقله الكليني في الكافي ٨ : ٩٤ ح ٦٧ ، و الإربلي في كشف الغمة ٢ : ٣٣٨ ، و الطبرسي في الاحتجاج ٢ :
- ٣٢٦ عن الباقر عليه السلام ، و علي بن إبراهيم في تفسيره ٢ : ٦٩ عن الصادق عليه السلام ، و نقله الفريابي ، و عبد بن حميد في مسنده ، و الحاكم في المستدرک ، و البيهقي في الأسماء و الصفات ، و ابن المنذر و أبو نعيم في حلية الأولياء ، و بروايتين ابن أبي حاتم عنهم الدر المنثور ٤ : ٢١٧ ، و صاحب تنوير المقباس فيه ٣ : ٢٥٩ عن ابن عباس ، و نقله الطوسي في التبيان ٧ : ٢١٥ عن الباقر و الصادق عليهما السلام و عكرمة و ابن زيد .
- (٤) الأعراف : ٤٠ .
- (٥) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٧ و النقل بالمعنى .
- ٤٨٨

العباد و أدعيتهم و أرواحهم ، كما قال تعالى : . . . لا تفتح لهم أبواب السماء . . . ١ و التي تنزل منها الأمطار كما أشار إليه تعالى بقوله : ففتحن أبواب السماء بماء منهمر ٢ .

قلت : لقائل أن يقول : إن الآية الأولى كناية عن عدم المبالاة بهم ، فبعدها :

و لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط . . . ٣ و الآية المتقدمة كما عرفت ، و بالجملة ، كلامه عليه السلام كالقرآن لا صراحة فيه في ما ادعى .

« و أقام رسدا من الشهب الثواقب على نقابها » نقاب ، جمع نقب : الطريق بين الموضعين . قال تعالى :

و إنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهبا . و إنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهبا رسدا ٤ ، لكن ظاهر كلامه عليه السلام أن الإرسال كان من الأول ، و ظاهر الآية حكاية عن الجن أنه كان أخيرا ، و المراد بعد مولد النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و جمع بينهما بكونه أولا خفيفا و شدد أخيرا .

« و أمسكها من أن تمور » أي : تضطرب ، قال تعالى : يوم تمور السماء مورا ٥ و المراد في القيامة .

« في خراق » جمع خرق ، أي : متسع .

« الهواء بأيده » أي : بقوة ، قال تعالى : و السماء بنيناها بأيدي . . . ٦ ، إن الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من

(١) الأعراف : ٤٠ .

(٢) بحار الأنوار ٧ : ١٢٩ ، و الآية (١١) من سورة القمر .

- (٣) الأعراف : ٤٠ .
 (٤) الجن : ٩٨ .
 (٥) الطور : ٩ .
 (٦) الذاريات : ٤٧ .

الصفحة ٤٨٩

بعده ١ .

« و أمرها أن تقف مستسلمة لأمره » و أوحى في كلّ سماء أمرها ٢ .

« و جعل شمسها آية مبصرة لنهارها ، و قمرها آية محوّة من ليلها » و جعلنا الليل و النهار آيتين فمحونا آية الليل و جعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربّكم ٣ .

قال الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر يا مفضل في طلوع الشمس و غروبها لإقامة دولتي النهار و الليل ، فلو لا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه ، فلم يكن الناس يسعون في معاشهم ، و يتصرفون في أمورهم ، و الدنّيا مظلمة عليهم ، و لم يكونوا يتهنّؤون بالعيش مع فقدهم لذّة النور و روحه ، و الإرب في طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب في ذكره ، و الزيادة في شرحه .

بل تأمل المنفعة في غروبها ، فلو لا غروبها لم يكن للناس هدوء و لا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء و الراحة لسكون أبدانهم ، و جموم حواسّهم ،

و انبعاث القوّة الهاضمة لهضم الطعام ، و تنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم كان الحرص يستحملهم من مداومة العمل و مطاولته على ما يعظم نكايته في أبدانهم ، فإنّ كثيرا من الناس لو لا جنوم هذا الليل بظلمته عليهم لم يكن لهم هدوء و لا قرار حرصا على الكسب و الجمع و الاتّخار ، ثمّ كانت الأرض تستحي بدوام الشمس بضيائها ، و يحمى كلّ ما عليها من حيوان و نبات ،

فقدرها الله بحكمته و تدبيره تطلع وقتا و تغرب وقتا ، بمنزلة سراج يرفع لأهل البيت تارة ليقضوا حوائجهم ، ثمّ يغيب عنهم مثل ذلك ليهدؤوا و يقروا ، فصار

(١) فاطر : ٤١ .

(٢) فصلت : ١٢ .

الصفحة ٤٩٠

النور و الظلمة مع تضادّهما منقادين متظاهرين على ما فيه صلاح العالم و قوامه .

ثمّ فكّر بعد هذا في ارتفاع الشّمس و انحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنّة ، و ما في ذلك من التدبير و المصلحة ، ففي الشّتاء تعود الحرارة في الشجر و النّبات ، فيتولّد فيهما موادّ الثّمار ، و يستكثف الهواء فينشأ منه السّحاب و المطر ، و تشدّ أبدان الحيوان و تقوى ، و في الربيع تتحرّك و تظهر الموادّ المتولّدة في الشّتاء ، فيطلع النّبات و تنور الأشجار ، و يهيج الحيوان للسّقاء ، و في الصيف يحتدم الهواء فتتضج الثّمار ، و تتحلل فضول الأبدان ، و يجفّ وجه الأرض ، فتتهيأ للبناء و الأعمال ، و في الخريف يصفو الهواء ، و ترتفع الأمراض ، و تصحّ الأبدان ، و يمتدّ اللّيل ، فيمكن فيه بعض الأعمال لطوله و طيب الهواء فيه إلى مصالح أخرى لو تقيّمت لذكرها لطلال الكلام .

فكّر الآن في تنقّل الشّمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنّة ،

و ما في ذلك من التدبير ، فهو الدور الذي تصحّ به الأزمنة الأربعة من السنّة ،

الشّتاء و الربيع و الصيف و الخريف ، و تستوفيها على التّمام ، و في هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلّات و الثّمار ، و تنتهي إلى غاياتها ، ثمّ تعود فيستأنف النّشوء و النّموّ ، ألا ترى أنّ السنّة مقدار مسير الشّمس من الحمل إلى الحمل ؟ فبالسنّة و أخواتها يكال الزّمان من لدن خلق الله تعالى العالم إلى كلّ وقت و عصر من غابر الأيّام ، و بها يحسب النّاس الأعمار و الأوقات الموقّنة للديّون ، و الإجازات و المعاملات ، و غير ذلك من أمورهم ، و بمسير الشمس تكمل السنّة ، و يقوم حساب الزّمان على الصّحة إلى أن قال : و لو تخلّفت مقدار عام أو بعض عام كيف كان يكون حالهم ، بل كيف

الصفحة ٤٩١

كان يكون لهم مع ذلك بقاء ، أفلا ترى كيف كان يكون للناس هذه الأمور الجلييلة التي لم يكن عنهم فيه حيلة ، فصارت تجري على مجاريها لا تقتل ، و لا تتخلّف عن موافقتها لصلاح العالم و ما فيه بقاؤه إلى أن قال : فكّر في إنارته (أي القمر) في ظلمة اللّيل و الإرب في ذلك ، فإنّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان و برد الهواء على النّبات لم يكن صلاح في أن يكون اللّيل ظلمة داجية لا ضياء فيها ، فلا يمكن فيه شيء من العمل لأنّه ربّما احتاج الناس إلى العمل باللّيل لضيق الوقت عليهم في بعض الأعمال في النّهار ،

و لشدة الحرّ و إفراطه ، فيعمل في ضوء القمر أعمالاً شتى كحرث الأرض ،

و ضرب اللبن ، و قطع الخشب ، و ما أشبه ذلك ، فجعل ضوء القمر معونة للناس على معائشهم إذا احتاجوا إلى ذلك و أنسا للسائرين ، و جعل طلوعه في بعض الليل دون بعض ، و نقص مع ذلك عن نور الشمس و ضيائها لكيلا ينبسط الناس في العمل انبساطهم بالنهار ، و يمتنعوا من الهدوء و القرار فيهلكهم ذلك ، و في تصرف القمر خاصة في مهله و محاقه و زيادته و نقصانه و كسوفه من التنبه على قدرة الله تعالى خالقه المصروف له هذا التصريف لصالح العالم ما يعتبر به المعتبرون ١ .

و عن أمير المؤمنين عليه السلام في الخطاب إلى الشمس عند طلوعها : « أيتها الشمس البديعة التصوير ، المعجزة التقدير ، التي جعلت سراجاً للأبصار ، و نفعاً لسكان الأمصار ، شروقك حياة ، و غروبك وفاة ، إن طلعت بأمر عزيز ، و إن رجعت إلى مستقر حريز ، أسأل الذي زين بك السماء ، و ألبسك الضياء ، و صدع لك أركان المطالع ، و حجبك بالشعاع اللامع ، فلا يشرف بك شيء إلا امتحق ، و لا يواجهك بشر إلا احترق ، أن يهب لنا بك من الصحة و دفع العلة ،

(١) توحيد المفضل : ١٢٨ .

الصفحة ٤٩٢

و ردّ العزبة ، و كشف الكربة . . . » ١ .

و عن السجاد عليه السلام في الخطاب إلى القمر عند مستهله : أيتها الخلق المطيع ، الدائب السريع ، المتردد في منازل التقدير ، المتصرف في فلك التدبير ، آمنت بمن نور بك الظلم ، و أوضح بك البهم ، و جعلك آية من آيات ملكه ، و علامة من علامات سلطانه ، و امتهتك بالزيادة و النقصان ، و الطلوع و الأفول ، و الإنارة و الكسوف ، في كل ذلك أنت له مطيع ، و إلى إرادته سريع . سبحانه ما أعجب ما دبّر في أمرك ، و ألطف ما صنع في شأنك ، جعلك مفتاح شهر حادث لأمر حادث ، فأسأل الله ربّي و ربك ، و خالقي و خالقك ، و مقدري و مقدرك ، و مصوري و مصورك أن يصلي على محمد و آله ، و أن يجعلك هلال بركة لا تمحقها الأيام ، و طهارة لا تدنسها الآثام ، هلال أمن من الآفات و سلامة من السيئات ، هلال سعد لا نحس فيه ، و يمن لا نكد معه ، و يسر لا يمازجه عسر ، و خير لا يشوبه شرّ ، هلال أمن و إيمان و نعمة و إحسان و سلامة و إسلام .

اللهم صلّ على محمد و آله ، و اجعلنا من أرضى من طلع عليه ، و أزكى من نظر إليه ، و أسعد من تعبّد لك فيه ، و وفّقنا فيه للتّوبة ، و أعصمنا فيه من الحوبة ، و احفظنا من مباشرة معصيتك ، و أوزعنا فيه شكر نعمتك ، و ألبسنا فيه جنن العافية ، و أتمم علينا باستكمال طاعتك فيه المنّة ، إنّك المنان الحميد . . . « ٢ .

« فأجراهما » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و أجراهما) كما في (ابن

(١) رواه المحدث النوري في الصحيفة العلوية الثانية : ٢٠٠ عن ظهر نسخة عتيقة من كتاب لبّ اللباب ، و أشار إليه ابن طاووس في جمال الأسبوع : ٢٣٠ .
(٢) الصحيفة السجادية الكاملة : ٢٠٩ الدعاء ٤٣ ، و رواه بفرق يسير القاضي القضاعي في دستور المعالم : ١٣٠ ، و أبو علي الطوسي في أماليه ٢ : ١٠٩ المجلس ١٧ عن علي عليه السّلام .

الصفحة ٤٩٣

أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة (١) .

« في مناقل » جمع منقل ، اسم مكان .

« مجراهما » مجرى مصدر ميمي .

« و قدر سيرهما » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (مسيرهما) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطيّة) ٢ .

« في مدارج درجهما » أي : حركتهما ، قال تعالى في الأوّل : و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ٣ و في الثاني : و القمر قدرناه منازل حتّى عاد كالعرجون القديم ٤ .

و روى الصولي عن ابن عبّاس في منازل القمر أنّها ثمانية و عشرون ،

ينزل القمر كلّ ليلة منزلا منها ، و هي : الشّرطان ، و البطين ، و الثّريا ، و الدّبران ،

و الهقعة ، و الهنعة ، و الذراع ، و النّثرة ، و الطرف ، و الجبهة ، و الزّبرة ، و الصرفة ،

و العواء ، و السماك ، و الغفر ، و الزبانا ، و الإكليل ، و القلب ، و الشولة ، و النعائم ،
و البلدة ، و سعد الذابح ، و سعد بلع ، و سعد السعود ، و سعد الأخبية ، و الفرغ المقدم و الفرغ المؤخر ،
و بطن الحوت ٥ .

و في (الصحاح) : و النعائم منزل من منازل القمر ، و هي ثمانية أنجم

- (١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٧ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤٥ « فأجراهما » أيضا .
(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٧ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٤٥ « يسرهما » أيضا .
(٣) يس : ٣٨ .
(٤) يس : ٣٩ .

(٥) لم أجد في أدب الكاتب . و أخرجه الخطيب في كتاب النجوم عنه الدر المنثور ٥ : ٢٦٤ عن ابن عباس ، و قال الألوسي في روح المعاني ٢٣ : ١٧ ١٩ : روى هذا عن ابن عباس و غيره ثم شرحه شرحا بسيطا ، و يستفاد منه : إن الشرطان على زنة عدنان ، و البطين على سهيل ، و الدبران على سرطان ، و الهقعة و الهنعة على ضربة ، و الزيرة على عمدة ، و الزبانا على سكارى .

الصفحة ٤٩٤

كأنها سرير معوج ، أربعة صادرة و أربعة واردة ١ .
« ليميّز بين الليل و النهار » اختلف في أن أيهما أسبق ، فروى الطبري عن ابن عباس تقدم الليل و عن آخرين العكس ٢ .

و روى ابن طاووس في (نجومه) عن كتاب (واحدة بن جمهور القمي) أن من مسائل ذي الرياستين للرضا عليه السلام : أن الناس تذاكروا بين يدي المأمون في خلق الليل و النهار ، فقال بعض : خلق الله النهار قبل الليل ، و قال بعض : خلق الله الليل قبل النهار ، فرجعوا بالسؤال إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام فقال عليه السلام : إن الله عزّ و جلّ خلق النهار قبل الليل ، و خلق الضياء قبل الظلمة ، فإن شئتم أوجدتكم ذلك من النجوم ، و إن شئتم من القرآن . فقال ذو الرياستين : أوجدنا من الجهتين جميعا . فقال عليه السلام : أمّا من النجوم فقد علمت أن طالع العالم السرطان ، و لا يكون ذلك إلاّ و الشمس في شرفها في نصف النهار ، و أمّا من القرآن فاستمع قوله تعالى فيه : لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كلّ في فلك يسبحون ٣ . و رواه عن دلائل النعماني أيضا ٤ .

« و ليعلم عدد السنين » السنين الشمسية ، و السنين القمرية .

« و الحساب بمقاديرهما » الأصل فيه قوله تعالى : هو الذي جعل الشمس ضياء و القمر نورا و قدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ٥ ، و جعلنا الليل و النهار آيتين

(١) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ٢٠٤٤ مادة (نعم) .

(٢) تاريخ الطبري ١ : ٤٢٤١ .

(٣) يس : ٤٠ .

(٤) نقله عن كتاب ابن جمهور في فرج المهموم : ٩٦ ، و عن كتاب النعماني فيه : ٩٥ ، و نقله معناه

أيضا الطبرسي في مجمع البيان ٨ : ٤٢٥ عن العياشي عن الرضا عليه السلام .

(٥) يونس : ٥ .

الصفحة ٤٩٥

فمحونا آية الليل و جعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم و لتعلموا عدد السنين و الحساب و كل شيء فصلناه تفصيلا ١ ، يسألونك عن الأهلّة قل هي مواقيت للناس و الحجّ . . . ٢ .

و مرّ قول الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر الآن في تنقل الشمس في البروج الاثني عشر لإقامة دور السنة إلى أن قال و استدل بالقمر ، ففيه دلالة جليّة تستعملها العامّة في معرفة الشهور ، و لا يقوم عليه حساب السنة ، لأنّ دوره لا يستوفي الأزمنة الأربعة و نشو الثمار و تصرّمها ، و لذلك صارت شهور القمر و سنوه تتخلف عن شهور الشمس و سنيها ، و صار الشهر من شهور القمر ينتقل ، فيكون مرّة بالشتاء و مرّة بالصيف ٣ .

« ثمّ علّق في جوّها فلکها » الظاهر أنّ معناه أنّه تعالى علّق في جوّ السماء فلک الشهب و الشمس و القمر ، قال تعالى : . . . و كلّ في فلک يسبحون ٤ .

« و ناظ » أي : علق و ألصق .

« بها زينتها من خفيات دراريتها » أي : كواكبها الصغار التي كالدرّ .

« و مصابيح » من إضافة الصفة .

« كواكبها » أي : كواكب كالسراج .

« و رمى مسترقي » على وزن مفتعلي ، لأنه من سرق .

« السمع » أي : شياطين مسترقين للسمع .

« بثواقب شهبها » و لقد جعلنا في السماء بروجاً و زيناًها للناظرين . و حفظناها من كل شيطان رجيم .
إلا من استرق السمع فأتبعه

(١) الإسراء : ١٢ .

(٢) البقرة : ١٨٩ .

(٣) توحيد المفضل : ١٣٠ .

(٤) يس : ٤٠ .

الصفحة ٤٩٦

شهاب ميبين ١ .

« و أجزاها على إذلال تسخيرها » و سخر لكم الشمس و القمر دائبين و سخر لكم الليل و النهار ٢ ، . . .
و النجوم مسخرات بأمره إن في ذلك . . . لقوم يذكرون ٣ .

« من ثبات ثابتها و مسير سائرها » كلّ منهما لحكمة ، قال الصادق عليه السلام للمفضل : فكّر في هذه النجوم التي تظهر في بعض السنة و تحتجب في بعضها ، كمثل الثريا و الجوزاء و الشعريين و سهيل ، فإنها لو كانت بأسرها تظهر في وقت واحد لم يكن لواحد فيها على حياله دلالات يعرفها الناس و يهتدون بها لبعض أمورهم ، كمعرفتهم الآن بما يكون من طلوع الثور و الجوزاء إذا طلعت ، و احتجابها إذا احتجبت ، فصار ظهور كلّ واحد منها و احتجابها في وقت غير وقت الآخر ، لينتفع الناس بما يدلّ عليه كلّ واحد منهما على حدته ، و ما جعلت الثريا و أشباهها تظهر حيناً و تحتجب حيناً إلا لضرب من المصلحة ، و كذلك جعلت نبات نعش ظاهرة لا تغيب لضرب آخر من المصلحة ، فإنها بمنزلة الأعلام التي يهتدي بها الناس في البرّ و البحر للطرق المجهولة ، و كذلك أنّها لا تغيب و لا تتوارى ، فهم ينظرون إليها متى أرادوا أن يهتدوا بها إلى حيث شأؤوا ، و صار الأمران جميعاً على اختلافهما موجّهين نحو الإرب و المصلحة .

و فيها مآرب أخرى علامات و دلالات على أوقات كثيرة من الأعمال كالزراعة و الغراس ، و السفر في البرّ و البحر ، و أشياء ممّا يحدث في الأزمنة

(١) الحجر : ١٨ ١٦ .

(٢) إبراهيم : ٣٣ .

(٣) النحل : ١٣ ١٢ .

الصفحة ٤٩٧

من الأمطار و الرياح ، و الحرّ و البرد ، و بها يهتدي السائرون في ظلمة الليل لقطع القفار الموحشة و اللّجج الهائلة ١ .

و قال عليه السّلام و نقله الخوئي أيضا : فكّر يا مفضلّ في النجوم و اختلاف مسيرها ، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك ، و لا تسير إلاّ مجتمعة ، و بعضها مطلقة تنتقل في البروج ، و تفرق في مسيرها ، فكلّ واحد منها يسير سيرين مختلفين :

أحدهما عامّ مع الفلك نحو المغرب ، و الآخر خاصّ لنفسه نحو المشرق ،

كالنّملة التي تدور على الرّحى ، فالرّحى تدور ذات اليمين ، و النّملة تدور ذات الشمال ، و النّملة في ذلك تتحرك حركتين مختلفتين ، إحداهما بنفسها فتتوجّه أمامها ، و الأخرى مستكرهة مع الرّحى تجذبها إلى خلفها . فاسأل الزّاعمين أنّ النجوم صارت على ما هي عليه بالإهمال من غير عمد ، و لا صانع لها ما منعها أن تكون كلّها راتبة أو تكون كلّها منتقلة ، فإنّ الإهمال معنى واحد ، فكيف صار يأتي بحركتين مختلفتين على وزن و تقدير ؟ ففي هذا بيان أنّ مسير الفريقيين على ما يسيران عليه بعمد و تدبير ، و ليس بإهمال كما يزعم المعطلّة .

فإن قال قائل : و لم صار بعض النجوم راتبا ، و بعضها منتقلا ؟ قلنا : إنّها لو كانت كلّها راتبة لبطلت الدّلالات التي يستدلّ بها من تنقل المنتقلة ،

و مسيرها في كلّ برج من البروج ، كما يستدلّ على أشياء ممّا يحدث في العالم بتنقل الشمس و النجوم في منازلها ، و لو كانت كلّها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف ، و لا رسم يوقف عليه ، لأنّه إنّما يوقف

عليه بمسير المنتقلة منها بتقلها في البروج الراتبة ، كما يستدل على سير السائر في الأرض بالمنازل التي يجتاز عليها و لو كان تنقلها بحال واحدة لا ختلط نظامها و بطلت المآرب

(١) توحيد المفضل : ١٣٤ .

الصفحة ٤٩٨

فيها ، و لساغ لقائل أن يقول : إن كينونتها على حال واحدة توجب عليها الإهمال ١ .

« و هبوطها و صعودها » روي أن الصادق عليه السلام سئل عن الحرّ و البرد ممّا يكونان ، فقال عليه السلام : إن المريخ كوكب حارّ ، و زحل كوكب بارد ، فإذا بدأ المريخ في الارتفاع انحطّ زحل ، و ذلك في الربيع ، فلا يزالان كذلك كلّما ارتفع زحل درجة انحطّ المريخ درجة حتّى ينتهي المريخ في الهبوط ، و ينتهي زحل في الارتفاع فيجلو زحل ، و ذلك في أول الشتاء ، و آخر الخريف ، فلذلك يشتدّ البرد .

و كلّما ارتفع هذا هبط هذا ، و كلّما هبط هذا ارتفع هذا . فإذا كان في الصيف يوم بارد ، فالفعل في ذلك للقمر ، و إذا كان في الشتاء يوم حار ، فالفعل في ذلك للشمس ٢ .

« و نحوسها و سعودها » قالت أهل النجوم : زحل النّحس الأكبر ، و مريخ النّحس الأصغر ، و المشتري السّعد الأكبر ، و زهرة السّعد الأصغر ، و عطارد مع السّعد سعد و مع النّحس نحس ، و النيران الشمس و القمر سعدان من التّثليث و التسديس ، و نحسان من المقابلة و التّربيع ، و المقارنة و الرّأس سعد ،

و الذنب و الكبد نحسان ٣ .

و قال الجوهري : سعود النجوم عشرة : أربعة منها في برج الجدي ،

و الدلو ينزلها القمر ، و هي : سعد الذابح ، و سعد بلع ، و سعد الأخيية ، و سعد السّعود ، و هو كوكب منفرد نير ، و أمّا السّنة التي ليست من المنازل : فسعد ناشرة ، و سعد الملك ، و سعد البهام ، و سعد الهمام ، و سعد البارح ، و سعد مطر ،

(١) توحيد المفضل : ١٣٢ ، و شرح الخوئي ٣ : ١٠٢ .

(٢) أخرجه الكليني في الكافي ٨ : ٣٠٦ ح ٤٧٤ ، و النقل بتصريف في اللفظ .

(٣) كذا نقل ابن ميثم في شرحه ٢ : ٣٥١ .

الصفحة ٤٩٩

و كل سعد من هذه السنته كوكبان ، بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع ،

وهي متناسقة ، و أما سعد الأخبية فثلاثة أنجم كأنها أثافي ، و رابع تحت واحد منهن ، و سعد بلع من منازل القمر كوكبان متقاربان زعموا أنه طلع لما قال تعالى للأرض : . . . ابلعي ماءك . . . يعني سمّي بلع لذلك ٢ .

و في (كنايات الجرجاني) : و العرب تكنّي عن الحشرات بجنود سعد ،

و يريدون سعد الأخبية ، لأنه إذا طلع انتشرت الهوام و خرج منها ما كان مختبئا ، و يقال لذلك سمّي سعد الأخبية ، قال الشاعر :

قد جاء سعد مؤذنا بشره
مؤذنة جنوده بحره

٣ هذا ، و من أمثالهم : أسعد أم سعيد ٤ . و الأصل فيه أن سعدا و سعيدا ابنا ضبّة خرجا ، فرجع سعد و فقد سعيد ، فصار سعيد ممّا يتشأم به .

و منها ، قولهم : بكلّ واد بنو سعد ٥ . و الأصل فيه أن الأضببط بن قريع السعدي من سعد بن زيد مناة بن تميم رأى جفوة من قومه ، فتحول في قبائل أخرى ، فرأى أيضا منهم الجفوة ، فرجع ، و قال : بكل واد بنو سعد .

هذا ، و في (وزراء هلال بن محسن الصّابي) قال أبو العباس بن الفرات :

إنّ منجمًا أخبره أنّه لم ينزل زحل في برج السنبلة إلاّ حدثت حادثة ، و قد جرت العادة بذلك على مضيّ الأوقات ، و من ذلك أنّه نزل هذا البرج سنة ثمان

(١) اشارة الى قوله تعالى : و قيل يا أرض ابلعي ماءك هود : ٤٤ .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٤٨٥ مادة (سعد) .

(٣) نقله عن الكنايات للجرجاني ابن أبي الحديد في شرحه ٤ : ٥١٥ ، و النقل بتصريف في اللفظ .

(٤) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١ : ٣٢٩ ، و الزمخشري في المستقصى ١ : ١٦٨ ، قال الميداني : يضرب في العناية بذي الرحم ، و في الاستخبار أيضا عن الأمرين الخير و الشر أيهما وقع ، و قال الزمخشري : يضرب في النجاح و الخيبة و الخير و الشر .
(٥) أورده الميداني في مجمع الأمثال ١ : ١٠٥ .

الصفحة ٥٠٠

للهجرة ، فكان في تلك السنة فتح خيبر و مكة ، و نزل في سنة (٣٨) فكانت حرب صفين بين علي عليه السلام و معاوية ، و نزل في سنة (٦٨) فكان فيها حرب المختار و عبد الملك و قضية عبد الله بن الزبير ، و نزل فيه سنة (٩٨) فمات سليمان بن عبد الملك ، و انتقل الأمر إلى عمر بن عبد العزيز ، و نزل في سنة (١٢٨) فظهر أبو مسلم و جرت قضية مروان بن محمد ، و نزل في سنة (١٥٨) فمات المنصور ، و نزل في سنة (١٨٨) فأوقع الرشيد بالبرامكة ، و نزل في سنة (٢١٨) فتوفي المأمون ، و نزل في سنة (٢٤٨) فتوفي المنتصر و قتل المتوكل ، و نزل في سنة (٢٧٨) فتوفي الموفق ، و حدث من الأمور ما حدث ١ .

هذا و يقال : أسعده الله فهو مسعود ، و لا يقال : مسعد على خلاف أصله .

٣

من الخطبة (٨٩) أيضا و منها في صفة الأرض و دحوها على الماء :

كَبَسَ الْأَرْضَ عَلَى مَوْرٍ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحَلَةٍ وَ لَجَجَ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ تَلْتَنِمُ أَوْادِي أَمْوَاجِهَا وَ تَصْطَفِقُ مُتْقَادِفَاتٍ
أَتْبَاجِهَا وَ تَرَعُو زَبْدًا كَالْفُحُولِ عِنْدَ هَيَاجِهَا فَخَضَعَ جِمَاحُ الْمَاءِ الْمُتَلَاظِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا وَ سَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ
وَطِنَتْهُ بِكَلْكَهَا وَ ذَلَّ مُسْتَخْذِيًا إِذْ تَمَعَّتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا فَأَصْبَحَ بَعْدَ اصْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ سَاجِيًا مَقْهُورًا وَ فِي
حِكْمَةِ الذَّلِّ مُنْقَادًا

(١) كذا في الوزراء للصابي : ٢٤٨ ، أما اتفاق الطبري و المسعودي فإن فتح خيبر كان في سنة (٧) و فتح مكة سنة (٨) و حرب صفين سنة (٣٦) و حرب المختار سنة (٦٦) و حرب عبد الملك و ابن الزبير سنة (٧٢) و موت سليمان سنة (٩٩) و موقعة الزاب بين أصحاب أبي مسلم و مروان سنة (١٣٢) و موت المنصور سنة (١٥٨) و إيقاع الرشيد بالبرامكة سنة (١٨٧) و موت المأمون سنة (٢١٨) و موت المنتصر سنة (٢٤٨) و قتل المتوكل سنة (٢٤٧) و موت الموفق سنة (٢٧٨) ثم ان

الحوادث المذكورة ليس أكثرها مهم ، ففي التاريخ حوادث كثيرة أعظم منها ، و هذه الأقوال من خرافات المنجمين .

الصفحة ٥٠١

أَسِيرًا وَ سَكَنَتِ الْأَرْضُ مَدْحُورَةً فِي لُجَّةِ تَيَّارِهِ وَ رَدَّتْ مِنْ نَحْوَةِ بَأْوِهِ وَ اعْتَلَّاهُ وَ شَمُوخَ أَنْفِهِ وَ سُمُو غُلُوَائِهِ وَ كَعَمْتَهُ عَلَى كِظَّةِ جَرَبَيْتِهِ فَهَمَدَ بَعْدَ نَزَقَاتِهِ وَ لَبَدَ بَعْدَ زَيْفَانِ وَ ثَبَاتِهِ فَلَمَّا سَكَنَ هَيْجُ الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ أَكْنَافِهَا وَ حَمَلَ شَوَاهِقَ الْجِبَالِ الشَّمْخَ الْبُدْخَ عَلَى أَكْتَافِهَا فَجَرَ يَنْابِيعَ الْعُيُونِ مِنْ عَرَانِينِ أَنْوْفِهَا وَ فَرَّقَهَا فِي سُهُوبِ بَيْدِهَا وَ أَخَادِيدِهَا وَ عَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَّاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا وَ ذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشَّمَّ مِنْ صِيَاخِيدِهَا فَسَكَنَتْ مِنَ الْمِيدَانِ لِرُسُوبِ الْجِبَالِ فِي قَطْعِ أَدِيمِهَا وَ تَغْلُغُلًا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوَابَاتِ خِيَاشِيمِهَا وَ رُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الْأَرْضِينَ وَ جَرَانِيمِهَا وَ فَسَحَ بَيْنَ الْجَوِّ وَ بَيْنِهَا وَ أَعَدَّ الْهَوَاءَ مُتَنَسِّمًا لِسَاكِنِهَا وَ أَخْرَجَ إِلَيْهَا أَهْلَهَا عَلَى تَمَامِ مَرِافِقِهَا ثُمَّ لَمْ يَدَعِ جُرُزَ الْأَرْضِ الَّتِي تَقْصُرُ مِيَاهُ الْعُيُونِ عَنْ رَوَابِيهَا وَ لَا تَجِدُ جَدَاوِلَ الْأَنْهَارِ ذَرِيعَةً إِلَى بُلُوغِهَا حَتَّى أَنْشَأَ لَهَا نَاشِئَةً سَحَابٍ تُحْيِي مَوَاتِهَا وَ تَسْتَخْرِجُ نَبَاتَهَا أَلْفَ غَمَامَهَا بَعْدَ افْتِرَاقِ لَمَعِهِ وَ تَبَايُنِ قَزَعِهِ حَتَّى إِذَا تَمَخَّضَتْ لُجَّةُ الْمُزْنِ فِيهِ وَ التَّمَعَ بَرَقُهُ فِي كِفْفِهِ وَ لَمْ يَنْمِ وَمِيضُهُ فِي كَنْهَوْرِ رَبَابِهِ وَ مُتْرَاكِمِ سَحَابِهِ أَرْسَلَهُ سَحَابًا مُتَدَارِكًا قَدْ أَسَفَ هَيْدَبُهُ تَمْرِيهِ الْجَنُوبُ دَرَرَ أَهَاضِيْبِهِ وَ دَفَعَ شَابِيْبِهِ . فَلَمَّا أَلْقَتِ السَّحَابُ بَرَكَ بِيَوَانِيهَا وَ بَعَاغَ مَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ مِنَ الْعِبَاءِ الْمَحْمُولِ عَلَيْهَا أَخْرَجَ بِهِ مِنْ هَوَامِدِ الْأَرْضِ النَّبَاتَ وَ مِنَ زُعْرِ الْجِبَالِ الْأَعْشَابَ فَهِيَ تَبْهَجُ بِزِينَةِ رِيَاضِهَا وَ تَرْدَهِي بِمَا أَلْبَسَتْهُ مِنْ رِيْطِ أَزَاهِيرِهَا وَ حَلِيَّةِ مَا سُمِطَتْ بِهِ مِنْ نَاضِرِ أَنْوَارِهَا وَ جَعَلَ ذَلِكَ بَلَاغًا لِلْأَنَامِ وَ رِزْقًا لِلْأَنْعَامِ وَ خَرَقَ الْفَجَاجَ فِي أَفَاقِهَا وَ أَقَامَ الْمَنَارَ لِلْسَّالِكِينَ عَلَى جَوَادِّ طُرُقِهَا أَقُولُ : رَوَاهُ أُمَّةٌ غَرِيبٌ اللَّغَةُ كَمَا يَفْهَمُ مِنْ تَفْسِيرِ (النِّهَايَةِ) لِبَعْضِ

الصفحة ٥٠٢

فقراتها ، كقوله عليه السلام : تلتطم أواذي أمواجها ١ ، و غيره كما يأتي .

« كبس » أي : أهجم .

« الأرض على مور » أي : مضطرب ، من إضافة الصفة .

« أمواج مستفحلة » قيل : أي : هابجة هيجان الفحول ، و قيل : أي : صائلة .

« و لجاج » جمع لجة ، قال الجوهري : لجة الماء بالضم : معظمه ٢ .

« بحار زاخرة » أي : الممتدة المرتفعة .

« تلتطم أواذي » جمع آذي ، أي : شدائد ، و تفسير الجوهري ، و الفيروز آبادي للآذي بالموج غلط ٣ ،
و إنما يأتي صفة الموج كما فسره (النهاية) ٤ ،

و إضافته من باب إضافة الصفة .

« أمواجها » أي : أمواج تلك البحار .

« و تصطفق » من صفقت العود فاصطفق إذا حرّكت أوتاره ، قال :

و يوم كظلّ الرّيح قصرّ طوله

دم الزقّ عنّا و اصطفاق المزاهر

٥ « متقاذفات » أي : قذف هذا بذاك ، و قذف ذاك بهذا .

« أنباجها » جمع ثبج ، أي : أوساطها ، ففي (الأساس) : التقم لقما مثل أنباج القطا ، و هي أوساطها ،
قال ذو الرّمّة :

بجرع كأنباج القطا المتتابع

و يمكن أن يكون استعارة من الثبج ، بمعنى ما بين الكاهل إلى الظهر ،

كقول الراعي :

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ٣٤ مادة (أذى) .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٣٣٨ مادة (لجاج) .

(٣) صحا اللغة للجوهري ٦ : ٢٢٦٦ مادة (أذى) .

(٤) النهاية لابن الأثير ١ : ٣٤ مادة (أذى) .

(٥) أورده لسان العرب ١٠ : ٢٠٥ مادة (صفق) و الشاعر ابن الطثرية .

إذا الرَّمْل قدم أثباجه
أبان لراكبها المخصر

١ و الأول أظهر ، و في خبر أمّ حرام : قوم يركبون ثبج هذا البحر ٢ ، أي :
وسطه و معظمه .

« و ترغو » من رغا البعير إذا صوت .

« زبدا » تمييز .

« كالفحول » أي : كالإبل الفحول .

« عند هياجها » أي : هيجانها للسقاد .

« فخضع » استعارة لسكونه .

« جماح » استعارة أيضا ، من جمح الفرس براكبه إذا غلبه .

« الماء المتلاطم » من البحار الزّخرة .

« لتقل حملها » بالأرض .

« و سكن هيج » أي : هيجان .

« ارتمائيه » أي : تراميه .

« إذ وطنته بكلّكها » أي صدرها ، و المراد كلّها ، فالوطني بالكلل لا يمكن إلاّ بالكلّ .

« و ذلّ مستخذا » أي : مسترخيا و منقادا .

« إذ تمعكت عليه » أي : تمرّغت ، و تدلّكت عليه .

« بكواهلها » الكاهل مقدّم ظهر البعير الذي يكون عليه المحمل ، و هو أيضا كناية عن الكلّ ، فالتمعك بالكواهل يستلزمه .

(١) أساس البلاغة : ٤٣ مادة (ثبج) .

(٢) هذا اللفظ أخرجه مسلم في صحيحه ٣ : ١٥١٨ ح ١٩١٢ ، و الترمذي في سننه ٤ : ١٧٨ ح ١٦٤٥ ، و النسائي في سننه ٦ : ٤٠ ، و مالك في الموطأ : ٤٧٩ ، و روي حديث أمّ حرام بألفاظ أخرى أيضا .

الصفحة ٥٠٤

« فأصبح بعد اصطخاب » من اصطخاب الطير ، أي : اختلاط أصواتها .

« أمواجه ساجيا » أي : ساكنا لينا .

« مقهورا ، و في حكمة » بفتحتين : ما أحاط بحنكي الفرس من لجامه .

« الذلّ منقادا أسيرا » كفرس ملجم لصاحبه ، و من صار أسيرا لك .

« و سكنت الأرض مدحوة » أي : مبسوطه .

« في لجة تياره » أي : موجه .

« و ردت من نخوة بأوه » أي : كبره .

« و اعتلائه » أي : تعاليه .

« و شموخ » أي : ارتفاع .

« أنفه و سمو » أي : علوّ .

« غلوائه » أي : غلوّه ، و تجاوزه عن حدّه .

« و كعمته » أي : شدّت فاه .

« على كظة » أي : امتلاء .

« جريته » أي : جريانه .

« فهمد » أي : سكن .

« بعد نزقاته » من نزق الفرس ، أي : نزا .

« و لبد » أي : أقام و لصق .

« بعد زيفان » أي : تبختر ، قال ابن أبي الحديد : و يروى (زيفان) أي : شدة ١ .

« وثباته » الوثبات جمع الوثبة .

« فلما سكن هياج » هكذا في (المصرية) و الصواب : (هيج) كما في (ابن أبي

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٤ .

الصفحة ٥٠٥

الحديد و ابن ميثم و الخطية) ١ .

« الماء من تحت أكنافها » أي : جوانبها .

« و حمل شواهق » أي : مرتفعات .

« الجبال » و الأصل الجبال الشواهق .

« الشمخ » هكذا في (المصرية) ، و الكلمة زائدة لعدم وجودها في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية

(٢ .

« البذخ » أي : العوالي .

« على أكتافها ، فجرّ » جواب (لَمَّا) .

« ينباع العيون » يفهم من إضافته عليه السّلام ينباع إلى العيون كون ينبوع غير العين ، و أنّ ينبوع أصل العين ، و محل خروج الماء ، و العين مأوّه المجتمع ، لا كما توهم من اتّحادهما .

« من عرانيين أنوفها » قال الجوهرى : عرنين الأنف تحت مجتمع الحاجبين ،

و هو أوّل الأنف حيث يكون فيه الشّمم ٣ .

« و فرقها » أي : فرق ينباع .

« في سهوب » أي : واسعات .

« بيدها » البيد جمع البيداء ، أي : الأرض البرّ .

« و أخايدها » أخايد جمع أخدود ، أي : شقّ في الأرض مستطيل .

« و عدلّ حركاتها » ظاهر كلامه عليه السّلام أنّ للأرض حركات متعدّدة .

و في (الهيئة و الإسلام) : و حكماء عصرنا يذكرون لكرة الأرض خمس

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٤ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٥ « هياج » أيضا .

(٢) يوجد في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٤ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٥ لفظ « الشّمخ » .

(٣) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢١٦٣ مادة (عرن) .

الصفحة ٥٠٦

حركات مختلفة و هي المشهورة ، و حكى (فيلكس ورنه) عنهم القول بإحدى عشرة حركة ، و قد انتخبت من كتبهم حركات ثمانية :

الأولى : الحركة المحورية على منطقة الاستواء ، و هي في حيّزها و موضعها ، و لذلك تسمى بالحركة الوضعية و الاستوائية ، و يتمّ دورها في (٢٣) ساعة و (٥٨) دقيقة و (٤٩) ثانية ، و يحصل منها الليل و النهار ، و تتولد من تركب هذه الحركة مع جزء من الحركة السنوية الحركة اليومية كما تقدّم ،

فيتم الدور في (٢٤) ساعة .

الثانية : الحركة السنوية حول مركز الشمس على منطقة البروج في دائرة بيضية ، و يتم دورها في (٣٦٥) يوما و (٦) ساعات و (٨) دقائق و (٣٨) ثانية ، و بها تحصل الأشهر الأشهر الفريسيّة و الرومية و النجومية و نحوها ، و تتولّد الحركة الميليّة من هذه الحركة بسبب انحراف محور الأرض عن سطح دائرة البروج (٢٣) درجة و نصف تقريبا ، و هذه الحركة محور الأرض عن سطح دائرة البروج (٢٣) درجة و نصف تقريبا ، و هذه الحركة غير مستقلة ، و بها نرى للشمس في كلّ سنة كرا من الشمال إلى نقطة الجنوب ، ثمّ رجوعها منها إلى نقطة الشمال ، و لو عدّت هذه الحركة و الحركة اليومية مستقلّتين بلغت الحركات عشرا .

الثالثة : الحركة الإقباليّة : أي إقبال دائرة البروج إلى دائرة الاستواء في كلّ (٦٧٠) عاما درجة واحدة ، و هذه الحركة محصورة في زاوية ثلاث درجات ، و لا تكمل دورة مستديرة . فلا ترتقب زمانا تنطبق فيه إحدى الدائرتين على الأخرى كما كان القدماء يتوقعون ذلك ، و به فسّر بعضهم قيامة الدنيا .

الرابعة : حركة نقطتي الأوج و الحضيض حول المحيط من دائرة البروج في كلّ (٢٠٩٣١) سنة دورة كاملة بسبب تجاذب المشتري و الزهرة

الصفحة ٥٠٧

مع الأرض ، و بذلك تتغيّر أزمانة الفصول . ففي سنة (٦٤٨) كانت نقطة الحضيض على نقطة الانقلاب الصيفي . فكانت أيّام الصيف مساوية لأيّام الربيع ، و بهذه الحركة تقرب الأرض من الشمس في نقطة الحضيض ثلاثمائة ألف فرسخ بالنسبة إلى أوجها ، فتزداد قوّة جاذبيّة الشمس في الأرض قدر الخمس ممّا كان لها قبلئذ .

و من آثار اشتداد هذه القوّة سرعة تحرك الأرض في فلكها كلّ يوم إحدى و ستين دقيقة ، مع أنّها تتحرك في أوجها كلّ يوم سبعا و خمسين دقيقة من فلكها .

و من آثارها أيضا ارتفاع السائلات المستتبطة على وجه الأرض كميّاه البحار المحيطة و تراكمها نحو أقرب نقاط الأرض إلى الشمس ، على هذا فنحن الآن نرى المياه متراكمة في النواحي الجنوبية من عرض أربعين درجة ،

بحيث توجد ثمة بقاع تلمع بصفاح متسعة كالأقطار الشمالية ، لكن الأمر ينعكس بعد اليوم بخمسة آلاف سنة ، حيث تنتقل نقطة الحضيض الى شمالنا ،

فتتجه المياه نحو الشمال طالبة أقرب النقاط إلى الشمس ، فتحسر الأقطار الجنوبية قناع الغمر عن أوجهها و تبدي محاسنها و ما أودع الله فيها لنوع البشر ، و يصبح فيها العمران و العلم و التمدن الأواخر ، و تدعونا نحوها مبشرات ، و يمسي في شمالنا الغرق و الخراب و العطالة و تخرجنا بالخروج منذرات ، فتعرف الامم عند ذلك أثمان المراكب البحرية و الهوائية ، و يومئذ ينجو المخفون .

الخامسة : حركة تقديم الاعتدالين الربيعي و الخريفيّ ، و بها ترى الثوابت متحركة على موازاة دائرة البروج في (٢٦٠٠٠) سنة شمسيّة مرّة ،

و كان القدماء يظنون أنّ الثوابت بأسرها مركوزة في ثخن فلك يدور دورة في تلك المدّة .

الصفحة ٥٠٨

السادسة : الحركة الرقّصية أو الارتعاش القمري ، و هي التي تعرض على محوري الأرض ، فتميل بذلك إلى دائرة البروج في كلّ (٢٩) سنة مرّة ،

اكتشفها الفلكيّ (برادله) سنة (١٨٤٤ م) و منشؤها تأثير الجاذبيتين من الشمس و القمر في أرضنا مع تسطيحها القطبي و تفرطحها الاستوائي ،

و ينتقل محور الأرض بهذه الحركة في دورة عقدي القمر بمقدار (١٨ درجة و كسر) إلى الجنوب و الشمال .

السابعة : الارتعاش الشمسي ، قال في (الحدائق) : النجوم ما معناه أنّ الأرض يرتعش محورها أي يرتعش محورها من طرف قطبيها بجاذبيّة الشمس ، و تتمّ في سنة شمسيّة و غابيتها دقيقة من الفلك .

الثامنة : الحركة التبعية ، و هي سير الأرض كباقي السيارات بتبعية الشمس في الفضاء المهول حول مركز مجهول ، و الأرجح أنّ الحركات أكثر مما وصلوا إليه . . . ١ .

نقلناه بطوله لاشتماله على وجود حركات للأرض ، و إن كانت تفاصيل ما قاله غير معلومة ، و نكله إلى أهل فنّه .

« بالرّاسيات » أي : الثابتات ، صفة (الجبال) مقدّرة .

« من جلاميدها » أي : صخورها العظيمة .

« و ذوات » أي : بصاحبات .

« الشّناخيب » أي : الرّؤوس ، قال الجوهرى : الشنخوبية و الشنخوب واحد شناخيب الجبل ، و هي رؤوسه ٢ .

« الشّم » أي : الطوال .

(١) الهيئة و الاسلام ١ : ٨٣ ، و النقل بتصرف يسير .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ١ : ١٥٢ مادة (شنخب) .

الصفحة ٥٠٩

« من صياخيدها » أي : شدادها .

« فسكنت من الميدان » أي : من الاضطراب و الحركة غير المعتدلة .

« لرسوب » هكذا في (المصرية) و الصواب : (برسوب) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) ١ من رسب الشيء في الماء ، أي : سفل فيه .

« الجبال في قطع » بالكسر فالفتح : جمع قطعة ، و قال ابن أبي الحديد :

و يروى بالكسر فالسكون ، أي : طنفسة الرّجل ، و هو استعارة ، كأنّه جعل الأرض ناقة و جعل لها قطعا . ٢ .

قلت : إنّما كان يناسب ما قاله لو كان عليه السّلام قال : (بركوب الجبال) لا (برسوب الجبال) ، فالصواب الأوّل ، مع أنّ قرينتها (جوبات) أيضا جمع .

« أديمها » هكذا في النسخ ٣ ، و الظاهر كونه مصحّف (أياديمها) أي :

متونها ، و أمّا (أديمها) فهو ما ظهر منها ، و لا مناسبة له ، مع أنّ قرينته (خياشيمها) أيضا جمع .

« و تغلّغها » قال الجوهري : الغلغلة سرعة السير ، و تغلغل الماء في الشجر إذا تغلّغها ٤ .

و الظاهر أنّ المراد هنا الثاني ، بأن يكون المعنى تغلّلت الجبال في الأرض تغلّ الماء في الشجر .

« متسرّبة » أي بلا مانع للجبال من التخلّل ، قال الجوهري : السارب الذهاب على وجهه في الأرض . و قولهم : اذهب فلا أئده سربك ، أي : لا أردّ إليك ، تذهب حيث شئت . و كانوا يقولون في الجاهليّة للمرأة : اذهبي فلا أئده .

(١) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٤ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٥ « لرسوب » أيضا .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٦ ، و النقل بالمعنى .

(٣) كذا في نهج البلاغة ١ : ١٧٤ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٤ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٥ .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٥ : ١٧٨٣ مادة (غلغل) .

الصفحة ١٠٥

سربك ، فتطلّق ١ .

« في جوبات » الجوبات جمع الجوبة ، أي : الحفرة المستديرة الواسعة .

« خياشيمها » أي أنوفها .

« و ركوبها » أي : ركوب الجبال .

« أعناق سهول الأرضين » أي : مسطحاتها .

« و جراثيمها » و هي ضدّ سهولها ، و في (النهاية) : الجراثيم : أماكن مرتفعة عن الأرض مجتمعة من

تراب أو طين ٢ .

« و فسّح » أي : وسّع .

« بين الجوّ وبينها » أي : و بين الأرض .

« و أعدّ الهواء متنسّماً » أي : سبب تنفّس .

« لساكنها » من البشر و غيره .

قال الصادق عليه السّلام للمفضّل : أنبّهك يا مفضّل على الرّيح و ما فيها ، ألسّت ترى ركودها إذا ركدت ، كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس ،

و يمرض الأصحاء ، و ينهك المرضى ، و يفسد الثّمار ، و يعفنّ البقول ، و يعقبّ الوباء في الأبدان ، و الأفة في الغلات ؟ ففي هذا بيان أنّ هبوب الرّيح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق . و أنبئك عن الهواء بخلة أخرى ، فإنّ الصّوت أثر يؤثّر اصطكاك الأجسام في الهواء ، و الهواء يؤدّيّه إلى المسامع ، و الناس يتكلّمون في حوائجهم ، و معاملاتهم ، طول نهارهم و بعض ليلهم ، فلو كان أثر هذا الكلام يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتأ العالم منه ،

فكان يكرههم و يفتحهم ، و كانوا يحتاجون في تجديده و الاستبدال به إلى أكثر

(١) صحاح اللغة للجوهري ١ : ١٤٦ مادة (سرب) .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢٩٤ مادة (جرثم) .

الصفحة ٥١١

مما يحتاج إليه في تجديد القراطيس ، لأنّ ما يلفظ من الكلام أكثر ممّا يكتب ،

فجعل الخلاق الحكيم جلّ قدسه هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام ريثماً يبلغ العالم حاجتهم ، ثم يمحي فيعود جديداً نقياً ، و يحمل ما حمل أبداً بلا انقطاع . و حسبك بهذا النّسيم المسمّى هواء عبّرة و ما فيه من المصالح ، فإنّه حياة هذه الأبدان ، و الممسك لها من داخل بما يستنشق منه من خارج بما يبشّر من روحه ، و فيه تطرد هذه الأصوات فيؤدّي البعد البعيد ، و هو الحامل لهذه الأرواح ينقلها من موضع إلى موضع .

أ لا ترى كيف تأتيك الرّائحة من حيث تهبّ الرّيح ؟ فكذلك الصوت ، و هو القابل لهذا الحرّ و البرد اللذين يتعاقبان على العالم لصلاحه ، و منه هذه الرّيح الهابّة ، فالريّح تروّح عن الأجسام و ترحي السّحاب من

موضع إلى موضع ليعم نفعه حتى يستكثف فيمطر و تفضّه حتى يستخفّ فينفثي ، و تلقح الشجر ، و تسير السفن ، و ترخي الأطعمة ، و تبرّد الماء ، و تشبّ النار ، و تجفّف الأشياء النديّة . و بالجملة إنّما تحيي كلّما في الأرض ، فلو لا الرّيح لذوى النّبات و لمات الحيوان ، و حمت الأشياء و فسدت ١ .

« و أخرج إليها أهلها على تمام مرافقها » و كمال مصالحها .

قال الصادق عليه السّلام للمفضّل : يا مفضّل أوّل العبر و الدّلالة على الباري جلّ قدسه تهيئة هذا العالم ، و تأليف أجزائه و نظمها على ما هي عليه ، فإنّك إذا تأملت العالم بفكرك ، و خبرته بعقلك وجدته كالبيت المبني المعدّ فيه جميع ما يحتاج إليه عباده ، فالسماء مرفوعة كالسقف ، و الأرض ممدودة كالبساط ، و النجوم مضيئة كالمصابيح ، و الجواهر مخزونة كالذخائر ، و كلّ شيء فيها لشأنه معدّ .

(١) توحيد المفضل : ١٤٠ .

الصفحة ٥١٢

و الإنسان كالمملّك ذلك البيت ، و المخولّ جميع ما فيه ، و ضروب النّبات مهيةً لمآربه ، و صنوف الحيوان مصروفة في مصالحه و منفعه ، ففي هذا دلالة واضحة على أنّ العالم مخلوق بتقدير و حكمة ، و نظام و ملاءمة ، و أنّ الخالق له واحد ، و هو الذي ألفه و نظمه بعضاً إلى بعض ١ .

« ثمّ لم يدع » أي : لم يترك .

« جرز » بتقديم الرّاء على الزاي ، أرض انقطع عنها النّبات ، و فيه لغات :

بضمّتين ، و فتحّتين ، و ضمّ فسكون ، و فتح فسكون .

« الأرض التي تقصر مياه العيون عن روابيها » أي : عواليها .

« و لا تجد جداول » قال الجوهري : الجدول : النهر الصغير ٢ .

« الأنهار » و المراد الكبيرة .

« ذريعة » أي : وسيلة .

« إلى بلوغها » أي بلوغ تلك الروابي كرؤوس الجبال و الآكام ، أو بلوغ تلك الأرض الجرز كأراض ليست فيها أنهار و لا عيون .

« حتّى أنشأ لها ناشئةً سحب تحيي مواتها ، و تستخرج نباتها » بالأمطار النازلة من السحاب ، قال الصادق للمفضل : تأمل نزول المطر على الأرض ،

و التدبير في ذلك فإنه جعل ينحدر عليها من علو ليغشى ما غلظ و ارتفع منها فيرويه ، و لو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا المواضع المشرفة منها ، و يقل ما يزرع في الأرض ، ألا ترى أنّ الذي يزرع سيحا أقلّ من ذلك ؟ فالأمطار هي التي تطبق الأرض ، و ربما تزرع هذه البراري الواسعة ،

و سفوح الجبال و ذراها ، فتغلّ الغلّة الكثيرة ، و بها يسقط عن الناس في كثير

(١) توحيد المفضل : ٤٧ .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٦٥٤ مادة (جدل) .

الصفحة ٥١٣

من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع ، و ما يجري في ذلك بينهم من التشاجر و التظالم ، حتى يستأثر بالماء ذو العزّة و القوّة ، و يحرمه الضعفاء . ثمّ إنه حين قدر أن ينحدر على الأرض انحدارا جعل ذلك قطرا شبيها بالرش ليغور في قعر الأرض فيرويه ، و لو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها ، ثمّ كان يحطم الزرع القائمة إذا اندفق عليها ، فصار ينزل نزولا رقيقا ، فينبت الحبّ المزروع ، و يحيي الأرض و الزرع القائم ، و في نزوله أيضا مصالح أخرى ، فإنه يلين الأبدان ، و يجلو كدر الهواء ، فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ، و يغسل ما يسقط على الشجر و الزرع من الذاء المسمّى باليرقان ، إلى أشباه هذا من المنافع ١ .

« أَلْف غمامها » أي : سحابها .

« بعد افتراق لمعه » بالضمّ فالفتح : جمع لمعة بالضمّ فالسكون ، أي :

قطعاته ، سمّيت القطعة من الغمام لمعة للمعانها ، كما سمّيت القطعة من النبات إذا يبست لمعة للمعانها ، و كما سمّيت قطعة من الجسد لم يصبها الماء في الوضوء و الغسل لمعة للمعانها .

« و تباين » أي : انفصال .

« قزعه » بالضم فالفتح أيضا ، جمع قزعة بالضمّ فالسكون ، أي : قطعه الرقيقة التي تعدو سريعا . و الأصل في القزعة السرعة في العدو .

« حتّى إذا تمخّضت » الأصل في المخاض قرب الولادة ، قال :

تمخّضت المنون له بيوم
أنى و لكلّ حاملّة تمام

٢ « لجة » قالوا : لجة الماء معظمه .

(١) توحيد المفضل : ١٤٩ .

(٢) أوردته أساس البلاغة : ٤٢٢ مادة (مخض) ، و لسان العرب ٧ : ٢٣٠ مادة (مخض) .

الصفحة ٥١٤

« المزن » أي : السحابة البيضاء .

« فيه » الضمير فيه راجع إلى الغمام كما في (لمعه) و (قزعه) ، و قال ابن أبي الحديد : الهاء في (فيه) يرجع إلى المزن ١ ، و هو كما ترى .

« و التمع برقه في كفه » بالكسر فالفتح : جمع كفة بالفتح ، أي : في أطرافه ،

و سمّي الطرف كفه لأنّ الشيء إذ انتهى إلى الطرف كفّ عن الزيادة ، كما أنّ الرزق الكفاف يكفّ صاحبه عن الناس .

« و لم ينم وميضه » قال الجوهري : و مض البرق و ميضا لمع لمعا خفيفا ،

و لم يعترض في نواحي الغيم ، فإنّ اعترض فهو الخفو ، فإنّ استطال في وسط السماء و شقّ الغيم من غير أن يعترض يمينا و شمالا فهو العقيقة ٢ .

« في كنهور » قال الجوهرى : و الكنهور : العظيم من السحاب ٣ . و جعله (القاموس) خماسيا كسفرجل . ٤ .

« ربابه » قال الجوهرى : رباب سحاب أبيض واحدته ربابة ٥ . و مراده أنه اسم جنس كتمر و تمرّة . و توهم ابن أبي الحديد ٦ أن مراده كونه جمعا .
و قال الجوهرى أيضا : و يقال : إن رباب السحاب الذي تراه كأنه دون السحاب قد يكون أبيض و قد يكون أسود ٧ .

« و متراكم سحابه » الذي بعضه فوق بعض .

-
- (١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٦ .
(٢) صحاح اللغة للجوهري ٣ : ١١١٣ مادة (و مض) .
(٣) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٨١١ مادة (كهر) .
(٤) القاموس المحيط ٢ : ١٢٩ مادة (كنهور) .
(٥) صحاح اللغة للجوهري ١ : ١٣٣ مادة (ريب) .
(٦) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٦ .
(٧) صحاح اللغة للجوهري ١ : ١٣٣ مادة (ريب) .

الصفحة ٥١٥

« أرسله سحًا » أي : صابًا .

« متداركا » أي : ملحقا آخره بأوله .

« قد أسفَّ » أي : دنا من الأرض ، قال عبيد في سحاب قرب من الأرض كثيرا :

دان مسفَّ فويق الأرض هيدبه

يكاد يدفعه من قام بالراح

١ « هيدبه » قال الجوهرى : هيدب السحاب : ما تهدب منه إذا أراد الودق كأنه خيوط ٢ .

« تمرية » قال الجوهرى : الرّيح تمرى السحاب و تمرّيه ، أي : تستدرّه ٣ .

« الجنوب درر » أي : صبّ .

« أهاضييه » أي : مطراته ، و المراد مطرة بعد مطرة .

« و دفع شأبييه » جمع شؤبوب ، أي : دفعة بعد دفعة ، قال الشاعر :

كأنّ ثناياها بنات سحابة

سقاهنّ شؤبوب من الغيث باكر

و بنات سحابة : البرد .

« فلما ألقّت السحاب برك » قال الجوهري : البرك الصدر ٤ .

« بوانيتها » قال الجزري : البواني في الأصل أضلاع الصدر . و قيل : الأكتاف و القوائم ، الواحدة بانية ، و من حقّ هذه الكلمة أن تجيء في باب الباء و النون و الياء ، و إنّما ذكرناها هاهنا حملا على ظاهرها ، فإنّها لم ترد حيث وردت إلاّ مجموعة ، و منه حديث عليّ عليه السّلام : ألقّت السماء برك بوانيتها ٥ .

-
- (١) أورده لسان العرب ٩ : ١٥٤ مادة (سف) ، و قال : إنّه لأوس بن حجر أو عبيد بن الأبرص .
 (٢) صحاح اللغة للجوهري ١ : ٢٣٧ مادة (هدب) .
 (٣) صحاح اللغة للجوهري ٦ : ٢٤٩١ مادة (مرى) .
 (٤) صحاح اللغة للجوهري ٤ : ١٥٧٤ مادة (برك) .
 (٥) النهاية لابن الأثير ١ : ١٦٤ مادة (بون) .

الصفحة ٥١٦

و ممّا نقلنا يظهر لك ما في قول ابن أبي الحديد أنّ بوانيتها تنثية بوان ،

على فعال بكسر الفاء ، و هو عمود الخيمة و الجمع بون بالضمّ . قال الشّاعر :

أصبر من ذي ضاعط عركرك

ألقي بواني زوره للبرك

قال : و من روى بوانيتها (أي بلفظ الجمع) أراد لواصلها من قولك : قوس بانية . إذا التصقت بالوتر ، و الرواية الأولى أصحّ . . .

و مع أنه ليس للسحاب عمودان حتى يكون ما قاله صحيحاً ، و الشعر الذي استشهد به دالٌّ على ضدّ مراده ، و (البواني) فيه أيضاً جمع (بانية) ،

و مراد الشاعر ب (ذي ضاغط عركرك) الجمل القويّ ، فالمعنى أنه أصبر من جمل قويّ ألقى بواني زوره ، أي : اضلاع صدره للمبرك .

« و بعاع » في (النهاية) : البعاع شدة المطر ، و منهم من يرويها بالناء المتثثة ، من : ثع يثع ، إذا تقياً ، أي : قذفها في البطحاء ، و منه حديث علي عليه السلام : ألقى السحاب بعاع ما استقلت به من الحمل ١ .

« ما استقلت به » أي : ارتفعت به .

« من العبء » أي : الحمل ، قال الشاعر :

الحامل العبء الثقيل عن
الجاني بغير يد و لا شكر

٢ « المحمول عليها » أي : على السحاب .

« أخرج » جواب لَمَّا ، و فاعله هو تعالى .

« به » أي : بعبئها .

« من هوامد الأرض » أي : أراض لا نبات فيها .

« النبات » و الأصل فيه قوله عليه السلام من « فلما ألقى » إلى « النبات » قوله تعالى :

(١) النهاية لابن الأثير ١ : ١٤٠ مادة (بعع) .

(٢) أورده لسان العرب ١ : ١١٧ مادة (عبا) و الشاعر : زهير .

الصفحة ٥١٧

و هو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميّت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ١ .

« و من زعر الجبال » من إضافة الصفة ، أي : جبال قليلة النبات .

« الأعشاب » أي : أخرج منها الأعشاب ، و الأعشاب جمع العشب : الكأ الرطب .

« فهي تبهج بزينة رياضها » كمرأة تبهج بزينة حليها و ألبستها المتلونة .

« و تزدهي » أي : تتكبر .

« بما ألبسته من ريط » قيل : ريطه : كل ثوب رقيق لين .

« أزاهيرها » أزاهير جمع زهرة ، بالفتح ، و زهرة النبات نوره .

« و حلية » عطف على (ما) في قوله (بما) لا على قوله (ريط) كما هو المتبادر في بادي النظر ، كما لا يخفى على من تدبر .

« ما سمطت » قال الجوهري : السمط : الخيط ما دام فيه الخرز ، و إلا فهو سلك ، قال طرفة :

مظاهر سمطي لؤلؤ و زبرجد

٢ « به من ناصر » أي : رونق .

« أنوارها » أنوار جمع نور بالفتح ، أي : أزهارها ، قال تعالى : . . . و ترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربت و أنبتت من كل زوج بهيج ٣ .

(١) الأعراف : ٥٧ .

(٢) صحاح اللغة للجوهري ٣ : ١١٣٤ مادة (سمط) .

(٣) الحج : ٥ .

الصفحة ٥١٨

قال ابن عمران المخزومي : أتيت مع أبي واليا كان على المدينة من قريش ، و عنده أعرابي يقال له ابن مطير ، و اذا مطر جود ، فقال له الوالي : صفه .

فقال : دعني أشرف و أنظر . فأشرف و نظر ، ثم قال :

كثرت لكثرة و دقه أطباؤه

فإذا تحلّب فاضت الأطباء

و له رباب هيدب لرفيفه

قبل التبّع ديمة و طفاء

و كأنّ بارقه حريق تلتقي

ريح عليه و عرفج و إلاء

و كأنّ ريقه و لمّا يحتفل

و دق السماء عجاجة طخياء

مستضحك بلوامع مستعبر

بمدامع لم تمرها الأقداء

قله بلا حزن و لا بمسرة

ضحك يؤلّف بينه و بكاء

حيران متّبّع صباه يقوده

و جنوبه كنف له ورهاء

تقلت كلاه فبهّرت أصلابه

و تبعجت عن مائه الأحشاء

غدق تبعج بالأباطح مزقت

تلك السيول و مالها أشلاء

غرّ محجّلة دوالج ضمّنت
حمل اللّقاح و كلّها عذراء

سحم فهنّ إذا عبسن فواحم
سود و هنّ إذا ضحككن و ضاء

لو كان من لجج السواحل ماؤه
لم يبق في لجج السواحل ماء

١ « و جعل ذلك بلاغا للأنام و رزقا للأنعام » قال تعالى : و فاكهة و أبا . متاعا لكم و لأنعامكم ٢ .

« و خرق العجاج » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (الفجاج) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم
و الخطية) ٣ . و الفجاج جمع الفج : الطريق الواسع

(١) نقله ابن عبد ربه في العقد الفريد ٤ : ٤٨ .

(٢) عبس : ٣١ ٣٢ .

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٤ ، لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٦٦ « العجاب » أيضا .

الصفحة ٥١٩

بين الجبلين .

« في آفاقها » أي أطرافها ، قال تعالى : . . . و جعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ١ .

و قال الصادق عليه السّلام : فلو لا امتداد هذه الأرض كيف كانت تتّسع لمساكن الناس و مزارعهم و
مراعيهم و منابت أخشابهم و أحطابهم ، و العقاقير العظيمة ، و المعادن الجسيم غناؤها ٢ .

« و أقام المنار » للنّاس بنجوم السماء ، قال تعالى : و علامات و بالنجم هم يهتدون ٣ .

« للسالكين على جوادّ » بالتشديد ، جمع الجادّة .

« طرقها » أي : طرق الأرض .

الخطبة (٢٠٩) و من خطبة له عليه السلام :

وَ كَانَ مِنْ اقْتِدَارِ جَبْرُوتِهِ وَ بَدِيعِ لَطَائِفِ صَنَعَتِهِ أَنْ جَعَلَ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ الزَّاخِرِ الْمُنْتَزَكِ الْمُتْقَاصِفِ يَبَسًا جَامِدًا ثُمَّ فَطَرَ مِنْهُ أَطْبَاقًا فَفَتَقَهَا سَبْعَ سَمَاوَاتٍ بَعْدَ ارْتِنَاقِهَا فَاسْتَمْسَكَتْ بِأَمْرِهِ وَ قَامَتْ عَلَى حَدِّهِ وَ أَرَسَى أَرْضًا يَحْمِلُهَا الْأَخْضَرُ الْمُتَعَجِرُ وَ الْقَمَقَامُ الْمُسَخَّرُ فَذَلَّ لِأَمْرِهِ وَ أَدْعَنَ لِهَيْبَتِهِ وَ وَقَفَ الْجَارِي مِنْهُ لِخَشْيَتِهِ وَ جَبَلَ جَلَامِيدَهَا وَ نَشَوْنَ مُتُونَهَا وَ أَطْوَادَهَا فَأَرْسَلَهَا فِي مَرَاسِيهَا وَ أَلْزَمَهَا

(١) الأنبياء : ٣١ .

(٢) توحيد المفضل : ١٤٢ .

(٣) النحل : ١٦ .

الصفحة ٥٢٠

قَرَّارَتَهَا فَمَضَتْ رُغُوسُهَا فِي الْهَوَاءِ وَ رَسَتْ أُصُولُهَا فِي الْمَاءِ فَأَنهَدَ جِبَالَهَا عَنْ سُهُولِهَا وَ أَسَاحَ قَوَاعِدَهَا فِي مُتُونِ أَقْطَارِهَا وَ مَوَاضِعِ أَنْصَابِهَا فَأَشْهَقَ قِلَالَهَا وَ أَطَالَ أَنْشَارَهَا وَ جَعَلَهَا لِلْأَرْضِ عِمَادًا وَ أَرَزَهَا فِيهَا أَوْتَادًا فَسَكَنْتْ عَلَى حَرَكَتِهَا مِنْ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا أَوْ تَسِيخَ بِحَمْلِهَا أَوْ تَزُولَ عَنْ مَوَاضِعِهَا فَسُبْحَانَ مَنْ أَمْسَكَهَا بَعْدَ مَوْجَانِ مِيَاهِهَا وَ أَجْمَدَهَا بَعْدَ رُطُوبَةِ أَكْنَافِهَا فَجَعَلَهَا لَخْلَقِهِ مَهَادًا وَ بَسَطَهَا لَهُمْ فِرَاشًا فَوْقَ بَحْرِ لُجِّيٍّ رَاكِدٍ لَا يَجْرِي وَ قَائِمٍ لَا يَسْرِي تُكْرِكِرُهُ الرِّيَّاحُ الْعَوَاصِفُ وَ تَمْخُضُهُ الْعَمَامُ الذَّوَارِفُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى

١ ٦ ٧٩ : ٢٦ أقول : رواها أيضا أئمة غريب اللغة كما يفهم من تفسير (النهاية) لبعض فقراتها ٢ .

« و كان من اقتدار جبروته » إضافة الاقتدار الى جبروته تعالى مع أنّ الأصل إضافته إليه تعالى ، كما في نسبة الإكرام إلى مثنوى يوسف عليه السلام في قوله تعالى : . . . أكرمي مثواه . . . مع أنّ الأصل النسبة إليه عليه السلام للدلالة على المبالغة .

« و بديع » عطف على (اقتدار) و البديع : ما لا مثال له قبله .

« لطائف صنعته » و كيف لا ، و قد خلق الأرض و السماوات السبع من ماء كما خلق كل شيء من ماء ؟
« أن جعل من ماء البحر الزّاخر » أي : المرتفع الممتدّ .

(١) النازعات : ٢٦ .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢١٢ مادة (ثعجر) .

(٣) يوسف : ٢١ .

الصفحة ٥٢١

« المتراكم » أي : الذي بعضه فوق بعض .

« المتقاصف » أي : المتدافع .

« يبسا جامدا » قال ابن أبي الحديد : اليبس بالتحريك : المكان يكون رطبا ،

ثم يببس ، و منه قوله تعالى : . . . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا . . . ١ .

و اليبس بالسكون : اليابس خلقة : « حطب يبس » ، هكذا يقوله أهل اللغة . و فيه كلام لأن الحطب ليس يابسا خلقة ، بل كان رطبا من قبل ، فالأصوب أن يقال : لا تكون هذه اللفظة محرّكة إلا في المكان ٢ .

قلت : في ما قاله أولا : إنّ اليبس بالتحريك ليس مختصا بالمكان ، فيأتي وصف المرأة و الشاة أيضا ، قال الرّاجز :

إلى عجوز شنة الوجه يبس

٣ فقوله : « فالأصوب » خلاف الصواب .

و ثانيا : إنّ التفصيل الذي ذكره لم يقله جميع أهل اللغة كما هو مفهوم كلامه ، و إنّما قاله الجوهري ٤ ، و أمّا الفيروز آبادي فعكس ، فقال : يابس و يبس ،

و يببس و يبس : كان رطبا فجفّ ، كاتّبس ، و ما أصله اليبوسة و لم يعهد رطبا فيبس بالتحريك . و أمّا طريق موسى في البحر ، فإنّه لم يعهد قطّ طريقا لا رطبا و لا يابسا ، إنّما أظهره الله لهم حينئذ مخلوقا على ذلك . و تسكّن الباء أيضا ذهابا إلى أنّه و إن لم يكن طريقا فإنّه موضع كان فيه ماء فيبس ٥ .

و ثالثا : إنّ مناقشته بعدم كون الحطب يابسا خلقة في غير محلّه ، يقال :

(١) طه : ٧٧ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٨ .

(٣) أورده لسان العرب ٦ : ٢٦١ مادة (يبس) .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٩٩٠ مادة (يبس) .

(٥) القاموس المحيط ٢ : ٢٦١ مادة (يبس) .

الصفحة ٥٢٢

حطب يبس . قال ثعلب : كأنه خلقة ١ ، قال علقمة :

تخشخش أبدان الحديد عليهم

كما خشخشت يبس الحصاد جنوب

٢ و رابعا : إنّ الآية . . . فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا . . . لا كما نقله ٣ .

« ثمّ فطر » أي : خلق اختراعا .

و عن ابن عباس : كنت لا أدري ما . . . فاطر السماوات و الأرض . . . ٤ حتّى أتاني أعرابيان

يختصمان في بئر . فقال : أحدهما : أنا فطرتها . يقول : أنا ابتدأت حفرها ٥ .

« منه أطباقا » أي : سماوات أطباقا ، قال تعالى : ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ٦ ، الذي

خلق سبع سماوات طباقا . . . ٧ .

« ففتقها سبع سماوات بعد ارتفاقها » أو لم ير الذين كفروا أنّ السماوات و الأرض كانتا رتقا ففتقناهما . . .

. ٨ .

« فاستمسكت بأمره » . . . و أوحى في كلّ سماء أمرها . . . ٩ .

و قامت على حدّه « الضمير راجع إليه تعالى ، أي : قامت السماوات على تحديده تعالى لها .

(١) قول ثعلب و البيت نقلهما لسان العرب ٦ : ٢٦١ مادة (يبس) .

- (٢) قول ثعلب و البيت نقلهما لسان العرب ٦ : ٢٦١ مادة (بيس) .
- (٣) لم يظهر لي فرق بين ما نقل الشارح و ما نقل ابن أبي الحديد و لا رسم المصحف .
- (٤) يوسف : ١٠١ .
- (٥) مرّ تخريج الحديث في العنوان (١) من الفصل الأول .
- (٦) نوح : ١٥ .
- (٧) الملك : ٣ .
- (٨) الأنبياء : ٣٠ .
- (٩) فصلت : ١٢ .

الصفحة ٥٢٣

« و أرسى أرضاً » هكذا في (المصرية) و ليست الجملة في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخوئي و الخطية) ١ رأساً ، فيعلم عدم وجودها في النهج ، و إن كان المعنى بدونها مختلفاً ، لأنه يصير الضمير في قوله بعد « يحملها الأخضر » راجعاً إلى السماوات السبع ، و ليس كذلك ، و لذا تكلف الخوئي في أنّ الضمير في (يحملها) راجع إلى (الأرض) الاستفادة من اليبس ٢ ، و هو كما ترى .

فالظاهر أنّ (المصرية) نقلت الجملة من نسخة خلطت حاشية بالمتن .

« يحملها الأخضر » فسّر ابن أبي الحديد الأخضر بالبحر ، و يسمّى أيضاً خضارة معرفة غير مصروف . ٣

قلت : لم يقل أحد بإطلاق الأخضر مجرداً على البحر ، بل مع الوصف بالمتعجر ، لأنه بمعنى السائل . نعم ، خضارة مجردة تطلق عليه . ثمّ سوق كلامه أنّ الأخضر غير منصرف ، و ليس كذلك ، بل خضارة غير منصرف .

قال الجوهري : خضارة بالضمّ : البحر ، معرفة لا تجرى ، تقول : هذا خضارة طاميا ٤ . و لو كان عبّر : و خضارة معرفة غير مصروف ، لسلم .

« المتعجر » قال الفيروز آبادي : المتعجر : السائل من ماء أو دمع ، و بفتح الجيم وسط البحر ، و ليس في البحر ماء يشبهه ٥ .

و قال الجزري في حديث عليّ عليه السّلام « يحملها الأخضر المتعجر » : هو أكثر موضع في البحر ماء ، و الميم و النون زائدتان ، و منه حديث ابن عباس :

(١) كذا في شرح الخوئي ٧ : ٣٢٧ ، و توجد الجملة في شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٨ ، و شرح ابن ميثم : ٤ : ٢٤ .

(٢) شرح الخوئي ٧ : ٣٢٨ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٩ .

(٤) صحاح اللغة للجوهري ٢ : ٦٤٧ مادة (خضر) .

(٥) القاموس المحيط ١ : ٣٨٢ مادة (ثعجر) .

الصفحة ٥٢٤

فإذا علمي بالقرآن في علم عليّ عليه السّلام كالقرارة في المتعجر ١ . القرارة : الغدير الصغير ٢ .

قال ابن أبي الحديد : تصغير المتعجر : مثيرج و مثيرج ٣ .

قلت : أخذ من (الصحاح) لكنّه غلط منه ، لأنّ المتعجر رباعيّ مزيد فيه ،

أصله ثعجر ، لا ثلاثي مزيد فيه أصله ثعج .

قال في (القاموس) : قول الجوهري و الصغانيّ تصغير المتعجر : مثيرج و مثيرج ٤ غلط ، و الصواب : ثعيجر ، كما تقول في محرّج : حريجم ٥ .

« و القمقام » يأتي لمعان أحدها البحر ، و هو المراد هنا .

« المسخر » من الله تعالى .

« قد ذلّ لأمره » و المراد أمره التكويني .

« و أذعن » أي : خضع .

« لهيبته ، و وقف الجاري منه » بعد حملة للأرض .

« لخشيته » الطبيعية .

« و جبل » أي : خلق .

« جلاميدها » أي : صخورها الشديدة .

« و نشوز » أي : ارتفاع .

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في شرح الفتح المبين عنه ينابيع المودة : ٧٠ بفرق يسير ، و روى معناه

المفيد و أبو علي الطوسي و النقاش و الحموي و الأربلي ، و قد مرّ تخريجه في شرحه خطبة الرضي .

(٢) النهاية لابن الأثير ١ : ٢١٢ مادة (ثعجر) .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ٢٠ .

(٤) كذا ذكر الجوهري تصغيره في صحاح اللغة ٢ : ٦٠٥ مادة (ثعجر) ، لكن لم يذكر الصغاني في

التكملة ٢ : ٤٣٦ مادة (ثعجر) تصغيراً له .

(٥) القاموس المحيط ١ : ٣٨٢ مادة (ثعجر) .

الصفحة ٥٢٥

« متونها » أي : ما صلب منها .

« و أطواها » أي : جبالها .

« فأرسلها في مراسيها » أي : في مواقعها ١ .

« و رست » أي : ثبتت ، و في نسخة (و رسبت) ٢ ، من رسب في الماء ، إذا هبط فيه .

« أصولها » أي : عروقتها .

« في الماء » لكون الأرض على الماء .

« فأنهد » أي : أنهض .

« جبالها عن سهولها » سهل الأرض خلاف حزنها .

« و أساخ » أي : أغاص ، من : ساخت قدمه في الأرض ، إذا غاصت فيها .

« قواعدها » و أساسها .

« في متون أقطارها » أي : جوانبها .

« و مواضع أنصابها » أي : في مواضع نصبت فيها .

« فأشهب » أي : أعلى .

« قلالتها » قلال جمع قلّة ، أعلى الجبل .

« و أطال » أي : جعل طويلاً .

« أنشازها » أي : ارتفاعاتها .

« و جعلها للأرض عمادا » أي : عمودا .

« و أرزها » أي : أثبتها ، من أرزت الشجرة : ثبتت .

(١) لم يتعرض الشارح لشرح الفقرتين : « و ألزمها قرارتها ، فمضت رؤوسها في الهواء » .

(٢) لم نجد أحداً من الشراح نقل هذه الرواية .

الصفحة ٥٢٦

« فيها أوتادا » قال تعالى : و الجبال أوتادا ١ .

« فسكنت على حركتها » أي : مع حركتها ، فإن (على) في مثل الموضع بمعنى (مع) ، كقوله تعالى :

الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل و إسحاق . . . ٢ ، و قوله تعالى : و يطعمون الطعام على

حبه مسكينا و يتيما و أسيرا ٣ ، و كقول الشاعر :

و إنني على ليلي لزار و إنني

على ذلك في ما بيننا مستديمتها

٤ و قوله :

على جوده ما جاد بالمال حاتم

٥ « من أن تميد » أي : تضطرب .

« بأهلها » كوقت يحصل الزلزال .

« أو تسيخ » أي : تغوص .

« بحملها » كبناء لم يستحکم أساسه .

« أو تزول عن مواضعها » التي عينها الله تعالى لها ، قال في (الهيئة و الاسلام) : يظهر من قوله عليه السلام : « أو تزول عن مواضعها » تحرك الأرض في مدار مخصوص ، فإن الأرض عند المتأخرين لها مواضع لا تحصى ، لكنها جميعا في مدار معين بإزاء البروج الاثني عشر ، فيتم على هذا تفسير قوله عليه السلام : « على حركتها » بحركة الأرض السنوية ، و أن الجبال و عروقتها هي

(١) النبأ : ٧ .

(٢) إبراهيم : ٣٩ .

(٣) الإنسان : ٨ .

(٤) أورده السيوطي في شواهد المغني ١ : ٦١ ، و الشاعر إماما قيس بن الملوح أو غيره .

(٥) أورده لسان العرب ١٢ : ١١٥ مادة (حتم) و الشاعر الفرزدق ، و صدره :

على حالة لو أن في القوم حاتما

الصفحة ٥٢٧

الحافظة لهيئة أجزاء الأرض المانعة من تفرقتها و اضطرابها و زوالها عن مواضعها المخصوصة في فلكتها المخصوص ، و أمّا على القول بالسكون كما عليه المنقذون فلا يتم هذا الكلام الكامل ، إذا الجسم لا يكون ذا مواضع إلا بتحركه الانتقالي ، و الساكن لا يكون إلا ذا موضع واحد .

ثم استدلَّ صاحب الكتاب لحركة الأرض بأيات :

منها : الذي جعل لكم الأرض مهداً . . . ١ . قال : و المهد يتحرك سريعاً بلا ميلان .

و منها : هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً . . . ٢ . قال : فإنَّ الذَّلُولَ إِبِلٌ تَمْتَازُ بِنَعُومَةِ الْحَرَكَةِ وَ سُرْعَةِ السَّيْرِ .

و منها : و ترى الجبال تحسبها جامدة و هي تمرّ مرّ السحاب صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء . . . ٣ . قال : فلو كان المراد القيامة كما قالوا لما كان لقوله :

صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء . . . مناسبة .

و منها : و الأرض بعد ذلك دحاها ٤ . قال : بناء على أنّ المراد بالدَّحْوِ :

الدَّفْعُ وَ الدَّحْرَجَةُ كَمَا يَفْهَمُ مِنَ اللَّغَةِ وَ مِنْ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِهِ دُونَ الْبَسْطِ ، كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ . ثُمَّ تَعَرَّضَ لِلْاِسْتِدْلَالِ عَلَى مَدْعَاهُ بِكَوْنِ الْمُرَادِ مِنَ الدَّحْوِ فِي الْآيَةِ الدَّفْعُ وَ الدَّحْرَجَةُ دُونَ الْبَسْطِ الَّذِي قَالَ غَيْرَهُ ٥ .

قلت : الظاهر أنّ المشهور فسّروه باللازم ، فإنَّ درجة الملفوف تستلزم بسطه ، و ممّا يمكن أن يستدلَّ به على ما قال ، و إن لم يتفطن له قول الحميري

(١) طه : ٥٣ .

(٢) الملك : ١٥ .

(٣) النمل : ٨٨ .

(٤) النازعات : ٣٠ .

(٥) الهيئة و الاسلام ١ : ٨٢ ، و النقل بتصريف يسير .

الصفحة ٥٢٨

في تشبيهه رمي أمير المؤمنين عليه السلام للصخرة العظيمة التي كانت على عين في طريق صفيين بكرة رماها قوي :

فكأنها كرة بكفّ حزور
عبل الذراع دحا بها في ملعب

١ كما أنه فاتته الاستدلال بكلامه عليه السّلام في الخطبة (٧٠) « اللهمّ داحي المدحوات » ٢ . فإنه مثل قوله تعالى : و الأرض بعد ذلك دحاها ٣ . و استدلّ بخبر (الاحتجاج) عن الصادق عليه السّلام : أنّ الأشياء تدلّ على حدوثها من دوران الفلك بما فيه ، و هي سبعة أفلاك ، و تحرك الأرض و من عليها ٤ . و استدلّ بآيات و أخبار أخر ليس لها وضوح دلالة ، كقوله تعالى : . . . فقال لها و للأرض اثتيا طوعا أو كرها قالتا أثينا طائعين ٥ ، فقال في معناه : اثتيا أي : انتقلا و تحركا من حيزكما ، طوعا لنظام هذه الشمس ، أو كرها عنها و طوعا لنظام آخر ، و اتّباعا لجاذبية عالم آخر ، قالتا بلسان الحال : أثينا طائعين لهذا النظام ، خاضعين لنواميس هذه الجاذبية التي سنّها الله تعالى في هذا العالم ٦ . و هو كما ترى .

« فسبحان من أمسكها بعد موجان مياهاها » إنّ الله يمسك السماوات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده . . . ٧ .

« و أجمدها بعد رطوبة أكنافها » أي : جوانبها .

(١) هذا بيت من القصيدة البائية نقله المفيد في الإرشاد : ١٧٨ و غيره .

(٢) نهج البلاغة ١ : ١٢٠ .

(٣) النازعات : ٣٠ .

(٤) رواه الطبرسي في الاحتجاج ٢ : ٣٣٨ ضمن حديث طويل .

(٥) فصلت : ١١ .

(٦) الهيئة و الاسلام ١ : ٧١ ، ٧٤ .

(٧) فاطر : ٤١ .

الصفحة ٥٢٩

« فجعلها لخلقها مهادا » ألم نجعل الأرض مهادا ١ .

« و بسطها لهم فراشا » الذي جعل لكم الأرض فراشا و السماء بناء . . . ٢ .

« فوق بحر لجي » بالضم ، أي : بحر مشتمل على اللجّات .

« راكد » أي : ساكن .

« لا يجري » كما يجري اليمّ .

« و قائم » في مكانه .

« لا يسري » إلى موضع آخر .

« تكررّه » أي تردّده .

« الرّياح العواصف » أي : الشدائد .

« و تمخضه » من مخضت اللّبن ، إذا حرّكت سقاه لأخذ زبده .

« الغمام » أي : السحاب .

« الذّوارف » من ذرفت عينه إذا سال منها الدّمع ، شبّه عليه السّلام صبّ الغمام للقطر بنساء يسكين دموعهنّ ، قال ابن أبي الحديد ليس قوله عليه السّلام : « و تمخضه الغمام الذّوارف » صريحا في أنّ السحب تنزل في البحر فتغترف منه ، كما قد يعتقد في المشهور العامّي ، نحو قول الشاعر :

كالبجر يطره السحاب و ما لها
فضل عليه لأنّه من مائه

بل يجوز أن تكون الغمام الذّوارف تمخضه و تحرّكه بما ترسل عليه من الأمطار السائلة منها ٣ .

قلت : أصل كلامه عليه السّلام في وصف البحر الذي يحمل الأرض ، لقوله عليه السّلام

(١) النّبأ : ٦ .

(٢) البقرة : ٢٢ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ٣ : ١٩ .

أولاً : « يحملها الأخضر المتعرج » و قوله أخيراً : « فوق بحر لجي » ، لا البحر الظاهر في الأرض ، و حينئذ فالظاهر وقوع تصحيف هنا أيضا ، كما مرّ عند قوله : « و يحملها الأخضر المتعرج » ، و أنّ الأصل « و لا تكرر الرياح العواصف ، و لا تمخضه الغمام الذوارف » عطفاً على قوله عليه السلام : « لا يسري » ،

بمعنى أنه بحر غير هذه البحار البارزة ، و لو لا ما قلنا لكان تنافراً أيضا بين الجملتين ، و بين قوله عليه السلام : « راكد لا يجري ، و قائم لا يسري » .

« إنّ في ذلك لعبرة لمن يخشى » اقتباس من القرآن آية (٢٦) من :

و النازعات .

٥

الخطبة (١٦٩) و من خطبة له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين :

اللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَ الْجَوْءِ الْمَكْفُوفِ الَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ مَجْرَى لِلشَّمْسِ وَ الْقَمَرِ وَ مُخْتَلِفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ وَ جَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلَائِكَتِكَ لَا يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ وَ رَبَّ هَذِهِ الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلْأَنَامِ وَ مَدْرَجاً لِلْهُوَامِ وَ الْأَنْعَامِ وَ مَا لَا يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَ مِمَّا لَا يُرَى وَ رَبَّ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلْأَرْضِ أُوتَاداً وَ لِلخَلْقِ اعْتِمَاداً إِنَّ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا فَجَنَّبْنَا الْبَغْيَ وَ سَدَّدْنَا لِلْحَقِّ وَ إِنَّ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ وَ جَنَّبْنَا الْفِتْنَةَ أَيْنَ الْمَانِعُ لِلذَّمَارِ وَ الْغَائِرُ عِنْدَ نَزُولِ الْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ الْحِفَاطِ الْعَارِ وَ رَاعِكُمْ وَ الْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ أَقُولُ : رواه ابن طاووس في (مهجه) عن كتاب دعاء الحسين بن سعيد

الصفحة ٥٣١

الأهوازي باسناده عن يعقوب بن شعيب عن الصادق عليه السلام قال : كان من دعاء أمير المؤمنين يوم صفين : « اللهم رب هذا السقف المرفوع . . . فجنّبنا الكبر و سدّدنا للرشد . . . و اعصم بقيّة أصحابي من الفتنة » ١ .

و رواه الطبري في (تاريخه) عن زيد بن وهب ، و زاد بعد قوله عليه السلام :

« و ممّا لا يرى » قوله : « من خلقك العظيم و ربّ الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، و ربّ السحاب المسخر بين السماء و الأرض ، و ربّ البحر المسجور المحيط بالعالم » ٢ .

و رواه نصر بن مزاحم في (صفينه) ٣ .

« اللهم ربّ السّقف المرفوع » هو لفظ القرآن في التعبير عن السماء ، قال تعالى : و السّقف المرفوع ٤ .

« و الجوّ المكفوف » المراد بالجوّ المكفوف السماء كالسّقف المرفوع ، و مرّ قوله عليه السّلام في العنوان الأوّل من الفصل : « جعل سفلاهنّ موجا مكفوفاً » .

و في (صفين نصر) : « اللهم ربّ هذا السّقف المحفوظ المكفوف الذي جعلته . . . » ٥ .

قال الشهرستاني في (الهيئة) : يعني عليه السّلام بالجوّ المكفوف الممنوع من الهطلان مع سيلان مادّته الأثيرية ٦ .

« الذي جعلته مغيضا لليل و النّهار » قال ابن أبي الحديد : وجه المشاركة أنّ

(١) مهج الدعوات : ١٠٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤ : ١٠ سنة (٣٧) .

(٣) وقعة صفين : ٢٣٢ .

(٤) الطور : ٥ .

(٥) وقعة صفين : ٢٣٢ ، و لفظة « المكفوف » في بعض النسخ .

(٦) الهيئة و الاسلام ١ : ٥١ .

الصفحة ٥٣٢

المغيض أو الغيضة يتولّد منهما الشجر ، و كذلك اللّيل و النّهار يتولّدان من جريان الفلك ، كنبت الشجر من المغيضة و الأجمة ١ .

قلت : المغيض يستعمل في الخفاء لا الظهور ، قال تعالى : . . . و ما تغيض الأرحام و ما تزداد . . . ٢ ، و يقال : غاض الكرام و فاض اللّئام ، و ابن أبي الحديد عكس .

وقال الشهرستاني : المغيض : موضع يمصّ الماء و يبلعه . فكأنّه عليه السّلام استعار لفظ اللّيل و النّهار لمعنى النور و الظلام ، و شبّه انعدام ضوء النّهار لمعنى النور و الظلام ، و شبّه انعدام ضوء النّهار في الجوّ ليلا ، و كذا انحاء ظلام اللّيل فيه نهارا بمصّ الجوّ و ابتلاعه للظلام و الضياء ، و يظهر من هذا التعبير ما استكشفه المتأخرون بألّة (سبكتر سكوب) و غيرها أنّ الجوّ أو الهواء يشرب و يمصّ من النّور ما يقتضيه طبعه ، و يمجّ الباقي إلينا ، و قد فتح عليهم هذا الباب ألف باب من العلم ، لكن باب مدينة العلم أعني عليّا عليه السّلام قد علّمه النّبيّ صلّى الله عليه و آله حسب الآثار الصحيحة ألف باب ، يفتح له من كلّ باب ألف باب ، و ربّما كان هذا و أشباهه من فروع هذه الأبواب التي يستكشف الحكيم منها ألف باب . و أيم الله سبحانه إنّ المتأمّل في كلمات عليّ عليه السّلام بعد اطّاعه على فنون الفلسفة تتفجر عليه ينابيع الحكمة ، و يصدق عندئذ من قال : « إنّ كلام عليّ عليه السّلام دون كلام الخالق و فوق كلام المخلوقين » . ٣

« و مجرى للشمس و القمر » قال تعالى : و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . و القمر قدرناه منازل حتّى عاد كالرجون القديم ٤ .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٤٧٢ .

(٢) الرعد : ٨ .

(٣) الهيئة و الاسلام ١ : ٥١ ، و النقل بتصرف يسير .

(٤) يس : ٣٨ ٣٩ .

الصفحة ٥٣٣

« و مختلفا للنجوم السيّارة » في طلوعها و غروبها ، قال الصادق عليه السّلام للمفضّل : فكّر يا مفضّل في النجوم و اختلاف مسيرها ، فبعضها لا تفارق مراكزها من الفلك ، و لا تسير إلاّ مجتمعة ، و بعضها مطلقة تنتقل في البروج ،

و تفترق في مسيرها ، فكلّ واحد منها يسير سيرين مختلفين : أحدهما عام مع الفلك نحو المغرب ، و الآخر خاص لنفسه نحو المشرق ، كالنملة التي تدور على الرّحى ١ .

هذا ، و في (أصل زيد النّرسي) و زيد مختلف فيه عن الصادق عليه السّلام في خبر : و ربّ هود بن أسية عافني من كلّ عقرب و حيّة . قلت : و ما هود بن أسية ؟

قال : كوكبة في السماء خفية تحت الوسطى من الثلاث ، الكواكب التي في بنات النعش المتفرقات ، ذلك أمان مما قلت ٢ .

« و جعلت سكانه سبطا » أي : طائفة .

« من ملائكتك » كما أن الأرض مسكن بني آدم .

« لا يسأمون » أي : لا يملّون .

« من عبادتك » و إن أداموا ، لا مثل البشر .

« و ربّ هذه الأرض التي جعلتها قرارا للأنام » . . . و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ و لكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين ٣ ، أمّن جعل الأرض قرارا و جعل خلالها أنهارا . . . ٤ ، الله الذي جعل لكم الأرض قرارا و السماء بناء . . . ٥ .

(١) توحيد المفضل : ١٣٢ .

(٢) أصل زيد النرسي : ٥٧ ، و النقل بتقطيع .

(٣) البقرة : ٣٦ .

(٤) النمل : ٦١ .

(٥) غافر : ٦٤ .

الصفحة ٥٣٤

« و مدرجا » أي : مسلكا .

« للهوامّ » أي : الحشرات ، يقال خلّ درج الضبّ ، أي : طريقة لئلا يسلك بين قدميك ، فتنفخ . و فسّرت الهامة في حديث الاستعاذة « من كلّ سامّة و هامة » ١ بحشرة ذات سمّ لا تقتل كالعقرب ، في قبال السامة حشرة ذات سمّ تقتل . و المراد هنا المطلق ، لجعلها في مقابل الأنعام .

« و الأنعام » أي : مطلق الحيوان ، لا خصوص المال الرّاعية ، حيث جعل مقابلا للهوامّ .

« و ما لا يحصى » من خلقك .

« ممّا يرى و ممّا لا يرى » و ما لا يرى قسمان ، قسم منها لغيوبته عنّا مثل ما في العلويّات ، و قسم منها لصغر جسمها حتّى لا ترى بالعين ، و في القسم الثاني اخترعت أدوات ترى بها .

« و ربّ الجبال الرواسيّ » أي : الثوابت .

« التي جعلتها للأرض أوتادا » لئلا تضطرب .

« و للخلق » الإنسان و أقسام الحيوان .

« اعتمادا » حتّى يمكنهم السكنى فيها .

« إن أظهرتنا على عدوّنا » فبيده مفتاح الظفر و الهزيمة .

« فجنبنا البغي » كما هو شأن أكثر الفاتحين .

« و سدّدنا » أي : وقّفنا .

« للحقّ » و ترك الباطل .

« و إنّ أظهرتهم علينا » . . . تؤتي الملك من تشاء و تنزع الملك

(١) أخرجه أبو يعلى و البزار في مسنديهما عنهما المطالب العالية ٢ : ٣٤٨ ح ٢٤٤٣ بلفظ ، و الصدوق في معاني الأخبار : ١٧٣ ح ١ بلفظ آخر ، و ذكر الهامة في أحاديث الاستعاذة كثير .

الصفحة ٥٣٥

ممن تشاء . . . ١ .

« فارزقنا الشهادة » في الحرب دون الأسر بيد العدو .

« و جنبنا الفتنة » أي : الامتحان الذي يوجب الضلال .

« أين المانع للذمار » أي : ما يلزمك حفظه ممّا وراءك و يتعلّق بك .

« و الغائر » أي : الغيور .

« عند نزول الحقائق » أي : نزول أمور يحقّ على الرجل أن يحميها ، و يدفع عنها كعرضه و حرمة ، قالوا : كان ربيعة بن مكرم من بني فراس بن غنم حامي الطّعن بعد موته ، و ذلك أنّه عرض له فارسان من بني سليم و معه طعائن من أهله يحميهنّ وحده ، فطاعنهما فرماه أحدهما بسهم أصاب قلبه ،

فنصب رمحه في الأرض و اعتمد عليه ، و هو ثابت في سرجه لم يزل ، فسارت الطّعائن حتّى بلغن بيوت الحيّ ، و بنو سليم قائمون بإزائه لا يقدمون عليه ،

و يظنّونه حيّا ، حتّى قال قائل منهم : إنّي لا أراه إلّا ميّتا ، و لو كان حيّا لتحرك ،

فرموا فرسه بسهم ، فوثب من تحته ، فوقع و هو ميّت ، و فانتهم الطعائن ٢ .

« من أهل الحفاظ » بالكسر ، أي : الذين يحافظون على ما يجب عليهم رعايته .

« العار وراءكم » إن أجمتم عن عدوكم بالفرار ، بعث عبيد الله بن زياد إلى أبي بلال الخارجي ، و قد كان خرج إلى أسك موضع بين أرجان و رامهرمز ،

و هو في أربعين و معبد بن أسلم الكلابي في ألفين ، فانهمزم و ما ردّه شيء حتّى ورد البصرة ، فكان الناس يصيحون به : يا معبدا وراك أبو بلال حتّى شكاهم

(١) آل عمران : ٢٦ .

(٢) نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ١١٣ ، و روى قريبا منه المسعودي في مروج الذهب ٢ : ٣٢٨ .

الصفحة ٥٣٦

إلى ابن زياد ١ .

و لمّا انهزم خالد بن الوليد بالناس يوم مؤتة بعد قتل جعفر و صاحبيه زيد بن حارثة و عبد الله بن رواحة ، و دنا من دخول المدينة جعل الناس يحثون على الجيش التراب ، و يقولون : يا فرّار ، و كان فيهم سلمة بن

هشام بن المغيرة ، فكان لا يحضر الصلاة مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فقالت أم سلمة لا مرأته : لم لا يحضر ؟

قالت : ما يستطيع ، كلما خرج صاح الناس أفررتم في سبيل الله ؟ فقعد في البيت و ما يخرج ٢ . و من المضحك أن إخواننا سموا خالدًا سيف الله بتلك الهزيمة ٣ .
« و الجنة أمامكم » إن أقدمتم عليه حتى ترزقوا الشهادة ، و روى (الكافي) عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ : للجنة باب يقال له باب المجاهدين يمضون إليه ، فإذا هو مفتوح و هم متقلدون بسيوفهم ، و الجمع في الموقف ، و الملائكة ترحب بهم ٤ .

٦

من الخطبة (١٥٨) (فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ وَ أَعْمَلَ فِكْرَهُ لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ وَ كَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ وَ كَيْفَ عَلَّقْتَ فِي الْهَوَاءِ سَمَاوَاتِكَ وَ كَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ الْمَاءِ أَرْضَكَ رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيرًا وَ عَقْلُهُ مَبْهُورًا وَ سَمْعُهُ وَالِهًا وَ فِكْرُهُ حَائِرًا » فمن فرغ قلبه « عن الشواغل .

- (١) نقل القصة بطولها ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٤٤٨ .
(٢) نقله ابن هشام في السيرة ٤ : ١٧ ، و الطبري في التاريخ ٢ : ٣٢٣ سنة (٨) .
(٣) المدعى أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ فِي شَأْنِهِ : « سيف من سيوف الله » نقله عن أكثر من ثلاثين طريقا المتقي في منتخب كنز العمال ٤ : ٩٤ ، ٩٥ ، و ٥ : ١٧٤ ١٧٦ .
(٤) أخرجه في صدر حديث الكليني في الكافي ٥ : ٢ ح ٢ ، و الصدوق في ثواب الأعمال : ٢٢٥ ح ٢ و أماليه : ٤٦٢ ح ٨ المجلس (٨٥) ، و الطوسي في التهذيب ٦ : ١٣٣ ح ٨ .

الصفحة ٥٣٧

« و أعمل فكره » بإطالته .

« ليعلم كيف أقمت عرشك » روى (توحيد الصدوق) بإسناده عن الصادق عليه السلام قال : إن للعرش صفات كثيرة مختلفة ، له في كل سبب وضع في القرآن صفة على حدة ، فقله : . . . ربّ العرش العظيم ١ يقول : الملك العظيم ،

و قوله : الرحمن على العرش استوى ٢ يقول : على الملك احتوى ، و هذا ملك الكيفويّة في الأشياء . ثمّ العرش في الوصل متفرّد من الكرسيّ ، لأنّهما بابان من أكبر أبواب الغيوب ، و هما جميعا غيبان ، و هما في الغيب مقرونان ، لأنّ الكرسي هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدء ، و منه الأشياء كلّها .

و العرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف و الكون ، و القدر و الحدّ ،

و الأين و المشيئة ، و صفة الإرادة ، و علم الألفاظ و الحركات و التّرك ، و علم العود و البدء .

فهما في العلم بابان مقرونان ، لأنّ ملك العرش سوى ملك الكرسي ،

و علمه أغيب من علم الكرسي ، فمن ذلك قال : ربّ العرش العظيم ٣ ، أي :

صفته أعظم من صفة الكرسي ٤ .

و روى (روضة القتال) مرسلًا أنّه قال في العرش تمثال جميع ما خلق الله في البرّ و البحر ، و هذا تأويل قوله تعالى : و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه . . . ٥ ، و إنّ بين القائمة من قوائم العرش و القائمة الثانية خفقان الطير المسرع مسير ألف عام ، و العرش يكسى كلّ يوم سبعين ألف لون من النور ، لا

(١) التوبة : ١٢٩ ، و النمل : ٢٦ .

(٢) طه : ٥ .

(٣) التوبة : ١٢٩ ، و النمل : ٢٦ .

(٤) أخرجه الصدوق في التوحيد : ٣٢١ ح ١ .

(٥) الحجر : ٢١ .

الصفحة ٥٣٨

يستطيع أن ينظر إليه خلق من خلق الله ، و الأشياء كلّها في العرش كحلقة في فلاة .

و إن لله تعالى ملكا يقال له حزائيل ، له ثمانية عشر ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام ، فخطر له خاطر : هل فوق العرش شيء ؟

فزاده الله تعالى مثلها أجنحة أخرى ، فكان له ستة و ثلاثون ألف جناح ، ما بين الجناح إلى الجناح خمسمائة عام ، ثم أوحى الله إليه : أيها الملك طر ، فطار مقدار عشرين ألف عام ، لم ينل رأسه قائمة من قوائم العرش ، ثم ضاعف الله له في الجناح و القوة ، و أمره أن يطير فطار مقدار ثلاثين ألف عام و لم ينل أيضا ، فأوحى الله إليه : أيها الملك لو طرت إلى نفخ الصور مع أجنحتك و قوتك لم تبلغ إلى ساق العرش . فقال الملك سبحان ربّي الأعلى . فأنزل الله عزّ و جلّ : سبح اسم ربك الأعلى ١ . فقال النبي صَلَّى الله عليه و آله : اجعلوها في سجودكم ٢ .

« خلقك » و هو الذي ذرأكم في الأرض و إليه تحشرون ٣ ، . . . جعل لكم من أنفسكم أزواجا و من الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء و هو السميع البصير ٤ .
« و كيف علقت في الهواء سماواتك » الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها . . . ٥ ، خلق السماوات بغير عمد ترونها . . . ٦ .

(١) الأعلى : ١ .

(٢) رواه الفتال في روضة الواعظين ١ : ٤٧ ، و ما روي عن النبي صَلَّى الله عليه و آله « اجعلوها في سجودكم » قد جاء في الأخبار كثيرا .

(٣) المؤمنون : ٧٩ .

(٤) الشورى : ١١ .

(٥) الرعد : ٢ .

(٦) لقمان : ١٠ .

الصفحة ٥٣٩

« و كيف مددت على مور الماء » أي : اضطرابه و ذهابه و مجيئه .

« أرضك » فاستقرت .

« رجع طرفه » أي : عينه و بصره ، قال تعالى : . . . لا يرتد إليهم طرفهم . . . ١ .

« حسيرا » أي : كليلا و منقطعا ، و الأصل فيه قوله تعالى : . . . ينقلب إليك البصر خاسئا و هو حسير . ٢ .

« و عقله مبهورا » أي : مغلوبا .

« و سمعه والها » أي : متحيرا .

« و فكره حائرا » غير واصل إلى مقصد .

(١) إبراهيم : ٤٣ .

(٢) الملك : ٤ .

الصفحة ٥٤٠

الفصل الثالث في خلق الملائكة

الصفحة ٥٤١

الصفحة ٥٤٢

١

من الخطبة (١) ثُمَّ فَتَقَ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ الْعَلَا فَمَلَأَهُنَّ أَطْوَارًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ مِنْهُنَّ سُجُودٌ لَا يَرْكَعُونَ وَ رُكُوعٌ لَا يَنْتَصِبُونَ وَ صَافُونَ لَا يَتَزَالُونَ وَ مُسَبِّحُونَ لَا يَسَامُونَ لَا يَغْشَاهُمْ نَوْمُ الْعَيْنِ وَ لَا سَهُوُ الْعُقُولِ وَ لَا فِتْرَةٌ الْأَبْدَانِ وَ لَا غَفْلَةٌ النَّسِيَانِ وَ مِنْهُمُ أَمْنَاءٌ عَلَى وَحْيِهِ وَ أُنْسَاءٌ إِلَى رُسُلِهِ وَ مُخْتَلِفُونَ بِقَضَائِهِ وَ أَمْرِهِ وَ مِنْهُمُ الْحَفَظَةُ لِعِبَادِهِ وَ السَّدَنَةُ لِأَبْوَابِ جَنَانِهِ وَ مِنْهُمُ الثَّابِتَةُ فِي الْأَرْضِينَ السُّفْلَى أَقْدَامُهُمْ وَ الْمَارِقَةُ مِنَ السَّمَاءِ الْعُلْيَا أَعْنَاقُهُمْ وَ الْخَارِجَةُ مِنَ الْأَقْطَارِ أَرْكَانُهُمْ وَ الْمُنَاسِبَةُ لِقَوَائِمِ الْعَرْشِ أَكْتَافُهُمْ نَاكِسَةٌ دُونَهُ أَبْصَارُهُمْ مُتَلَفَعُونَ تَحْتَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ مَضْرُوبَةٌ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَنْ دُونَهُمْ حُجُبُ الْعِزَّةِ وَ أَسْتَارُ الْقُدْرَةِ لَا يَتَوَهَّمُونَ رَبَّهُمْ بِالتَّصْوِيرِ وَ لَا يُجْرُونَ عَلَيْهِ صِفَاتِ الْمَصْنُوعِينَ وَ لَا يَحْدُونَهُ بِالْأَمَاكِنِ وَ لَا يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالنَّظَائِرِ

الصفحة ٥٤٣

قول المصنف : « في خلق الملائكة » .

أقول : كنه الملائكة غير معلوم لنا ، و حيث إننا لا نعرف أنفسنا بالكنه ، قال تعالى : و يسألونك عن الرُّوح قل الرُّوح من أمر ربِّي و ما أوتيتم من العلم إلا قليلا ١ . فالملائكة الذين ليسوا من جنسنا ، و غير مرتبيين لنا أولى بعدم العرفان .

و مرّ في الفصل الأوّل ٢ قوله عليه السّلام في مقام بيان عدم إمكان الإحاطة بذاته تعالى : « بل إن كنت صادقاً أيها المتكلم لوصف ربك فصف جبرائيل و ميكائيل و جنود الملائكة المقربين في حجرات القدس مرجحين » . و مرّ ثمة أيضاً ٣ قوله عليه السّلام في ذلك المقام في ملك الموت : « هل تحسّ به إذا دخل منزلاً ، أم هل تراه إذا توفّي أحداً ؟ بل كيف يتوفّي الجنين في بطن أمّه ؟ أ يلج عليه من بعض جوارحها ، أم الرّوح أجابته بإذن ربّها ، أم هو ساكن معه في أحشائها ؟

كيف يصف إلهه من يعجز عن صفة مخلوق مثله ؟ » .

ثمّ اختلف في لفظ (الملك) ، هل هو مفرد فقط أو مشترك بينه و بين الجمع ؟ و في مادّته هل هو فعل ، أو مفل ، أو مغل ؟

أمّا الأوّل ، فقال الفيروز آبادي : إنّ الملك واحد الملائكة و الملائك ٤ .

و قال الجوهرى : الملك من الملائكة واحد و جمع ٥ .

قلت : و هو الصواب ، يشهد لمجيئه مفرداً قوله تعالى : . . . إن هذا إلاّ ملك

(١) الإسراء : ٨٥ .

(٢) مرّ في الفصل الأوّل أواخر العنوان ٢٩ .

(٣) مرّ في الفصل الأوّل العنوان ٣٠ .

(٤) القاموس المحيط ٣ : ٣٢١ مادة (ملك) .

(٥) صحاح اللغة ٤ : ١٦١١ مادة (ملك) .

الصفحة ٤٤٤ هـ

كريم ١ ، و لمجيئه جمعا قوله عزّ و جلّ : و جاء ربك و الملك صفّاً صفّاً ٢ .

لا يقال : إنّه هنا اسم جنس لأننا نقول : لا يقال : جاء الرّجل صفّاً صفّاً . بل (الرجال) .

و أمّا الثاني فذهب إلى الأوّل ابن كيسان ، و إلى الثاني أبو عبيدة ، و إلى الثالث الكسائي ٣ ، و لذا ذكره (القاموس) في : (ألك) و (لأك) و (ملك) ٤ . و استند أبو عبيدة في كونه من (لأك) و تركت همزته

لكثرة الاستعمال فقيل : (ملك) فلما جمع ردت ، فقالوا : ملائك و ملائكة إلى قول الشاعر : و هو إمام عبد القيس الجاهلي في بعض الملوك ، أو أبو و جزة الإسلامي في ابن الزبير :

فلست لإنسي و لكن لملاك

تنزل من جو السماء يصب

٥ قلت : أي دلالة في البيت على كون (ملاك) من (لأك) ، و من أين أنّ (ملاك) ليس بأصل على (فعل) أسقطت همزته تخفيفا ، كما أسقطت من (أرى) ماضيا و مستقبلا أفعالا و فعلا ، و ردت في جمعه كما هي القاعدة ، و ليس (الملاك) منحصرًا استعماله بذاك البيت ، بل ورد في بيت آخر نقله (اللسان) :

أيها القاتلون ظلما حسينا

أبشروا بالعذاب و التتكيل

كل أهل السماء يدعو عليكم

من نبي و ملاك و رسول

٦ و يشهد لكون (ملك) فعل قوله تعالى : قل يتوفاكم ملك الموت الذي

(١) يوسف : ٣١ .

(٢) الفجر : ٢٢ .

(٣) مجمع البيان للطبرسي ١ : ٧٣ ، و لسان العرب لابن منظور ١ : ٤٩٦ مادة (ملك) .

(٤) القاموس المحيط ٣ : ٢٩٣ ، ٣١٧ ، ٣٢١ مادة (ألك و لأك و ملك) .

(٥) نقله عنه لسان العرب ١٠ : ٤٩٦ مادة (ملك) .

(٦) لسان العرب ١٠ : ٣٩٣ مادة (ألك) .

الصفحة ٥٤٥

وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ١ . فلا ريب أنه بمعنى المالكية ، و أما ما نقل (اللسان) عن (محكم ابن سيده) أن رويشدا سمى ملك الموت مالكا ، فقال :

فأبلغ مالكا أنا خطبنا

فإنّا لم نلأيم بعد أهلا

و قال :

غدا مالك يبغي نسائي كأنما
نسائي لسهمي مالك غرضان

و قال :

فيا ربّ فاترك لي جهينة أعصرا
فمالك موت بالفراق دهاني

و قال : قال ابن سيده : ظنّ ملك الموت من (ملك) ، فصاغ مالكا من ذلك فهو غلط منه ، و مثل غلط
رويشد كثير في شعر الأعراب الجفاة ٢ ، فهو كما ترى ، فالأعراب كان في اعتقاداتهم أوهام لا في فهمهم
اللغات .

و أمّا من جعله من (ألك) فظنّ ترادف الملك و الرّسول و الألوك و المألكة الرّسالة ، فاستندوا إلى أبيات
وردت فيها الألك و المألّك و المألّكة و المالك ،

كقول زيد بن حارثة :

ألكني إلى قومي و إن كنت نائيا
فإنّي قطين البيت عند المشاعر

و قول عمرو بن شأس :

ألكني إلى قومي السّلام و رحمة الإله
فما كانوا ضعافا و لا عزلا

و يروى :

ألكني إلى قومي السّلام رسالة

بآية ما كانوا ضعافا و لا عزلا

و قول ابن أبي ربيعة :

ألكني إليها بالسّلام فإنّه
ينكرّ الإمامي بها و يشهرّ

(١) السجدة : ١١ .

(٢) لسان العرب ١٠ : ٤٨٢ مادة (لأك) . و النقل بالمعنى .

الصفحة ٥٤٦

و كقول الشاعر :

أبلغ أبا دخنتوس مألّكة
عن الذي قد يقال م الكذب

أي : من الكذب . و كقوله :

أبلغ يزيد بني شيبان مألّكة
أبا تبييت أما تنفكّ تأتكل

و قول عدي بن زيد :

أبلغ النعمان عني مألّكا
أنّه قد طال حبسي و انتظار

١ مع أنّه وهم ، فالملائكة لا يحصي عددهم غير الله تعالى ، و إنّما كان جبرائيل رسوله تعالى إلى أنبيائه ، و قال عليه السّلام هنا : « و منهم أمناء على وحيه و السنة إلى رسله » .

« ثم فتق » أي : شقّ .

« ما بين السماوات العلى » و مرّ في الفصل السابق ٢ قوله عليه السّلام : « و فتق بعد الارتفاق صوامت أبوابها » ، و قوله عليه السّلام ٣ : « ففتقها سبع سماوات بعد ارتفاقها » .

« فمأهنّ أطوارا » مختلفة .

« من ملائكته » في (تفسير القمي) : قال الصادق عليه السّلام : ما من شيء ممّا خلق الله أكثر من الملائكة ، و أنّه ليهبط كلّ يوم أو في كلّ ليلة سبعون ألف ملك ،

فيأتون البيت الحرام فيطوفون به ، ثمّ يأتون النبي صلّى الله عليه و آله ثمّ يأتون أمير المؤمنين عليه السّلام فيسلّمون عليه ، ثمّ يأتون الحسين عليه السّلام فيقيمون عنده . فإذا كان عند السّحر ، وضع لهم معراج إلى السماء ثمّ لا يعودون أبداً ٤ ، و ما في السماء

(١) لسان العرب ١٠ : ٣٩٢ ٣٩٣ مادة (ألك) .

(٢) مرّ في الفصل الثاني العنوان ٢ .

(٣) مرّ في الفصل الثاني العنوان ٤ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ٢٠٦ ، و أمالي الطوسي ١ : ٢١٨ المجلس ٨ .

الصفحة ٤٧ هـ

موضع قدم إلّا و فيها ملك يسبّحه و يقدّسه ١ .

« منهم سجود لا يركعون » سجود هنا جمع ساجد ، لا مصدر سجد .

« و ركوع » ركوع أيضا هنا جمع راع .

« لا ينتصبون » أي : لا يقومون من الركوع ، و في (تفسير القمي) قال الصادق عليه السّلام : « إنّ لله ملائكة ركعاً إلى يوم القيامة ، و إنّ لله ملائكة سجّداً إلى يوم القيامة » ٢ .

« و صافون » أقدامهم في القيام بين يديه تعالى .

« لا يتزايلون » عن مواضعهم .

« و مسبّحون » أي : منزّهون له تعالى .

« لا يسأمون » أي : لا يملّون من تسبيحه ، قال تعالى كما في التفسير حكاية عن جبرئيل عليه السّلام للنبيّ صلّى الله عليه وآله : و ما منّا إلّا له مقام معلوم . و إنّنا لنحن الصّافّون . و إنّنا لنحن المسبّحون ٣ ، و قبله و إن كان و جعلوا بينه و بين الجنّة نسبا . . . ٤ ، إلّا أنّ المراد بالجنّة هنا الملائكة ، حيث زعموا أنّهم بناته ،

تعالى عن ذلك ، و قال تعالى : فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبّحون له بالليل و النهار و هم لا يسأمون ٥ ، و قال : يسبّحون الليل و النهار لا يفترون ٦ .

« لا يغشاهم نوم العين » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (العيون) كما في

-
- (١) تفسير القمي ٢ : ٢٥٥ .
 (٢) تفسير القمي ٢ : ٢٠٦ ، و أخرج معناه ابن جرير و أبو نعيم في حلية الأولياء عنهما الدر المنثور ١ : ٤٦ .
 (٣) الصافات : ١٦٤ ١٦٥ .
 (٤) الصافات : ١٥٨ .
 (٥) فصلت : ٣٨ .
 (٦) الأنبياء : ٢٠ .

الصفحة ٥٤٨

(ابن أبي الحديد و الخطية) ١ ، و أمّا ما رواه (الإكمال) عن داود بن فرقد عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السّلام : ما من حيّ إلّا و هو ينام ما خلا الله وحده عزّ و جلّ ، و الملائكة ينامون .

فقلت : يقول الله تعالى : يسبّحون الليل و النهار لا يفترون ، فقال :

أنفاسهم تسبيح ٢ ، فالدال على نومهم مرسل ، و التعليل الذي فيه عليل ، فإنّه تعالى في مقام بيان إظهار عظّمته بخلقه من لا يفتن عن عبادته فرقا بينه و بين البشر ، و لو احتسب النفس تسبيحا لأمكن ذلك في البشر أيضا .

و أما ما في علل ابن هاشم : « سئل الصادق عليه السلام عن الملائكة : يأكلون و يشربون و ينكحون ؟ فقال : لا ، إنهم يعيشون بنسيم العرش . فقيل له : فما العلة في نومهم ؟ فقال : فرقا بينهم و بين الله تعالى ، لأنّ الذي لا تأخذه سنة و لا نوم هو الله تعالى » ٣ فمرسل أيضا ، و مخالف للآيات المتقدمة . إلا أنّ الراونديّ كأنه جمع بين الخبرين و بين قوله عليه السلام هنا ، فقال : قوله عليه السلام : « لا يغشاهم » يقتضي أنّ لهم نوما قليلا لا يغفلهم ، فأما الباري سبحانه و تعالى فإنه لا تأخذه سنة و لا نوم أصلا ٤ .

« و لا سهو العقول » هكذا في النسخ ٥ ، و لا يبعد أن يكون (العقول) مصحّف (الغفلات) لعدم مناسبة لإضافة السهو إلى العقول ، يشهد للاستظهار ما في دعاء الصحيفة في الملائكة : « و لا يقطعهم عن تعظيمك سهو

-
- (١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩ ، لكن في شرح ابن ميثم ١ : ١٣٢ « العين » أيضا .
 (٢) كمال الدين للصدوق : ٦٦٦ ، و يسمى هذا الكتاب (اكمال الدين) أيضا .
 (٣) أخرجه محمد بن علي بن إبراهيم في العلل عنه البحار ٥٩ : ١٩٣ ح ٥٤ . و هذا الكتاب من الكتب المفقودة .
 (٤) نقله عنه ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٣٠ .
 (٥) كذا في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٢٩ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣٢ ، و نهج البلاغة ١ : ١٩ .

الصفحة ٥٤٩

الغفلات » ١ ، اللهم إلا أن يقال : إنّ عقول البشر لما كانت ناقصة و يقع منها الخطأ نفي ذلك عن الملائكة ، لكنّ الانصاف أنّ العقل لا يسهو ، و إذا عجز عن فهم شيء لا يحكم ، لا أنّه يحكم خطأ ، كيف يحكم خطأ و هو الرسول الباطن ،

و لولاه لم يغن الرسول الظاهر ؟ قال الباقر عليه السلام : لما خلق الله العقل قال له : أقبل . فأقبل ، ثمّ قال له : أدبر .

فأدبر ، فقال : و عزّتي و جلالتي ما خلقت خلقا أحسن منك ، إيّاك أمر ، و إيّاك أنهى ،

و إيّاك أثيب ، و إيّاك أعاقب ٢ .

و بالجملّة للبشر سهو الغفلات ، قالوا : قال قتادة يوماً : ما نسيت شيئاً قطّ . ثمّ قال لغلّامه : ناولني نعلي . فقال له : نعلك في رجلك .

و في (ميزان الذهبى) قال الكلبي محمّد بن السائب : ما حفظت شيئاً نسيته ، و حضر (عقيب الكلام) الحجام فأوماً إلى لحيته ، و فقبض قبضة فأراد أن يقول : خذ من ها هنا . فقال : خذ من ها هنا . فأخذها من وراء القبضة ٣ .

« و لا فترة الأبدان » أي : انكسارها .

« و لا غفلة النسيان » فإنّ كلّ ذلك مختصّ بالبشر ، قال الصدوق في (اعتقاداته) : الملائكة روحانيون معصومون ، لا يعصون الله ما أمرهم ،

و يفعلون ما يؤمرون ، لا يأكلون و لا يشربون ، و لا يألمون و لا يسقمون ،

و لا يشيبون و لا يهرمون ، طعامهم و شرابهم التسييح و التقديس ، و عيشهم من نسيم العرش ، و تلذّذهم بأنواع العلوم . خلقهم الله بقدرته أنواراً

(١) الصحيفة السجادية : ٣٥ ، الدعاء ٣ .

(٢) أخرجه الكليني بطريقتين في الكافي ١ : ١٠ ، ح ١ ، و : ٢٦ ، ح ٢٦ ، و البرقي بخمس طرق في

المحاسن : ١٩٢ ، ح ٤٨ ، و الصدوق في أماليه : ٣٤٠ ، ح ٥ ، المجلس ٦٥ ، و صاحب مسند زيد بن

علي : ٤٠٩ ، و جمع آخر و روايات أخرى مرّ تخريجه في العنوان ٢٣ من الفصل الأول .

(٣) ميزان الاعتدال ٣ : ٥٥٦ .

الصفحة ٥٥٠

و أرواحا كما شاء و أراد ١ .

ثمّ إنّ عليه السّلام جعل الساجدين و الراكعين و الصّافين و المسبّحين طورا واحدا ، لأنّه يجمعهم العبادة المستغرقة لأوقاتهم ، و أمّا سلبه النوم و السّهو و الفترة و الغفلة عن هؤلاء ، مع أنّ الظاهر شمولها لجميع الأصناف ، فلعلّه لكون هؤلاء مظنة هذه الأمور بأن يقطع عبادتهم النوم أو الفترة أو السّامة ، أو يحصل لهم السّهو و الغفلة فيها ، و عنها .

و يمكن أن يكون حصل في الكلام تقديم و تأخير ، و أن قوله عليه السلام : « لا يغشاهم . . . و لا غفلة النسيان » كان بعد قوله : « أطوارا من ملائكته » .

« و منهم أمناء على وحيه » قال تعالى : نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ٢ .

قال الصدوق : اعتقادنا في كيفية نزول الوحي أن بين عيني إسرافيل لوحا ، إذا أراد الله أن يتكلم بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل ، فنظر فيه فيقرأ ما فيه ، فيلقيه إلى ميكائيل ، و يلقيه ميكائيل إلى جبرئيل ، فيلقيه جبرئيل إلى الأنبياء ٣ .

« و السنة إلى رسله » قال تعالى : و لقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى . . . ٤ ، و قال : قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل و لا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبيها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ٥ ، و قال : فنادته الملائكة و هو قائم

(١) الاعتقادات للصدوق : ٣٤ .

(٢) الشعراء : ١٩٣ ١٩٤ .

(٣) الاعتقادات للصدوق : ٣٠ .

(٤) هود : ٦٩ .

(٥) هود : ٨١ .

الصفحة ٥٥١

يصلّي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى . . . ١ .

« و مختلفون بقضائه و أمره » قال تعالى : . . . و لو أنزلنا ملكا لقضي الأمر . . . ٢ ، فالمقسّمات أمرا ٣ ، فأرسلنا عليهم ريحا و جنودا لم تروها . . . ٤ ، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا و تنقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ٥ .

« و منهم الحفظة لعباده » قال تعالى : و هو القاهر فوق عباده و يرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا و هم لا يفرطون ٦ .

و في الخبر : أن مع كل إنسان ملكين يحفظانه من أن يقع من سطح أو يتردى في بئر ، فإذا جاء أجله خَلِيَاه . ٧

و في (اعتقادات الصدوق) : أن كل صنف من الملائكة يحفظ نوعا مما خلق ٨ .

هذا إذا أريد بقوله عليه السلام : « الحفظة لعباده » الحفظة لأنفسهم ، و يمكن أن يراد به الأعمّ منها و من الحفظة لأعمالهم ، فقد قال تعالى : و إنَّ عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون ٩ .

-
- (١) آل عمران : ٣٩ .
 (٢) الأنعام : ٨ .
 (٣) الذاريات : ٤ .
 (٤) الأحزاب : ٩ .
 (٥) آل عمران : ١٢٤ ١٢٥ .
 (٦) الأنعام : ٦١ .
 (٧) التوحيد للصدوق : ٣٦٨ ح ٥ ، و تفسير العياشي ٢ : ٢٠٥ ح ١٦ ، و تفسير القمي ١ : ٣٦٠ و النقل بالمعنى .
 (٨) الاعتقادات للصدوق : ٣٥ .
 (٩) الانفطار : ١٠ ١٢ .

الصفحة ٥٥٢

و في خبر : سئل الصادق عليه السلام : ما علّة الملائكة الموكّلين بعباده يكتبون عليهم و لهم ، و الله عالم السرّ و ما هو أخفى ؟ قال عليه السلام : استعبدتهم بذلك ،

و جعلهم شهودا على خلقه ، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبة ، و عن معصيته أشدّ انقباضا ، و كم عبد يهّم بمعصيته ، فذكر مكانهم فارعوى و كفّ فيقول : ربّي يراني ، و حفظني عليّ بذلك تشهد . و إنّ الله برأفته و لطفه أيضا و كلّهم بعباده يذبّون عنهم مردة الشيطان و هوامّ الأرض و آفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله إلى أن يجيء أمر الله تعالى ١ .

« و السدنة » بفتح السين و الدال ، أي : الخزنة .

« لأبواب جنانه » و الظاهر سقوط كلمة (و نيرانه) بعد (جنانه) من الرواة ،

ليكون موافقا لقوله تعالى : و سيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاؤوها و فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ٢ ، و قوله تعالى : و سيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها و قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى و لكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ٣ .

« و منهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم » و في نسخة من (ابن أبي الحديد) : « في الأرض السفلى أقدامهم » ٤ ، و هو الأصح .

« و المارقة » أي : المتجاوزة .

« من السماء العليا أعناقهم ، و الخارجة من الأقطار » أي : أقطار

(١) الاحتجاج للطبرسي : ٣٤٨ .

(٢) الزمر : ٧٣ .

(٣) الزمر : ٧١ .

(٤) في نسختنا من شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٠ « الأرضين » أيضا .

الصفحة ٥٥٣

السموات و الأرض .

« أركانهم » أي : جوانبهم و جوارحهم ، روى الصدوق في (توحيده) عن زيد ابن وهب قال : سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن قدرة الله تعالى ، فقام خطيبا فحمد الله و أثنى عليه ، ثم قال : إن لله تعالى ملائكة لو أن ملكا منهم هبط إلى الأرض ما وسعته لعظم خلقه و كثرة أجنحته ، و منهم من لو كلفت الجن و الإنس أن يصفوه ما وصفوه لبعده ما بين مفاصله و حسن تركيب صورته ،

و كيف يوصف من ملائكته من سبعمئة عام ما بين منكبيه و شحمة أذنيه ،

و منهم من يسدّ الأفق بجناح من أجنحته دون عظم بدنه ، و منهم من السماوات إلى حجزته ، و منهم من قدمه على غير قرار ، في جوّ الهواء الأسفل ، و الأرضون إلى ركبتيه ، و منهم من لو القي في نقرة إبهامه جميع المياه لوسعتها ، و منهم من لو ألقيت السّن في دموع عينيه لجرت دهر الدّاهرين ١ .

و في (تفسير القمّي) عن الصادق عليه السّلام : إنّ لله ملكا بعد ما بين شحمة أذنيه إلى عينيه مسيرة خمسمائة عام خفقان الطير ٢ .

و قال عليه السّلام في خبر المعراج : قال النبي صلّى الله عليه و آله و سلّم : ثمّ صعدنا إلى السماء السابعة إلى أن قال و ملكا من ملائكة الله خلقه كما أراد ، رجلاه في تخوم الأرضين السابعة ، ثمّ أقبل مصعدا حتّى خرج في الهواء إلى السماء السابعة ،

و انتهى فيها مصعدا حتّى استقرّ قرنه إلى قرب العرش ، و هو يقول : سبحان ربي . . . و له جناحان في منكبيه إذا نشرهما جاوزا المشرق و المغرب ٣ .

« و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم » حتّى تحتل حملها ، في (اعتقادات

(١) التوحيد للصدوق : ٢٧٧ ح ٣ .

(٢) تفسير القمي ٢ : ٢٠٦ ، و الكافي للكليني ٨ : ٢٧٢ ، ح ٤٠٥ ، و التوحيد للصدوق : ٢٨١ ح ٨ .

(٣) تفسير القمي ٢ : ١٠ ، و التوحيد للصدوق : ٢٧٩ ح ٤ .

الصفحة ٥٥٤

(الصدوق) : حملة العرش ثمانية من الملائكة ، لكلّ واحد منهم ثمانية أعين ، كلّ عين طباق الدّنيا ، واحد منهم على صورة بني آدم يسترزق الله تعالى لولد آدم ،

و واحد منهم على صورة الثور يسترزق الله تعالى للبهائم كلّها ، و واحد منهم على صورة الأسد يسترزق الله تعالى للسباع ، و واحد منهم على صورة الدّيك يسترزق الله تعالى للطيور ، فهم اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة صاروا ثمانية ١ .

و لكن قال شيخنا المفيد : الأحاديث التي رويت في صفة الملائكة الحاملين للعرش أحاديث آحاد ، و روايات أفراد لا يجوز القطع بها ، و لا العمل عليها ، و الوجه الوقوف عندها ، و القطع على أنّ الأصل في العرش هو الملك ،

و العرش المحمول جزء من الملك تعبد الله ، بحمله الملائكة ٢ .

« ناكسة » أي : خافضة .

« دونه » تعالى .

« أبصارهم » في دعاء الصحيفة في الملائكة : « الخشع الأبصار ، فلا يرومون النظر إليك ، النواكس الأذقان الذين قد طالت رغبتهم في ما لديك » ٣ .

و قال ابن أبي الحديد : الضمير في (دونه) راجع إلى العرش ٤ .

قلت : قال ذلك لعدم إمكان النظر من أحد حتى الملائكة إليه تعالى ، لكن الظاهر رجوع الضمير إليه تعالى ، و كون الكلام استعارة ، مثل قوله تعالى :

وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ٥ .

(١) الاعتقادات للصدوق : ١١ ، و مرّ تخريج أحاديثه في العنوان ٢٩ من الفصل الأول .

(٢) تصحيح الاعتقاد للمفيد : ٣١ .

(٣) الصحيفة السجادية : ٣٥ ، الدعاء ٣ .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٠ .

(٥) القيامة : ٢٢ ٢٣ .

الصفحة ٥٥٥

« متلفعون » أي : مشتملون ، قال الشاعر :

لم تتلفع بفضل مؤثرها

١ « تحته بأجنحتهم » فلا يفارقون مراكزهم .

« مضروبة بينهم و بين من دونهم حجب العزّة و أستار القدرة » هكذا في النسخ ٢ ، و لا يبعد أن يكون وقع في الكلام تحريف ، و أنّ الأصل « مضروبة بينه و بينهم حجب العزّة و أستار القدرة » كما لا يخفى .

و عن الصادق عليه السّلام : الشمس جزء من سبعين جزءا من نور الكرسي ،

و الكرسيّ جزء من سبعين جزءا من نور العرش ، و العرش جزء من سبعين جزءا من نور الحجاب ، و الحجاب جزء من سبعين جزءا من نور السّتر . . . ٣ و روى القمي عن النبيّ صلّى الله عليه و آله قال : قال جبرئيل : إنّ بين الله و بين خلقه سبعين ألف حجاب ، و أقرب الخلق إلى الله أنا و إسرافيل و بيننا و بينه أربعة حجب . و في الخبر العامي عن جبرئيل ، قال : لله دون العرش سبعون حجابا ، لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجهه ٤ .

« لا يتوهّمون ربّهم بالتّصوير ، و لا يجرون عليه صفات المصنوعين ، و لا يحدّونه بالأماكن ، و لا يشيرون إليه بالنظائر » لكمال معرفتهم به تعالى ،

و انكشاف الحقائق عليهم ، لا ككثير من البشر الخابطين .

في (ملل الشهرستاني) : و أمّا المشبّهة الحشوية ، فذكر الأشعري عن محمّد بن عيسى أنّه حكى عن نصر ، و كهمش و أحمد الهجيمي أنّهم أجازوا على ربّهم الملامسة و المصافحة ، و أنّ المخلصين من المسلمين يعاينونه في

(١) لسان العرب ٨ : ٣٢١ مادة (لفع) و البيت لجريز ، و ذيله : دعد و لم تغذ دعد بالعلب .

(٢) كذا في نهج البلاغة ١ : ٢٠ ، و شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٠ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٣٢ .

(٣) التوحيد للصدوق : ١٠٨ ، ح ٣ .

(٤) تفسير القمي ٢ : ١٠ ضمن حديث طويل ، و في بعض نسخه : « تسعون ألف حجاب » .

الصفحة ٥٥٦

الدنيا و الآخرة إذا بلغوا من الرياضة و الاجتهاد إلى حدّ الاخلاص و الاتحاد المحض . حكى الكعبي عن بعضهم يزورونه و يزورهم ، و حكى عن داود الخوارزمي قال : اعفوني عن الفرج و اللحية و اسألوني عمّا وراء ذلك . و قال : إنّ معبودهم جسم و لحم و دم ، و له جوارح و أعضاء من يد و رجل و رأس و

لسان و عينين و أذنين . قال : و حكى أنه قال : هو أجوف من أعلاه إلى صدره ، مصمت ما سوى ذلك ، و أن له و فرة سوداء ، و له شعر ققط . . . و زادوا في الأخبار أكاذيب نسبوها إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم ، و أكثرها مقتبسة من اليهود ، فإن التشبيه فيهم طباع ، حتى قالوا : اشتكت عيناه فعادته الملائكة ، و بكى على طوفان نوح حتى رمدت عيناه ، و أن العرش ليئط من تحته كأطيط الرّحل الجديد ، و أنه ليفضل من كل جانب أربعة أصابع . و روى المشبهة أن النبي صلى الله عليه و آله قال : لقيني ربّي فصافحني و كافحني ، و وضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله ١ .

إلى آخر ما نقل عنهم من الترهات . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

٢

من الخطبة (٨٩) منها في صفة الملائكة :

ثُمَّ خَلَقَ سُبْحَانَهُ لِإِسْكَانِ سَمَاوَاتِهِ وَ عِمَارَةِ الصَّفِيحِ الْأَعْلَى مِنْ مَلَكُوتِهِ خَلْقًا بَدِيعًا مِنْ مَلَائِكَتِهِ وَ مَلَأَ بِهِمْ فُرُوجَ فِجَاجِهَا وَ حَشَا بِهِمْ فُتُوقَ أَجْوَانِهَا وَ بَيْنَ فُجُواتِ تِلْكَ الْفُرُوجِ زَجَلَ الْمُسَبِّحِينَ مِنْهُمْ فِي حِطَائِرِ الْقُدْسِ وَ سُتْرَاتِ الْحُجُبِ وَ سُرَادِقَاتِ الْمَجْدِ وَ وَرَاءَ ذَلِكَ الرَّجِيحِ الَّذِي تَسْتَكُّ مِنْهُ الْأَسْمَاعُ سُبْحَاتُ نُورٍ تَرْدَعُ الْأَبْصَارَ عَنْ بُلُوغِهَا فَتَقِفُ خَاسِئَةً عَلَى حُدُودِهَا .

(١) الملل و النحل ١ : ٩٦ .

الصفحة ٥٥٧

أَنْشَأَهُمْ عَلَى صُورٍ مُخْتَلِفَاتٍ وَ أَقْدَارٍ مُتَفَاوِتَاتٍ أُولِي أُنْجِحَةِ ١٠ ١١ ٣٥ : ١ تَسْبِيحُ جَلَالِ عِزَّتِهِ لَا يَنْتَحِلُونَ مَا ظَهَرَ فِي الْخَلْقِ مِنْ صُنْعَتِهِ وَ لَا يَدْعُونَ أَنَّهُمْ يَخْلُقُونَ شَيْئًا مَعَهُ مِمَّا أَنْفَرَدَ بِهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ١٦ ٢١ : ٢٦ ٢٧ ١ جَعَلَهُمُ اللَّهُ فِيمَا هُنَالِكَ أَهْلَ الْأَمَانَةِ عَلَى وَحْيِهِ وَ حَمَلَهُمْ إِلَى الْمُرْسَلِينَ وَ دَائِعَ أَمْرِهِ وَ نَهْيِهِ وَ عَصَمَهُمْ مِنْ رِيْبِ الشُّبُهَاتِ فَمَا مِنْهُمْ زَائِعٌ عَنْ سَبِيلِ مَرْضَاتِهِ وَ أَمَدَّهُمْ بِفَوَائِدِ الْمَعُونَةِ وَ أَشْعَرَ قُلُوبَهُمْ تَوَاضِعَ إِخْبَاتِ السَّكِينَةِ وَ فَتَحَ لَهُمْ أَبْوَابًا ذُلًّا إِلَى تَمَاجِيدِهِ وَ نَصَبَ لَهُمْ مَنَارًا وَاضِحَةً عَلَى أَعْلَامِ تَوْحِيدِهِ لَمْ تَنْقُلُهُمْ مُؤَصِّرَاتُ الْأَثَامِ وَ لَمْ تَرْتَحِلُهُمْ عَقَبُ اللَّيَالِي وَ الْأَيَّامِ وَ لَمْ تَرَمِ الشُّكُوكُ بِنَوَازِعِهَا عَزِيمَةَ إِيْمَانِهِمْ وَ لَمْ تَعْتَرِكِ الظُّنُونُ عَلَى مَعَاقِدِ يَقِينِهِمْ وَ لَا قَدَحَتْ قَادِحَةُ الْإِحْنِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَ لَا سَلَبَتْهُمُ الْحَيْرَةُ مَا لَاقَ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بَضَائِرِهِمْ وَ مَا سَكَنَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَ هَيْبَةِ جَلَالَتِهِ فِي أَتْنَاءِ صُدُورِهِمْ وَ لَمْ تَطْمَعْ فِيهِمُ الْوَسَاوِسُ فَتَقْتَرِعَ بَرِيْبِهَا عَلَى فِكْرِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي خَلْقِ الْغَمَامِ الدَّلْحِ وَ فِي عِظَمِ الْجِبَالِ الشَّمَخِ

وَ فِي قَتْرَةِ الظَّلَامِ اللَّيْثِمْ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَرَقَتْ أَقْدَامُهُمْ تَحُومَ الأَرْضِ السُّفْلَى فَهِيَ كَرَائِيَاتٍ بِيضٍ قَدْ نَفَذَتْ فِي مَخَارِقِ الهَوَاءِ وَ تَحَنَّتْهَا رِيحٌ هَفَافَةٌ تَحْبِسُهَا عَلَى حَيْثُ انْتَهَتْ مِنَ الحُدُودِ المُتَنَاهِيَةِ قَدْ اسْتَفْرَعَتْهُمْ أَشْغَالُ عِبَادَتِهِ وَ وَصَلَتْ حَقَائِقُ الأِيمَانِ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مَعْرِفَتِهِ وَ قَطَعَهُمُ الأَيْقَانُ بِهِ إِلَى الوَلَةِ إِلَيْهِ وَ لَمْ تُجَاوِزْ رَغْبَاتُهُمْ مَا عِنْدَهُ إِلَى مَا عِنْدَ غَيْرِهِ قَدْ ذَاقُوا حَلَاوَةَ مَعْرِفَتِهِ وَ شَرِبُوا بِالأَكْاسِ الرَّوِيَّةِ مِنْ مَحَبَّتِهِ وَ تَمَكَّنَتْ مِنْ سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ وَ شَيْجَةِ

(١) الأنبياء : ٢٦ ٢٧ .

الصفحة ٥٥٨

خَيْفَتِهِ فَحَنُوا بِطُولِ الطَّاعَةِ اعْتِدَالَ ظُهُورِهِمْ وَ لَمْ يُنْفِذْ طُولُ الرَّغْبَةِ إِلَيْهِ مَادَّةَ تَضَرُّعِهِمْ وَ لَا أَطْلَقَ عَنْهُمْ عَظِيمُ الزُّلْفَةِ رِبْقَ خُشُوعِهِمْ وَ لَمْ يَتَوَلَّهُمُ الأِعْجَابُ فَيَسْتَكْثِرُوا مَا سَلَفَ مِنْهُمْ وَ لَا تَرَكَتْ لَهُمْ اسْتِكَانَةَ الأَجْلالِ نَصِيباً فِي تَعْظِيمِ حَسَنَاتِهِمْ وَ لَمْ تَجِرِ الفَنَرَاتُ فِيهِمْ عَلَى طُولِ دُعُوبِهِمْ وَ لَمْ تَغِضْ رَغْبَاتُهُمْ فَيُخَالِفُوا عَنْ رَجَاءِ رَبِّهِمْ وَ لَمْ تَحْفَ لِطُولِ المُنَاجَاةِ أَسْلَاتُ أُنْسِنَتِهِمْ وَ لَا مَلَكَتُهُمُ الأَشْغَالُ فَتَقَطَّعَ بِهِمْسِ الجُورِ إِلَيْهِ أَصْوَاتُهُمْ وَ لَمْ تَخْتَلَفْ فِي مَقَاوِمِ الطَّاعَةِ مَنَاقِبُهُمْ وَ لَمْ يَثْنُوا إِلَى رَاحَةِ التَّقْصِيرِ فِي أَمْرِهِ رِقَابُهُمْ . وَ لَا تَعْدُو عَلَى عَزِيمَةِ جِدِّهِمْ بِلَادَةَ الغَفَلَاتِ وَ لَا تَتَنَصَّلُ فِي هَمَمِهِمْ خَدَائِعُ الشَّهَوَاتِ قَدْ اتَّخَذُوا ذَا العَرْشِ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ فَاقَتِهِمْ وَ يَمَمُوهُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الخَلْقِ إِلَى المَخْلُوقِينَ بِرَغْبَتِهِمْ لَا يَقْطَعُونَ أمدَ غَايَةِ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَرْجِعُ بِهِمُ الأِسْتِهْتَارُ بِلزُومِ طَاعَتِهِ إِلاَّ إِلَى مَوَادِّ مِنْ قُلُوبِهِمْ غَيْرِ مُنْقَطِعَةٍ مِنْ رَجَائِهِ وَ مَخَافَتِهِ لَمْ تَقَطَّعْ أَسْبَابُ الشَّفَقَةِ مِنْهُمْ فَيَنُوتُوا فِي جِدِّهِمْ وَ لَمْ تَأْسِرْهُمْ الأَطْمَاعُ فَيُؤَثِّرُوا وَ شِيكَ السَّعْيِ عَلَى اجْتِهَادِهِمْ وَ لَمْ يَسْتَعْظَمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَ لَوْ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتِ وَ جَلَّهُمْ وَ لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي رَبِّهِمْ بِاسْتِحْوَاذِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِمْ وَ لَمْ يُفَرِّقْهُمْ سُوءُ التَّقَاطُعِ وَ لَا تَوَلَّاهُمْ غِلُّ التَّحَاسُدِ وَ لَا شَعْبَتُهُمْ مَصَارِفُ الرِّيْبِ وَ لَا اقْتَسَمَتُهُمْ أَخْيَافُ الهَمِّ فَهَمُّ أُسْرَاءِ إِيْمَانٍ لَمْ يَفْكَهُمْ مِنْ رَبِّقَتِهِ زَيْغٌ وَ لَا عُدُولٌ وَ لَا وَنَى وَ لَا فَتُورٌ وَ لَيْسَ فِي أَطْبَاقِ السَّمَاءِ مَوْضِعٌ إِهَابٍ إِلاَّ وَ عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ سَاعٍ حَافِذٌ يَزِدُّونَ عَلَى طُولِ الطَّاعَةِ بِرَبِّهِمْ عِلْمًا وَ تَزِدُّونَ عِزَّةً رَبِّهِمْ فِي قُلُوبِهِمْ عِظَمًا

أقول : رواه أئمة غريب اللغة كما يظهر من نقل بعض فقراته

الصفحة ٥٥٩

في (النهاية) ١ .

« تَمَّ خَلْقُ » اللّهِ .

« سبحانه لإسكان سماواته » كإسكان أرضه .

« و عمارة » مصدر عمرت الخراب .

« الصفيح » أي : الجانب .

« الأعلى » أي : السماء ، و قال الجزريّ : الصفيح من أسماء السماء ، و منه حديث عليّ عليه السّلام «
و عمارة الصّفيح الأعلى من ملكوته » ٢ .

« من ملكوته » في (الصحاح) : الملكوت من الملك كالرهبوت من الرّهبة ،

يقال له : ملكوت العراق ، و ملكوة العراق أيضا مثال الترقوة ، و هو الملك و العزّ ٣ .

« خلقا بديعا من ملائكته ملأ بهم فروج » أي : شقوق .

« فجاجها » أي : طرقها الواسعة .

« و حشا بهم » أي : جعلهم في حشو .

« فتوق » أي : شقوق .

« أجوائها » أي : متّسعا ، في خبر ابن أبي العوجاء مع الصادق عليه السّلام أنه عليه السّلام قال له في
مقام إقناعه : لو كان الأمر كما تقولون لم يضرّ بالمتديّنين ،

و إن كان كما يقولون فأنتم هالكون . فقال له ابن أبي العوجاء : ما قلتي و قولهم إلاّ واحدا . فقال عليه
السّلام له : كيف يكون كذلك و هم يقولون : إنّ لهم معادا و ثوابا و عقابا ، و يدينون بأنّ في السماء إلهها و
أنّها عمران ، و أنتم تزعمون أنّ السماء خراب ليس فيها أحد ٤ ؟

(١) النهاية لابن الأثير ٣ : ٣٥ مادة (صفح) .

(٢) النهاية لابن الأثير ٣ : ٣٥ مادة (صفح) .

(٣) صحاح اللغة ٤ : ١٦١٠ مادة (ملك) .

(٤) الكافي للكليني ١ : ٧٤ ح ٢ ، و التوحيد للصدوق : ١٢٥ ح ٤ ضمن حديث طويل و النقل بالمعنى .

الصفحة ٥٦٠

« و بين فجوات » أي : ساحات .

« تلك الفروج » أي : الشقوق المتقدمة في قوله عليه السلام : « فروج فجاجها » .

« زجل » بفتحتين ، أي : صوت .

« المسبّحين منهم في حظائر القدس » و الأصل في الحظر المنع ، و سمّيت السماوات التي هي محالّ الملائكة حظائر القدس ، لأنّ الشياطين و هم أهل الرجس ممنوعون منها .

« و سترات الحجب و سرادقات المجد » يمكن أن يكون (السترات) و (السرادقات) استعارة كما في قول رؤبة :

يا حكم بن المنذر بن الجارود

سرادق المجد عليك ممدود

١ و يمكن أن تكونا حقيقة ، ففي خبر زيد بن وهب عنه عليه السلام : الحجب سبعة ،

غاط كلّ حجاب مسيرة خمسمائة عام . . . ثمّ سرادقات الجلال ، و هي سبعون سرادقا ، في كلّ سرادق سبعون ألف ملك ، بين كلّ سرادق و سرادق مسيرة خمسمائة عام ٢ .

« و وراء ذلك الرّجيج » الأصل في الرّجيج الحركة الشديدة ، كقوله تعالى :

إذا رجّت الأرض رجّاً ٣ . و لازم الحركة الشديدة تولد صوت ، كقوله عليه السلام في ذي النديّة : « و أمّا شيطان الرّدهة فقد كفيته بصعقة سمعت لها وجبة قلبه و رجّة صدره » ٤ . ثمّ الإشارة إلى الرّجيج في قوله : « ذلك الرّجيج » مع عدم لفظه إنّما هو لتقدمه بمعناه في قوله : « زجل المسبّحين منهم » .

« الذي تستكّ منه الأسماع » أي : تذهب منه السامعة ، قال عبيد بن الأبرص :

(١) لسان العرب ١٠ : ١٥٨ مادة (سردق) .

(٢) التوحيد ٢٧٧ ح ٣ ، و الخصال للصدوق : ٤٠٠ ح ١٠٩ ، باب السبعة .

(٣) الواقعة : ٤ .

(٤) رواه الشريف الرضي ضمن الخطبة القاصعة في نهج البلاغة ٢ : ١٥٦ ، الخطبة ١٩٠ .

الصفحة ٥٦١

دعا معاشر فاستكّت مسامعهم ١ و الأصل في السكّ اصطلام الأذن و قطعها ، و في الخبر مرّ صلّى الله عليه و آله بجدي أسكّ ٢ .

« سبحات نور » أي : تجلياته و لمعاته .

« تردع » أي : تكفّ .

« الأبصار عن بلوغها » و المراد استكّاء أسمع البشر ، و ردع أبصارهم لو فرض بلوغهم إلى ذلك المحلّ ، و يمكن أن يقرأ (الرّجيج) بالرفع مبتدأ لقوله :

(وراء) ، و يكون (سبحات) مصحّف (و سبحات) عطا على (الرّجيج) ، و حينئذ فالمراد : استكّاء أسمع الملائكة و ردع أبصارهم ، و يشهد له ما في (النهاية) أنّ في الخبر : قال جبرئيل : لله دون العرش سبعون حجابا لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربّنا ٣ .

« فتقف » أي : الأبصار .

« خاسئة » أي : كليلة .

« على حدودها » و لا تتجاوز .

« أنشأهم على صور مختلفات ، و أقدار متفاوتات » مرّ في سابقه ٤ قوله عليه السّلام :

« و منهم الثابتة في الأرضين السّقى أقدامهم ، و المارقة من السماء العليا أعناقهم ، و الخارجة من الأقطار أركانهم ، و المناسبة لقوائم العرش أكتافهم .

و مرّت ثمة أخبار في ذلك .

(١) لسان العرب ١٠ : ٤٤٠ مادة (سكك) . و ذيله : يالهف نفسيّ لو يدعو بني أسد .

- (٢) صحيح مسلم ٤ : ٢٢٧٢ ح ٢ ، و مسند أحمد ٣ : ٣٦٥ ، و الكافي للكليني ٢ : ١٢٩ ح ٩ ، و الزهد الأهوازي : ٤٩ عن جابر .
- (٣) رواه الكيذري في شرحه ٢ : ٥٢٦ ، و أبو الشيخ و ابن مردويه عنهما الدر المنثور ١ : ٩٣ .
- (٤) مرّ في هذا الفصل العنوان ١ .

الصفحة ٥٦٢

« أولي أجنحة » قال تعالى : . . . جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ١ .

« تسبّح جلال عزّته » قال تعالى : فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبّحون له بالليل و النهار و هم لا يسأمون ٢ . و إسناد التسبيح إلى جلال عزّته للمبالغة ، كقوله تعالى : . . . أكرمي مثواه ٣ . . . و أمّا (تسبّح) بلفظ الأفراد فالظاهر كونه صفة (أجنحة) فإن لم يكن (تسبّح) مصحّف (يسبّحون) يدلّ الكلام على تسبيح أجنحة الملائكة له تعالى أيضا ، و ورد تسبيح أجنحتهم ، و باقي أعضائهم له تعالى .

ففي خبر عن جميل عن الصادق عليه السلام : إن في السموات السبع لبحارا عمق أحدها مسيرة خمسمائة عام ، فيها ملائكة قيام منذ خلقهم الله تعالى ،

و الماء إلى ركبهم ، ليس فيهم ملك إلا و له ألف و أربعمئة جناح ، في كل جناح أربعة وجوه ، في كل وجه أربعة ألسن ، ليس فيها جناح و لا وجه و لا لسان و لا فم إلا و هو يسبّح الله تعالى بتسبيح لا يشبه نوع منه صاحبه ٤ .

و في خبر عن ابن عباس عن النبي صلّى الله عليه و آله : إن لله تعالى ملائكة ليس شيء من أطباق أجسادهم إلا و هو يسبّح الله تعالى و يحمده من ناحية بأصوات مختلفة ٥ .

« لا ينتحلون » أي : لا يدعون لأنفسهم .

« ما ظهر في الخلق من صنعته » هكذا في (المصرية) و الصواب : (من)

(١) فاطر : ١ .

(٢) فصلت : ٣٨ .

(٣) يوسف : ٢١ .

(٤) التوحيد للصدوق : ٢٨١ ح ٩ .

(٥) التوحيد للصدوق : ٢٨٠ ح ٦ .

الصفحة ٥٦٣

صنعه) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ١ ، و يوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . ٢ .

« و لا يدعون أنهم يخلقون شيئا مما انفرد به » هكذا في (المصرية) ،

و الصواب : (شيئا معه مما انفرد به) كما في الثلاثة ٣ ، قال تعالى حكاية عنهم :

و ما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا و ما خلفنا و ما بين ذلك و ما كان ربك نسياً ٤ .

« بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون » اقتباس من الآية في سورة الأنبياء و قبلها و قالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه . . . ٥ ،

و بعدها يعلم ما بين أيديهم و ما خلفهم و لا يشفعون إلا لمن ارتضى و هم من خشيته مشفقون ٦ .

« جعلهم في ما هنالك أهل الأمانة على وحيه » فلا يمكن خيانتهم فيه نزل به الروح الأمين ٧ .

« و حملهم » بلفظ المصدر عطفاً على (وحيه) .

« إلى المرسلين ودائع أمره و نهيه » لا كما يقول الغلاة من أن الله تعالى أرسل جبرئيل إلى علي عليه السلام فذهب إلى محمد صلى الله عليه و آله .

(١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٨ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥١ « صنعته » أيضا .

(٢) سبأ : ٤٠ ٤١ .

(٣) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٨ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥١ « شيئا مما » أيضا .

(٤) مريم : ٦٤ .

(٥) الأنبياء : ٢٦ .

(٦) الأنبياء : ٢٨ .

(٧) الشعراء : ١٩٣ .

الصفحة ٥٦٤

« و عصمهم » أي : حفظهم .

« من ريب » أي : شك .

« الشبهات » أي : ريب يعرض من الشبهات ، قال شيخنا المفيد : إنّ الملائكة معصومون مما يوجب لهم العقاب بالنار ، و على هذا القول جمهور الإمامية ،

و سائر المعتزلة ، و أكثر المرجئة ، و جماعة من أصحاب الحديث ، و قد أنكر قوم من الإمامية أن يكون الملائكة مكافئين ، و زعموا أنهم إلى الأعمال مضطرون ،

و وافقهم على ذلك جماعة من أصحاب الحديث ١ .

قلت : فيكون حال الملائكة عند أولئك حال الشمس و القمر و النجوم في طلوعها و غروبها حيث سخرت على ذلك ، و يردّهم قوله تعالى : . . . لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ٢ ، و قوله تعالى : يخافون ربّهم من فوقهم و يفعلون ما يؤمرون ٣ ، و قوله تعالى : . . . بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون ٤ الآية المذكورة في كلامه عليه السلام ،

و يردّهم قوله عليه السلام في العنوان : « لا ينتحلون ما ظهر في الخلق من صنعه . . . » .

فتقترع برينها على فكرهم « ، و قوله عليه السلام : « قد استقرغتهم . . . في قلوبهم عظاما » .

و أيّ شيء يقولون في قوله تعالى : و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها . . . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات و الأرض و أعلم ما تبدون و ما كنتم تكتمون ٥ ، و أيّ شيء يقولون في قوله تعالى : و إذ قلنا للملائكة اسجدوا

(١) أوائل المقالات للمفيد : ٨٢ .

(٢) التحريم : ٦ .

(٣) النحل : ٥٠ .

(٤) الأنبياء : ٢٦ ٢٧ .

(٥) البقرة : ٣٠ ٣٣ .

الصفحة ٥٦٥

لآدم فسجدوا إلا إبليس . . . ١ .

« فما منهم زائغ » أي : مائل .

« عن سبيل مرضاته » تعالى .

« و أمدهم بفوائد المعونة » هكذا في النسخ ٢ ، و الصواب : (بعوائد المعونة) ، أي : أمدهم بالإعانة بدءا و عودا ، و أمّا (فوائد) بالفاء فلا معنى له هنا .

قال الخوئي : قال الفيوميّ : معونة مفعلة ، و جعله بعضهم فعولة من الماعون ٣ .

قلت : إنّ ما قاله خلط ، فلا خلاف في أنّ (المعونة) من (العون) ، و إنّما الخلاف في (الماعون) ، هل هو من المعن أو العون .

« و أشعر قلوبهم » أي : جعل كالشعار لها .

« تواضع إخبارات » مصدر أخبت ، أي : خضع .

« السكينة » أي : السكون و الطمأنينة و الوقار ، قال تعالى : و يسبّح الرعد بحمده و الملائكة من خيفته . . . ٤ .

و في حديث المعراج : إنّ الملك منهم إلى جنب صاحبه ما كلمه قطّ ، و لا رفعوا رؤوسهم إلى ما فوقها ، و لا خفضوها إلى ما تحتها خوفا من الله و خشوعا ٥ .

« و فتح لهم أبوابا ذللا » أي : بلا صعوبة .

« إلى تماجيده » أي : تسايحه جمع التمجيد ، قال تعالى : يسبحون الليل

- (١) البقرة : ٣٤ .
 (٢) كذا في نهج البلاغة ١ : ١٦٩ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٨ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥١ .
 (٣) قاله الخوئي في شرحه ٣ : ١٠٤ ، و الفيومي في المصباح المنير ٢ : ١٠٤ مادة (عون) . و النقل بالمعنى .
 (٤) الرعد : ١٣ .
 (٥) تفسير القمي ٢ : ٧ .

الصفحة ٥٦٦

- و النهار لا يفترون ١ .
 « و نصب لهم منارا واضحة » مرّ في خطبة الكتاب ٢ كون (منار) جمعا ،
 و لذا وصف بالواضحة .
 « على أعلام » متعلّق بقوله : و نصب ، و الأعلام الجبال ، و هو أحسن استعارة ، كما في قول الخنساء في أخيها صخر :
 و إنّ صخرًا لتأتمّ الهداة به
 كأنّه علم في رأسه نار
 ٣ « توحيد » فلا يمكن أن يتطرّق إليهم شكّ .
 « لم تتقلّم » بالتشديد : أي : لم تجعلهم ثقلًا الحمل .
 « موصلات » أي : مضيقات .
 « الآثام » ككثير من الناس ، قال تعالى : و ليحملنّ أثقالهم و أنقلنا مع أثقالهم و ليسألنّ يوم القيامة عمّا كانوا يفترون ٤ .
 « و لم ترتحلهم » هكذا في النسخ ٥ ، و الظاهر كونه تصحيف (و لم ترتحلهم) .

« عقب » أي : تعاقب .

« الليالي و الأيام » الحاصلتين من طلوع الشمس و غروبها ، أي : لم يحملهم تعاقب الليالي و الأيام على الرحلة كالنَّاس ، قال الشاعر :

أفناه قيل لله للشمس ارجعي
حتى إذا و اراك أفق فارجعي

و ليس المعنى أن تعاقبهما لم يجعلهم راحلة له ، كما في خبر : إن ابني

(١) الأنبياء : ٢٠ .

(٢) مرّ في شرح خطبة الرضي رحمه الله .

(٣) المطول : ٢٩٣ ، باب الايجاز .

(٤) العنكبوت : ١٣ .

(٥) كذا في نهج البلاغة ١ : ١٦٩ ، و شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٨ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥٢ .

الصفحة ٥٦٧

ارتحلني ١ . . . فلا معنى له هنا .

« و لم ترم » من الرمي .

« الشكوك بنوازعها » من : نزع في القوس ، أي : مدّها ، و نسخة (بنوازعها) من (نزع الشيطان) ، كما حكاها الخوئي ٢ بلا مناسبة مع (لم ترم) من الرمي .

نعم ، إن قرئ (و لم ترم) بكسر الراء من (رام) أي : قصد يكون له ربط ، لكنّه خلاف الظاهر حيث إنّ بعده (و لم تعترك) .

« عزيمة أيمانهم » أي : أيمانهم الثابت الذي لا يتزائل ، بمعنى : أنّ الشكوك و إن كانت ذات روام نوازع لم تستطع أن تجعل ايمانهم هدفا لها .

« و لم تعترك » أي : و لم تقاقل ، و الأصل في العرك ذلك ، و في القتال يدلك كل من القرنين الآخر .

« الظنون على معاهد يقينهم » فتسلط على حلّه من قلوبهم ، و المراد أنّ الملائكة لم يحصل لهم ظنون مخالفة ليقيناتهم في المعارف الالهية كما قد يتفق للبشر ، و ذكر الظنون بعد الشكوك كالاعتراك بعد الرمي في غاية الحسن .

« و لا قدحت قاذحة » و القاذحة : الدودة التي تقع في الأشجار و الأسنان ،

قال جميل :

(١) الأصل أنّه صلى الله عليه و آله سجد فركبه الحسن عليه السّلام فأبطأ في سجوده ، فلما فرغ سئل عنه فقال : « إنّ ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله » أخرجه النسائي في سننه ٢ : ٢٢٩ ، و أحمد في مسنده ٣ : ٤٩٣ ، و ٦ : ٤٦٧ ، و ابن عساكر بثلاث طرق في ترجمة الحسن عليه السّلام : ٩١ ح ١٥٤ ١٥٦ ، و بطريقين في ترجمة الحسين عليه السّلام : ١٠٥ ح ١٤٢ و ١٤٣ ، و أبو يعلى في مسنده عنه المطالب العالية ٤ : ٧٢ ح ٣٩٩٨ ، و الطبري في منتخب الذيل : ٦٣ ، و البغوي و الطبراني و سعيد بن منصور عنهم منتخب كنز العمال ٥ : ١٠٢ .

(٢) شرح الخوئي ٣ : ١٠٤ .

الصفحة ٥٦٨

رمى الله في عيني بثينة بالقذى
و في الغرّ من أنيابها بالقوادح

١ « الإحن » جمع الإحنة ، أي : الحقد و الضغن . قال الشاعر :

إذا كان في صدر ابن عمك إحنة
فلا تستثرها سوف يبدو دفينها

٢ « في ما بينهم » ككثير من الناس .

« و لا سلبتهم الحيرة » أي : التحير و عدم الاهتداء .

« ما لاق » أي : لصق ، يقال : ما لاقّت المرأة بقلب زوجها ، أي : ما لصقت .

« من معرفته » أي : المعرفة له تعالى .

« بضمايرهم » متعلق بقوله : لاق .

« و ما سكن » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و سكن) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطبة) ٣ عطا على لاق .

« من عظمته و هيبة جلالته في أثناء » جمع ثني .

« صدورهم » لا كـبعض الناس الذين يسلب عنهم أيمانهم ، كما حكى تعالى عن بعضهم : و اتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ٤ .

« و لم تطمع فيهم الوسوس فتفترع » قال ابن أبي الحديد : تفترع من الاقتراع بالسهم بأن يتناوب كل من الوسوس عليها ، و يروى (فتفترع) بالفاء أي :

تعلو ٥ .

قلت : معنى الافتعال من (قرع) بالقاف الاختيار ، و ايقاد النار و ضرب

(١) لسان العرب ٢ : ٥٥٥ مادة (قدح) .

(٢) لسان العرب ١٣ : ٩ مادة (إحن) ، و الشاعر : الاقيل القيني .

(٣) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٩ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥٢ « و ما سكن » أيضا .

(٤) الأعراف : ١٧٥ .

(٥) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥١ .

الصفحة ٥٦٩

القرعة ، و من (فرع) بالفاء الافتضاض من (افترع البكر) و لم يتعدّ أحدهما بعلى ،

و الظاهر كون الكلمة تحريف (ففرغ) من قوله تعالى : . . . ربنا أفرغ علينا صبرا . . . ١ .

« بريها » من (الريبة) ، و قرئ (برينها) ٢ من . . . ران على قلوبهم . . . ٣ ،

و الأول أقرب إلى الوسوس .

« على فكرهم » فيكون المعنى : لو كانت الوسوس تطمع فيهم ، يمكن أن تفرغ ارتياباتها على فكرهم كالبشر ، لكنهم ليسوا كذلك .

« منهم » الظاهر وقوع تقديم و تأخير ، و أنّ قوله هذا إلى « من الحدود المتناهية » كان بعد قوله المتقدم : « و أقدار متفاوتات » ، و قوله : « قد استفرغتهم » بعد « المتناهية » إلى آخر العنوان كان بعد قوله : « على فكرهم » ليكون كلامه عليه السلام في وصف خلقتهم في موضع ، و في وصف عبادتهم و طاعتهم في موضع ، و لا يكون الكلام مختلاً مختلطاً .

« من هو في خلق الغمام » أي : السحاب ، أي : خلقه كخلق الغمام .

« الدّٰلح » جمع الدّٰلح أي : الماشي بحمل ثقيل ، يقال : دلح الرجل و دلح البعير إذا مشيا بحملهما غير منبسطي الخطو لثقله عليهما . ثم وصف (الغمام) و هو مفرد (بالدّٰلح) و هو جمع من باب قولهم : بلد أخصاب و بلد سباسب و رمح اقصاد و برمة أعشار و ثوب أسمال و ثوب أخلاق من وصف المفرد بالجمع لإرادة الأجزاء منه .

هذا ، و قلنا إنّ قوله عليه السلام : « في خلق الغمام الدّٰلح » معناه أنّ خلخته كخلخته ،

(١) الأعراف : ١٢٦ .

(٢) هذه رواية ابن أبي الحديد في شرحه ٢ : ١٤٩ ، و ابن ميثم في شرحه ٢ : ٣٥٢ ، و نهج البلاغة ١ : ١٧٠ ، و الشارح نفسه في متن الخطبة .

(٣) المطففين : ١٤ .

الصفحة ٥٧٠

لقوله بعد : « و منهم من خرقت أقدامهم » ، و لأنّ (النهاية) نقله « و منهم كالسحائب الدّٰلح » ١ . و يمكن أن يراد به أنّ منهم من عمله صنع السحاب الدّٰلح ، و كذلك القول في قوله عليه السلام بعد : « و في عظم الجبال الشّمخ ، و في قنطرة الظلام الأيهم » على ما يأتي ٢ .

و يشهد للحمل هنا ما في دعاء الصحيفة في الصلاة على حملة العرش و كلّ ملك مقرّب : « و خزّان المطر و زواجر السحاب ، و الذي بصوت زجره يسمع زجل الرعود ، و إذا سبحت به خفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ، و مشيبي الثلج و البرد و الهابطين مع قطر المطر إذا نزل » ٣ . و عليه ، فالكلام في موضعه بدون تقديم و تأخير « و منهم من خرقت أقدامهم . . . من الحدود المتناهية » و إن أمكن أيضا ربطه بتكّلف أكثر .

« و في عظم الجبال الشمخ » أي : الرقيعة ، ظاهره أن يكون خلقه في عظم الجبال ، و يمكن أن يراد به أنّهم مقيمون في تلك الجبال موكلون بها ، و في دعاء الصحيفة المتقدّم « و القوّم على خزائن الرياح و الموكلين بالجبال فلا تزول » ٤ .

« و في قنرة » أي : غبرة .

« الظلام الأيهم » و الأصل في (يهم) ما لا علاج له ، و لذا قيل للفلاة التي لا يهتدى فيها : يهماء ، و للبرّ الذي لا يهتدى فيه : أيهم ، و المراد ظلام لا يهتدى فيه من شدّته . و (الأبهم) في (المصرية) غلط ، ففي (ابن أبي الحديد و ابن ميثم

(١) النهاية لابن الأثير ٢ : ١٢٩ مادة (دلح) .

(٢) يأتي في تكملة هذا العنوان .

(٣) الصحيفة السجادية : ٣٦ الدعاء ٣ .

(٤) المصدر نفسه .

الصفحة ٥٧١

و الخطية) ١ بالمشاة ، و الكلام فيه كسابقه .

و في الخبر : أنّ ذا القرنين لما انتهى إلى السدّ جاوزه فدخل في الظلمات فإذا هو بملك قائم على جبل طوله خمسمائة ذراع . . . فقال له ذو القرنين : من أنت ؟ قال : أنا ملك من ملائكة الرحمن موكل بهذا الجبل ، و ليس من جبل خلقه الله تعالى إلاّ و له عرق متصل بهذا الجبل . . . ٢ « و منهم من خرقت أقدامهم » قال في سابقه : « منهم من هو » حملا على لفظ (من) و هنا قال : « أقدامهم » حملا على معناها .

« تخوم » أي : منتهى .

« الأرض السفلى » من الأرضين السبع .

« فهي » أي : فأقدامهم .

« كرايات بيض قد نفذت » أي : جاوزت .

« في مخارق الهواء » التي لا تمنع الأشياء من النفوذ فيها .

« و تحتها » أي : تحت تلك الأقدام .

« ريح هفافة » أي : سريعة المرور في هبوبها ، كما ذكره الجزري في معنى السكينة ٣ .

« تحبسها » أي : تحبس الريح أقدامهم .

« على حيث انتهت » تلك الأقدام .

« من الحدود المتناهية » في الأرض و الهواء ، و يمكن ربطه من قوله :

-
- (١) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٩ ، و لكن في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥٢ « الأبهم » أيضا .
 (٢) الفقيه للصدوق ١ : ٣٤٢ ح ٦ ، و علل الشرائع : ٥٥٤ ح ٢ ، و أماليه : ٣٧٥ ح ٢ ، المجلس ٧١ ،
 و تفسير العياشي ٢ : ٣٥٠ ح ٨٢ و التهذيب للطوسي ٣ : ٢٩٠ ح ١ .
 (٣) النهاية لابن الأثير ٢ : ٣٨٦ مادة (سكن) : « و منه حديث علي عليه السلام و بناء الكعبة فأرسل
 الله إليه السكينة و هي ريح خجوج أي سريعة الممر » .
-

الصفحة ٥٧٢

« و منهم » إلى هنا ، بأن عملهم حفظ الأرض من التلاشي ، لكن لا يناسب قوله بعد .

« قد استفرغتهم أشغال » بالفتح ، جمع (شغل) .

« عبادته » و لو كان (إشغال) بالكسر لكان تأنيث الفعل لكسب التأنيث من (عبادته) .

« و وصلت » هكذا في (المصرية و ابن أبي الحديد) ١ ، و لكن في (ابن ميثم و الخطية) ٢ : « و وصلت » .

« حقائق الإيمان بينهم و بين معرفته » قال شيخنا المفيد في (مقالاته) : إن الملائكة مكلفون و موعودون ٣ . قال تعالى : و من يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ٤ .

« و قطعهم الإيقان به » عن كل شيء .

« إلى الوله إليه » تعالى ، و في مناجاة شعبان عنهم عليهم السلام : « إلهي و ألهمني ولها بذكرك إلى ذكرك و همّني إلى روح نجاح أسمائك و محلّ قدسك » ٥ .

« و لم تجاوز رغباتهم ما عنده إلى ما عند غيره » و في ذلك الدعاء : « إلهي و ألحقني بنور عزك الأبهج فأكون لك عارفا ، و عن سواك منحرفا ، و منك خائفا مراقبا » ٦ .

(١) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٩ .

(٢) في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥٢ « وصلت » أيضا .

(٣) أوائل المقالات : ٨٢ .

(٤) الأنبياء : ٢٩ .

(٥) بحار الأنوار للمجلسي ٩٤ : ٩٩ عن الكتاب العتيق الغروي ، لكن لفظه « و ألحقني بنور عزك » ، و أما لفظ « و ألحقني » فللحمي في مفاتيح الجنان : ٣٧٤ .

(٦) المصدر نفسه .

الصفحة ٥٧٣

« قد ذاقوا حلاوة معرفته و شربوا بالكأس » قال ابن الاعرابي : لا تسمى الكأس كأسا إلا و فيها الشراب ١ .

« الروية » أي : الرفاعة للعتش و تأنيث (الروية) لكون (الكأس) مؤنثا .

« من محبته » و في المناجاة الخامسة عشرة : « ما أطيب طعم حبك ، و ما أعذب شرب قربك » ٢ .

« و تمكنت من سويداء » أي : حبة .

« قلوبهم وشيجة » أي : اشتباك عروق .

« خيفته ، فحنوا » أي : عوجوا .

« بطول » و الباء فيه للسببية .

« الطاعة » أي : العبادة .

« اعتدال ظهورهم » و المراد ركوعهم .

« و لم ينفذ » أي : لم يفن .

« طول الرغبة إليه مائة تضرعهم » فهم متضرعون إليه دائما .

« و لا أطلق عنهم عظيم الزلفة » أي : التقرب لديه تعالى .

« ربق » بالكسر فالفتح : جمع ربة حبل فيه عدة عرى يشدّ به البهائم .

« خشوعهم » فهم أبدا في حبالته .

« و لم يتولهم الإعجاب » بأعمالهم .

« فيستكثروا ما سلف منهم » و أمّا ما روي في (عقاب الأعمال) عن ابن خالد الصيقل عن الباقر عليه السلام : « إنّ الله عزّ و جلّ فوّض الأمر إلى ملك من الملائكة ،

فخلق سبع سماوات و سبع أرضين و أشياء ، فلما رأى الأشياء قد انقادت له

(١) نقله عن لسان العرب ٦ : ١٨٩ مادة (كأس) .

(٢) بحار الأنوار للمجلسي ٩٤ : ١٥١ ، و ملحقات الصحيفة السجادية : ٣٦٣ عن السجاد عليه السلام .

قال : من مثلي ؟ فأرسل الله عزّ وجلّ نويرة من نار ؟ قلت : و ما نويرة من نار ؟

قال : نار بمثل أنملة . قال : فاستقبلها بجميع ما خلق فتحلّلت لذلك حتّى وصلت إليه لما أن دخله العجب «
١ فهو خبر واحد .

« و لا تركت لهم استكانة » أي : مسكنة و فعلها استكان ، ففي (القاموس) في سكن و استكان : خضع و
ذلّ ، افتعل من المسكنة أشبعت حركة عينه ٢ . لكنّه قال في (كان) أيضا : و الاستكانة و الخضوع ٣ .

قلت : الظاهر كون قوله الثاني وهما ، فإذا كانت (الاستكانة) من (الكون) يكون بمعنى طلب الكون ،
أي : الوجود و الرفعة ، و هو ضدّ المراد ، و إنّما الصواب قوله الأوّل ، و لما أشبع (استكن) و صار
استكان ، صار المصدر و هو استكان كاجتماع استكانة ، و الأصل في قوله الثاني (الصحاح) ، فإنّه
اقتصر على ذكره في الكون ٤ ، و جعله أبو عليّ الفارسي ، كما في (اللسان) استفعالاً من الكين ، الذي
هو لحم باطن الفرج ، قال : لأنّ الخاضع الذليل خفي ، فشبّهه بذلك لأنّه أخفى ما يكون من الإنسان ٥ .

قلت : لا يبعد أن يكون استفعالاً من الكين ، لكن ما قاله الفارسي في تشبيهه بلحم باطن الفرج في الخفاء
خفي ، و الأظهر أن يقال : إنه من قولهم :

« بات فلان بكينة سوء » بالكسر ، أي : بحالة سوء . قال أبو سعيد : يقال : أكانه الله يكيّنه إكانه . أي :
أخضعه حتّى استكان و أدخل عليه من الذلّ ما أكانه ، و أنشد :

لعمرك ما يشفى جراح تكيّنه
و لكن شفائي أن تتيم حلائله

(١) عقاب الأعمال للصدوق : ٢٩٩ ح ١ ، و المحاسن للبرقي : ١٢٣ ح ١٣٩ .

(٢) القاموس المحيط ٤ : ٢٣٥ مادة (سكن) .

(٣) القاموس المحيط ٤ : ٢٦٤ مادة (كون) .

(٤) صحاح اللغة ٦ : ٢١٩٠ مادة (كون) .

(٥) لسان العرب ١٣ : ٢١٨ مادة (سكن) .

(٦) لسان العرب ١٣ : ٣٧١ مادة (كين) .

الصفحة ٥٧٥

و بالجملة كونه استفعالا من الكون ، كما قاله (الصحاح) و تبعه (القاموس) في (الكون) غير صحيح ،
و من الكين و المسكنة صحيح ، و الأول أظهر لفظا ، و الثاني معنى .

« الإجلال » لله تعالى .

« نصيبا » لهم .

« في تعظيم حسناتهم » فيعدونها حقيرة .

« و لم تجر الفترات » الفترة : الانكسار و الضعف .

« فيهم على طول دؤوبهم » أي : سعيهم و جدّهم في عبادته .

« و لم تغض » من « غاض الماء » أي : قلّ و نضب .

« رغباتهم » إليه تعالى .

« فيخالفوا عن رجاء ربّهم » إلى رجاء غيره .

« و لم تجفّ » أي : لم تيبس .

« لطول المناجاة » مع خالقهم .

« أسلات ألسنتهم » أي : مستدقاتها .

« و لا ملكتهم الأشغال » الشخصية .

« فتنقطع بهمس » أي : الصوت الخفيّ .

« الجوّار » بالهمزة ، أي : التضرّع .

« إليه » تعالى .

« أصواتهم » فاعل تنقطع .

« و لم تختلف في مقاوم » جمع مقام .

« الطاعة » أي : العبادة .

« مناكبهم » بأن يبذلوا منكباً بمنكب للاستراحة ، و يحتمل أن يكون

الصفحة ٥٧٦

(تختلف) مصحّف (تتخلف) فيكون الكلام استعارة عن عدم إعراضهم عن طاعته .

« و لم يثنوا » أي : لم يرفعوا ، من قوله تعالى : ثاني عطفه . . . ١ ، أي : رافع جنبه .

« إلى راحة التقصير في أمره رقابهم » مفعول لم يثنوا .

« و لا تعدو » هكذا في (المصرية و ابن أبي الحديد) ٢ ، و لكن في (ابن ميثم و الخطية) ٣ : « لا تعدو » بدون عاطف : أي لا تتجاوز و لا تتعدى .

« على عزيمة جدّهم » في عبادته .

« بلادة الغفلات » فيقصرون في طاعته .

« و لا تنتضل في همهم خدائع الشهوات » قال ابن أبي الحديد : استعارة من النضال ، و هو المراماة بالسهم ٤ .

قلت : تناضل من النضال لا (تنتضل) ، و إنّما (تنتضل) ك (ينضل) بمعنى الرمي ، مع أنّه لا تصحّ المراماة هاهنا ، كما لا يخفى .

« في همهم خدائع الشهوات » ككثير من البشر .

هذا ، و في الخبر عن الصادق عليه السلام : إن طائفة من الملائكة عابوا ولد آدم في اللذات و الشهوات أعني لكم : الحلال ليس الحرام قال فأنف الله للمؤمنين من ولد آدم من تعبير الملائكة لهم ، قال : فألقى الله في هم أولئك الملائكة اللذات و الشهوات كيلا يعيبوا المؤمنين . قال : فلما أحسوا ذلك من همهم عجوا إلى الله من ذلك ، فقالوا : ربنا عفوك عفوك ردنا إلى ما خلقتنا له و أجبرتنا

(١) الحج : ٩ .

(٢) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٤٩ .

(٣) في شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥٣ توجد (الواو) أيضا .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥١ .

الصفحة ٥٧٧

عليه ، فإننا نخاف أن نصير في أمر مريج . قال : فنزع الله ذلك من همهم ١ .

و ليس هذا الخبر مخالفا لعصمتهم ، فمضمونه نظير كلامهم في خلقة آدم عليه السلام .

« قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم » قال الخوئي : يعني بيوم فاقتهم :

يوم قبض أرواحهم ٢ .

قلت : بل يعني به : جميع أيامهم ، فإنهم كغيرهم في جميعها محتاجون إليه تعالى .

« و يَمّموه » أي : قصدوه تعالى .

« عند انقطاع الخلق إلى المخلوقين برغبتهم » متعلق بقوله : « و يَمّموه » .

« لا يقطعون أمد » أي : مسافة .

« غاية » أي : نهاية .

« عبادته » لأنه تعالى أهل لأن يعبد فوق تلك المرتبة .

« و لا يرجع بهم الاستهتار » أي : الحرص و الولع .

« بلزوم طاعته » أي : اللصوق بها .

« إلا إلى موادّ من قلوبهم غير منقطعة من رجائه و مخافته » (غير) صفة لمواد و من لبيانها .

« لم تقطع أسباب الشفقة » أي : الخوف .

« منهم فينوا » أي : يضعفوا من : و ني يني ، قالوا : و الإناء أيضا منه بقلب الواو همزة .

« في جدّهم » في العبادة .

(١) تفسير العياشي ٢ : ٢١١ ح ٤٢ .

(٢) شرح الخوئي ٣ : ١١١ .

الصفحة ٥٧٨

« و لم تأسرهم الأطماع » في المادّيات .

« فيؤثروا » أي : يختاروا .

« وشيك السعي » أي : سرعته إلى ما طمعوا فيه .

« على اجتهادهم » في طاعته تعالى .

« و لم يستعظموا ما مضى من أعمالهم » في الأزمنة المتطاولة .

« و لو استعظموا ذلك » أي : ما مضى من أعمالهم .

« لنسخ » أي : أزال .

« الرجاء منهم » في عظم أعمالهم .

« شفقات » جمع شفقة ، و في (الأساس) : لي عليه شفقة و شفق (يعني به) رحمة ورقة و خوف من حلول المكروه به مع نصح ١ .

« وجلهم » : أي خوفهم .

قال الشاعر :

لعمرك ما أدري و إنّي لأوجل
على أيّنا تغدو المنية أول

٢ « و لم يختلفوا في ربّهم » كالشعر ، فلم يصفه أحد منهم بما لا يليق بجنابه .

« باستحواذ » أي : غلبة .

« الشيطان عليهم » ككثير من البشر .

« و لم يفرّقهم سوء التقاطع » كتقاطع عن عداوة ، و إنّما تقاطعهم تقاطع حسن بأن يذهب كلّ إلى ما وظّف له .

« و لا تولّاهم » أي : لا صار وليّهم .

« غلّ » بالكسر : الغش و الحقد .

(١) أساس البلاغة : ٢٣٨ مادة (شفق) .

(٢) لسان العرب ١١ : ٧٢٢ مادة (وجل) و الشاعر : معن بن أوس المزني .

الصفحة ٥٧٩

« التّحاسد » حسد هذا ذاك ، و ذاك هذا .

« و لا شعبتهم » أي : فرقتهم .

« مصارف » أي : مغيرات .

« الرّيب » أي : الحوادث .

« و لا أقتسمتهم » أي : لم تجعلهم قسما قسما .

« أخياف » جمع خيف ، و الأصل فيه الاختلاف ، قالوا : سمّي مسجد الخيف خيفا ، لاختلافه بانحداره عن غلظ الجبل ، و ارتفاعه عن مسيل الماء ١ .

« الهمم » كالبشر همّ بعضهم في الطعام و الشراب ، و همّ بعضهم في الألبسة ، و همّ بعضهم في الأبنية ، و همّ بعضهم في النساء .

« فهم أسراء إيمان » به تعالى .

« لم يفكّهم من ربقتهم » أي : ربة الأسر المفهوم من (أسراء) .

« زيغ » أي : ميل عن الحقّ .

« و لا عدول » عنه .

« و لا وني » أي : ضعف .

« و لا فتور » أي : انكسار .

« و ليس في أطباق » أي : طبقات .

« السماء » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (السماوات) ، كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطّية) ٢ .

« موضع إهاب » أي : جلد غير مدبوغ .

« إلّا و عليه ملك ساجد أو ساع » أي : عامل .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ١٥٠ ، و شرح ابن ميثم ٢ : ٣٥٣ « السماء » أيضا .

الصفحة ٥٨٠

« حافد » أي : سريع ، روى القمّي أن الصادق عليه السلام سئل عن الملائكة ، أهم أكثر أم بنو آدم ؟ فقال : و الذي نفسي بيده لعدد ملائكة الله في السماوات أكثر من عدد التراب في الأرض ، و ما في السماء موضع قدم إلا و فيها ملك يسبحه و يقده ١ .

« يزدادون على طول الطاعة برّبهم علما » بالهم .

« و تزداد عزة ربّهم في قلوبهم عظما » حيث تزداد معرفتهم .

٣

من الخطبة (١٠٧) من ملائكة أسكنتهم سماواتك و رفعتهم عن أرضك هم أعلم خلقك بك و أخوفهم لك و أقربهم منك لم يسكنوا الأصلاب و لم يضمّنوا الأرحام و لم يخلقوا من ماء مهين و لم يشعبهم ريب المنون و إنهم على مكانهم منك و منزلتهم عندك و استجماع أهوائهم فيك و كثرة طاعتهم لك و قلة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك لحقروا أعمالهم و لزرّوا على أنفسهم و لعرفوا أنهم لم يعبدوك حقّ عبادتك و لم يطيعوك حقّ طاعتك أقول : و رواه القمّي هكذا : « و ملائكة خلقتهم ، و أسكنتهم سماواتك ، فليس فيهم فترة ، و لا عندهم غفلة ، و لا فيهم معصية . هم أعلم خلقك بك ، و أخوف خلقك منك ، و أقرب خلقك إليك ، و أعمالهم بطاعتك . لا يغشاهم نوم العيون ، و لا سهو العقول ، و لا فترة الأبدان . لم يسكنوا الأصلاب ، و لم تتضمّنهم الأرحام ،

و لم تخلقهم من ماء مهين ، أنشأتهم إنشاء ، فأسكنتهم سماواتك ، و أكرمتهم بجوارك ، و ائتمنتهم على وحيك ، و جنبّتهم الآفات ، و وقّيتهم البليّات ، و طهرتهم

(١) تفسير القمي ٢ : ٢٥٥ .

الصفحة ٥٨١

من الذنوب ، و لو لا قوتك لم يقووا ، و لو لا تثبتك لم يثبتوا ، و لو لا رحمتك لم يطيعوا ، و لو لا أنت لم يكونوا . أما إنهم على مكانتهم منك ، و طواعيتهم إياك ،

و منزلتهم عندك ، و قلة غفلتهم عن أمرك ، لو عاينوا ما خفي عنهم منك ، لاحتقروا أعمالهم ، و لأزروا على أنفسهم « ١ .

« من ملائكة أسكنتم سماواتك ، و رفعتهم عن أرضك » كلامه عليه السلام هذا دالّ على أنّ الأصل في مسكن الملائكة السماوات ، و أنّهم إنّما ينزلون إلى الأرض ، و يمكن أن يراد قسم خاص منهم ، حيث قال : من ملائكة ، و لعله ذكر قبله قسم خاص لم ينقله المصنّف .

« هم أعلم خلقك بك ، و أخوفهم لك » حيث يشاهدون ملكوت السماوات ، و أنّه ليس حاكم فيهم غيره تعالى ، فيكونون أعلم به تعالى من البشر ، و لما كانوا أعلم كانوا أخوف . . . إنّما يخشى الله من عباده العلماء . . . ٢ .

« و أقربهم منك » حيث لا يعصونه أبداً .

« لم يسكنوا الأصلاب » أصلاب آباء .

« و لم يضمّنوا الأرحام » أرحام أمهات .

« و لم يخلقوا من ماء مهين » و هو المنى ، كبنى آدم ، قال تعالى : . . . و بدأ خلق الإنسان من طين . ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين ٣ . و مهين فعيل من « مهن » أي : ضعف .

« و لم يشعبهم » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (لم يتشعبهم) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطّية) ٤ ، أي : لم يفرّقهم .

(١) تفسير القمي ٢ : ٢٠٧ .

(٢) فاطر : ٢٨ .

(٣) السجدة : ٨٧ .

(٤) كذا في شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٢٢٩ ، لكن في شرح ابن ميثم ٣ : ٥٧ « يشعبهم » أيضا .

« المنون » قال الفرّاء : تكون المنون واحدة و جمعا ١ ، و الأصل في المنون الضعف ، و يقال لكلّ من الدّهر و المنية : المنون لأنهما يضعفان و يقطعان المدد و ينقصان العدد ، قال الأعشي :

أ أن رأت رجلا أعشى أضرب به
ريب المنون و دهر متبل خبل

٢ و قال آخر :

كأن لم يغن يوما في رخاء إذا ما المرء منته المنون

٣ (فريب المنون) في الأوّل بمعنى حوادث الدّهر ، و (منته المنون) في الثاني بمعنى قطعته المنية ، و مراده عليه السّلام أنّهم ليسوا كالبشر الذين يتشعّبهم حوادث الدّهر ، و اخترام المنايا .

و ممّن تشعّبهم ريب المنون حتّى ضرب بهم المثل ولد سبأ ، فقالوا تشبيها بهم : تفرقوا أيادي سبأ .

و قالوا : نزل حسّان بن عمرو الحميريّ جبلا باليمن يقال له : شعب . ثمّ تشعب ولده ، فمن كان منهم بالكوفة يقال لهم : شعبيون و منهم الشعبي المعروف و من صار منهم إلى الشام يقال لهم : الشعبانيون ، و من صار منهم إلى اليمن يقال لهم : آل ذي شعبيين ، و من صار منهم بالمغرب و مصر يقال لهم : الأشعوب ٤ .

« و إنّهم على مكانهم منك » بالقرب المعنوي .

« و منزلتهم عندك » بالدّرجة الرفيعة .

(١) لسان العرب ١٣ : ٤١٦ مادة (منن) .

(٢) لسان العرب ١٣ : ٤١٦ مادة (منن) .

(٣) اساس البلاغة : ٤٣٨ مادة (منن) .

(٤) معجم البلدان للحموي ٣ : ٣٤٧ .

« و استجماع أهوائهم فيك » و في عبادتك و طاعتك ، و ليسوا كالبشر الذين زين لهم حبّ الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الأنعام و الحرث ١ .

« و كثرة طاعتهم لك » حتى لم يكن لهم شغل غير عبادته .

« و قلة غفلتهم عن أمرك » لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون ٢ .

« لو عاينوا كنه ما خفي عليهم منك » و كيف لا يخفى عليهم ، و هو الذي لو كان البحر مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته و لو جاء بمثله مددا .

« لحقروا أعمالهم » في جنب عظمته .

« و لزروا » : أي عتبوا و عابوا ، قال :

نبئت نعماً على الهجران زارية
سقىا و رعيا لذاك العاتب الزاري

٣ و أيضا :

و إنني على ليلي لزار و إنني
على ذاك في ما بيننا مستديمها

٤ « على أنفسهم » في تقصيرهم في حقك .

« و لعرفوا أنهم لم يعبدوك حقّ عبادتك ، و لم يطيعوك حقّ طاعتك » كما لم يعرفوه حقّ معرفته ، و كذلك الأنبياء و الأوصياء كانوا معترفين بذلك .

(١) آل عمران : ١٤ .

(٢) الأنبياء : ٢٧ .

(٣) أساس البلاغة : ١٩١ مادة (زري) .

(٤) لسان العرب ١٤ : ٣٥٦ مادة (زري) .

الصفحة ٥٨٤

الفصل الرابع في خلق آدم عليه السلام

الصفحة ٥٨٥

الصفحة ٥٨٦

من الخطبة (١) صفة خلق آدم عليه السلام :

ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الْأَرْضِ وَ سَهْلِهَا وَ عَذْبِهَا وَ سَبَخِهَا تُرْبَةً سَنَّاها بِالمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ وَ لَاطَهَا بِالْبَلَّةِ حَتَّى لَزِبَتْ فَجَبَلَ مِنْهَا صُورَةَ ذَاتِ أَعْضَاءٍ وَ وُصُولٍ وَ أَعْضَاءٍ وَ فُصُولٍ أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ وَ أَصْلَدَهَا حَتَّى صَلَصَلَتْ لَوْقَتِ مَعْدُودٍ وَ أَمَدٍ مَعْلُومٍ ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثَلَتْ إِنْسَانًا ذَا أذْهَانٍ يُجِيلُهَا وَ فِكْرٍ يَتَصَرَّفُ بِهَا وَ جَوَارِحٍ يَخْتَدِمُهَا وَ أَدْوَاتٍ يُقَلِّبُهَا وَ مَعْرِفَةٍ يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَ الْبَاطِلِ وَ الْأَدْوَاقِ وَ الْمَشَامِّ وَ الْأَلْوَانِ وَ الْأَجْنَاسِ مَعْجُونًا بِطِينَةِ الْأَلْوَانِ الْمُخْتَلَفَةِ وَ الْأَشْيَاءِ الْمُؤْتَلَفَةِ وَ الْأَضْدَادِ الْمُتَعَادِيَةِ وَ الْأَخْلَاطِ الْمُتَبَايِنَةِ مِنَ الْحَرِّ وَ الْبَرْدِ وَ الْبَلَّةِ وَ الْجُمُودِ وَ اسْتَأْدَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ وَ دَبِعَتْهُ لَدَيْهِمْ وَ عَهَدَ وَصِيَّتَهُ إِلَيْهِمْ

الصفحة ٥٨٧

فِي اللَّذِّعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَ الْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ فَقَالَ سُبْحَانَهُ أَسْجُدُوا ؟ لِأَدَمَ ؟ فَسَجَدُوا إِلَّا ؟ إِبْلِيسَ ؟ ٢ ٩ ٥ :
٣٤ اعْتَرَبَتْهُ الْحَمِيَّةُ وَ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الشَّقْوَةُ وَ تَعَزَّزَ بِخَلْقَةِ النَّارِ وَ اسْتَهْوَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ فَأَعْطَاهُ اللَّهُ النَّظْرَةَ اسْتَحْقَاقًا لِلسُّخْطَةِ وَ اسْتِثْمَامًا لِلْبَلِيَّةِ وَ أَنْجَازًا لِلْعِدَّةِ فَقَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ١٥ ٨ ٢ :

٣٧ ٣٨

[٤٣]

ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ ؟ أَدَمَ ؟ ذَارًا أُرْعَدَ فِيهَا عَيْشَتَهُ وَ آمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ وَ حَذَّرَهُ ؟ إِبْلِيسَ ؟ وَ عَدَاوَتَهُ فَاعْتَرَبَتْهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِذَارِ الْمَقَامِ وَ مُرَافَقَةِ الْأَبْرَارِ فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ وَ الْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ وَ اسْتَبَدَلَ بِالْجَدَلِ وَجَلًّا وَ بِالْإِعْتِرَارِ نَدْمًا ثُمَّ بَسَطَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ وَ لِقَاءِ كَلِمَةِ رَحْمَتِهِ وَ وَعْدَةِ الْمَرَدِّ إِلَى جَنَّتِهِ وَ أَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَ تَنَاسَلَ الذُّرِّيَّةِ قَوْلَ الْمُصَنِّفِ : « صفة خلق آدم » هكذا في (المصرية) ، و لكن في (ابن ميثم) : « منها في خلق آدم » ٣ ، و في (ابن أبي الحديد) : « منها في صفة آدم » ٤ ،

و كيف كان ، ففي (إثبات المسعودي) : روي أن آدم سمّي آدم لأنه خلق من أديم الأرض ه .

و آدم يأتي اسما و وصفا ، و الاسمي جمعه (أودم) ، و الوصفي يأتي

(١) البقرة : ٣٤ .

(٢) الحجر : ٣٧ ٣٨ .

(٣) شرح ابن ميثم ١ : ١٧٠ .

(٤) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣١ « منها في صفة خلق آدم » أيضا .

(٥) إثبات الوصية للمسعودي : ١٠٠ ، و مروج الذهب ١ : ٤٠ ، و هذا الوجه في التسمية مروى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ عَنْ عَلِيٍّ وَ الْبَاقِرِّ وَ الصَّادِقِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَ سَعِيدِ بْنِ جَبْرِ ، و جمع بعض طرقه السيوطي في الدر المنثور ١ : ٤٩ ، و المجلسي في بحار الأنوار ١١ : ١٠٠ ١١٣ .

الصفحة ٥٨٨

وصفان للإنسان و البعير ، و كلّ منهما بمعنى ، و له جمع يقال : رجل آدم ، أي :

أسمر ، و جمعه : أدمان ، و يقال : بعير آدم ، أي : شديد البياض ، و يقال : هو البعير الأبيض ، الأسود المقلتين ، و جمعه آدم بضمّتين .

قال الشاعر :

فإنّ أهجه يضجر كما ضجر بازل
من الأدم دبّرت صفحتاه و غاربه

١ و أصل آدم : أدم بهمزيّتين .

و قوله عليه السّلام : « ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض » أي : خشنها .

« و سهلها » أي : ما ليس فيه خشونة .

« و عذبها » أي : ما ليس فيه ملوحة .

« و سبخها » أي : الأرض التي تغلّوها الملوحة ، و لا تثبت الزرع .

« تربة » الواحدة من ترب لغة في تراب .

« سنّها » أي أنتتها من قوله تعالى : . . . من حمأ مسنون ٢ ، قال المسعودي في (إثباته) : خلق الله آدم من عذب الأرض و مالحها ، و مرّها و . . . ٣ .

و قال ابن أبي الحديد : سنّها ، أي ملّسها من قولهم : مرمر مسنون ٤ .

و قال الخوئي تبعاً للمجلسي : سنّها من سننت الماء على الأرض :

صبيته ٥ .

قلت : و هما كما ترى ، فلا معنى لتمليس التربة بالماء ، كما لا معنى لصبّ التربة بالماء .

(١) لسان العرب ١٢ : ١٢ مادة (آدم) و الشاعر : الأخطل .

(٢) الحجر : ٢٦ .

(٣) إثبات الوصية للمسعودي : ١٠ ضمن حديث طويل .

(٤) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٢ .

(٥) شرح نهج البلاغة للخوئي ١ : ١٤٨ ، و بحار الأنوار للمجلسي ١١ : ١٢٣ .

الصفحة ٥٨٩

« بالماء حتّى خلصت » في سننها .

« و لاطها » من لطت الحوض بالطين ، أي : ملطته به ، و طيّنته ، و قال الخوئي :

من لاط الشيء بالشيء لوطاً : لصق ١ .

قلت : ذلك لازم ، و هذا متعدّ .

« بالبلّة » أي : الرطوبة .

« حتى لزبت » أي : لزقت ، و لصقت ، قال تعالى : إنا خلقناهم من طين لازب ٢ .

« فجبل منها صورة » قال ابن أبي الحديد : قال الراوندي : أي خلق خلقا عظيما . و اعترض عليه بأنّ جبل بمعنى خلق سواء كان عظيما أو غير عظيم ٣ .

قلت : إنّ جبل و ذرأ و أنشأ كلّها بمعنى : خلق إلا أنّ لكلّ منها خصوصية لا يصحّ لها استعمال أحدها في موضع الآخر .

فإنّ ذرأ معناه : خلق منكثر منتشر ، قال تعالى : يذروكم فيه ٤ .

و (أنشأ) معناه خلق حادث جديد ، قال تعالى : هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ٥ .

و جبل معناه : خلق غليظ ، قال الجوهرى : يقال للرجل إذا كان غليظا : إنه لذو جبلة ، و امرأة مجبال ، أي : غليظة الخلق ، و شيء جبل بكسر الباء ، أي : غليظ جاف ٦ . و يقال : أجبل الشاعر ، إذا صعب عليه القول ، فكأنه بلغ المكان الغليظ ،

(١) شرح الخوئي ١ : ١٤٨ .

(٢) الصفات : ١١ .

(٣) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٦ .

(٤) الشورى : ١١ .

(٥) النجم : ٣٢ .

(٦) صحاح اللغة ٤ : ١٦٥١ مادة (جبل) .

الصفحة ٥٩٠

و أجبل الحافر ، إذا بلغ المكان الصّلب . و قال الزّمخشري : ناقة جبلة السنام تامته ، رجل جبل الوجه ، و جبل الرأس : غليظهما ، و سيف جبل و مجبال : لم يرقّق ، قال :

صافي الحديد لا ناب و لا جبل

١ و سألتهم فأجبلوا : إذا لم ينولوا ، قال الكميّ :

فبان و أبقى لنا من بنيه
لهاميم سادوا و لم يجبلوا

٢ « ذات أحناء » جمع حنو بالكسر ، أي : الجوانب و النواحي ، قال لبيد :

فقلت ازدرج أحناء طيرك و اعلمن
بأنك إن قدّمت رجلك عاثر

٣ و قال الكميت :

و ألوا الأمور و أحناءها
فلم يبهلوها و لم يهملوا

٤ « و وصول » قال ابن أبي الحديد : قال الراوندي : الوصول جمع وصل ،

و هو العضو ، و كلّ شيء اتّصل بشيء فما بينهما وصلة . ثمّ اعترض عليه بأنّه ما وجد في لغة أنّ
الوصل العضو ، و قال : و قوله « و كلّ شيء . . . » لا معنى لذكره بعد ذلك التفسير ٥ .

قلت : قال الجزريّ في (نهايته) و كلامه مأخوذ من أئمة اللغة كأبي عبيد و أبي عبيدة و نحوهما في صفة
النبي صلّى الله عليه و آله : كان فعم الأوصال . أي : ممتلئ الأعضاء . الواحد : وصل ٦ . فتراه صرّح
بأنّ الوصل العضو ، أي : المراد منه

-
- (١) أساس البلاغة للزمخشري : ٥١ مادة (جبل) .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) لسان العرب ١٤ : ٢٠٦ و ٢٠٤ مادة (حنا) .
(٤) المصدر نفسه .
(٥) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٦ .
(٦) النهاية لابن الأثير ٥ : ١٩٤ مادة (وصل) .

العضو . و قوله : لا معنى لقوله « و كل شيء . . . » بلا معنى ، فكلامه الأول معنى الوصل ، و الأخير معنى الوصلة ، و ما قاله لفظ (الصحاح) فقال : و كل شيء اتّصل بشيء فما بينهما وصلة ، و الجمع : وصل ١ .

« و أعضاء » كاليدين و الرجلين .

« و فصول » كالمنكب و العضد و المرفق و الذراع و الكفّ و الأصابع و الأنامل في اليدين و الفخذ و الركبة و الساق و القدم و الأصابع و الأنامل في الرجلين .

« أجمدها » أي : أبقاها حتى صارت جامدة .

« حتى استمسكت » من التلاشي .

« و أصلدها » من قولهم : حجر صلد ، أي : صلب أملس .

« حتى صلصلت » من قولهم : تصلصل الحلي ، إذا صوتت ، و الأصل في كلامه عليه السلام : قوله تعالى : . . . من صلصال من حمأ مسنون ٢ .

قال أبو عبيدة : الصلصال الطين الحرّ خلط بالرمل فصار يتصلصل إذا جفّ ، فإذا طبخ في النار فهو الفخار ٣ .

و في خبر : ثم جعلها صلصالا كالفخار أربعين سنة ٤ .

« لوقت معدود » عيّنه (تفسير القمّي) أربعين سنة ٥ ، و (مروج

(١) صحاح اللغة ٥ : ١٨٤٢ مادة (وصل) .

(٢) الحجر : ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ .

(٣) نقله عنه الجوهري في صحاح اللغة ٥ : ١٧٤٥ مادة (صلصل) .

(٤) هذا اللفظ رواه المجلسي في بحار الأنوار ١١ : ١٢١ ، عن سعد السعود لابن طاووس عن نسخة من صحف إدريس عليه السلام لكن لم توجد هذه الفقرة إلا في سعد السعود المطبوع : ٣٣ ، و نقل هذا المعنى المسعودي في مروج الذهب ١ : ٤٠ .

(٥) تفسير القمي ١ : ٤١ .

الصفحة ٥٩٢

المسعودي (مائة و عشرين سنة ١ .

« و أمد معلوم » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (و أجل معلوم) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٢ .

« ثم نفخ فيها من روحه » نسب تعالى الرّوح إلى نفسه دلالة على شرف الإنسان ، قال تعالى للملائكة : فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ٣ ، و قال تعالى : و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي . . . ٤ .

« فمثلت » تلك التّربة .

« إنسانا ذا أذهان يجيلها » في خبر أبي بصير : قلت لأبي عبد الله عليه السّلام : لأي علة خلق الله تعالى آدم من غير أب و أم ، و خلق عيسى من غير أب ، و خلق سائر الناس من الآباء و الأمّهات ؟ فقال : ليعلم الناس تمام قدرته و كمالها ٥ .

« و فكّر يتصرّف بها » في الأثياء ، فلا يعمل عملا إلا بعد فكر .

« و جوارح يخدمها » أي : يجعلها خادمة له في حوائجه .

« و أدوات » أي : آلات للسمع و البصر .

« يقبّها » كيف شاء .

« و معرفة يفرق بها بين الحقّ و الباطل » و هي العقل ، روى (العيون) أنّ ابن السكّيت قال للرضا عليه السّلام بعد سؤاله عن وجه اختلاف معجزات موسى و عيسى و نبيّنا عليهم السّلام : فما الحجّة على الخلق اليوم ؟ فقال عليه السّلام : العقل يعرف به

(١) مروج الذهب للمسعودي ١ : ٤١ ، ثم قال : « و قيل أربعون سنة » .

- (٢) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣١ ، و كذا في شرح ابن ميثم ١ : ١٦٩ « و أمد معلوم » أيضا .
 (٣) الحجر : ٢٩ .
 (٤) الاسراء : ٨٥ .
 (٥) علل الشرائع للصدوق : ١٥ ح ١ .

الصفحة ٥٩٣

- الصّادق على الله فيصدقّه ، و الكاذب على الله فيكذّبه . فقال ابن السكّيت : هذا و الله الجواب ١ .
 « و الأذواق » فيعرف بها الحلو و المرّ و الحامض ، و غيرها .
 « و المشامّ » فيعرف بها الرّيح الطّيبة من الخبيثة .
 « و الألوان » فيعرف بها الأبيض و الأسود و الأحمر و الأخضر و الأصفر .
 « و الأجناس » بالخشونة و اللّينة ، و كأنّه سقط من الكلام (و الأصوات) فيبعد أن يذكر عليه السّلام الذائقة و الشّامة و الباصرة و اللّامسة ، و لا يذكر السّامعة مع كونها أهمّ من الشّامة .
 « معجونا » الظاهر كونه حالا من (إنسانا) و يحتمل كونه صفة بعد صفة .
 « بطينة الألوان المختلفة » روي أنّ عبد الله بن سلام سأل النبي صلّى الله عليه و آله أنّ آدم خلق من الطين كلّهُ أو من طين واحد ؟ قال : بل من الطّين كلّهُ ، و لو خلق من طين واحد لما عرف النّاس بعضهم بعضا ، و كانوا على صورة واحدة . قال :
 فلهم في الدّنيا مثل ؟ قال : التّراب فيه أبيض ، و فيه أخضر ، و فيه أشقر ، و فيه أغبر ، و فيه أحمر ، و فيه أزرق ، و فيه عذب ، و فيه ملح ، و فيه خشن ، و فيه لين ،
 و فيه أصهب ، فلذلك صار النّاس فيهم لين ، و فيهم خشن ، و فيهم أبيض ، و فيهم أصفر ، و أحمر ، و أصهب ، و أسود على ألوان التّراب ٢ .
 و يقال للرّوم : بنو الاصفر ، و للعرب : أسود ، و للعجم : أحمر . فعن ابن الاعرابي : معنى قولهم :
 آتاني كلّ أسود منهم و أحمر : آتاني جميع النّاس عربهم و عجمهم ٣ .

- (١) عيون الأخبار للصدوق ٢ : ٧٨ ح ١٢ ، و علل الشرائع : ١٢١ ح ٦ ، و الكافي للكلياني ١ : ٢٤ ح ٢٠ في ذيل حديث .
- (٢) علل الشرائع للصدوق : ٤٧٠ ح ٣٣ ضمن حديث طويل ، و السائل يزيد بن سلام ، كما في الأصل ، و لعبد الله بن سلام حديث آخر .
- (٣) لم أجده عن ابن الاعرابي لكن نقله ابن منظور في لسان العرب ٤ : ٢٠٩ مادة (حمر) عن أبي عمرو بن العلاء .

الصفحة ٥٩٤

« و الأشباه المؤتلفة ، و الأضداد المتعادية » عن الرضا عليه السلام الطبائع أربعة ، فمهنّ البلغم و هو خصم جدل ، و مهنّ الدّم و هو عبد زنجي و ربما قتل العبد سيّده ، و مهنّ الريح و هو ملك يدارى ، و مهنّ المرّة ، و هيهات هيهات هي الأرض ارتجتّ بما عليها ١ .

« و الأخلاط المتباينة من الحرّ و البارد و البلّة » أي : الرطوبة .

« و الجمود » و زاد (ابن أبي الحديد و الخطية) ٢ : « و المساءة و السرور » .

قال النّظام : الدليل على الصانع أنّنا رأينا أشياء متضادّة من شأنها التنافي و التّباین و التّفاسد مجموعة ، و هي الحرارة و البرودة و الرطوبة و اليبوسة المجتمعة في كلّ حيوان ، و في أكثر سائر الأجسام ، فعلمنا أنّ جامعها قسرها على الاجتماع ، و لو لا ذلك لتباينت و تفسدت ، و لو جاز أن تجتمع المتضادّات المتنافرات ، و تتقاوم من غير جامع جمعها لجاز أن يجتمع الماء و النّار و يتقاوما من ذاتهما ، بغير جامع مدبّر مقيم يقيهما ، و هذا محال ٣ .

هذا ، و قال المبرّد : دخلت على الجاحظ في آخر أيّامه و هو عليل ، فقلت له :

كيف أنت ؟ فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج و لو نشر بالمناشير لما أحس به ، و نصف الآخر منقرس لو طار الذّباب بقربه لألمه ٤ .

و قال الجاحظ لمتطبّب يشكو إليه علته : قد اصطلحت الأضداد على جسدي إن أكلت باردا أخذ برجلي ، و إن أكلت حارّا أخذ برأسي ٥ .

« و استأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم و عهد « بالنصب عطف

- (١) عيون الأخبار للصدوق ١ : ٦٦ ح ٨ عن الكاظم ، و ٢ : ٧٨ ح ١١ ، و علل الشرائع : ١٠٦ ح ٢ ، عن الرضا عليه السلام .
- (٢) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٢ .
- (٣) نقله عن النظام الكراچي في كنز الفوائد : ٨٦ .
- (٤) نقله عن المبرد ابن الأنباري في نزهة الألباء : ١٣٤ ، و المرتضى في أماليه ١ : ١٤٢ المجلس ١٣ .
- (٥) أمالي المرتضى ١ : ١٤٢ المجلس ١٣ .

الصفحة ٥٩٥

على (وديعته) .

« وصيَّته إليهم » أشار عليه السلام في قوله : « و استأدى الله . . . » إلى قوله تعالى :

و إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سوَّيته و نفخت فيه من روعي فقعدوا له ساجدين ١ .

« في الإذعان » أي : الانقياد .

« بالسَّجود له » أي : لذاك الإنسان .

« و الخنوع » أي : التذلل .

« لتكرمه » أي : إكرامه .

« فقال سبحانه » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (فقال تعالى) كما في (ابن أبي الحديد و الخطية) ٢ .

« اسجدوا لآدم » وردت هذه الجملة في (البقرة ، و الأعراف ، و بني إسرائيل ،

و الكهف ، و طه) ٣ .

« فسجدوا إلا إبليس » وردت هذه الجملة في غير الأولى .

« اعترته الحمية ، و غلبت عليه الشقوة ، و تعزز بخلقه النار ، و استهون خلق الصلصال » هكذا في (المصرية) بدون زيادة ، و أفراد الضمير في (اعترته) و ما عطف عليه ، و الصواب : (و قبيله اعترتهم الحمية ، و غلبت عليهم الشقوة ،

و تعززوا بخلقه النار ، و استهونوا خلق الصلصال) كما في (ابن أبي الحديد و ابن ميثم و الخطية) و (الراوندي) ٤ .

(١) الحجر : ٢٨ ٢٩ .

(٢) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٢ ، و كذا في شرح ابن ميثم ١ : ١٦٩ « فقال سبحانه » أيضا .

(٣) البقرة : ٣٤ ، و الأعراف : ١١ ، و الإسراء : ٦١ ، و الكهف : ٥٠ و طه : ١١٦ .

(٤) لفظ شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٢ ، و شرح ابن ميثم ١ : ١٦٩ أيضا كالمصرية ، و أمّا ما نقله الشارح عن الراوندي فمفهوم من بحث لغوي له حول كلمة (قبيل) نقله ابن أبي الحديد في شرحه ١ : ٣٦ .

الصفحة ٥٩٦

و اختلف في إبليس هل كان من الجنّ أو من الملائكة ؟ فأكثر متكلمي العامة على الأول ، و اختاره المفيد قائلاً : إنّ الأخبار به متواترة عنهم عليهم السلام ،

و إنّ مذهب الإمامية ١ .

و ذهب أكثر فقهاء العامة إلى الثاني ، و اختاره الشيخ في (تبيان) قائلاً :

و هو المروي عن الصادق عليه السلام ٢ .

قلت : و الصواب أن يقال : إنه كان من الجنّ لقوله تعالى : . . . كان من الجنّ ففسق عن أمر ربّه . . . ، إلا أنه كان في عداد الملائكة كما يكون في البشر رجل من قبيلة معدودا من قبيلة أخرى ، فقالوا : كان الزبير و هو من أسد قريش قبل أن ينشأ ابنه عبد الله في عداد بني هاشم ٤ .

و يدلّ على كونه في عداد الملائكة قوله تعالى : . . . فسجدوا إلا إبليس . . . ٥ في السور المتقدّمة ، و قوله تعالى : فسجد الملائكة كلّهم أجمعون . إلا إبليس . . . ٦ في سورة الحجر ، و سورة (ص) و قوله عليه السّلام هنا :

و قوله في القاصعة : « ما كان الله سبحانه ليدخل الجنّة بشرا بأمر اخرج به منها ملكا » ٧ .

(١) قاله المفيد في أوائل المقالات للمفيد : ١٤٩ .

(٢) التبيان للطوسي ١ : ١٥٠ .

(٣) الكهف : ٥٠ .

(٤) انظر حديث علي عليه السّلام : « ما زال الزبير رجلا منّا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشؤوم عبد الله » رواه ابن أبي الحديد في شرحه ٤ : ٤٨٠ الحكمة ٤٨٠ عن نهج البلاغة ، و لم يوجد في سائر نسخ النهج ، و أخرجه أيضا الجوهرى في السقيفة :

٦٠ ، و عاصم بن حميد في أصله : ٢٣ ، و الصدوق في الخصال : ١٥٧ ح ١٩٩ باب الثلاثة ، و المفيد في الجمل : ٢٠٨ ، و ابن قتيبة في الامامة و السياسة ١ : ١٠ .

(٥) الكهف : ٥٠ .

(٦) الحجر : ٣١ ٣٠ .

(٧) نهج البلاغة ٢ : ١٣٩ الخطبة ١٩٠ .

الصفحة ٥٩٧

قال ابن أبي الحديد : قال الراوندي في سجود الملائكة لآدم : لما علمنا أنّ تقديم المفضول على الفاضل قبيح ، علمنا أنّ آدم كان أفضل من الملائكة في ذلك الوقت و فيما بعده . و اعترض عليه بأنّ لقائل أن يقول : ليس قد سجد يعقوب ليوسف عليهما السّلام أفيدلّ ذلك على أنّ يوسف أفضل من يعقوب ؟ ١ قلت : قال هذا الكلام قبله شيخه الجبائي ٢ ، و لكن لو لم يكن دالّا على أفضلية آدم على الملائكة لما قال إبليس في جواب قوله تعالى : ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك . . . ٣ : . . . أنا خير منه خلقتني من نار و خلقتني من طين ٤ ، و كذا في جواب قوله تعالى : . . . ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ استكبرت أو كنت من العالين ٥ . . . لم أكن لأسجد لبشر خلقتني من صلصال . . . ٦ .

أو ما سمع هو و شيخه الجبائيّ قوله تعالى حكاية عن إبليس : رأيته هذا الذي كرّمت عليّ . . . ٧ و السجود ليوسف لم يعلم أنّه كان بوضع الجبهة ،

فلعلّه من قسم تعظيم الملوك ، مع أنّه أيّ مانع من كون يوسف أفضل من يعقوب ، فامتحن بمحن فوق محن أبيه ، و كان سليمان أفضل من أبيه ، قال تعالى : ففهمناها سليمان و كلاًّ آتينا حكماً و علماً . . . ٨ .

قال ابن أبي الحديد أيضاً : إنّ قال الراوندي في قوله عليه السّلام : « إلاّ إبليس و قبيله » : قبيل إبليس نسله ، قال تعالى : . . . إنّه يراكم هو و قبيله . . . ٩ ، و كلّ

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٧ .

(٢) نقله عن الجبائي و غيره الطوسي في التبيان ١ : ١٥٠ ، و هو مشهور عن كثير من المعتزلة .

(٣) الأعراف : ١٢ .

(٤) الأعراف : ١٢ .

(٥) ص : ٧٥ .

(٦) الحجر : ٣٣ .

(٧) الإسراء : ٦٢ .

(٨) الأنبياء : ٧٩ .

(٩) الأعراف : ٢٧ .

الصفحة ٥٩٨

جيل من الإنس و الجنّ قبيل . و اعترض عليه أنّ قوله تعالى لا يدلّ على أنّهم نسله ، و قوله : « و كلّ جيل . . . » ينقض دعواه أنّ قبيله لا يكون إلاّ نسله ١ .

قلت : إنّ ابن أبي الحديد لا يفرّق بين بيان المراد من الكلمة ، و بين بيان مفهومها اللّغوي ، فقول الراوندي : « قبيله : نسله » بيان المراد ، و أخذه من الأخبار . فروي في خبر أنّ الآباء ثلاثة : آدم ولد مؤمنا ، و الجانّ ولد مؤمنا و كافرا ، و إبليس ولد كافرا ، و ليس فيهم نتاج ، إنّما يبيض و يفرخ ، و ولده ذكور ليس فيهم إناث ٢ .

و أمّا ذكره الآية فإنّما لبيان أنّ (قبيله) كما ذكر في كلامه عليه السّلام ذكر في القرآن مع أنّ آية . . . أفتتخذونه و ذريّته أولياء من دوني و هو لكم عدوّ . . . ٣ تدلّ على أنّ قبيله من نسله و إن لم يذكر ذلك الراوندي ، و قوله : « و كلّ جيل . . . » بيان لمعنى مطلق القبيل ، فأبيّ تناف له مع كون قبيل إبليس نسله حتّى ينقض دعواه ؟

و يأتي القبيل بمعنى : الكفيل أيضا ، و يأتي بمعنى : القابلة ، قال الشاعر :

كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها ٤ .

فهل ذكر معنى ينقض معنى آخر ؟ قال ابن أبي الحديد : إنه قال الراوندي في قوله عليه السلام : « و تعزّر بخلقة النار » : إنّ القياس الذي قاسه إبليس كان باطلا ،

لأنه ادّعى أنّ النار أشرف من الأرض ، و الأمر بالعكس ، لأنّ كلّ ما يدخل إلى النار ينقص ، و كلّ ما يدخل التراب يزيد . و اعترض عليه بأنّ هذا عجيب فإنّ نرى الحيوانات الميتة إذا دفنت في الأرض تنقص أجسامها ، و كذلك الأشجار

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٦ .

(٢) الخصال للصدوق : ١٥٢ ح ١٨٦ باب الثلاثة .

(٣) الكهف : ٥٠ .

(٤) لسان العرب ١١ : ٥٤٤ مادة (قبل) ، و صدره :

أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها

و الشاعر : الأعشى .

الصفحة ٥٩٩

المدفونة في الأرض . على أنّ التحقيق أنّ المحترق بالنار و البالي بالتراب لم تعدم أجزاؤه و لا بعضها ، و إنّما استحالت إلى صور أخرى ١ .

قلت : بل اعتراضه عليه عجيب ، و تحقيقه ركيك ، فإنّ هذه أمور عرفية ،

فتدخل في الأرض نوى ليس بقدر أنملة ينبت منه شجرة كجبل ، و تلقى جبلا من الخشب في النار فلا يبقى منه إلا قليل رماد في حكم العدم ، فالعرف يرى أنّ النار لا تبقى شيئا ، و ما وقع فيها شيء إلا أكلته ، و عليه ورد « إنّ الحسد ليأكل الايمان كما تأكل النار الحطب » ٢ إلا أنّ ابن أبي الحديد يعترض على الراوندي عنادا .

هذا ، و ورد بطلان قياس إبليس في الأخبار بطرق أخر أيضا ، ففي خبر أن إبليس قاس نفسه بآدم ، فقال : . . . خلقتني من نار و خلقتة من طين ٣ ، فلو قاس الجوهر الذي خلق الله منه آدم بالنار ، كان ذلك أكثر نورا و ضياء من النار ٤ .

و في خبر آخر : كذب إبليس لعنه الله ما خلقه الله إلا من طين ، ثم قال الله تعالى : الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ٥ خلقه الله من تلك النار ، و النار من تلك الشجرة ، و الشجرة أصلها من طين ٦ .

و من القياسات الباطلة السجود لغيره تعالى قياسا على سجود الملائكة

(١) شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٧ .

(٢) أخرجه الحميري في قرب الاسناد : ١٥ ، و ابن ماجه في سننه ٢ : ١٤٠٨ ح ٤٢١٠ و الشريف الرضي في المجازات النبوية : ٢٢١ ح ١٧٩ و رواه الفتال في روضة الواعظين ٢ : ٤٢٤ ، عن النبي صلى الله عليه و آله ، و الشريف الرضي في نهج البلاغة ١ : ١٥١ الخطبة ٨٤ عن علي عليه السلام ، و في الباب عن الباقر و الصادق عليهما السلام .

(٣) الأعراف : ١٢ .

(٤) الكافي للكليني ١ : ٥٨ ح ١٨ ، ٢٠ ، و علل الشرائع للصدوق : ٨٦ ، ٨٧ ح ١ ، ٣ عن الصادق عليه السلام .

(٥) يس : ٨٠ .

(٦) تفسير القمي ٢ : ٢٤٤ عن الصادق عليه السلام .

الصفحة ٦٠٠

لآدم ، ففي (الاحتجاج) أن جمعا من المشركين حاجوا النبي صلى الله عليه و آله فقالوا : إن الله لما خلق آدم و أمر الملائكة بالسجود له ، كنا نحن أحق بالسجود لآدم من الملائكة ، ففاتنا ذلك فصورنا صورته فسجدنا لها تقربا إلى الله كما تقربت الملائكة بالسجود لآدم إلى الله ، و كما أمرتم بالسجود بزعمكم إلى جهة مكة ،

فعلتم ثم نصبتم في غير ذلك البلد بأيديكم محاريب سجدتم إليها ، و قصدتم الكعبة لا محاريبكم ، و قصدكم بالكعبة إلى الله تعالى لا إليها . . . فقال النبي صلى الله عليه و آله لهم : إن الله عز و جل حيث أمر بالسجود لآدم لم يأمر بالسجود لصورته التي هي غيره ، فليس لكم أن تقيسوا ذلك عليه ، لأنكم لا تدرون

لعلّه يكره ما تفعلون إذ لم يأمركم به . ثمّ قال لهم رسول الله صلّى الله عليه و آله : أرأيتم لو أذن لكم رجل دخول داره يوماً بعينه ، ألكم أن تدخلوها بعد ذلك بغير أمره ، أو لكم أن تدخلوا داراً أخرى له مثلها بغير أمره . . . ١ « فأعطاه الله النظرة » أي : المهلة .

« استحقاقاً للسّخطة » أي : لغضبه تعالى عليه ، قال تعالى : و لا يحسبنّ الذين كفروا إنّما نملي لهم خير لأنفسهم إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً و لهم عذاب مهين ٢ .

« و استتماماً للبلية » أي : تكميلاً لابتنائه و امتحانه ، فإنّه و إن كان قبل خلق آدم يعبد الله بعبادات كثيرة ، لكن باطنه كان خبيثاً ، فأنكشف بخلق آدم و الأمر بالسّجود له .

« و انجازاً » أي : قضاء .

« للعدة » أي : لوعده تعالى .

(١) تفسير العسكري : ٢٤٨ ، و الاحتجاج للطبرسي : ٢٦ .

(٢) آل عمران : ١٧٨ .

الصفحة ٦٠١

« فقال : إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم » و في سورة الحجر ،

و سورة (ص) : قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ١ .

« ثمّ أسكن سبحانه آدم داراً » أي : الجنة .

« أرغد » أي : أوسع و طيّب .

« فيها عيشته » و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما . . . ٢ .

« و آمن فيها محلّته » أي : حلولة إنّ لك ألاّ تجوع فيها و لا تعرى . و أنّك لا تظمأ فيها و لا تضحى ٣ .

« و حذرّه إبليس و عداوته » فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوّ لك و لزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ٤ .

« فَاغْتَرَّهٗ عَدُوُّهُ » فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ٥ .

« نَفَاسَةٌ » أَي : حَسَدًا .

« عَلَيْهِ بَدَارُ الْمَقَامِ » الَّتِي لَا ارْتِحَالَ مِنْهَا فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ٦ .

« وَ مِرَافِقَةُ الْأَبْرَارِ » أَي : الْمَلَائِكَةُ .

« فَبَاعَ الْيَقِينَ » بِنَهْيِهِ عَنِ أَكْلِ الشَّجَرَةِ .

« بِشَكِّهِ » الْحَادِثُ مِنْ وَسْوَسَةِ إِبْلِيسَ ، قَالَ تَعَالَى : فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ

(١) الْحَجْرُ : ٣٧ ٣٨ ، وَ ص : ٨٠ ٨١ .

(٢) الْبَقْرَةُ : ٣٥ .

(٣) طه : ١١٨ ١١٩ .

(٤) طه : ١١٧ .

(٥) الْأَعْرَافُ : ٢٢ .

(٦) الْبَقْرَةُ : ٣٦ .

الصفحة ٦٠٢

الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مَلِكٌ لَا يُبْلَى ١ .

« وَ الْعَزِيمَةُ بُوْهْنَةٌ » وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عِزْمًا ٢ .

« وَ اسْتَبْدَلَ بِالْجَذْلِ » بِفَتْحَتَيْنِ ، أَي : بِالْفَرْحِ .

« وَجَلًا » أَي : خَوْفًا .

« وَ بِالْإِغْتِرَارِ » الْحَاصِلُ لَهُ مِنْ قَوْلِ إِبْلِيسَ ، كَمَا مَرَّ فِي كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ فِي الْآيَةِ ، وَ قَوْلِ الْخَوَئِي :

« وَ بِالْإِعْتِرَازِ » بِالْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَ الْمَعْجَمَتَيْنِ ٣ بِلَا رِبْطِ .

« نَدَمًا » فَعَاقِبَةُ الْإِغْتِرَارِ النَّدَمِ .

« ثمّ بسط الله سبحانه له في توبته » ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه و هدي ٤ .

« و لقاها كلمة رحمة » فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه إنّهُ هو التوّاب الرّحيم ٥ .

« و وعده المرّد إلى جنّته » بعد البعث .

« و أهبطه » هكذا في (المصرية) ، و الصواب : (فأهبطه) كما في (ابن أبي الحديد ، و الخطية) ٦ .

« إلى دار البلية » أي : الدنيا ، و قد قال عليه السّلام في وصفها « دار بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة » .

(١) طه : ١٢٠ .

(٢) طه : ١١٥ .

(٣) شرح الخوئي ١ : ١٧٦ .

(٤) طه : ١٢٢ .

(٥) البقرة : ٣٧ .

(٦) في شرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٣ ، و كذا في شرح ابن ميثم ١ : ١٧٠ (الواو) أيضا .

الصفحة ٦٠٣

قال تعالى في إهباطه : و قال اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ و لكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين ١ .

ثمّ ظاهر كلامه عليه السّلام هنا و في الآتي أنّ إهباطه كان بعد توبته ، و هو ظاهر قوله تعالى في سورة طه ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه و هدي ٢ ، قال : اهبطا منها جميعا . . . ٣ ، و لكن في سورة البقرة . . . و قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ و لكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين . فتلقّى آدم من ربّه كلمات فتاب عليه . . . ٤ ، و يمكن الجمع بأنّ توبته كانت فوراً بعد عتاب الله تعالى له . قال سبحانه : . . . و ناداهما ربّهما ألم أنّهما عن تلكما الشجرة و أقلّ لكما إنّ الشيطان لكما عدوّ مبين . قالوا ربّنا ظلّمنا أنفسنا و إنّ لم تغفر لنا و ترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ٥ و إنّما قبول توبته كان بعد الإهباط .

و في (اثبات الوصية) : ثم أمر الله تعالى الملائكة بإخراجه فأخذوا بيده ليخرجه ، فقال : اللهم بحق محمد و علي و الحسن و الحسين تب علي . فأوحى الله إليه : اهبط إلى الأرض حتى أتوب إليك ٦ .

و فيه : و قد هبط آدم على الصفا و حواء على المروة ، فاشتق للجبلين هذان الاسمان ٧ . و كان مكثه في الجنة في ما روي سبع ساعات (من ساعات) الدنيا ، روي أنه دخلها قبل زوال الشمس و خرج قبل أن تغيب ٨ .

« و تتاسل الذرية » . . . خلقكم من نفس واحدة و خلق منها زوجها و بثّ

(١) الأعراف : ٢٤ .

(٢) طه : ١٢٢ .

(٣) طه : ١٢٣ .

(٤) البقرة : ٣٦ ٣٧ .

(٥) الأعراف ٢٢ ٢٣ .

(٦) إثبات الوصية للمسعودي : ١١ و ١١٢ .

(٧) إثبات الوصية للمسعودي : ١١ و ١١٢ .

(٨) إثبات الوصية للمسعودي : ١١ و ١١٢ .

الصفحة ٦٠٤

منهما رجالا كثيرا و نساء . . . ١ ، يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر و أنثى و جعلناكم شعوبا و قبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ٢ .

و روى (العلل) عن الصادق عليه السلام أن آدم ولد له سبعون بطنا ، في كل بطن غلام و جارية إلى أن قتل هابيل ، فلما قتل قابيل هابيل جزع آدم عليه السلام على هابيل جزعا قطعه عن إتيان النساء ، فبقي لا يستطيع أن يغشى حواء خمسمائة عام ،

ثم تخلى ما به من الجزع عليه ، فغشى حواء ، فوهب الله له شيئا وحده ليس معه ثان ، و اسم شيث هبة الله ، و هو أول من أوصى إليه من الآدميين في الأرض . ثم ولد له من بعد شيث يافث ليس معه ثان ، فلما أدركا و أراد تعالى أن يبلغ بالنسل ما ترون و أن يكون ما قد جرى به القلم من تحريم ما حرم الله تعالى من الأخوات على الاخوة ، أنزل بعد العصر في يوم الخميس حوراء من الجنة اسمها : نزلة ، فأمر

اللَّهِ تَعَالَى آدَمَ أَنْ يَزُوِّجَهَا مِنْ شَيْثٍ ، فزَوَّجَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ أَنْزَلَ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنَ الْغَدِ حَوْرَاءَ مِنَ الْجَنَّةِ اسْمَهَا : مَنْزِلَةٌ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ أَنْ يَزُوِّجَهَا مِنْ يَافِثٍ فزَوَّجَهَا مِنْهُ ، فوُلِدَ لِشَيْثٍ غَلامٌ وَوُلِدَتْ لِيَافِثٍ جَارِيَةٌ ، فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى آدَمَ حِينَ أُدْرِكَ أَنْ يَزُوِّجَ بِنْتِ يَافِثٍ مِنْ ابْنِ شَيْثٍ ، فَفَعَلَ ، فوُلِدَ الصَّفْوَةُ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الْمُرْسَلِينَ مِنْ نَسْلِهِمَا ، وَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى مَا قَالُوا مِنَ الْإِخْوَةِ وَ الْأَخْوَاتِ ٣ .

وَ الْخَيْرُ خَبَرُ ابْنِ مِقَاتِلٍ عَمَّنْ سَمِعَ زُرَّارَةَ ، وَ رَوَاهُ (الْفَقِيه) مُخْتَصِرًا ٤ ،

وَ تَوَهَّمَ الْخَوْثِيُّ أَنَّهُ خَبَرَ مَسْمَعًا فَحَرَّفَ « عَمَّنْ سَمِعَ » بِقَوْلِهِ : « عَنْ مَسْمَعٍ » ، كَمَا

(١) النِّسَاءُ : ١ .

(٢) الْحِجْرَاتُ : ١٣ .

(٣) عِلَلُ الشَّرَائِعِ لِلصَّدُوقِ : ١٩ ح ٢ ، وَ قِصَصُ الْأَنْبِيَاءِ لِلرَّوَنْدِيِّ ، وَ عَنْهُ الْبَحَارُ ١١ : ٢٦٢ ح ١١ ، فِي ذِيْلِ حَدِيثٍ .

(٤) أَخْرَجَهُ الصَّدُوقُ فِي الْفَقِيهِ ٢ : ٢٤٠ ح ٤ .

الصفحة ٦٠٥

تَوَهَّمَ أَنْ مَا فِي (الْفَقِيهِ) غَيْرَ مَا فِي (الْعِلَلِ) ١ .

٢

مِنَ الْخُطْبَةِ (٨٩) فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ وَ أَنْفَذَ أَمْرَهُ اخْتَارَ ؟ آدَمَ ع ؟ خَيْرَةَ مِنْ خَلْقِهِ وَ جَعَلَهُ أَوَّلَ جِبَلْتِهِ وَ أَسْكَنَهُ جَنَّتَهُ وَ أَرْغَدَ فِيهَا أَكْلَهُ وَ أَوْعَزَ إِلَيْهِ فِيمَا نَهَاهُ عَنْهُ وَ أَعْلَمَهُ أَنَّ فِي الْأَقْدَامِ عَلَيْهِ التَّعَرُّضَ لِمَعْصِيَتِهِ وَ الْمَخَاطِرَةَ بِمَنْزِلَتِهِ فَأَقْدَمَ عَلَى مَا نَهَاهُ عَنْهُ مَوْافَاةً لِسَابِقِ عِلْمِهِ فَأَهْبَطَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ لِيَعْمُرَ أَرْضَهُ بِنَسْلِهِ وَ لِيُقِيمَ الْحُجَّةَ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ « فَلَمَّا مَهَّدَ أَرْضَهُ » وَ الْأَرْضُ فَرَشْنَاهَا فَنَعَمَ الْمَاهِدُونَ ٢ .

« وَ أَنْفَذَ أَمْرَهُ » فِيهَا بِمَا أَرَادَ مِنَ الْجِبَالِ وَ الْبَحَارِ وَ غَيْرِهِمَا .

« اخْتَارَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَيْرَةَ مِنْ خَلْقِهِ » وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً . . . فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٣ .

« و جعله أول جبلته » أي : خليقته من البشر يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . . . ٤

« و أسكنه جنّته و أرغد » أي : أوسع .

« فيها أكله » و قلنا يا آدم اسكن أنت و زوجك الجنة و كلا منها رغدا حيث شئتما . . . ٥

(١) شرح الخوئي ١ : ١٧٨ ١٧٩ .

(٢) الذاريات : ٤٨ .

(٣) البقرة : ٣٠ ٣٣ .

(٤) النساء : ١ .

(٥) البقرة : ٣٥ .

الصفحة ٦٠٦

« و أوعز » أي : تقدّم .

« إليه في ما نهاه عنه » في قوله تعالى لهما : . . . و لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ١ .

« و أعلمه أنّ في الإقدام عليه » أي : على ما نهاه عنه .

« التعرّض لمعصيته » . . . و عصى آدم ربّه فغوى ٢ .

« و المخاطرة بمنزلته » . . . إنّ هذا عدوّ لك و لزوجك فلا يخرجكما من الجنة فتشقى ٣ .

« فأقدم على ما نهاه عنه » فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما و طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . . . ٤

« موافاة لسابق علمه » يمكن أن يكون مفعولا مطلقا لقوله « فأقدم » ،

و الأصل (اقداما موافاة) ، و أن يكون مفعولا له ، من باب فالنقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا و حزنا .

. . . ٥ لسابق علمه بجعله في الأرض خليفة له .

« فأهبطه بعد التوبة » مرّ في سابقه أنّ نفس توبة آدم كانت قبل الهبوط ،

و إنّما وعد القبول كان بعده ثمّ اجتباه ربّه فتاب عليه و هدى ٦ .

« ليعمر أرضه بنسله » و في خبر عن الصادق عليه السّلام ما معناه : أنّ ملكا زار آدم بعد هبوطه ، فلمّا رأى قلقه سلّاه ثلاثا بأن قال له : إنّ الله تعالى قال لنا فيك :

أنّي جاعل في الأرض خليفة . . . ٧ ، فهو خلقك لأن تكون في الأرض

(١) البقرة : ٣٥ .

(٢) طه : ١٢١ .

(٣) طه : ١١٧ .

(٤) طه : ١٢١ .

(٥) القصص : ٨ .

(٦) طه : ١٢٢ .

(٧) البقرة : ٣٠ .

الصفحة ٦٠٧

أيستقيم أن تكون في السماء ١ ؟ « و ليقم الحجّة به على عباده » و في الخبر : إنّ الحجّة قبل الخلق و مع الخلق و بعد الخلق ٢ ، و لو لم يبق في الأرض إلّا رجلان لوجب أن يكون أحدهما الحجّة ٣ .

هذا ، و اشتهر إجماع الإمامية على عدم جواز صدور معصية و لو صغيرة من الأنبياء و لو قبل نبوتهم ٤ ، لكن قال شيخنا المفيد في (مقالاته) : إنّ الصغيرة لا يجوز منهم مع الاستخفاف مطلقا ، و أمّا بدونه فجاز وقوعه منهم قبل النبوة و على غير التعمّد ٥ .

و ما قاله الصواب و عليه يحمل أكل آدم من الشجرة ، فإنّه لم يكن عن تعمد ، لقوله تعالى : . . . فأنسى و لم نجد له عذما ٦ .

و في خبر الهرويّ عن الرضا عليه السّلام : أمّا قوله تعالى في آدم : . . . و عصى آدم ربّه فغوى ٧ فإنّ الله عزّ و جلّ خلق آدم حجّة في أرضه و خليفة في بلاده لم يخلقه للجنة ، و كانت المعصية من آدم في الجنة لا في الأرض ، و عصمته

- (١) تفسير العياشي ١ : ٣٢ ح ١٠ .
- (٢) الكافي للكليني ١ : ١٧٧ ح ٤ ، و كمال الدين للصدوق : ٤ ، و بصائر الدرجات للصفار : ٥٠٧ ح ١ عن الصادق عليه السلام .
- (٣) أخرج هذا المعنى الكليني بخمس طرق في الكافي ١ : ١٧٩ ١٨٠ ح ١ ٥ ، و الصفار بأربع طرق في البصائر : ٥٠٧ ٥٠٨ ح ٢ ٤ ، و الصدوق بثلاث طرق في كمال الدين : ٢٠٣ ح ١٠ ، و : ٢٣٠ ح ٣٠ ، و : ٢٣٢ ح ٣٨ ، و بطريقين في علل الشرائع : ١٩٦ ١٩٧ ح ٦ و ١٠ ، و والده بطريقين في الامامة و التبصرة : ٢٨ ح ٩ و : ٣٠ ح ١٣ ، و النعماني بست طرق في الغيبة : ٩٠ ٩١ و غيرهم .
- (٤) يظهر إجماع الإمامية من عبارة الصدوق في الاعتقادات : ٣٧ ، و المرتضى في تنزيه الأنبياء : ٢ ، و العلامة الحلي في كشف المراد : ٢٧٤ و غيرهم ، لكن صرح المفيد في أوائل المقالات : ٦٩ ، و الطوسي في تمهيد الاصول : ٣٢١ بأن بعض الإمامية فرقوا بين حال النبوة و قبلها .
- (٥) أوائل المقالات : ٦٨ ، و النقل بالمعنى .
- (٦) طه : ١١٥ .
- (٧) طه : ١٢١ .

الصفحة ٦٠٨

تجب أن تكون في الأرض ليتمّ مقادير أمر الله عزّ و جلّ ، فلمّا أهبط إلى الأرض و جعل حجّة و خليفة ، عصم بقوله عزّ و جلّ : إنّ الله اصطفى آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين ١ .

و مثله خبر ابن الجهم ، عنه عليه السلام مع زيادة : إنّ إبليس ألبس عليهما بأنّ المراد بهذه الشجرة في خطابه تعالى الشخص لا الجنس ، و حلف لهما ، و ما ظنّ آدم أنّ أحدا يحلف بالله كاذبا ٢ .

- (١) حديث الهروي طويل جاء في عيون الأخبار للصدوق ١ : ١٥٣ ح ١ ، و أماليه : ٨٢ ح ٣ المجلس ٣٠ ، و الآية ٣٣ من سورة آل عمران .
- (٢) حديث ابن الجهم طويل جاء في عيون الأخبار ١ : ١٥٥ ح ١ ، و النقل بالمعنى .